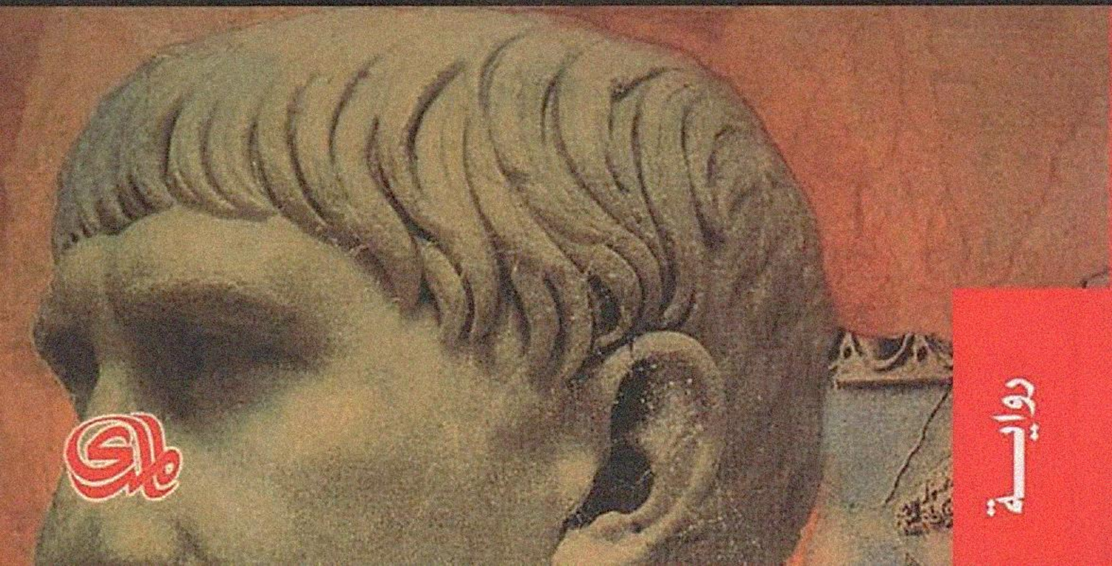
غور فيدال

جوليان

ترجمة: أسامة منزلجي



رواية

المــــــؤلــــــف : غور فيدال
عنوان الكتـــاب : جوليان
المتــــــــرجم : أسامة منزلجي
النــاشــــــــر : دار المدى للثقافة والنشر
الطبـعـة الأولى : ٢٠٠٨
الحقوق العربية محفوظة

Author:Gore Vidal
Title:Julian
Translator:Ossama Manzalji
Al- Mada P.C.
First Edition : 2008
Arabic Copyright © Al- Mada

دار المدى للثقافة والنشر

سورية- دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ أو٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com

غور فيدال

جوليان

ترجمة: أسامة منزلجي

مقدّمة المؤلّف

بين رفوف مكتبة الأكاديميّة الأميركية المتراصّة القائمة فوقَ تل جانيكولوم المُطلّة على مدينة روما، قابلتُ وجهاً لوجه م.ي.فنلي، الذي كان لكتابه " عالم الأوديسة " تأثيرٌ عظيمٌ عليَّ، وعلى جيلَين من علماء الكلاسيكيات. كان أكاديميّاً أميركياً طُرِدَ من وطنه الأم في حقبة الخمسينيات حين كانت روح تيتوس أوتس[1] مُهيمنة. ثم استقرَّ في إنكلترا؛ وأصبحَ مرجِعاً رئيسياً في العالم الإغريقي في القرن الخامس قبل الميلاد. وتبادلنا التقريظ المُهذَّب. كان قد أُعجِبَ بروايتي " جوليان " وقلتُ له إنني في روايتي " خلق " استعرتُ منه بلا رحمة. وسألتُه عن أحد زملائه كان قد كتبَ عن زرادشت، فهل يُعتَمَدُ عليه؟ " إنه الأفضلُ في هذا المجال "، وتحرَّكَ طقمُ أسنانِ فنلي في فمه وهو يقول هذا. " طبعاً لقد اختَلَقَ مُعظَمَه، كما نفعلُ جميعاً "

والآن، كما يعلمُ كلُ أبله، إنَّ الرواية التاريخية لا هي تاريخٌ ولا هي رواية. فالتاريخ يعني حواشيَ واستشهادات دقيقة من آخرين راسخين في المجال، في حين أنَّ الرواية " الجادَّة " تدورُ حولَ الحياةِ اليوميّة للّذين يمدّون المدارسَ بالعلم ويمارسون الزنى؛ وإذا كانوا من الأكاديميين الإنكليز فإنهم يتوجَّهونَ إلى أميركا أو زائير ويتعرَّضون لصدمةٍ ثقافيّةٍ هزليّة. والغريب أنَّ المخيّلةَ لا تَلقَى كثيراً من الاستحسان في رواياتِ هذه الأيام على الرغم من أنَّ شروحَ النظرية الأدبيّة عبر الإيماءات والإشارات قابلة إلى أقصى حد للتدريس، إذا لم نقُل للقراءة.

كان خط الأدب التخيُّلي الرئيسي حتى القرن الماضي[2] يتمثَّلُ دائماً في قصص الآلهة، والأبطال، والملوك الذين يتوافدون على شعبٍ ما. ومن أسخيلوس إلى دانتي مروراً بشكسبير وتولستوي كان ما يجري في القصور أو على قمةِ جبلِ أولمبوس يُحدِّدُ المسارَ الرئيسيَّ للسرد الشِعري، والنثريّ، والدرامي. وأعتقدُ أنَّ من المؤسِف، كما تقولُ

إحدى شخصيات رواية شاؤول بيلو[3] " هرتزوق "، أنه في نحو عام ١٨٤٠ سَقَطَتْ الروايةُ في اليوميّ، وبهذا الشأن يتساءلُ البروفسور هرتزوق بهياجٍ : فأينَ كانت تقفُ قبل أنْ تسقط؟ والجواب كان موجوداً في الأسطورةَ أو التاريخ أو في أي نوعٍ من السرد وُجِدَ قبلنا.

على الرغم من أني شخصياً لا آبه بالروايات التاريخية بحدٍّ ذاتها (إنني مُلزَمٌ بقراءةِ التاريخ لكي أكتبَ قصصاً تقعُ أحداثها في الماضي)، إلاّ أنَّ ما جذَبَني إلى تأليف كتابي " بحثاً عن ملك " أنها بدَتْ لي قصّةَ حبٍ تتّسِمُ بسحرٍ طاغٍ. وقد جعلتُ عن قصد إعادةَ خلقي لحكاية بلونديل وريتشارد قلب الأسد أقربَ إلى القصيدة الغنائيّة منها إلى التاريخ. ومن ناحيةٍ أخرى، استغرقَت كتابة " جوليان " سنوات عديدة ووصفي لكيفيّةِ اختراع، بمعنى من المعاني، المسيحية بسلسلةٍ من المجامع الكنسيّة في القرن الرابع الميلادي كان قائماً على أساس دراسةٍ شاملة للمنبع الأوليّ. وبما أني لم أكن يوماً متحمّساً للتوحيد، كان الإمبراطور المرتدّ هو البطل الروائي المثالي. وقد دُهِشَ ناشري لرواج الكتاب وبقائه يُقرَأ بمُعظَم اللغات. ببساطة: إنَّ ما أثارَ اهتمامَ الناس ليسَ فقط جوليان بل عصره أيضاً. وفي الوقت المناسِب، تلقَّتْ جائزةً أدبيّة لا أحدَ في العالم يعلمُ عنها أي شيء، والأعلى قيمةً بالنسبةِ إليّ، هي الجائزة الدولية للاتحاد الثقافي اليوناني، مَنَحَتها " مُدُن ماغنا غريسيا[4] ". ولكن مع ذلك طبعاً أنا أعيشُ في ماغنا غريسيا.

مع رواية " خلق " عدتُ إلى فترةِ فنلي. هي تحكي عن رجلٍ لو أنه عاشَ حتى بلغَ سنَ الخامسة والسبعين لعرفَ سقراط، وزرادشت وبوذا وكونفوشيوس. من غير المعقول أنْ يكونَ أحدٌ قد فعلَ هذا - فالصين كانت ما تزالُ بعيدةً كُلَّ البُعد عن طريق الحرير الذي لم يُسلَك بعد. لكني اختلَقتُ تلك الشخصية، حفيد فارسيّ لزرادشت (مع إغفال التواريخ، على الأقل). بحيث أرسلَ الملكُ العظيمُ داريوس سايروس سبيتاما في مهمّةٍ، ولاحقاً بأمرٍ من وريثه زيركسس. إذا كانت تلك الرواية أيَّ شيءٍ فهي أشبه بمضمار تصادُم بين دينٍ نسبيّ وأنظمة أخلاقية؛ كذلك كانت نِسَب الفائدة بالنسبة إلى أصحاب العقول الجادّة حقاً، تجري بنسبةٍ مئوية تاتشيرية[5] تبلغ ٢٠٪ في المجتمعات الأربعة - اليونانية، والفارسية، والهندية، والصينية - على الرغم من غياب أجهزة الفاكس أو، في الواقع، أي وسيلةِ اتّصال منتظمة بين الأطراف الأربعة.

لقد كرِه الناشرُ الأميركي هذا الكتاب إلى درجةِ أنه تعرَّضَ للإعاقة داخل دار النشر؛ ثم، وأمام ذهول الجميع، حقَّقَ أفضلَ المبيعات. وقد قيلَ لي إنه في بكين حَظيَ بإعجابِ الجميع على الرغم من أنه لم يُترجَم أبداً بسبب تبدُّل وجهة نظر الحزب من كونفوشيوس.

لماذا نؤلِّفُ روايةً تاريخيّة بدلَ أن نقرأ التاريخ؟ لأنه عند التعامُل مع فتراتٍ زمنيّةٍ سحيقةٍ في القِدَم، سوفَ يعمدُ الكاتبُ إلى اختلاقِ كثيرٍ في كل الأحوال، كما اعترفَ فنلي بشكلٍ مبهجٍ. كذلك إنه من دون استخدام المُخيِّلة التاريخية؛ حتى التاريخ التقليدي لا قيمةَ له. وأخيراً، هناك إثارة حين يبدأ أسلوب جديد بالظهور. ورواية " خلق " هي الكتاب المفضَّل عند نعوم تشومسكي، الذي تُظهِرُ دراساته في فِقه اللغة أنَّ اللغَةَ فطريةٌ بالنسبةِ إلى العقل الإنساني وأنَّ كلَ طفلٍ يولَدُ مع استعدادٍ لتعلُّم لغةً بنسبةٍ محسوبة معيَّنةٍ. وقد لاحظَ تشومسكي اكتشافي المدهش بأنَّ أربعةَ مجتمعاتٍ أُميّةٍ منفصلةٍ، وُجِدَتْ في زمنٍ واحدٍ بشكلٍ أو بآخر، تخلَّتْ عن نظامها الشَفَوي القديم في التواصل لصالح تدوين كل شيء كتابةً.

من هذا التفصيل الوحيد، لاحظتُ - كما فعلَ تشومسكي - أنه يمكنُ أيضاً أنْ يكونَ الجنسُ البشري قد بُرمِجَ، كالطفل الوليد، وأنَّ السلالةَ البشريةَ تنتقلُ من مرحلةٍ إلى أخرى كما ينتقلُ المرءُ من الطفولةِ إلى البلوغ إلى النضج إلى التوالُد ثم إلى الموت، ويبرزُ سؤالٌ يبثُّ القشعريرةَ : وأين نحنُ الآن؟ أفي منتصف العمر أم الشيخوخة أم - ماذا؟ هل من درسٍ نتعلّمه اليوم من التاريخ؟ كلا. اليوم هو التاريخ، أيضاً، وهذا ما يجعل تفحصّه أمراً مُثيراً جداً.

غور فيدال

رافيللو - ١٩٩٣

جانبٌ من مراجع المؤلِّف

- جوليان : " أعمال الإمبراطور "
- أميانوس مارتشيلّلينوس : " التاريخ "
- ليبانيوس، " الخُطب " : " في مديح إنطاكية "، " إلى جوليان "، " في رثاء جوليان "، " نعي جوليان "، " انتقاماً لجوليان "، الخ.
- غريغوري ناظيانزن : " خطاب مناهض لجوليان "
- سوزومن : " التاريخ الكنسي "
- سقراط : " التاريخ الكنسي "
- ثيودوريت : " تاريخ الكنيسة "
- يونابيوس : " حياة الفلاسفة "
- بوسانياس : " وصف اليونان "
- إدوارد غيبن : " انحدار وسقوط الإمبراطورية الرومانية "
- جاكوب بركهارت : " عصر قسطنطين الأكبر "
- ر.أ.باك : "دراسات حول ليبانيوس والمجتمع الإنطاكي في ظل حكم ثودوسيوس"
- ت.ر. غلوفر : " الحياة وصناعة الأدب في القرن الرابع "
- ج. بيديه : " حياة الإمبراطور جوليان "
- ج.ب. بري : " تاريخ أواخر الإمبراطورية الرومانية "
- فرانتز كومون : " ألغاز ميثرا "
- نورمن بينز : " السنوات الأولى من حياة جوليان المرتدّ " من " دراسات هيللينية يومية "، المجلّد ٤٥، الصفحات ٢٥١ - ٢٥٤ .
- ج. إ. ميلوناس : " إليوسيس والألغاز الإليوسيسية "

- م.ج. فيرماسرن : " ميثرا، الإلهةَ السريّة "
- غلانفل داوني : " إنطاكية القديمة "
- غلانفل داوني : " إنطاكية في عصر ثيودوسيوس الأكبر "
- ستبلتن هـ. نَلّ : " جوليان يُبعَثُ حياً "، من " المجلّة السنوية " المجلّد الخامس، عدد ٣، الصيف.

ملاحظة

أشار روبرت غريفز[٦]، لدى نشره الجزء الثاني " أنا، كلاوديوس " من ثنائيّته[٧]، في مقدِّمة تتَّسِمُ بشيءٍ من التوتُّر، أنه يبدو أنَّ العديدَ من النقَّاد يعتقدون أنه ببساطة نَسَجَ لنفسه روايةً من ثرثرة سويتينيوس[٨]، وبدا لهم أنَّ هذا أمرٌ سهلٌ جداً. في "كلاوديوس الإله"، يردُّ غريفز على ذلك بإيراد لائحةٍ من المراجع، تحتوي تقريباً على كلّ نصٍ ذي صلة باقٍ من العالم القديم. ولسوء الحظ أني لم أقرأ أبداً مثل ذلك القدر. ولكي أستبِقَ مَنْ يمكنُ أنْ يعتقد أنَّ المصدرَ الوحيدَ للكاتب هو تاريخ أميانوس مارتشيللينوس[٩] (أو حتى إدوارد غيبن)، أضفتُ في نهاية الكتاب جزءاً من المراجع[١٠].

إنَّ حياة الإمبراطور جوليان موثَّقة توثيقاً ممتازاً. وقد بقيَتْ ثلاثة مجلّدات من رسائله ومقالاته، في حين أنَّ معارف له مثل ليبانيوس والقديس غريغوري ناظيانزوس كتبوا وصفاً حيّاً له. وعلى الرغم من أني ألّفتُ روايةً، وليسَ تاريخاً، فقد حاولتُ أن ألتزمَ بالوقائع، إلاَّ أني كنتُ أحياناً أبعثرُ الأشياء. فمثلاً، من غير المعقول أنْ يكونَ بريسكوس قد انضمَّ إلى جوليان في بلاد الغال، ولكن من المفيد للرواية أنْ أضعه هناك.

كان جوليان دائماً أشبه ببطلٍ سرّي في أوروبا. محاولته لإيقاف المدّ المسيحي وإحياء المذهب الهلليني كان لها جاذبية رومانسيّة، وهو يظهرُ فجأةً في أماكن غريبة، خاصةً خلال عصر النهضة ومرةً أخرى في القرن التاسع عشر. وكاتبان مختلفان تماماً مثل لورينزو ده ميديتشي وهنريك إبسن كَتَبا مسرحيات عنه. ولكن بعيداً عمّا تمثّله حياة جوليان من طابع المغامرة الفريدة، فإنَّ ما لا يني يفتنني هو القرن الرابع نفسه. وخلال خمسين سنةً التي تفصل بين تبوّء عم جوليان قسطنطين الأكبر سدَّة العرش ووفاة جوليان وهو في سن الثانية والثلاثين، ترسّخَتْ المسيحية. ونحن اليومَ نُعتَبَرُ نتيجةً لِما كانوه حينئذٍ، للأحسن أو للأسوأ.

عند ذِكري لأسماء المدن وضعتُ التسميةَ الحديثة وليس القديمة (مثل ميلانو، وليس مديولانوم)، اللهم إلا حين يكونُ الاسمُ الأصليُ مألوفاً أكثر لدينا (مثل إفسوس، وليس سُلجُق). والتواريخ وضعتُها على طريقتنا، أي ميلادي، وقبل الميلاد. ولمّا كان بلاطُ جوليان عسكريَّ الطابع استخدمْتُ طريقة جيشنا الخاص في التاريخ، أي ٣ تشرين أول ٣٦٣. أما العملة فكان أمرها محيِّراً. إذ لا أحدَ متأكداً بدقّة كيف كانت القوة الشرائيّة للنقود في القرن الرابع. ولكن لعلَّ قطعةَ الصوليدوس الذهبية كانت تساوي نحو خمسة دولارات. جوليان وبريسكوس وليبانيوس، الرُواةُ الثلاثة لهذه القصة، كانوا يكتبون باليونانية. أما لغتهم اللاتينية فكانت رديئة، كما يسرعون إلى تذكيرنا بذلك، لكنهم أحياناً يستخدمون تعبيرات لاتينية، تماماً كما نفعلُ نحن. ولأولئك الذين سيفتّشون عَبَثاً عن كلمات جوليان الأخيرة " لقد انتصرتَ عليَّ أيها الجليليّ! " أقولُ إنه لم يقُل هذا أبداً. ويستحقُ ثيودوريت[11] الثناء على تلك البلاغة المنمّقة الرائعة التي أُلِّفَتْ قبل موت جوليان بقرنٍ من الزمان.

أودُّ أنْ أشكرَ الأكاديمية الأميركية في روما ومدرسة الدراسات الكلاسيكية الأميركية في أثينا على سماحهما لي بالاستعانة بمكتباتهما.

الشـــباب

-١-

من ليبانيوس إلى بريسكوس إنطاكية، آذار، ٣٨٠ م

في صباح يوم أمس بينما كنتُ أهمُّ بولوج قاعة المحاضرات، استوقفني طالبٌ مسيحيّ وسألني بصوتٍ متلهِّف خبيث، " هل سمعتَ الإمبراطور ثيودوسيوس؟ " تنحنحَتْ استعداداً لتقصّي طبيعة سؤاله، لكنه كان أسرع مني. " لقد عُمِّدَ مسيحياً "

التبستُ. في هذه الأيام، لا أحدَ يدري مَنْ هو العميلُ السرّي. أيضاً، لم أُدهَش كثيراً لسماع الخبر. فحين وقعَ ثيودوسيوس في فراش المرض في الشتاء الفائت وتهافَتَ الأساقفةُ كالصقور ليصلّوا عليه، أدركتُ أنه إذا ما برأ من مرضه فسوفَ ينسبون الفضلَ كلّه إلى أنفسهم في إنقاذه. وشُفيَ. وها قد أصبحَ لدينا إمبراطور مسيحي في الشرق، ليتكافأ مع غراتيان، إمبراطورنا المسيحي في الغرب. كان ذلك أمراً محتوماً.

استدرتُ لألج المكان لكنَّ الشاب لم يكن قد انتهى من أداء مهمّته المسلّية، "ثيودوسيوس أصدرَ أيضاً مرسوماً. تُليَ للتو أمام مجلس الشيوخ. أنا سمعته. ألم تسمعه؟ "

" كلا. لكني دائماً استمتع بسماع النثر الإمبراطوري "، قلتُ هذا بكل أدب.

"ربما لن تستمتع بهذا. لقد أعلنَ الإمبراطور مُهرطِقاً كلَّ مَنْ لا يعتنق عقيدة نيّقا"

" أخشى أنَّ اللاهوت المسيحي ليس موضوعي المفضَّل. والمرسوم لا ينطبق علينا نحن معشر الذين لا نزال مُخلصين للفلسفة "

" بل ينطبق على الجميع في الشرق ". قالها ببطء، وهو يراقبني طوال الوقت. "بل إنَّ الإمبراطور عيَّنَ مُحقِّقاً ليُحدِّد عقيدة كل إنسان. إنَّ أيام التسامُح الديني انتهت"

انعقَدَ لساني، وبَهَرَتْ أشعة الشمس عينيّ، واختلطَتْ الأشياء وتساءلت إنْ كنتُ أوشك أن أُصاب بالإغماء. أو حتى أنْ أموت. لكنَّ أصوات اثنين من زملائي أعادتني إلى رشدي. وفهِمت من طريقتهما في تحيَّتي أنهما هما أيضاً قد سمعا بأمر المرسوم وكانا تواّقين إلى معرفة ردَّة فعلي. لكني لم أشبع فضولهما.

قلت " طبعاً كنتُ أتوقَّعُ صدوره. لقد كتبتْ ليَ الإمبراطورة بوستوما في الأسبوع الفائت فقط لتقول لي إنَّ... "، وبدأتُ أختلقُ بكل حرّية. طبعاً لم أكن قد سمعتُ أيّ خبر من الإمبراطورة منذ بضعة أشهر، لكني رأيتُ أنه يجب تذكير العدو إلى أي مدى كنتُ أحظى برعاية غراتيان وبوستوما. مِنَ المُذلّ أن تُدفَع إلى حماية نفسك بهذه الطريقة، لكننا نعيش في أوقات عصبيّة.

لم أُلقِ محاضرات بالأمس، توجَّهتُ مباشرة إلى المنزل. بالمناسبة، أنا الآن أقطنُ في دلفي، وهي ضاحية فاتنة أُفضّلها على جو إنطاكية الراقي بسبب الهدوء. فمع تقدّمي في العمر أصبحتُ أجدُ أنَّ أقلّ صوت في الليل يزعجني، وحين أستيقظُ يصبحُ من الصعب عليّ أنْ أعودَ إلى النوم. يمكنك أنْ تتصورَّ كم أصبح منزلي القديم في المدينة لا يُحتَمَل. أنت تذكُر المنزل؛ هناك استقبلتُ الإمبراطور جوليان حين... لكني نسيت. أنتَ لم تكن موجوداً. لقد افتقدْناكَ كثيراً! إنَّ ذاكرتي تمارسُ معي خِدَعاً غريبةً هذه الأيام. والأسوأ من ذلك، أصبحتُ أُضيِّعُ الملاحظات التي أخطُّها على عَجَل لتقومَ بتذكيري، أو (وهذا اعترافُ فظيع!) حين أنجحُ في العثور عليها غالباً ما أعجزُ عن فهم خطّ يدي أنا. إنّ الشيخوخةَ لا تُبقي لنا أيَّ شيء، يا صديقي العزيز. إننا كالأشجار العتيقة، نموتُ بدْءاً من الرأس "

إنني نادراً ما أنزل إلى البلد، اللهمَّ إلاّ لألقي محاضرات بين حينٍ وآخر، إذْ على الرغم من أنَّ الناسَ هم شعبي، إلاّ أنهم يزعجونني بأصواتهم العالية وشجارهم المستمر، ولعبهم القمار وحسّيتهم. إنهم طائشون بصورةٍ ميؤوسٍ منها. الليالي أصبحت نهاراً بالأضواء المصطنعة، في حين أنَّ الرجالَ كلهم تقريباً الآن يستخدمون المواد المُزيلة للشعر، بحيث أصبحَ من الصعب التفريق بينهم وبين النساء... أكادُ لا أصدِّقُ أني ذات يوم مدَحتُ هذه المدينة! ولكن أعتقد أنَّ على الإنسان أن يكون متسامحاً، إذا تذكَّرنا أنَّ الإنطاكيين هم ضحايا مناخٍ شديد الحرارة والرطوبة يُفسِدُ الأخلاق، وقُرب قارّة آسيا

وطبعاً ذلك المُعتَقَد المسيحي الخبيث الذي يؤكِّد أنَّ رذاذاً من الماء (وهبة صغيرة) سوفَ يغسلان الإثمَ، مرة بعد مرة بعد مرّة.

والآن، يا صديقي العزيز، وبينما أنا جالس في غرفة مكتبي يُحيطُ بي أصدقاؤنا المنفيون (أقصد كتب الإغريق هذه التي شكّلَتْ عقل الإنسان)، دعني أخبركَ عن الأفكار التي وَرَدَتْ على خاطري في الليلة الفائتة - ليلة بلا نوم ليس فقط بسبب المرسوم ولكن لأنَّ قطَّتين عَمَدَتا إلى إحياء يأسي بضجيجِ شَبَقِهما (وحدهم المصريون جديرون بأنْ يعبدوا قطة). إنني مُكتئب اليوم لكني ذو تصميم. يجب أن نردَّ الصاعَ صاعَين. إنَّ ما يحدثُ لنا شخصياً ليس هاماً، ولكن ما يحدثُ لحضارتنا فقضيّةٌ تقضُّ المضاجع. خلال ليلِ أرَقٍ فكَّرتُ في التماساتٍ عدَّة يمكنُ أن تُقدَّم إلى إمبراطورنا الجديد. في حوزتي نسخةٌ من المرسوم موضوعةٌ أمامي وأنا أكتب. إنه مكتوبٌ بلغةٍ يونانيّةٍ بيروقراطيّة، أسلوب الأساقفة الرسمي الذين لا يُعادلُ فجاجةَ لغتهم إلاّ تشوُّش أفكارهم - وهي لا تشبه في شيء تلك اللحظات الشهيرة في المجلس - أين كان ذلك؟ أفي خلقيدونيا؟ - التي اعتدنا خلالها أن يقرأ كلٌّ منا للآخر بصوتٍ عالٍ بابتهاجٍ جمّ! أيامُ البال الخالي، لن تعود أبداً. إلاّ إذا تصرّفنا الآن.

إنني، يا بريسكوس، في السادسة والستين من العُمر، وأنتَ، كما أذكُر، أكبر مني سناً باثنتيْ عشرة سنة. لقد وصلنا إلى عُمرٍ يصبحُ الموتُ عندَه مُبتذلاً لا يخشى جانبه، خاصة بالنسبةِ إلينا، إذ أليسَتْ الفلسفةُ كلها استعداداً لاحتضارٍ هادئ؟ ألسنا من الفلاسفة الحقيقيين الذين ليس لديهم ما يخسرونه إلاّ ما سنتخلّى عنه في كل الأحوال في مسارنا الطبيعي، عاجلاً أكثر منه آجلاً؟ لقد انتابتني خلال السنوات الأخيرة نوباتٌ مَرَضيّةٌ عدَّة أفقدَتني الوعيَ وأصابتني بالوَهَن، وطبعاً كان هناك سعالي المُزمِن الذي يُفاقمه فصلُ الشتاء الرطب الذي يحلُّ في غير أوانه، ويُهدِّدُ بخنقي حتى الموت في أي وقت. إنني أيضاً أفقدُ بَصَري، وأعاني من أشدّ أنواع النقرس إيلاماً. لذا فلنحشد قوانا، إذ لا شيءَ لدينا نخسره، ونردَّ الصاعَ صاعَين للمسيحيين قبلَ أن يدمِّروا العالَمَ الذي أحببناه عن بكرةِ أبيه.

خطّتي على النحو التالي. قبل سبع عشرة سنة لدى عودتك من بلاد فارس أخبرتني بأنَّ صديقنا الحبيب وتلميذنا، الإمبراطور جوليان، كان قد دوَّن مذكرات

متناثرة استطعت أن تحتفظ بها عند وفاته. ولطالما فكَّرتُ في أنْ أكتب لكَ طالباً نسخة منها، ببساطة لكي أستنير بها. وقد أدركتُ عندها، كما أدركتَ أنتَ، أنَّ نشرَها أمرٌ مستحيل، على الرغم مما كان جوليان يحظى به من شعبيّة ولا يزالُ، إلاّ أنَّ الجهد الذي بَذلَه من أجل استعادة الآلهة الحقيقية أحبط. وفي ظل حُكم الإمبراطورَين فالنتاين وفالنس اضطُررنا إلى أَنْ نكونَ سياسيين وحذرَين لكي يُسمَحُ لنا بمواصلة مهنة التعليم. أما الآن وعلى ضوء هذا المرسوم الجديد، فأقولُ : انتهى عهدُ الحَذَر! لم يبقَ لنا ما نخسره غير جَسَدَين عجوزَين، في حين ينتظرنا مجدٌ سرمدي إذا نشرنا مذكَّرات جوليان، مُرفَقَةً بسيرةٍ مناسبة يكتبها أحدنا أو كلانا. طبعاً أنا أُفضِّل مَنْ يعرف منزلته الرفيعة، لكنَّكَ رافَقتُه إلى بلاد فارس وشهدتَ موته. لذا يمكننا نحنُ الاثنين، أنا مُعلمه وأنتَ مرافقه الفيلسوفَ، أنْ نُعيدَ الاعتبار إلى ذكراه ونُبيِّن بحُجَجٍ دقيقةٍ عدالةَ صراعه مع المسيحيين وكنتُ قد كتبتُ عنه في الماضي بجرأة. وأنا أشيرُ بوجهٍ خاص إلى التأبين الذي كتبتُه إبَّان وفاته حينَ كنتُ، إذا صحَّ لي أنْ أقول هذا، قادراً على استدرار الدموع حتى من عيون المسيحيين القُساة. وبُعَيد ذلك نشرتُ مراسلاتي مع جوليان. وبالمناسبة، لقد بعثتُ إليكَ بنسخةٍ منها وعلى الرغم من أنكَ لم تعبِّرَ لي عن شكركَ على هديتي، إلاّ أني آمل أنْ تُثيرَ اهتمامكَ. فإذا كنتَ لم تتسلمها لأي سببٍ كان، فسوفَ يسعدني أنْ أرسلَ إليكَ واحدةً أخرى. لقد احتفَظتُ برسائل جوليان كلها إليّ على مدى السنين، وكذلك بنُسَخٍ من رسائلي أنا إليه. إذ لا يمكنُ الاعتمادُ على احتفاظ العظماء برسائل المرء؛ ولو أنَّ هذه الرسائل تضيعُ فلن يتذكَّرني أحدٌ إلاّ بوصفي النصفَ الغامضَ من حوارٍ يجبُ إعادةُ بنائه بطريقةٍ شديدة الإبهام من النصف الثاني من المراسلات (وأحياناً مما هو أقلّ من ذلك!). وأخيراً، إنني مُنهمكٌ في إعدادِ خطبةٍ سيكونُ عنوانها " في الانتقام للإمبراطور جوليان "، وأنوي أن أُهدي هذا العمل إلى ثيودوسيوس.

أعلِمْني في أسرعِ وقتٍ ممكن إذا وافَقتَكَ خطَّتي. أكرِّر : ليس لدينا ما نخسره. أما العالَمُ فسوفَ يربحُ كثيراً. وبالمناسبة، من الإشارات الدالّة على عصرِنا الآن، أنَّ هناك أكاديميّة لاتينيّة في إنطاكية، أعدادُ المُنتسبين إليها هائلة، جديرة بتجميد الدمِ في العروق. إنَّ الشباب يهجر الدراسات الهلّينية لصالح القانون الروماني على أملِ الحصولِ على منصبٍ في الحكومة. إنَّ صفوفي في المدرسيّة لا تزالُ كبيرةَ الحجمِ لكنَّ كثيراً

من زملائي يكادون يموتون جوعاً، دون مبالغة. ومؤخراً اقترحَ طالبٌ (مسيحيٌ، طبعاً) بكل لباقة أنْ أُعلِّمَ، أنا ليبانيوس، اللغةَ اللاتينية! وأنا في سني هذه؛ وبعد أنْ أفنَيتُ عمري في تدريس اليونانية! فقلتُ له بما أني لستُ محامياً فليسَ هناك ما أحتاجُ إلى أنْ أقرأه بتلك اللغة القبيحة، التي لم تُنتجِ إلاّ قصيدة واحدة كانت مجرَّد إعادةِ صياغةٍ تدعو إلى الأسى لِما جادَ به هومرِ العظيم.

آمل بعد مرورِ سنواتٍ عديدةٍ جداً من الصمتِ السائد بيننا أنْ تجدَ هذه الرسالةُ طريقها إليك وإلى زوجتكَ المثيرة للإعجاب، هيبيا، وأنتما في أتمّ صحّة. إنني أحسدكَ على حياتكَ في أثينا، المركز الطبيعي لكوننا هذا. هل أحتاجُ إلى أنْ أُضيفَ أني سوفَ أتحمَّلُ طبعاً أيَّ نفقاتٍ قد تترتَّب عن نسخِ مذكَّرات جوليان؟ ولحُسن الحظ إنَّ تكلِفة النسخ أقلّ في أثينا منها هنا في إنطاكية. إنَّ الكتبَ دائماً تكلِّفُ أكثر في تلك المدن التي تُقرأ فيها أقلّ!

مُلحق " لقد تأكَّدتْ للتوّ إشاعةٌ قديمةٌ، وهي أنَّ ملكَ بلاد فارس العظيم، سابور[١٢]، قد ماتَ أخيراً. كان قد تجاوزَ الثمانين وحَكَمَ مُعظَم سنوات عمره. يا لها من مصادفة غريبة أن يموتَ الملك الذي قَهَرَ محبوبنا جوليان في الوقت الذي نهُمُّ فيه باستعادة مذكّراته. وكان قد قيلَ لي ذات مرةً إنَّ سابور قد قرأ كتابي " حياة ديموستين " وأُعجِبَ به. ما أروعَ الكتب؛ إنها تعْبُرُ العوالمَ والعصور؛ قاهرةً الجهلَ ومن ثم، أخيراً، الزمنَ القاسي نفسه. فلنحيٍّ جوليان من جديد، وإلى الأبد!

من بريسكوس إلى ليبانيوس أثينا، آذار، ٣٨٠

نعم، المرسوم معروفٌ هنا جيداً، لكنَّ الشعورَ السائدَ في الجامعة هو أنه على الرغم من لهجته القاسية إلاّ أنه لن تتمَّ تصفيتنا. إنَّ المدارسَ مزدهرةٌ، والمسيحيون الحقيرون يأتون إلينا أفواجاً ليتحضَّروا، وأنا أجدهم يُشبهون كثيراً إخوتهم الهلّينيين. ولكن أعودُ فأقول إنَّ الشبّانَ يزدادون شَبَهاً بعضهم ببعضهُمُ الآخر. إنهم يطرحون الأسئلةَ نفسها ويُعطونَ الأجوبةَ نفسها على الأسئلة التي تُطرَح عليهم. لقد يئستُ من تعليم أيٍ منهم أيَّ شيء، خاصةً نفسي. إنني لم أحصل على أي فكرةٍ جديدةٍ منذ أن بلغتُ السابعة والعشرين. ولهذا تراني لا أنشرُ محاضراتي. أيضاً، كثيرون منا ينشرون بدافع

الزهو أو لكي يجذبوا إليهم طلاّباً. إنني وأنا في الخامسة والسبعين (أنا أكبر منكَ بتسع سنوات، وليس باثنتي عشرة سنة) أشبه آنيةً فارغةً. انقُر عليّ وسوفَ تسمع صوتاً خاوياً فظيعاً. ورأسي هو جَدَثٌ لا يقلُّ خواءً عن ذاكَ الذي يُفتَرَضُ بيسوع أنه غادَرَه. إنني اليوم أميلُ إلى قراءة كراتيس[١٣]، والكلبيين[١٤] الأوائل، أكثر من ميلي إلى أفلاطون والبقية. إنني لستُ مقتنعاً أبداً بوجود وحدانيّةٍ قُدسية في مركز الكون، ولا أنا متأثّرٌ بالسحر، خلافاً لجوليان الذي كان ساذجاً سذاجةً لا شفاء منها. وكثيراً ما أعتقدُ أنَّ مكسيموس يستغلُّ طيبةَ قلبه. وأنا لم أكنْ أتحمَّلُ مكسيموس أبداً. كم كان يُضيِّعُ من وقتِ جوليان بجلَسات استحضارِ الأرواح وبربرته المُبهَمة! وقد ضايقتُ الإمبراطور بشأنه ذات مرة، لكنَّ جوليان اكتفى بالضحك وقال " مَنْ يدري مِنْ أي بابٍ ستدخل الحكمة؟ "

أما بالنسبة إلى مشروعك، فلستُ واثقاً على الإطلاق من أنَّ سيرةً متعاطفةً لحياة جوليان سوفَ يكونُ لها أدنى أثر في هذا الوقت. إنَّ ثيودوسيوس هو سياسي عسكري، يتأثّرُ بالأساقفة. وطبعاً يمكنه أن يفرِضَ حظراً على سيرةِ سَلَفه ببساطةٍ بحُجَّة أنَّ جوليان لا يزالُ يحظى بالإعجاب حتى يومنا هذا، ولكن ليس من أجل فلسفته. إنَّ جوليان يحظى بالإعجاب لأنه كان شاباً ووسيماً وأشدّ القوّاد نجاحاً في كسبِ المعارك، وهذا هو سببُ افتقارنا إلى الأبطال هذه الأيام. ولكن إذا سمحَ ثيودوسيوس بنشر السيرة، فيجب حذفُ الناحية الدينية منها. وسوفَ يبتُّ الأساقفة في هذا الأمر. ولا أحد يُجاري أسقفاً مسيحياً في وحشيته في تصيُّد " الهرطقة "، كما يصفون كل رأي مناقض لرأيهم. وهم واثقون من أنفسهم تماماً في ذلك الموضوع في حين أنهم لا يقلّون جهلاً عن باقي الجنس البشري. أقصد الموت. على أي حال، لا أريد أنْ أدخل في صراعٍ معهم، لأني واحدٌ وهم كَثرة. ومع أني أتمتَّعُ بصحّةٍ جيدةٍ مذهلة. وقد سمعتُ مَن يقولُ لي إني لا أختلفُ عمّا كنتُ عليه وأنا في الأربعين، وإني لا أزالُ قادراً على ممارسة الجنس في أي وقتٍ تقريباً. هذه الحيوية تُثيرُ النفور في نفس هيبيا، التي تقدَّمَت في العمر بشكلٍ مُلفتٍ للنظر خلال السنوات القليلة الأخيرة، لكن يبدو أنَّ هذا يسعد العديد من الصبايا في نواحٍ معيَّنةٍ من أثينا، لابد أنكَ سمعتَ بها – في روايات المدرسة الميلوتية[١٥].

هل كلامي واضح؟ لا رغبةَ لديّ في أنْ أُحرَق حيّاً أو أَنْ أُرجَم بالحجارة أو أُسَمَّم

على باب كنيسةٍ مسيحية، أو " منزل الجثث "، كما كان جوليان يصفها. ربما كنتَ أنتَ تتحلّى بالشجاعة التي ترغبُ فيها وسوفَ أهلّلُ لكَ في قلبي. ولكن ليسَ لديّ أي نيّة في كتابةِ جملةٍ واحدةٍ عن جوليان، على الرغم من كَلَفي به ورُعبي من المسار الغريب الذي يُجري فيه عالمنا منذ أنْ باعنا قسطنطين المُغامر للأساقفة.

إنَّ جوليان دوَّنَ مذكّراته خلال الأشهر الأربعة الأخيرة من حياته. بدأها في شهر آذار عام ٣٦٣، في هيرابوليس. وكان في كل ليلة تقريباً خلال فترة غزونا لبلاد فارس يُملي ذكريات حياته المبكّرة. والنتيجة هي فوضى مختلطة، ذلك أنه ككاتب وكإنسان كان متعجّلاً ومندفعاً. وقد أخبرني ذات مرة أنه يودُّ أن يؤلّفَ سيرةً ذاتيةً على غِرار كتاب " من ماركوس أورليوس إلى نفسه "، لكنه كان يفتقر إلى انضباط الكاتب. وكان جوليان أيضاً متأثّراً بكتاب زينوفون " المسير إلى داخل البلاد "، وذلك لأنَّ زينوفون قد طَرَقَ الدربَ نفسه الذي سلكناه بعد ذلك بسبعة قرون. ولطالما كان اهتمام جوليان بالتاريخ حيوياً. وكان مولعاً بالفُرجة. والمذكّرات التي نتجَتْ هي خليطٌ هجين؛ ومع ذلك كان جوليان غالباً كاتباً ساحراً، وإذا لم يكن أفضل مما هو فذلك من الصعب أن يكون المرءُ إمبراطوراً، وفيلسوفاً وقائداً حربياً في وقتٍ واحد. وكان أيضاً طائشاً حيال كل إنسان. أتمنى أن تسامحه. أنا سامحته. لقد تكهَّنَ بأنه لم يتبقَّ له كثير من الوقت وأرادَ أن يبوحَ بكل ما لديه. أما بالنسبةِ إلى ظروف وفاته الغامضة، فلديَّ نظريةٌ حولَ ما وقعَ، سوفَ أشرحها لك في سياق كلامي.

لم أتوصَّل أبداً إلى معرفة ما يجب أنْ أفعله بشأن هذا العمل. بعد وفاة جوليان أخذتُ أوراقه الشخصية كلها، متوقّعاً أنْ يعمدَ خلفاؤه المسيحيون إلى تدميرها. ولم يكن يحقُ لي الاحتفاظ بتلك الأوراق طبعاً، لكني لا أندمُ على سرقتي لها. وأنا لم أخبر أحداً عن المذكرات إلى أنْ رجعتُ سالماً إلى إنطاكية، حيث لابد أني أتيتُ على ذكر المذكرات أمامك في اليوم الذي قرأتَ على مسامعنا تأبينك الشهير. وقد تأثّرتُ كثيراً بنصائحك حتى إني كشفتُ عن حقيقةِ ثقتي في نفسي.

لديَّ الآن نسخةٌ جيدةٌ من المخطوط. وإذا ظننتَ أنَّ عمليّة النسخ هي أقلُّ تكلفة هنا منها في إنطاكية فإنَّ معلوماتك مغلوطة. على العكس تماماً؛ إنَّ الكلفَةَ التقديرية سوفَ تصلُ إلى ثمانين صوليدوس ذَهَباً، أقترحُ أنْ ترسلها مع البريد العائد. ولدى

تسلُّمي المبلغ الكامل سوفَ أبعثُ إليكَ الكتاب لتستعينَ به بالطريقة التي تراها مناسبة. عليك ألاَّ تُخبِر أحداً بأنَّ لي صلةً بالموضوع. إذ ليس لديَّ أدنى رغبة في معاناة الشهادة في هذا الوقت أو في أي وقتٍ آخر.

حسبتُ أني كنتُ قد كتبتُ لكَ عن مجموعتك من الرسائل. وقد وَصَلَني الكتابُ فعلاً وكان إرساله إليّ يدلُّ على حُسنِ تفكيرٍ منك. نحن جميعاً مدينون لكَ من أجل هذه الرسائل، خاصّةً تلك الموجَّهة منكَ إلى جوليان. إنها ملآى بالحكمة. أنا لا أعرفُ فيلسوفاً آخر شديد الإحساس بالأجيال القادمة مثلك يحتفظُ بنسخةٍ عن كل رسالةٍ كَتَبَها، مُدركاً أنه حتى أشدّ تدفّقاته العاطفية التافهة لها، في سياقِ الكَمّ الهائل من أعماله، قيمةٌ أبدية. إنَّ هيبيا تنضمُ إليَّ في تمنّي الصحَّة الجيدة لك.

من ليبانيوس إلى بريسكوس إنطاكية، نيسان، ٣٨٠

لا تستطيع أن تتصورَّ مبلغ السعادة التي شعرتُ بها حين وَصَلَتْ رسالتُكَ إليّ هذا المساء. كنتُ شديد التوقِ إلى سماعِ صوتكَ من جديد، إنْ صحَّ التعبير، حتى إني أخشى أني مزَّقتُ الأربطة والصفحةَ التي طالَ انتظاري لها أيضاً. ولكن اطمئنْ، سوفَ أُرمِّمَ رسالتكَ النفيسة بالصمغ وأعتني بها، لأنَّ كلَّ كلمةٍ من إنتاج عبقريتكَ هي انعكاسٌ عميقٌ للروح الهيلّينية يجب نقلُهُ إلى مَنْ سيأتونَ من بعدنا.

دعني أعبِّر لك فوراً عن مدى سروري لدى علمي بأمر حيويتكَ الجنسية التي لا تهِن. منَ المُلهِم دائماً لنا جميعاً أن نعلمَ أنه عند كائناتٍ بشريّةٍ نادرةٍ لا تحدُثُ دورةُ الانحدار المُحزِن المُعتادة. إنكَ مُفضَّلٌ دون شك عند الآلهة وباستمتاعكَ بتلكَ الحُظوَة لن تعرفَ الهمَّ وأنتَ في سن الثمانين كما حَدَثَ مع سوفوكليس، " على الأقلّ أنا متحرِّر من خضوعي لسيدٍ متوحش ومجنون! ". من الواضح أنَّ سيدكَ هو رفيقٌ طيِّب، ويصبحُ أكثر طيبةً برفقَة هيبيا. ليس هناك كثيرٌ من زوجات الفلاسفة ممّن يسمحنَ لأزواجهنَّ بحريّةِ الانسجام مع سيداتِ أثينا المتحضِّرات بشكلٍ عذب؛ اللواتي كانت حفلاتهنَّ المسائية تُمتعني خلال أيام دراستي. طبعاً الآن حياتي مُسخَّرة للفلسفة ولشؤون الدولة. إنني أتركُ للشبان مفاتنَ أفروديت... للشبان، والآن، يا بريسكوس، لكَ، أنتَ يا مَنْ عبَثتَ حتى الثمالة! يا لكَ من محظوظ! ومحظوظاتٌ مَنْ أحببتهنَّ!

منذ أنْ كاتبتُكَ آخرَ مرة لم أهمَد. فعبرَ منصبي كمفوَّض إمبراطوري في القسطنطينية، طلبتُ مقابلةَ الإمبراطور، وكان ثيودوسيوس نادراً ما يقابلُ أمثالنا من الناس، وهو القادم من أسبانيا، البلد المعروف ببُعده عن الثقافة. وهو أيضاً ينتمي إلى عائلةٍ عسكريةٍ ولا يوجدُ ما يدلُّ على أنه درَسَ مرةً الفلسفة. وخارج نطاق السياسة، اهتمامه الرئيسي هو تربية الأغنام. لكنّه لم يتجاوز الثالثة والثلاثين من العمر وشخصيته، وفقاً لأفضل المعلومات المتوفّرة، تتسمُ بالاعتدال. ولكن ينبغي ألاّ نتّكلَ على هذا . كم من مرةٍ في السابق أصابنا الرعبُ من أمراء حسبنا أنهم طيّبون تحوّلوا، بعد أنْ تبؤوا عرشَ حكم العالم، إلى وحوشٍ أمام أعيننا؟ لدينا المرحوم فالنس، مثلاً، أو شقيق جوليان، القيصر غالوس، الشاب الفاتن الذي جَلَبَ الرعبَ إلى الشرق. يجب أن نكونَ حذرَين، كعهدنا دائماً.

السؤال الآن الذي يواجهنا هو : ما مدى جديّة ثيودوسيوس في تنفيذه بنود المرسوم؟ فمن المعتاد من الأباطرة الذين يصغون إلى ما يقوله الأساقفة أنهم ينهالون بالإهانات على الحضارة التي أوجدتهم. إنهم متناقضون، غير أنَّ المنطق لم يكن مرةً نقطةً قوية في الإيمان المسيحي. والمفارقة العجيبة هي تواطؤ أمرائنا مع الأساقفة. والأباطرة يتفاخرون بأنهم أول حُكّام الإمبراطورية الرومانية، وعبر مجلس شيوخهم يمارسون سلطتهم؛ وعلى الرغم من أننا في الواقع لم نكن من الرومان على مدى قرنٍ من الزمان، إلاّ أنَّ " الشكل " يفرضُ نفسه، وربما يفسح المجال لأي أميرٍ يُسمّي نفسه أوغسطوس كي يصبح مسيحياً، وحتماً لن يحدث هذا ما دام " مذبح النصر " باقياً في مجلس الشيوخ في روما. ولكن مثل هذه الفوضى لا أهمية لها بالنسبة إلى الفكر المسيحي، وهي أشبه بسُحُب الصيف، وبوصفي معلّماً لم أعد أحاول أن أفنِّدَها؛ وبما أنَّ معظم تلاميذي من المسيحيين فأعتقدُ أني يجب أن أكون ممتناً لأنهم اختاروا أنْ يلجؤوا إليَّ ليتعلّموا تلك الفلسفة نفسها التي يُدمّرها إيمانهم. إنها مهزلة، يا بريسكوس! بل مأساة!

في هذه الأثناء، لا يسعنا إلاّ أنْ ننتظر لنرى ما سيحدث. إنَّ صحة الإمبراطور تزدادُ قوةً باطّراد في كل يوم، ويُعتَقَد أنه في وقتٍ لاحقٍ من هذا الربيع سوفَ يُقاتلُ الغوط، الذين يُهدِّدون كعادتهم حدودَ مقدونيا. فإذا قرَّرَ أنْ يتَّجه شمالاً فهذا يعني أنه لن يعودَ إلى القسطنطينية حتى أواخر الصيف أو الخريف، وفي هذه الحالة سوف

يتوجَّب عليَّ أنْ ألازمه في تيسالونيا أو، في أسوأ الأحوال، في ساحة القتال. فإذا كان الأمرُ كذلك، فأنا واثق من أنَّ الرحلة ستكون رحلتي الأخيرة. ذلك أنَّ صحتي، خلافاً لحالة صحتك، تتدهور باستمرار. إنني أصاب بنوبات سعال تسبِّب لي الوَهَن وأتمنى الموتَ. ثم تطوَّرَ على ظاهرِ يدَيَّ وساعديَّ طفحٌ جلدي غريب لعلّه نتيجة أكلي سمكاً فاسداً في الأسبوع الفائت (يُذكّرني بديوجين ولحم الإخطبوط النيء القاتل)، أو لعلّه إشارة ظاهرية على فساد الدم. كم أودُّ لو أنَّ أوريباسيوس كان في إنطاكية! إنه الطبيب الوحيد الذي وثقتُ فيه في حياتي. وأنا أتبع خطى جوليان في هذا، الذي كان يقول " لقد كَشَفَ الإله أَسكليبيوس لأوريباسيوس عن أسرارٍ لا تعرفها إلا السماء "

لقد دوَّنتُ على مدى سنين عدداً من رؤوس الأقلام لتكونَ سيرةً لحياة جوليان. إنها أمامي الآن. لم يبقَ إلاّ الترتيب الأخير للمواد – وطبعاً المذكَّرات أرجو أنْ ترسلها إليّ حالما تصبح النسخة جاهزة. سوف أعمل عليها خلال هذا الصيف، إذ لم أعد أحاضرُ. لقد رأيتُ أنَّ من الحِكمة أنْ ألجأ إلى العزلة إلى أنْ نعرف في أي اتّجاه تهبّ الريح.

لا حاجة بي إلى أنْ أقول لكَ إنَّ إنطاكية تجاهلت المرسوم. لا أذكُرُ أبداً أنَّ إنطاكية قد انصاعَتْ مرةً للسلطة الإمبراطورية، إلاّ بحدّ السيف. ولطالما حذّرتُ مجلس الشيوخ المحلّي أنَّ الأباطرة لا يحبون العصيان، لكنَّ شعبنا يشعر أنه خارج القانون والانتقام. إنَّ حماقة الحاذق هي أفدَح من حماقة الأبله. إنني أرتجف خوفاً على إنطاكية، على الرغم من أني حالياً أنتفعُ من غياب توقيرها لقرارات القيصر.

لم تقع أي أحداث حتى الآن. أصدقائي من المسيحيين يأتون لمقابلتي كالمعتاد (إنَّ عدداً كبيراً من تلاميذي القُدامى أصبحوا الآن أساقفة، يا لها من مفارقة). وزملائي الذين ما زالوا يُحاضرون يُخبرونني أنَّ فصولهم الدراسية هي كما كانت دائماً. والخطوة التالية يجب اتّخاذها نحو ثيودوسيوس، أو، إذا أردنا الدقّة، نحو الأساقفة. ولحُسن حظّنا أنهم منشغلون جداً منذ وقت بعيد؛ أحدهم في تصفية الآخر مما أتاحَ لنا أنْ نبقى على قيد الحياة. ولكن بعد قراءة ما بين أسطر المرسوم أتوقّع حدوث حمّام من الدماء. لقد حَرَمَ ثيودوسيوس يحدوه غلٌ خاصٌ حزبَ المرحوم الكاهن آريوس من رعاية القانون، على أساسِ أنه حان الوقت الآن ليحصل الجليليون على كنيسة ذات عقيدة واحدة تُدعى كونيّة... كنيسة " كاثوليكية " و أقلّ! ولموازنة هذا علينا أنْ ندوِّن حياة جوليان الحقيقية؛ فلنضمّ جهودنا لنصنع إكليلاً أخيراً من الغار الأبولوني لكي نضعه

على جبين الفلسفة، كإشارةٍ شُجاعة في وجه الشتاء الذي يُهدِّدُ هذا الفصل العاصف المتأخِّر للعالم. أريد لأولئك الذين يُطاردوننا أنْ يُدركوا الآمال التي نحملها من أجل الحياة، وأريدهم أنْ يروا كم اقتَرَبَ محبوبنا جوليان من وضع يده على المرض الذي أُصيبَ به الجليلي. إنَّ مثل هذا العمل، إذا ما نفِّذَ كما ينبغي، سيكون كبذرة زُرِعَتْ في فصل الخريف في انتظار استيقاظ الشمس، وبدء ازدهارٍ جديد.

من الواضح أنَّ تكلفة النسخ في أثينا قد ارتفعَتْ بشكلٍ هائل بما أنه كان لي عمل أنجزته هناك في العام الفائت. إنني أجدُ أنَّ مبلغ ثمانين صوليدوساً مبلغٌ باهظ مقابل ما تقول إنه مقطع، أو كتاب ذو طول معتدل. وفي الصيف الفائت فقط دَفَعتُ ثلاثينَ صوليدوساً في كتاب لبترونيوس يبلغُ في حجمه ثلاث مرات حجم مذكرات جوليان. إنني أرسل الآن مع صديق سيتوجّه غداً إلى أثينا ثلاثين صوليدوساً وهذه الرسالة. مرةً أخرى أقدِّم أفضل تمنياتي لهيبيا المثيرة للإعجاب، وإليكَ، يا صديقي العزيز ورفيقي في السلام في حروب الفلسفة.

من بريسكوس إلى ليبانيوس   إنطاكية، حزيران، ٣٨٠

أُرسِلُ إليك مع تلميذي غلوكون مقدارَ نصف مذكّرات الإمبراطور جوليان. لقد كلَّفني نسخُ هذا المقدار بالضبط ثلاثين صوليدوساً. وعندما تصلني الخمسون المتبقيّة فسوف أرسلُ إليك باقي الكتاب. أستطيعُ فقط أنْ أفترض أنَّ عملية النسخ التي أنجزتُها في أثينا في الصيف الفائت كانت من عمل أحد المُعجَبين بكَ؛ لذا تقاضى منكَ سعراً مخفَّضاً كدلالة على احترامه لإسهاماتك العظيمة في مجال الفلسفة والخطابة.

إنني لا أشاركُكَ تشاؤمكَ بشأن الإمبراطور الجديد. وما كان اختيارنا ليكون أفضل لو أنَّ في يدنا الخَيار، غير أنَّ الخَيار لم يكن أبداً في يدنا. لقد وَصَلَ جوليان إلى عرش الحُكم بفضل إلهة الحظ، الإلهة المعروفة بغيابها عن الشؤون الإنسانية. ولا يمكننا أنْ نأمل في أنْ نحصل على شبيه لجوليان أثناء حياتنا. لقد انتهى الأمر.

لقد قمتُ بدراسة المرسوم منذ أنْ كَتَبَتُ لك آخر مرة، وعلى الرغم من أنَّ لهجته أشد صرامة من مرسوم قسطنطين، فإني أعتقدُ أنَّ أول ضحاياه سيكونون أولئك المسيحيين الذين اتَّبعوا آريوس. ولكن قد أكون مُخطئاً. إنني دائماً تقريباً مُتَّصِل بالشؤون السياسية. وهي نقطة ضعف دون شك سببها مزاجي الفلسفي. مع ذلك، إنَّ ما

كان يمنحني الأمل هو تعيين " الشاعر " أوسونيوس[١٦] قنصلاً في العام الفائت. أتعرفه؟ أنا واثق من أنَّكَ قرأتَ عنه. وإذا لم تفعل، فإنَّ في انتظارك شيئاً ممتعاً. لقد أصبحتُ مؤخراً شبه خبيرٍ في مسيرته الأدبية. لقد بدأت حياته كابنٍ لطبيب ثريّ في بوردو. بدأ حظّه الاستثنائي حين عيَّنه الإمبراطور فالانتنيان معلّماً خاصاً لابنه غراتيان. وحسب قول أوسوفيوس، فإنه هو الذي " شكَّلَ العقل الصغير للأمير الصغير ". وحين أصبحَ الأميرُ إمبراطوراً، كافأ مُعلِّمه العجوز بجعله مفوضاً إمبراطورياً في بلاد الغال بالإضافة إلى كونه قنصلاً للعام الأخير. إنني أوردَ هذا كله لأنَّ أوسونيوس يميل إلينا لحُسن حظِّنا، وهو يبذل تأثيراً بالغاً ليس فقط على غراتيان (الشديد الانهماك في صيد الخنازير البريّة بحيث لا يفكِّر في إزعاجنا كثيراً) بل على ثيودوسيوس أيضاً. إنه بجلاء الرجل المناسب لتلقّي تثقيفك.

قبل فترة ليس ببعيدةٍ أرسلتُ أحدهم إلى المكتبة العامة لأرى ماذا لديهم من مؤلفات أوسونيوس. عاد العبد مع عربة جرّ مملوءة بالكتب ويجب أن تقرأ أوسونيوس لكي تؤمن به شاعراً، لا يوجد موضوع هو أتفه من أنْ يطّلع؛ وكمتودِّد، لا وجود لتملُّق شديد الإفراط بالنسبة إليه. وقد كتبَ قصيدةً واحدةً متوسطة الجودة في الطبيعة عن موزيل[١٧]، لكني لستُ من المُهتمّين بوصف الأنهار. أما باقي القصيدة فرائعٌ في إثارته للملل. خاصةً تلك الأبيات التي كتبها بطلبٍ من فالانتنيان. وكان من بين المواضيع التي كان الإمبراطور يختارها وصف منبع نهر الدانوب (لم يعرف أوسونيوس أين يقعُ لكنّه قامَ بمحاولةٍ جيدة)، وعيد الفصح، (والأفضل من ذلك كلّه) القصائد الغنائية الأربع التي ألّفها في وصف أحصنة الإمبراطور الأربعة المفضّلة لديه. وقد حصلتُ على نسخةٍ من إحدى تلك القصائد عن الأحصنة، وهيبيا تقرأها على مسمعي كلما أُصبتُ بالاكتئاب. وهي تبدأ كما يلي : " آه أيّها الجواد الفاحم، الذي قَدَرُه أنْ يمدَّ فخذَيه الذهبيين والتحدُّبات الصلبة لأوغسطس المقدَّس... " لا أدري منذ متى استمتعتُ استمتاعي بمثل هذه القصيدة. سوف أرسلُ لكَ نسخةً عنها. على أي حال، أقترحُ أن تقابلَ أوسونيوس في أقرب وقتٍ ممكن. وطبعاً سوف تتذكّر أن تعبِّر عن إعجابك بعمله! إنَّ النفاقَ يصبحُ فضيلةً إذا ما وُجدَ سببٌ وجيه.

إنني لا أرتادُ الحفلات المسائية أبداً. الحي الذي أشرتُ إليه في رسالتي ليس هو شارع ساردس الأنيق بل حي العاهرات بالقُربِ من أغورا. إنني لا أرتادُ الحفلات لأنني

أمقتُ أحاديث النساء، خاصةً سيدات أثينا اللواتي يرينَ أنفسهنَّ كوريثاتٍ لعصر بركليس[١٨]. أحاديثهنَّ مُدَّعية بصورةٍ تدعو إلى اليأس وسطحيّة. ووجبات عشائهنَّ غير صالحة للأكل، ولسببٍ ما يملنَ جميعاً إلى البدانة ويظهرُ لهنَّ شاربان سوداوان لا مُبرِّرَ لهما؛ لا ريبَ في أنه انتقامُ أفروديت من النساء الثرثارات. إنني أعيشُ حياةً هادئةً جداً في المنزل وأقومُ بزيارةٍ بين حينٍ وآخر للحي.

إنَّ علاقتي بهيبيا هي أفضل مما كانت. وأشدُّ ما يفتنني فيها هو كرهها الأبدي للأدب. إنها تتحدَّث عن الخَدَم والطعام والأقارب، وأنا أجدها مُريحةً، أيضاً. لديَّ في المنزل فتاةٌ غوطيّة، اشتريناها وعمرها إحدى عشرة سنة. وهي الآن امرأةٌ جميلة، ممشوقة القامة وحَسَنَة التكوين، ذات عينَين باهتتين كعَينَيّ أثينا. وهي لا تتكلّم أبداً. في نهاية المطاف سوف أشتري لها زوجاً ومن ثم آخذهما معاً مكافأةً على قبولها الهادئ لتودّداتي التي أبهجتها أكثر بكثير مما أبهجتني. ولكن هكذا هو الحال غالباً مع الجانب الأنثويّ من أشدّ وحوش أفلاطون قُبحاً. غير أنَّ أفلاطون كان يشمئزُّ من الممارسة الجنسية بين الرجل والمرأة. لقد اعتدنا على أنْ ننظر إلى أفلاطون بتقديسٍ، ولكن أخشى أنه كان أشبه بصديقنا القديم إفيكليس، الذي كان ولهَهُ بالشبّان قد أضحى أمراً مشيناً حتى إنه يقضي الآن أيامه ولياليه في الحمّامات، حيثُ الفِتية يُسمّونه ملكة الفلسفة.

يؤسفني أنْ أسمعَ أنَّ صحّتكَ تتدهور، ولكن هذا أمرٌ متوقَّع ونحن في هذه السن، والطفحُ الجلدي الذي تشيرُ إليه يبدو حقاً أنه بفعل أكل سمكٍ فاسد. أقترحُ أنْ تتبع حِميةً من الخبز والماء، ولا تُفرط فيها. لدى تسلُّمي النقود سأرسلُ إليكَ الجزءَ الثاني من المذكرات. سوفَ يُزعجكَ الأمر ويُحزنكَ. وكلّي فضول لأعرفَ كيف ستستخدم هذه المادة. وهيبيا تنضمُ إليّ في تمنياتي لك بصحة جيدة - أم هل أقول أفضل؟

سوف تلاحظ في المذكرات أنَّ جوليان يشيرُ باستمرار إلى المسيحيين باسم "الجليليين"، وإلى كنائسهم بـ " بيوت الجثث " وهذه الملاحظة الأخيرة هي سخريةٌ من وَلَعهم الشاذ برُفات الموتى. أعتقد أنه يُستحسَن أنْ نُجري تغييراً على النصّ، فنُعيد اسمَ بيوت الموتى ذلك السابق الذي هو كنائس، ونُعيد إلى الجليليين اسمَ مسيحيين.

لقد أضفتُ إلى النص، هنا وهناك، ملاحظات هامشية، أرجو ألاّ تجدها زائدة.

- ٢ -

مذكّرات جوليان أوغسطس:

لقد اتّخذتُ من عمي الإمبراطور قسطنطين، المُلقّب بالعظيم، والذي توفي وأنا في السادسة من عمري، قُدوةً، وتعلّمتُ منه أنَّ مِنَ الخطر أنْ أنحازَ إلى أيّ فريقٍ من الجليليين؛ لأنهم سيُدمّرون تلك الأشياء المقدَّسة حقاً ويحجبونها. إنني لا أكادُ أذكُرُ قسطنطين، مع أنهم قدّموني إليه ذات مرة في القصر المقدَّس. أذكُرُ بغموضٍ عملاقاً، ذا رائحةً نفّاذة، يرتدي رداءً مُدجَّجاً بالأحجار الكريمة. وكان أخي الأكبر غالوس يقولُ دائماً إني حاولتُ أنْ أنزعَ شعرَه المُستعار عن رأسه. ولكن غالوس كان يتّصفُ بالفكاهة الفظّة، وأشكُّ في صحّة الحكاية. فلو أني حقاً شددتُ شعرَ الإمبراطور المستعار لما أصبحتُ عزيزاً على قلبه، ذلكَ أنه كان تافهاً كامرأةٍ فيما يخصُّ المظهر، حتى المُعجَبون به من المسيحيين اعترفوا بذلك.

عن والدتي باسيلينا ورثتُ حبي للعلم. وأنا لم أعرفها أبداً. فقد توفيَتْ بُعَيدَ مولدي، في السابع من شهر نيسان عام ٣٣١ . كانت ابنةَ المفوَّض الإمبراطوري جوليوس جوليانوس. مِنْ صورها وجدتُ أني أقربُ شَبَهاً بها من والدي؛ أشتركُ معها في استقامة الأنف وميلِ الشفتَين إلى الامتلاء، خلافاً لآل فلافيان الإمبراطوريين، الذين كانت أنوفهم معقوفة وأفواههم مزمومة بشدّة. وكان الإمبراطور قسطنطينوس، ابنُ عمي وسَلَفي، فلافياً نموذجياً، يشبه والده قسطنطين، عدا أنه كان أقصرَ قامةً، لكني ورِثتُ عن الفلافيين امتلاءَ الصدر ونحافة العنق، وهو إرثٌ ينحدرُ من أسلافنا الإليريين[١٩]، الذين كانوا ساكني جبال. وعلى الرغم من أنَّ أمي كانت جليليّة إلاّ أنها كانت متعلّقة بالأدب. وقد تلقّتْ تعليمها على يد الخصي ماردونيوس، الذي كان بدوره مُعلّمي.

من ماردونيوس تعلّمتُ أنْ أسيرَ بتواضع وأنْ أخفض عيني إلى الأرض، وألاّ أتلعثَم في الكلام ولا أقدِّر الأثر الذي أخلّفه عند الآخرين. تعلّمتُ أيضاً الانضباط في كل شيء؛ وحاولَ خاصّةً أنْ يُجنِّبني كثرة الكلام. ولحُسن الحظ، الآن بعد أنْ أصبحتُ إمبراطوراً صارَ حديثي يُمتعِ الجميع! وأقنعني ماردونيوس أيضاً بأنَّ الوقتَ الذي يُهدَرُ في اللهو أو ارتياد المسرح هو وقتٌ ضائع. وأخيراً، تعرَّفتُ من ماردونيوس، الجليليّ الذي يحبُ المذهبَ الهلليني أيضاً، إلى هومر وهزيود، وأفلاطون وثيوفراستوس[٢٠]. لقد كان مُعلّماً جيداً، رغم قسوته.

من ابن عمي وسَلَفي، الإمبراطور قسطنتيوس، تعلّمتُ أنْ أُخفي أفكاري الحقيقية وأسترها. كان درساً رهيباً، ولكنْ لو أني لم أتعلّمه لمَا كنتُ عشتُ حتى تجاوزت العشرين من عمري. في عام ٣٣٧ اغتالَ قسطنتيوس والدي. جريمته؟ أنه قريبه. وقد أبقى على حياتي لأني كنتُ في السادسة من العمر؛ وأخي غير الشقيق غالوس - الذي كان في الحادية عشرة - تمَّ الإبقاء على حياته لأنه كان سقيمَ الصحّة ولا يُتوقَّع له أن يعيشَ طويلاً.

*

نعم، كنتُ أحاولُ أنْ أقلِّد أسلوب تأليف كتاب " من ماركوس أورليوس إلى نفسه" وفشلت. ليسَ فقط بسبب افتقاري إلى نقائه وطيبته؛ بل لأنه حين كان قادراً على الكتابة عن أشياء خيِّرة تعلَّمَها من عائلة كريمة وأصدقاء صالحين، فإنَّ عليّ أنْ أكتب عن تلك الأشياء المريرة التي تعلّمتها من عائلةٍ من القَتلَة في عصرٍ ابتُليَ بالنزاعات وتعصُّب طائفة هدفها أن تُخرِّب تلك الحضارة التي أصدرَتْ أولى نغماتها من نقر قيثارة هومر الضرير. أنا لستُ ماركوس أورليوس، في امتيازه وتجربته. والآن يجب أنْ أتحدَّث بصوتي أنا.

*

أنا لم أرَ أمي أبداً. لكنني أتذكَّر والدي. كان جوليوس قسطنتيوس طويل القامة مهيباً. على الأقلّ بدا طويلاً لعينَيّ حينئذٍ. في الواقع، من التماثيل التي صُنِعَتْ له أعتقد أنه كان نوعاً ما أقصر قامة منيَ الآن، وأعرض منكبين. كان لطيفاً مع غالوس ومعي حين يرانا في الأوقات المتفرّقة التي لم تكن كثيرة لأنه كان دائماً في حالةِ سَفَر،

للسهر على تنفيذ مَهَام صغيرة متنوّعة كلّفه بها الإمبراطور، ويجب أن أذكُر هنا أنه سادَ في وقتٍ ما اعتقادٌ بأنَّ والدي كان أحقّ بالجلوس على كرسي العرش من أخيه غير الشقيق قسطنطين. ولكن لم يكن من طبعه أنْ يحتج. كان رقيقاً، وضعيف الشخصية، وتمَّ القضاء عليه.

في الثاني والعشرين من أيار عام ٣٣٧، توفيَ قسطنطين في نيكوميديا[٢١]، وقد فوجئ بذلك، بما أنه كان قد تناول جرعة التداوي بالماء في هيلينوبوليس وكل النُذُر التي تُطيل العمر، وحين كان يُحتضر استدعى قريبنا، الأسقف يوسيبيوس، لكي يعمِّد. وقُبَيل حضور الأسقف يُقال إنَّ قسطنطين قال، بشيء من العصبيّة، " كفانا ارتكاب أخطاء ". أخشى أنَّ هذا القول جدير بأنْ يُصدُر عنه. لم يكن من شيَمه، حسب قول أريستوفان بذكاء، أنْ يترك حَجَراً واحداً دون أن يقلبه. لم يكن قسطنطين أبداً جليلياً حقيقياً؛ لقد استخدمَ المسيحيّة ليمدّ سلطانه على العالم ليس أكثر. كان جندياً مُحترفاً مُحنّكاً، رديء الثقافة وليس لديه أدنى اهتمام بالفلسفة، على الرغم من أنَّه كان لديه ميلٌ مُنحرفٌ أشبعه إلى أقصى حد بالمجادلات المذهبية، كانت تفتنه مماحكة الأساقفة المجنونة.

طِبقاً لوصيّة قسطنطين تُقسَّم الإمبراطورية بين أبنائه الثلاثة الأحياء، وكان كل منهم قد ارتقى للتو إلى مرتبة قيصر. (كل تلميذ مدرسة يعلم هذا، ولكن هل ستدوم هذه المعرفة؟) إلى قسطنطين الثاني ذي الإحدى وعشرين سنة ذهَبَتْ ولاية بلاد الغال؛ وإلى قسطنتيوس، ذي العشرين ربيعاً، أعطيَ الشرق؛ وإلى كونستانس، البالغ السادسة عشرة، إيطاليا وإلليريكوم. ويتَّخذ كل منهم تلقائياً لقب أوغسطس. والمدهش في الأمر، أنَّ هذا التقسيم للعالم تمَّ بسلام. فبعد انتهاء مراسم الجنازة (كنتُ صغير السن فلم أحضرها)، انسحبَ قسطنطين الثاني على الفور إلى عاصمته فيينا، وانطلقَ كونستانس إلى ميلانو، واحتلَّ قسطنتيوس القصر المقدَّس في القسطنطينية.

ثم بدأتْ الاغتيالات. فقد أكَّدَ قسطنتيوس أنَّ هناك مؤامرة تُحاك للقضاء عليه، بتدبيرٍ من أولاد ثيودورا، الزوجة الشرعية لجدِّه قسطنتيوس كلوروس، الذي كانت خليلته هيلينا، والدة قسطنطين، قد نُفيَتْ حين تبّوأ والده عرشَ الإمبراطورية. نعم، يبدو الأمرُ كلّه فوضى شاملة لِمَنْ يقرأ عن هذه الأشياء، أما بالنسبة إلينا، نحن العالقين في الفخ، فإنَّ هذه العلاقات تبدو بكل بساطة إجراميّة كما ترى الذبابة العنكبوت.

يقولُ بعضٌ إنه كانت هناك حقاً مؤامرة، لكنني أشكُ في ذلك. أنا واثق من أنَّ والدي لم يكن بأيّ حال خائناً؛ إنه لم يحتجّ حين أصبحَ أخوه غير الشقيق قسطنطين إمبراطوراً، فلماذا يحتجّ على اعتلاء ابنه العرش؟ على أي حال، خلال ذلك الصيف الرهيب، تمَّ القبضُ سراً على حِفنةٍ من أقرباء ثيودورا وأُعدِموا. ومن بينهم والدي.

في يومِ إلقاء القبض على والدي كنتُ مع ماردونيوس في الخارج نتمشّى في حدائق القصر المقدّس. لا أذكُر أينَ كان غالوس؛ لعلّه كان مريضاً وطريحَ الفراش من أثَر الحُمّى. ولسببٍ ما، حين عدتُ مع ماردونيوس إلى المنزل، دخلنا من الباب الأمامي بدلَ الباب الخلفي، كعادتنا.

كانت الأمسية رائقة، وخِلافاً للمعتاد ذهبتُ إلى والدي حيث كان جالساً في الردهة مع مدير العزبة. أذكُرُ الورود البيضاء والقرمزية التي دُرِّبَتْ لتنمو في تعريشات بين الأعمدة. و - ماذا أذكر أيضاً؟ الكرسي ذا القوائم على شكل مخالب الأسد، والطاولة الرخاميّة المستديرة، ومدير العزبة ذا الوجه الاسباني القاتم وهو جالس على كرسي دون ظهر إلى يسار والدي، وفي حِجرِه حزمةٌ من الأوراق. وبينما أنا أُملي هذه الكلمات أراني أتذكّرُ فجأةً كلَّ شيء. ومع ذلك حتى هذه اللحظة - ما أغرب هذا! - كنتُ قد نسيتُ الورود ووجهَ والدي، الذي عاد من جديد - ولا يزال - واضحاً كلّ الوضوح. ما أغرب أمر الذاكرة! كان متورِّد الوجه، وذا عينين صغيرتين باهتتين، وعلى خدّه الأيسر نُدبة شاحبة سطحية، أشبه بالهِلال.

قال، مُلتفتاً إلى المدير " هذا أفضلُ ما في عزبتي. حافظْ عليه ". لم تكن لدَيَّ أدنى فكرة عمّا كان يتكلّم. أنا واثق من أني شعرتُ بالارتباك. كان من النادر أنْ يتحدَّث والدي إليّ. ليس بسبب افتقاره إلى الحنان بل لأنه كان أشدّ حياءً وقِلّة ثقة في النفس مني، ولم يكن يعرف كيف يتعامل مع الأطفال.

العصافير - نعم، أكادُ أسمعها مرةً أخرى - تشقشقُ على أغصان الأشجار. واصلَ والدي حديثه معي، وأصغيتُ أنا إلى العصافير ونظرت إلى النافورة، مُدركاً أنَّ أمراً غريباً يوشكُ أن يحدث. قال إنَّ نيكوميديا " آمنة "، وتساءلتُ عمّا يعنيه بذلك. ووافقَه مدير العزبة. وتحدَّثنا عن ابن عمي، أسقف يوسيبيوس؛ هو أيضاً كان " آمناً ". حدَّقت إلى النافورة : يونانية الطِراز من القرن الفائت، حورية بحر تمتطي دولفيناً يتدفَّقُ

الماءُ من فمه إلى الحوض. حين أتذكَّر هذا الآن أدرك لماذا كان لديَّ نافورة مماثلة مُقامة في حديقتي حين ذهبتُ إلى باريس. أيمكنُ للمرءِ أنْ يتذكَّر كل شيء إذا ما حاولَ جاهداً أنْ يفعل ذلك؟ (ملاحظة : لديّ نسخة عن نافورة صُنِعَتْ من أجل القسطنطينية في حال عدم وجود واحدة أصليّة)

ثم صَرَفَني والدي بربتةٍ مرتبكةٍ، بلا كلمة وداع، دون أي دلالة على عاطفة زائدة؛ كالحياء.

بينما كنتُ أتناولُ طعام العشاء، جاء الجنود. أُصيبَ ماردونيوس بالرعب، ودُهِشتُ أيّما دهشة لخوفِه حتى إني ولأوّل مرة لم أفهم ما يجري من حولي. وحين سمعتُ الجنودَ في الردهة، قفزتُ واقفاً على قَدَمَيّ. سألتُ " ما هذا؟ ما هذا؟ "

قال ماردونيوس " اجلس. لا تتحرّك. لا تأتِ بأي صوت "، وأصبحَ لونُ وجهه الخصيّ الأجرد الأملس ذو الألف تجعيد مثل قطعة من الحرير المجعَّد شاحباً شحوب الموتى. أفلتُّ منه، مُتعجِّباً من خوفه. حاول، بفظاظة، أنْ يمنعني من مغادرةِ الغرفة، لكني عندئذٍ أصابني الرعب من خوفه أكثر من ضجيج الرجال الغرباء في المنزل، واندفعتُ بعيداً عنه إلى الردهة الخالية. وفي المدخل المسقوف في الطَرَف البعيد وَقَفَتْ امرأةٌ من الرقيق تبكي، وسمعتُ الضجيج الذي يُثيره الرجال المسلّحون في الشارع : صريرُ جِلدٍ، وقرقعةٌ خافتةٌ لارتطامِ معدنٍ بآخر، ووطءٌ مكتوم لجزمات سميكة النعال على الحجر.

حاولَ البواب أنْ يوقفني لكني راوغتُه وتفاديته وخرجتُ إلى الشارع. على مسافةٍ قصيرةٍ رأيتُ والدي يسيرُ مُحاطاً بمجموعةٍ من الجنود، ويقوده تريبيون[٢٢] شاب. ركضتُ خلفَه، وأنا أصرخُ. لم يتوقَّف الجنود لكنَّ والدي استدار نصف استدارة وهو يسيرُ. كان وجهه أشدَّ شحوباً من رماد نار الخشب. وبصوتٍ مُخيف، صارم كصوت زيوس، صوت لم أسمعْه يلجأ إلى نبرته من قبل، قال " عُدْ، الآن! "

توقَّفتُ جامداً في وسط الشارع، على مَبعَدة بضعة ياردات منه. توقَّفَ التريبيون بدوره، ونظرَ إليّ بفضول. ثم التفتَ والدي إليه وقال بلهجةٍ باتّة " هيا بنا. هذا مشهدٌ يجب ألاّ يراه الأطفال "

كشَّرَ التريبيون. " سوفَ نعودُ قريباً جداً لنأخذه "، ثم أمسكَ بوابُ منزلنا بي، وحملني وعادَ إلى المنزل، رغم صراخي وصراعي.

بعد مرور عدَّة أيام وفي أحد أقبية الخمر في القصر المقدَّس، تمَّ قَطَعُ رأسُ أبي. دون توجيه أي تُهَم، ودون محاكمة. لا أعلمُ أينَ دُفِنَ أو إنْ كان قد دُفِنَ أصلاً.

*

غريبٌ كَمْ من تفاصيل عجيبة تعود إلى ذاكرتي وأنا أكتب. فمثلاً ابتسامة التربيون التي كنتُ قد نسيتها على مدى عشرينَ عاماً أجدني فجأةً أتساءلُ : تُرى، ماذا حصل له؟ أين هو الآن؟ هل أتعرَّفُ إليه؟ هل هو أحد قوادنا ؟ أيمكن أن يكون فيكتور؟ أو جوفيان؟ إنَّ كلاً منهما في مثل سنّه. كلا، من الأفضل أن أدع الماضي وشأنه، أنْ أحفظه فقط هنا على الورق. يجب أن تنتهي دورةُ الانتقام في مكانٍ ما، وأي مكانٍ أفضلُ للتوقُّف من موقع الأمير؟

سرعان ما اكتشفتُ ما كانَ يعنيه والدي خلال ذلك الحديث الذي تبادله مع مدير العزبة. كان مُقرّراً أن يرسلنا إلى ابن العم يوسيبيوس، أسقف نيكوميديا. لكي يكون راعينا وفي اليوم التالي للقبض على والدنا، دَفَعَنا ماردونيوس أنا وغالوس إلى عربة ولم نأخذ معنا إلا ملابسنا الشخصية. وقطعنا مسافةَ الخمسينَ ميلاً إلى نيكوميديا دون أن نرتاح، ولم نتوقَّف إلا لكي نُبدِّلَ الجياد. واستوقفتنا مرة واحدة فرقةٌ من الجنود الراكبين. وبصوتٍ مرتعش أخبرهم ماردونيوس أننا تحت الحماية الشخصية للإمبراطور قسطنطينوس. فتركونا نمرّ. وواظبنا على السير ليلاً ونهاراً.

يا لتلك الليلة! كان غالوس يُعاني من حمّى كادت تقضي عليه. أثناء هذيانه، تحت وطأة تعذيب شياطين الحمّى، كان يتلوّى على الحشيّة القش التي أُعِدَّتْ له على أرضية العربة. وضعَ ماردونيوس قطعةً من الفانيلا منقوعةً بالخلّ على وجهه - يفوحُ منها عبقُ الخلّ الحريف - نعم، لا يزالُ الخلُ يُذكّرني بتلك الليلة الرهيبة. وفي إحدى اللحظات لَمسْتُ وجهه فوجدته حاراً كخرقةٍ مُبلَّلة تُرِكَتْ تحت أشعة الشمس لتجفّ. كان شعرُه الذهبي قاتماً ومنقوعاً بالعَرَق؛ وذراعاه ترتعشان؛ وكان يهلْوِسُ بكلماتٍ ويبكي.

جلستُ على المقعد، وأنا في كامل يقظتي، إلى جوار ماردونيوس والعربةُ تتعلْعَلُ بنا على الدروب الريفية، والليلُ الدافئ برّاقٌ كما النهار بفعل ضوء قمرٍ أصفرٍ هائلِ الحجم كان يفرش ضياءه أمامنا، كنارِ الإرشاد التي توقَدُ لهداية السُفُن.

في تلك الليلة لم أتكلَّم أبداً. وعلى الرغم من أني لم أكنْ قد تجاوزتُ السادسة من العمر، إلاّ أني أخذتُ أُردِّدُ لنفسي : هل ستموت، وتساءلتُ كيف يكونُ الموت.

أعتقدُ أني أصبحتُ فيلسوفاً في تلك الليلة، ذلك أني في عهد شبابي وجهلي كنتُ فضولياً أكثر مني خائفاً بل أعتقدُ أني كنتُ فرِحاً قليلاً بتلك الرحلة اليائسة عبرَ ريفٍ غير مألوف، وقمرٍ ذهبيَ يتوهَّجُ ضياؤه، وغالوس يتلوَّى عند قدَمَيّ، يتوسَّلُ إليَّ كي أُعطيه عصا ليحاربَ بها الشياطين.

*

ونجونا، ونحن مندهشون. وعشنا أنا وغالوس مدةَ خمس سنين في كَنَف الأسقف يوسيبيوس في نيكوميديا ولاحقاً، في القسطنطينية. وكانَ يوسيبيوس رجلاً عجوزاً وقوراً، وعلى الرغم من أنه لم يكن يحبُ الأطفال إلاّ أنه أحسَنَ معاملتنا. المهمّ في الموضوع أنه منعَ قسطنتيوس من الاقتراب منا وأطاعه قسطنتيوس، ذلك أنَّ يوسيبيوس كان يمثّلُ سلطةً عُظمى في التسلسل الجليليّ. وبعد مرورِ سنينَ كحامٍ لنا أصبحَ أسقفاً للقسطنطينية، حيث بقيَ في الواقع يحكمُ الكنيسة الشرقيّة حتى وفاته.

إنَّ الأطفال يتعوَّدون على كل شيء. فقد اشتقنا إلى والدنا بعض الوقت، ومن ثم نسيناه. كان ماردونيوس دائماً بصُحبتنا، ليُبقينا على اتّصالٍ بالحياة القديمة. وطبعاً، كان خالي الكونت جوليان كثيراً ما يقومُ بزيارتنا. كان بيروقراطياً ساحراً يستمتعُ بحبكِ المؤامرات، ويمدّنا بأخبار العالم. وهو الذي شرحَ لنا كيفَ يجعلُ قسطنتيوس من نفسه السيدَ الأوحدَ للدولة. وفي عام ٣٤٠ دبَّ الخلافُ بين كونستانس وقسطنطين الثاني. وتحاربا. ووقعَ قسطنطين الثاني في كمينٍ نُصِبَ له وتمَّ إعدامه في أكويليا. وأصبحَ كونستانس الحاكمَ الأوحد للغرب. ثم أعلنَ قائدُ عسكري اسمه ماغنيتيوس نفسه أوغسطاً ونقَلَ كونستانس من أوتون إلى البيرينيز. وهناك اغتيلَ في شتاء عام ٣٥٠ . وعمَّتْ الغربَ فوضى عارمة. وبينما كان ماغنيتيوس يحاولُ يائساً أن يحافظَ على تماسُك إمبراطوريته المسروقة، أعلنَ قائدٌ عسكريٌ في منطقة الدانوب اسمه فترانيو هو الآخر نفسه إمبراطوراً.

ولكي أُنصِفَ قسطنتيوس أقولُ إنه كان عبقرياً في شنِ حربٍ أهلية. كان يعرف متى يضرب ضربته، والأهمّ من ذلك، إلى مَنْ يُسدِّد الضربة. وكان دائماً يفوز. ولطالما اعتقدتُ أنه لو عاش أكثر لقضى عليَّ كما قضى بالموت على الآخرين. ونزلَ قسطنتيوس إلى ساحة القتال في عام ٣٥٠، في مواجهةٍ مع اثنين من مُغتصبي

العرش. وانهارَ فترانيو على الفور وتُرِكَ حياً، وهي ظاهرةٌ فريدة في تاريخنا. وطبعاً هُزِمَ ماغنيتيوس في معركة مورسا، في ٢٨ أيلول من عام ٣٥٢ . وكانت تلك إحدى اللحظات العصيبة في تاريخنا. وحتى يومنا هذا لم يبرأ جيشنا من خسارةِ أربعة وخمسينَ ألفاً من خيرة قواتنا.

بينما كان الأمراءُ يُخطِّطون ويتقاتلون، كان ماردونيوس يُثقّفني. كان مُعلِّماً صارماً، لكنه مُلهَم. كنتُ أحبه. أما غالوس فكان يكرهه، غير أنَّ غالوس كان تقريباً يكره كلَّ شخصٍ عاجلاً أو آجلاً. وأذكُرُ ذات مرة حين أبدَيتُ رغبتي في مشاهدة عرضٍ لسباق العربات، قال ماردونيوس " إذا كنتَ تروم اللعبَ فاقرأ هومر. لا شيءَ في الحياة يعادلُ ما كَتَبَه عن الألعاب، أو عن أي شيءٍ آخر ". نصيحةٌ تثير جنون طفل، لكنّها حكيمة. ثم كان أنْ أصبحتُ رجلاً كاملَ الرجولة قبل أنْ أرتادَ المسرح أو حلبة المصارعة، وقد فَعَلتُ فقط لأني لم أُرِدْ أن أُثير استياءَ أشخاصٍ آخرين. نعم. كنتُ أقربَ إلى التزمُّت، ولا أزال!

إنني لا أحملُ إلا ذكرى واحدة صافية عن الأسقف يوسيبيوس وذلك بَعد ظهر أحد الأيام حين قرَّرَ أن يُثقّفني بنفسه بحياة الناصريّ. كنا نجلسُ على مدى ساعات في كنيسةٍ صغيرةٍ جانبية تابعةٍ لكاتدرائيةِ نيكوميديا وهو يستجوبني. كنتُ أضجرُ. كان الأسقف موهوباً في شرح الأشياء التي يعرفها المرء مُسبقاً، ويترك الغامض منها الذي يودُّ الإنسانُ أن يعرفه. كان رجلاً عجوزاً، شاحبَ الوجه، ثقيلَ الحركة، بطيءَ الكلام وتسهل مُتابعته. وعلى سبيل الترويح عن نفسي رحتُ أحدِّق إلى السقف، الذي كان مضطراً ومُقسَّماً إلى أربعة أقسام، كلٌّ منها مُخصَّص لأحد الفصول. وكانت الأزهارُ والكرمةُ، والعصافير والأسماك كلّها منضفرة في فسيفساءٍ رائعة. كنتُ أحفظُ تفاصيلَ السقف عن ظهر قلب ذلك أني وغالوس كنا نصلّي ثلاث مرات في اليوم في ذلك المُصلّى الصغير، وخلال تلك الصلوات المملّة كنتُ أتخيَّلُ أني أتمتَّعُ بالقُدرة على الارتفاع عالياً في الجو وولوج عالمٍ من الطواويس وأشجار النخيل وأغصان الكرمة المتشابكة، عالم من الذهب البرّاق حيث لا صوتَ غير خرير المياه الجارية وزقزقة العصافير - وحتماً لا مواعظ ولا صلوات! قبل بضع سنوات حين دمَّرَ زلزالٌ منطقة نيكوميديا، كان أول ما سألتُ عنه هو الكاتدرائية. أما زالتْ قائمة؟ قيل لي نعم، لكنَّ السقفَ سقط. وهكذا تحوَّلَ ملاذ سحر طفولتي إلى رُكام.

يبدو أنَّ تحديقي إلى السقف كان مفضوحاً، ذلك أنَّ الأسقف سألني فجأةً " ما هي أهم وصايا ربّنا؟ "

ودون تفكير، قلت " لا تقتل ". من ثم رحتُ أقتطفُ كلَّ النصوص ذات الصلة من العهد الجديد (الذي كنتُ أحفظُ كثيراً منه عن ظهر قلب) وكل ما تذكَّرتُه من العهد القديم. لم يتوقَّع الأسقف هذا الجواب. لكنه أومأ برأسه استحساناً. " أحسنتَ. ولكن لماذا تعتقد أنَّ هذه الوصيّة هي الأهمّ؟ "

" لأنها لو نُفِّذَتْ لكان والدي الآن على قيد الحياة "، وذُهِلتُ من سرعة ردّي.

أصبحَ وجه الأسقف أشدَّ شحوباً من المعتاد. " لماذا تقولُ هذا؟ "

" لأنه الحقيقة. لقد قَتَلَ الإمبراطور والدي. الكلُّ يعلمُ هذا. وأعتقدُ أنه سوف يغتالُ غالوس ويغتالني أيضاً حين تسنح الفرصة له ". ما إنْ تبدأ الجرأة حتى يصعُب كبحها.

قال الأسقف بقسوة " الإمبراطور رجلٌ ورِع؛ العالمُ كلّه مُعجَبٌ بتقواه، وحربه ضد الهرطقة، ودعمه للإيمان الحقّ "

هذا الكلامَ فاقمَ من تهوُّري. "إذا كان مسيحياً صالحاً هكذا، فكيفَ استطاعَ أن يقتل كل ذلك العدد من أفراد عائلته؟ ألمْ يرد في سِفر متّى وأيضاً في سِفر لوقا أنَّ..."

استَعَرَ غضبُ الأسقف " أيها الأحمق الصغير! مَنْ الذي أخبركَ بهذه الأشياء؟ ماردونيوس؟ "

كنتُ أتمتَّعُ بما يكفي من الحس بحيث أدافعُ عن معلّمي. " كلا، أيها الأسقف. لكنَّ الناس يتحدثون عن كل شيء أمامنا. أعتقد أنهم يظنون أننا لا نفقه شيئاً. على أي حال، إنَّ هذا كله صحيح، أليس كذلك؟ "

كان الأسقف قد استعاد هدوءه. أدلى بجوابه ببطء وتجهُّم. " إنَّ كل ما أنتَ بحاجةٍ إلى معرفته هو أنَّ ابنَ عمِّك الإمبراطور رجلٌ صالح ومُتمسِّك بدينِه، ولا تنسَ أنكَ تحت رحمته ". ثم أجبرني الأسقف على التلاوة على مدى أربع ساعات، عقاباً لي على وقاحتي. لكنَّ الدرسَ الذي تعلَّمتُه لم يكن ذاك المقصود. إنَّ كل ما فهمته هو أنَّ قسطنتيوس كان مسيحياً مخلِصاً. ومع ذلك قَتَلَ لحمه ودمَه. لذلك، إذا كان يمكن أن

يكونَ معاً مسيحياً وصالحاً وقاتلاً، إذن فهناك خطأ في هذا الدين. وغنيٌ عن القول إني لم أعُد أحمِّل دين قسطنتيوس مغبَّة سوء أفعاله، بقدر ما كانت الهلّينية غير مسؤولة عن عيوبي! غير أنَّ هذا النوع من التناقض الجاف بالنسبة إلى طفل أمرٍ مزعج، وليس من السهل نسيانه.

في عام ٣٤٠ نُصِّبَ يوسيبيوس أسقفاً للقسطنطينية. نتيجة لذلك، وزّعنا أنا وغالوس وقتنا بين نيكوميديا والعاصمة. وبين الموقعَين كنتُ أفضِّل القسطنطينية.

لم يكن للقسطنطينية قاض، فقد كانت قد تأسَّست قبل مولدي؛ لم يكن هناك غير حاضر يضجُّ بالحركة ومستقبل باهر، إذا صدَّقنا المتكهّنين. وقد انتقى قسطنطين عن عمد بيزنطة العريقة لتكونَ عاصمةَ الإمبراطورية الرومانية، ومن ثم أقامَ مدينة جديدة على أنقاض المدينة القديمة، وسمّى النتيجة - بكل تواضع - على اسمه. وكأغلب أطفال المدينة ابتهجت لحيويتها ولجدَّتها الفجّة. كان الجو دائماً مُفعماً بالغبار وبرائحة الملاط؛ والشوارع تضجّ بضرب المطارق. هذه الفوضى من المفروض أنْ تكون مزعجة، لكنها كانت منعشة. كانت المدينة تتغيَّر من يوم إلى يوم. واستُبدلَتْ مشاهد شبابي المألوفة بأبنية جديدة، وشوارع جديدة، ومشاهد جديدة، ووجدتُ أنَّ من الرائع أنْ يشهد المرء بداية شيء عظيم بدل أنْ يشهد نهايته.

حين يكون الطقس صافياً اعتادَ ماردونيوس أن يصحبنا أنا وغالوس لنتمشّى في أرجاء المدينة. كنا نسمّي تلك النزهات بـ " تصيُّد التماثيل "، لأنَّ ماردونيوس كان مهتماً بولَه بالأعمال الفنية وكان يجرّنا من أحد أطراف المدينة إلى الآخر بحثاً عنها. وأعتقد أننا شاهدنا ما لايقل عن عشرة آلاف تمثال برونزي ورخامي كلها كان قسطنطين قد سرقها من أركان الدنيا الأربعة ليزيِّن بها مدينته. وعلى الرغم من أنه قد لا يوافق المرء على سرقاته (خاصة تلك التي سرقها من المعابد الهيلّينية) إلا أنَّ النتيجة كانت أنه أصبحت الأروقة المقنطرة المختلفة الموزّعة على طول الشارع الأوسط، وهو شارع المدينة العام، تضمّ داخلها وحولها من الأعمال الفنية الهامة ما يفوق ما يضمّه العالم كله، باستثناء روما.

إحدى تلك الحملات أوصلتنا إلى بيت موتى الجليلي، قريب من الهيبودروم. وبينما كان ماردونيوس يعبث بخريطة للمدينة، محاولاً أنْ يُحدِّد اتجاهاته، أخذنا أنا وغالوس نرمي قطعاً صغيرة من الرخام على منزل في طور البناء يقع على الطَرَف

المقابل من الشارع. هناك دائماً عددٌ مرضٍ من الأشياء التي يرميها الطفل في شوارع القسطنطينية، قطع من الرخام، وشظايا من الخشب وكسارة الآجر. البنَّاؤون لا ينظّفون المكان أبداً.

قال ماردونيوس، وهو يُحدِّق عن قُرب إلى الخريطة " الآن هنا يجب أن يكون تمثال نمسيس فيدياس الشهير الذي امتلكه المقدَّس قسطنطين قبل سنوات، وأعتقد أنه الأصل، على الرغم من أنَّ هناك مَنْ يؤكد أنه نسخة، لكنها نسخة صُنِعَتْ قبل قرنٍ من الزمان، بالرخام الباروسي[٢٣]، وبالتالي فهو ليس رومانياً، ليس فاسداً "

فُتِحَ فجأةً بابُ بيت الموتى واندفع منه رجلان محجوزان راكضَين إلى الشارع، تلاحقهما عن قُرب حفنةٌ من الكُهَّان، مسلّحين بالعصي. وصلَ العجوزان حتى الرواق المُقنطَر حيث كنا نقف. ثم أمسكَ الكهَّان بهما، وطرحوهما أرضاً، أخذوا يضربونهما، وهم يصيحون طِوال الوقت " مهرطقان! مهرطقان! "

التفَتُّ وأنا مذهولٌ إلى ماردونيوس. " لماذا يؤذون هذين الرجلَين؟ "

تنهَّدَ ماردونيوس " لأنهما مُهرطقان "

" أهما أثاناسيَّان[٢٤] قذران؟ ". كان غالوس، الأكبر مني سناً، قد تعرَّفَ حينئذٍ على مُعظَم خرافات العالم الجديد.

" أنا خائف جداً. الأفضل أنْ نذهب "

لكني كنتُ فضولياً. أردتُ أنْ أعرف مَنْ هو الأثاناسياني.

" إنهم حمقى مضلّلون يؤمنون بأنَّ يسوع والله هما شيء واحد... "

قالَ غالوس " حين يعلم الجميع يصبحون متشابهين "

" بالضبط. كما علَّمنا آريوس الكاهن - الذي كان يحظى بكثيرٍ من إعجاب ابن عمك الإمبراطور المُبجَّل "

قال غالوس " لقد سَمَّموا الراهب آريوس "، وكان أصلاً مُشايعاً عنيفاً، ثم التقَطَ حجراً وزَعَقَ، " مهرطقان قَتَلَة! "، وأطاحَ بالحجر بدقَّة مؤسفة نحو أحد العجوزيْن. توقَّفَ الرهبان عن أداء عملهم المتجانس معهم ليقرّظوا براعة غالوس في الرماية. واستشاط ماردونيوس غَضَبَاً، ولكن فقط على أساسٍ من الاستقامة.

ثم هزَّ أخي هزَّة قوية. " غالوس! أنتَ أمير، وليس مُشاغباً من الشارع! " ثم قبضَ علينا بحزم من ذراعَينا، وأسرعَ ماردونيوس يبتعدُ بنا. وبديهيٌّ أني فُتِنتُ بهذا كله.

" ولكن حتماً هذان العجوزان مُسالمان "

" مُسالمان؟ لقد قَتَلا الكاهن آريوس "، وشَعَّتْ عينا غالوس بالاستقامة.

" هذان الاثنان؟ أحقاً هما اللذان قَتلاه؟ "

قالَ ماردونيوس " كلا، لكنّهما من أتباع الأسقف أثاناسيوس... "

" أسوأ المُهرطقين قاطبةً؟ ". كان غالوس دائماً ينتشي حين تتزامن حاجته إلى العنف مع ما يَعتقد الآخرون أنه التصرُّف السليم.

" ويُعتَقَد أنَّ أثاناسيوس أمرَ بتسميم آريوس في أحد المجالس الكنسية، قبل نحو سبع سنين. ونتيجةً لذلك، تمَّ نفيُ أثاناسيوس بأمرٍ من عمِّك المُبجَّل. والآن، يا جوليان يجب أن أُذكِّرَكَ للمرة المئة ربما - أم هي الألف؟ - بألاّ تقضمَ أظافرك "

توقَّفتُ عن قضمِ أظافري، وهي عادةٌ لم أتخلَّ عنها تماماً حتى يومي هذا. سألته "ولكن أليسوا جميعاً من المسيحيين؟ ألا يؤمنون بالمسيح وبالأناجيل؟ "

قال غالوس " كلا "

قال ماردونيوس " بل نعم، هم أيضاً من المسيحيين، لكنّهم ارتكبوا خطأً "

حتى وأنا طفل كنتُ أتمتَّعُ بتفكيرٍ منطقي. " ولكن إذا كانوا من المسيحيين، مثلنا، فيجبُ ألاّ نحاربهم بل أنْ نُديرَ لهم الخدْ الآخر، وحتماً يجب ألاّ يقتلُ أحدٌ أحداً، لأنَّ يسوع يأمرنا بألاّ... "

قال ماردونيوس " أخشى أنَّ الأمرَ ليس بهذه البساطة ". ولكنه طبعاً كان كذلك. حتى وأنا طفل كنتُ أرى التبايُن بين ما يقول الجليليون أنهم يؤمنون به، وما يؤمنون به فعلاً كما يتجلّى في أفعالهم. لا يمكنُ لدينِ الأخوَّة والاعتدال الذي يقتلُ يومياً الذين لا يتفقون مع مبادئه إلاّ أنْ يُعتَبَرَ منافقاً، أو ما هو أسوأ. والآن من المناسب لأهداف مذكراتي أنْ أقولَ إني في الوقت الحاضر لم أعُدْ جليلياً. ولكنْ لسوء الحظ هذا غير صحيح. فعلى الرغم من وقوعي في الحيرة مما شاهدتُ، إلاّ أني بقيتُ مؤمناً، وتحرُّري من الناصري حَدَثَ بعد ذلك بوقتٍ طويل. ولكن حين أعودُ بذاكرتي، أعتقدُ أنَّ السلاسل الأولى انكسرَتْ عن عقلي في ذلك اليوم في الشارع حين شاهدتُ تينكَ العجوزين المُسالمَين يتعرَّضان لهجومِ الرُهبان.

*

في الصيف تعوَّدتُ على أنْ أذهبَ إلى ضَيعةِ جدَّتي من جِهة أبي في بيثينيا. كانت مزرعةً صغيرة تبعُدُ مسافةَ ميلَين عن البحر. وخلفَ المنزل كان هناك تلٌّ منخفضٌ يطلُّ من أعلاه على مشهدٍ رائعٍ لبحر مرمرة، في حين أنَّ في أفق المُنحنى الأبعَدْ إلى الشمال تنهضُ أبراجُ مدينة القسطنطينية. هنا كنتُ أقضي ساعاتٍ عديدةٍ، أقرأ وأحلمُ.

بعد ظهر أحد الأيام شعرتُ بالنُعاس، بهدهدة النحل الطنّان، ورائحة الصعتر، والهواء الدافئ المالح، واستغرقت في النوم وحلمتُ بأَني أشتبكُ فيما يشبه الشجار مع غالوس. أردتُ أنْ أفلت منه، فبدأتُ أركض. وبينما أنا كذلك كانت خطواتي تتَّسع أكثر فأكثر إلى أنْ بدأتُ أقفزُ كالغزال، ومع كل قفزة أبقى عالياً في الجو إلى أنْ أنزلق أخيراً فوقَ الريف، والناس في الأسفل يُحدِّقون إليّ متعجّبين وأنا أنسابُ فوقَ رؤوسهم، بحريّةٍ تامة. لا حلمَ أشدّ إقناعاً من الحلم بالطيران.

فجأةً وأنا وسط رحلتي الممتعة، أدركتُ أنَّ ثمةَ مَنْ يناديني. تلفَّتُ حولي فلم أجد أحداً، لا شيءَ غير الغيوم الباهتة اللون والسماء الزرقاء، والبحر القاتم. كنتُ أنزلقُ فوقَ بحر مرمرة، متوجّهاً إلى القسطنطينية، وإذا بي أسمعُ الصوتَ من جديد.

سألتُ " مَنْ يناديني؟ "

حينئذٍ - لا أدري كيف - لكني أدركتُ أنَّ الشمس هي التي كانت تتكلَّم. مدّتِ الشمس الهائلة الحجم والذهبية الساطعة فوق المدينة أذرعها النارية نحوي. وغصتُ مع إحساسٍ حادٍ بشكلٍ مذهلٍ بالعودةِ إلى المنزل في النور المُبهر. حينَ أفقتُ وجدتُ أنَّ الشمس الغاربةَ تسطعُ حقاً على وجهي. نهضتُ واقفاً على قَدَمَيّ، منبهراً. كنتُ مغموراً بالضياء. كنتُ أيضاً متحيِّراً. لقد وقعَ أمرٌ جلَلْ. ولكن ما هو؟

لم أُخبِر أحداً برؤياي. ولكن بعد مرور بضعة أشهر، حين كنتُ وماردينوس وحدنا في حدائق القصر نستشرف البوسفور، سألتُه عن الدِين القديم. بدأتُ بحياء قائلاً : هل كل ما كتبه هومر صحيح؟

" طبعاً! حرفيّاً! "

" إذن لابدّ أنَّ زيوس وأبولو وباقي الآلهة موجودون، كما يقول. فإذا كانوا حقيقيين، ماذا حدثَ لهم؟ هل قضى يسوع عليهم؟ "

مسكينٌ ماردونيوس! لقد كان كلاسيكياً مُخلصاً. كان أيضاً جليلياً. ومثل كثيرين في تلك الأيام كان مُشتَّتاً إلى أقصى حد. لكنَّ جوابه كان حاضراً. " يجب أن

تتذكَّر أنَّ المسيح لم يكن موجوداً في عصر هومر. وعلى الرغم من أنه كان حكيماً مثل هومر، إلاّ أنه لم يُتَح له أنْ يتوصَّل إلى الحقيقة المُطلَقَة التي نعرفها. لهذا اضطرَّ إلى أنْ يتعاملَ مع الآلهة ولطالما آمنَ الناسُ بالـ... "

" إنها آلهة زائفة، وفقاً لِما قاله يسوع، فإذا كانت زائفة فإنَّ ما يكتبه هومر عنها غير صحيح "

" إلاّ أنَّ تلك الآلهة، ككل الأشياء، هي تجسيدٌ للحقيقة "، ثم بدَّلَ ماردونيوس رأيَه. " لقد كان هومر مؤمناً مثلنا. وعَبَدَ الربَّ الواحدَ، مبدأ الكون الوحيد. وأعتقدُ أنه كان واعياً أنَّ الربَّ الواحدَ يمكنُ أن يتَّخِذَ أشكالاً عديدةً، وأنَّ آلهة أولمبوس هي مِنْ بينها. والله، على أي حال، يتَّخِذُ حتى يومنا هذا أسماءً كثيرةً لأنَّ لدينا لغات وتقاليدَ كثيرة، في حين أنه هو يبقى كما هو "

" اذكُر لي بعضاً من أسمائه القديمة "

" زيوس، وهليوس الشمس، وسيرابيس... "

باشرتُ بالقول " الشمس، معبودي، أبولو... "

" أبولو أيضاً كانت له أسماءٌ كثيرةٌ، هليوس، رفيق ميثراس... "

ردَّدتُ بخفوت " أبولو، هليوس، ميثراس ". من موقعِ جلوسنا في البستان الظليل على المُنحَدَر تحت قصر دافني، استطعتُ أنْ ألمحَ معبودي جاثماً على غصنِ شجرةِ سروٍ أخضر داكن.

" كان المذهب الميثراسي هو أشدّ العبادات شيطانيّةً. في الواقع، ما زالَ هناك بعضٌ من مُعتنقيه الناشطين، وهم في غالبيتهم من الجنود الجَهَلَة، وإنْ وُجِدَ بعضُ الفلاسفة بينهم (أو فلاسفةٌ مُدَّعون)، مثل إيامبليخوس... قابلتُهُ مرةً واحدة، وهو رجلٌ على قدرٍ هائلٍ من القُبح، سوري، أعتقدُ أنه من كاليس، وقد توفيَ قبل بضع سنوات، وله حلقةٌ صغيرةٌ من المُعجَبين، لكني طالما وجدتُ نثرَه غامضاً غموضاً غير معقول. كان يدَّعي أنه تلميذُ أفلاطون وطبعاً كان يؤكِّد أنَّ يسوع نبيٌ زائف وأنَّ ثالوثنا شيءٌ سخيف. ثم - وهذا جنونٌ مُطبق - اختلقَ ثالوثاً خاصاً به، أساسه تعاليم أفلاطون "

اندفَعَ ماردونيوس في حماسه للشرح، ولم يعد واعياً لوجود مستمعه السابح في عالم آخر والذي لعلّه كان يفهم كل كلمة تلفَّظَ بها. غير أنَّ المعنى العام لِما قيلَ كان

واضحاً تماماً. كان هليوس يمثِّلُ جانباً من الله الواحد. وكان هناك أولئك، أمثال ذلك الغامض إيامبليخوس، الذين ما زالوا يعبدونه.

" وفقاً لإيامبليخوس، هناك ثلاثةُ عوالم، ثلاثة عوالم للوجود، يترأسُ كلاً منها إله واحد جانبه المرئي هو الشمس. أول تلك العوالم هو العالَمُ الجليّ الذي يمكنُ إدراكُ فهمه بالعقل. وسوفَ تجدُ هذا كله عند أفلاطون، حين نصلُ إليه، هذا إذا وصلتَ إليه في مرحلتكَ الحاضرة. العالمُ الثاني هو العالم المتوسط (وهو من اختراع إيامبليخوس) عالمٌ وُهِبَ الذكاء ويحكمه هليوس-ميثراس، مع عددٍ من المساعدين اتّضحَ أنهم الآلهة القديمة تتَّخذُ أساليبَ مختلفةَ للتخفّي، خاصةً سيرابيس الذي تعودُ إليه أرواحنا بعد الموت، وديونيسيوس الأشقر، وهرمز ذكاءُ الكون، وأسكليبيوس الذي نعتقدُ أنه كان موجوداً حقاً، وأنه كان طبيباً شهيراً عَبَدَه أسلافنا بوصفه مُنقذاً وشافياً "

" مثل يسوع؟ "

" نعم، يشبهه بصورةٍ ما. وأخيراً، العالمُ الثالث هو عالمنا، عالم الحسّ والإدراك. وبين العوالم الثلاثة، تقومُ الشمسُ بالوساطة. النور هو الخير؛ والظلام هو الشر؛ وميثراس هو الجسر، الرابط، بين الإنسان والإله، بين النور والظلام. وكما ترى - أو كما سترى - فقط جزءٌ من هذا مصدره أفلاطون. أغلبه من أصلٍ فارسيّ، قائمٍ على أساسِ بطلٍ فارسيٍّ اسمه ميثراس عاشَ، هذا إنْ وُجِدَ، قبلَ ألفِ عام. ولحُسن الحظ، مع مولد يسوع ولغز الثالوث انتهى هذا الهراء كله "

" لكنَّ الشمسَ لا تزالُ موجودة "

" لكي نكونَ دقيقين، في الوقت الحاضر الشمس ليستْ موجودة ". نهضَ ماردونيوس. " إنه وقتُ الغروب وقد تأخرنا على موعد العشاء "

هكذا توصَّلتُ إلى إدراكِ الله الواحد. وكنتُ قد رأيتُ في الحلم أنَّ هليوس_ميثراس يناديني وشاهدتُ، حرفياً، النور. وبدءاً بذلك اليوم لن أعُد وحيداً. أصبحتْ الشمسُ حارستي.

يجب أنْ أذكُر أنني خلال تلك السنين احتجتُ إلى كلّ ما يمكنني أنْ أحصل عليه من سلوان، ذلك أنني كنتُ مسكوناً باستمرار بورطتي. فهل سألقى الموتَ كما حصلَ لوالدي؟ أحد أحلام اليقظة التي راودتني كانت عن لقاء بيني وبين قسطنطين، بمحض المصادفة، على تل جدتي. في الحلم كان الإمبراطور دائماً وحده. كان صارماً لكنّه

لطيف؛ ويتحدَّث في الأدب؛ وابتهجَ لمعرفتي الواسعة (كنتُ أحبُ أنْ أتلقَّى التقريظ لحُسن قراءتي). ثم أصبحنا صديقَين حميمين، ثم انتهى الحلم بأنْ منحني حريةَ أنْ أعيشَ باقي حياتي في مزرعةِ جدَّتي، فقد اقتنعَ بمجرَّد النظر في عيني بأني لستُ دنيوياً، وأني لا أرغبُ في الاستيلاء على عرشِه ولا في الانتقام منه لقتلِه والدي. وقد حاولتُ مراراً أنْ أقنعَهُ في مخيّلتي بمناظرةٍ لامعةٍ وكان يُلبّي رغبتي، والدموعُ في عينيه لصِدقي وبُعدي عن الرياء.

ما أغرب حال الرجال! كنتُ حقاً صادقاً في ذلك الوقت. كنتُ كما وصفتُ نفسي بالضبط. لم أكن أرغبُ في السلطة، أو هذا ما ظننتُه. كنتُ أؤمنُ بصدقٍ بأني أريدُ أنْ أعيشَ حياةً مغمورةً. ومن ثم؟ قضيتُ على قسطنتيوس. واستولَيتُ على العرش. بما أني أعرفُ هذا الآن، لو أني كنتُ قسطنتيوس وكان هو ذلك الفتى الحالم فوقَ تل بيثينيا، لقضيتُ على ذلك الفيلسوف الشاب في الحال. ولكن لا أحدَ منا أدركَ مَنْ كنتُ، أو ماذا سأصبحُ.

-٣-

حين كنتُ في الحادية عشرة من عمري طرأ على حياتي مرةً أخرى تغيُّرٌ سريع. ففي صباح أحد الأيام من شهر أيار كنتُ أدرسُ مع ماردونيوس. كنتُ أقرأ هزيود وأرتكبُ أخطاءً كثيرةً جداً، وإذا بغالوس يدخل الغرفة.

" لقد مات. الأسقف مات. في الكنيسة. مات. هكذا ببساطة! "

رسمَ ماردونيوس علامة الصليب على صدره؛ وكذلك فعلتُ أنا. وبعد برهة انضمَّ إلينا رجالُ دين، وموظفون رسميون، وخدم. كُلٌّ كان مذهولاً، مرعوباً، ذلك أنه كان حَدَثاً جللاً أن يموتَ أسقفُ القسطنطينية، وأمرُ خليفَتُهُ كان مسألةً قوميةً هامة. فالإمبراطور - إذا كان جليلياً - كان دائماً يتدخَّل في اختيار خليفته. لكنَّ قسطنتيوس كان على مسافةِ ألفِ ميل، على تخوم بلاد فارس. لذا ظلَّ منصب الأسقف شاغراً طوال أسابيع عِدَّة، ولم يعرف أحدٌ ماذا يفعلُ بشأن غالوس وشأني. ولحُسن الحظ، كان عمي جوليان موجوداً في المدينة، وفي اليوم التالي لإقامة الجنازة جاء ليرانا.

" سوفَ يقتلنا، أليس كذلك؟ ". كان غالوس يتصرَّف بتهوُّرٍ وهو تحت الضغط.

ابتسامةُ العم جوليان لم تكن مُقنِعَة كثيراً. " كلا، حتماً. في كل الأحوال أنتما وريثا قسطنطين الأكبر "

قال غالوس بتجهُّم " كذلك كان والدنا، والآخرون كلهم "

" لكنَّ أوغسطس المُبجَّل كان صديقاً لكما "

" إذن لماذا نحنُ رهن الاعتقال؟ ". كان غالوس يشيرُ بهذا إلى البوليس السرّي الذي كان قد وصلَ في ذلك اليوم بالذات؛ وحين حاولنا أنا وغالوس أنْ نخرج، أمرونا بكل لطف أن نلزمَ أماكننا " إلى أنْ تصدر أوامر أخرى "

" إنهم من أجل حمايتكما "

قال غالوس " الحماية الوحيدة التي نحتاجها هي من قسطنتيوس "، قال ذلك بصوتٍ منخفض. فعلى الرغم من كونه حادّ الطِباع إلاّ أنه لم يكن انتحارياً. وبدا التوتُّر الشديد على الكونت جوليان.

" هذا غير صحيح، يا غالوس. والآن أصغِ إليّ جيداً. لقد أخبرني مصدر مُقرَّب من الإمبراطور، مُقرَّب جداً، بأنَّ قسطنتيوس يعتقد أنَّ سبب عدم قدرته على إنجاب الأطفال يعودُ إلى أنه - إلى أنَّ عدداً كبيراً من أفراد عائلته - أنهم، أه، ماتوا! "

" نعم، ولكن بما أنه ارتكبَ ما يكفي من جرائم القتل لزجِّه في جهنم، أيضاً. على أي حال، ما أنتم إلاّ أولاد "

شَخَرَ غالوس. كان وهو في السادسة عشرة يحمل بنية رجل، لكنَّ شخصيته كانت ما تزال طفلة، طفلة عنيفة، مدمِّرة "

كانت نبرة صوت الكونت جوليان مُهدِّئة. " صدّقني، أنتما آمنان ". كان في مزاجٍ ممتاز، فقد كان قد عُيِّنَ لتوّه حاكماً لمصر، وأخشى أنَّ هذا ما كان يشغل باله أكثر من مصير ولَدَيْ أخيه. لكنه بذلَ قُصارى جهده للسهرِ على راحتنا، على الأقلّ أنا أشعرُ بالامتنان على هذا. وغادرنا مع بعض الكلمات الفارغة. " ليس هناك ما تخشيانه "

بعد ذهابه، حطَّمَ غالوس الكأسَ الذي كان يستخدمه عن عمد. كان كسْرُ الأشياء دائماً يمنح غالوس راحة جَسَديّة؛ وتهشيم ذلك الكأس بالذات حصل بطقسٍ خاص. " إنه مثل الباقين جميعاً ". فرقَعَ صوتَه من الغضب وهو واقفٌ هناك تحت الشمس الساطعة في يومٍ نضِرِ الخُضرة من شهر أيار، وشعره الطويل الباهت اللون متشابك فوق جبينه، وعيناه المُذهلتا الزُرقَة اتَّسَعَتا بفعل نوبةٍ مُفاجئةٍ من البكاء. " لا مَهرَب لنا من هنا! "

حاولتُ أنْ أقول شيئاً يحدو إلى الأمل لكنّه هاجمني قائلاً " أنتَ لا قيمةَ لك، أيها القرد الحقير! ولكن لماذا أموت أنا؟ ". حقاً، لماذا؟ كل إنسان يطرح على نفسه هذا السؤال عاجلاً أو آجلاً. لا أحد يمكن أن يحبنا قدر حُبّنا لأنفسنا. وغالوس لم يرَ عدلاً في عالمٍ الجمالُ فيه والحيوية كاللتَين يتمتَّع بهما يمكن أنْ يُخمَدا بالبساطة التي يُخمَد بها فتيل مصباح. وطبعاً القَدَر قاس. لكنَّ الأطفال لا يقبلون هذا، ولا الرجال أمثال غالوس الذين يرون كلَّ شيءٍ كحوادث طارئة عليهم. كنتُ أحبُّ غالوس. وكنتُ أكرهه.

خلال السنوات الأولى من حياتي كان يبتلع شخصيتي حتى إني لم أكن واعياً لنفسي أبداً إلاّ كانعكاس في تينكَ العينين الزرقَاوَين. اللتين لم تكونا تريان أيَّ شيءٍ مني أو من أي شيء آخر.

لكنَّ الكونت جوليان كان على حق. لقد كان قسطنتيوس يشعر حقاً بالندم على ما ارتكبَ من جرائم. وكنا آمنَين، في الوقت الحاضر. وبعد فترةٍ وجيزة وَصَلَتْ رسالة من الموظَّف الرسمي يوسيبيوس. وتقرَّرَ أن نُرسَل إلى ماسيلوم في كابادوسيا[٢٥] " لكي تُكملا ثقافتكما "

" نتثقَّف من أجل ماذا ؟ ". طرحَ ذلك غالوس حين بُلِّغنا هذه الرسالة. لكنَّ ماردونيوس أسكَتَه. "الإمبراطور رحيم. لا تنسَ أنه الآن بمثابة والدكما بالإضافةِ إلى كونه سيّدكما"

رحلنا إلى ماسيلوم في ذلك اليوم بالذات. كنتُ في حالةِ اضطرابٍ قُصوى؛ ذلكَ أنَّ ماردونيوس لن يُرافقنا. لا أدري ما الدافع إلى هذا التصرُّف الذي ينطوي على قسوة حقيرة غير أنَّ الموظَّف الرسمي يوسيبيوس كان أيضاً خصيّاً ولعلّه اعتقدَ أنه قد يتَّضح أنَّ خصيّاً مثله سيكونُ من شدِّة المكر بحيث يجب ألاّ يكونَ حليفاً لنا. ووضعونا أنا وغالوس على وجه السرعة في عربة وأنا أشهق.

ماردونيوس أيضاً أُصيبَ بالحُزن لكنّه كبَحَ انفعاله. قال " سوف نتقابل من جديد، وحين نفعل، سوف أتوقَّع من غالوس أنْ يعرف هزيود بقدرِ معرفة جوليان به ". وقفَ ماردونيوس وقفَةً جامدة أمام قصر الأسقف يراقبنا ونحن نبتعد، بصُحبة كتيبة من الفرسان، تماماً كما لو أننا أميران هامّان، وكنا كذلك فعلاً، أو سجينان هامّان، وكذلك كنا أيضاً. أخذتُ أنشج. وكان غالوس يُجدِّف بعنف بينه وبين نفسه. وفي الشارع تجمَّعَ حشدٌ من الناس متلهّفون لإلقاء نظرةٍ علينا. ولكي يُلقي أحد المواطنين الجريئين نظرةً عن قُرب حَشَرَ رأسه من جانب العَرَبَة. أسرعَ غالوس بالبصقِ على وجه الرجل المندهش، ثم غطّى غالوس رأسه بردائه ولم يُنزِله إلاّ بعد أن خرجنا من بوابة المدينة. لم يتوقَّع أحدٌ أن يرانا أحياء ثانية.

اتَّفَقَ المسافرون جميعاً على أنَّ ماسيلوم هي أحد أجمل الأماكن في العالم. وأنا ما أزالُ أكرهه حتى هذا اليوم. إنَّ ماسيلوم ليست مدينةً بل هي مقرٌ إمبراطوريٌّ كان

يستخدمه ملوك كابادوسيا الغابرون كموقعٍ لممارسة الصيد. وقد عملَ قسطنطين على توسيعه بحيث أضحَتْ الآن مجموعةً مُعقَّدةً من أبنيةٍ عديدةٍ مُقامةٍ في غابةٍ موحشة عند أسفل جبل آرغيوس، على بُعد أربعمائة ميل إلى الجنوب الشرقي من القسطنطينية. وحين وَرَثَ قسطنتيوس الإمارة، امتَلَكَ المقرّ، إلى جانب عددٍ من الممتلكات في الجِوار : في الواقع، إنَّ دَخلَ عائلتنا الخاص يأتينا بأكمله تقريباً من أراضي التاج في كابادوسيا.

هذه الليلة حين كنتُ أحكي لبريسكوس عن طفولتي، قال إنني أُحسَدُ عليها. "فأنتَ عشتَ في قصر، فيه حدائق وحمامات، وينابيع، وكنيسة خاصة ". كان يستمتع بإزعاجي. " في أفضل مكانٍ في الريف صالحٍ لممارسة الصيد حيث لا شيءَ تفعله غير أنْ تقرأ. لقد عشتُ حياةً مثاليّة ". في الواقع، لم تكن مثاليّة. كنتُ وغالوس أشبه برهينتين في سجنٍ فارسيّ. لم يكن هناك مَنْ نتحدَّث معه، غير سلسلةٍ من المُدرِّسين أتوا من سيزاريا القريبة. لم يكن أحدٌ منهم يمكثُ معنا طويلاً بسبب غالوس؛ إذ لم يكن يستطيعُ أن يقاومَ إغراءَ تعذيبهم. كانت علاقته أفضل مع سجّانينا، خاصّةً مع الضباط الشُبّان. كان يمكنُ لغالوس أنْ يكونَ متفوِّقاً جداً حين يريدُ ذلك، وسرعان ما دفعهم إلى تدريبه على استخدام السيف والرمح، والترس والفأس. كان غالوس رياضيّاً بالفطرة، وموهوباً في استخدامِ السلاح. كنتُ أودُّ أنْ أتدرَّب معه لكنّه كان يُفضِّلُ أن يحتفظَ برفاقه من العسكريين لنفسه، ويقولُ بحِدَّة " أنتَ اقرأ كُتُبَك، أما أنا فسوف أصبحُ جندياً "، فانصرَفتُ إلى قراءةِ كتبي.

كنا اسمياً في رعاية الأسقف جورج الكابادوسي الذي يُقيمُ في سيزاريا. وكان يزورنا مرةً كلَّ شهر على الأقل، وهو الذي أصرَّ على أنْ تكونَ ثقافتنا جليليّة في المقام الأول، وأشارَ بإصبعه الطويل إليّ ، " لأنه لا مُبرِّرَ ألاّ تُصبحَ قسيساً ". كان رجلاً ضئيلاً ونحيلاً، هزيلَ الوجه، يبدو دائماً في حاجةٍ إلى حلاقة.

بينما أنا أحاولُ بكل احترام أنْ أتذكَّر عدداً من الأسباب التي تمنعني من أنْ أصبحَ قسيساً، قال غالوس مع ابتسامةٍ فاتنة " إنَّ جوليان يحلمُ بالكهنوت، أيها الأسقف. إنها حياته كلها. إنَّ كل ما يفعله هو القراءة "

بدا السرورُ على مُحيّا الأسقف جورج لأنه وجدَ شبيهاً له، " هكذا كنتُ أنا في شبابي "

بدأتُ بالقول " لكنني أقرأ الفلسفة... "

" هذا ما نفعله كلنا؛ طبعاً. لكني واثقٌ من أنكَ حصلتَ على تدريبٍ جيدٍ من ابن عمك المرحوم، صديقي العزيز، الأسقف يوسيبيوس. إنَّ المسيحيين الصالحين منا يفتقدونه كثيراً "، وبدأ الأسقف جورج يذرعُ الغرفةَ ذهاباً وإياباً، يفرقعُ بأصابعه، وهي عادةٌ تميِّزه. ابتسمَ غالوس لي ابتسامةً عريضة لسروره بما فعل.

فجأةً استدارَ الأسقف جورج حول نفسه؛ مرةً أخرى أشارَ بالإصبع الطويل إليّ.

" ماذا تعني كلمة Homoiousios؟ "

كنتُ أعرفُ الجواب، فأدليتُ به بسرعةٍ كغرابٍ تعلَّمَ الكلامَ، " إنها تعني أنَّ يسوع الابن هو من جوهرٍ مُشابه لجوهر الله الآب "

" وماذا تعني كلمة Homoousios؟ "

" تعني أنَّ يسوعَ الابن هو من جوهرٍ واحدٍ مع الله الآب "

" وما الفَرق؟ "

" في الحالة الأولى، خَلَقَ الله يسوعَ قبل أن يبدأ هذا العالم. وهو ابنُ الله بما أسبغه عليه من نعمةٍ ولكن ليس بالفِطرة "

" لماذا؟ "

" لأنَّ الله واحدٌ. وتعريفه الأحَدْ. لا يمكنُ لله أنْ يكونَ مُتعدِّداً، كما أكَّدَ المرحوم الكاهن آريوس بإيراد الحِجَّة في مجمع نيقيا "

" ممتاز ". تلقَّيتُ سلسلةً من فرقعات الأصابع على سبيل التصفيق. " والآن ماذا عن الحالة الثانية؟ "

" كلمة Homoousios هي ذلك المذهب الخبيث " - كان العجوزُ يوسيبيوس قد أحسَنَ تثقيفي - " الذي يؤكِّدُ أنَّ الآبَ والابنَ والروحَ القُدُس هم شيءٌ واحدٌ "

" وهذا مستحيل! "

شقشقتُ طائعاً " وهذا مستحيل "

" على الرغم مما حَدَثَ في نيقيا "

" حيثُ في عام ٣٢٥ عارضَ الأسقفُ أثاناسيوس السكندري... "

" وفي ذلك الوقت كان مجرَّدَ شمّاس... "

" عارَضَ ابنَ عمّي الأسقفَ يوسيبيوس وأيضاً آريوس وأجبرَ المجمعَ الكنسيَّ على قبولِ المذهب الأثاناسيوسي القائل بأنَّ الآبَ والروحَ القُدُس هم شيءٌ واحد "

" لكنَّ المعركةَ لم تنتهِ بعد. إننا نُحقِّقُ مكاسبَ في كل عام. وأوغسطس مؤمنٌ مثلنا، كما آمنَ المرحوم الكاهن آريوس. وقبلَ عامَين اجتمعنا نحن أساقفة الشرق من إنطاكية لكي ندعمَ المذهب الحقْ. وفي هذا العام سوفَ نجتمعُ من جديد في سارديكا، وسوفَ يعمدُ المؤمنون حقاً، بعونٍ من الإمبراطور، إلى القضاء على مذهب أثاناسيوس إلى الأبد. يا بُني، سوفَ تصبح قسيساً. إني أرى ذلك. إنكَ مميَّز. سوفَ تمثِّل قوةً عظمى في الكنيسة. غداً سوفَ أبعثُ إليكما أحدَ الشمّاسين، وسوفَ يُثقِّفكما أنتما الاثنين دينياً "

قال غالوس، فَزِعاً " لكني سوفَ أصبحُ جندياً "

قال الأسقفُ جورج بنبرةٍ آليّة " إنَّ لجنديٍ يخشى الله قوةً تعادلُ قوةَ عشرينَ جندياً. ثم إنَّ التدريب الديني لن يضرَّكَ ". الغريبُ في الأمر أنَّ غالوس هو الذي أصبحَ جليلياً مخلصاً. في حين أني، كما يعلمُ العالمُ كله، عُدتُ إلى ديانتي القديمة.

لكنْ في ذلك الوقت كدْتُ أكونُ فيلسوفاً. درستُ ما أُمِرتُ بدراسته. الشمّاسُ الذي كان يُثقِّفَني كان مُجاملاً إلى أقصى حد. " إنكَ تتحلّى بموهبةٍ خارقةٍ في التحليل". هذا ما قاله ذات يوم حين كنتُ أقومُ معه بدراسة إنجيل يوحنا ١٤/ ٢٥ الآية التي تقومُ قضيةُ الآريانيين ضد الأثاناسيين على أساسها.

" أنا واثقٌ من أنَّ مستقبلكَ سيكونُ مميَّزاً "

" كأسقف؟ "

" طبعاً ستصبحُ أسقفاً بما أنكَ من عائلةِ الإمبراطور. ولكن هناك ما هو أروع من أن تكونَ أسقفاً "

" أنْ أكونَ شهيداً؟ "

" شهيداً وقديساً. أنتَ تشبه أحدهم "

يجب أن أعترفَ بأنَّ كبريائي الصبياني قد جُرِحَ. وبسبب هذا المديح إلى حدٍ بعيد أصبحتُ واثقاً على امتدادِ شهورٍ عديدة من أنه تمَّ اختياري خصيصاً لإنقاذ العالم من الخطأ. وقد اتَّضحَ أنَّ هذا صحيح بصورةٍ ما، مما سبب الرعب لأساتذتي المبكّرين.

كان الأسقف جورج رجلاً متغطرساً، صعبَ المِراس لكنَّ علاقتي به كانت جيدة، والسبب في ذلك يعودُ بدرجةٍ عالية إلى اهتمامه بي. كان متخصِّصاً بارعاً في المناظرة. ولما وجدني ذا ذكاءٍ مقبول انتهزَ فرصته. إذ لو صرتُ أسقفاً فسأكونُ حليفاً قوياً للآريين، الذين كان الأثاناسيون يفوقونهم عدداً، على الرغم من الدعم الذي كانوا يتلقّونه من قسطنتيوس. وطبعاً، اليوم أصبحَ المذهبُ " الخبيثُ " الذي ينادي بالله الثلاثي الأقانيم سائداً بشكلٍ كامل، بفضلِ جهودِ الأسقف أثاناسيوس. وقسطنتيوس وحده أبقى الفريقَين في حالةٍ من التوازن. والآن بعد أنْ ماتَ أصبحَ انتصار الأثاناسيين مسألة وقت. أما اليوم فلا شيء من هذا يهمّ بما أنَّ الجليليين يمثّلون الآن فقط واحدة من عددٍ من الطوائف الدينية، وهي ليستْ بأي حال أكبرها. لقد انتهتْ أيام سطوتهم. ولم أكتفِ بمنعهم من اضطهادنا نحن الهلّينيين، بل منعتهم من اضطهادهم بعضهم بعضاً. وقد رأَوا أني قاسٍ بشكلٍ لا يُحتَمَل! "

هل كنتُ جليلياً حقاً خلال أيام ماسيلوم تلك؟ لطالما فكَّرتُ في هذا، وتساءلت. حتى أنا لم أحظَ بجوابٍ شافٍ. لقد صدَّقتُ على مدى زمنٍ طويلٍ ما تعلّمته؛ قَبِلتُ المقولةَ الآرية القائلة بأنَّ الله الواحد (الذي نقبلُ جميعاً وجوده) أنتجَ بشكلٍ غامض ما يشبه الابن وُلِدَ يهودياً، وأصبحَ مُعلّماً، وأخيراً أعدَمَته الدولة لأسبابٍ لم تتّضِح لي أبداً. على الرغم من الجهود القصوى التي بذلها الأسقف جورج لتوجيهي. ولكنْ أثناء دراستي لحياة الجليلي كنتُ أيضاً أقرأ أفلاطون، الذي كان يوافقُ ذوقي أكثر بكثير. على أي حال، لقد كنتُ متكبّراً واسعَ الإطّلاع. علّمني ماردونيوس أفضل لغةٍ يونانية، فلم يسعني إلا أنْ أُقارنَ لغةَ أسفار متّى، ومرقص، ولوقا البربرية، البدائية، بنثر أفلاطون الواضح. غير أني سلّمتُ بأسطورةِ الجليلي كحقيقة. على أي حال كانت تشكّلُ ديانةَ عائلتي، وعلى الرغم من أني لم أجدها جذّابةً إلاّ أني لم أجد أيَّ بديلٍ لها إلى أنْ كان بعد ظهر أحد الأيام حين كنتُ في عُمر الرابعة عشرة. كنتُ جالساً منذ ساعتَين أصغي إلى الشمّاس وهو يرتّل لي تراتيل الكاهن آريوس... نعم، المفكّر الديني العظيم الذي ألّفَ تراتيل شائعة لكي يؤثّر في الأميين. ولا أزالُ أذكُرُ حتى يومي هذا كلمات حفنةٍ من قصائده الغنائية التافهة التي " أثبتَتْ " أنَّ الابنَ كان الابن والآب كان الآب. أخيراً انتهى الشمّاس؛ وامتدحتُ ترتيله.

قال الشمّاس، وقد سَرَّه تقريظي، " الروح هي الهامة وليس الصوت ". ثم، لا أدري كيفَ حدثَ ذلك، أتى ذِكرُ أفلوطين[٢٦]. كان بالنسبة إليّ مجرَّد اسم، وشمّاساً ملعوناً. " إنه فيلسوفٌ دَعيٌّ من القرن الماضي، من أتباع أفلاطون، أو هذا ما يدَّعيه. وهو عدوٌّ للكنيسة، مع أنَّ هناكَ بعض المسيحيين الحمقى بما يكفي ليعلو من قَدْرِهِ. كان يعيشُ في روما، وكانَ ذا حُظوة عند الإمبراطور غورديان. ألَّفَ ستةَ كتب غير مفهومة على الإطلاق، طَبَعَها له تلميذه بورفايري[٢٧] "

" بورفايري؟ ". أذكرُ أني كنتُ قد سمعتُ هذا الاسمَ للمرة الأولى، وكأنما بالأمس القريب، وأنا جالس قِبالة الشمّاس البارز العِظام في إحدى حدائق ماسيلوم، وكان فصلُ الصيف في ذروته ومزدهراً من حولنا والجو ضبابياً من شِدَّة الحر.

" إنه أسوأ حتى من أفلوطين! بورفايري أصله من مدينة صور. درسَ في أثينا. يسمّي نفسه فيلسوفاً لكنّه في الواقع مجرَّد ملحد. وهاجمَ الكنيسة في خمسة عشرَ مجلّداً "

" على أي أساس؟ "

" وما أدراني؟ إنني لم أقرأ كتبه قط. وعلى كل مسيحي ألاّ يفعل ". كان الشمّاس حازماً في ذلك.

" ولكن حتماً كان لدى ذلك البورفايري سببٌ ما... "

" لقد سَكَنَه الشيطان. هذا سببٌ كافٍ "

ولكن كنتُ أعلمُ أني يجب أنْ أقرأ أفلوطين وبورفايري. كتبتُ للأسقف جورج رسالةً شديدةَ الدهاء، أطلبُ منه فيها أنْ يُعيرني كُتُب أولئك الرجال " الميئوس منهم ". قلتُ فيها إني أرغبُ في أنْ أرى وجهَ العدو بوضوح، ومن الطبيعي أنْ أتوجَّه إلى الأسقف للحصول على التوجيه، ليسَ فقط لأنه مُعلّمي في الدين ولكن لأنَّ لديه أفضلَ مكتبةٍ في كابادوسيا. ويُستحسَن أن أهاجمها.

دُهشتُ إذْ وجدتُ الأسقفَ جورج يرسلُ إليّ على جناح السرعة الأعمالَ الكاملة لأفلوطين بالإضافة إلى تهجُّم بورفايري على المسيحية. " على الرغم من صغَر سنّك أنا متأكد من أنكَ سوف تستحسنْ حماقة بورفايري. لقد كان رجلاً ذكياً أضلَّته شخصيةٌ فاسدة. لقد كتبَ سَلَفي، والأسقف سيزاريا، تفنيداً رائعاً لبورفايري، وهو يردُ طوال

الوقت على ما يُسمّى بـ " تناقضات " بورفايري التي ادَّعى أنه اكتشفها في الكتاب المقدَّس. إنني أرسلُ إليك أيضاً أعمال الأسقف. لا يمكنني أنْ أُعبِّر عن مدى سروري للاهتمام الذي تُبديه بالأمور المقدَّسة ". أمّا ما لم يكن الأسقف الطيب يعلّمه فهو أنَّ مناظرات بورفايري كانت تشكِّلُ أساس رفضي للناصري.

في فصل الصيف ذاك اقترحَ الأسقف جورج أنْ نأمر أنا وغالوس ببناءِ كنيسةٍ صغيرةٍ في ماسيلوم تكرِّس القديس ماماس، وهو راعٍ محلّي اعتُبِرَتْ رفاته ذات قوةٍ خاصة؛ كان يمكنُ شفاء الأمراض الجلدية بوضع عظم ساق القديس الأكبر على الموضع المُصاب. وكان من رأي الأسقف جورج أنها ستكون لفتةً مؤثِّرةً إذا ما قمتُ أنا وغالوس ببناءِ مقبرةٍ خاصّة تضمُ رُفات الراعي الميّت. وهكذا قمنا أنا وغالوس ذات صيفٍ على تنفيذ هذا المشروع. وقد استمتعتُ بوضعِ حجارةِ الآجُر. أما غالوس فكانَ يكره أنْ يبذل أي جهدٍ مُطوَّل من أي نوعٍ كان، وأخشى أنه كان يقضي وقتاً طويلاً وهو يسبّ القديس ماماس بينما نحنُ نتصبَّبُ عَرَقاً تحت أشعة الشمس. وبعد أنْ انتهينا من بناء الكنيسة الصغيرة بوقتٍ قصير انهارَ السقفُ. وقيلَ لي إنَّ الجليليين يقولون إنَّ الجزءَ الذي بنيتُه أنا فقط انهارَ، لأني كنتُ مرتداً. وهذا غير صحيح. إنَّ البناء كله انهارَ - بسبب خطأ في التصميم.

في ذلك الوقت لم أكن مؤمناً ولا كافراً. لكنَّ حُجَّة بورفايري البليغة المُقنعة ضد الناصري كانت حينئذٍ قد استوطنت عقلي. وحين حاولتُ أنْ أناقشُ نقاطاً عقائدية مع الأسقف جورج، أحبَطَ محاولتي ببطء بعبارةٍ من مثل " إنَّ فكرة الثالوث بحدّ ذاتها لغز. ولا يمكن فهمها إلا عبرَ الإيمان، ولا يتمّ ذلك بشكلٍ كامل ". كنتُ أفضِّل أفلوطين أكثر، الذي أنجزَ في خمس سنوات أربع مرات ذلك الوعي التامّ للواحد الذي هو الهدفُ الأسمى لكل ممارسةٍ دينية. وعلى الرغم مما يتمتَّعُ بورفايري به من حكمة إلاّ أنه لم يمرّ بتجربة الوعي السامي إلاّ مرةً واحدةً، وهو في سن الثامنة والثلاثين. أنا مررتُ بها حتى الآن مرتين. إنني أصلّي كلَّ يوم لكي أحصل على تجلٍ آخر.

لم نكن أنا وغالوس صديقَين ولا حليفين. وعدا محاولات الأسقف جورج السقيمة لم يبدُ أي اهتمام آخر بأي منا. كان كل شخص آخر في ماسيلوم يُعاملنا باحترام متوتِّر. كنا نُثير رعب الناس؛ وكنا نذكِّرُهم بالقَتل؛ وكان من الجليّ أننا ضحايا.

بقيتُ مواظباً على القراءة، وتلقَّيتُ بعضَ التمارين البدنية على الرغم من كوني قوي البُنية، خاصةً في الذراعَين. وبقيَ غالوس متفوِّقاً عليّ في الألعاب كلها وفي الأعمال الجَسَدية الفذّة. كان أطول مني قامة، وذا تكوينٍ متناسق جميل، ويحملُ وجه إله. وكان الجنود المُخصَّصون لحراستنا مفتونين به، وكان هو يغازلهم دون خجل. كانوا يرافقونه للصيد حينما يشاء وأعتقدُ أنه كان يُقيمُ علاقةً جنسية مع بعضهم على الرغم من أننا كنا معاً نُقيمُ علاقةً مع فتاةٍ واحدة - أو بالأحرى امرأة. كانت في الخامسة والعشرين من العمر وزوجة موظَّف مَدَني ويعملُ مُراقباً للحسابات في منزلنا. وقد أغوتْني أولاً، ثم غالوس. كانت شَبِقةً لا تشبع. وكان زوجها سهل الانقياد؛ ولم يكن له خَيار في ذلك. كان يقهقه ولا يتحكَّم في نفسه كلما شاهدَ أياً منا. كان بديناً وقصيراً، وأذكُرُ أني سألتُها كيف تُطيقُ أن يلمسها.

قالتْ بخبث " إنه يتمتَّع ببعض المواهب ". ولا أزالُ أذكُرُ كيفَ كان شعرها الأسود يلمعُ وهو ينهمرُ على كتفيها الأسمرَين العاريَين. لم ألمس قبل ذلك وحتى الآن بشرةً أنعم منها. أعتقد أنها كانت تدهنها بالمرهم ولكنْ إذا كانت تفعلُ ذلك حقاً فهي فنانة فيه، لأنه لم يكن يَعلَق بالأصابع شحمٌ معطَّر كما يحدثُ غالباً مع نساءٍ من نوعها. كانت إنطاكية. وكيفَ لا؟ فممارسة الجنس هو النشاط الوحيد الذي يؤدّيه أهلُ إنطاكية بكل جدّية. وتظاهرتْ بأنها تجدني جذّاباً، لكنَّ غالوس الأشقر كان هو الذي يفتنها حقاً. كان يقولُ لي متفاخراً " إنها تفعل كلَّ شيءٍ وأنا لا آتي بأي حركة ". كانت سلبيَّته مُحيِّرة. غير أني لم أكنْ أفهم غالوس أبداً. ولاحقاً حين تحوَّلَ إلى وحشٍ لم أُدهَش. كانت يمكنُ أنْ يكون أي شيء لأنه في جوهره كان نكرة. ومع ذلك حين يتواجد في أي مكان تلتفت العيون كلّها نحوه، لأنه جَسَديّاً كان مُبهِراً؛ كان الرجالُ والنساءُ على قَدَمِ المساواة ينجذبون إليه ولأنه لا يكنُّ أي مشاعر لأي إنسان. كانت كل امرأة تراه كتحدٍ يجب تخصيصه للحب. وهكذا كان غالوس قادراً على نيل متعته كما يشاء... دون أن يُبدي حراكاً!

بقيَتْ المرأةُ السورية خليلةً لنا معاً على مدى ثلاث سنوات. وعلى الرغم من أني الآن عَزَب، إلاّ أني كثيراً ما أفكِّرُ فيها، خاصّةً ليلاً. أينَ هي الآن؟ لا أجرؤ على الاستعلام. لعلّها أضحَتْ بدينةً وعجوزاً، تُقيمُ في بلدةٍ ريفيّة وتدفعُ الشبّان إلى مضاجعتها. لكنّها كانت، على مدى ألف يوم، كأفروديت بالنسبة إلى شقيقي أدونيس.

- ٤ -

مـرّتْ خمس سنوات. لم تكد تصلنا خلالها أي أخبـار من العـالم الخـارجي. هدَّدَ سابور، ملك الفرس العظيم، حدودنـا الشرقـيّـة، في حين تسلّلَ الجرمان إلى بلاد الغال. وكان هذا كلّه معلوماً؛ وكانت السيـاسة موضوعـاً مُحرَّماً. درَستُ هومر وهزيود، وقرأتُ أفلوطين وبورفـايري، وضـاجعتُ الإنطاكـيّـة؛ وصـارعتُ غـالـوس، إلى أنْ تغلّبتُ عليـه وبعدها لم يعُد يتحدّاني أبداً. كـان جبانـاً إلاّ حينَ يتـولاّه الغضب؛ عندئذٍ يمكن أن يفعل أي شيء.

كنتُ وأنا أقـرأ لا أشعـرُ ببـؤسٍ شديد. كنتُ أتوقُ إلى مشـاهدة العـالم خارج حـدود ماسيلوم. إذ من غير الطبيعي بالنسبة إلى شابٍ يافعٍ أن يقومَ على تنشئته الجنودُ والعبيد حصْراً، لا أحدَ منهم يجرؤ على أن يُظهِرَ وَلَعاً بي. كنتُ وغالوس أصحاباً لكننا لم نكن أخَوَين حقيـقـيين أبداً إلاّ بالمعنى العـائلي للكلمة – وبهذا المعنى كنا فقط نصف أخَوَين، ذلك أننا كنا مـن أمَّين مُختلفَتَين؛ أشبه بحيـوانَين عـدوانيَّين كـامنَين مـوضـوعَين في قـفصٍ واحد. ومع ذلك كنتُ مفتوناً بجماله، ومُعجَباً بحيويته. كان غـالوس دائماً يعملُ شيئاً ما، وكنت أرغبُ في تقليده فيـه. أحيـاناً كـان يدعني أفعل، لـكنّه غـالباً مـا كان يمنعني عنه، لأنه كـان يستـمتعُ بتـعذيبي. كـان يمنحه متعـةً خاصّـة أن يتـشاجرَ معي قُـبـيل الذهاب إلى الصيـد. وبعـد ذلك يهتـف " حسنٌ! ابقَ أنتَ في المنزل. هذا يومُ الرجال "، ويضـحكُ الجنودُ عليّ فأهربُ بينمـا يمتطي غالوس المفعَم بالحيوية والنشـاط حصانه وينطلقُ إلى الصـيد، مع الكلاب النابحة ونفخُ الأبواق تتـردَّد أصداؤه في أرجاءِ الغابة الخضراء. ولكن حين يُسـمَح لي بالذهاب معه كنتُ أشعرُ بما يشبه النشوة.

بعد ظهـر ذات أيلول وصلَ الأسقف جورج بصـورةٍ مـفاجئة إلى مـاسيلوم، ولم نكن قـد رأيناه منذ بضعـة أشهر، لأنه، حسب قول الشـمّـاس " يبدو الأمرُ أشبه بـ – لا تُكرِّر

هذه الكلمة " (وكأننا نحن الاثنين يمكننا أنْ نثقَ في أي إنسان) - " سوفَ يُرقّى الأسقفُ جورج إلى منصب الأسقفيّة في الإسكندرية. إنَّ الأسقفَ أثاناسيوس يسيطرُ على الإسكندرية فقط لأَنَّ الإمبراطور كونستانس في الغرب يُصرُّ على ذلك. لكنَّ الإمبراطور قسطنتيوس يُعدُّ لنَفي أثاناسيوس مرةً أخرى، فإذا كان سيفعلُ حقاً، فنحنُ ذاهبون إلى الإسكندرية! "، وفرِحَ الشمّاس كثيراً للفكرة.

لكنَّ الأسقفَ جورج لم يخبرْنا أيَّ شيءٍ عن سياسة الكنيسة حين انضمَّ إليه في القاعة الرئيسية لمقَرّ الصيد. كانت لديه أخبارٌ أخرى، أعظم. كان وجهه الشاحب مُسمَّراً من فرط الإثارة بينما كانت أصابعه ترافقُ كلمات بفرقعاتٍ متواصلةٍ حادّة. " أغسطس المقدَّس سيقومُ بزيارةٍ لكما في غضون عشرة أيام، وهو في طريقه إلى أرض الوطن عائداً من إنطاكية. إنه يقومُ بهذه الرحلة الجانبية خصيصاً لرؤيتكما ". كنتُ على خوفٍ عَقَدَ لساني. وكان غالوس هو الذي سألَ " ماذا يريد؟ "

أبدى الأسقف نفاد صبر. " إنه ابن عمّكما. حاميكما. إمبراطوركما. ويريدُ أن يراكما. ماذا يريدُ أكثرَ من هذا؟ لكي يرى كيف أصبحتما رجلَين. ليرى نتيجةَ تثقيفكما. الآن سوفَ يهتمُ خاصةً بتدريبكما الديني. لذلك، سوف أمكثُ هنا إلى أنْ يصل. سوف يستعرضُ كلَّ ما حاولتُ أن أعلِّمكما إياه. وهذا يعني، يا غالوس، كثيراً من العمل لكَ أنتَ بالذات. وأقترحُ أنْ تبذل جهدك كلّه فيه، بما أنَّ مستقبلكَ كلّه قد يعتمدُ على الانطباع الذي تخلّفه ". وأذكُرُ أني قلتُ في نفسي، وكذا مستقبلك أنت، أيها الأسقف، بدافعٍ من توقي إلى أنْ أضمَّ أيَ شخصٍ كان إلى ما كنتُ واثقاً من أنه سيكونُ قَدَراً قاسياً.

وانكببنا بجَدٍ على الدرس. كان الأسقف يقومُ على تدريبنا على امتداد ساعات طويلة دون رحمة. ولحُسنِ الحظ أني أتمتعُ بذاكرةٍ ممتازةٍ ويمكنني أن أتعلّم - وإنْ كنتُ لا أفهم دائماً! - محتوى صفحة بعد إلقاء نظرةٍ سريعة عليها. وبين الدروس حاولنا أن نعرفَ قدرَ استطاعتنا طبيعةَ مزاجِ قسطنتيوس. فهل كان موقفه وديّاً منا؟ وهل سنبقى مُتيَّمَين بماسيلوم؟ لكنَّ الأسقفَ لم يُعطنا جواباً شافياً، " سوفَ يفعلُ المقدَّس قسطنتيوس ما يراه الأفضل، كعهده دائماً. لا موجبَ للخوف، إذا كنتما مُخلصَين ومُطيعَين ". ولكن كانت لدينا كلُ الأَسبابِ للخوف. وخلال فترةِ الانتظار تلك لم أنم ليلةً واحدة.

قبل وصول قسطنتيوس بيومٍ واحد جاءَ طاقمُ البلاط الملَكي. وكان بعض أفراد الطاقَم الملَكي برفقةِ قسطنتيوس في إنطاكية؛ لكنَّ معظمهم جاءَ مباشرةً من القصر المقدَّس في القسطنطينية. وقد تقرَّرَ أن يُقيمَ كِبارُ موظفي الدولة كلهم في الفيلا، في حين ستُنصَبُ في الحقول المجاورة مئات الخيام لإيواءِ ألفٍ من الكَتَبَة والموثّقين العامِّين الذين يُديرون شؤون الدولة.

عند الفجر بدأ الموكب. تمركزتُ وغالوس في فناءِ القصر وأخذنا نتثاءبُ كيقظينتين. لم يكن أيٌّ منا قد شاهدَ موكباً ملَكياً قبل ذلك، وفي غمرةِ الإثارةِ والذهول العامَين في ذلك اليوم الخريفيّ القارص البرودة نسينا مؤقّتاً خوفنا.

وقفَ الأسقفُ جورج في ممر باب الفيلا، مرتدياً رداءً كهنوتيّاً مُرصَّعاً بالأحجار الكريمة، ويحملُ بإحدى يديه صولجاناً أسقفيّاً فضّياً. إلى يساره ويمينه وقفَ أفراد حامية ماسيلوم العسكرية في وضع الاستعداد لتشريف أقطاب الإمبراطورية الرومانية. وصلَ بعضهم على ظهور الخيول، وآخرون على محفّات، تصحَبُ كلاً منهم حاشيةٌ من الجنود، والكَتَبَة، والخصيان، والعبيد، والكلّ يرتدي ألبسةً عسكريةً مختلفة، ذلكَ أنَّ أعضاءَ البلاط منذ عصر ديوكليتان أصبحوا عسكريين في مظهرهم، رمزاً لوضع روما المضطرب.

سرعان ما اكتظَّ الفناءُ بالكَتَبَة والعبيد، والأحصنة والبغال؛ وبقيتْ المنطقة المقابلة للباب خاليةً. وكلما ترجَّلَ أحدُ الموظفين عن جواده تقدَّم إلى ممر الباب حيث يُرحِّبُ به الأسقف جورج مع كل ما يحملُ من ألقاب. وكان الأسقف هو سيد البروتوكول. كان يعرفُ بالضبط كلَّ شخصٍ وكيفَ يجب أن يخاطبه، وهي موهبةٌ يُحسَدُ عليها، بما أنه يوجدُ في هذه الأيام مئاتُ الألقاب والتشريفات المصقولة. أرفعُ تلك المراتب هي الـ cla-rissimi. وهي تتضمَّنُ قُنصليّي ذلك العام، والقناصل السابقين كلهم، ومعظمَ أعضاء مجلس الشيوخ. بعد ذلك يأتي الموظفون الرسميون الذي ينعتون بالـ spectabiles. ثم رؤساء الهيئات الحكومية ويُنعَتون بوصف illustres. ولكن من الصعب تذكُّر مَنْ يوصَف بماذا، بما أنَّ وزيرَ دولةٍ هاماً كالقسطور (مستشار الإمبراطور القانوني) هو فقط illusrtis، في حين أنَّ حاكم مقاطعةٍ لا أهميةَ لها قد يكون clarissimus. أيضاً، قضية الكونتات مُحيِّرة. في الماضي كان لقبُ " كونت " لقب تشريف لأي موظف رسمي أو ضابط عالي

الرتبة كان يتنقَّل بين حاشية الإمبراطور. لكنَّ قسطنطين، بما يتمتَّعُ من حسٍ فارسي بالتسلسل الهَرَمي للمراتب، جعلَ لقب " كونت " جائزة القيام بخدمة هامة. لذا كان بعض الكونتات هم clarissimi وبعضهم الآخر فقط spectabiles. ومن المُذهل من ناحيةٍ أخرى مدى هَوَس العقلاء من الناس بتلك الألقاب البلهاء. وقد جالستُ على مدى ساعات طوال أناساً بالغين لم يتحدَّثوا خلالها إلاّ عن فلان الذي نالَ لقبَ كذا ولماذا هو غير جدير به. ولكن الإمبراطور الحكيم يستطيع أنْ يمارس ضغطاً هائلا على رجال طموحين عن طريق منح أو منع تلك الألقاب الجوفاء عنهم. وقد كان قسطنتيوس أستاذاً في ممارسة هذا النوع من الضغط. ولسوء الحظ، بما أنه يصعب عليّ أنْ أتذكَّر مَن حصلَ على أيٍّ من الألقاب فإني أخاطبُ كلَّ شخصٍ بـ " يا صديقي العزيز " على خُطى أفلاطون، وهذا يُروِّع أصحاب الألقاب.

أوَّلُ الواصلين كان كونت السخاء المقدَّس، ومهمَّته أنْ يسهر على أنْ تدفع كل مقاطعة الضرائب على وجه السرعة في أول يوم من شهر آذار من كل عام. وهو أيضاً يُدير احتكار الحكومة لمادة الملح والمصارِف الإقليمية، بالإضافة إلى ما تملكه الدولة من مصانع، ومناجم، وطبعاً دار ضرب العملة. ولم يكن أبداً محبوباً، لكنه حين توفي كان ثرياً. ثم دخلَ بعدَه كونت مخصّصات المَلِك، والذي يتولّى إدارة الممتلكات الخاصة لعائلة الإمبراطور. هذا الموظف كان مصحوباً بعشرين من العبيد يحملون صناديق من الخشب القاتم المُدجَّج بالمعدن، تحتوي كميات هائلة من الذهب والفضة يجب أنْ ترافق الإمبراطور في ترحاله. وبما أنَّ موظف مخصّصات الملك مسؤولٌ عن كل قطعة نقد، فهو يميلُ إلى العصبية، والذهول، وتجده دائماً يعدُّ صناديق. تلاه كونت الشرق، الذي يحكم سوريا وبلاد ما بين النهرين. ثم جاء رئيس الموظفين الرسميين، وهو رجلٌ شديد المَهابة حقاً، يديرُ نظامَ المواصلات والبريد في الدولة؛ وهو رئيس مكتب المخابرات السرية؛ ثم آمر حرّاس القصر، وينظِّمُ المقابلات مع الإمبراطور. وقد انحنى الأسقف جورج انحناءةً منخفضة بشكلٍ استثنائي.

طوال ست سنوات لم نرَ غالوس وأنا إلا الأسقفَ جورج وحرّاسنا. وفجأةً مرَّ من أمامنا ممثلُ قوة الدولة كلها. وبُهِرَتْ عيوننا بلمعان الدرع والأثواب المُتقَنة الصُنع، وبضجيج آلاف الكَتَبَة الموثّقين العامّين الذين كانوا يهرعون في أرجاء الفناء، يطلبون

أمتعتهم، يتشاجرون مع بعضهم بعضاً، يُصرّون على نيل امتيازاتهم المتنوعة. أولئك الكَتَبَة الضاجّون بأصابعهم الملوثة بالحبر ووجوههم التي تنم عن ذكاء كانوا يمثلون حكومة روما الفعلية، وكانوا يعرفون ذلك.

آخر موظف رسمي وصلَ كان أهم الجميع : إنه الحاجب الأكبر للقصر المقدّس، الخصي يوسيبيوس. كان من فرط الضخامة بحيث أنَّ عملية إخراجه من محفّته المصنوعة من الذهب والعاج تطلّبَتْ عبْدَين لجرِّه منها. كان طويل القامة، وبديناً وبشرته شديدة البياض. من تحت زُرقة ردائه الحريري الطاووسيّة كان يمكن رؤية تموُّجات لحمه التي ترجّ مع تحركه. ومن بين موظفي الدولة كلهم، كان هو الوحيد الذي يرتدي ملابس مَدَنيّة. في الحقيقة، كان يبدو أشبه بسيدة مرحة تُجاري الطراز الحديث ذات فم مطلي بشكلٍ فني بأحمر الشفاه وشعرٍ مُصفَّف على هيئة عقصات طويلة مزيّتة. وكانت خيوط الذهب في قلنسوته تومض تحت أشعة الشمس.

تلفَّتَ يوسيبيوس حوله بعينيه الثاقبتين، وأدركتُ فجأةً أنه يفتش عنا. حاولنا، أنا وغالوس، ونحن شبه مخفيين خلف رابية من سروج الخيل، أن نستتر ولكن على الرغم من أنَّ الحاجب لم يكن قد رأى أياً منا من قبل، فقد تعرَّفَ فوراً على هويتنا. وأومأ إلينا بلباقة لكي ننضم إليه. اندفعنا إلى الأمام، كعبدَين يتوقعان الضرب. ولما لم نكن نعلم بالضبط كيف نرحِّبُ به، جرَّبتُ التحيَّة العسكرية، وحاكاني غالوس في ذلك. رسمَ يوسيبيوس ابتسامةً صغيرة، كاشفاً عن أسنانٍ صغيرة قاتمة؛ وظهرتْ عدَّة غمَّازات طفوليَّة على وجنتيه المتلئتين. أمالَ رأسه؛ وتجعَّدَ الدهنُ في عنقه؛ وتشوَّشَتْ خصلة شعر فوق جبينه.

قال بصوتٍ ناعم " النبيلان ". كانت تلك بشارة رائعة. فلقب " نبيل " كان يُلقَّبُ به فقط أفراد الأسرة الإمبراطورية. ولم يكن الأسقف جورج ولا الحرّاس يلقّبوننا به. أما الآن فمن الواضح أننا قد استرددنا مكانتنا.

بعد أنْ ألقى نظرةً طويلة مُدقِّقَة علينا أمسك يوسيبيوس كلاً منا بيد. لا زلتُ أذكرُ الرطوبة الناعمة للمسة يده. " كم كنتُ توّاقاً لملاقاتكما أنتما الاثنين! وكم كبرتما! خاصة النبيل غالوس ". ولمسَ صدر غالوس برقّة. في الحالة العادية كان ذلك النوع من الإيماءة الوقحة جديراً بأنْ يُثيرَ حنقَ أخي، لكن خوفَه في ذلك اليوم كان شديداً جداً.

وأدركَ أيضاً بغريزته أنَّ جماله هو مصدر حمايته الوحيد. وتنازلَ وسمحَ للخصي أن يُداعبه أثناء انتقالنا إلى الفيلا.

كان يوسيبيوس يتمتَّع بأشد ما عرفت من الأصوات والسلوك تضليلاً. وهنا يجب أنْ أذكُرَ شيئاً عن أصوات الخصيان. إنَّ الممثلين وباقي الناس الذين يحاولون تقليدهم بسخرية يعمدون دائماً إلى رفع طبقة أصواتهم عالياً، ويزعقون. والخصيان نادراً ما يفعلون ذلك. وإذا فعلوا فمن سيحتمل صُحبتهم؟ وفي البلاط على المرء أنْ يكون ذا سلوكٍ مُرضٍ جداً. وفي الحقيقة، إنَّ صوت الخصي يشبه صوتَ طفلٍ لطيفٍ جداً، وهذا يجد هوى عند الآباء والأمهات على قدم المساواة. وهكذا يُجرِّدوننا من أسلحتنا بمهارةٍ بالغة، ذلك أننا نميلُ إلى تدليلهم كما ندلِّلُ طفلاً، ناسين أنَّ عقولهم ناضجة ومنحرفة بقدرِ ما أجسادهم ليست كذلك. ونسجَ يوسيبيوس شباكه حول غالوس. ولم يزعج نفسه بفعلِ ذلك معي. لقد كنتُ صغيراً جداً.

في تلك الليلة تناول غالوس ويوسيبيوس طعام العشاء وحدهما. وفي اليوم التالي أصبحَ غالوس الأثير الأول لدي يوسيبيوس. قال غالوس، ونحن وحدنا في الحمّامات، "وهو أيضاً صديق. لقد حكى لي كيف أنه كان يحصل على تقارير عني منذ سنين. إنه يعرفُ كلَّ ما فعلته. بل إنه يعرف بأمرها هي "، وذكَرَ غالوس اسمَ الإنطاكيّة، وقهقه. " يقول يوسيبيوس إني سأحرزُ نجاحاً في البلاط. فأنا لستُ فقط وسيماً لكني ذو عقلٍ راجح، هذا بالضبط ما قاله. وهو متأكِّدٌ منْ أنَّ في استطاعته أن يُقنع الإمبراطور بتحريري. يقولُ إنَّ ذلكَ قد يستغرق بعضَ الوقت ولكنْ لديه قليلٌ من التأثير على "خلوده "، هكذا قال بالضبط. إنه مثيرٌ جداً للاهتمام. وإنْ كان يصعُبُ عليَّ أحياناً أنْ أفهم عمّا يتحدَّث. إنه ينتظر مني أنْ أعرفَ أشياءَ كثيرة لا سبيل إلى أن تعرِفَ عنها أي شيء، أنت الذي تدفنُ نفسك في هذا المكان اللعين. على أي حال إنَّ قسطنتيوس ينفِّذُ كل ما يأمره به يوسيبيوس. هذا ما يقوله الجميع. وهذا يعني أنه إذا كسبت يوسيبيوس إلى صفِّك، فقد كسبتَ نصفَ المعركة. وأنا كسبته "

سألته " ماذا قال عني؟ ". كان غالوس نادراً ما يبتعد كثيراً عن اهتمامه الأساسي : نفسه.

" أنت؟ وما الذي يدعوه إلى قولِ أي شيءٍ عنك؟ "، وأغرقني غالوس في مياهه

الباردة. فجررته خلفي. كان زَلِقاً كسمكة، لكني نجحتُ في إبقاء رأسه تحت الماء مدةً مُرضيةً من الوقت. ففي سن السادسة عشرة كنتُ لا أقلُّ قوةً عنه وكان في الحادية والعشرين. برزَ من تحت الماء وهو يتخبَّطُ ووجهه أزرق اللون. " سوف يجعلُ منكَ راهباً، هذا ما سيفعله. وإذا أردتَ رأيي، فأنتَ ستصبحُ خصيّاً "، وحاول أن يرفسني بين ساقَيّ لكنه انزلَقَ على الرخام ووقع. فأخذ يسبُّ بصوتٍ عالٍ، وضحكتُ منه. ثم انضمَّ إلينا العبيد ليعينونا على ارتداء ملابسنا. ولما كان رجلاً، فقد أمر رئيس المناصِب بأنه على الرغم منْ أنه ليس عملياً ضابطاً، ففي استطاعته أن يرتدي زيَّ الحَرَس الإمبراطوري في هذه المناسبة. ولسوء الحظ، كان " النبيل " جوليان مجرَّد تلميذ ويجب أن يرتدي ما يتوافقُ مع هذا الوضع. نتيجةً لذلك، بدوت غير ذي أهمية إلى جانب أخي غير الشقيق اللامع. لكني كنتُ سعيداً تماماً ببقائي مغموراً. دَع غالوس يشرق. أنا فضَّلتُ خمول الذِكر، والبقاء على قيد الحياة.

وصل قسطنتيوس عند الظهيرة وتوجَّه مباشرةً إلى حيث ينزل. هذا كل ما عرفَه أي شخص قد ينضم إلينا بعد بضع دقائق، أو بضع ساعات، أو قد لا ينضم إلينا أبداً. وفي تلك الأثناء، انتظرنا بأعصابٍ متوتّرة في القاعة الكبرى في الفيلا. كانت الدعامات مُثبَّتة بأغصانٍ من نبات دائم الخُضرة، وكانت تفوح من الداخل ذي الجو البائت الاعتيادي رائحة الصنوبر والأوكاليبتوس. وفي أحد أطراف القاعة، على المنصّة، أقيمَ كرسي عرش من الذهب. إلى يمين العرش، ولكن بمستوى الأرض، وُضِعَ كرسي من العاج خاص بالوالي الإمبراطوري في الشرق (كان قد وصلَ مع الإمبراطور). ووفقاً للمراتب، كان ضباط الدولة يصطفون إلى يسار ويمين كرسي العرش. وعند أسفل المنصّة وقفَ الأسقف جورج بكل بهائه وغالوس إلى يمينه وأنا إلى يساره.

وقف يوسيبيوس، يبدو أشبه بطاووسٍ ضخم أكثر من أي وقتٍ مضى، عند الباب، يُحيطُ به طاقَمَه من المواكبين. لا أحدَ كان يتكلّم أو يتحرّك. كنا أشبه بتماثيل. وعلى الرغم من أنَّ المكان لم يكن حاراً، إلاّ أني كنتُ أتصبَّبُ عَرَقاً من شدّة توتّري. ألقيتُ على غالوس نظرة خاطفة من زاوية عيني؛ كان فمه يرتعشُ من فرط التوتُّر.

بعد مرور ما بدا أياماً، سمعنا نفخ أبواق. ثم مَنْ يهتف " الأوغسطس! " الذي كان دائماً يسبق ظهور الإمبراطور، في أول الأمر يكون نائياً وضعيفاً؛ ثم أقرب،

فأعلى : " الأوغسطوس! الأوغسطوس! " وبدأتْ ساقايَ ترتعشان. كنتُ أخشى أن أتقيأ. وفجأةً فُتِحَ البابُ المزدوج بقوةٍ مدوّية وإذا بفلافيوس يوليوس قسطنتيوس يمثُل عند ممر الباب، أوغسطوس الشرق. عانقَ يوسيبيوس، مع أنينٍ رقيق، رُكبتَيّ قسطنتيوس، وهو يغمغمُ كلمات مُنغّمةً ناعمةً احتفاءً غير مسموعة لبقيّتنا الذين انبطحنا على وجوهنا، بينما سيد العالم يقطع أرض القاعة بخطى بطيئة وبفخامةٍ استثنائيّة في طريقه إلى عرشه. كنت في شدّة من الاستغراق في التدقيق في فسيفساء الأرضية بحيث لم أحظَ حتى بلمحة من ابن عمي الإمبراطور. لم أشاهد قاتل أبي إلاّ بعد أن أعطى رئيس المناصب الإشارة للجميع لينهضوا على أقدامهم.

كان قسطنتيوس يتمتّع بهيبةٍ طاغية، وهذا أشدُ ما يُلفِتْ الانتباه فيه؛ فأقل إيماءة تصدر عنه كان يبدو وكأنه تدرَّبَ بعناية على أدائها. كان مثل الإمبراطور أوغسطس يزوِّد صندله بروافع ليبدو أطولَ قامة. كان حليق الذقن، وذا عينين كبيرتين وحزينتين. ورثَ عن والده قسطنطين أنفه الكبير والنحيل، وفمه الذي ينمُّ عن شيءٍ من التذمُّر. الجزء العُلوي من جسمه كان عضلياً بشكل مُلفت للنظر لكنَّ ساقيه كانتا قزمتين. كان يرتدي الرداء القرمزي اللون والثقيل، المتدلّي عبر كتفه ويصلُ حتى كاحليه؛ ويضعُ على رأسه عصابة رأس من الفضة مرصَّعة بحبات اللؤلؤ.

جلس قسطنتيوس بسكونٍ تام على عرشه بينما أحضرَ مدير المناصب له الأسقف جورج، الذي رحَّبَ به في ماسيلوم. لم يُلقِ الإمبراطور نظرةً واحدةً على غالوس أو عليّ. والأجوبة الطقسيّة التي أدلى بها قيلت بصوت منخفض إلى حدٍّ لم نتبيَّنْ منها أي كلمة.

ثم حانت اللحظة المُنتَظَرة. قادَ الأسقف جورج غالوس وأنا إلى مدير المناصِب، الذي بدوره قادنا إلى المنصَّة وقدَّمَنا بشكلٍ رسميّ إلى الإمبراطور. كنتُ مذعوراً. ووجدتني، دون أن أدري كيف وصلتُ إليه، أُعانقُ ركبَتَيّ قسطنتيوس، كما تتطلب مراسم البلاط.

وعن بُعدٍ سمعتُ صوت الإمبراطور، موزوناً لكنه عالي النبرة أكثر مما توقَّعت. "نحن سعداء باستقبال ابن أخينا الأنْبَلْ جوليان ". وامتدَّتْ إليّ يدٌ كبيرة خشنة الجلد، وشدَّتْ بحزمٍ على مِرفَقي الأيسر وساعدَتني على النهوض.

ولبرهة من الوقت كنتُ من شدِةّ القُرب من قسطنتيوس فاستطعتُ أنْ أميِّزَ كلَّ سُمٍ من مسامٍّ وجهه، الذي كان مسفوعاً بأشعة الشمس داكن البَشَرَة كبشرة فارسيّ. ولاحظتُ شدَّة نعومة شعره البني الأملس، وكادَ بدأ يصبح شائباً. كان في الثانية والثلاثين من عمره، لكني رأيتُ أنه عجوز. وأتذكَّر أني تساءلتُ. كيف يشعر المرء حين يكون إمبراطور روما ؟ ويعلم أنَّ صورته مضروبة على القطع النقدية، وعلى النُصُب التذكارية، ومرسوماً ومنحوتاً، ومعروفاً للعالم أجمع؟ وها هو هنا - شديد القُربِ مني حتى إني شعرت بالدفء المتبادَل لجلده - الوجه المعروف عالمياً بنسخته الأصلية، ليس برونزياً ولا رخامياً وإنما من لحم طريّ وعِظام، مثلي، مثل أي إنسانٍ آخر. وتساءلتُ : ما هو شعور الإنسان حين يكونُ مركز العالم؟

للمرة الأولى عرفتُ معنى الطموح. عرفتُه كالتجلّي. لم أعرف مثيلاً له إلا في اتِّصالي بالله الواحد. كم كنتُ نزيهاً! ولم أعترف لأي إنسان بأنَّ كلَّ ما كنتُ أفكِّرُ فيه، أثناء لقائي الأول بقسطنتيوس، هو كم أودّ أنْ أكون سلطان هذا العالم! لكن فترة جنوني كانت وجيزة. وألقيتُ متلعثماً خطابَ ولائي، ثم اتَّخذتُ لي مجلساً بجوار غالوس على المنصّة. ولا أذكر أيَّ شيءٍ آخر من ذلك اليوم.

مكثَ قسطنتيوس في ماسيلوم مدة أسبوع. وفي يوم وصوله دار حديث طويل بين الأسقف جورج وبينه، غير أنَّ قسطنتيوس تجاهله، مما كدَّرَ الأسقف جورج. وعلى الرغم من أننا كنا أنا وغالوس نتناول طعام العشاء على مائدة الإمبراطور، إلاّ أنه لم يكلِّمنا قط.

كان خوفي قد بدأ يتفاقم. لكنَّ غالوس، الذي كان يقابلُ يوسيبيوس في كل يوم قال إنَّ الخصي متفائل. " إنه متأكِّد من أنه سيُسمَحُ لنا بدخول البلاط في هذا العام. على الأقل أنا سأدخله. وقال أيضاً إنَّ هناك كلاماً يدور في المجمَع المقدَّس مفاده أني سأصبح قيصراً على الشرق ". أشرقَ غالوس من شدّة الإثارة. " إذن سأتمكَّن من العيش في إنطاكية. سيكون لي بلاطي الخاص. على أي حال، لقد وُلِدنا لنكون كذلك! "

تركَ غالوس أثره الطيب على الجميع - وقد دُهشتُ قليلاً لذلك، لأنه كان دائماً يُعاملُ الأسقف جورج بتجهُّم ويعاملني ويعامل مُعلّميه بقسوة صريحة. ولكن وضعه بين كبار موظَّفي الدولة حوّله إلى إنسان مختلف. أصبحَ يضحك؛ ويُداهِن؛ وينشر

سحره. كان مُغازلاً بطبيعته، وقام بفرض سحره على أعضاء المجمع المقدَّس، وهو الاسم الذي يُعرَف به مجلس الإمبراطور، واحداً إثر واحد. لكنه لم يجد مسلكاً إلى قسطنتيوس وحده. لقد كان ابن عمّنا ينتظر فرصته المناسبة.

أثناء وجود البلاط في ماسيلوم، كان الضباط الشبان والموظفون الأقل شأناً يتناولون الطعام في القاعة الرئيسية من القصر، بينما كان الإمبراطور والأقطاب يتناولون طعامهم في قاعة المآدب، التي كانت أصغر حجماً نسبياً. وخلال الساعة التي تسبق تناول الطعام كان الجميع يجتمعون في القاعة الرئيسية ليتجاذبوا أطراف الحديث. كان ذلك أول عهدنا بمعاينةِ أجواء البلاط الإمبراطوري. وجدتُ الأمرَ مُربِكاً، أمّا غالوس فتكيَّفَ معه كتكيُّف البجع مع الماء.

ذات يوم سمحَ لي غالوس أن أظلَّ على مقرُبة منه وهو يتنقَّلُ بين تلك الصُحبة الراقية. لقد كان غالوس سياسياً ممتازاً. كان يعقد صداقات ليس فقط مع الأقطاب ولكن أيضاً مع الكَتَبَة والموثقين العامّين الذين يقومون فعلياً بحكم البلاد. كان داهية. وطبعاً كنتُ معقود اللسان.

في القاعة الكبرى، انجذبَ غالوس إلى مجموعة الضباط الذين لم يكن قد خرج معهم للصيد إلا في ذلك اليوم. أذكرُ أني كنت أنظر إلى أولئك الشبان بإعجاب، لأنهم كانوا قد قتلوا فعلاً رجالاً آخرين في معركةٍ في أماكن نائية مثل ألمانيا وبلاد ما بين النهرين. كانوا متحفّظين بشكلٍ غير عادي وهادئين، خِلافاً للكَتَبَة والموثّقين العامين الذين كانوا متكلّمين ثرثارين، تواقين إلى التأثير على المستمع إليهم بمعرفتهم بالمسائل السرية.

بدا غالوس مهتماً خاصةً بتربيون معيَّن، وهو ضابط في ثلاثينات عمره اسمه فيكتور (الآن هو أحد جنرالاتي). وكان فيكتور – ولا يزال – يتمتَّع بوسامة طاغية ويتكلَّم اليونانية بطلاقة، على الرغم من أنه ينحدر من منطقة البحر الأسود؛ كان مُقوَّس الساقين، وباهت لون العينين كالعديدين من السارماتيين[٢٨]. التفتَ إليّ، وقال "أهذا هو جوليان الأنبل؟ "

قدَّمني غالوس بطريقة مرتجلة إلى المجموعة. فاحمرَّ وجهي ولم أفه بأي كلمة.

سألَ فيكتور " هل تخدم معنا في القوات الوطنية؟ "

أجابَ غالوس نيابةً عني. " كلا. سوف يصبح كاهناً "

قبل أنْ أتمكَّن من إنكار هذا، قال فيكتور بجدّية تامة، " إنني لا أعرفُ حياةً أفضل من الحياة التي تكرَّس لخدمة الله ". صُدِمتُ بالبساطة التي قال بها هذا. لم يقصد به السخرية.

بوغتَ غالوس قليلاً. أخيراً قلت " إنها لا تناسبني؛ لا تناسبني، لسوء الحظ ". رسمَ فيكتور ابتسامةً متعاطِفة. قال " يجب أن تصلّي من أجلنا "

غيَّرَ غالوس الموضوع. وبينما هو يتحدَّث عن الصيد مع فيكتور، وقفتُ أنا جانباً ألزم الصمت، وقد بدأتُ أشعرُ منذ ذلك الوقت أني أشبه بأحد أولئك الرهبان الجليليين أو " المنعزلين " كما كانوا يُسمَّون، وهي تسمية خاطئة بما أنه لا وجود لراهب منعزل. إنهم أشد الناس حبّاً للصحبة في العالم، فهم دائماً يأكلون، ويسرفون في الشرب والثرثرة مع بعضهم بعضاً. وأغلبهم استقالَ من العالم لكي يعيش احتفالاً مستمراً.

" أحقاً ستصبح كاهناً؟ " جاءني الصوتُ منخفضاً. التفتُّ فرأيتُ شاباً واقفاً خلفي. من الواضح أنه كان موجوداً هناك منذ بعض الوقت. هززتُ رأسي نفياً. قلت "كلا ".

ابتسمَ وقال " عظيم ". كانت له عينان رماديتان ثاقبتان تحت حاجبَين مقفولَين، أضفتا عليه مظهرَ شخص يركِّز باستمرار على شيءٍ بعيد. كان يرتدي ملابس مدنيّة، وهذا تصرُّف غريب بما أنَّ مَنْ في مثل سنّه وينحدر من عائلة كريمة يرتدي عادةً الزيّ الرسمي في البلاط.

سألته " من أنت؟ "

" أوريباسيوس البرغاموني، طبيب أوغسطس المقدَّس، الذي لا يحتاج إليّ. إنَّ ابنَ عمّك هو أصحّ رجل عرفته في حياتي "

أشرقتُ بكل صدق وقلت " أنا سعيد بسماعي هذا! ". إنَّ حياة المرء تتوقَّف على هذا النوع من الإجابة.

قال أوريباسيوس كمن يُعلِن حقيقة واقعة " إنها مسألة تتعلّق بالحِمية. إنه يمثِّلُ قدوةً مثاليةً للحياة المعتدلة. فهو يكاد لا يقرَب الخمر، ولا يُفرِط في الأكل. سوف يعيش إلى الأبد "

قلتُ، وقلبي يكاد يغوص بين أضلعي، " ليته يفعل ". كيف ستكون حياتي، وأنا أعيش في كنف شخص يعيش إلى الأبد، وتنتابني الشكوك حول قسطنتيوس؟

" ولكن لماذا يقول أخوك إنك ستصبح كاهناً؟ "

" لأني أقرأ الكتب. وهو يرى في ذلك أمراً غريباً "

" وهو يقرن الغرابة بالكَهَانة؟ "

حاولتُ ألاَّ أبتسم. " شيءٌ من هذا القبيل. لكني أودُّ أن أغدو فيلسوفاً أو خطيباً. من الواضح أني لا أتمتع بموهبة عيش حياة الجندية. على الأقلّ هذا ما يقوله غالوس. على أي حال، كل شيء يتوقَّف على إرادة المقدس أوغسطس "

قال أوريباسيوس " نعم "، ورماني بنظرة مستغربة. ولاحظت النظرة. كنت أتلقّاها طوال حياتي. وكانت تعني : هل ينوون أن يقتلوا هذا الفتى؟ وإذا فعلوا، كم سيكون ذلك ممتعاً! منذ مولدي وأنا أُعَامَلُ كشخصية في مسرحية مأساوية.

" هل تعجبكَ ماسيلوم؟ "

" أكنتَ أحببتَها لو كنتَ في مكاني؟ ". لم أقصد أنْ أقولَ هذا، لكنَّ نظرته إليّ استفزّتني فتمرَّدتُ فجأةً على معاملتي كمجرَّد شيء، ضحيّة، كأضحية خرساء في أسطورةٍ لعينة.

قال أوريباسيوس بصوتٍ متوازن " كلا، ما كنتُ أحببتها "

" حسنٌ، إذن، أنت تعلم كيف هو الأمر "، لكنَّ الخوف كان قد تولاني عندئذٍ بحيث أني أكثرت من الكلام، وأخذتُ أبربر حول طيبة ابن عمي، وعن لطف الأسقف جورج، وعن جمال كابادوسيا. ولم يهمني إنْ كانَ أوريباسيوس عميلاً سرياً. ولحسن الحظ، جاء أحد الحجّاب ليُعلِن حضور الإمبراطور، فهرعتُ إلى مغادرة القاعة الرئيسية واتخذتُ مجلسي على الطاولَة.

لقد سجّلتُ وقائع لقائي ذاك مع أوريباسيوس، بما أنه سيصبح أقرب أصدقائي إليّ. لكني لم أره ثانيةً في ماسيلوم أو، إنْ كنتُ فعلت، فإني لا أتذكّره. وقد أخبرني في ذلك الحين، " لم أر في حياتي شخصاً خائفاً مثلك "

حين أخبرته أنَّ ما أتذكَّره عن نفسي في تلك الأيام هو أني كنتُ هادئاً ومنضبطاً، ضحكَ أوريباسيوس. " كنتُ متأكداً من أنكَ وصلتَ إلى حافة الجنون. بل إني شخَّصتُ حالتك - خطأً - على أنها حالة صَرَع "

" وماذا كان رأيكَ في غالوس؟ "

" هو الذي بدا هادئاً. وقد تركَ لديّ انطباعاً قوياً "

" وطبعاً أصيبَ غالوس بالجنون "

" لا أزعمُ أني معصومٌ عن الخطأ "

إنَّ الناس لا يتركون الأثر الذي يظنون أنهم يتركونه. لكنَّ أوريباسيوس كان مُحقًّا تماماً في أمرٍ واحد : لقد كنتُ خائفاً فعلاً.

* * *

جرى حديثي مع قسطنتيوس في اليوم الأخير من زيارته. أمضى الأسقف جورج فترة الصباح وهو يدرّبنا على ما يجب أن نقوله. ولم يكن يقلُّ توتّراً عنا؛ وكانت حياته المهنيّة متوقفة على ذلك.

أُدخلَ غالوس أولاً إلى حضرة المقدَّس. أمضى مع الإمبراطور مدة نصف ساعة كاملة، وأذكر أني صلّيتُ لكل إله تذكَّرتُه؛ ولكن حتى عندئذ كنتُ انتقائياً!

أخيراً جاء رئيس المناصب، يرفلُ بملابس البلاط، ليصحبني. بدا أشبه بجلاّد. وتمتمَ الأسقف جورج يباركني. أمدَّني الرئيس بالإرشادات حول كيفية تحية الإمبراطور والصيغة التي يجب أن أستخدمها في ذلك. ورحت أردِّدها مراراً وتكراراً أثناء سباحتي - هكذا كنتُ أشعر بالضبط - نحو حضرة أوغسطس.

كان قسطنتيوس جالساً على كرسي عادي في الجزء الناتئ من القاعة. وكان يوسيبيوس واقفاً إلى جانبه، حاملاً حزمة من الوثائق. وعلى كرسي بلا ظهر موضوع عند قَدَمَي قسطنتيوس جلس غالوس، يبدو مسروراً من نفسه.

وباشرتُ في إلقاء صيغة التعبير عن الولاء، وكانت الكلمات تسقطُ من فمي دون تفكير. ألقى قسطنتيوس نظرةً فضوليّة، لاذعة، طويلة عليّ. ثم أشاح بوجهه عني طوال فترة حديثه معي. كان من النوع الذي لا ينظر في عيني شخص آخر أبداً. ويجب عدم اعتبار هذه السمة، بالضرورة، كدلالة ضعف أو تبييت نيّة سيئة. وأنا أشبه قسطنتيوس في هذا. فلطالما وجدتُ صعوبةً في النظر إلى عيون الناس. الحكّام كلهم يجب أن يكونوا هكذا. لماذا؟ بسبب ما نراه : الأنانية، الجشع، الخوف. ليس إحساساً ممتعاً أنْ يعرفَ المرءُ أنَّ مجردَ وجودهِ يثير ذعراً حيوانياً عند الآخرين. لقد كان

قسطنتيوس غالباً شريراً في أعماله لكنه لم يكن يستمتع بآلام الآخرين. ليس مثل كاليغولا، ولا غالوس.

كان كلام قسطنتيوس معي سريعاً ولا شخصياً. " لقد تلقّينا تقارير مُشجِّعة بخصوص تثقيف قريبنا الأنبَلْ جوليان. ويخبرنا الأسقف جورج أنَّ رغبتكَ هي في أنْ تستعد لحياة الكهانة ". وسكتَ، ليس ليسمع ما يمكن أنْ أقوله وإنما ليخرج بتقييم مناسب لما كان ينوي أنْ يقوله بعد ذلك. والنتيجة هي أني لم أفُه بأي كلمة.

وتابعَ قسطنتيوس " يجب أنْ تعلم أنَّ رغبتك في خدمة الله ترضينا. ليس من المعتاد أنْ ينأى الأمراء بأنفسهم عن العالم، ولكن أيضاً ليس من المعتاد بالنسبة إلى أي إنسان أنْ يلبي نداء السماء ". وفجأة تبدّى لي بجلاء تام السجن الذي سأشغله. كان قسطنتيوس ينسج شباكه حولي برشاقة. لا يمكن لأي كاهن أنْ يشكِّل تهديداً له. سوف أصبحُ كاهناً. " يخبرني الأسقف جورج إنكَ قد فكَّرتَ ملياً في الخلافات التي - لسوء الحظ - شقَّت الكنيسة المقدسة. وقد أكّدَ لي أنكَ بدراستك للمسائل المقدَّسة رأيتَ الحقيقة وآمنت، كما ينبغي على المسيحيين كلهم أن يفعلوا، وأنَّ الابنَ يشبه أباه، وإنْ كان ليس من الجوهر نفسه. وطبعاً، بما أنكَ فردٌ من العائلة، قد لا تعيش حياة رجل دين عادية؛ سوف تنهال المسؤوليات عليك. لهذا السبب يجب أنْ يستمر تثقيفكَ في القسطنطينية. أنت قارئ في الكنيسة منذ الآن. وفي القسطنطينية يمكنكَ أنْ تأمل في أن توسَم كاهناً، وهذا سيسعدنا، بالإضافة إلى أنه سيجعل لك حظوة عند الله الذي دعاكَ إلى خدمته. لهذا نحن نحيّي ابن عمنا ونجده جديراً بسلالة كلاوديوس غوثيكوس، مؤسس أسرتنا ". وهذا كل شيء. مدَّ قسطنتيوس يده إليّ لكي أقبِّلها. ولم أفُه بأي كلمة بعد تلك التي تتطلّبها مراسم البلاط. بينما كنتُ أخرج من المكان بخطى إلى الخلف، رأيتُ غالوس يبتسم ليوسيبيوس.

الآن أتساءلُ بماذا كان قسطنتيوس يفكِّر. أعتقد أني حتى في ذلك الوقت ربما أثرتُ حيرته. غالوس كان من السهل فهمه. ولكن مَنْ هو هذا الفتى الصامت الذي يريد أنْ يصبح كاهناً؟ كنتُ قد خطَّطتُ لقول أشياء كثيرة لقسطنتيوس، لكنه لم يفسح لي المجال. والمدهش أنه كان متوتِّر الأعصاب في تعامله مع الجميع. كان لايكادُ يُحسِنُ التكلُّم، إلا حين يكون قادراً على التكلُّم، أعني، وهو جالس على عرشه. لم يكن يثق

في أحد، عدا زوجته، يوسيبيا، والحاجب الأكبر. وكان رجلاً فضولياً. الآن وقد جلستُ في مكانه صرتُ أتعاطفُ معه أكثر، ولكن دون أن أحبه. وقد زاد من سوء طبيعته الشكّاكة بشكلٍ واضح كونه أقلّ ذكاء بقليل ممَّن يتعاملُ معهم. وهذا فاقمَ من قلقه وجعله بعيد المنال إنسانياً. حين كان تلميذاً فشلَ في مادة البلاغة ببساطة بسبب بطء فهمه. بعد ذلك تولّه بكتابة الشعر، مما سبَّبَ الإحراج للجميع. وكان نشاطه " الفكري " الوحيد هو الخوض في المجادلات الجليليّة. وقد سمعتُ أنه كان متفوّقاً في هذا المجال، ولكن أي مُماحِك قروي يستطيع أن يحقِّق شهرةً في أي مجمع كنسي جليليّ. انظر إلى أثاناسيوس!

هذا اللقاء أراحني. طبعاً لم أكنْ أريد أن أصبح كاهناً، ولكن إذا كان هذا هو ثمن حياتي كنت على أتمّ الاستعداد لدفعه.

غادرَ قسطنتيوس وسط أبهةٍ ساطعة. ووقفنا أنا وغالوس والأسقف جورج في الفناء أثناء مروره راكباً. بدا وهو ممتطٍ صهوة جواده رائعاً وممشوقاً بدرعه المنقوش بالذهب. وأثناء خروجه من ماسيلوم لم يتعرَّف على أحد. كان بأسلوبه البارد يترك أقوى الأثر، وما زلتُ أحسده على فخامته. كان في استطاعته أن يقف على مدى ساعاتٍ طوال أمام الملأ دون أن يلتفت يساراً أو يميناً، ساكناً كتمثال، وهذا ما تتطلّبه مراسيمنا. والإمبراطور ديوكليتيان هو الذي قرَّرَ أنَّ علينا أن نصبح، في الواقع، إذا لم يكن باللقب، ملوكاً آسيويين، لكي نظهر في المناسبات النادرة أشبه بنُصُب الآلهة المذهَّبة. كان دافع ديوكليتيان مفهوماً، وربما لا مناص منه، ذلك أنَّ الأباطرة في القرن السابق كانوا يُنَصَّبون ويُخلعون بطيش، حسب نزوة الجيش. لقد شعرَ ديوكليتيان انه إذا ما قُسِّمَ الجيش، وجُعِلَ مقدَّساً في عيون الناس وأُحيطَ بطقوس تثير الرهبة في النفوس، فإنه لن تُتاحَ له الفرصةُ أن يُعاملنا بامتعاضٍ جليّ. ونجحَتْ سياسته، إلى حدٍ ما. واليوم حين أتجول في الدولة وألاحظ الرعب المرتسم على وجوه الناس، ليس بسببي بل رهبةً من ضخامة المناسبة، أشعرُ أني أفّاكٌ محض وأودُّ لو أطرحُ عني أثقال الذهب وأصرخ "أرجلاً تريدون أم تمثالاً؟ " ولا أفعلُ طبعاً، لأنهم كانوا سيجيبون على الفور " تمثالاً!".

بينما كنا نتابعُ مشاهدة الموكب الطويل يشقُ طريقَه من الفيلا إلى الطريق الرئيسية، هتف غالوس فجأةً " أنا مستعد أن أدفع أي شيء مقابل أن أذهب معهم! "

" سوف تذهب قريباً، أيها الأنبَلْ غالوس ". كان الأسقف جورج عندئذٍ قد تعوَّدَ على مخاطبتنا بلقبينا.

سألته " متى؟ "

أجابَ غالوس " في غضون بضعة أيام. لقد وعدني الإمبراطور بذلك. قال" حين يتم إعداد كل شيء، سوف تنضم إلينا . سوف يصدر إليّ أمرٌ عسكري، ومن ثم...!". لكنَّ غالوس كان من الحكمة بحيث لم يجهر بأمانيه في المستقبل. بدل ذلك نفحني بابتسامةٍ مُشعّة، وكرَّرَ بخبثِه المعتاد " ومن ثم سوف تصبح أنتَ شماساً "

قال الأسقف جورج " إنه بداية أشد الأعمال قدسيّة "، قالها وهو يزيل غطاء رأسه الفضي ويعطيها لأحد المرافقين. كان يُحيطُ بجبينه خطٌ أحمر حيث كان يستقر التاج. "أتمنى لو كان في استطاعتي أن أتابع تثقيفك بنفسي، ولكن، للأسف، لقد وضع أوغسطس المقدَّس خططاً أخرى لي ". وأضاءتْ للحظة نظرةٌ من البهجة الصِرف ذلك الوجه الرصين، النحيل.

سألته " الإسكندرية؟ "

وضعَ إصبعه على شفتيه، وولجَنا إلى الداخل، وكلٌ راضٍ عن مصيره : غالوس كقيصرٍ في الشرق، وجورج كأسقف للإسكندرية، وأنا... يعني، على الأقلّ سوف أتمكّن من متابعة دراساتي؛ إنَّ كاهناً حيّاً أفضل من أميرٍ ميّت.

على مدى الأسابيع القليلة التالية عشنا في حالة توقُّعٍ مستمرٍ لتلقّي الأمر الإمبراطوري. لكنَّ الأسابيع تحوّلتْ إلى شهور، ومات الأملُ ببطءٍ داخل كلٍ منا. لقد نُسينا.

سرعان ما فقدَ الأسقف جورج كل اهتمام في تثقيفنا. وكنا نادراً ما نراه، وحين نفعل يُعاملنا بازدراءٍ غامض، وكأننا بصورةٍ ما مسؤولون عن سوء طالعه. واكفهرَّ غالوس وأصبحت تنتابه نوبات مفاجئة من العنف. فإذا لم يثبُت دبوس الزينة كما ينبغي يرميه على الأرض ويسحقه بكعب قدمه. وحين يتكلَّم، هذا إنْ فعل، كان يزأر في وجوه الجميع. لكنه في أغلب الأحيان كان يلزم الصمت ويُحدِّق بانشداه، وكان اهتمامه الوحيد هو غواية الفتيات من العبيد بغضب. وأعترفُ بأني لم أكن أنا أيضاً ملاكاً طاهراً، ولكن على الأقل كان لديَّ أفلوطين وأفلاطون. كان في استطاعتي أن أدرس، وأن أنتظر.

* * *

في تلك الفترة وقع أمرٌ غريب. ففي الفيلا كان هناك عدد من الشبان الكابادوسيين، فتيانٌ قرويون أحرار يعملون في الإسطبلات كساسةِ خيل ومدربين. كانوا مجموعة مرحة وحين قدمتُ للمرة الأولى إلى ماسيلوم سُمِحَ لي أنْ ألعبَ معهم. وكانوا الرفاق الوحيدين من نفس سني. وكنتُ معجباً بأحدهم على وجه الخصوص، اسمه هيلاريوس، كان وسيماً، ويكبرني بسنتين. كان سريع البديهة، وأذكرُ أني حاولتُ أن أعلّمه القراءة حين كنتُ في العاشرة من العمر وكنت قد بدأتُ التدريس بالفعل! ولكن مع تقدّمنا في السن، أصبح كلٌ منا يعي مكانته، ولم تعُد الكلفة تُرفَع بيننا. ومع ذلك، بقيتُ أهتمُّ بسعادته، وعندما أخبرني أنه يريد أنْ يتزوج من فتاة من مدينة قيصريّة يعارض والدها زواجها منه، استطعت إقناع والدها به. واستطعتُ أيضاً أنْ أجعل من هيلاريوس سائسي الشخصي.

وذات صباح من أيام شهر نيسان حين أرسلتُ في طلب حصاني، أحضره لي سائسٌ غريب. فأين هو هيلاريوس؟ لقد خرجَ راكباً مع غالوس الأنبَلْ. ودُهشتُ؛ إذ لغالوس سائسه الخاص، ونحن لا نتبادل خدّامنا أبداً. ولكنني طرحتُ الأمر من تفكيري. وأسعدني أن أكون وحيداً، فركبتُ متجهاً إلى سفوح جبل آرغيوس، لأستمتعَ بهواء الربيع المنعش. كانت الأوراق الخضراء الجديدة تشعُ بلونها الأخضر المصفرّ أمام خلفيّة من الأغصان القاتمة وبدت الأرض تتبخَّرُ بضبابٍ أبيض وأنا أقترب من بقعةٍ مُفضّلة ينمو العرعرُ فيها وأشجار الأرز حول نبعٍ طبيعيّ.

لدى اقترابي من الفسحة المكشوفة، سمعتُ صرخةً حادّة، وكأنَّ حيواناً يتألّم. ثم رأيتُ حصانَين مُقيَّدين إلى شجرة أرزٍ منحنية ألقيَتْ على جذعها ملابسُ رجل. اقتربت، فوجدتُ هيلاريوس عارياً مُقيَّدَ القَدَمَين ومنبطحاً على بطنه وغالوس يضربه بسوط الخيول. وكلما هبط السوط بضربةٍ أطلقَ هيلاريوس صرخةً. والأغرب من ذلك كله كان التعبير الذي كان يرتسم على وجه غالوس. كان يكشِّرُ بتعبير استمتاعٍ صِرف، وقد تحوَّلَ وجهه بفعلِ ألمٍ آخر.

" كفى! "، واندفعتُ مباشرةً إليه. التفتَ غالوس نحوي مُجفِلاً. وهتف الفتى باسمي كي أنقذه.

قلتُ " إنه سائسي "، ولم يكن لهذا دخل في الموضوع، فلو كان الفتى عاصياً فإنَّ

لغالوس الحقَّ كلّه بقدرَ ما لي في عِقابه. " قلتُ اخرج أنتَ من هذا الأمر! عُدْ من حيث أتيت! " وصوَّبَ غالوس السوطَ نحوي لكنّه ضربَ به كَفَلَ حصاني بدل ذلك. شبَّ الحصان. فزعَ غالوس، فأسقَطَ السوطَ. شعرتُ بالحنق من نفسي وهرعتُ نحو أخي، كما يتعلمُ الخيّالة أنْ يلحقوا بجنود المُشاة. انطلقَ هارباً. وفي اللحظة التي امتطى متن حصانه لجمتُ أنا حصاني. تواجهنا للحظة، ونحن نلهثُ بعنف. كان غالوس ما يزال يكشِّر ، وأسنانه ظاهرة ككلبٍ يستعدُ للنهش.

حاولتُ أنْ أحافظَ على هدوئي. بذلتُ جهداً مضنياً لأسأل " ماذا فعل؟ "

أجاب غالوس على هذا " لا شيء؟ " ثم ضحك، ونخسَ حصانه ورحل. ولا زلتُ حتى يومي هذا أذكر الطريقة التي قال بها " لا شيء ". فكما أنَّ كاهنة دلفي مملوءة بروح أبولو، كذلك أخي كان ممسوساً بالشر. كان شيئاً رهيباً.

ترجَّلت. فككتُ وِثاق الفتى وكان عندئذٍ يجهشُ بالبكاء ويبربر كيف إنه لم يفعل أيَّ شيء - مرة أخرى لاشيء! - وإذا بغالوس، دون أن يتفوَّه بأي كلمة أو غضب أو تأنيب، يأمره بالترجُّل ويجرِّده من ملابسه. وكان غالوس ينوي أنْ يضربه حتى الموت. أنا واثق من ذلك.

عدتُ إلى ماسيلوم، وأنا على استعداد لقتل نفسي. ولكن حين تقابلنا أنا وغالوس في تلك الليلة على مائدة العشاء ,كان غضبي قد تلاشى وحلَّ محلّه شيءٌ يشبه الخوف. كان في استطاعتي أنْ أتعامل مع أي إنسان تقريباً. ولما كنت غضاً، كنتُ أنطوي على ثِقةٍ كبيرة في نفسي. لكن الشيطان هو موضوعٌ آخر؛ خاصةً حين يكون شيطاناً لا أفهمه.

كنت طِوال فترة تناول وجبة العشاء أحدِّقُ إلى غالوس، الذي اختارَ أنْ يكون مبتهجاً، وعابثاً وفاتناً؛ ولم أعثر في أي مكانٍ من وجهه على أي أثرٍ للتكشيرة التي تكشف عن أسنانٍ حادة - كدتُ أقول " أنياب " - التي كنتُ قد رأيتها قبل ذلك ببضع ساعات. وبدأتُ أتساءلُ إنْ كانَ الأمر كله حلماً. ولكن حين قمت بزيارة هيلاريوس في اليوم التالي وشاهدت الندوب على ظهرِه علِمتُ أنَّ لا شيءَ منه كان حلماً . لا شيء. وهذه الكلمة تمسسني حتى هذا اليوم.

خلال الفترة المتبقّية لنا في ماسيلوم عملنا أنا وغالوس على ألاّ يضمنا مكان

وحدنا. وحين يحدث ونتحدث معاً، يكون ذلك دائماً بأدب. لم نكن نأتي قط على ذِكر ما حدث في تلك الفسحة المكشوفة.

بعد ذلك بشهر وصلتْ رسالة من الحاجب الأكبر : على غالوس أن ينتقل إلى عزبة والدته المرحومة في إفسوس؛ حيث سيرتع في ملذات الإمبراطور. شعر غالوس أمام هذا معاً بالبهجة والاكتئاب. لقد تحرَّرَ من ماسيلوم لكنه ما يزال سجيناً، ولم يكن هناك أي ذِكرٍ لكونه سيصبحُ قيصراً.

ودَّعَ غالوس رئيسه وأصدقاءه على مائدة العشاء وكنتُ، ويا للدهشة، قد دُعيتُ إليها. وألقى خطاباً ممتعاً، وعدَ فيه بأنْ يتذكَّرَ أصدقاءه إذا ما صدرَ إليه أمرٌ عسكري. هنا قدَّمَ الأسقف جورج له وصيّةً جليليّة مُغلّفة بإطارٍ ثقيل من الفضة. "ادرسها جيداً، أيها الأنبَلْ غالوس. يمكن أن يكون هناك خلاصٌ خارج الكنيسة ". كم من مرّةٍ سمعتُ هذا القول الوقح!

في اليوم التالي عندما حان وقتُ وداع غالوس لي، فعلَ ذلك ببساطة. " صلِّ من أجلي، يا أخي، كما أصلّي من أجلك "

" سأفعلُ. الوداع، يا غالوس ". وافترقنا، وكأننا غريبان التقيا ذات أمسية في حانة، وفي اليوم التالي اتَّخذَ كلٌ منهما طريقاً مختلفة. بعد مغادرةِ غالوس، بكيتُ، للمرة الأخيرة في عهد طفولتي. ومع ذلك كرهته. يقولون أنْ تعرفَ نفسك يعني أنْ تعرفَ كل ما هو إنسانيّ. ولكن طبعاً لا أحد قادر على معرفة نفسه. وفي نهاية المطاف لا يمكنُ الاعتماد على أي شيءٍ إنسانيّ؛ إننا غرباء حتى أمام أنفسنا.

في الأول من حزيران عام ٣٤٨ تلقّى الأسقف أوامر بشأني، وكأنها أفكار متأخّرة. يجب أنْ أنتقل إلى القسطنطينية. وعلى الرغم من وجود عمي جوليان في مصر، كان منزله موضوعاً تحت تصرّفي. ومن المُقرَّر أن أدرس الفلسفة تحت إشراف إسيبوليوس، المُفضَّل لدى قسطنتيوس. لم تكن هناك أي إشارة إلى الكهانة، مما أدخلَ السرورَ إلى قلبي وليس إلى قلب الأسقف جورج. " لا أفهمُ لماذا غيَّرَ أوغسطس فكرَه. لقد كان باتّاً أثناء وجوده هنا "

قلتُ بتردُّد " لعلَّ لديه مجالاً آخر للاستفادة مني "

" أي مجالٍ أهمّ من خِدمة الرب؟ ". كان الأسقف جورج غاضباً. إنَّ أثاناسيوس ما

يزال موجوداً في الإسكندرية، والآن يبدو كأنّه قدرٌ على جورج أنْ يقضي ما تبقّى من حياته في كابادوسيا. وبدأ بتنظيم رحلة مغادرتي وهو يتأفّف.

كان الجو دافئاً، يسوده الضباب حين ولجتُ العربة التي ستقلّني إلى القسطنطينية. وحين هممتُ بالمغادرة، سألني الأسقف جورج إنْ كنتُ واثقاً من أني أعدتُ كل كتب أفلوطين إلى مكتبته، فقد أنبأه سكرتيره بأنَّ هناكَ مجلداً مفقوداً. أقسمتُ على أني أعدتُه في صباح ذلك اليوم (وهذا صحيح: لقد كنتُ أعمل على عَجَل على نسخ فقرات منه في دفتر). ثم منحني الأسقف بركته ووصيّة جليليّة، مغلّفة ليس بجلدٍ فضيّ بل بجلدٍ رخيص؛ من الواضح أنه ليس مُقدَّراً لي أنْ أصبحَ قيصراً! ومع ذلك شكرته شكراً جزيلاً وودَّعته. فرقَعَ السائق بسوطه، فانطلقَتْ الخيول تخبُّ. وللمرة الأولى منذ ست سنوات غادرتُ حدودَ ماسيلوم. لقد انتهى عهد طفولتي، ولا أزالُ حياً.

ـ٥ـ

" تقول إنكَ تحبُّ أيضاً شعر باخيليديس، هه؟ أه، إنّ لدينا ذوقاً ممتازاً! لا شكَّ في ذلك " . شعرتُ بأني مغمورٌ بتقريظ إسيبوليوس إلى درجةِ أنه لو طلبَ مني في التو واللحظة أن أقفزَ عن سطح منزل عمي جوليان كجزءٍ من التدريب الأدبي، لفعلتُ بكل سرور، مستعيناً بمُقتطَفٍ من هزيود أثناء سقوطي. وانطلقتُ أثرثر كسعدان حين امتحنني في أدب هزيود، وهومر، وهيرودوتوس، وثوسيديدس و ثيوغنيس. وطوال سبع ساعات أصغَى إليّ وأنا ألقي عن ظهر قلب آلافاً من الأبيات الشعرية التي حفظتُها في ماسيلوم. وتظاهرَ بأنه مذهول. " كنتُ أعلمُ أنَّ الأسقفَ جورج فقيه ممتازٌ - يا لتلك المكتبة التي يُحسَدُ عليها! لكني لم أكن أعلم أنه أستاذ على هذه الدرجة من العبقرية! ". أشرقتُ بكل بلاهة وتابعتُ الكلام. أخيراً انطلقَ لساني، وهناك مَنْ يعتقدون أنني لم أتوقفْ عن الكلام منذ ذلك الحين.

حين كنتُ طفلاً صغيراً، كنت قد درست في مدرسة النبلاء على يد إسيبوليوس. لذا انطلقنا من حيث كنا قد توقّفنا، وكأنَّ شيئاً لم يتغيَّر، ما عدا أني الآن أصبحتُ مراهقاً أخرقَ ذا لحيةٍ كثّةٍ تنمو على ذقنه، وبعض الشُعيرات فوقَ الشفة العليا، وبعضٌ آخر لا يكادُ يُرى على الوجنتين. بدا مظهري مخيفاً لكني رفضتُ أنْ أحلِق شعري. سوف أصبحُ فيلسوفاً. هكذا قلتُ بتباهٍ؛ وبُتَّ الأمر.

في القسطنطينية كنتُ أُترَكُ في الغالب وحدي. كان جمهوري يتألَّفُ فقط من الحاجب الأكبر يوسيبيوس. أقولُ " جمهور " لأنَّ يوسيبيوس لم يكن فقط يمارس السلطة الفعلية للإمبراطور، بل كان يُقلِّدُ أبَّهتَه. في الواقع، كانت تدورُ نكتةٌ مفادها أنه إذا أراد أحد أنْ تُلبَّى له حاجة، فعليه بمقابلة قسطنتيوس لأنه كان معروفاً بأنَّ له تأثيراً على الحاجب الأكبر.

استقبلني يوسيبيوس في جناحه في القصر المقدَّس. نهضَ واقفاً ليرحِّبَ بي (على الرغم من أنه كان الرجل الثاني الأقوى في الإمبراطورية، فإنَّ مرتبته كانت فقط illustris وقد عملتُ على ترقيته). رحَّبَ بي بذلك الصوت الطفولي العذب وأشارَ إليّ كي أجلسَ إلى جانبه. لاحظتُ أنَّ أصابعه السمينة تتلألأ بما تحمله من أحجارٍ كريمةٍ وياقوتٍ هندي، وكان ينضح بأريج الورد.

" هل جوليان الأنبل مرتاحٌ في منزل عمّه؟ "

" أوه، نعم، مرتاحٌ جداً ". " لقد ارتأينا أنكَ ستفضِّله على... قيد القصر المقدَّس. ولكنكَ طبعاً لا تبعدُ عنه أكثر من بضع ياردات. يمكنكَ أن تزورنا كثيراً. ونأمل أن تفعل "، ونفحني بابتسامة ذات غمّازة.

سألته متى سيعودُ الإمبراطور. " نحن لا ندري. إنه الآن في نصيبين. وهناك شائعاتٌ تقول إنه قد يشتبكُ مع سابور في معركةٍ حربية أخيرة. ولكنكَ تعلم بقدر ما أعلم "، وقام بإيماءة احترامٍ مادحةٍ لي. " لدينا تقارير ممتازة حول تقدّمكم. يقولُ إسيبوليوس فيها إنكَ موهوبٌ في الخطابة وهذا أمرٌ غير معهودٍ فيمن هم في مثل سنّك، ولكن هذا لا ينطبق - إذا سمحتَ لي بالقول - على فردٍ من عائلتكم ". ابتسمت وأنا أشعر بالتوتر من هذا الغلوّ. إذ لا قسطنتيوس ولا غالوس كان يمكنه أنْ يخوضَ في نقاشٍ أو حتى أنْ يُلقي خطاباً معقولاً.

" وإسيبوليوس يقترح أن تأخذ أيضاً دورةً في علم النحو مع نيكوكليس. وأنا أوافق. إنَّ معرفةَ هذه الأشياء ضروريةٌ، خاصةً لشخصٍ قد يرتقي إلى مرتبةٍ عالية جداً." ترك كلامه مبهماً. وبينما كنت أعبِّرُ بكلام غير مفهوم عن إعجابي بنيكوكليس وحماسي لعلم النحو، أخذَ يوسيبيوس يتفحَّصني وكأني ممثّلٌ أقفُ على خشبة المسرح وألقي خطاباً. وفهمتُ أنه يتوقُ إلى معرفة سريرتي. لقد كان غالوس يفتنه بشكلٍ واضح، غير أنَّ غالوس لم يكن يتَّصفُ بالذكاء ولا بالمهارة؛ لم يكن يشكِّلُ أي تهديد على الحاجب الأكبر. كان من الممكن السيطرة عليه، تماماً كما كان يسيطر على قسطنتيوس. ولكن مَنْ يكونُ هذا الأميرُ الثالث، هذا الشاب الذي لم يكتمل نموه بعد ذو اللحية المشوَّشة ويتكلَّمُ بسرعة كبيرة ويستعين بعشرة مقتطفات في حين يكفي واحد؟ لم يكن يوسيبيوس قد استقرَّ بعد على قرارٍ بشأني. لذا بذلتُ أقصى جهدي لإقناعه بأني غير مؤذٍ.

" إنَّ اهتمامي منصبٌ على الفلسفة. وهدفي هو الالتحاق بجامعة أثينا، منارة العالم. " إنَّ البشرَ يستقصون الله والاستقصاء يُؤدي إليه "، كما قال أسخيلوس. لكننا طبعاً نعرفُ الله كما لم يعرفه أسلافنا. لقد جاء يسوع بفضلِ نعمةٍ فريدة لكي يخلِّصنا. إنه مثل أبيه وإنْ كانا ليسا من جوهرٍ واحد. ولكن من المفيد أنْ ندرس الأساليب القديمة؛ أنْ نتكلَّمَ في كل المسائل، بل وأنْ نُخطئ. إذ أنَّ يوريبيديس يقول "إنَّ العبد هو الذي يعجز عن البوح بأفكاره "، ومَنْ الذي يكون عبداً، إلا للعقل؟ ومع ذلك فالمغالاة في حب العقل قد يكونُ فخّاً، وكما قال هومر " حتى الرجل الحكيم يكونُ أحمقَ إذا سعى وراء الفضيلة نفسها متجاوزاً ما يكفيه منها "

إنني أسجلُ، مع بعض الإحساس بالخجل، الثرثرة الفظيعة التي كنتُ قادراً على النطق بها في تلك الأيام. لم أكنْ واثقاً على الإطلاق من نفسي بحيث أني لم أخرج بأي ملاحظة شخصية حول أي شيء. بدل ذلك كنتُ أخرج بمقتطفات. في هذا كنتُ أشبه العدد الغفير من السوفسطائيين المعاصرين الذين - بما أنهم لا يحملون أي أفكارٍ خاصة بهم - يضمّون معاً الأقوال غير المترابطة للمشاهير من الموتى ويعتبرون أنفسهم حكماء على قَدَم المساواة مع الذين يقتطفون منهم. إنَّ الاستعانة بنصٍ لإبراز نقطةٍ ما يريد المرء أن يوضّحها هو أمر، أما الاقتطاف فقط لاستعراض قوة ذاكرته فأمرٌ آخر. في سن السابعة عشرة كنت أمثِّلُ أسوأ نوعٍ من السوفسطائيين. ولعل ذلك أنقذَ حياتي. كنتُ أشيعُ الملل الأقصى في نفس يوسيبيوس والمرء لا يخشى الذين يُشيعون الملل في النفس. وبالتعريف، الإنسان المملّ يمكن التكهُّن بتصرّفاته. إذا كنتَ تعتقد أنكَ تعرفُ مُسبَقاً ما يمكن لشخصٍ ما أن يفعله أو يقوله، فلن يستطيع أنْ يُفاجئك بشكلٍ مزعج. أنا واثقٌ من أني عبر أحد الحوارات أنقذتُ حياتي دون قصد.

" سوف نبذل أقصى جهدنا لنجذب انتباه المقدَّس أوغسطس إلى رغبتك - رغبة جديرة بالثناء - في أن تلتحق بجامعة أثينا. في الوقت الحاضر يجب أن تستمر في دراساتك هنا. أيضاً، أقترحُ... " وسكتَ بلباقة، وهو يتأمل ملابس مدرستي وأصابعي التي لم يزُل الحبر عنها تماماً. "... أن تتلقَّى إرشاداً في أساليب السلوك في البلاط. سوفَ أرسلُ إليكَ يوثريوس. وعلى الرغم من أنه أرمني إلا أنه سيِّدُ مَنْ يُعلِّم المراسم. وسوف يُعرِّفكَ إلى أدقّ استعداداتنا مرَّتين... كلا. ربما ثلاث مرات في الأسبوع "

قرع يوسيبيوس جرساً فضيّاً أنيقاً. ثم ظهر شكلٌ مألوف في ممر الباب : إنه مُعلِّمي القديم ماردونيوس. لم يبد مختلفاً عن ذاك الذي رأيته في ذلك اليوم قبل ست سنوات حين ودَّعنا أمام منزل الأسقف. وعانقناه بحب.

هزَّ يوسيبيوس. " إنَّ ماردونيوس هو يدي اليمنى. إنه رئيس أمانة سرّي؛ وضليعٌ بارز في الآداب الكلاسيكية، وتابعٌ مخلص، ومسيحيٌ صالح ذو إيمان لا يتزعزع ". بدا يوسيبيوس وكأنه يُلقي خطاب تأبين. " سوف يكشف لك عن كل شيء. والآن عن إذنك، أيها الأمير الأنبل، لدي اجتماعٌ مع المجلس المقدَّس ". نهضَ واقفاً. تبادلنا التحية، وانسحبَ، وهو يحثّني على زيارته في أي وقتٍ أشاء.

حين بقينا أنا وماردونيوس وحدنا، قلتُ بمرح " أنا واثق من أنكَ لم تكن تعتقد أنكَ ستراني حياً بعد ذلك! "

كان ذلك هو أسوأ ما يمكن قوله. مسكين ماردونيوس، أصبح لونه شاحباً شحوب الموتى. همسَ " ليس هنا ,القصر - عملاء سريون - في كل مكان. هيا ". قادني، ونحن نتحدث عن أمورٍ حياديّة، خلال الأروقة الرخامية إلى الباب الرئيسي للقصر. ولدى مرورنا خلال البوابة الخارجية، حياني الحرس التعليمي، وشعرت بإثارةٍ عابرة لم تكن من صفات الشخصية التي كنتُ قد كشفتُ عنها أمام يوسيبيوس.

كان مُرافقيّ في انتظاري تحت الممر المقنطر عبر الساحة المربّعة. أومأت إليهم كي يبقوا حيث هم. كان ماردونيوس مقتضباً. " لن أتمكن من مقابلتكَ بعد الآن. طلبتُ من الحاجب الأكبر أن أعلّمكَ مراسم البلاط، لكنه رفضَ طلبي. أمرني بكل وضوح ألاّ أراكَ ثانية "

" وماذا عن ذلك الشخص الذي حدَّثني عنه، الأرمني؟ "

" يوثيريوس رجل صالح. سوف يعجبك. لا أعتقد أنه أُرسِلَ لكي يُجرِّمكَ، وإنْ كان سيُرسِل تقارير مُنتَظَمة. ويجب أن تنتبه إلى ما تقول في كل المناسبات. وإياك أنْ تنتقد الإمبراطور... "

" أعرف هذا، يا ماردونيوس "، ولم أتمكن من كبح ابتسامي. إنه بالضبط كما كان. " لقد نجحتُ في العيش حتى الآن "

" ولكن هذه القسطنطينية، وليست ماسيلوم. وهذا هو القصر المقدّس الذي... في الواقع إنه عصيٌّ على الوصف "

قلتُ لأضايقه، " ولا حتى هومر؟ ". ابتسم بحرارة. " إنَّ هومر لم يختبر مثل هذا النوع من الفساد والشر "

" ماذا تنوي أن تفعل بي؟ "

" القرار للإمبراطور "

" هل سيتَّخِذ يوسيبيوس القرار نيابةً عنه؟ "

" ربما. ابقَ بعيداً عنه. اظهَرْ بمظهر اللا مؤذي "

" أمرٌ سهل "

" وانتظِرْ ". فجأةً عاد ماردونيوس إلى سابق عهده. " بالمناسبة، لقد قرأتُ أحد مواضيعك. " الإسكندر الأكبر في مصر " . إنه مُغرَق في الإطناب. أيضاً، أخطأتَ في الاقتطاف. من الأوديسه الفصل ١٦، الرقم ١٨٧ : " أنا لستُ إلهاً. فلماذا تُشبّهني بالخالدين؟ ". لقد استخدمتَ الفعل بمعنى " تضعني بين مصاف " بدل أن تعني "تُشبّهني ". لقد شعرتُ بالمهانة حين أراني يوسيبيوس هذه الغلطة "

اعتذرتُ بتواضع. وذُهِلتُ أيضاً حين أدركتُ أنَّ كل تمرين مدرسي أقومُ به موجودٌ في ملفٍ في مكتب الحاجب الأكبر.

" هكذا يكوِّنون رأيهم لصالحك - أو ضدك ". عبسَ ماردونيوس وفجأةً بدت التجاعيد التي لا تُحصى على وجهه أشبه بظل خيوط عنكبوت تحت أشعة الشمس. كُنْ حذِراً. لا تثِق في أحد ". وأسرعَ عائداً إلى داخل القصر.

* * *

بقيتُ في القسطنطينية ما تبقّى من ذلك العام. كان الدخل، الذي تركَته لي جدَّتي التي كانت قد توفيَتْ في ذلك الصيف، يكفيني. وقد سُمِحَ لي برؤيتها قُبيلَ وفاتها، لكنّها لم تتعرَّف عليّ. قالت كلاماً مفكَّكاً. وأخذت ترتعشُ بسبب الشلل الارتجافي وأحياناً كانت الارتعاشُ يصبح من العنف بحيث يضطرون إلى ربطها إلى سريرها. وحين غادرتها قبَّلَتني، وغمغمَتْ، " حلو، حلو "

بأمرٍ من الحاجب الأكبر سُمِحَ لي بمرافقة فتيةٍ من أترابي أو أي شخص آخر غير مُعلّميّ، إسيبوليوس ونيكوكلس، والخصي الأرمني. وإسيبليوس رجلٌ يتمتَّع بجاذبية كبيرة. أما نيكوكليس فكنتُ أمقته؛ كان رجلاً قصيرَ القامة، أشبه بجندب ضئيل.

وكان كثيرون يعتبرونه أول فقيه في علم اللغة في عصرنا. لكني طالما اعتبرته عدواً. وهو أيضاً لم يحبّني. وأتذكّرُ خاصةً حديثاً دار بيننا. ومن المسلّي أن أستعيده. " إنَّ الأنبل جوليان يمرُ في فترةٍ حسّاسة من حياته، ويجب أن يأخذَ حَذَرَه ممَّن يُصغي إليهم. لقد أصبحَ العالم الآن مملوءاً بالمعلّمين الزائفين. في مجال الدين لدينا جماعة أثاناسيوس، وهي من أشدّها إشاعة للشِقاق. وفي الفلسفة لدينا مشعوذون من كافة الأنواع، مثل ليبانيوس "

كانت تلك المرة الأولى التي أسمع فيها الاسمَ الذي قُدِّرَ له أن يعني لي كثيراً كمفكِّر ومعلِّم. سألتُ، دون كثير اهتمام، مَنْ هو ليبانيوس. " إنه إنطاكي ـ ونحن نعلم كيفَ هم. درسَ في أثينا. ثم جاءَ إلى هنا لكي يمارس التعليم. حدث هذا قبل اثنتيْ عشرة سنة. كان على خطأ. كان شاباً، ويشكِّلُ قدوةً سيئة لزملائه، لأولئك منا الذين كانوا، إذا لم أقُل أشد حِكمة، على الأقلّ أكثر خِبرة منه ". وأصدرَ نيكوكلس صوتاً أشبه بحفيف أجنحة حشرة في يومٍ صيفيّ ـ أهو ضحك؟ " وكان أيضاً غير لبِق فيما يخص الدين. إنَّ المعلّمين العِظام كلهم من المسيحيين. هو لم يكن كذلك. كالعديدين الذين يذهبون إلى أثينا (واسمح لي أنْ أقول إنني آسى لرغبتكَ في الدراسة هناك)، يفضِّلُ ليبانيوس أساليب أسلافنا الفارغة. إنه يُسمّي نفسه هيلينيّ، مفضِّلاً أفلاطون على الأناجيل، وهومر على العهد القديم. وخلال أربع سنوات هي فترة إقامته هنا أشاع الفوضى الكاملة في صفوف المجتمع الأكاديمي. كان دائماً يُثيرُ المشاكل. يا له من تافه! بل إنه، في الواقع، أعدَّ أطروحة للإمبراطور حول أسلوب التعليم الإغريقي، مُقترحاً إجراء تغييرات على منهاجنا الدراسي! يسعدني أنْ أقول إنه غادرنا قبل ثماني سنواتٍ مضتْ، يسربله الخزي "

حيَّرني خطابه بشكلٍ غريب، فقلت " أي خزي؟ ". أقول غريب لأنَّ الأكاديميين في كل مكان دائماً يهاجمُ أحدهم الآخر، وقد تعلَّمتُ منذ زمنٍ بعيد أنَّ على المرء ألاّ يصدِّق ما يقوله معلِّم عن آخر.

" لقد تورَّطَ مع إحدى الفتيات، هي ابنة سيناتور. كان من المفترض أنه يعطيها دروساً خاصةً في الآداب الكلاسيكية. لكنه بدل ذلك جعلها حُبلى. تقدَّمَتْ عائلتها بشكوى. وإنقاذاً لسُمعَة الفتاة وعائلتها، وهي عائلةٌ ذات نفوذٍ واسع (سوف تعرف

مقامها إذا أخبرتكَ اسمها، لكني لن أفعل)... نفى أوغسطس ليبانيوس من العاصمة"

" وأين ليبانيوس الآن؟ "

" إنه في نيكوميديا، حيث كعادته يُثيرُ المشاكل. إنه مولع باجتذاب الانتباه ".

كان نيكوكلس كلما أدانَ ليبانيوس، ازدادَ اهتمامي به. وقرَّرتُ أنْ أقابله. ولكن كيف؟ ليبانيوس لا يستطيع أن يأتي إلى القسطنطينية وأنا لا أستطيع أن أتوجه إلى نيكوميديا. لحسن الحظ أنه كان لديَّ نصير "

أحببتُ الخصي الأرمني يوثيريوس بقدر ما كرهتُ نيكوكلس. كان يوثيريوس يعلِّمني مراسِم البلاط ثلاث مرات في الأسبوع. كان رجلاً وقوراً يتَّصِفُ بجلالٍ فطري لم يبدُ عليه أو على صوته أنه خصي. كانت لحيته طبيعية، وصوته منخفضاً. وقد تمَّ خِصاؤه في سن العشرين، لذا فقد عرفَ معنى الرجولة. وقد حكى لي ذات يوم بتفصيل مروِّع كيف أنه كاد أن يموت أثناء إجراء العملية، " من كثرة ما فقدتُ من دماء، لأنه كلما كان المرءُ كبيراً في السن، ازدادَ خطر العملية. لكني كنتُ سعيداً. كنتُ أحبُ الحياة. ويجب قول شيء لصالح عدم تضييع الوقت في السعي وراء المتعة الجنسية ". ولكن على الرغم من أنَّ هذا كان ينطبق على يوثيريوس، إلا أنه لا ينطبق على الخصيان كلهم، خاصة أولئك الموجودين في القصر. وعلى الرغم مما يتصفون به من عجز، إلا أنَّ الخصيان قادرون على ممارسة النشاط الجنسي، كما شهدتُ ذات يوم، من خلال مشهد سأصفه في الموقع المناسب.

حين أخبرتُ يوثيريوس أني أرغب في الذهاب إلى نيكوميديا، وافقَ على أنْ ينقُل المفاوضات المعقَّدة إلى مكتب الحاجب. وكانت الرسائل تتنقَّل يومياً بين مكان إقامتي والقصر. كان يوثيريوس غالباً ما يمرُ بحالة كتابة عَبَثيّة، فأولاً، رسالة طلبي، ومن ثم رسالة رفض يوسيبيوس الدقيقة السبك. كان يوثيريوس، مع مرور الشهور ببطء، يردِّد بضجر، " إنه تدريبٌ مفيد لي ".

بُعيدَ رأس سنة ٣٤٩ وافقَ يوسيبيوس على تركي أذهب إلى نيكوميديا شريطةَ أن ألاّ أحضر محاضرات ليبانيوس. وكما قال نيكوكلس، " كما أننا نحمي أولادنا ممَّن يُصابُ بالحمّى، كذلك يجب أن نحميهم من الأفكار الخطيرة، ومن الخُطب السقيمة. ولما

كان ليبانيوس صاحب أسلوب فإنّ لديه ميلاً إلى التكلُّف ستجده مملاً جداً. وبوصفه فيلسوفاً، فإنه مستسلمٌ بشكل خطير للماضي ". ولكي يتأكّدُ من أني لن أخدعه، فإنه أمرَ إسيبوليوس بمرافقتي إلى نيكوميديا.

وصلتُ وإسيبوليوس إلى نيكوميديا في شهر شباط من عام ٣٤٩ . وقد أمضيتُ وقتاً ممتعاً في ذلك الشتاء. فقد حضرتُ المحاضرات، واستمعتُ إلى مجادلات السوفسطائيين الحاذقة، وقابلتُ طلاباً في مثل سني. ولم يكن ذلك دائماً أمراً سهلاً، ذلك أنَّهم كانوا يخافونني، ولم أعرفُ كيفَ أتعاملُ معهم.

كان ليبانيوس مثار كثير من الأحاديث في المدينة. لكني لم أقابله إلاّ مرةً واحدة. كان مُحاطاً بطلاب في إحدى الأروقة المُعمَّدة بالقُربِ من قاعة تروجان للألعاب الرياضية. كان رجلاً غامقَ البشرة، ووسيماً. وأشارَ إسيبوليوس إليه، وقال بتجهُّم، "مَنْ غيره يُقلّدُ سقراط في كل شيء ما عدا الحِكمة؟ "

" أهو بهذا السوء؟ "

" إنه مُثيرٌ للمشاكل. والأسوأ من هذا، أنه خطيبٌ رديء. ولم يتعلّم كيف يتكلّم بأدب. إنه مجرد ثرثار "

" لكنْ كتاباته ممتازة "

" وما أدراكَ أنت؟ "، ورماني إسيبوليوس بنظرةٍ حادّة.

" أنا... من أشخاصٍ آخرين هنا. إنهم يتحدثون عنه ". وحتى يومنا هذا لا يعرفُ إسيبوليوس أني كنتُ أدفعُ نقوداً لِمَن يُدوِّنَ لي محاضرات ليبانيوس. وعلى الرغم من أنَّ ليبانيوس تلقّى إنذاراً بعدم الاقتراب مني، إلا أنه كان يُرسِلُ إليّ سراً نُسخاً من محاضراته، كنتُ أدفع له مقابلها مبالغَ سخيّة.

قال إسيبوليوس " إنَّ كل ما يفعله هو الإفساد. وهو ليس فقط مثالاً سيئاً للأسلوب، بل ويحتقر ديننا. إنه عاقّ "

* * *

بريسكوس : هذا الكلام جديرٌ بأنْ يصدر عن إسيبوليوس، أليس كذلك؟ وطبعاً حين أصبحَ جوليان إمبراطوراً، اعتنقَ إسيبوليوس الهلّينية. ثم حين أصبح فالانتنيان وفالنس إمبراطورَين مُساعدَين، ارتمى إسيبوليوس أمامَ كنيسة الأناجيل المقدَّسة، وهو

يبكي. " طأني! أنا كالملح الذي فقدَ نكهته! ". لطالما تساءلتُ إنْ كان أحدٌ قد وطِئَهُ فعلاً. أتمنى ذلك. لقد بدَّلَ ديانته خمسَ مرات في غضون ثلاثين عاماً وماتَ في سنٍ متقدِّمة جداً، وهو يحظى بتشريف الجميع. إنْ كانت مسيرة حياته تتَّصِفُ بأي سلوكٍ أخلاقي، فأنا لا أعرفه "

لكني أتذكَّرُ تلك القصة التي دارت حولك وحول ابنة السيناتور. أهي صحيحة؟ لطالما شككتُ في أنكَ زير نساء، في عهد الشباب، طبعاً.

ليبانيوس : كلا، لن أمنح بريسكوس متعة الحصول على جواب، وسوف أكتمُ مصادر جوليان حول تلك الفضيحة. لن يخدمَ أيَّ هدفٍ إحياء الماضي بتلك الطريقة العقيمة. لطالما عرفتُ أنَّ هناك قصةً ما تدورُ عني حول هذه النقطة، ولكن هذه أول مرة أواجَه بها بكل ما تتَّصفُ به من خبث. إنَّ السوفسطائيين لن يتوانوا أبداً عن تمزيق سمعتي. لم تكن هناك أي " ابنة سيناتور "، على الأقلّ ليس كما تمَّ وصفها. إنَّ الأمر كله سخيف. فأولاً، إنْ كان الإمبراطور قد طردَه بتلك التُهمة، فلم صدرَ أمرٌ من البلاط إليّ بالعودة إلى القسطنطينية في عام ٣٥٣؟ وهذا ما فعلته، وبقيتُ هناك سنوات عديدة قبل أنْ أعودَ إلى منزلي في إنطاكية.

إنَّ ما أثار غضبي أكثر بكثير هو إشارة إسيبوليوس إلى " ظُرفي ". ما أسوأ أن يصدر هذا عنه! لطالما كنت أميل إلى الأسلوب المتجهِّم - البعض يقول إنه شديد التجهُّم - فقط أحياناً يُخفِّفُ بالفكاهة. أيضاً، إذا كنتُ حقاً صاحبَ أسلوبٍ ضعيفٍ كما ألمحَ، فلماذا أنا أكثر مَنْ يتمُ تقليدهم من بين الكُتّاب الأحياء؟ حتى في تلك الأيام، كان أميرٌ يدفعُ نقوداً ليحصل على نسخٍ من محاضراتي! بالمناسبة، يقولُ جوليان إنه دفعَ لي نقوداً مقابلَ المحاضرات. وهذا غير صحيح. لقد دفعَ جوليان لأحد طلابي كانت لديه مجموعة كاملة من الملاحظات. وكلَّفَ أيضاً كاتب اختزال ليدوِّن حديثي. أنا شخصياً لم أتلقَّ قرشاً واحداً منه. كم تصبح الحقيقة معقَّدة.

جوليان أوغسطس.

حين أستعيد الذكريات، يبدو لي أني اتبعتُ خطاً مباشراً يتَّجه إلى مصيري. لقد انتقلتُ من شخص إلى شخص وكأنَّ كلاً منهم قد تمَّ انتقاؤه عن عمد ليتلقَّى تعليمه

مني. ولكن في ذلك الوقت لم أكن أتمتَّع إلاّ بإحساسٍ ممتع بالحرية، لا أكثر. ومع ذلك، كان مُخطَّط حياتي يتَّخذ شكله، وكل رجل حكيم قابلته شكَّلَ حَلَقَة أخرى في تلك السلسلة التي تؤدي نحو الكشف المُطلَق الذي وَصَفَه أفلوطين بصورة جميلة بأنه "طيرانُ الوحيد إلى الوحيد "

في نيكوميديا صغتُ حَلَقَة جديدة هامة. ونيكوميديا، كأي مدينة تحتوي جامعة، فيها حمّام يجتمع فيه الطلاب. وحمّام الطَلَبَة هذا هو في المعتاد الأرخص في المدينة، ولكن ليس دائماً، ذلك أنَّ للطلاب أذواقاً مختلفة وحين يقرّرون فجأةً أنَّ الحانة أو الحمّام أو الممرّ المُقنطَر كذا وكذا هو المكان الوحيد الذي يريدون أن يجتمعوا فيه، فإنهم لا يفكرون أبداً في التكاليف أو وسائل الراحة.

اشتقتُ إلى أنْ أذهب وحدي إلى الحمّامات وأختلط مع الطلاب الذين في مثل سني، لكنَّ إسيبوليوس كان دائماً يرافقني. كان يقول، كلما ولجنا الحمامات، " إنها أوامر الحاجب "، يتبعنا حارسان وكأنه يُحتمَل أن نكون لصّين في السوق العامة. حتى ونحن في غرفة الاستحمام الحارّة، كنت أتمدَّد على جنبي بالقرب من الحارسين المتعرّقَين بينما إسيبوليوس يحومُ في المكان ليتأكَّد من أنَّ لا أحد يقترب مني دون أخذ الإذن منه أولاً. ونتيجة لذلك، ينتاب الخوفُ الطلابَ الذين أرغب في مقابلتهم ويبتعدون.

ولكن في صباح ذات يوم أفاقَ إسيبوليوس وهو مُصاب بالحمّى. قال وأسنانه تصطك، " يجب أنْ ألزم سريري، وأتحمّل ألم مصاحبة الخادمة ". فعبَّرتُ له عن مدى أسفي، ثم غادرتُ إلى الحمّامات، وأنا أطفرُ من السعادة. ووعدني الحارسان بأنهما، حالما أصبح داخل الحمّام فلن يقتربا مني. لقد أدركا كم كنتُ أريد أنْ أكون مجهولَ الهوية، وفي تلك الأيام كان هذا ممكناً، لأني لم أكنْ معروفاً كثيراً في نيكوميديا. وأنا لم أصل أبداً إلى عمق الساحة العامة في البلدة، وحين كنتُ أحضر المحاضرات كنتُ دائماً آخر الداخلين وأجلس في المقعد الأخير.

كان الطلاب يذهبون إلى الحمّامات في الصباح، حين يكونُ رسمُ الدخول هو الأرخص. وقُبيلَ حلول الظهر أقفُ في الطابور وأتبع العامة إلى غرفة تغيير الملابس وهناك أخلع ملابسي في الطَرَف المقابل لمكان الحارسَين، اللذَين يتظاهران بأنهما جنديان في إجازة. وحسب عِلمي، لم يتعرَّف أحد عليّ.

بما أنَّ الجو في ذلك اليوم كان دافئاً، فقد خرجتُ إلى قاعة الألعاب الرياضية : هنا يقوم ذوو الميل الرياضي بممارسة التمارين والألعاب. انتقلتُ إلى المجموعة التي تبدو عليها الحيوية، متجنباً مجموعة العجائز الذين لابد أن يتواجدوا يتسكعون ويراقبون، وجلستُ على مقعدٍ تحت أشعة الشمس. حين جلست إلى جوارهم لاحظوا وجودي.

" وأخذتَ النقود ؟ "

" أخذتُها. كلنا أخذنا. وكنا نحو مئة "

" وماذا حدث بعد ذلك؟ "

" لم نحضر محاضراته أبداً "

" ألم يغضب؟ "

" طبعاً "

" ولكن لمْ يغضب بقدر ما غضب حين... "

"... حين عدنا جميعاً إلى ليبانيوس! "

ضحكوا على ما كان يُعتَبَر في تلك الأيام قصة شهيرة. وبعد مرور نحو عام على وصول ليبانيوس إلى نيكوميديا، أصبح بسهولة المعلّم الأوسع شهرة في المدينة. وهذا طبعاً أثارَ غضب منافسيه من السوفسطائيين، الذين حاولَ واحدٌ منهم أن يرشو بالمال طلاب ليبانيوس كي يتخلّوا عن معلمهم. فأخذ الطلاب المال واستمروا في حضور محاضرات ليبانيوس. ظلّت تلك نكتة جيدة، إلى أنْ اتَّصلَ السوفسطائي الحانق بأصدقاء له في البلاط فقاموا بالقبض على ليبانيوس بتهمة غريبة. ولكن، لحسن الحظ، سرعان ما تمَّ الإفراج عنه.

ليبانيوس : كانت تلك هي بداية اهتمامي بالإصلاح الجزائي. وعلى امتداد السنين كتبتُ كثيراً حول الموضوع، وهناك دليلٌ على أني قد بدأتُ أستنهض ضمير الشرق. على الأقلّ أصبح حُكّامنا يعون الآن الأوضاع الهمجيّة التي يعاني السجناء منها. إنني لم أدرك مدى سوء نظام السجون عندنا إلى أنْ سُجنتُ أنا نفسي. لكنَّ إجراء الإصلاحات ليس أمراً سهلاً. وعلى الرغم من أنَّ الدلائل كلها تشير إلى العكس، فلا أعتقد أنَّ البشر قُساة بالفطرة، لكنهم يخافون التغيير بكل صوره. والآن ها أنا أنحرف عن الموضوع الأساسي.

أهو التقدُّم في السن؟ بالأمس فقط كان لي حديثٌ غريب حول ذلك الموضوع مع صديقٍ قديم وزميل. سألته لماذا في هذه الأيام، عندما أخاطبُ جمعاً من الناس في إنطاكية، يلجأ أفرادٌ من مجلس الشيوخ إلى السعال وإلى تبادُل الأحاديث فيما بينهم. إنني أدركُ أني لستُ خطيباً مفوَّهاً، ولكنْ ما أقوله والطريقة التي أقوله بها - وأنا لا أقصد أنْ أكونَ مُدَّعياً - يُثيرُ بوضوح اهتمامَ العالم. أنا أشهر كاتب باللغة اليونانية على قيد الحياة. قسطور[٢٩]. أنا المتحدِّث الرسمي بلسان مدينتي. "فلماذا يمتنع الناس عن الإصغاء حين أبدأ بالكلام؟ ولماذا، بعد أن تنتهي الجلسة وأحاول أن أتحدث إلى عددٍ من شيوخ المجلس، والموظفين الرسميين في الرواق المقنطر، ينهضون ليغادروا وأنا ما أزال أتكلَّم، قائلين إنَّ لديهم مواعيد يجب المحافظة عليها، وإنْ يكن من الجليّ أنَّ ذلك غير صحيح؟ "

" لأنكَ، يا صديقي الحميم، أصبحتَ - وتذكَّر أنكَ طلبتَ مني أنْ أقول الحق ولا شيء غير الحق - مملاً "

ذُهلت. طبعاً الأستاذ المحترف يميلُ إلى إلقاء المحاضرات أكثر من فتح الأحاديث، ولكن هذه عادةٌ يقعُ فيها مُعظم الرجال المعروفين. " ولكن مع ذلك، كان ينبغي أنْ أفهم أنَّ ما كنتُ أقوله ينطوي على قدرٍ من الأهمية... "

" هو كذلك. دائماً كان كذلك "

"... بالإضافة إلى طريقة قوله، التي قد تكون مُغرقة في الوضوح "

" أنت تُغالي في الجدّية "

" لا أحد يُغالي في الجدّية حول أمرٍ هامّ "

" من الواضح أن الإنطاكيين لهم رأيٌ آخر "

افترقنا. ويجب أنْ أعترف بأني بقيتُ أفكِّرُ طوال اليوم فيما يمكن أنْ يكون زملائي قد قالوه. هل تقدَّمتُ في السن إلى هذا الحد؟ هل فقدتُ قُدرتي على التوضيح والإقناع؟ هل أنا مُغرِق في الجدّية؟ هل وقعتُ فجأةً في غوايةِ كتابةِ ما يشبه الاعتذار لنفسي، لكي أشرح جاذبيتي غير اللائقة. يجب أن أفعلَ شيئاً... لكنَّ تدوين تلك الملاحظات المغرقة في الشخصيّة على خلفيّة مذكّرات جوليان ليس هو الجواب الصحيح!

جوليان أوغسطس.

بينما كنتُ جالساً على مقعدٍ في الشمس، أرتعُ في الدفء وأستمتعُ بكوني مجهولَ الهوية، اقتربَ مني رجل داكن البشرة. ألقى عليَّ نظرة مُدقِّقة، ثم قال، "ماسيلوم؟ "

للوهلة الأولى انزعجتُ لأنه تعرَّفَ عليّ. ولكن حين أدركتُ أنَّ ذلك الشاب كان الطبيب أوريباسيوس فرحتُ لأنه كلَّمني. وفي الحال انخرطنا في الحديث وكأننا نعرفُ بعضنا طوال حياتنا. استحممنا معاً. وفي غرفة الاستحمام الحارة الدائرية، بينما كنا نتبادل إزالة الزيت واحدنا عن الآخر، أخبرني أوريباسيوس أنه قد تركَ البلاط.

" ألكي تستقلّ بممارسة مهنتك؟ "

" كلا. بسبب مشاكل عائلية. لقد توفي والدي. والآن عليَّ أنْ أعودَ إلى وطني برغامون[30] لكي أنشئ عزبة "

" كيف تعرَّفتَ عليَّ؟ لم تَرَني منذ سنتين "

" أنا دائماً أتذكَّرُ الوجوه، خاصةً وجوهَ الأمراء "

أشرتُ إليه كي يُخفِضَ من صوته. فقبالتنا مباشرةً كان يجلسُ طالبان يحاولان أن يسترقا السمع إلى محادثتنا.

همسَ أوريباسيوس " ثم إنَّ لحيتك الفظيعة هذه تشي بكَ "

قلتُ، وأنا أشدُّها بحزن، " إنها لم تنمُ بشكلٍ كامل بعد "

" وكل شخص في نيكوميديا يعلمُ أنَّ جوليان الأنبل يحاولُ أن يُنمّي لحيةَ فيلسوف "

" حسن، في مثل سني يكون هناك دائماً أمل "

بعد أن غطسنا مرةً في البركة الباردة، انتقلنا إلى القاعة الفاترة، حيث كان يجتمع بضع مئات من الطلاب، يتحدثون بأصواتٍ عالية، ويغنّون، وأحياناً يمارسون المصارعة، مما كان يُسبب غضب خدّام الحمّام، الذين كانوا عندئذٍ يتحركّون بسرعة بينهم، ويضربون الرؤوس بمفاتيح معدنية.

على الفور أقنعني أوريباسيوس بالذهاب معه إلى برغامون لأستقرَّ فيها . " لديَّ منزلٌ كبير ولا أحدَ يشغله. يمكنكَ أيضاً أنْ تُقابلَ أديسيوس[31]... "

كنتُ ككل الناس مُعجَباً بأديسيوس. كان الفيلسوف الأشهر في برغامون، ومُعلِّم ماكسيموس وبريسكوس وصديقاً للمرحوم إمبليخوس.

" سوف تحب برغامون. حيث آلافٌ من السوفسطائيين يتجادلون طوال النهار. بل إنَّ لدينا امرأةً سوفسطائيّة "

" امرأة؟ "

" في الواقع، لعلّها امرأة. ثمة شائعة تقول إنها ربما كانت إلهة. يجب أن تسألها، بما أنها هي التي أطلقتْ الإشاعة. على أي حال، إنها تلقي محاضرات في الفلسفة، وتمارس السحر، وتتكهن بالمستقبل. سوف تُعجَب بها "

" ولكنكَ لستَ مُعجَباً بها؟ "

" أما أنت فستحبها "

في تلك اللحظة انضمَّ إلينا شابّان من الغرفة الحارة. أحدهما طويل القامة ومتين البنية؛ وسلوكه جادّ. والآخر قصير القامة ونحيل ويرسم ابتسامة مشدودة وله عينان سوداوان سريعتا الحركة. لدى اقترابهما غاصَ قلبي بين أضلعي. لقد تعرَّفا عليّ. قدَّمَ القصير نفسه، " غريغوري الناظيانزوسي، أيها الأنبل جوليان. وهذا باسيل. كلانا من كابادوسيا. لقد شاهدناك يومَ قدِمَ المقدَّس أوغسطس إلى ماسيلوم. كنا نقف بين الحشود "

" أأنتما تدرسان هنا؟ "

" كلا. إننا في طريقنا إلى القسطنطينية، لكي ندرس على يدَيّ نيكوكلس. لكنَّ باسيل أراد أنْ نتوقَّف هنا لكي نحضر محاضرات العاقّ ليبانيوس "

احتجَّ باسيل باعتدال. " ليبانيوس ليس مسيحياً، لكنه أفضل معلّم للخطابة في نيكوميديا "

قال غريغوري " إنَّ باسيل ليس مثلنا، أيها الأنبل جوليان؛ إنه يُغالي في التسامُح "

وجدتني أميل إلى باسيل وأكره غريغوري. أعتقد أنه بسبب ذاك الضمير الوقح "نحن" كان غريغوري دائماً يحملُ في داخله كثيراً من صِفات رجل البلاط. ولكنني مع ذلك توصلتُ إلى الإعجاب به، واليوم نحن الثلاثة أصبحنا أصدقاء، على الرغم من

الاختلافات في الدين. كانوا يشكلون صُحبةً ممتعة، ولا زلتُ أذكر المتعة يوم تقابلنا حين كنتُ طالباً بين الطلاب لا يرافقني وصيّ لكي يقيم معي حديثاً. وعندما حان أخيراً وقت مغادرة الحمّامات، وعدتُ أوريباسيوس بأنْ أعمل بطريقةٍ أو بأخرى على الانضمام إليه في برغامون. في تلك الأثناء وافقَ غريغوري وباسيل على تناول طعام العشاء معي. كانا من النوع الذي يُحبّذه إسيبوليوس : جليليين مخلصَين لا اهتمام لديهما بالسياسة. لكني عرفتُ غريزياً أنَّ أوريباسيوس سوف يُحذِّر إسيبوليوس. لقد كان أوريباسيوس ملتحقاً بالبلاط وينخرطُ بين عليّة القوم. وكان أيضاً ثرياً وذا خبرة بالحياة ويُعتَبَر بالضبط النوع الذي ينبغي على الأمير المعزول ألاّ يتّخذه صديقاً. وقرَّرتُ أنْ أجعل أوريباسيوس سرّي الخاص في الوقت الحالي. وقد أتّضحَ أنَّ هذا التصرف كان حكيماً.

في شهر كانون ثاني من عام ٣٥٠، سُمِحَ لي ولإسيبوليوس بالانتقال إلى برغامون. وقمنا برحلة الثلاثمائة ميل وسط جوٍ قارص البرودة. وأثناء خوضنا في سديم البخار المنبعث باستمرار من أنفاسنا، أذكرُ أني قلتُ في نفسي، لابد أنَّ هذا يشبه شن حملة في ألمانيا أو سارماتيا[٣٢] : منطقة ريفية جرداء، وطرق جليدية، وسماء سوداء في منتصف الظهيرة، والجنود من خلفي، يقرقعون بأسلحتهم وسط السكون. وحلمتُ وأنا في النهار بالحياة العسكرية، وهذا أمر غريب، ذلك أني في تلك الأيام نادراً ما كنتُ أفكِّرُ في أي شيء خِلاف الفلسفة والدين. ورأيتُ أني ولِدتُ جندياً وفقط " جُعِلتُ " فيلسوفاً.

في برغامون، أصرَّ إسيبوليوس على أنْ نمكث في قصر ملوك اليونان، الذي فُتِحَتْ أبوابه لأجلي. ولكن حين ألمحَ حاكم المدينة (الذي تكرَّمَ وقابلنا عند البوابة) إلى أنَّه سيتوجَّبُ عليّ أنْ أدفعَ نقوداً لإجراء الصيانة للقصر، وافقَ إسيبوليوس على أنَّه من الأفضل لنا أنْ ننزل ضيوفاً على أوريباسيوس، الذي كان أيضاً قد لاقانا عند البوابة، وتظاهرَ بأنه لا يعرفني لكنّه أبدى رغبته في معرفتي، كأي رجل تآلفَ مع سلوك البلاط، يستضيف ابن عم الإمبراطور. وفي تلك الأيام كان أوريباسيوس أفحش ثراءً مني وكثيراً ما كان يُقرضني المال حين أحتاج إليه. كنا كأخوين.

أبدى أوريباسيوس سعادته بالتجوال معي في مدينته. كان على عِلمٍ باهتمامي

بالمعابد (على الرغم من أني لم أكن قد أصبحتُ هيلّينياً عن وعي)، وأمضينا عدّة أيام نجوس في المعابد المهجورة والأكروبوليس وعبر نهر سيلينوس، الذي يقسم المدينة نصفَين. حتى حينئذٍ، صُدِمتُ من الحزن الذي سادَ ما كانَ سابقاً أبنيةً مقدّسةً وأضحتْ الآن خاويةً إلا من العناكبِ والعقارب. وحده معبد أسكليبيوس[٣٣] كان قائماً، وذلك أنَّ الأسكليبيون هو مركز الحياة العقلية للمدينة. إنه منطقة كبيرة مُحَاصَرة تضم مسرحاً، ومكتبة، وصالة رياضية، وأروقة مُعمَّدة، وحدائق، وطبعاً معبداً دائرياً للإله نفسه. ويعود تاريخ إنشاء الأبنية إلى قرنين مَضَيا، حين كانتْ هندسة البناء في أوج ازدهارها.

إنَّ الأفنية المختلفة تمتلئ بالطلاب في كل ساعة من ساعات النهار. والمعلّمون يجلسون داخل الأروقة المُعمَّدة ويتبادلون أطرافَ الحديث. وكل معلّم له مريدوه الخاصون به. ولسوء الحظ حين وصلنا إلى الرواق المُعمَّد الذي يجلس فيه أديسيوس عادةً، قيلَ لنا إنه ما يزالُ مريضاً.

قال شابٌ ساحر الجمال، يرتدي زي كلبيّ[٣٤] مستجدّ، " على أي حال، لقد تجاوز سبعين من العمر. لماذا لا تذهبان لحضور محاضرات بروسياس؟ إنه التالي. وواضح أنه من الدرجة الممتازة. سأقودكما إليه ". أوريباسيوس خلّصنا بحزم من قبضة الشاب. فأخلى المُعجَب ببروسياس سبيلنا، وهو يكيل اللعنات بسخاء. وانطلقنا عائدَين إلى الساحة العامة.

" هكذا يعيشُ كثيرٌ من الطلاب في برغامون. فمقابل كل تلميذ جديد يجلبونه إلى معلّمهم يتقاضون مبلغاً كبيراً من المال ". أشارَ أوريباسيوس إلى منزل صغير يقع خلف شارع ضيق، خلف المسرح القديم مباشرة، " أديسيوس يقطن هنا "

أرسلتُ أحد حرّاسي ليسأل إذا كان الفيلسوف مستعداً لاستقبالي. وبعد طول انتظار، تقدَّمتْ من الباب امرأةٌ بدينةٌ لها لحية شائبة رقيقة وشارب شائك، وقالت بنبرة حازمة " لا يستطيع أن يقابل أحداً "

" ولكن متى سيستطيع؟ "

قالت " ربما لن يستطيع أبداً "، وأغلقتْ الباب.

ضحكَ أوريباسيوس. " إنها زوجته. ومظهرها ليس لطيفاً كما هي فعلاً "

" ولكن يجب أنْ أقابله "

" سوف نرتِّبُ الأمرَ بطريقةٍ ما. على أي حال، في هذه الليلة أعِدُّ لكَ شيئاً خاصاً "

ذلك الشيء الخاص كان المرأة الفيلسوفة، سوسيباترا. في ذلك الوقت كانت في أربعينات عمرها وبدت أصغر من سنها بكثير. كانت ممشوقة القامة لكنَّها تميل إلى الضخامة، ووجهها كان لا يزال يحتفظ بنضارته ووسامته.

حينَ وصلنا إلى منزلها، اتَّجهَتْ سوسيباترا مباشرة إليّ، عارفةً بالضبط مَنْ أكون دون أنْ يخبرها أحد. " أيها الأنبل جوليان، أهلاً بكَ في بيتنا. وأنت أيضاً، يا إسيبوليوس. والدك أوريباسيوس يرسل إليك تحياته "

بدا الرعب على أوريباسيوس، كما هو جدير به : لقد توفيَ والده قبلَ ثلاثة أشهر. لكنَّ سوسيباترا كانت جادّة. " لقد تحدَّثتُ إليه الآن. إنه بأحسن حال. إنه يقفُ في القوس الثالث من هليوس[٣٥]، في زاوية مائة وثمانين درجة بالنسبة إلى الضوء. إنه ينصحكَ ببيع مزرعة غالاتيا. ليس تلك ذات بستان شجر الأرز. الأخرى. ذات المنزل الحجري. ادخل، أيّها الأمير الأنبل. أنتَ ترغب في مقابلة أديسيوس اليوم لكنَّ زوجته صدَّتكَ. ومع ذلك، صديقي القديم سوفَ يقابلكَ حتماً في غضون بضعة أيام. إنه مريض في الوقت الحاضر لكنّه سيبرأ. بقيَ له من الحياة أربع سنوات أخرى. إنه رجل صالح، ورِع "

غمرني تأثيرها، وهي تقودني بحزم من يدي إلى غرفة الطعام ذات الجدران المزينة بصور طقوس ديميتر[٣٦]. كانت هناك أرائك من أجلنا وكرسي من أجلها. وساعدَنا الخدمُ في خلعِ أحذيتنا وفي غسلِ أقدامنا. ثم جلسنا حول الطاولة. وكانت سوسيباترا، طوال الوقت، تتحدث بصوت غنائيّ تأثَّرَ به حتى إسيبوليوس، الذي لم يكن يحبِّذ لقاءها.

" هل تعرفان القصة الجميلة التي تتحدث عن أديسيوس ووالده؟ كلا؟ إنها متميِّزة جداً. فقد أراد الوالد من ابنه أنْ ينضمَّ إليه في ممارسة مهنة العائلة. لكنه أولاً أرسله إلى المدرسة في أثينا. ولدى عودته من المدرسة أخبر أديسيوس والده أنه بات من المستحيل أنْ يمارس تلك المهنة، وأنه يفضِّلُ أنْ يصبحَ فيلسوفاً. وفي ثورة من الغضب طردَ الوالدُ ولده من المنزل، وهو يصرخ " والآن أرني بماذا أفادتكَ الفلسفة؟ ". فأجابه أديسيوس " لقد علَّمَتني أنْ أجُلَّ والدي، حتى وإنْ طردني من المنزل ". ومنذ تلك اللحظة، أصبح أديسيوس ووالده صديقين "

تأثرنا جميعاً بتلك القصة. لقد كانت سوسيباترا بحق ينبوع الحِكمة، وكنا محظوظَين لأننا شربنا من أعماقها.

بريسكوس : هل سبق لك أنْ قابلتَ هذا الوحش؟ لقد قضيتُ معها ومع زوجها ذات مرة أسبوعاً كاملاً في برغامون. إنها لا تكفُّ عن الكلام أبداً. حتى أديسيوس، الذي كان مولعاً بها (أعتقد أنه ذات يوم كان عشيقها)، اعتقدَ أنها جاهلة، وإنْ لم يجهر بهذا قط. وهو، بالمناسبة، كان رجلاً رائعاً. فقبل أي شيء هو كان معلّمي وأنا، بعد ليبانيوس، لست أحكم رجال عصرنا.

ليبانيوس : أهذه سخرية؟

بريسكوس : ولكن مع أنَّ سوسيباترا لم تكن بالضبط فيلسوفة، إلا أنها كانت ساحرة مدهشة. حتى أنا كدتُ أؤمنُ بتعاويذها وتكهّناتها. وكان لديها حسٌ بالدراما وهو الأشد إثارة في شخصيتها. وقد بوغتَ جوليان تماماً بها، وأنا أحدِّدُ تاريخ بدء انجذابه القاتل لمثل هذا الشيء من حفل العشاء ذاك.

بالمناسبة، كان أحد الأصدقاء يُقيمُ علاقة جنسية مع سوسيباترا في وقتٍ ما، وبعد الانتهاء، أصرَّتْ على أنْ يحرق لها بخوراً وهي مستلقية بين تضاعيف الملاءات. "لأنني أفروديت، إلهة بين البشر". فأحرقَ البخور لكنه لم يعُد إلى مضاجعتها بعد ذلك.

ماكسيموس أيضاً كان يرى أنها مقدَّسة، أو على الأقلّ " تسكنها من وقتٍ إلى آخر روح أفروديت " مما يجعلها تبدو أشبه بالحانة. أنا دائماً أجدها مملّة. لكنها طالما كانت دقيقة في تكهّناتها. أهي تخمينات محظوظة؟ مَنْ يدري؟ إذا كان للآلهة وجود، وهو ما أشكُ فيه، ألنْ تكون مملّة مثلها مثل سوسيباترا؟

ليبانيوس : كعادته دائماً، بريسكوس يغالي. لكنني أوافقُه بشأن سوسيباترا. إنها فعلاً تُكثِرُ من الكلام. ولكن، مَنْ أنا حتى أنتقدها في حين أنَّ أقرب أصدقائي إليّ أخبرني للتو في وجهي أني أثيرُ ضجر إنطاكية كلها؟

جوليان أوغسطس.

بعد انتهاء وجبة العشاء، قدَّمَتْ سوسيباترا أولادها لنا. كانوا في مثل سني تقريباً. اثنان منهم نشأآ تنشئةً لكي يصبحا من المفكّرين، المملّين جداً. والثالث،

أناطوليوس، سمعتُ مؤخراً خبراً عنه. قبل سنوات بعيدة كانت له صلة بمعبد سيرابيس في الإسكندرية. وبعد أنْ دمَّرَ الأسقف جورج المعبد، استقرَّ أناطوليوس فوق أحد الأعمدة المكسورة وهو الآن يحدِّق باستمرار إلى الشمس. كم أحسُد نقاء مثل هذه الحياة. ولكن في تلك الليلة ونحن نتناول طعام العشاء، بدا ذلك الرجل الورِع شاباً عادياً جداً، يتلعثمُ قليلاً.

بعد انسحاب الأبناء، أرسلتْ سوسيباترا أحدهم لإحضارِ مرجلٍ وبخورٍ " والآن أنتَ تريد أن تعرف ماذا تنصحكَ الآلهة أنْ تفعَل. وكيف تتوجّه. ومع مَنْ تدرس ". ونفحَتني بابتسامةٍ مُبهِرة.

قلتُ دون تفكير " أريدُ أنْ أدرسَ هنا، معك "، لكنها هزّتْ رأسها نفياً، وشعرَ إسيبوليوس بالارتياح. أضافتْ برقّة، " أنا أعرفُ مستقبلي والأمير لا يشكِّلُ جزءاً منه. أتمنى لو كان الأمر غير ذلك "، وعلى الفور وقعتُ صريعَ حبّها، كما حدثَ لكثيرٍ من الطلاب من قبلي.

أشعلَتْ سوسيباترا البخور. أغمضتْ عينيها. وبدأتْ تتمتمُ همساً صلاة. أخذت تتوسل بصوتٍ منخفض للإلهة العظمى كي تتحدث إلينا. وملأ الدخانُ الغرفة. أضحتْ الأشياء كلها مبهمة وغير واضحة المعالم. وبدأ رأسي يؤلمني. وفجأةً قالت سوسيباترا بصوتٍ ليسَ صوتها، " جوليان! "

نظرتُ إلينا بإمعان. كانت عيناها نصف مغمضتين ولا يبدو منهما غير البياض : كانت نائمة أثناء تلبُّس الروح لها. " إننا نحبك أكثر من أي مخلوق حي آخر ". كان هذا أمراً محيِّراً. لابد أنَّ الـ " نحن " تعني الآلهة. ولكن لماذا تحبُ جليليّاً يشكُ في وجودها؟ وطبعاً كنت أيضاً قد بدأتُ أشكُ في قدسيّة الناصريّ، بحيث أني لم أكنْ هيلّينياً ولا جليلياً، لا مؤمناً ولا ملحداً . كنتُ مُعلّقاً بينهما، في انتظار ظهور إشارة. أيمكن أن يكون هذا هو تفسير الأمر؟

" سوفَ تُعيدُ بناء المعابد؛ وسوف تجعل دخانَ ألفَ أضحية ينبعثُ من ألف مذبح. سوفَ تكون خادمنا وسيصبح البشر كلهم خداماً لك، عربوناً لحبّنا "

أثارَ هذا توتر أعصاب إسيبوليوس، وغمغمَ " ينبغي ألاّ تصغي إلى هذا الكلام " تابع الصوتُ بصفاء " إنَّ الطريقَ محفوفٌ بالمخاطر. ولكننا سنحميك، كما فعلنا

منذ ساعة ولادتكَ. سوف تحظى بالمجد الأرضي. وعندما سيحينُ وقت الموت في فريجيا[٣٧] النائية، بسلاحٍ عدو، وسوف تموتُ ميتة بطل، دون ألم. ومن ثم ستنضمَ إلينا إلى الأبد، بالقربِ من الواحد الذي ينبثقُ النور كله منه، وإليه يعود النور كله. آه، جوليان، أيها العزيز... الشر! "، وإذا بالصوت يتبدَّلُ تبدُّلاً كاملاً. أصبحَ أجَشَّ. "أيها الفاسد والنجِس! سوف نُنزِلُ بكَ الهزيمة. واليأس. سيكون الموت الفريجي من نصيبك. أما الروح المعذَّبَة فستكون من نصيبنا. بعيداً عن النور! "

زعَقَتْ سوسيباترا، وهي تتلوّى في كرسيها؛ ويداها تقبضان بقوة على نحرها وكأنها تعمل على فكّ رباطٍ غير مرئي. كانت الكلمات تخرج من فمها غير مترابطة. كانت أرضَ قتالٍ بين أرواحٍ متقاتلة. ولكن أخيراً كانت الغَلَبة للخير، وهدأتْ.

قالت " إفسوس "، وقد عاد صوتها ناعماً ورقيقاً، " في إفسوس سوفَ تجدُ باباً يؤدي إلى النور. يا إسيبوليوس، حين كنتَ طفلاً خبَّأتَ ثلاث قطع في حديقة منزل عمك في سيرميوم. إحداها كانت تعود إلى عصر سبتيموس سيفيروس[٣٨]. وقد أخرجها بستانيٌ وأنفقها. وقطعة عصر سيفيروس تلك موجودة الآن في برغامون، في إحدى الحانات. يا أوريباسيوس، إنَّ والدك يصرّ على أنْ تبيع الملكية لكنه يأمل في ألاّ ترتكب الغلطة نفسها التي ارتكبتها في العام الفائت حين أجَّرتَ المرج السفليّ لجاركَ السوريّ، ورفضَ أنْ يدفع لك مالاً. جوليان، احذر من مصير غالوس! تذكّر... هيلاريوس! " وسكتتْ. وعادت إلى طبيعتها. قالتْ بصوتٍ مُتعَب " إنَّ رأسي يؤلمني "

صُدِمنا جميعاً. خاصةً أنا لأنها قالتْ حرفياً إنني سأصبحُ إمبراطوراً، وهذا خيانة، ذلك أنه لا أحد يستشير كاهنة حول الخلافة الإمبراطورية، أو حتى يفكّر سراً في مثل هذه المسائل. وسرى رعبٌ حقيقيٌ في أوصال إسيبوليوس.

لم تتذكّر سوسيباترا أي شيء مما قالته. أنصتتْ بعناية ونحن نحكي لها ما قالته الإلهة – والأخرى. احتارتْ. " واضحٌ أنَّ مستقبلاً عظيماً ينتظر جوليان الأنبل "

قال إسيبوليوس بعصبيّة " طبعاً، وبوصفي أميراً مخلصاً للعائلة الإمبراطورية... "

ضحكت سوسيباترا وقالت " طبعاً! يجب ألاّ نضيفَ أي شيء "، ثم قطَّبَت ما بين جبينها. " لا فكرة لديّ عمّا تكون الروح الشريرة. ولكن من الجليّ أنَّ الإلهة كانت سيبيل[٣٩]، وهي تريد منكَ أنْ تشرِّفها بما أنها أمّ كل شيء، وحاميتك "

قال أوريباسيوس بخبث " ويبدو أيضاً واضحاً أنَّ على جوليان أنْ يتفادى الذهاب إلى فيجيا "

لكنَّ سوسيباترا استقبلتْ هذه الملاحظة بجدّية. " نعم. سوف يتوفى جوليان في فيجيا، ممجَّداً "، ثم التفتتْ إليّ. " أنا لا أفهمُ الإشارة إلى أخيك. أتفهم أنت؟ "

أومأتُ إيجاباً، عاجزاً عن الكلام، ورأسي يدوِّم بأفكارٍ خطيرة.

" الباقي كان واضحاً جداً. سوف تعيد عبادة الآلهة الحقّ "

أخيراً وجدَ إسيبوليوس ما يقوله " يبدو الوقت متأخراً على تحقيق هذا. وحتى لو كان ممكناً، فإنَّ جوليان مسيحي. والعائلة الإمبراطورية مسيحية. وهذا يجعل من غير الممكن له أنْ يستعيد الأساليب القديمة "

" أحقاً لا تستطيع؟ " وثبَّتتني سوسيباترا بعينيها الكبيرتين السوداوين.

هززتُ رأسي تعبيراً عن عجزي. " لا أدري. إنني فقط أنتظر ظهور إشارة "

" لعلَّ هذا هو الإشارة. لقد تحدَّثَتْ سيبيل نفسها إليك "

قال إسيبوليوس " وشخصٌ آخر أيضاً تكلَّمَ "

قالتْ سوسيباترا " هناك دائماً الشخص الآخر. لكنَّ النور يُصعِّد الأشياءَ كلها. وكما كتبَ ماكروبيوس يقول. " إنَّ الشمس هي عقل الكون ". إنَّ العقلَ لا يغيب عن أي مكان، حتى عن أشد بؤر الجحيم ظُلمة "

فجأةً سألتُ " ماذا يوجد في إفسوس؟ "

رمتني سوسيباترا بنظرة طويلة. ثم قالت " ماكسيموس موجودٌ هناك. إنه في انتظارك. إنه ينتظركَ منذ يوم مولدك "

وثبَ إسيبوليوس لسماع هذا " أنا واثق تماماً أنْ لا شيء أحبَّ إلى نفس ماكسيموس من أن يكونَ معلِّم الأمير، ولكن، لسوء حظّه، لقد عيَّنني الحاجب الأكبر لأشرفَ على دراسات جوليان وأنا لستُ متحمِّساً لتورُّط تلميذي مع ساحر سيئ السمعة "

كان صوت سوسيباترا بارداً حين قالت "نحنُ نرى في ماكسيموس أكثر من مجرَّد ساحر سيئ السمعة" . صحيحٌ أنَّ في استطاعته أن يجعل الآلهة تظهر له، ولكن...

كنتُ مفتوناً. " يظهرون فعلاً؟ "

تمتمَ أوريباسيوس "إنهم ممثلون، من المسرح، يتدرَّبون بعناية، مع خِدع بالأضواء.."

ابتسمت سوسيباترا. " أوريباسيوس! هذا غير لائق منك! ماذا سيقول والدك إذا سمعك تقول هذا؟ "

" لا فكرةَ لديّ. أنتِ ترينه في هذه الأيام أكثر مني "

تجاهلَتْ سوسيباترا جملته الأخيرة. والتفتتْ نحوي. " إنَّ ماكسيموس ليس مشعوذاً. ولو أنه كان كذلك، لكشفتُ أمره منذ زمنٍ بعيد. وطبعاً الناس يستفسرون حول قدراته. ويجب أن يفعلوا. على الإنسان ألاّ يقبل أي شيء دون محاكمة. ومع ذلك فحين يتكلّم مع الآلهة... "

قال إسيبوليوس " هو يكلِّمها، فهل هي تردُّ عليه؟ هذا هو الأمر الأهم "

" إنها تفعل. كنتُ حاضرةً ذات مرة في إفسوس حين كانت مجموعة من الملحدين تستجوبه، كما تفعلُ أنت "

" إنَّ عدم الإيمان بماكسيموس لا يجعل المرء مُلحداً "، كان غضب إسيبوليوس يتفاقم.

تابعَت على أساس ما قال. " لقد طلبَ ماكسيموس منا أنْ نقابله في تلك الليلة في معبد هيكيت[40] . والمعبد الآن لم يُستَخدَم منذ سنين. إنه بناءٌ بسيط، يحتوي تمثالاً من البرونز للآلهة لا أكثر، لذا لم يكن أمام ماكسيموس إلاّ أنْ... يُعِدَّ معجزة"، ورمَتْ أوريباسيوس بنظرةٍ حادّة. " وحين وصلنا جميعاً، التفتَ ماكسيموس نحو التمثال وقال، " أيتها الآلهةُ العظيمة، أري هؤلاء المُلحدين إشارةً على قُدرتكِ ". وسادتْ برهة صمت. ثم إذا بالمشاعل البرونزية التي تحملها بيديها تشتعل باللهب. "

قال أوريباسيوس " إنه النفط "

قلت " يجب أن أذهب إلى إفسوس "

" ولكن هذا لم يكن كل شيء. لقد ابتسمَ التمثالُ لنا. ابتسمَ الوجه البرونزي. ثم ضحكتْ هيكيت. لم أسمع دهري مثل ذلك الصوت! بدا وكأنَّ السموات كلها تسخر منا، ونحن نفرُّ من ذلك المكان.

التفتتْ سوسيباترا إسيبوليوس. " في الواقع، لم يكن أمامه خَيَار. لقد بدأتْ حياته في إفسوس "

في اليوم التالي تلقَّيتُ رسالة تفيدُ بأنَّ أديسيوس يرغب في مقابلتي. وجدتُهُ مستلقياً على سرير ضيق، وزوجته ذات اللحية إلى جواره. كان أديسيوس رجلاً ضئيلَ الحجم كان ذات يوم بديناً، أما الآن، وبسبب المرض والتقدُّم في السن، أصبحَ جلده يتدلّى منه على هيئة تضاعيف. كان من الصعب تصديق أنَّ هذا العجوز الهشّ كان ذات يوم تلميذَ إيامبليخوس وكان في الواقع حاضراً في تلك المناسبة حين جعل إيامبليخوس اثنين من الشبان المقدَّسين يظهران من بركتين توأمين في الصخر في غادارا[41]. ولكن على الرغم من هشاشته، كان أديسيوس نشطاً ومحبوباً. " تقول لي سوسيباترا إنكَ موهوب في الفلسفة "

" إذا كان الولَع يمكن أنْ يُسمَّى موهبة "

" ولمَ لا ؟ الولَع هبةٌ من الآلهة. وتقولُ أيضاً إنكَ تُخطِّطُ للذهاب إلى إفسوس "

" فقط إذا تعذَّرَ عليّ أن أدرسَ معك "

تنهَّدَ " لقد فات الأوان على هذا. كما ترى، إنَّ صحتي رقيقة. وهي تقول إنه لم يتبقَّ لي من الحياة غير أربع سنوات. لكني أعتقد أني سأعيشُ طويلاً. على أي حال، سيعجبك ماكسيموس أكثر. لقد كان تلميذي، كما تعلم. وبعد بريسكوس في أثينا، يُعتَبَرُ هو أفضل تلاميذي. وطبعاً ماكسيموس يُفضِّل البرهان على الجدال، والألغاز على الكتُب. ولكن السُبُل المؤدية إلى الحقيقة عديدة. وقد فهمتُ مما قالته سوسيباترا أنه وُلِدَ ليكونَ مرشدكَ. إنه بكل وضوح القدر "

بريسكوس : لقد كانت بكل وضوح مكيدة. وكلّهم متورطون بها. وقد اعترفَ ماكسيموس بهذا بعد ذلك بسنين عديدة. " كنتُ أعلم طوال الوقت أني المعلِّم المناسب لجوليان. وطبعاً، لم أحلم قط بأنه سيصبحُ إمبراطوراً ". إنه لم يحلُم بذلك؛ بل رغبَ فيه. " رأيته ببساطة كروح لا يستطيع غيره أنْ يقود إلى الخلاص ". ثم دفعَ ماكسيموس سوسيباترا وأديسيوس للتوصية به عند جوليان، وقد فَعَلا. ما أروع الفريق الذي كانا يمثّلانه! وباستثناء أديسيوس، لم تكن المجموعة تضم أي فيلسوف.

مما فهمتُ فإنَّ جوليان في تلك الأيام كان شاباً ذكياً جداً بحيث كان يمكن أنْ "تأسره " الفلسفة الحقيقية. فقبل أي شيء كان يستمتع بالعلم، ويُجيد النقاش. ولو أنه كان مثقَّفاً لأصبحَ بورفيرياً[42] آخر أو، إذا أخذنا ظروف مولده السيئة الحظ في الحسبان،

ماركوساً أورليوساً[43] آخر. لكنَّ ماكسيموس وصل إليه أولاً واستغلَّ نقطة ضعفه الوحيدة : ذلك التوق إلى الغامض والمبهم وهو سِمة آسيوية في أساسها، وحتماً ليست إغريقية، على الرغم من أننا نحن اليونانيين نمرُ في حالة انحدار فكري ملحوظ. أتعلمْ أنه بفضل حضور العديد من الطلاب الأجانب إلى أثينا، لم يعد شعبنا يتكلّم الأتيكيّة[44] بل ما يشبه الأرغة[45]، الغامضة والقبيحة؟ ومع ذلك على الرغم من الروح البربرية التي تُخمِد ببطء " نور العالم " لا نزال نحنُ اليونانيين نفخَر بأنفسنا لأننا قادرون على رؤية الأشياء كما هي. أرنا حجراً فنرى حجراً، وليس الكون. لكنَّ جوليان المسكين، كالعديد من الآخرين في هذه الأيام، أرادَ أنْ يؤمن بأنَّ حياة الإنسان أهم بعمق مما هي فعلاً. كان مَرَضَه هو مرض عصرنا. إننا نريد لكثيرٍ ألاّ يخبو في النهاية بحيث أننا مستعدّون للوصول إلى آخر مدى في ممارسة حيل المشعوذ أحدنا على الآخر ببساطة لكي نجعل المعرفة المريرة، السرية، بأنَّ نهايتنا المحتومة لن تحلّ. لو أنَّ ماكسيموس لم يسرق جوليان منا، لاستولى عليه الأساقفة. أنا واثقٌ من هذا. لقد كان في قرارته مسيحياً متصوفاً ضلَّ طريقه.

ليبانيوس : مسيحيٌ متصوِّف! لو أنَّ لدى بريسكوس أيَّ حسٍ دينيّ لاختبر معرفة التوحُّد، التي ليست " مريرة " ولا " سرّية "، وتوصَّلَ إليها أفلوطين وبورفيري، جوليان وأنا، كلٌ على طريقته الخاصة. وبما أنَّ ذلك لم يحدث، لو أنه أُتيحَ له أنْ يطّلع على أسرار إليوسيس التي لا تبعد عن منزله في أثينا أكثر من أربعة عشر ميلاً، لفهِمَ ربما أنه بما أنَّ الروح موجودة، فإنَّ لا وجودها أمرٌ مستحيل.

لكني أتّفِقُ مع بريسكوس حول ماكسيموس. لقد وعيتُ في ذلك الوقت مؤامرة المشعوذين لأسر جوليان ، ولكن بما أنه كان مُحرَّماً عليَّ أنْ أتكلّمَ معه لم أتمكن من تحذيره. لكنهم لم يُسبّبوا لجوليان أي أذى خطير. أحياناً كان يُغالي في الإيمان بتفسيرات الكهنة والسحر، ولكن كان دائماً يتمتَّع بمنطقٍ صارم وقد تفوَّقَ في الجدال الفلسفي. إنه لم يكن قط مسيحياً متصوِّفاً. إلا أنه كان متصوفاً - وهو أمرٌ لم يفهمه بريسكوس قط.

جوليان أوغسطوس.

كان إسيبوليوس تواقاً إلى الذهاب إلى إفسوس، وقد دُهِشتُ لهذا؛ فقد اعتقدتُ

أنه يريدُ أنْ يُبعِدَني عن ماكسيموس. لكنه كان ليّن العريكة. " فقبل أي شيء، أنا معلّمكَ، بموافقة الإمبراطور. لا يمكنكَ عملياً أن تدرس مع ماكسيموس، أو مع أي شخصٍ آخر. هذا لا يعني أني أعترضُ على ذلك. أبداً. لقد سمعتُ أنَّ ماكسيموس شديد الإلهام، وإنْ كان رجعيّاً. ولكن لسنا بحاجة إلى القلق حول تأثُّركَ في هذا الوقت المتأخِّر. فقبل أي شيء، لقد تعلّمتَ اللاهوت المسيحي على أيدي أسقفَين عظيمَين، يوسيبيوس وجورج. أي أساسٍ أرسخَ من هذا يمكن لأي رجل أنْ يحصل عليه من هذا؟ فلنقُم بزيارة إفسوس مهما كلّفَ الأمر. أنتَ تستمتع بالحياة الفكرية. وأنا أيضاً سأفعل"

إنَّ ما توصَّلَ إسيبوليوس إلى الاستمتاع به كان لعب دور أرسطو أمام الإسكندر الغرّ. وأينما ذهبنا، كان الأكاديميون يُبدون فضولهم لمعرفتي. وهذا يعني انه كان عليهم أنْ يعرفوا إسيبوليوس. وعلى الفور عرضَ بكل دماثة أنْ " يتبادل " الطلاب معهم. وكلمة " يتبادل " كانت تعني أنهم سيُرسلون إليه في القسطنطينية طلاباً لن يتلقّوا مقابلهم أكثر من عطفٍ مُحتَمَل من الأمير. وخلال أسفارنا، جمع إسيبوليوس ثروته.

قابلنا عند بوابات إفسوس حاكم المدينة ورئيس مجلسها أثناء عاصفة ثلجية. وكان الجو كله يسوده التوتّر.

قال الحاكم " إنه لشرفٌ عظيم لمدينة إفسوس أنْ تستقبلَ جوليان الأنبل. إننا هنا في خدمتك، كما خدمنا غالوس الأنبل، الذي شرَّفنا بدوره بحضوره هنا ". عند ذِكرِ اسم غالوس، وكأنما تمَّ التدرُّب على ذلك، بدأ أعضاء المجلس يتمتمون " لطيف، وطيب، وحكيم، ونبيل "

" أينَ أخي؟ "

سادَ صمتٌ تام. نظرَ الحاكم بقلقٍ إلى أعضاء المجلس. فأخذوا يتبادلون النظرات. كان هناك الكثير من حركات إزالة الثلج الحيوية عن الملابس.

قال الحاكم، أخيراً، " أخوك موجود في البلاط. في ميلانو. لقد استدعاه الإمبراطور في الشهر الفائت. ولم نسمع عنه أي خبر بعد ذلك. ولا خبر. طبعاً، نتمنى أن يكونَ المانعُ خيراً "

" وما هو الخير؟ "

" أنْ يصبحَ قيصراً، طبعاً ". لم يكن ضرورياً السؤال عن الشر.

بعد انتهاء المراسم، قادونا إلى منزل الحاكم، حيث مقامي. فرِحَ إسيبوليوس كثيراً لفكرة أني سأصبحُ قريباً أخَ قيصرٍ غيرِ الشقيق. لكني شعرتُ بالخوف. وخوفي تحوَّلَ إلى رعب حين أخبرني أوريباسيوس في وقتٍ لاحقٍ من تلك الليلة أنَّ غالوس قد أُخِذَ من إفسوس مقبوضاً عليه.

"هل وُجِّهَتْ إليه أي تهمة؟ "

"إنها مشيئة الإمبراطور. لم تكن هناك أي تهمة. أغلب الناس يتوقعون أن يُعدَم"

" هل أعطى أي سبب؟ "

هزَّ أوريباسيوس كتفيه جهلاً. " إذا تمَّ إعدامه، سوف يُعطي الناس مئة سبب للبرهان على أنَّ الإمبراطور قام بالعمل الصحيح. وإذا جُعِلَ قيصراً، سيقولون إنهم كانوا يعلمون طوال الوقت أن تلك الحِكمة والولاء سوف يُكافَآن "

هزّ كتفيه " إذا مات غالوس... "

" لكنكَ لستَ سياسياً "

" إنني " سياسي " بالفطرة ولا حيلة لي في ذلك. أولاً غالوس، ثم أنا "

" أعتقد أنكَ الأشد أماناً، الأمير-العالِم "

" لا أحد آمِن ". شعرتُ ببردٍ أشد مما شعرتُ به في الليلة السابقة أو حتى الآن. لا أدري ماذا كنتُ سأفعل من دون أوريباسيوس. لقد كان أول صديقٍ لي. ولا يزال أفضل أصدقائي، وأشتاقُ إليه وأنا هنا في بلاد فارس. لطالما كان أوريباسيوس مفيداً لي بشكلٍ خاص في اكتشاف أشياء لا سبيل لي إلى معرفتها. إنَّ الناس لا يتحدثون بنزاهة مع الأمراء، أما أوريباسيوس فكان في استطاعته أن يجعل أي إنسان يخبره بأي شيء، وهي خدعة تعلّمها من ممارسة الطب. كان يوحي بالثقة.

بعد يوم من وصولنا إلى إفسوس، حصل أوريباسيوس على تقريرٍ كاملٍ عن حياة غالوس في المدينة. " إنه يُخيفُ. لكنه يُثيرُ الإعجاب "

" أبسبب جماله؟ " لم أستطع مقاومة قولي هذا. فقبل أي شيء، لقد أمضيتُ طفولتي وذلك المخلوق ذو الشعر الذهبي يخدعني دون أمل.

" إنه يتقاسم جماله من دون تحفُّظ مع زوجات أصحاب المناصب العُليا المحليين "

" هذا طبيعي "

" كان يُعتَقَد أنه ذكي "

" إنه داهية "

" واسع الإطّلاع سياسياً، وشديد الطموح... "

" ومع ذلك فهو غير محبوب ويبث الخوف في الناس. لماذا ؟ "

" وسريع الغضب، وعنيف أحياناً "

" نعم "، وتذكَّرتُ بستان شجر الأرز في ماسيلوم.

" الناس يخشونه، ولا يعلمون السبب "

" مسكينٌ غالوس ". كدتُ أعني ما قلت. " ماذا يقولون عني؟ "

" يتمنّون أن تحلق لحيتك "

" لقد بدأتُ مؤخراً أرى أنها تبدو أنيقة. أشبه بلحية هادريان[٤٦] "، وفركتُ اللحية التي أضحت الآن كاملة النمو بحب. اللون وحده لم يعجبني فيها : كان لونها أخفّ حتى من شعر رأسي، ذي اللون البني الفاتح. ولكي أجعل اللحية تبدو أحلك لوناً وأكثر لمعاناً، كنت أحياناً أفركها بالزيت. وفي هذه الأيام، مع زيادة الشيب في شعري، أصبحَ شعر لحيتي أحلك سواداً من ذي قبل بشكل غامض. إنني راضٍ تماماً عن شكلها. خِلاف الآخرين كلهم.

" وهم أيضاً يتساءلون عمّا تنوي عمله "

" ما أنوي عمله؟ أعتقد أنه شيء واضح كل الوضوح. أنا طالب علم "

" إننا من بعض جوانب شخصيتنا يونانيون ". رسمَ أوريباسيوس ابتسامةً عريضة، وبدا يونانياً إلى أقصى حد. " لا نعتقد أبداً أنَّ الأشياء هي كما تبدو "

قلتُ بحزن " حسن، إنني لا أنوي أنْ أدمِّرَ الدولة. إنَّ خطّتي الوحيدة هي أن أعمل على بقائي حياً "

كان إسيبوليوس مُعجباً بأوريباسيوس رُغماً عنه. " لأننا بحق نعصى أوامر الحاجب. لقد أصلحتَ أمور منزلك بقدرٍ ما ولم تلتمس عذراً للطبيب "

" لكنَّ أوريباسيوس طبيب غير عادي "

" هذا بديهي، فقد أعانني على التخلّص من الحمّى وطردَ خادمة الألم القاسية... "

" ويتميَّزُ أيضاً بأنه أفحشُ ثراءً مني. لقد ساعدنا في سداد ديوننا "

" هذا صحيح. وحقيقةٌ مُحزنة ". كان إسيبوليوس يكنُّ احتراماً صحيّاً للمال، ولهذا السبب كنتُ قادراً على الاحتفاظ بأوريباسيوس قريباً مني.

أمضينا بضعة أيام قبل أنْ أتمكّن من مقابلة ماكسيموس. كان معتزلاً، يتحدث مع الآلهة. لكننا كنا نتلقّى نشرات يومية من زوجته. وأخيراً، في اليوم الثامن، عند نحو الساعة الثانية، وصل عبدٌ ليقول إنَّ ماكسيموس يشرِّفه أن يستقبلني بعد ظهر ذلك اليوم. فألححتُ على إسيبوليوس كي يسمحَ لي بالقيام بالزيارة وحدي. وبعد كثيرٍ من الجِدال رضخَ، ولكن شريطةَ أنْ أدوِّنَ له لاحقاً سرداً كاملاً لكل ما قلته.

كان ماكسيموس يقطن في منزلٍ متواضع يقع على منحدرات جبل بيون، غيرَ بعيدٍ عن المسرح المنحوت على سفحه. تركني حرَاسي عند الباب. ثم قادني خادمٌ إلى الغرفة الداخلية حيث حيّتني امرأةٌ نحيلة، عصبيّة.

" أنا بلاسيديا، زوجة ماكسيموس "، وخلعَتْ عني ردائي الذي قبَّلَتْ حاشيته. "إننا غاية في الأسف لأنَّ زوجي لم يستطع أنْ يقابلك في وقتٍ مبكِّر، لكنه كان تحت الأرض، مع الإلهة سيبيل ". أومأتْ للخادم الذي ناولها مشعلاً مضاءً ناولتني إياه بدورها. " إنَّ زوجي ما يزال في الظلام، ويطلب منكَ أن تنضمَّ إليه هناك "

أخذتُ المشعل وتبعتُ بلاسيديا إلى غرفةٍ في المنزل، كان الجدار الرابع منها مغطّى بستارة كشفَتْ، حين أزاحتها، عن سفح جبل وفتحة في الصخر. " يجب أنْ تذهبَ إليه وحدك، أيها الأمير الأنبل "

ولجتُ الجبل. ورحت أتعثَّرُ على مدى ما بدا ساعات طوالاً (لكنها لم تكن حتماً أكثر من بضع دقائق)، متوجهاً نحو بريقٍ بعيد من النور يشكِّلُ نهاية الممر. وأخيراً وصلتُ إلى ما بدا غرفة حَسَنَة الإضاءة حُفِرَتْ في الصخر، تعبقُ بالدخان. تقدَّمتُ بتوقٍ إلى الأمام فإذا بي أواجه جداراً صلداً، ارتطمَ بأصابع قَدَمَيّ. حسبتُ أني أصبحتُ مجنوناً. أمامي غرفة لكني لا أستطيع أنْ ألجها. ثم سمعت صوت ماكسيموس العميق والجميل : " أترى؟ إنَّ الحياةَ في هذا العالم وهمٌ والآلهة وحدها حقيقية "

التفتُّ إلى يساري فرأيتُ الغرفة التي حسبتُ أني رأيتها أمامي. كان الدخان عندئذٍ قد زال. بدت الغرفة خاوية. وبدا الصوت وكأنَّ المتكلِّم يقفُ إلى جانبي. " إنكَ تحاول أن تخطو داخل مرآة. وبالطريقة نفسها، يحاولُ الجاهلون أن يلجوا أرض

المباركين، لكنَّ انعكاس صورهم تصدّهم. وإذا لم تستسلم، فلن تعرف طريقكَ خلال المتاهة التي يوجد في نهايتها الواحد "

كانت قدمي اليمنى تؤلمني. شعرت بالبرد. أثارَ الوضع غضبي وإعجابي معاً. قلت " أنا جوليان من سلالة قسطنطين "

" أنا ماكسيموس، سليل الآلهة كلها ". ثم فجأةً ظهرَ عند مرفقي؛ وكأنه بزغَ من قلب الصخر. وماكسيموس طويل القامة ومتناسق التكوين، ذو لحية أشبه بشلال شائب وعيني قطٍ متوهّجتين. كان يرتدي رداءً أخضر اللون عليه علامات غريبة. أمسكَ بيدي، وقال " هيا بنا، لدينا هنا عجائب "

كانت الغرفة في الواقع كهفاً طبيعياً تتدلى من سقفه نوازل، وفي منتصفه بركة طبيعية من المياه القائمة الراكدة. إلى جانب البركة قامَ تمثالٌ من البرونز لسيبيل، يُبيِّنُ الإلهةَ وهي تحملُ في إحدى يديها الطبل المقدس. لم يكن في الكهف غير مقعدَين من دون ظهر. ودعاني إلى الجلوس.

قال ماكسيموس " سوف تقومُ برحلاتٍ كثيرة ". فغاصَ قلبي. بدا أشبه بأي عرّاف نجده في الساحة العامة. " وسوف أكونُ في صحبتك حتى النهاية "

قلتُ بنبرةٍ رسميّة، وقد بوغِتُّ قليلاً، " لا يمكنني أنْ أطمعُ في معلّمٍ أفضل منك". كانَ متجرِّئاً.

" لا تجزع، يا جوليان... ". كان يعلم عِلمَ اليقين بماذا أفكِّر. " إنني لا أفرضُ نفسي عليك. على العكس، هناك مَنْ يفرضني عليك. مثلكَ تماماً. مِنْ جهةٍ لا يستطيعُ أيٌ منا أن يتحكَّمُ فيها. ولن يكون سهلاً أنْ ننفِّذَ ما علينا أن نقومَ به معاً. هناك خطرٌ يُحيقُ بكلينا. خاصةً أنت. إنَّ كوني مُعلّمكَ يُخيفني "

" لكني كنتُ آمل... "

ختمَ بالقول " أنا مُعلّمكَ. ما الذي ترغب في معرفته أكثر من أي شيء؟ "

" الحقيقة "

" حقيقةَ ماذا؟ "

" من أين نأتي وإلى أين نذهب، وما معنى الرحلة؟ "

قال بعناية " أنت مسيحي "، دون نبرة تقريرية أو استفهام. ولو كان هناك شاهدٌ

على ذلك المشهد، لسمحتُ لبابٍ في عقلي أن يُغلَق. وطبعاً، سكتُّ. وتذكَّرتُ الأسقف جورج، الذي كان دائماً يشرح لي أن معنى كلمة " مشابه " هي عكس معنى كلمة "نفس ". وسمعتُ شمّاساً يرتِّلُ أناشيد آريوس. وسمعتُ صوتي يقرأ درس الكنيسة في ماسيلوم. ثم فجأةً شاهدتُ أمامي الأناجيل المغلفة بغلاف من جلد التي أهداني إياها الأسقف جورج : " لا تسبّ الآلهة "

قال ماكسيموس برصانة " كلا. ففي هذا الاتجاه يكمن الظلام الأبدي "

ذُهلتُ. " أنا لم أقُلْ شيئاً "

" لقد اقتطفتَ من كتاب اليهود، من سفر الخروج. " لا تسبّ الآلهة "

" لكني لم أنطقْ "

" لكنكَ فكَّرتَ فيه "

" أتستطيع أن تقرأ أفكاري؟ "

" حين تمدّني الآلهة بالقوة، نعم "

" إذن انظر الآن، بعناية، وقُلْ لي : هل أنا مسيحي؟ "

" أنا لا أستطيع أنْ أتكلَّم بالنيابة عنك، ولا أستطيع أن أخبرك بما أراه "

" أنا أؤمنُ بوجود خالق أوَّل، بقوّة مطلَقَة... "

" أهو الإله نفسه الذي تحدَّثَ إلى موسى " فماً إلى فم "؟ "

" هكذا علّموني "

" لكنَّ ذلك الإله لم يكن مُطلَقاً. لقد خلقَ الأرضَ والسماء، والبشر والحيوان. ولكن وفقاً لموسى، هو لم يخلق الظلام أو حتى المادة، لأنَّ الأرضَ كانت موجودة قبله، غير مرئية وبلا شكل. وقد شكَّلَ ما كان موجوداً أصلاً. ألا يُفضِّلُ المرء عليه إله أفلاطون، الذي كان سبب خروج هذا الكَون " إلى الوجود كمخلوقٍ حي، له روح وعقل حقيقيان، وكلاهما من تدبير الإله؟ "

قلتُ آلياً " مقتطف من تيميوس[٤٧] "

" ثم هناك الفوضى السائدة بين كتاب اليهود وكتاب الناصريّ. فإله الأول يُفتَرَض أنْ يكون هو إله الثاني. ومع ذلك ففي الكتاب الثاني هو والد الناصريّ... "

" بحمد الله. إنهما من جوهرٍ متشابه، لكنه ليس الجوهر نفسه ". ضحكَ ماكسيموس. " لقد علِمنا هذا، يا عزيزي الآريوسيّ[٤٨] الشاب "

" أنا آريوسيّ لأني أجدُ من المستحيل أنْ أصدِّق أنَّ الله باختصار هو إنسانٌ أُعدِمَ بتهمة الخيانة. إنَّ يسوع كان نبياً - هو ابنُ الله بصورةٍ غامضة - نعم، ولكنْ ليس الله الواحد "

" ولا حتى نائبَه، على الرغم من الجهود التي بذلها بولس الطرسوسي[49] الخارق، الذي حاولَ أنْ يُثبِتَ أنَّ إله اليهود القَبَلي هو إله الكونِ الواحد، مع أنَّ كلَّ كلمةٍ قالها بولس نقَضَها كتاب اليهود المقدَّس. وفي رسائله إلى الرومان وإلى أهالي غلاطية، يُعلنُ بولس أنَّ إله موسى ليس فقط إله اليهود وحدهم بل هو أيضاً إله غير اليهود. غير أنَّ كتاب اليهود يُنكرُ هذا في مئة موقع منه. كما قال ربّهم لموسى : " إسرائيل هو ابني، ابني البِكر ". والآن إذا كان إله اليهود هذا حقاً، كما يدَّعي بولس، الإله الواحد، فلماذا إذن خصَّ سلالة واحدة تافهة بالمسح بالزيت، وبالأنبياء وبالناموس؟ لماذا تركَ باقي البشر على مدى آلاف السنين غارقين في الظلام، يمارسون عبادة زائفة؟ طبعاً اليهود يعترفون بأنه " إله غيور ". ولكن يا لها من حالة يكون عليها المُطلَق! غيور مِمَّ؟ وقاس أيضاً، لأنه ينتقم من الأطفال البريئين بسبب آثام الآباء. أليس وصف هومر وأفلاطون للخالقَ معقولاً أكثر؟ بأنَّ هناك موجوداً واحداً يشملُ الحياة كلها - هو الحياة كلها - ومن ذلك المنبع الأساسي تنبثقُ الآلهة، والشياطين، والبشر؟ أو إذا اقتطفتُ من الوحي الأورفي الشهير الذي بدأ الجليليون ينتحلونه ليستخدموه، " إنَّ زيوس، وهيدسا[50]، وهليوس[51]، هم ثلاثة آلهة برأسِ إله واحد "

باشرتُ بالقول " من المتعدد الواحد... "، ولكن مع ماكسيموس لا يمكن للمرء أن يُنهي جُمَلَه. إنه يستَبِقُ منحى تفكير مُحدِّثه.

" كيف يمكنُ إنكار الكثرَة؟ هل كل المشاعر متشابهة؟ أم أنَّ لكلٍ منها ميزاته الخاصة؟ وإذا كان لكل سلالة خصائصها الخاصة، أليست هي هِبة من الله؟ وإذا لم تكن هِبة الله، ألن يكون من المناسب إذن تمثيل تلك الخصائص بإله وطني معيَّن؟ وفي حالة اليهود هو شيخٌ جليلٌ سيئ الطبع. وفي حالة المتخنّثين، السوريين الحاذقين، هو إله مثل أبولو. أو خذ مثلاً الجرمان أو الكلتيين - الشرسين المحبّين للحرب - فهل من قبيل المصادفة أنهم يعبدون آريس، إله الحرب؟ أم أنه أمر حتميّ؟ لقد انغمسَ الرومان الأولون بسنّ القوانين وأصول الحكم - فمن هو إلههم؟ إنه إله الآلهة، زيوس. وكل إله

له جوانب متعدِّدة وأسماء متعددة، ذلك أنهم كثيرون في السماء كما هم بين البشر. وقد تساءلَ البعض : هل نحن الذين أوجدنا تلك الآلهة أم هي التي أوجدتنا ؟ إنَّ هذه المناظرة قديمة العهد. هل نحن حلمٌ في عقل الإله، أم أنَّ كلاً منا حالمٌ قائمٌ بذاته، يخلقُ واقعه الخاص به؟ وعلى الرغم من أنَّ المرء قد لا يعرف، فإنَّ حواسنا كلها تقولُ لنا إنَّ هنا خلقاً منفرداً موجوداً ويشملنا إلى الأبد. والآن المسيحيون سيفرضون أسطورة جامدة أخيرة على ما نعلم أنه مُتعدِّد وغريب. كلا، إنها ليست حتى أسطورة، لأنَّ الناصريَّ موجود مادياً في حين أنَّ الآلهة التي نعبُد لم تكن مرةً بشراً؛ إنها بالأحرى خصائص وقِوى تصبحُ شِعراً من أجل تعليمنا. وبوجود عبادة يهودي ميت، يموت الشِعر. والمسيحيون يتمنّون أنْ يستبدلون أساطيرنا الجميلة بتقريرٍ بوليسي من وضعِ حاخامٍ يهودي مُصلِح. ومن هذه المادة غير الملائمة يتمنّون أنْ يركّبوا منظومةً أخيرةً من كلِّ الأديان المعروفة. إنهم الآن ينتحلون أيام أعيادنا؛ ويحوّلون الآلهة المحلّية إلى قدّيسين؛ واستعاروا من شعائرنا السرية، خاصة شعائر ميثرا[٥٢]. وكهنة ميثرا يُسمَّون " الآباء". لذا يُسمي المسيحيون كهنتهم بـ " الآباء ". بل إنهم قلّدوا حلق شعر الرأس، آملين أن يؤثروا على المُهتدين الجُدُد بالزخارف المألوفة لعبادة قديمة. والآن بدؤوا يُسمّون الناصري بـ " المخلِّص " و " الشافي ". لماذا ؟ لأنَّ أحد أحبّ آلهتنا هو أسكليبيوس[٥٣]، ونسمّيه " المخلّص " و " الشافي ".

" ولكن ليس في ميثرا ما يوازي السر المسيحي ". كنتُ أجادلُ لصالح الشيطان.
" وماذا عن القربان المقدَّس، وتناول الخبز والخمر، حين قال المسيح : " إنَّ مَنْ يأكلُ جسدي ويشربُ دمي ستكون له الحياة الأبدية "

ابتسمَ ماكسيموس. " لا أفشي سراً عن ميثرا إذا أخبرتكَ أننا نحن أيضاً نشاركُ في عشاءٍ رمزي، ونتذكَّرُ كلمات النبي الفارسي زرادشت، الذي قال للذين يعبدون الرب الواحد - وميثرا، " إنَّ مَنْ يأكلُ جسدي ويشرب دمي سوف يتَّحدُ معي وأتَّحدُ معه، وسوف ينال الخلاص ". هذا الكلام قيلَ قبل مولد الناصري بستة قرون "

ذُهلتُ. " أكان زرادشت بشراً... ؟ "

" بل نبياً. ضربه بعض الأعداء في مقتلٍ وهو في المعبد. وأثناء احتضاره قال "فليغفر لهم الله حتى وأنا أحتضر ". " كلا، لا شيء مقدّساً لنا لم يسرقه الجليليون.

إنَّ المهمّة الرئيسية لاجتماعاتهم التي لا تُحصى هي محاولة إضفاء معنى على استعاراتهم كلها. إنني لا أحسدهم "

باشرتُ بالقول " لقد قرأتُ بورفيري... "

" إذن فأنتَ تعي كيف يُناقضُ الجليليون أنفسهم "

" ولكن ماذا عن تناقضات الهلّينية؟ "

" جديرٌ بالأساطيرِ القديمةِ أن تتناقض. غير أننا لا نعتبرها حقيقية بالمعنى الحرفي للكلمة. إنها مجرَّد رسائل مُشفَّرة من الآلهة، التي تمثِّلُ بدورها مظاهر للواحد. ونحن نعلم أنَّ علينا أن نفسّرها. أحياناً ننجح. أحياناً نفشل. لكنَّ المسيحيين يتمسّكون بالحقيقة الحَرفيّة للكتاب الذي كُتِبَ حول الناصريّ بعد وفاته بوقتٍ طويل. ولكن حتى ذلك الكتاب يُحرجهم كثيراً بحيث يضطرون على الدوام إلى تبديل معناه. فمثلاً، لايُذكَرُ في أي موقعٍ فيه أنَّ يسوع هو فعلاً الله... "

" إلا في إنجيل يوحنا "، ثم اقتطفَ: " والكلمةُ صارَ جسَداً وحلَّ بيننا ". وأنا لم أكن قارئاً في كنيسة دون طائل.

" هذه النقطة مفتوحة للتأويل. فما معنى " الكلمة " بالضبط؟ أهي حقاً، كما يدَّعون الآن، الروح القُدُس الذي هو أيضاً الله الذي هو أيضاً يسوع؟ – وهذا يُعيدنا من جديد إلى العقوق الثلاثي الذي يسمّونه " الحقيقة "، الذي يُذكِّرنا بأنَّ الأنبل جوليان يرغب أيضاً في أنْ يعرف الحقيقة "

" إنها رغبتي حقاً "، وانتابني شعورٌ غريب. كانت الغرفة تعبق بالدخان، وأضحتْ الأشياء الآن غير واضحة وغير حقيقية. ولو أنَّ الجدران انشقَّتْ حينئذٍ فجأةً وأشرقَتْ الشمس علينا ساطعةً، لمَا فوجئتُ. لكنَّ ماكسيموس لم يمارس أي سحرٍ في ذلك اليوم. لقد كان واقعياً.

" لا أحد يستطيع أن يُخبر شخصاً آخر ما هي الحقيقة. إنَّ الحقيقة موجودة حولنا. ولكن على كل إنسان أن يعثُرَ عليها بطريقته الخاصة. إنَّ أفلاطون هو جزءٌ من الحقيقة. وكذا هومر. وكذا قصة الإله اليهودي إذا ما استثنينا ادِّعاءاتها العدوانية. إنَّ الحقيقة توجد أينما يلمح الإنسانُ الألوهيّة. ويمكنُ للشعوذة أنْ تُنجز هذه اليقظة. والشعر يفعلُ أيضاً. أو تستطيع الآلهة نفسها بملء إرادتها أنْ تفتح لنا عيوننا فجأةً "

" إنَّ عينيَّ مغمضتان "

" نعم "

" لكنني أعرفُ ما أريدُ أن أجد "

" ولكنَّ هناك عائقاً يقفُ في وجهك، كالمرآةِ التي حاولتَ أن تخترقها "

أمعنتُ النظرَ إليه. " ماكسيموس، أرني باباً، ومرآة "

صمتَ فترةً طويلة. وحين تكلَّمَ أخيراً، لم ينظر إليّ. غير أنه أخذ يُدقِّق في وجه سيبيل. " أنتَ مسيحي "

" أنا لا شيء "

" ولكن لابد أنكَ مسيحي، لأنَّ هذه هي ديانة العائلة "

" يجب أنْ أبدو مسيحياً. لا أكثر "

" ألا تخشى أن تصبح منافقاً؟ "

" إنَّ ما أخشاه أكثر هو عدم معرفة الحقيقة "

" هل أنتَ مستعد لقبول الشعائر السرية لميثرا؟ "

" أهذا هو السبيل؟ "

" إنه أحد السُبُل. إذا أردتَ أنْ تقوم بمحاولة، أستطيع أن أقودكَ إلى الباب. ولكن عليكَ أن تجتازه وحدك. لا أستطيع أنْ أساعدكَ في عبور البوابة "

" وبعد أنْ أجتازه؟ "

" سوفَ تعرف معنى أنْ تموت ومن ثم أنْ تولد من جديد "

" إذن ستكون مُعلِّمي، يا مكسيموس. ومُرشدي "

" طبعاً سأكون "، وابتسم. " إنه قَدَري. تذكَّر ما قلته؟ لا خيارَ أمامنا، نحن الاثنين. لقد تدخَّلَ القَدَر. سوف نكمل التقدُّم معاً حتى نهاية المأساة "

" مأساة؟ "

" إنَّ الحياة الإنسانية مأساوية : تنتهي بالألم وبالموت "

" ولكن ماذا بعد الألم؟ بعد الموت؟ "

" حين تعبر عَتَبة ميثرا، سوف تعرف معنى أنْ تتجاوز المأساة، أنْ تتجاوز ما هو إنساني، أن تتَّحِد بالله "

بريسكوس : من المثيرُ مشاهدة ماكسيموس وهو يعمل. لقد كان حاذقاً. كنتُ

سأخمِّن أنه خلال لقائهما الأول سوف يقوم ببعض الخدع. كأنْ يصنعَ تمثالَ رقصة سيبيل. أو ما شابه. ولكن كلا. لقد شنَّ هجوماً شرساً على المسيحية. ثم قدَّمَ لجوليان ميثرا، الديانة الجديدةَ بأنْ تجد هوى عند بطلنا. فلطالما كان ميثرا هو الإله المفضَّل لدى الأباطرة الرومان، وللعديد من الجنود حتى يومنا هذا. أيضاً، علِمَ ماكسيموس أنه سيُقيمُ حتماً علاقة خاصة مع جوليان إذا كَفِلَه خلال أداء الشعائر.

الآن لم يعُد لديَّ أيُ شكٍ أنَّه عند تلك اللحظة من حياة جوليان كان يمكن لأيٍ من العبادات الغامضة أنْ تُحرِّره من المسيحية. لقد كان توّاقاً إلى التحرُّر. ولكن من الصعب معرفة السبب، بما أنَّ تفكيره كان يميلُ تقريباً إلى السحر والتطيُّر بالطريقة نفسها التي يفكِّر بها العقل المسيحي. ولا شك في أنَّ عباداتهم للجثث لم تعجبه، لكنه لاحقاً عثرَ على ظواهر للـ " الواحد الأحد " في أماكن أشد غرابة. ولو أنَّ جوليان كان كما ظنَّ نفسه - فيلسوفاً يتبع تراث أفلاطون - لفهمنا كراهيته للهراء المسيحي. كان سيصبحُ مثلكَ ومثلي. لكنَّ جوليان اهتمَّ في نهاية المطاف بفكرة الخلود الشخصي، وهو الهاجس الوحيد الذي يشتركُ فيه المسيحيون مع أولئكَ الذين انجذبوا إلى العبادات القديمة الغامضة.

على الرغم من كل شيء كتبَ جوليان حول الموضوع. وأنا لم أفهم أبداً بدقَّة سبب انقلابه على ديانة عائلته. فقبل أي شيء، قدَّمَتْ المسيحية له تقريباً كل ما احتاجَ إليه. فإذا أرادَ أن يقتسم رمزياً جسدَ إله، فلِمَ لم يبقَ مع المسيحيين ويأكل خبزَهم ويشرب خمرهم بدلَ أنْ يرتدّ إلى خبز وخمر أتباع ميثرا؟ وهذا لا يعود على نقصٍ في المسيحية. إنَّ المسيحيين دمجوا بخبث أغلب العناصر الشائعة في ميثرا وديميتر وديونيزيوس في شعائرهم الخاصة. والمسيحية المعاصرة هي موسوعة من التطيُّر التقليدي.

أعتقدُ أنَّ أصل نفور جوليان يكمن في عائلته. فقسطنطيوس كان مسيحياً متحمّساً، ينغمسُ في مجادلات مذهبيّة. وقد كره جوليان قسطنطيوس لسبب وجيه. ولهذا، كره المسيحية. وهذا إفراطٌ في تبسيط المسألة، غير أني طالما ملتُ إلى الرؤية الواضحة للأشياء بما أنَّها عادةً الطريقة الصحيحة، وإنْ كان المرء طبعاً لا يبلغ أبداً أعماق أي شيء يُماثلُ غموض شخصية شخصٍ آخر، وهنا يوجد غموض.

كان جوليان مسيحياً في كل شيء ما عدا تسامحه مع الكتّاب. لقد كان ما يسمّيه المسيحيون بالقديس. إلا أنه كان يبتعد بعنفٍ عن الدين الذي كان يلائمه كثيراً، مُفضّلاً عليه أصوله الانتقائية، التي حاول حينئذٍ أن يُصنّفها في مركّبٍ جديد لا يقلُّ سخفاً عن المركّب الذي رفضه. إنه عمل غريب ولا يوجد أي تفسير مُرضٍ لسلوك جوليان. طبعاً هو ادّعى أنَّ صُحبة الأسقف جورج كانت تثيرُ اشمئزازه وهو طفل، وأنَّ بورفيري وأفلوطين فتحا عينيه على سخافة الادّعاءات المسيحية. ولا بأس في هذا. ولكن لماذا تحوّلَ إلى شيءٍ لا يقلُّ عنها سخفاً؟ بديهيٌّ أنَّه لا يوجد إنسان مثقَّف يمكنه أن يقبل متمرِّداً يهودياً كإله. ولكن بما أنه رفضَ تلك الأسطورة، كيف يمكن للمرء أن يؤمن بأنَّ الإله- البطل الفارسي ميثرا قد وُلِدَ من صخرةٍ تومض بالنور، في الخامس والعشرين من شهر كانون أول، بينما رعاة يراقبون ولادته؟ (سمعتُ أنَّ المسيحيين قد أضافوا لتوهّم أولئك الرعاة إلى مولد يسوع) أو أنَّ ميثرا عاش في شجرة تين كانت تطعمه وتستر جسده، وأنه قاتلَ أول خلق للشمس، مع الثور الذي كان يجرّه (وهذا يرمزُ إلى معاناة الإنسان) إلى أنْ فرَّ الثور هارباً؛ أخيراً، وبأمرٍ من إله الشمس، يطعن ميثرا الثور بخنجر ومن جسد الحيوان نبتتْ أزهار، وأعشاب، وقمح؛ ومن دمائه، خرج الخمر؛ ومن منيه، خرج أول رجل وأول امرأة. ثم استُدعيَ ميثرا إلى السماء، بعد الاحتفال بالعشاء السرّي الأخير. ونهاية الزمن ستكون عندما سيحلُ يوم القيامة وينهض جميع الخلْقِ من قبورهم ويُقضَى على الشر بينما يبقى الخير إلى أبد الآبدين مستضيئاً بنور الشمس.

إنني لا أرى فرقاً أساسياً بين قصة ميثرا ونظيرتها المسيحية. ويجب الاعتراف بأنَّ دستور ميثرا في السلوك يُثيرُ الإعجاب أكثر من نظيره المسيحي. فالميثرائيون يؤمنون بأنَّ العمل الصحيح أفضل من التأمل؛ ويفضّلون الفضائل العتيقة كالشجاعة وضبط النفس. كانوا أول مَنْ علّموا أنَّ القوة هي في الرقّة. هذا كله أفضل من الهستريا المسيحية التي تذبذبت بين قتل المهرطقين من ناحية والرفض المتذلّل لهذا العالم من ناحية أخرى. ولا يمكن أن يُغفَرَ للميثرائي إثمه برشّة ماء. من الناحية الأخلاقية، أجدُ ميثرا أفضل العبادات الغامضة كلها. ولكن من السخف القول إنَّها " صحيحة " أكثر من مُنافسيها. فحين يصبح المرء متأكداً تماماً من الأسطورة والسحر، فالنتيجة لا يمكن أن تكون إلاّ الجنون.

إنَّ جوليان يتحدَّثُ باستمرار عن حبّه للهلّينية. لقد اعتقدَ بصدقٍ بأنه أحبَّ أفلاطون والحديث العاقل. في الحقيقة، إنَّ ما تاقَ إليه كان ما يرغبه كثيرون في عصر الانحدار هذا : التوكيد على الخلود الشخصي. وقد اختارَ نبذَ الأسلوبِ المسيحيّ لأسبابٍ أجدُها مبهمة، في حين أنه استقرَّ على عقيدةٍ لا تقلُ عنها سخفاً. طبعاً أنا مُتعاطفٌ معه. لقد سدَّدَ إلى المسيحيين بعضَ الضربات الموجعة التي أدخَلَتْ البهجةَ إلى نفسي. ولكني لا أستطيع أنْ أتعاطفَ مع خوفه من الفناء. فما أهمية البقاء إلى ما بعد الموت؟ إنه لم يتساءلُ أبداً حول الحقيقة المؤكَّدة وهي أنّنا قبل أنْ نولَد لم نكن موجودين، فلماذا نخشى أنْ نصبحَ مرةً أخرى ما كُنّا عليه منذ البداية؟ إنني لستُ مستعجلاً على الرحيل. ولكني أرى اللا شيء كما هو : لا شيء. فكيف يمكن الخوف من لا شيء؟

أما بالنسبة إلى المراسم والتجارب المتنوعة التي ينبغي على المهتدين إلى عبادة ميثرا المرور بها، فقلّة الكلام عنها أفضل. إنني أفهمُ أنَّ إحدى التجارب المعذِّبة هي نزعُ شعرَ العانة شعرةً شعرة، ما أشدَّ إيلامَ هذا التدريب! وقد سمعتُ أنَّ جزءاً من المراسم يؤدَّى بينما الجميع سكارى تماماً ويحاولون أن يقفزوا من فوق الأطباق وهم معصوبو العيون، كرمزٍ، ولا شك، لحياة الجسَد المُربكة. لكنَّ الناسَ يتأثّرون بالطقوس السرّية، وكلما كانت مخيفة وبغيضة أكثر كان ذلك أفضل. ما أشدَّ حُزننا، كم هو مخيفٌ أن نكونَ بشراً!

ليبانيوس : إنَّ المرء لا يقابلُ كثيراً فيلسوفاً يفوقه افتقاراً إلى الحسّ الديني. والأمر أشبه بأنْ تولَدَ وأنت غير قادر على تمييز الألوان الواضحة كلَّ الوضوح بالنسبة إلى أي إنسانٍ آخر. إنَّ بريسكوس يتمتَّعُ بتفكيرٍ منطقيّ وبأسلوبٍ دقيقٍ في تذوُّق الأشياء، لكنه أعمى أمام حقيقة الأمور. وقد انخرطتُ، مثل جوليان، في الطقوس الميثرائيّة خلال سنوات دراستي. كان الانطباعُ الذي تركته الأسرار عليَّ عميقاً، وإنْ كنتُ أعترفُ بأنَّ الأثرَ لم يكن مُلهماً - بالنسبة إليّ - كما كان بالنسبة إلى جوليان. لكني لم أكنْ مرةً مسيحياً، لذا لم أقُمْ بعملية اختراقٍ جذريّة وخطيرة للعالم الذي انتميتُ إليه. ومع ذلك، كان الأمر بالنسبة إلى جوليان عملاً جريئاً. ولو أنَّ قسطنتيوس سمعَ بما فَعَلَه، لكلّفه ذلك حياته. ولحسن الحظ، عالجَ ماكسيموس الأمر ببراعةٍ بحيث

لا يعلمُ قسطنتيوس أبداً أنَّ ابنَ عمّه تخلّى عن المسيحيّة وهو في سن التاسعة، داخلَ كهفٍ يقعُ تحت جبل بيون.

يبدو أنَّ بريسكوس لم يفهمْ أسرار الميثرائيّة، وهذا لا يُفاجئني. إنَّ بريسكوس يُهلّلُ لمعاييرنا الأخلاقية الراقية. ونحنُ ممتنّون له. لكنه يجدُ الطقوسَ " بغيضة ". طبعاً هو يعرفها فقط عن طريق الإشاعة، لأنه ما من أحدٍ من المُهتدين يحكي عمّا يحدث داخل الكهف. ولكن على الرغم من أنَّ " التجارب " هي في الغالب كريهة، فإنَّ الوحي الناتج عنها يستحقُ أنْ يتحمَّلَ المرءُ لأجلِهِ كل الألم الذي يتعرَّضُ له. وأنا من ناحيتي لا أتصوَّر وجودَ عالمٍ من دون ميثرا.

لقد علّقَ بريسكوس بصراحته الخشنة المعهودة أنَّ المسيحيين يستوعبون تدريجياً أوجهاً عِدّة من تلك العبادة. وفجأةً خطرت لي فكرة : ألا يُعقَل أنْ يكون هذا هو السبيل لتحقيق انتصارنا ؟ أليس ممكناً أنَّ المستوعِبين سيصبحُون مثل المستوعَبين بحيث يأتي وقت يُصبحونَ هم نحن؟

جوليان أوغسطس.

في شهر آذار من عام ٣٥١، اهتديتُ إلى أسرار ميثرا. في ذلك اليوم راقبتُ شروقَ الشمسِ؛ وراقبتُ غروبها، مع حرصي على ألاّ يلاحظني أحد، لأنه بما أنَّ قسطنتيوس كان قد قرَّرَ أنَّ عبادة الشمس أمرٌ غير مشروع، كان يتمُ إلقاءُ القبض على الناس لمجرَّد مراقبتهم لغروب الشمس. وكان الجواسيس والمُخبرون ينتشرون في كل مكان.

كنتُ قد أخبرتُ إسيبوليوس أنَّني قرَّرتُ أنْ أقضي النهارَ في الصيد على سفوحِ جبل بيون. وبما أنه يكره الصيد اعتذر عن مرافقتي كما توقعتُ منه. واقتطفَ من هومر. واقتطفتُ أنا من هوراس[٥٤]. اقتطفَ هو من فرجيل[٥٥]. واقتطفتُ أنا من ثيوكريتوس[٥٦]. واستعنّا معاً تقريباً بكل مراجع الأدب في الصيد.

العقبة التالية كانت الحارس الشخصي. كان قد خُصِّصَ لحراسة منزلي اثنا عشر جندياً وضابطٌ واحد. وكان يرافقني على الدوام على الأقلّ رجلان. فماذا أفعلُ بهما ؟ وكان ماكسيموس هو الذي قرَّرَ أنه طالما كانت ميثرا هي ديانة الجنود، فعلى الأقلّ على اثنين من الجنود أن يُثبتا تعاطفهما. وكان ماكسيموس على حق. ومن بين الاثني

عشر، كان خمسة من أتباع ميثرا. لذا كان سهلاً تخصيصُ اثنين من الخمسة من أجلي خلال النهار. وبوصفهما أخوين في ديانة ميثرا، كانا خاضعَين لختم السرّية.

قبل الغروب بساعة، غادرنا أنا وأوريباسيوس والجنديان الدار. وعلى حافة الجبل قابلنا ماكسيموس وتسعةً من الآباء. أخذنا نرتقي السفح بصمت. وعند نقطةٍ مُقدَّرةٍ، تحتَ شجرة تين، توقفنا وانتظرنا شروقَ الشمس.

تحوَّلَ لون السماء إلى الشحوب. سطعَ نجمُ الصباحِ أزرق. وانفرجت السُحُبُ الداكنة. ثم بينما الشمسُ تظهرُ عند الأفق، إذا بشعاعٍ من النور يسطعُ على الصخرة خلفنا، وأدركتُ أنها لم تكن مجرد صخرة عادية، وإنما هي بابٌ يُفضي إلى داخل الجبل. ثم صلّينا للشمس ولرفيقها ميثرا، مُخلِّصنا.

حين أضحتْ الشمس أخيراً فوق مستوى الأفق، فتحَ ماكسيموس البابَ المؤدي إلى داخل الجبل ولجنا كهفاً صغيراً مزوَّداً بمقاعد حُفِرَتْ في الصخر. هنا طُلِبَ منا أنا وأوريباسيوس أنْ ننتظر ريثما ينسحب آباء ميثرا إلى كهفٍ آخر، هو الحَرَم الداخلي. وهكذا بدأ أشد أيام حياتي خطورةً؛ يوم العسل والخبز والخمر؛ يوم البوابات السبع والكواكب السبعة؛ يوم تحدّيات كلمات المرور؛ يوم الصلاة وأيضاً، في نهايته (مروراً بالغراب، والعروس، والأسد، والفارسي، ورفيق الشمس، والآب)، يوم الـ ناما ناما سيبيسيو.

ليبانيوس : من بين الأسرار كلها، ما عدا تلك التي تُمارَس في إليوسيس، الميثرائية هي الأشد إلهاماً ، ذلك أنه في سياقها يختبر المرءُ في الواقع حماقة الغرور الأرضي. وفي كلٍ من المراحل السبع، يعبِّر المُهتدي عمّا ستعيه روحه ذات يوم مع نهوضها من بين الأكوان السبعة، وهي تنفض عنها عيوبها الإنسانية واحدة بعد أخرى.

جوليان أوغسطوس.

عند انتهاء النهار، خرجنا أنا وأوريباسيوس من الكهف، شاعرَين أننا قد وُلِدنا من جديد.

عندئذٍ حدثَ الأمر. فبينما كنت أراقبُ غروبَ الشمس، تملَّكَني النور. وُهِبتُ ما وُهِبَ لحفنةٍ من الرجال؛ شاهدتُ الواحد. غمرني هليوس وكان يجري في عروقي نورٌ بدل الدم.

شاهدتُ كلَّ شيء. شاهدتُ البساطة في قلب الخليقة؛ الشيء الذي يستحيل الإحاطة به من دون مساعدة الإله، لأنه يتجاوز اللغة والعقل : إلاّ أنه من شدّة البساطة

حتى إني تعجَّبتُ كيف أنَّ الإنسان لم يتعرّف إلى ما هو موجود دائماً، فهو جزءٌ منا بقدر ما نحنُ جزءٌ منه، لكنَّ ما وقعَ لي خارج الكهف كان كشفاً.

لقد شاهدت الإله ذاته حين ركعتُ بين الأكمات، وأشعة الشمس الحمراء المائلة تسطعُ على كامل وجهي. سمعتُ ذاك الذي لا يمكن التعبير عنه بالكتابة أو بالإخبار، وشاهدتُ ما لا يمكنُ تسجيله بالكلمات أو بالصور. ولكن حتى الآن، بعد مرور سنوات، ما يزالُ ذكرى حيّة كما كان وقتَ حدوثه. فقد تمَّ اختياري وأنا على سفحِ ذلك الجبل كي أقومَ بالعمل العظيم الذي أنخرطُ فيه الآن : استعادة عبادة الإله الواحد، بكل فرادته الجميلة.

بقيتُ راكعاً حتى اختفَتْ الشمس. ثم ركعتُ وسط الظلام مدةً قيلَ لي إنها امتدَّتْ ساعةً من الزمن. بقيتُ راكعاً إلى أنْ أُصيبَ أوريباسيوس بالرعب وأيقظني... أو بالأحرى أعادني إلى النوم، لأنَّ العالمَ " الواقعي " كان قد أضحى بالنسبة إليَّ منذ ذلك الحين هو الحلم في حين أنَّ رؤيا هليوس هي الحقيقة الواقعة.

" هل أنت على ما يرام؟ "

أومأتُ برأسي إيجاباً ثم نهضتُ واقفاً على قَدَمَيّ. " لقد شاهدتُ... " لكني سكتُّ. ما كان في إمكاني أنْ أبوحَ بما شاهدته. وحتى الآن، وأنا أدوِّن هذه المذكرات، لا أستطيعُ أنْ أصفَ ما اختبرته لأنه لا يوجدُ ما يوازيه في التجربة الإنسانية العادية.

لكنَّ ماكسيموس سرعان ما أدركَ ما حدث لي. قال " لقد وقعَ عليه الاختيار، وهو يعلمُ ذلك "

عدنا إلى المدينة يرين علينا الصمت. لم أكن أرغب في التحدُّث مع أي شخص، ولا حتى مع ماكسيموس، ذلك أني كنت ما أزالُ متدثّراً بأجنحة النور. حتى ظاهرُ يدي حيث تلقَّيتُ الوشم المقدَّس لم يؤلمني. ولكن مع وصولي إلى بوابة المدينة تشتَّتَ استغراقي بشكلٍ فظ بسبب الحشد الغفير الذي أحاطَ بي، وهو يصيحُ " أخبارٌ عظيمة!"

أصابتني الحيرة. كل ما استطعتُ التفكير فيه كان : هل بقيَ الإله معي؟ هل ما شاهدته مرئيٌ للجميع؟ حاولتُ أنْ أتحدَّث مع ماكسيموس وأوريباسيوس لكننا لم نتمكن من سماع أنفسنا.

في منزل الحاكم وجدتُ إسيبوليوس مع حاكم البلدة ومن بدا أنهم أعضاء المجلس كلهم. عندما رأوني، خرّوا راكعين على ركبهم. حسبتُ للوهلة الأولى أنَّ نهاية العالم قد حلّتْ فعلاً وأني قد بُعِثتُ رسولاً لأميّز الصالح من الطالح. لكنَّ إسيبوليوس أسرعَ إلى تبديد أي تفكير في وجود رؤيا.

" أيها الأنبل جوليان، إنَّ أخاكَ... "، وبدأ الرجال كلهم ممّن يُحيطُ بنا يردّدون اسمَ غالوس وألقابه. "... رقّاه المقدَّس أوغسطس ليشاركه السلطة الإمبراطورية. لقد أصبحَ غالوس قيصرَ الشرق. وسوف يتزوج أيضاً من قسطنتيا، الأخت المقدّسة لأوغسطوس المقدَّس!"

تعالى صياح التهليل وامتدَّت الأيدي التواّقة لتلمس ردائي، ويديّ، وذراعيّ. وانهالتْ عليّ عبارات التأييد، وطلب البركات. وأخيراً، شققتُ طريقي بين العامة وولجتُ المنزل.

التفتُّ نحو إسيبوليوس، وكأنها غلطته، " ولكن لماذا يتصرفّون كالمجانين؟ "

" لأنكَ الآن أخو القيصر الحاكم "

" إنَّ هذا لصالحهم هم... وليس لصالحي ". كان قولاً غير حكيم، ولكن أراحني أن أجهرَ به.

أزعجني إسيبوليوس بالقول " طبعاً أنتَ لا تريدُ منهم أنْ يحبوكَ لذاتك؟ لقد كنتَ تستمتع تماماً بجذب الانتباه، إلى أنْ سمعتَ النبأ "

" فقط لأني وجدتُ أنَّ الشمسَ... " ولجمتُ لساني في الوقت المناسب.

بدت الحيرة على إسيبوليوس. " الشمس؟ "

قال ماكسيموس بهدوء " وحدها شمس الرب يجب أنْ تُعامَل بهذه الطريقة. ينبغي على البشر ألاّ يعبدوا أقرانهم البشر، ولا حتى الأمراء "

أومأ إسيبوليوس موافقاً. " أخشى أنَّ هذا من مُخلّفات الزمن الغابر المشؤوم. إنَّ أوغسطوس روما " مقدَّس " طبعاً وإنْ لم يكن بحق إلهاً كما يعتقد الناس. ولكن ادخل، ادخل. الحمّامات جاهزة. وسوف يُقيمُ الحاكم لنا وليمة احتفاءً بالأنباء الطيبة "

وهكذا شاهدتُ الإله الواحد في اليوم نفسه الذي وصلني نبأ تنصيب أخي قيصراً. كان الفألُ جلياً بما يكفي. أصبحَ الآن كلُ منا يسيرُ نحو قَدَرَه الخاص. ومنذ ذلك اليوم أصبحتُ هلّينيّاً أو، كما يحلو للجليليين أن يُطلقوا عليَّ (من خلف ظهري، طبعاً!) المرتدّ. وحكمَ غالوس في الشرق.

- ٦ -

" من الطبيعي أنْ يقلق القيصر "

" دون سبب "

" دون سبب؟ أنتَ تلميذ ماكسيموس "

" وتلميذ إسيبوليوس أيضاً "

" لكنه لم يلتقِ بكَ منذ عام. إنَّ أخاكَ يشعرُ أنَّ بك حاجةً إلى مُرشِدٍ روحي. في هذا الوقت بالذات "

" لكنَّ ماكسيموس هو المسؤول "

" إنَّ ماكسيموس ليس مسيحياً. فهل أنتَ كذلك؟ ". سقطَ عليَّ السؤال كأنه رماني بحجر مقلاع. حدَّقتُ مدةً دقيقة طويلة إلى أتيوس الإنطاكي المُتَّشِحِ برداءٍ الشمّاس الأسود. وبادلني تحديقي بآخر هادئ. أشرفتُ على الإصابة بالرعب. ماذا يعرفون عني في بلاط غالوس؟

أخيراً قال " كيف تشك في أني مسيحي؟ لقد سهرَ على تعليمي اثنان من الأساقفة العظام. وأنا قارئ في الكنيسة. إنني أحضر كل طقس كنسي هام هنا في برغامون ". ونظرتُ إليه، متظاهراً باستقامة مشكوك فيها. " من أين انطَلَقَتْ هذه الإشاعة يا تُرى؟ إنْ كان لها وجود "

" لا يمكن أنْ تكونَ برفقةِ رجلٍ مثل ماكسيموس دون أنْ تثير شكوك الناس "

" ماذا عليَّ أنْ أفعل؟ "

" تخلَّ عنه ". كان الجواب سريعاً.

" أهو أمرٌ من أخي؟ "

" إنه اقتراحي أنا. إنَّ أخاك قلِق. هذا كل ما في الأمر. لقد أرسلني إلى هنا لكي أقترح عليكَ هذا. وقد فعلتُ "

" وهل أنتَ راض؟ "

ابتسمَ أتيوس. " لا شيء يُرضيني، أيها الأنبل جوليان. ولكن سأخبر القيصر أنكَ تتردّدُ بانتظام على الكنيسة لتتناول... سأخبره أيضاً أنكَ لن تدرس بعد الآن على يد ماكسيموس "

" إنْ كان هذا هو المسار الأكثر حِكمة، فسأسلكه ". بدا أنَّ هذا الغموض قد أرضى أتيوس. وأصدقائي دائماً يقولون لي إنه كان يمكن لي أنْ أصبحَ محامياً جيداً.

واكبتُ أتيوس حتى الشارع، فأخذ يتلفَّتْ حوله ثم قال " إنَّ مالكَ هذا المنزل... "

"... هو أوريباسيوس "

" إنه طبيب ممتاز "

لم أتمكن من مقاومة قول " هل من الحِكمة أنْ أقابله؟ "

قال أتيوس بهدوء " إنه رفيق مناسب إلى أقصى مدى ". وعند الباب المؤدي إلى الشارع توقفَ . " إنَّ أخاكَ، القيصر، كثيراً ما يتساءلُ لماذا لا تقومُ بزيارته في إنطاكية. إنه يشعر أنَّ حياة البلاط قد يكون لها... تأثيرٌ " مُهذِّب " عليك. هذه الكلمة وردَتْ على لسانه، وليست من عندي "

" أخشى أني لم أُخلَق لحياة البلاط، حتى وإنْ كان بلاط شخصٍ مرموقٍ كأخي. إنني أقاومُ كل المحاولات لتهذيبي، كما أني أبغضُ السياسيين "

" بغضٌ حكيم "

" وحقيقيّ أيضاً. كل ما أريده هو أنْ أعيشَ كما أنا، كتلميذ "

" وما هي غاية دراستك؟ "

" لكي أعرف نفسي. ماذا غير ذلك؟ "

" نعم. ماذا غير ذلك؟ ". ولجَ أتيس عربته. " كن حريصاً جداً، أيها الأنبل جوليان. وتذكَّر : الأمير ليس لديه أصدقاء. ولا صديق "

" شكراً لكَ أيها الشمّاس "

وغادر أتيس. عدتُ إلى المنزل. كان أوريباسيوس في انتظاري.

" أسمعت كل كلمة؟ " لم يكن بالضبط سؤالاً. إذ لم يكن بيننا أبداً أي سر. في المبدأ، كان يسترق السمع.

" لم نكن كتومَين، هذا أقلّ ما يُقال "

أومأت إيجاباً. كنتُ أشعر بكآبة. " أعتقد أنه يجب أن أتوقَّف عن الاجتماع بماكسيموس، لفترة من الوقت على الأقل "

" ويمكنكَ أيضاً أن تصرّ على أنَّه لم يتحدَّث مع الجميع عن تلميذه الشهير "

تنهّدتُ. كنتُ أعلمُ أنَّ ماكسيموس عَمَدَ - ويعمدُ - إلى المتاجرة بصِلته بي. وقد تعوَّدَ الأمراء تماماً على ذلك. وأنا لا أستاء من هذا. في الواقع، يسعدني أن يثري أصدقائي من وراء معرفتهم بي. لقد تعلَّمتُ من درس أوريباسيوس، ولا أتوقَّع أن يحبّني الناس لذاتي. فقبل أي شيء، أنا لا أحب الآخرين لذواتهم، بل فقط وِفقَ ما يعلّمونني إياه.

بما أنه لا شيء مجانياً، فلكلٍ ثمنه.

استدعيتُ سكرتيراً وكتبتُ لماكسيموس أطلب منه أن يمكث في إفسوس حتى إشعارٍ آخر. وكتبتُ أيضاً رسالة إلى أسقف برغامون أخبره فيها إني سأقرأ الموعظة في يوم الأحد التالي.

قال أوريباسيوس، بعد انتهاء السكرتير من عمله، " هذا نفاق "

" إن نفاقاً طويل الأمد أفضل من ماذا... ميت؟ ". كنتُ غالباً أجد صعوبة في إنهاء حِكمة بارعة. أو بالأحرى كنت أبدأ بواحدة دون أن أفكِّر في نهايتها، وهذه عادة سيئة.

" تقصد قارئاً ميتاً. إنَّ لأتيوس تأثيراً كبيراً على غالوس، أليس كذلك؟ "

" هكذا يُقال. إنه كاتم أسراره. ولكن مَنْ يستطيع أنْ يتحكَّم بأخي؟ ". كنت، دون تفكير، قد أخفضتُ صوتي إلى درجة الهمس. ذلك أنَّ غالوس قد أصبحَ مُداناً بالخيانة مثل قسطنتيوس. وجواسيسه منتشرون في كل مكان.

وضعتُ اللوم على زوجة غالوس قسطنتينا لحصول التغيير الصريح على شخصيته. لقد كانت أخت قسطنتيوس، وتعتبر أنَّ من البدهيّ أنَّ التآمُر هو النشاط الطبيعي للجنس البشري. إنني لم أقابل تلك السيدة الشهيرة ولكن قيلَ لي إنها قاسية مثل غالوس، وتفوقه ذكاءً. كانت أيضاً طموحاً، وهو ليس كذلك. كان قانعاً تماماً ببقائه قيصراً في الشرق. لكنها أرادت منه أن يكون أوغسطساً وأعدَّت مؤامرةً لقتل

أخيها لتحقيق هدفها هذا. أما غالوس، فلا أزال حتى الآن لا أستطيع أنْ أكتب عن فترة حكمه.

بريسكوس : أنا أستطيع. وأنت حتماً تستطيع! فقبل كل شيء، كنت تعيش في إنطاكية في الوقت الذي كان فيه ذلك الحيوان الصغير قيصراً.

الغريب في الأمر أنَّ جوليان لم يأت أبداً تقريباً على ذكر غالوس أمامي، أو أمام أي شخص. ولطالما كانت لي نظرية - مؤيَّدَة بصورةٍ ما في المذكرات - تقول إنَّ جوليان كان منجذباً بشكلٍ شاذ إلى أخيه. كان باستمرار يُشير إلى جماله. وكان أيضاً يميل إلى أن يكتب عنه بتلك النبرة المتأذّية التي يستخدمها المرء ليصف عاشقاً بارد العواطف. ويعترفُ جوليان بأنَّ ما يجده الجميع شديد الوضوح يراه هو غامضاً : أي قسوة غالوس. إنني ألاحظُ باستمرار أنَّ جوليان كان ساذجاً (إذا كرَّرتُ أقوالي اغفر لي، فالعمر يتقدَم بي)

في الواقع، إنَّ عضو العائلة الذي أكنُّ له أشد التعاطف هو قسطنتيوس. لقد كان حاكماً جيداً في الحقيقة. وكنا نميل إلى أن نبخسه حقّه لأنَّ ذكاءه كان يصنَّف من الدرجة الثانية، وهوسه الديني كان يبعثُ على الاضطراب. لكنه كان يُحسِن الحكم، إذا أخذنا بعين الاعتبار ما عاناه من مشاكل من النوع الذي كان جديراً بأنْ يحوِّل أي رجل إلى وحش. وقد ارتكبَ بعضاً من أسوأ أخطائه لأسبابٍ وجيهة جداً، كالسماح بتنصيب غالوس قيصراً.

من الهام أن أذكُر أنَّ جوليان لامَ زوجة غالوس على سواد الرعب في الشرق. ولطالما رأيتُ أنَّ اللومَ يقع عليهما معاً. ولكنكَ عاصرتَ فترة لابد أنها كانت من أفظع الفترات. ولا شكَ في أنكَ تعرف كنه ما حدثَ ومَنْ هو المسؤول عنه.

ليبانيوس : نعم، أعرفُ. في البداية، كنا جميعاً نعلِّقُ آمالاً عظيمة على غالوس. أذكُرُ جيداً أولَ مرة مثُلَ فيها غالوس أمام مجلس شيوخ إنطاكية. كم كنا ممتلئين بالآمال! لقد كان بحقّ وسيماً كما يقول الرجال، على الرغم من أنه في ذلك اليوم كان يعاني من طفح حراري، كما يحدث عادةً للوسيمين أحياناً في مناخنا الحارّ والرطب. ولكن على الرغم من وجهه المُرقَّش فقد كان يُحسِن الظهور. كان يبدو كشخصٍ وُلِدَ ليحكم. وألقى علينا أجمل ما سمعنا من خُطَب. وبعد ذلك، قدَّمني إليه صديقي العزيز الأسقف ميليتيوس.

عبسَ غالوس " آه، نعم. أنت ذلك المعلّم -الرفيق الذي أنكرَ وجود الله "

"أنا لم أُنكِر أي شيء على الله، أيها القيصر. إنَّ قلبي مفتوح له في كل الأوقات"

" إنَّ ليبانيوس دائماً يُثير إعجاباً أقصى، أيها القيصر ". كان ميليتيوس دائماً يستمتع بدفعي إلى المعاناة.

" أنا واثق من أنه كذلك "، ثم نفحني غالوس بابتسامةٍ مذهلة إلى أن غمرني بها. قال " تعال وزُرني، وسوف أعمل شخصياً على هدايتك "

بعد ذلك ببضعة أسابيع، تلقَّيتُ، ويا لدهشتي، دعوة إلى القصر. وحين وصلتُ في الموعد المُحدَّد، اقتُدتُ إلى غرفةٍ كبيرة حيث كان غالوس وقسطنتيا يجلسان جنباً إلى جنب على أريكة.

في وسط الغرفة كان هناك ملاكمان عاريان يتلاكمان حتى الموت. وحين أفقتُ من صدمتي الأولى لهذا المشهد غير اللائق، حاولتُ أنْ أُلفِتْ الانتباه إلى وجودي. سعلتُ: غمغمتُ بتحيّة. لكنني تجوهلت. كان غالوس وقسطنتيا غارقَين تماماً في المشهد الدامي. وكما يعرف العالَم، أنا أكره عروض المصارعة لأنها تختزل الرجال إلى مستوى الحيوانات – وأنا لا أعني بكلامي أولئك السيّئي الحظ الذين يُجبرون على أدائها. بل أعني المشاهدين.

لقد صُعِقتُ خاصة من مشهد قسطنتيا. فقد كان من الصعب أن أدرك أنَّ تلك المشاهدة البرّاقة العينين الخالية من الأنوثة هي ابنة قسطنطين الأكبر، وأخت الأوغسطس، وزوجة القيصر. بدتْ أشبه بخليلة قاسية القلب بدرجةٍ شاذة. إلاّ أنها كانت متميِّزة المظهر بأسلوب فلافي[٥٧] – الفك الكبير، الأنف الكبير، والعينان الرماديتان. وبينما كنا نتابع الرجلين المتعرّقَين، الداميين، كانت بين حينٍ وآخر تهتف لهذا أو ذاك، " اقتله! ". وحين تُسدِّد لكمة فعّالة جداً كانت تشهق بشكلٍ حميم غريب، كامرأة تمارس الجنس. لقد كانت قسطنتيا مرعبة إلى أقصى مدى.

راقبنا تينك الملاكمين إلى أنْ قتلَ أخيراً أحدُ الرجلين الآخر. ومع سقوط الخاسر، قفزَ غالوس عن الأريكة وأحاط المنتصر المدمّى بذراعيه، وكأنه قدَّمَ له خدمةً خارقة. ثم أخذ غالوس يرفس الرجل الميت، وهو يضحك ويصرخ مرحاً. بدا مخبولاً بكل معنى الكلمة. لم أرَ في حياتي كلها وجهَ رجلٍ يكشف بذلك القدر عن الوحش الكامن داخله.

" كفى، غالوس! ". كانت قسطنتيا قد لاحظَتْ وجودي أخيراً. ونهضتْ واقفة على قدميها.

نظر باتجاهها بنظرة خالية من التعبير. " ماذا؟ ". ثم رآني، وقال " أوه، نعم ". وعدَّلَ من وضع ردائه. تقدَّمَ العبيد وأزالوا جثة الملاكم الميت. اقتربَتْ قسطنتيا مني مع ابتسامة مشرقة. " ما أسعدنا برؤية ليبانيوس هنا بيننا، في قصرنا ". حيّيتها تحيةً رسميّة، حين لاحظتُ مع شيءٍ من الدهشة أنَّ صوتها العادي كان منخفضاً وموسيقياً، وأنَّ لغتها اليونانية ممتازة. وفي الحال انتقلت من حالة المرأة الحانقة إلى الملكة.

تقدَّمَ غالوس ومدَّ يده لي لأقبِّلها. تلوَّثَتْ شفتاي بالدم.

قال، وعيناه لا تستقران على حال، كرجلٍ ثمل، " جيد، جيد جداً ". ثم، ودون أن يضيفَ كلمة أخرى، انسابَ القيصر وملكته مارَّين من أمامي وكانت تلك نهاية المقابلة الخاصة التي حظيتُ بها مع أي منهما. كنتُ في حالة قصوى من توتر الأعصاب.

خلال السنوات القليلة التالية أصبحتْ أفعال الثنائي المشينة تفوقُ كلَّ حدٍ منذ أيام كاليغولا. فأولاً، كانا معاً شرهَين لجمع المال. ولكي تعزِّز قسطنتيا أهدافها السياسية كانت تحتاجُ إلى كل ما تستطيع جمعه من ذهب. مارست كل أساليب الابتزاز، وبيع المناصب الرسمية، ومصادرة الممتلكات. وإحدى محاولاتها لجمع المال نالَتْ عائلةً أعرفها. كانت تمثّلُ وضعاً خاصاً. فعندما تزوجت الابنة شاباً يتميَّز بوسامة خارقة من الإسكندرية، سرعان ما تدلّهَتْ الأم، وهي سيدة محتشمة - أو هذا ما ظنَّه الجميع - في حبّه. بقيَتْ طوال عامٍ كامل تحاولُ دون نجاح أن تغوي زوج ابنتها. وأخيراً قال لها إنها إذا لم تكفّ عن الإلحاح عليه، فسوفَ يعودُ إلى الإسكندرية. كادت المرأة تفقد عقلها من فرط الغضب، فتوجَّهَتْ إلى قسطنتيا وقدَّمَتْ للملكة ثروة صغيرة مقابل أن تُلقي القبض على زوج ابنتها وتقتله. قَبِلَتْ الملكة المال؛ وتمَّ إعدام الشاب المسكين بتُهمةٍ مُلفَّقة. ثم عمدَتْ الملكة، التي لم تكن تفتقرُ إلى قدرٍ من حس الفكاهة القاسي، إلى إرسال أعضاء الشاب التناسلية مع رسالةٍ مُقتَضَبَة : " أخيراً! ". ففقدَتْ المرأة عقلها. وانتشرتْ الإشاعة في إنطاكية. وبدأتْ أيام الرعب.

أحياناً كان يبدو وكأنَّ غالوس وقسطنتيا قد درَسا حياة الوحوش السابقين أملاً في بعث أعمال الرعب القديمة. وقد كان نيرون يجوس الشوارع ليلاً مع عصبةٍ من

المشاكسين، متظاهراً أنه شاب عادي يجوب المدينة. وكذا فعلَ غالوس. وكاليغولا كان يسأل الناس عن رأيهم في الإمبراطور فإذا كان جوابهم على غير ما يحب، ذبحهم حيث قابلهم. وكذا فعلَ غالوس. أو حاولَ أنْ يفعل. فلسوء حظه أنَّ إنطاكية كانت - خِلاف روما في مرحلتها الإمبراطورية المبكِّرة - تتمتَّع بأفضل إضاءةٍ للشوارع في العالم. إنَّ الليل عندنا أشبه بالظهيرة في أغلب المدن، لذا كان الناس دائماً يتعرَّفون إلى غالوس. ونتيجة لذلك، استطاع الحاكم الإمبراطوري في الشرق، ثالاسيوس، أن يُقنعه بأنْ ليس فقط من غير اللائق بالنسبة إلى إمبراطور أن يجوبَ الشوارع ليلاً، بل إنَّ ذلك أيضاً خطير. وتخلّى غالوس عن فكرة الجوس ليلاً.

خلال عام غالوس الثالث كقيصر، سادت مجاعة في سوريا. وحين بدأ النقص في الطعام يظهر في إنطاكية، حاولَ غالوس أن يُثبِّت الأسعار عند مستوى يُتاح فيه للجميع شراء القمح. حتى الحُكّام الحُكماء يرتكبون هذا الخطأ من وقتٍ إلى آخر. وهذا الحل لم ينجح أبداً لأنَّ النتيجة كانت دائماً عكس المأمول منه مباشرة. فالقمح كان إما يُسحَب من الأسواق أو يُباع على أيدي المضاربين الذين يعودون فيبيعونه ويحصّلون فوائد ضخمة، مما يُفاقِم من المجاعة. هذا هو حال البشر ولا سبيل إلى تغييره. لقد ارتكبَ مجلس شيوخ إنطاكية أخطاءً كثيرة، لكنَّ أعضاءه هم من رجال الأعمال الراسخين ويفهمون تقلّبات السوق الذي هو حياتهم. وحذَّروا غالوس من أخطار سياسته. فأمرهم بإطاعته. وحين واصلوا مقاومته، أرسلَ حَرَسَه الخاص إلى مقر مجلس الشيوخ، وألقى القبض على كبار الشيوخ وحكمَ عليهم بالإعدام.

كان لدى إنطاكية سببٌ وجيه لتكونَ ممتنّةً لثالاسيوس، ونبريديوس كونت الشرق. هذان الرجلان الشجاعان قالا لغالوس إنه إذا استمر في سياسة الإعدامات، فسوف يحتكمان إلى أوغسطوس ويطلبان خلع القيصر. كان عملاً شجاعاً، وكم دهشَ الجميع حين حقَّقا الانتصار وأطلقَ غالوس سراح شيوخ المجلس، وكانت تلك هي نهاية المسألة. وارتاحت إنطاكية على مدى بضعة أشهر حين وجدَ أهلها في ثالاسيوس مُدافعاً عنهم. لكنَّ ثالاسيوس توفيَ متأثراً بالحمّى. وطبعاً أُشيعَ أنه قد سُمِّمَ، لكني علمتُ أنه مات فعلاً جرّاء إصابته بالحمّى، بما أنَّ الطبيب كان طبيبنا الخاص المشترك. لكني لا أنوي أنْ أكتب تاريخ حياة غالوس، فهو معروف جيداً.

جوليان أوغسطس.

بعد زيارة أتيوس لي، قابلتُ ماكسيموس مرةً واحدة فقط سراً. وقد قمتُ بالتدبير لها بالحرص على أنْ يكون الحارسان اللذان يرافقاني من الإخوة في ديانة ميثرا. ولا أعتقد أنني تعرَّضتُ للخيانة ولو مرة خلال السنوات الثلاث التي قضيتها مع أوريباسيوس في برغامون. وأحرزتُ تقدُّماً بعقد صداقة مع أسقف المدينة. كنت معه أحضر كل الاحتفالات الليليّة. وكرهتُ خداعي هذا، ولكن لم يكن أمامي خَيار.

خلال تلك السنوات، كنت حراً في أنْ أسافر إلى حيث أريد في الشرق. كان في استطاعتي أن أزور حتى القسطنطينية، على الرغم من أنَّ مكتب الحاجب اقترحَ بلباقة ألاّ أقيم هناك، بما أنَّها، قبل أي شيء، العاصمة الإمبراطورية التي لا يُقيمُ فيها الإمبراطور، حالياً، وهذا يعني أنَّ أي زيارة أقومُ بها يمكن أنْ تُفسَّر على أنها... لقد فهمتُ تماماً وبقيتُ بعيداً.

وقد رُفِضَ طلبي بالسماح لي بزيارة أثينا. لا أدري لماذا. وبعثَ لي غالوس عِدَّة دعوات للمجيء إلى إنطاكية، ولكن كان في إمكاني دائماً أن أتفادى قبولي لها. وأعتقد أنه كان يرتاح لوجودي بالقُربِ منه. على أي حال، كان يقومُ بدور الأخ الأكبر والوصيّ بكل أمانة، إلى جانب كونه الحاكم. كنتُ أتلقّى نشرةً أسبوعية منه يسألُ فيها عن صحَّتي الروحيّة ويقول، إنه تواّق إلى أنْ يراني رجلاً تقيّاً وصالحاً، مثله. أعتقد أنه كان صادقاً تماماً في نصائحه. كان خطؤه شائعاً. فهو ببساطة لم يكن يعرف نفسه؛ لم يرَ أي خطأ فيها، وهذا النوع من الجهل ليس غريباً ويُفضَّل، في العموم، عدم القدرة على العثور على أية فضيلة في المرء.

إنَّ صداقتي مع أوريباسيوس هي الصلة الحميمة الوحيدة لي مع أي إنسان - وقد نَشَأَتْ في اعتقادي نتيجة حرماني من أي نوع من الحياة العائلية الطبيعية. إنَّ أوريباسيوس هو معاً صديقٌ وأخٌ، على الرغم من عدم تطابُق أمزجتنا بشكلٍ كامل. فهو شاكٌّ ويميل إلى التجريب، ولا يهتمُ إلاّ بالعالَم المادي، أما أنا فعلى العكس من ذلك. إننا متعادلان. أو نحاول أن نكون كذلك. وأعتقد أنني أحياناً أمنحه فكرةً غامضة عن طبيعة الماورائيّ. وقد عشنا معاً قرابة سنواتٍ أربع، سافرنا معاً، ودرسنا معاً. بل إننا في إحدى المرات تقاسمنا خليلة واحدة، على الرغم من أنَّ ذلك سببَ لي

بعض الاضطراب لأنني وجدتُ، ويا لدهشتي، أني ذو طبيعة غيور. إنني لم أسامح الإنطاكي في ماسيلوم لأنه فضَّلَ غالوس عليّ. ولكن كان يجب أن أسامحه. فقبل كل شيء، كان غالوس أكبر مني سناً وأشدّ وسامة. ومع ذلك، شعرتُ بالامتعاض. لم أدرِ إلى أي درجة، إلى أنْ وُضِعتُ في الموقف نفسه مرةً أخرى. فبعد ظهر أحد الأيام تناهى إليّ صوت أوريباسيوس مع خليلتنا المشتركَة - الغاليّة[58] الزرقاء العينين - وهما يمارسان الجنس. سمعتُ أنفاسهما الثقيلة. سمعتُ سير السرير الجِلْديّ يصرّ. وفجأةً رغبتُ في قتلهما معاً. عندئذٍ عرفتُ بالضبط معنى أنْ أكونَ غالوس، وكدتُ أُصاب بالإغماء من عنف ردِّ فعلي. ولكنَّ سرعان ما تلاشت تلك اللحظة وشعرتُ بالخجل.

خلال تلك السنوات، علّمني ماكسيموس أشياءَ كثيرة. كشفَ لي الأسرار. أتاحَ لي التأمُّل في الواحد. وكان المعلِّم المثالي. أيضاً، وخِلافاً للأسطورة الشائعة، لم يحاول أبداً أن يُثيرَ طموحي. ولم نتحدَّث أبداً عن كوني سأصبحُ إمبراطوراً؛ كان ذلك هو الموضوعَ الوحيد المُحرَّم الخوضُ فيه.

بريسكوس : إنَّ هذا ببساطة ليس صحيحاً. فمن خلال أشياء معيَّنة قالها لي كلٌّ من جوليان وماكسيموس، عرفتُ أنهما منهمكان في إعداد خِطّةٍ لتنصيب جوليان إمبراطوراً. لم يكن ماكسيموس، ولا أوريباسيوس، ليضيِّع وقته على أميرٍ لا أهميةَ له - على الرغم من أنَّ صداقته لجوليان كانت حقيقية، أو فلأقُل حقيقية بقدرِ ما تسمح إقامةُ العلاقات مع أمير.

لقد سمعتُ أنَّ ماكسيموس خلال جلسة تحضير أرواح واحدة على الأقل تلقَّى نصيحةً من أحد أصدقائه اللامرئيين مفادها أنَّ جوليان مُقدَّرٌ له أن يصبحَ إمبراطوراً. وعلمتُ أيضاً أنَّ سوسيباترا وعدداً من السَحَرَة الآخرين كانوا موالين سراً. وطبعاً، بعد أن أَصبحَ جوليان إمبراطوراً، ادَّعى كل ساحر في آسيا أنَّ له يداً في نجاحه. ولا أفهم لماذا أراد جوليان أن يُنكِر معرفة عددٍ منا للحقيقة. ربما لكي يُثبِط عزيمة المؤلفين ويُثنيهم عن التآمُر ضده، كما تآمرَ هو ضد قسطنتيوس.

ليبانيوس : إن كلمة " تآمُر " كلمةٌ خاطئة، على الرغم من أنَّ جوليان ماكر في روايته للأحداث. أنا أتَّفقُ مع بريسكوس في أنَّ ماكسيموس وأوريباسيوس كانا قد بدءا للتو يصبوان إلى اليوم الذي يصبحُ فيه صديقهما، إنْ لم يكن أوغسطاً، على

الأقل قيصراً. وأنا واثقٌ أيضاً تماماً من أنَّ ماكسيموس قد استشارَ وسطاءَ روحيين مُحرَّمين، والباقين كلّهم. وقد أخبرتني سوسيباترا قبل بضع سنين فقط : أن " الإلهة سيبيل لطالما فضَّلَتْ جوليان، وجَهَرَتْ بذلك. وكنا جميعاً ممتنين جداً لمساعدتها لنا "

لكني أشكُ كثيراً في أنه كانت هناك أي مؤامرة سياسية. كيف كان يمكن أنْ يحدث ذلك؟ جوليان لم يكن بحوزته إلا قليلٌ من المال. وكان بحراسة كتيبة محلية خاصة تتلقَّى أوامرها مباشرةً من الحاجب الأكبر. أيضاً، لا أصدِّقُ أنَّ جوليان في ذلك الوقت رغِبَ في الإمارة. لقد كان طالب علمٍ مكرَّس. وكان يشعر بالرعب من البلاط؛ ولم يُصدِرِ أمراً أبداً لجنديّ في حربٍ أو سَلم. فكيف كان يمكن له إذن، وهو في سن العشرين، أنْ يحلم في أن يغدو إمبراطوراً؟ أو بالأحرى يمكن أن " يحلم " - في الواقع نحن نعلم أنه فعل - ولكن لا يمكن أن يكون قد تآمرَ لانتزاع العرش.

جوليان أوغسطوس.

في خريف عام ٣٥٣، قام غالوس بزيارةِ دولة لبرغامون. كانت المرة الأولى التي نلتقي فيها منذ أنْ كنا صبيّين في ماسيلوم. وقفتُ مع حاكم المدينة وعليّة القوم المحلّيين أمام مجلس الشيوخ وراقبنا غالوس وهو يتلقّى ولاء المدينة.

خلال سنواتٍ خمسٍ مرَّت منذ آخر لقاءٍ لنا، كنتُ قد أصبحتُ رجلاً ذا لحية كاملة. لكنَّ غالوس بقيَ بالضبط كما كان، الشابَ الوسيم الذي يستقطب إعجاب الجميع. وأعترفُ بأني استعدتُ مشاعري القديمة حين عانقني عناقاً رسمياً ونظرتُ مرةً أخرى إلى تينك العينين المألوفتين الزرقاوَين. ما هي تلك المشاعر القديمة؟ إنها فقدان الإرادة، في الواقع. كنتُ أنفِّذ كل ما يريد مني أن أقوم به. كان بمجرد حضور غالوس، يسلبني قوتي.

" يسرّنا أن نقابل من جديد أخانا الحبيب والأنبل ". كان غالوس حينئذٍ قد تلبَّسَ بشكلٍ كامل السلوك الإمبراطوري. وقبل أن أتمكّن من الإجابة، كان غالوس قد التفتَ نحو أسقف برغامون. " لقد سمعنا أنه يُعتَبَر دعامة الكنيسة الحقيقية "

" هذا صحيح، أيها القيصر، إنَّ الأنبل جوليان ابنٌ بارّ للكنيسة المقدَّسة ". شعرتُ بامتنانٍ جمّ للأسقف. سرَّني أيضاً، أنَّ جهودي التي بذلتُها لأظهر بمظهر الجليلي الورِع قد تكلَّلَتْ بالنجاح.

ثم ألقى غالوس خطاباً جميلاً أمام آباء المدينة، الذين فُتِنوا به إلى أن بدت عليهم الحيرة مما أُشيعَ عن هذا المخلوق الفاتن من أنه طاغية قاس ومستبد. لقد كان في وسع غالوس أن يسحر أي شخص، حتى أنا.

في تلك الأمسية أقيمت له وليمة عشاء في قصر الحاكم. وقد أحسن السلوك، على الرغم من أني لاحظتُ أنه لم يُخفِّف خمره بمزجِهِ بالماء. ونتيجةً لذلك، أصبح ثملاً في نهاية الأمسية. ومع ذلك حافظَ على وقاره ولم يَفضَحْ حالته إلاّ بطءٌ قليل في الكلام. وعلى الرغم من أني جلستُ بجواره أثناء تناول طعام العشاء، إلا أنه لم يكلمني مرةً واحدة. كانت جهوده كلّها منصبّة على إدخال البهجة إلى قلب حاكم المدينة. وشعرتُ بالبؤس، وتساءلتُ ماذا فعلت فأزعَجَه مني. غمز لي أوريباسيوس مشجِّعاً، وكان جالساً في الطرف المقابل من الغرفة مع موظفي البلاط الصغار. لكنَّ الشجاعة لم تواتني.

انتهت وجبة العشاء، وفجأةً التفتَ غالوس نحوي وقال، " تعال معي ". وهكذا تبعته وهو يشقُّ طريقه بين أفراد حاشية البلاط المنحنين إلى غرفة النوم، حيث كان اثنان من الخصيان في انتظاره.

لم أكن قد شاهدتُ قبل ذلك المراسم التي تجري في غرفة نوم القيصر ورحتُ أراقبُ، وأنا مذهول، الخصيّين يغمغمان بعبارات مراسمية، ويخلعان عن غالوس ملابسه وهو متراخٍ على كرسيٍ من العاج، وغير واعٍ بأي حالٍ لوجودهما. كان مجرّداً من أي إحساس بالخجل أو الحشمة. وحين أصبح عارياً تماماً، لوَّحَ لهما لكي يخرجا وهو يقول " احضرا لنا خمراً! ". ثم بينما الخمرُ يُقدَّمُ لنا، كان يكلّمني أو بالأحرى يتكلّمُ عني. وعلى ضوء المصباح كان وجهه يتوهَّجُ باحمرار السُكر، وشعره الأشقر بدا أبيضَ اللون وهو ينهمرُ فوقَ جبينه. ولاحظتُ أنَّ جسده، على الرغم من جماله وحُسن تكوينه، قد بدأت البدانةُ تنال منه عند منطقة البطن.

" إنَّ قسطنتيا تريد أن تتعرَّف إليك. إنها كثيراً ما تتحدثُ عنك. لكنها طبعاً لم تتمكن من الحضور إلى هنا. على أحدنا أن يبقى في إنطاكية. فهناك جواسيس. وخونة. لا أحد مؤتَمن. أتدركُ هذا ؟ لا أحد. لا يمكنك وضع ثقتكَ في أحد، ولا حتى في مَنْ هم من لحمك ودمك "

حاولتُ أن أعترض عند هذه النقطة مُشدِّداً على ولائي، لكنَّ غالوس تجاهلني. "إنَّ الناس جميعاً أشرار؛ اكتشفتُ هذا باكراً. إنهم يولَدون بين أحضان الرذيلة، ويعيشون في الرذيلة، ويموتون في الرذيلة. ولا يمكن إلاّ الله أنْ يُخلِّصنا. إنني أصلي كي يُخلِّصني". ورسم غالوس إشارة الصليب على صدره العاري.

" ولكن من الرائع أن يكونَ المرءُ قيصراً في عالمٍ يعيثُ فيه الشر. من هنا "، وأشار إلى علوّ المكان، " يمكنكَ أن تراهم جميعاً. يمكنكَ أنْ تراهم وهم يمارسون مؤامراتهم. لكنهم لا يرونكَ. أحياناً أخرج متخفّياً ليلاً لأتمشّى في الشوارع ,أنصتُ إليهم، أراقبهم، وأعلمُ أنْ ليس في استطاعتي أنْ أفعل أي شيءٍ مما أريد لهم ولا احد يستطيع أن يمسَّني. فإذا أردتُ أنْ أغتصبَ امرأةً أو أنْ أقتلَ رجلاً في الزقاق، أستطيع أنْ أفعل. أحياناً أفعل " وقطّب ما بين جبينه. " لكنه عملٌ شرير. أعلمُ هذا. وأحاولُ ألاّ أنفِّذه. لكنني أشعرُ بأنّي حين أنفِّذُ تلك الأمور يتفاعلُ داخلي شيءٌ أسمى. إنني ابنُ الله. وأنا العاصي، لقد خلقني ومآلي إليه. إنه يريدُ مني أنْ أكونَ كما أنا. لهذا أنا إنسانٌ صالح "

يجب أن أعترفُ بأني ذُهِلتُ أمامَ ذلك الاحترام الخاص للذات. لكنَّ وجهي لم يُظهِر غير الاهتمام المحترم.

" إنني أبني الكنائس؛ وأنشئ طبقات دينية؛ وأسحقُ الهرطقة أينما وجدتها. إنني عاملٌ نشط في عمل الخير. بل يجب أنْ أكونَ كذلك. لقد وُلدتُ من أجل ذلك. أكادُ لا أصدِّقُ أنكَ أخي ". انتقلَ بتفكيره بسرعة ودون توقفْ. ونظَرَ إليَّ للمرة الأولى. كانت العينان الزرقاوان الشهيرتان مُحتقنتين بالدم تحت ضوء المصباح الكامل.

" بل أخ غير شقيق، يا غالوس "

" وإنْ كان. نحن من دمٍ واحد، وهذا هو المهم. هذا ما يربطني بقسطنتيوس. ويربطكَ بي. لقد اختارنا الرب لنُنجزَ عملَ كنيسته على الأرض "

عندئذٍ انسلّتْ إلى الغرفة فتاة ذات جمال خارق لم يشعر غالوس بحضورها، ولا أنا شعرت. واستمر في الكلام والشرب، بينما باشرت هي بممارسة الجنس معه أمام ناظري. أعتقد أنها كانت أشد لحظات حياتي حَرَجاً. حاولتُ ألاّ أراقب. نظرتُ إلى السقف. ونظرتُ إلى الأرض. لكنَّ عينيّ كانتا تعودان باستمرار إلى أخي، وهو مضّجع على الأريكة، لا يكاد يتحرّك، بينما الفتاة تقوم على خدمته بمنتهى المهارة والرهافة.

" سوف ينفِّذ قسطنتيوس كل ما اطلبه منه. هذا ما يعنيه رباط الدم. وسوفَ يُصغي أيضاً إلى أخته، زوجتي. إنها أهمّ امرأة في العالم. زوجة مثالية، وملكة عظيمة ". وبدَّلَ وضعَه على الأريكة لكي يُباعد ما بين ساقيه.

"أتمنى أن تحظى بزواج جيد. بل تستطيع أن تفعل، في الواقع. إنَّ لقسطنتيوس أختاً أخرى، هيلينا. أكبر سناً منكَ بكثير، ولكن هذا لا يهمّ عندما يتعلّق الأمر بكَرَم النسب. لعلّه يزوجك إياها. بل لعله أيضاً يجعل منكَ قيصراً، مثلي. هل يرضيك هذا؟"

كدتُ لا أسمع السؤال، فقد كانت عيناي منكبَّتين على ما تفعله الفتاة. يقول أوريباسيوس إني محتشم. أعتقد أنه على حق. أعلمُ أني كنتُ أتعرَّق بسبب التوتُّر العصبي وأنا أراقب غالوس الذي يخلب اللب. تلعثمتُ وأنا أقول " كلا، لا رغبة لدي في أن أكون قيصراً. يكفيني أنْ أكون طالب علِم. إنني غاية في السعادة "

قال غالوس بحزن " الجميع يكذبون، حتى أنت. حتى الأقرباء. ولكن لا حظٌ لك في الارتقاء. لا حظٌ لك على الإطلاق. إنَّ الشرقَ لي. والغرب لقسطنتيوس. أما أنت فلا حاجة إليك. هل لديك فتيات في منزلك؟ "

تحشرجَ صوتي وأنا أقول " واحدة! "

هزَّ رأسه متعجّباً " واحدة! وصديقك؟ الذي تقطن معه؟ "

" أوريباسيوس "

" أهو عشيقك؟ "

" كلا! "

" كنتُ أتساءلُ. لا بأس على الإطلاق. أنت لستَ هادريان. ما تفعله ليس هاماً، ولكن إذا كنتَ تفضِّل الصبية، أقترحُ أنْ تلتزم بالعبيد. من الناحية السياسية من الخطر أنْ يكون لهذا صلة برجلٍ ذي مكانة مثلك "

باشرتُ بالقول " أنا لستُ مهتماً... "، لكنه تابعَ مُقاطعاً إياي.

" إنَّ العبيد دائماً هم الأفضل. خاصة صِبية الإسطبلات وساسة الخيل ". فجأةً وَمَضَتْ العينان الزرقاوان : تحوَّلَ تعبيرُ وجههِ برهةً إلى الخبث. أخذ يتأملني لكي يتذكَّر ماذا شاهدتُ في ذلك اليوم في الفسحة المكشوفة. " ولكن افعلْ ما يحلو لك. على أي حال، نصيحتي الوحيدة إليكِ، تحذيري الوحيد إليك، ليس فقط بوصفي أخاكَ ولكن

ملكُكَ... ". سكتَ فجأةً وأخذَ نَفَساً عميقاً. كانت الفتاة قد انتهت من عملها. نهضَتْ واقفةً على قدميها ووقفَتْ أمامه، منحنية الرأس. ابتسم ابتسامة ساحرة. ثم مدَّ يده إلى وجهها وصفَعَها بكل ما أوتي من قوة. ترنَّحَت متراجعةً، لكنّها لم تُصدِر أي صوت. ثم بإشارةٍ منه انسحبتْ.

التفَتَ غالوس نحوي وكأنَّ شيئاً لم يحدث وتابع جُملته من حيث تركها. "... إياك ثم إياك أن تُقابلَ ذلك الساحر المدعو ماكسيموس. منذ الآن يدور ما يكفي من الإشاعات حول فقدانك ديانتك. أنا أعلم أنكَ لم تفقدها. كيف يمكنكَ أن تفعل؟ إننا من سلالة قسطنطين الأكبر، المُعادل للإنجيليين. لقد اختارنا الله. ولكن مع ذلك... ". تثاءبَ. استلقى على الأريكة. " ومع ذلك... " كرَّرَ وأغمضَ عينيه. انتظرتُ برهةً لكي يُتابع. لكنه نام.

ظهرَ الخصيان. وضعَ أحدَهما غطاءً من الحرير على غالوس، وحمل الآخر الخمر معه. تصرَّفا وكأنَّ ما شاهدتُه كان مجرَّد أمسية عادية بكل المقاييس؛ لعلها كانت كذلك. حالما بدأ غالوس يغطُّ بتأثير الخمر، مشيتُ على أطراف أصابع قَدَمَيَّ مغادراً الغرفة.

بريسكوس : لطالما اعتقدتُ أنَّ جوليان كان سيغدو أسعد حالاً لو أنه كان أشبه قليلاً بغالوس. لا احد يستطيع أنْ يقولَ إنَّ غالوس لم يستمتع بحياته. لقد كان يمثِّلُ الحياة المثالية للانغماس في المتع الحسّية. وقد حسدتُه كما لم أحسدِ أيَّ رجلٍ آخر.

ليبانيوس : من الواضح أنَّ بريسكوس عثَرَ على مَثَله الأعلى.

بعد مرورِ عدّة أشهرٍ على زيارة الدولة التي قامَ بها إلى برغامون، سقَطَ غالوس. كان الإمبراطور طوال سنتين يتلقّى تقاريرَ مزعجةً عن غالوس. فقد أخبره نبريديوس بفظاظة أنه إذا لم يُعزَل غالوس من منصبه كقيصر ستنشب حربٌ أهلية في سوريا. وفي رسالته الأخيرة إلى قسطنتيوس، كان ثالاسيوس قد قال الشيءَ نفسه.

ووقعَتْ حادثة أخيرة قَلَبَتْ الأمورَ رأساً على عقب. فقد أخذَ نقصُ الأغذيةِ يزدادُ سوءاً؛ وبدأتْ الطبقات الدنيا تثير الشغب، بعد أن فشلَتْ خطة تثبيت الأسعار. فقرَّرَ غالوس أنْ يُغادرَ إنطاكية بأسرع ما يمكن لكي يُغيرَ على بلاد فارس (مع أنه لم يكن لديه ما يكفي من القوات للسيطرة على قرية مبنية من الطين على نهر النيل)

في اليـوم الذي غـادرَ غـالوس المدينة، اجـتـمع به مـجلس المدينة أمـام النُصُب التذكاري ليوليوس قيصر. وخرجَ حشدٌ ضخم لمقابلتـه، لكنهم لم يكونوا مهتمين بوداع قيصرهم. كانوا يريدون طعاماً، وقد جهروا بذلك. وأثاروا صخباً كثيراً. أعلمُ هذا، لأني كنتُ حاضراً. لم أشهد قط مثل ذلك الحشد الغاضب. وخلف صفٍ من القوات المحلية التي تشهرُ سيوفها، كان القيصر وأعضاء مجلس المدينة يتبادلون العبارات الرسمية بينما الرعاع الذين يكتنفوننا من كل جانب يهدرون، ويندفعون مقتربين منا أكثر فأكثر. حتى غالوس أُصيبَ بالرعب.

ثم تقدَّمَ ثيوفيلوس، حاكم سوريا، لكي يُلقي خطاباً أمام القيصر. وثيوفيلوس هذا كان موظفاً رسمياً ممتازاً لكنه لم يكن محبوباً شعبياً. لماذا؟ مَنْ يدري؟ إنَّ الإنطاكيين طائشون تماماً في المسائل العامة. فإذا كان الطاغية القاسي بارعاً أحبوه حتى العبادة. ولكن إذا كان حاكمهم رجلاً طيباً بطيئاً في إلقاءِ خطابه فسوف يحتقرونه. وقد احتقروا ثيوفيلوس. وسخروا من خطابه بالتشويش عليه. ثم بدأ الرعاع يصرخون : "طعام! طعام! "

في تلك الأثناء كنتُ أراقبُ غالوس. في أول الأمر بدا حائراً ومرتبكاً؛ ثم - كان في الإمكان رؤية ما يفكّرُ فيه - ماكراً. رفعَ يده لكي يسودَ الصمت. لكنَّ الصراخَ استمرّ. فأومأ ثيوفيلوس لقارعي الطبول، وبدؤوا بالقرع المشؤوم. فغاصَ الحشد في الصمت.

تكلّمَ غالوس قائلاً " أيها الشعب الطيب، إنَّ قلبَ قيصركم يتألّمُ من أجلكم. لكنه محتار. أنتم تقولون إنَّ الطعام ينقصكم. ولكن لماذا؟ هناك طعامٌ في إنطاكية. هناك وفرةٌ من القمح في المخازن. إنَّ قيصركم يضعه تحتَ تصرّفكم "

جلجلَ صوتٌ قائلاً " إذن سلّمه لنا! "

هزَّ غالوس رأسه نفياً " لكنه وصلكم. إنَّ حاكمكم يعلمُ هذا "، والتفتَ إلى الحاكم. " ثيوفيلوس، لقد أمرتكَ أن تُطعمَ الشعب. لماذا عصيتَ أمري؟ لماذا كنتَ بهذه القسوة؟ حتى وإنْ كنتَ متضامناً مع المُضاربين، فيجب أن ترأفَ بالشعب. إنَّ الفقراء جياع، يا ثيوفيلوس. أطعمهمْ! "

لم أشهَدْ مرةً في حياتي مثل ذلك المشهد الشرير. لقد عَمَدَ غالوس إلى تحريض الشعب ضد حاكمه. ثم انطلقَ على رأس الفيلق، وتركنا أمام الحشد الهادر. وفررتُ

كغيري من أعضاء مجلس المدينة. ولحسن الحظ لم ينل الأذى أحداً ما عدا ثيوفيلوس، الذي قطّعوه إرباً. في ذلك اليوم فقدَ غالوس الدعم القليل الذي كان يحظى به بيننا.

حين تلقّى قسطنتيوس نبأ قضية ثيوفيلوس، أدركَ أخيراً أنّه يجب أنْ يستدعي غالوس. لكنَّ كان من الأسهل تنصيب قيصر على تدميره. وعرفَ قسطنتيوس أنه إذا تحرَّكَ ضد غالوس فستنشب حربٌ أهلية. لذا أخذَ قسطنتيوس يعمل بحَذَر. خطوته الأولى كانت أنْ يأمرَ جيشَ غالوس بالاجتماع في صربيا استعداداً لشن حملة على الدانوب. وفي رسالةٍ دبلوماسيةٍ بعثَ بها قسطنتيوس إلى القيصر قال، إنَّ القوات الخاملة تنزع إلى التمرّد. لذا تُركَ غالوس فقط مع حَرَسِه الخاص ومفرزةٍ واحدةٍ من رُماة السهام. ثم أصدرَ قسطنتيوس أمره إلى الحاكم دوميتيان (وكان حتى وقتٍ قريب كونتَ الهباتِ المقدَّسةِ وخبيراً مالياً) بالتقدُّم إلى سوريا، وكأنه يقومُ بجولة روتينية على المقاطعات. وفي إنطاكية، كان على دوميتيان أنْ يعمل على إقناع غالوس بإطاعة أمر الإمبراطور بالذهاب إلى ميلانو " للمشاورة ". ولسوء الحظ، كان دوميتيان مزهواً ومتغطرساً وواثقاً بكل معنى الكلمة بنفسه بحيث لا أحد يفوقه مهارة. لا أدري لماذا، ولكن بدا أنَّ هذه سمة مبتذلة يتَّصفُ بها وزراء المالية.

وصلَ دوميتيان إلى إنطاكية ليجد أنَّ غالوس قد عاد إلى مكان إقامته، بعد حملةٍ دامَتْ شهراً شنّها على الحدود الفارسية. ولكن بدل أنْ يتوجّه دوميتيان أولاً إلى قصر القيصر كما يتطلّب البروتوكول، تقدَّمَ إلى مقرّ قيادة الجيش، مُعلناً أنَّ وطأة المرض تمنعه من المجيء إلى البلاط. ومكثَ دوميتيان عدّة أسابيع في مقرّ القيادة، ليُعِدَّ مؤامرةً ضد غالوس وليرسلَ تقارير شديدة التنميق إلى الإمبراطور بخصوص تصرفات القيصر. وأخيراً أمرَ غالوس دوميتيان بالمثول أمامه في اجتماع المجلس المقدَّس. وفعلَ، وفي مشهدٍ من الغطرسة المنقطعة النظير، أخبر دوميتيان غالوس أنه إذا لم يعمل فوراً على إطاعة الإمبراطور ويتوجه إلى ميلانو، " فسوفَ آمرُ شخصياً بقطع الإمدادات عنك ". ثم غادرَ القصر وعادَ إلى مقرّ القيادة، حيث ظنَّ أنه آمن.

لم أكن حاضراً ذلك الاجتماع التاريخي لمجلس القيصر المقدَّس، لكنَّ الذين أمّوه قالوا إنه كان مواجهةً مدهشةً، وللمرة الأولى فازَ القيصر الذي أُهينَ بالتعاطف كله.

أسرعَ غالوس برد الصاع صاعَين. أمرَ بإلقاء القبض على دوميتيان بتهمة الطعن

في الذات الملكيّة. ولكي يُضفي على عملية ألقاء القبض مسحةً شرعية، بعثَ بمستشاره القانوني، القسطور مونتيوس، لكي يحدِّد للقوات كيفية تحركها. وكان مونتيوس رجلاً عجوزاً، مولعاً بتطبيق النهج التقليدي الصحيح. فأخبر غالوس بفظاظة أنَّه لا سلطةَ للقيصر على حاكمٍ يؤدي مهمّةً للإمبراطور. فتجاهلَ غالوس هذه النصيحة.

ثم مثُلَ مونتيوس أمام القوات التي استُدعيَتْ للتجمُّع، فقالَ لهم إنَّ ما ينوي غالوس أنْ يفعله ليس فقط غير قانوني بل وعلى درجة عالية من الخطورة وأنَّ أي جندي يطيعُ القيصر سوف يقترفُ جريمة الخيانة. " أما إذا قرَّرتم أن تُلقوا القبضَ على الحاكم الذي عيَّنه الإمبراطور فأنصحكم أولاً بالإطاحة بتماثيل الإمبراطور، لكي يكون تمرّدكم صادقاً على الأقلّ ".

اقلّ ما يمكن قوله إثرَ ذلك أنه شاع الاضطراب بين صفوف القوات. لكنَّ ذلك لم يدُم طويلاً. فحين سمعَ غالوس عمّا فعلَه مونتيوس، هرعَ مسرعاً إلى موقع التجمُّع وألقى خطبةً في القوات وهو يعلم أنه يُتقنُ ذلك.

" إنني في خطر. وأنتم في خطر. نحنُ جميعاً في خطر بسبب أشخاصٍ يريدون اغتصاب العرش، بعضهم يضمّهم مجلسي ". والتفتَ بضراوة نحو العجوز مونتيوس الشجاع. " نعم، حتى القسطور مونتيوس متورِّطٌ في هذه المؤامرة. إنه يتآمرُ ضدي، وأيضاً ضد قسطنتيوس. إنه يقولُ لكم إنني قد لا أُلقي القبض على حاكمٍ وقح لأنه يؤدي مهمةً إمبراطورية. ولكن لي الحق في تأديب أي موظفٍ رسميّ في الشرق. سوف أكونُ خائناً لقَسَمي لقسطنتيوس إذا لم أحافظ على النظام في إنطاكية "، وما إلى ذلك.

مع انتهاء غالوس من إلقاء خطابه كانت القوات قد أصبحتْ إلى جانبه. وقتلوا مونتيوس حيث كان واقفاً. ومن ثم توجّهوا إلى مقرّ القيادة العسكرية. لم يواجهوا أي مقاومة، ووجدوا دوميتيان في غرفة مكتب الآمر الكائن في الطابق الثاني. فألقوا بالحاكم البائس على الدَرَج (الذي كان شديد الانحدار : وذات مرة لويتُ كاحلي بشكل مؤلم وأنا أرتقيه). ثم جرّوا جُثَّتَيّ دوميتيان ومونتيوس جنباً إلى جنب وجابوا بهما شوارع إنطاكية.

بعد ذلك تملَّكَ غالوس رعبٌ شامل. فعلى الرغم من أنَّ قواته لم يكن ينقصها الكفاءة للسيطرة على إنطاكية، إلا أنَّه لم يكن في موقفٍ يؤهّله لمقاومة قسطنتيوس، وكان جلياً تماماً أنَّ الاثنين سيكونان قريباً في وضع المواجهة الصريحة. غير أنَّ غالوس ظلَّ يدَّعي أنه ينفِّذُ أوامر الإمبراطور حين أعلنَ الحكم العُرفي وألقى القبض على مَنْ شكَّ في أنهم يتآمرون عليه. واتَّضحَ أنَّ هؤلاء يشكِّلون نصف أعضاء مجلس الشيوخ. أثناء هذه الفترة المضطربة لجأتُ أنا إلى دافني.

أنشأ غالوس محكمةً عسكرية وعرضَ أمامها كل الذين اتَّهَمَهم بالخيانة. أثناء المحاكمات جلسَت قسطنتيا خلف ستارة وهي تصغي إلى الشهادة؛ بين حينٍ وآخر كانت تُبرِزُ رأسها نحو قاعة المحكمة لتطرحَ سؤالاً أو لتُدلي برأيها. كان عرضاً يدعو إلى السخرية. وأصبحت تهمة الهرطقة هي المُعتَمَدة، ولم ينجُ أحد.

في أحد محلات الصِياغة لاحظَ أحد العملاء السرّيين وجودَ رداء ذي لونٍ قرمزي من النوعِ الذي لا يرتديه إلاّ الإمبراطور. وفي الحال زُعِمَ أنَّه يخصُّ شخصاً يريدُ اغتصاب العرش. وكان صاحب المحل حكيماً بما يكفي فاختفى عن الأنظار لكنّهم عثروا على ملفاته. وعلى الرغم من عدم وجود أي ذكرٍ لشخصٍ طلبَ رداءً قرمزيَّ اللون، إلاّ أنَّ الشرطة السرية أظهَرَت رسالةً يسألُ فيها شمّاسٌ " متى سينتهي الطَلَب". وكان هذا كافياً. " الطَلَب " هو الرداء القرمزي، وِفقاً للشرطة السرّية، التي لم يكن لديها أي دليل آخر. وتمَّ إلقاء القبض على الشمّاس البريء، وعُذِّبَ، وحوكمَ، ونُفِّذَ فيه حكمٌ بالإعدام. كان ذلك نموذجاً لل " عدالة " التي تُمارسُ في بلاط غالوس.

حين فشلَ قسطنتيوس في إقناع غالوس بالحضور إلى ميلانو، أمرَ أخته قسطنتيا بالانضمام إليه. فانطلقَت قاصدةً ميلانو، وهي واثقة من قدرتها على إزالة الخلافات بين زوجها وأخيها. ولكن على الطريق توفيت السيدة متأثّرة بالحمّى، وكانت تلك هي نهاية غالوس. فعلى الرغم من أنه كان حينئذٍ راغباً تماماً في إعلان نفسه أوغسطاً في الشرق، إلا أنه كان يفتقر إلى القوة العسكرية لمواجهة قسطنتيوس. كان واقعاً في ورطة.

أخيراً وصلَته رسالة من قسطنتيوس كانت تغلب عليها النبرة الودّية. ذكَّرَ الإمبراطور فيها غالوس بأنَّه تحت حكم ديوكليتان كان القيصر دائماً يطيعُ ملِكَه،

واستشهدَ بقضية القيصر غالاريوس الشهيرة حين سارَ مسافة ميل على قَدَمَيه لأنَّ الأوغسطس ديوكليتيان غضبَ منه. هذه الرسالة حَمَلَها إليه سْكَديلو، وهو دبلوماسي كبير أخبرَ غالوس سراً أنَّ قسطنتيوس لا يرغب في إيذائه.

هل صدَّقَ غالوس هذا؟ يبدو ذلك مستحيلاً. لكنه عندئذٍ كان قد أصبحَ رجلاً يائساً. وأمام دهشة الجميع وافقَ على الذهاب إلى ميلانو. لكنه أصرَّ على أنْ يسافر عن طريق القسطنطينية، حيث بوصفه القيصر الحاكم كان يمسكُ بخيوط الألعاب في هيبودروم. لكنَّ جوليان يصفُ هذا المشَهد.

جوليان أوغسطس.

في أواخر خريف عام ٣٥٤ علمتُ بأمر الموت المفاجئ لقسطنتيا، فكتبتُ لغالوس رسالة تعزية لم يُجب عليها. فقد كان يواجه كثيراً من المتاعب في إنطاكية، حيث كان قسطنتيوس قد أرسَلَ له في وقتٍ سابق مبعوثاً أمره بكل فظاظة أنْ يعودَ إلى ميلانو. فرفضَ غالوس، وكان مُحقّاً تماماً في ذلك. كان يعلم ماذا سيكون مصيره إذا ما ذهب، وبدلاً من ذلك أرسلَ قسطنتيا إلى الإمبراطور، على أمل أن تنجح في إرساء السلام بينهما. ولكن حين توفيَتْ متأثرةً بالحمّى في بيثينيا، أدركَ أنَّ عليه إما أن يمتثل لأمر قسطنتيوس أو أن يبدأ حرباً أهلية. وخدعَه الخصيان وأكَّدوا له أنه سيكونُ آمناً في ميلانو، فانطلقَ باتجاه الغرب. وفي الطريق بعثَ إليّ برسالةٍ يأمرني فيها بمقابلته في القسطنطينية. فلبّيت.

ليبانيوس: من المذهل أنْ نلاحظَ كيف أنَّ رجلاً يتَّصفُ بالموضوعية والحماس للحقيقة مثل جوليان يعمل بكياسةٍ شديدة على حماية ذِكرى أخيه. لم يأتِ بكلمةٍ واحدة على ذِكر عمليّتي قتل مونتيوس ودوميتيان، أو على محاكمات الاتهام بالخيانة. أعتقد أنَّ جوليان يهتمُ أكثر بتوجيه قضيته ضد قسطنتيوس منه بسردِ ما حصل... وهذا عيب إنسانيّ.

جوليان أوغسطوس.

قابلتُ غالوس في خلفية مقصورةٍ إمبراطورية في هيبودروم. كانت المقصورة في الواقع سُرادِقَ من طابقَين مُتَّصِلٌ برواقٍ طويل بالقصر المقدَّس. في الطابق الأول كانت

هناك غرفتان مُخصّصتان للموسيقيين ولصِغار الموظفين؛ والطابق الثاني يحتوي على جناحٍ من الغرف تستخدمه العائلة الإمبراطورية.

حين وصلتُ كان هناك سباقٌ لعربات الخيل يجري. سمعتُ الجمهورَ من خلال ستائر تغطي الباب المؤدي إلى المقصورة يهتف محيياً سائقيه المفضّلين. وفجأةً أزاحَ غالوس بحركة سريعة الستارة.

قال " ابقَ حيث أنت ". وتركَ الستارة تسقط. كان شاحب البشرة؛ ويداه ترتعشان. وكان صوته منخفضاً، وسلوكه مُختلَساً. " والآن أصغِ إليّ. أنا أعرف أنَّ الناس يقولون إنني لن أعود من ميلانو حياً. ولكن لا تصدِّقهم. أنا ما أزال القيصر ". وأومأ إلى الستارة. " لابد أنكَ سمعتَ الآن كيف يُحييني الجمهور. إنهم معي. ولديَّ أيضاً جيش ينتظرني في صربيا. إنه مؤلَّف من القوات الطيبيّة[٥٩] الموالية. لقد تمَّ التخطيط لكل شيء. وعندما سينضمون إليّ سأصبحُ مستعداً للتعامل مع قسطنتيوس ". لكنَّ وجهه كشفَ عن عدم الثقة التي حاولتْ كلماته أن تُبدِّده.

" هل ستتمرَّد ؟ "

" آمل ألاّ أفعلْ. آمل أن تُعقَدَ هدنة. ولكن مَنْ يدري؟ والآن لقد أردتُ أن أقابلك لأقولَ لك إنه إذا وقعَ لي مكروه، الجأ إلى الدير. تلقَّ أوامرَ قُدسيّة إذا لزِمَ الأمر. هذا هو السبيل الوحيد لتكون آمناً. ثم... ". فجأةً بدا مشوَّشاً تماماً، "انتقم لي "

" لكنني واثق من أنَّ الإمبراطور... "، وبدأتُ أهذر لكني قوطعتُ من قِبَل رجل ضخم الجثّة أحمر الوجه حيّاني بمرح. " أيها الأنبل جوليان، أنا الكونت لوسيليانوس، ألازمُ القيصر كظ... "

كشَّرَ غالوس كذئب وهتف " الجلاّد ! "

" إنَّ القيصر يستمتع بالسخرية مني "، ثم التفتَ إلى غالوس. " إنَّ الجمهور ينتظركَ كي تمنح تاج الفائز لثوراكس. لقد فاز لتوِّه في سباق العربات "

استدار غالوس بسرعة وأزاحَ الستارة. ظلَّ برهةً واقفاً ووجهه مُنطبع على خلفيةٍ من سماءٍ زرقاء مُبهِرة. والحشود من خلفه تهدرُ كعاصفةٍ تهبُ في البحر.

سألَ لوسيليانوس " ألنْ ينضَمَّ جوليان الأنبل إلينا ؟ "، حين لاحظَ أني تراجعتُ غريزياً خطوةً إلى الخلف بعيداً عن النور الساطع والهدير المفاجئ.

قال غالوس " كلا! هو سيصبحُ كاهناً ". ثم تركَ الستارةَ تسقطُ من خلفه؛ وانتهى الأمر.

باقي القصة معروف جيداً. فقد سَلَكَ غالوس و " جلاّدوه " الطريق البريّة عبر إليريا[٦٠]. وكانت القوات قد نُقِلَتْ من مواقعها على طول الطريق، ولم يكن هناك مَنْ يستطيع غالوس أن يستعين به. وفي مدينة هادريانوبوليس، كانت الفيالق الطيبيّة تنتظر، ولكن لم يُسمَح لغالوس بمقابلتها. كان حينئذٍ قد أصبحَ سجيناً فعلياً ولكن ليس رسمياً. وفي النمسا، تمَّ القبض عليه على يد الكونت بارباشيو، الذي كان حتى عهدٍ قريب آمر حَرَسِه الخاص. وسُجِنَ غالوس في هيستريا؛ وهنا عُقِدَت المحاكمة. ورأسَ المحكمة كبير الحُجّاب يوسيبيوس.

اتُّهِمَ غالوس بكل الجرائم التي ارتُكِبَتْ في سوريا خلال سنوات حكمه الأربع. وأغلب التُهَم التي وُجِّهَتْ إليه كانت سخيفة والمحاكمة نفسها كانت مهزلة، لكنَّ قسطنتيوس استمتعَ بعرض العدالة ذاك بقدر ما كان يكره فكرة العدالة ذاتها. وكان دفاع غالوس الوحيد عن نفسه أنّه اعتبرَ زوجته هي سبب كل شيء. وكان ذلك تصرّفاً غير خليقٍ به؛ ولكن لم يكن أمامه لينقذَ نفسه غير ذلك يقوله أو يفعله. أيضاً، باتّهامه أخت قسطنتيوس بألفِ جريمةٍ (كانت مُذنبة بعدد أكبر من ذلك)، استطاعَ غالوس أنْ يُسدِّدَ ضربةً أخيرة إلى عدوّه الحقود. وبدافعٍ من حنقهِ من الشكل الذي اتّخذه الدفاع، أمرَ قسطنتيوس بإعدام غالوس.

قُطِعَ رأسُ أخي في وقتٍ مبكّرٍ من مساء اليوم التاسع من شهر كانون أول عام ٣٥٤، وذراعاه موثقتان خلفَ ظهره كأيّ مجرمٌ عادي. ولم يُدلِ بأي تصريح أخير. أو إذا كان قد فعل، فإنه أُحيطَ بالتكتُّم. حين مات كان في الثامنة والعشرين من عمره. ويُقال إنه في أيامه الأخيرة كانت تنتابه كوابيس رهيبة. ولم يتبقَّ من العائلة الإمبراطورية غير قسطنتيوس وأنا.

في الأول من شهر كانون ثاني ٣٥٥ صدرَتْ مُذكَّرة بالقبض عليَّ. لكنني عندئذٍ كنتُ قد انضممتُ إلى طائفةٍ دينيّة في نيكوميديا. وأنا واثق من أنَّ الرهبان لم يتعرَّفوا على هويتي في أول الأمر، ذلك أني كنت قد أتيتُ إليهم برأسٍ حليقٍ وبدوتُ كأي مُبتدئ آخر في الرهبنة. وكان أوريباسيوس أيضاً يحميني. وحين وصل الرسول

الإمبراطوري إلى برغامون لكي يُلقي القبضَ عليّ، قال أوريباسيوس إنني رحلتُ إلى القسطنطينية.

بقيتُ راهباً مدةَ ستة أسابيع. وقد وجدتُ الحياة ممتعة بشكلٍ مدهش. استمتعتُ بالتقشّف وبالكَدّ الجَسَدي المعتدل. والرهبان أنفسهم لم يكونوا مُلهمين. أعتقد أنّ بعضهم كان يمتلك الحسّ الديني لكنّ الغالبية العظمى كانت ببساطة من المتشرّدين الذين تعبوا من الشوارع ومتاعبها. وكانوا يتعاملون مع الدير وكأنه نُزُل وليس مكاناً لخدمة الله الواحد. ولكن كان التعامُل معهم سهلاً يسيراً، ولولا الطقوس الجليليّة لعرفتُ السعادة التامة.

أعتقد أني لن أعرف أبداً كيف تمّ كشفُ أمري. لعلّ أحد الرهبان تعرَّفَ عليّ أو ربما العملاءُ السرّيون أثناء تقصّيهم عن دور الأديرة المختلفة؛ لأنَّ الشُبُهات صارت تحوم أكثر فأكثر حول الوافدين الجُدُد. وكيفما حدث الأمر، فقد تمَّ بسرعةٍ وكفاءة. فقد كنتُ في مطبخ الدير، أساعدُ الخبّاز في إيقادِ فرنه، وإذا بمفرزةٍ من القوات المحلية تدخل مُقرقعةً بأسلحتها. حيّاني آمرها. " على الأنبل جوليان أنْ يرافقني إلى ميلانو، بأمرٍ من الأوغسطوس "

لم أعترض. حدَّقَ الرهبان بصمت وهم يأخذونني من بينهم ومشينا نقطع شوارع نيكوميديا الباردة إلى القصر الإمبراطوري. وهناك استقبلني حاكم المدينة. كان متوتّر الأعصاب. فقبل خمس سنوات وفي ظروفٍ مشابهةٍ صدرَ أمرٌ لغالوس بالتوجّه إلى ميلانو ونُصِّبَ قيصراً للشرق. وقد يكون المصير نفسه من نصيبي. وكان صعباً على موظّفٍ رسميّ أنْ يعرف كيف يتصرَّف.

" طبعاً، نحن آسفون على اتّخاذ هذه الاحتياطات الأمنية "، وأشارَ الحاكم إلى الحراس. " لكنكَ ستتفهَّم أنَّ مكتب الحاجب الأكبر، كعهده دائماً، شديد الدقّة. ويجب عدم تجاوز أي تفصيل "

كنتُ مؤدّباً ولم أعلّق. وابتهجتُ أيضاً بصورةٍ ما حين علمتُ أنَّ مُرافقيَّ من الجنود سيكونون تحت إمرة فيكتور، الضابط نفسه الذي كنتُ قد قابلتُهُ في ماسيلوم.

تكلّمَ فيكتور بنبرة اعتذار. " إنني لا أستمتع بالقيام بهذا الواجب. آمل أن تُدرِكَ هذا "

" وأنا مثلك "

تجهَّمَ فيكتور. " وأكره خاصةً أن أنتزعَ كاهناً من الدير "

" إنني لست بالضبط كاهناً "

" ومع ذلك، أنتَ مستعد لتلقّي الأوامر. لا يحقُ لأحدٍ أنْ يُبعِدَ إنساناً عن الله، حتى وإنْ كان الإمبراطور ". إنَّ فيكتور جليليّ ورِع؛ وفي ذلك الوقت كان مُقتنعاً بأنني أنا أيضاً كذلك. ولم أعلّق لكي لا أخيّب أمله "

في اليوم التالي انطلقنا نبغي القسطنطينية. وعلى الرغم من أنني عوملتُ كأمير، وليس كسجين، فقد اعتبرتُ أنَّ سلوك الطريق البرية نفسها إلى إيطاليا التي سلكها غالوس قبل بضعة أشهر نذير شؤم.

أثناء مغادرتنا نيكوميديا، لاحظتُ وجود رأس مرفوعٍ على رمح. لم أكد ألمحْهُ، بما أنه كان دائماً تقريباً يُرى رأسُ مجرمٍ ما معروض على البوابة الرئيسية لكل مدينة.

فجأةً قال فيكتور " أنا آسف. ولكننا أُمِرنا بالولوج من هذه البوابة "

" آسف على ماذا؟ "

" لأني أقودك عبر البوابة التي يُعلَّق عليها رأسُ أخيك "

" غالوس؟ "، والتفتُ التفاتة كاملة من مكاني على السرج ونظرتُ ثانية إلى الرأس. كان الوجه مشوّهاً فلم أتعرَّفْ على قَسَماته، ولكن لم يكن هناك أي مجال للخطأ في شعره الأشقر، وإن كان منضفراً بالقذارة والدم.

" لقد عَرَضه الإمبراطور في كل مدينة في الشرق "

أغمضتُ عينَيّ، وأنا على شفا الغثيان.

قال فيكتور " كان أخوك يتَّصفُ بخصالٍ جيدة عديدة. أمرٌ مؤسف ". منذ ذلك الوقت أصبحتُ أحترمُ فيكتور. وفي تلك الأيام حين كان العملاء السرّيون ينتشرون في كل مكان ولا أحدَ كان آمناً، كان قولُ كلامٍ طيّبٍ بحقِّ رجلٍ تمَّ إعدامه بتهمة الخيانة يتطلَّبُ شجاعة. وكان فيكتور صريحاً أيضاً في الدفاع عني. وكان رأيه أنَّ التُهمتَين الموجَّهتين إليّ من قِبَل مكتب الحاجب الأكبر ليستا خطيرتين (بأني غادرتُ ماسيلوم دون إذن؛ وبأني قابلتُ غالوس في القسطنطينية في وقتٍ كان قد صدرَ اتِّهام بحقّه بالخيانة). كنت بريئاً من التهمة الأولى. الحاجب الأكبر نفسه كان قد كتب رسالةً إلى

الأسقف. وكنتُ حكيماً فاحتفظتُ بنسخةٍ من تلك الرسالة. أما بالنسبة إلى التهمة الثانية، فقد استُدعيتُ إلى القسطنطينية من قِبَل مَنْ كان حينئذٍ قيصر الشرق. فكيف لي أنْ أرفض تنفيذ أمْرِ مَلِكي الشرعي؟ قال فيكتور " لا داعي للخوف ". لكني لم أكن متفائلاً.

بما أني كنت أسافرُ كأمير، كنتُ أتلقّى التحيات في كل مدينة من قِبَل عليّة القوم المحليّين. وعلى الرغم من قلقي بشأن مصيري الخاص كنتُ ما أزال قادراً على الاستمتاع قليلاً برؤية الأشياء الجديدة. سُرِرتُ خاصةً حين سمحَ لي فيكتور بزيارة إليوس، وهي مدينةٌ حديثة تقعُ بالقُرب من أطلال مدينة طروادة القديمة.

في إليوس أخذني الأسقف المحلي في جولة. في أول الأمر غاصَ قلبي : كان أسقفٌ جليلي هو آخر نوع من الأشخاص يهتم بأنْ يُريني معابِد الآلهة الحقيقية. ودُهشتُ إذ وجدتُ أنَّ الأسقف بيغاسيوس هلّينيٌّ متحمسٌ. في الواقع، هو الذي دُهِشَ حين طَلبتُ منه أن يُريني معابد هكتور وآخيل.

" طبعاً. لا شيءَ يُدخل السرورَ إلى نفسي أكثر من هذا. لكني مُندهِش لأنكَ تهتم بالنُصُب التذكارية القديمة "

" أنا تلميذ هومر "

" هذا حال كل إنسان مثقَّف. لكننا أيضاً مسيحيين. إنَّ إلهكم معروفٌ جيداً لدينا حتى هنا ". لم أكن متأكداً إنْ كان يسخر أم لا. كانت صداقتي مع ماكسيموس معروفة لدى الجميع وكثيرٍ من الجليليين كانوا يرتابون فيَّ. من ناحية أخرى، أثارت قضية إلقاء القبض عليَّ في الدير أسطورة جديدة : الكاهن-الأمير. في هذا الدور، شرحتُ للأسقف أنني أريد أن أشاهد المعابد الشهيرة التي بناها أسلافنا لتلك الآلهة (الآلهة الزائفة!) والأبطال الذين قاتلوا في هذا المكان المسكون فقط بوصفي تلميذ هومر.

رافقني بيغاسيوس أولاً إلى المعبد الصغير الذي يحتوي التمثال البرونزي الشهير لهكتور، ويُقال إنه صُنِعَ نقلاً عن الشخص الحقيقي. وفي الفناء المكشوف الذي يُحيطُ بالمعبد كان ينهضُ أيضاً تمثالٌ ضخمٌ لآخيل، يواجه صورة هكتور كما حدثَ في الحياة. ودُهِشتُ إذ وجدتُ المذبح في الفناء يعبقُ بدخان الأضاحي، بينما تمثال هكتور يلمعُ جرّاء مسحِهِ بالزيت حديثاً.

التفتُ إلى الأسقف. "ما معنى هذه النيران المشتعلة؟ أما يزال الناس يعبدون هكتور؟"

كان بيغاسيوس لطيفاً. " طبعاً يفعلون. فقبل كل شيء، من غير الطبيعي ألاّ نعبد رجالاتنا الشجعان بالطريقة نفسها التي نعبد الشهداء الذين أيضاً عاشوا هنا "

قلتُ بتحفّظ " لستُ واثقاً أنَّ الأمر هو نفسه "

" على الأقل لقد نجحنا في الحفاظ على عددٍ من الأعمال الفنية الجميلة ". ثم تابعَ بيغاسيوس وأراني معابد أثينا وآخيل، وكلاهما كانا في حالة جيدة جداً. ولاحظت، أيضاً، أنه كلما مرّ بصورة إله قديم، لم يكن يهمس ويرسم إشارة الصليب كما يفعل الجليليون، مخافة التلوُّث.

لقد أثبتَ بيغاسيوس أنه دليلٌ رائع إلى طروادة. وقد تأثَّرتُ خاصةً حين أراني ناووس آخيل. " ههنا يرقد، آخيل الشرس "، وربَتَ على الرخام العتيق. " بطلٌ وعملاق – في الواقع، هو عملاق فعلاً. فقبل بضع سنوات فتحنا الجَدَث فوجدنا عظامَ رجلٍ بطولِ سبعة أقدام، وفي مكان كاحله وجدنا رأسَ سهم ".

كان الاقتراب كثيراً من الماضي الأَسطوري أمراً مريعاً. ولاحظَ بيغاسيوس أني تأثَّرت. فعلى الرغم من كل الجهود التي أبذلها لكي أبدو عكسَ ذلك، إلا أني شفّاف كالماء. قال بنعومة " كم كانت أياماً عظيمة ".

قلتُ بغموض " سوف تعود من جديد "

قال الأسقف عن إليوس " أصلي كي تكون على حق ". واليوم بيغاسيوس هذا نفسه هو الكاهن الأكبر في كابادوسيا. ولم يكن مرةً جليلياً مع أنه تظاهر بأنه كذلك، مُعتقداً أنه بارتقائه إلى مركزٍ مرموق وسط تلك الطائفة المنحرفة فسوفَ يتمكّن من المحافظة على معابد أسلافنا. والآن هو يرتع في أحضان الحرية.

بريسكوس: أما الآن فهو يتمتَّع بالحياة في البلاط الفارسي، حيث، وفقاً للإشاعات، تحوَّلَ إلى عبادة الشمس الفارسية. لقد انضمَّ جوليان إلى أغرب مجموعة من الناس.

جوليان أوغسطوس.

في بداية شهر شباط وصلنا إلى كومو، وهي بلدةٌ تقع على ضفاف بحيرة تقع على بُعد ثلاثين ميلاً إلى الشمال من ميلانو. هنا بقيتُ سجيناً ستة أشهر. لم يُسمح لي

بمقابلة أحد ما عدا الخدم الذين رافقوني. ولم تصلني أي رسائل من أوريباسيوس أو ماكسيموس. وكان يمكن أيضاً أن أموت. وواسيتُ نفسي بقراءة الأعمال الكاملة لبليني الابن[٦١]، الذي كان قد عاش في كومو. وأذكُرُ الاشمئزاز الذي انتابني وأنا أقرأ وصفَه الشهير لل " العزيزة كومو ". لقد كرهتُ المكان، بما فيه البحيرة الزرقاء المائلة إلى الاخضرار.

أثناء تلك الفترة لم أكن أعرف ما يحدث في العالم الخارجي، ولعلّ هذا أفضل؛ ذلك أني كنتُ موضوع جِدالٍ شرس في المجمع المقدَّس. ووفقاً ليوسيبيوس : " إنه نسخة طبق الأصل عن غالوس. يجب أن يُعدَم ". وكانت الغالبية العظمى من أعضاء المَجمَع تتفِّقُ مع الحاجب. والمدهش، أنَّ المعارضة قادتها الإمبراطورة يوسيبيا. وعلى الرغم من أنها لم تكن عضواً في المَجمَع، لكنها استطاعت أن تنشر وجهات نظرها. " إنَّ جوليان لم يرتكب أي جريمة. وولاؤه لم يكن مرةً موضع شكٍ حقيقي. إنه آخر عضوٍ ذكَر في العائلة الإمبراطورية. ومن الآن وإلى أن نأتي بإمبراطورٍ له ابن، جوليان هو وريث الإمارة . ولكن إذا تم إعدام جوليان وإذا حدثَ بالتالي أن مات الإمبراطور – لا سمح الله – دون أن ينجب ذرّية، فإنَّ سلالة قسطنطين ستندثر وستشيع الفوضى الشاملة في الإمبراطورية "

وأخيراً صارت الغَلَبَة ليوسيبيا . ولكن استغرقَ منها ذلك ستة أشهر من النقاش، لم ينطق قسطنتيوس خلالها بأي كلمة. اكتفى بالإنصات والتفكير والانتظار.

في بداية شهر حزيران وصل حاجبٌ من البلاط إلى كومو. " سيكون الأنبل جوليان في خدمة الإمبراطورة يوسيبيا ". وذُهلت : أقال الإمبراطورة، وليس الإمبراطور؟ حاولتُ أن أستنطق الحاجب لكنه لم يقُل أكثر من أنه سيُسمح لي بمرافقة خاصة؛ كلا، لا يستطيع أن يُخبرني إنْ كانت الإمبراطورة ستقابلني؛ كلا، بل إنه ليس متأكداً مما إذا كانت الإمبراطورة موجودة في ميلانو أم لا؛ لقد استمتع بتصرّفه بشكلٍ غير رسمي.

دخلنا ميلانو من باب أحد أبراج المراقبة. وبسرّيةٍ تامة، هرعت من خلال شوارع خلفية ضيقة إلى أحد المداخل الجانبية للقيصر. وحالما أصبحت داخل القصر استقبلني حجّابٌ قادوني مباشرةً إلى مقصورة الإمبراطورة.

كانت يوسيبيا أشد وسامة مما بدت من خلال صورها. العينان والفم بدت غاية في

الصرامة وهي محفورةٌ في الرخام، لكنها لم تكن في الحياة شديدة الصرامة، كانت تعبر عن حزنٍ ليس إلاّ. وكان الرداء الأحمر اللون بلون اللهب يبرزُ وجهها الشاحب وشعرها الأسود. لم تكن تكبرني بكثير.

غمغمت بلهجة رسمية " يسرّنا أن نستقبل ابن عمّنا، أيها الأنبل جوليان ". وأومأتْ إلى إحدى وصيفاتها، فتقدَّمَت حاملةً مقعداً بلا ظهر قابلاً للطي ووضعَته إلى جانب كرسي الإمبراطورة الفضيّ.

" نأمل أن يكونَ ابن عمّنا قد استمتعَ بمقامه عند بحيرة كومو "

" البحيرة جميلة جداً، أيتها الأوغوسطا "، واستجابةً لإشارةٍ منها جلستُ على المقعد.

" نعم ". الإمبراطور وأنا نستمتع بالبحيرة "

بقينا نتناقش حول تلك البحيرة البائسة طوال فترة حبتها الأبدية. وخلال ذلك الوقت كانت تدرسني بعناية. ويجب أنْ أعترف بأني كنتُ أدرسها. كانت يوسيبيا هي زوجة قسطنتيوس الثانية. زوجته الأولى كانت غالا، أخت غالوس غير الشقيقة. وكانت غالا تشترك بأمٍ واحدة مع غالوس، وهذا الأخير كان يشترك معي في أبٍ واحد، لكني لم أعرفها أبداً، وأعتقد أنَّ غالوس لم يقابل أخته أكثر من مرةٍ أو مرَّتين. وعندما توفيت غالا، أسرع قسطنتيوس بالزواج من يوسيبيا. وقد قيلَ إنه كان دائماً على علاقة حب معها. وهي تنحدر من عائلة قنصل راقية جداً. وكانت شخصية محبوبة في البلاط، وفي أكثر من مناسبة عملَت على إنقاذ رجال أبرياء من خصيان قسطنتيوس.

" قيلَ لنا إنكَ تخطِّط لتصبح كاهناً "

" كنتُ في أحد الأديرة، حين... أُمِرتُ بالذهاب إلى ميلانو ". وبدأتُ أتلعثم كما يحدثُ معي غالباً حين تتوتَّرُ أعصابي. كان حرف " م " يُسبِّب لي اضطراباً خاصاً .

" ولكن أحقاً تريد أن تصبح كاهناً؟ "

" لا أدري. أعتقد أني أفضِّل الفلسفة. أودُّ أنْ أعيشَ في أثينا "

" أليس لديك أيّ اهتمام بالسياسة؟ ". ابتسمت وهي تقولُ هذا، لأنها تعرف بماذا سأجيبها بالضرورة.

" كلا! ولا أي اهتمام، يا أوغسطا "

" ولكن على عاتقكَ مسؤوليات معيَّنة تجاه الأمة. أنت من سلالة إمبراطورية "

" الأوغسطوس ليس بحاجةٍ إلى مساعدتي "

" هذا ليس بالضبط الحقيقة ". صفَّقَت بيديها فانسحبَت الوصيفتان، وأغلقتا الباب المصنوع من خشب الأرز بهدوء من خلفهما.

قالت " في القصور ليست هناك أسرار، ولا يكون المرء وحده أبداً "

" ألسنا وحدنا ألان؟ "

صفَّقَت يوسيبيا بيديها مرةً أخرى. ظهرَ خصيَان من خلف الأعمدة المتقابلة في آخر الغرفة. فلوَّحَتْ بيدها لينصرفا.

" إنهما يسمعان لكنهما لا يتكلّمان. إنه إجراء احترازي. ولكن هناك آخرين يُصغون لا أحد يعلم عنهم أي شيء "

" تعنين العملاء السريّين؟ "

أومأتْ برأسها إيجاباً. " إنَّ كل ما يقوله أحدنا للآخر في هذه الغرفة يسمعونه "

" ولكن أين...؟ "

ابتسمَتْ أمامَ حيرتي. " مَنْ يدري أين؟ لكننا نعرف أنهم موجودون دائماً "

" أيتجسّسون حتى عليكِ؟ "

" بل خاصةً على الإمبراطورة ". كانت هادئة. " الأمر هكذا دائماً داخل القصور. لذا تذكَّر أنْ تتكلّم... بحذَر "

" أو ألاّ أتكلّم على الإطلاق! "

ضحكت. وجدت نفسي مرتاحاً قليلاً. كدتُ أضعُ ثقتي فيها. كانت جادّة." لقد منحني الإمبراطور الإذن بالتحدُّث معك. كان متردِّداً. لا حاجة بي إلى أنْ أقولَ لكَ إنه منذ قضية غالوس، أصبح يشعر أنه مُحاطٌ بالخوَنَة. لم يعُد يثقُ بأحد "

" ولكن أنا... "

" أنت أقل شخص يثقُ فيه ". كان قولاً فظاً. لكنني شعرتُ بالامتنان لصراحتها. " لقد تولّى تنشئة أخيك على مضضٍ منه. وفي غضون بضعة أشهر كان غالوس مع قسطنتيا يتآمران لانتزاع العرش منه "

" أأنتِ متأكدة تماماً؟ "

" لدينا البرهان "

" لقد سمعتُ أنَّ العملاء السرّيين غالباً ما يختلقون " دليلاً " ؟ "

هزَّت كتفيها استخفافاً. " في هذه الحالة لم يكن ذلك ضرورياً. قسطنتيا لم تكن كتوماً. أنا لم أثق فيها أبداً. ولكننا انتهينا من هذا الأمر. أنتَ الآن تُعتَبَر تهديداً كامناً "

قلت بمرارة فاقت ما كنت أنويه " لقد تمَّ حلُ الأمر بسهولة. بعد إذنك "

" هناك أشخاص ينصحون بذلك ". كانت تخوض في صُلب الموضوع مثلي. "لكنني لستُ منهم. كما تعلم، وكما يعلم العالم بأسره، إنَّ قسطنتيوس عاقر ". واستقرَّ على وجهها تعبيرٌ جامد. " لقد أكَّدَ لي كاهن الاعتراف أنَّ هذا قضاء السماء حلَّ على زوجي لأنه كان سبب موت أعضاء كُثُر من أفراد عائلته ". ثم أضافتْ بدافع الولاء " وهذا لا يعني أنه لم يكن لديه مبرِّر. ولكن سواء أكان مُبرراً أم لا، فاللعنة تقع على الذين يقتلون أفراد سلالتهم. وهذه اللعنة نزلَتْ على قسطنتيوس. إنَّه بلا وريث وأنا واثقة من أنه لن يحصل أبداً على الحب، إذا ما نفَّذَ إعدامك "

أخيراً توضَّحَ الأمر. كان إحساسي بالارتياح عظيماً، وتجلَّى واضحاً على قَسَمات وجهي.

" نعم، أنت آمن. في الوقت الحاضر. ولكن تبقى هناك مشكلة : ماذا سنفعل بشأنك. كنا نأمل أن تتلقَّى أوامر مقدَّسة "

" سأفعل، إذا لزمَ الأمر ". نعم، قلتُ هذا. إنني أعطي سرداً صادقاً قدر استطاعتي لقصة حياتي. وفي تلك اللحظة، كنتُ مستعداً لعبادة أذُني بغل لأنقذ حياتي.

لكنَّ يوسيبيا لم تكن ملحاحاً. " إنَّ حبك للتعلُّم أيضاً يبدو حقيقياً ". ابتسمت. "آه، نحن نعلم مَنْ تقابل، وما هي الكتب التي تقرأها. لا شيء يفلت من انتباه مكتب الحاجب "

" إذن فهم يعلمون أنَّ رغبتي هي في أن أصبح فيلسوفاً "

" نعم. وأعتقد أنَّ الإمبراطور سوف يحقِّق لك رغبتك "

" سوف أكون ممتناً إلى الأبد، ومخلصاً. لن يكون لديه أي مُبرِّر للخوف مني، أبداً... "، ورحتُ أثرثر بحماس.

راقبتني يوسيبيا، بسرور. وحين انقطعَتْ أنفاسي، قالتْ " لقد ألقى غالوس عليه خطاباً مشابهاً "

بهذه النبرة الواهنة نهضَتْ واقفة، وأنهتْ المقابلة بقولها " سوف أحاول أن أعدَّ مقابلةً لك مع الإمبراطور. لن يكون الأمرُ سهلاً. إنه خجول ". في ذلك الوقت وجدت هذا أمراً لا يُصدَّق، ولكنَّ طبعاً كانت يوسيبيا على حق. كان قسطنتيوس يخشى كل اللقاءات الإنسانية. وأحد أسباب وَلَعِه بالخصيان أنهم، عموماً، ليسوا بالضبط من البشر.

بعد ذلك بيومين، زارني الحاجب الأكبر نفسه. كدتُ لا أصدِّق أنَّ هذا المخلوق الساحر بصوته المُداعِب والابتسامة ذات الغمّازة كان ينصح أعضاء المَجمَع يومياً بإعدامي. لقد ملأ تماماً جوَّ الشقةِ الصغيرة التي كنتُ مُحتَجَزاً فيها.

" آه، كمْ كبرتَ، أيها الأنبل جوليان! بكل معاني الكلمة ". لمسَ يوسيبيوس وجهي برقّة. " ولحيتكَ أصبحتْ الآن جديرة بفيلسوف. كم كان ماركوس أوريليوس سيحسدك!". استقرَّ إصبعُه الثخين برهةً، خفيفاً كفراشة، على ذؤابة لحيتي. ثم وقفَ أمامي وجهاً لوجه، وكلٌّ منا يُشرقُ مبتسماً في وجه الآخر؛ أنا من شدّة توتّر أعصابي، وهو بدافع السياسة.

" لا حاجة بي إلى أنْ أعبِّرَ لكَ عن مدى سروري لرؤيتكَ في البلاط. إننا جميعاً مسرورون. إنكَ تنتمي إلى هذا المكان، بالقُرب من أقربائك ". وغاص قلبي بين أضلعي: أهذا هو مصيري؟ حياة في البلاط حيث في استطاعة الخصيان أن يُراقبوني؟ كنتُ أفضِّل ميتةً سريعة. " والآن أقترحُ أنكَ بعد أن تقابل الأوغسطوس المقدَّس تناشده أن يسمح لكَ بالبقاء قريباً منه. إنه بحاجةٍ إليك "

تمسَّكتُ بالحقيقة الوحيدة. " أيقابلني الإمبراطور؟ "

أومأ يوسيبيوس إيجاباً بابتهاج، وكأنه صاحب المسؤولية الكاملة عن حُسن حظي المُذهل. " طبعاً. ألم تكن تعلم؟ لقد أصدرَ القرار في صباح هذا اليوم في المجمع. وقد سُررنا جميعاً جداً. لأننا نريدُ أن تبقى هنا. ولطالما قلتُ إنه يجب أن يكونَ لك مكانٌ إلى جانب الأوغسطس؛ مكانٌ مرموق "

غمغمتُ " أخجلتَ تواضعي "

" إنني لا أقولُ إلا الحقيقة. إنكَ قبل كل شيء زينة آل قسطنطين، وأي مكان أفضل يحتضن جوهرةً نقيّة من تاج البلاط؟ "

ابتلعتُ هذا برصانة وأجبتُ برياءٍ مشابه. " لن أنسى ما حييت ما فعَلتَه من أجلي ومن أجل أخي "

طفرَتْ الدموع من عينيّ يوسيبيوس. وارتعشَ صوته. " إنَّ أمنيتي هي أنْ أخدمك. هذا كل ما أطلبه ". مال إلى الأمام - مع بعض الجهد - وقبَّلَ يدي. إنَّ خِطاب الحقد غالباً ما يكون أشد تأثيراً حين يُطرَّز بلغة الحب. وافترقنا، على وَقع الإعجاب المشترَك.

بعد ذلك تمَّ تعليمي أصول السلوك في البلاط على يد أحد الخصيان المختصّين، وكانت في تعقيدها تشبه أسرار طقوس ميثرا. هناك مجموعة من الإجابات المُعدَّة على مجموعة مُعَدّة من أسئلة الإمبراطور وأوامره؛ والانحناءات والركوع؛ وخطوات نحو اليسار وخطوات إلى اليمين؛ وإيماءات بديلة فيما لو طُلِبَ مني أنْ أتقدَّم من العرش أو فقط أن ألزَم مكاني. كان الخصي يحب عمله. " إنَّ مراسمنا تُعتَبَر من عجائب الدنيا! وأشدّ إلهاماً، في بعض جوانبها، من الجماهير الغفيرة. ووافقته في ذلك.

نشرَ الخصي أمامي على الطاولة رسماً بيانياً. " هذه هي القاعة الكبرى حيث سيستقبلك "، وأشار. " هنا يجلس قسطنتيوس المقدَّس. من هنا ستدخل ". كانت كل خطوة نقوم بها مُخَطَّطاً لها مُقدَّماً كرقصة. وحين تعلّمتُ أخيراً درسي، طوى الخصي خريطته وتعبيرٌ الاستبشار على وجهه. " لقد طوَّرنا كثيراً وصَقَلنا مراسم البلاط منذ أيام ديوكليتان المقدَّس. وأنا واثق من أنه لم يحلم قط بأنَّ ورثَته سيكونون قادرين على الخروج بمثل هذا الأسلوب الرائع والرمزية العميقة، ذلك أننا الآن قادرون على أنْ نعكس بشكلٍ جميل طبيعة الكون من خلال بندٍ واحد من المراسم يكاد لا يستغرق أكثر من ثلاث ساعات! "

كان اختصار مراسم البلاط واستبعاد الخصيان هو أحد الفصول الأولى لفترة حكمي. لقد كان حتماً شيئاً مُرضياً إلى أقصى درجة.

بعيد غروب الشمس، صحبني رئيس المراتب ومرافقوه العديدون إلى قاعة العرش. أعطاني رئيس المراتب تعليمات الدقيقة الأخيرة حول كيفية التصرُّف في الحضرة

المقدَّسة. لكني لم أصغِ. كنت مستغرقاً في إعداد الخطاب الذي نويتُ أن ألقيه أمام قسطنتيوس. كان تحفةً فنية من البلاغة. فقبل كل شيء، كنت أُعدّه منذ عشر سنوات. ونويت، حين أصبح وجهاً لوجه مع قسطنتيوس، أن أجعل منه صديقاً لي.

أدخلني رئيس المراتب إلى البازيليكا[٦٢] الضخمة التي كانت ذات يوم قاعة عرش ديوكليتان. الأعمدة الكورينثية التي تُحدّها وتعلو بمقدار ضعف العلو المعتاد عن الأرض كانت من الرخام الأخضر والسُمّاقي. وكان الأثر رائعاً جداً، خاصةً تحت الأضواء المصطنعة. في الجزء الناتئ نصف الدائري في الطَرَف البعيد من البازيليكا كان يقوم عرش ديوكليتان، وهو كرسي دقيق الصُنع من العاج مُزَخرَف بنقوش. ولستُ بحاجة إلى القول إني أتذكّر كل ما كانت تلك القاعة تحتويه والتي تقرَّرَ فيها مصيري. كانت المشاعل تطلق اللهب بين الأعمدة، في حين في الجهة الأخرى من العرش البرونزي كانت مصابيح تلقي ضوءها على شاغله. وإذا استبعدتُ لقائي في عهد الطفولة مع قسطنتيوس، فقد كانت تلك المرة الأولى التي أشاهدُ فيها إمبراطوراً بكامل بهائه. لم أكن مستعداً لفخامة المشهد.

كان قسطنتيوس جالساً باستقامةٍ شديدة وسكون، وقد استقرَّ ساعداه على رُكبتيه تقليداً لملوك مصر. كان يتقلَّدُ مجموعةً من الحلي الذهبية الثقيلة مرصّعة بأحجار كريمة ضخمة مربَّعة الشكل. على أحد جانبيه وقف يوسيبيوس، وعلى الجانب الآخر وقف الحاكم الإمبراطوري، في حين اصطفَّ موظفو البلاط حول القاعة.

تمَّ تقديمي إلى الإمبراطور بالطريقة الرسمية. وقدَّمتُ له ولائي. لم أتلعثم إلا مرة واحدة أثناء أداء الطقوس : وحين فعلتُ، أسرع رئيس المراتب فهمس في أذني بالصيغة الصحيحة.

إذا كنتُ قد أثرت فضول قسطنتيوس، فهو لم يُفشه. كان وجهه البرونزي خالياً من أي تعبير حين تكلَّمَ. " يسرّنا أنْ نستقبل ابنَ عمّنا الأنبَل ". ولكن لم يكن يبدو في صوته العالي النبرة أي أثر لسرور. وفجأة شعرتُ باحمرار وجهي. " لقد منحناه إذننا بالذهاب إلى أثينا لكي يتابعَ دروسه ". ألقيتُ نظرةً على يوسيبيوس. وعلى الرغم من أنَّ نصيحته المقيتة لم تكن قد انتشرت، إلا أنه أومأ لي بإيماءة صغيرة وكأنه يقول "لقد فزنا! "

" أيضاً... ". لكنَّ قسطنتيوس توقفَ عن الكلام. ليست هناك أي طريقة أخرى لوصف الأمر. لقد توقف وحسب. لم تعد لديه أي كلمات يقولها لي. حدَّقتُ إليه، متسائلاً إنْ كان قد جُنَّ. حتى رئيس المراتب بوغتَ. الجميع كانوا يتوقّعون خطاباً كاملاً من قسطنتيوس بالإضافة إلى جوابٍ مني. لكنَّ المقابلة كانت قد انتهتْ. مدَّ قسطنتيوس يده لي لكي أقبِّلها. ففعلت. ثم وبمساعدة رئيس المراتب، مشيتُ إلى الخلف نحو المدخل، وأنا أنحني على فتراتٍ منتظمة. وحين هممتُ بمغادرة المكان، إذا بخفاشَّيْنِ ينسابان فجأة وهما يطلقان صريراً حاداً خارجان من السقف الظليل ويندفعان بسرعة باتجاه قسطنتيوس مباشرةً . لم يأتِ بأي حركة، على الرغم من أنَّ أحدهما كادَ يلمس وجهه. وكعهده دائماً، كان رائعاً. إنني لم أعرف دهري رجلاً بعمقِه وبرودته.

عدتُ إلى شقتي لأجدَ رسالةً من مكتب الحاجب الأكبر في انتظاري. كان عليَّ أنْ انتقل من فوري إلى ميناء أكويليا. كانت حاجياتي قد أُعِدَّتْ، وخَدَمي في حالة استعداد. وكان مرافقٌ عسكري يقف في انتظاري.

في غضون ساعة من الزمن كنت خارج أسوار ميلانو. وبينما كنتُ اشقُ طريقي خلال الليل الدافئ، صلَّيتُ لهليوس لكي لا أرى بلاط الإمبراطور بعد ذلك.

-٧-

وصلتُ إبلا بيريوس، ميناء أثينا، بُعيد شروق شمس اليوم الخامس من آب من عام ٣٥٥ . وأنا أذكر كل يوم من أربعةٍ وأربعين يوماً أمضيتها في أثينا. كانت أسعد أيام حياتي، حتى ذلك الحين.

كان صباحاً شديد الرياح. في الشرق، كان الضوء يمزق الظلام، والنجوم تخبو، والبحر عاصفاً؛ وكأنه أول صباح في العالم. صرَّتْ السفينة وارتعشت حين ارتطمت بدعائم المرسى. كنت شبه متوقعٍ أنْ أرى مفرزةً من الجنود في انتظاري على الشاطئ، استعداداً لإلقاء القبض عليّ بتهمةٍ ما جديدة. ولكني لم أرَ أي مفرزة في الأفق، لم أرَ غير سفنٍ تجارية أجنبية بالإضافة إلى ضجيج الميناء المعتاد. كان العبيد يُفرِغون الحمولات، وموظفو الميناء ينتقلون بكل رصانة من سفينةٍ إلى أخرى ، ورجال مع عربات يجرها حمير يهتفون للذين وصلوا للتو؛ يَعِدونهم بإيصالهم إلى أثينا بأسرع من ذلك الشاب الذي قطع المسافة ركضاً من ماراثون إلى المدينة في غضون أربع ساعات (ومن ثم خرَّ صريعاً، هكذا يودُّ المرء لو يُجيب، غير أنَّ روح السخرية مفقودة عند السائقين، حتى السائقين اليونانيين الذين يعرفون صاحبهم هومر).

كان طلاب حُفاة بملابس رثّة ينتقلون بجماعات من سفينةٍ إلى أخرى، يعملون للتعرف على قادمين جُدُد من أجل حضور المحاضرات. كل طالب كان يجمعُ زبائن لأستاذه. وكان هناك كثير من الضغينة بما أنَّ كلاً من أولئك الشبان كان يتجول في محاولةٍ لإقناع طلاب مُدَّعين (يُعرَفون بلقَب " الثعالب ") بأنه ليس هناك إلاّ أستاذ واحد في أثينا يستحق الإصغاء إليه : أستاذه هو. وغالباً ما كان ينشب القتال بين الزُمَر. حتى وأنا أراقبُ، كان هناك طالبان يتنازعان بالأيدي شخصاً غريباً؛ كلٌ منهما يمسك به من ذراع، وبينما كان أحدهما يُصرُّ على أنه حضرَ محاضرات السوفسطائي

فلان، كان يصرخ الآخر أنَّ ذلك السوفسطائي أحمق وأنَّ حكمةَ أستاذه هو، وهو كلبيّ، وحدها تستحقُ أنْ يُبدِّدَ الطالب وقته عليها. وبينهما يكاد الرجل المسكين يتقطَّعُ إرباً. ولا يدعانه وشأنه إلا بعد أن بيَّنَ لهما بوضوح بلغة يونانية ركيكة أنه تاجر قطن مصري ولا يهتمُ مطلقاً بالفلسفة. ولحسن الحظ لم يصلا حتى سفينتي؛ لذا أفلتُّ من انتباههما.

حين يسافرُ أحد أعضاء الأسرة الإمبراطورية في البحر، عادةً ما يُنشَر علمُ عائلتنا الذي يحمل صورة تنين فوق السارية. ولكن بما أني كنت عملياً " سجين العائلة " فلم يكن هناك من سبيل ليتعرَّف الناس عليّ، وكان ذلك لصالحي. لقد أردتُ أنْ أكونَ حراً في أثينا، لكي أتجول دون أن يلاحظني أحد في أي مكان. ولكن لسوء الحظ خُصِّصَت لأجلي حفنةٌ من الجنود كحراسٍ شخصيين دائمين لي (في الواقع، كانوا سجّانيَّ) وكان ضابطهم الآمر مسؤولاً عن سلامتي. وشعرتُ ببعض الالتزام نحوه، ولكن ليس كثيراً.

ثم اتَّخذتُ قراراً جريئاً. فبينما كان الخدم منهمكين بالأمتعة وحُرّاسي كلهم يحضرون اجتماعاً مملاً في المنطقة الأمامية من ظهر السفينة مع موظفي الميناء، كتبتُ رسالة قصيرة إلى رئيس سجّانيَّ، أخبره فيها أني سألتقي به في آخر النهار في منزل الحاكم. تركتُ الرسالة على أحد حقائبنا. ثم، بعد أنِ ارتديت زيَّ طالبٍ لأكون في أمان، قفزتُ عبر جانب السفينة ونزلتُ خلسةً إلى رصيف التحميل.

سرعان ما تعوَّدتُ على ثبات الأرض. وأنا لستُ بحاراً سيئاً ولكنَّ رتابة الرحلة البحرية الطويلة والتخبُّط المستمر للسفينة صعوداً وهبوطاً في البحر تتعبني. إنني أنتمي إلى البر، وليس إلى البحر؛ إلى الهواء، وليس إلى النار. وبعد كثير من المماحكة استأجرتُ عربةً وسائقاً (نجحتُ في تخفيض السعر الذي حدَّده السائق إلى النصف : جيد ولكن ليس رائعاً). ثم ولجتُ العربة. وانطلقنا على الدرب المُخدَّد وأنا شبه واقف وشبه جالس على حافة العربة باتجاه أثينا.

ارتفعَتْ الشمس في سماء صافية. إنَّ الصفاء الأتيكي[٦٢] ليس مجرد مجاز، إنه حقيقة. زُرقَة السماء كانت مؤلمة. كانتِ الرؤية ممكنةً حتى أبعد حافة من العالم إذا لم يحجُب جبل هايميتوس، المنخفض والبنفسجي اللون تحت خيوط الفجر المُبكِّرة، الرؤية. ومع مرور كل لحظة تشتد الحرارة، لكنها حرارة صحراوية جافة، كانتْ تُلطِّفها نسائم البحر الرقيقة.

ردَّة فعلي الأولى كانت ابتهاجاً بكوني مجهول الهوية. لا أحد يُحدِّقُ إليّ. لا أحد يعرف مَنْ أنا. بدوتُ تلميذاً نموذجياً بلحيتي وبردائي البسيط. كان هناك كثيرون مثلي. بعضهم يركبون العربات، وأغلبهم يسير على الأقدام؛ وكلهم يتحركون باتجاه الهدف نفسه : أثينا ومعرفة الحقيقة.

كانت العربات على كلا جانبَيّ تقرقع وتصرّ، والسائقون يسبّون، ومحتوياتها، من بشر وحيوان، يتذمّرون. إنَّ الإنسان الإغريقي الأثيني مخلوقٌ حيويّ، ولكن عبثاً يُفتِّشُ المرء بين الوجوه عن شبيه لبركليس[٦٤] أو ألسيبيادس[٦٥]. كسلالةٍ، كانوا قد تغيّروا كثيراً. لم يعودوا نبلاء. لقد استُعبِدوا زمناً طويلاً، وامتزجَ دمهم مع دماء البرابرة. ومع ذلك لا أجدهم خبثاء ومخنثين كما يتظاهر بعض الكُتّاب اللاتينيين. إنني أعتقد أنَّ ميل الرومان القُدامى إلى احتقار اليونانيين ليس أكثر من امتعاضٍ فطريّ من تفوُّق اليونان المستمر في الأمور الهامة : كالفلسفة والفن. إنَّ كل ما له أهمية في روما اليوم هو يوناني في الأصل. إنني أجدُ شيشرون مُخادِعاً حين يعترفُ في إحدى صفحاته بدَيْنه لأفلاطون ومن ثم في الصفحة التالية يتكلّم بامتعاضٍ عن الشخصية الإغريقية. إنه يبدو غير واعٍ لما يورده من تناقضات... والسبب ولا ريب هو أنهم كانوا سوقيين في مجتمعه. والرومان يدَّعون أنهم أبناء طروادة، ولكن لا أحد يأخذ هذا الكلام أبداً على محمل الجَد. وأنا بين حينٍ وآخر أقول بعض الكلام عن الشخصية الرومانية، وليس كثيرٌ منه يقعُ في خانة المديح (كتابي الصغير عن القياصرة، وإنْ كنتُ قد كتبتُهُ في عُجالة، فإنَّ له بعضَ الأهمية، في اعتقادي). ولكن على المرء أنْ يتذكَّر أنني حتى وأنا أُملي هذه الأسطر بوصفي إمبراطوراً رومانياً، إغريقيٌّ في الواقع. وقد ذهبتُ إلى أثينا، قُرَّة عين بلاد اليونان.

أثينا. لقد مرَّت ثماني سنوات منذ أنْ ولجتُ بوابة المدينة على متن عربة للبيع، كطالبٍ مجهول الهوية يفغرُ فاه أمام ما يرى من مشاهد كأي جرماني يأتي إلى المدينة. ولدى مشاهدتي للأكروبوليس للمرة الأولى وجدته مذهلاً ورائعاً. إنه يحومُ فوق المدينة وكأنَّ يدَ زيوس تحمله، وكأنه يقول : " انظروا، يا أبنائي، كيفَ تبقى آلهتكم حيّة! ". كانت أشعة الشمس تومضُ منعكسةً على الترس المعدني لتمثال الإلاهة أثينا العملاق، الذي يحرسُ مدينتها. وبعيداً جهة اليسار شاهدتُ جبل لايكابيتوس الهَرَميّ الشاهق،

وهو هَرَمٌ عظيم من الصخر قذَفَت به أثينا ذاتها إلى الأرض؛ ولاتزال الذئابُ حتى يومنا هذا تسكُنُ عند قَدَمَيه.

انعَطَفَ السائقُ بسرعة إلى دربٍ جديد. وكدتُ أسقطُ من العربة. أعلنَ بصوتٍ روتينيّ عالٍ لشخصٍ تعوَّدَ أنْ يتحدَّث مع الأجانب : " طريق الأكاديمية ". لفتَ ذلك انتباهي. فالطريق المؤدية من أثينا إلى بستان الأكاديميّة تصطفُ على طول جانبيها أشجارٌ عتيقة، تبدأ من بوابة المدينة المُسمّاة ديبيلون - التي كنا نقفُ أمامها مباشرةً - وتقطع الضواحي لتصل إلى أكاديمية أرسطو الوارفة الخضرة.

كانت بوابة ديبيلون تضجُ بالحركة عند الصباح الباكر كما يحدث عند بوابة أي مدينة كبرى أخرى عند الظهيرة . إنها بوابة مُضاعَفة، كما يُستَدَلُ من اسمها، مُزوَّدة ببرجَين سامقَين يبرزان نحو الخارج. أمامها يقفُ حراسٌ بتكاسُل، لا يولون انتباهاً للعربات والمشاة الداخلين والخارجين. ولدى مرورنا من البوابة الخارجية، إذا بعربتنا تُحاطُ فجأةً بجمعٍ من العاهرات. فقد اندفعَ ما يُقاربُ عشرين أو ثلاثين امرأةً أو فتاة من أعمارٍ مختلفة خارجات من ظلال السور. أخذنَ يتشاجرنَ للاقتراب من العربة، وهنَّ يشددن ردائي، ويناديني " أيها الفحل "، " يا بان[٦٦] "، " أيها الساطير[٦٧] "، وبعبارات أخرى أقلّ تحبّباً. وبمهارة بهلوان قفزَتْ طفلةٌ جميلةٌ تبلغ الرابعة عشرة عبر حافة عربتي وأمسكتني بحزمٍ من لحيتي. وضحكَ الجنود من انزعاجي. وببذلِ بعضِ الجهد حرَّرتُ لحيتي من بين أصابعها، ولكن ليس قبل أن تمد يدها الأخرى إلى مُلتقى ساقَيّ، مما كان مصدر ابتهاج لمَنْ يراقبوننا. لكنَّ السائق كان خبيراً في التعامل مع تلك الفتيات. وبفرقعةٍ دقيقة من سوطه، لَسَعها على يدها. فابتعدَتْ مع صرخة. وقفزَتْ إلى الأرض. رمتنا باقي النسوة بنظرة ساخرة. وكان سبابهنَّ حيوياً ورائعاً، بل هومرياً! ثم لدى مرورنا من البوابة الثانية استدرنَ مبتعدات، ذلكَ أنَّ مجموعةً من الفرسان كانت قد ظهرَتْ عند البوابة الخارجية. فأحطنَ بالجنودِ كحشودٍ من النحل في الحديقة.

عدَّلتُ من شأن ثوبي. كان الشدّ العنيف الذي ناله على يد الفتاة قد تركَ أثره عليّ، ورغماً عني أخذتُ أفكِّرُ في ممارسة الجنس؛ وتساءلتُ أين يمكنني أن أجد أفضل الفتيات في أثينا. ولم أكن حينئذٍ، كما أنا الآن، عزباً. ولكن حتى في تلك الأيام كنت أؤمنُ بأنَّ من الفضيلة إماتة الجَسَد، إذ صحيحٌ أنَّ كبح الشهوات يعزِّزُ صفاء العقل،

ولكنني كنتُ أيضاً في الثانية والعشرين من العمر والجسدُ يلحُ بمطالبه عليّ بطريقةٍ يعجزُ العقل عن ضبطها. إنَّ الشبابَ هو عصرُ الجَسَد. لم يكن يمرُ يومٌ خلال تلك السنوات دون أن ينتابني خلاله الشبَق. لم يكن يمرُ أسبوعٌ دون أنْ أُهدِّئ من غلواء ذلك الشبَق. لكنني لم أتَّفِق مع أولئك الديونيزيين الذين يؤكّدون أنَّ ممارسة الجنس تُقرِّب البشر من الإله الواحد. إذ إنْ كان لها أي أثر فإنها تُبعِد الإنسان عن الله، ذلك أنه بممارستها يصبحُ أعمى ومُجرّداً من الفِكر، ليس أكثر من حيوانٍ منهمكٍ في مراسم الخلق. ولكن في كل مرحلة من حياة المرء هناك أشياءُ معيَّنةٌ مناسبةٌ لها، وقبل ثماني سنوات، ولفترةِ بضعة أسابيع، كنتُ شاباً غضاً، وعرِفتُ عديداً من الفتيات. وحتى الآن في هذا الليل الآسيويّ الحار، أتذكّرُ بانزعاجٍ ذلك الزمن الرائع، وأفكِّرُ في ممارسة الجنس. أرى أن سكرتيري يحمرُّ خجلاً. ومع ذلك فهو يوناني!

أشارَ السائق إلى أطلالٍ ضخمةٍ جهة اليمين. قال " هادريان، هادريان أوغسطوس". وككل المسافرين، تعوَّدتُ أنْ أسمع المرشدين يُشيرون إلى سَلَفي الشهير. وحتى بعد مرورِ قَرنين من الزمن يبقى هو الإمبراطور الوحيد الذي سمعَ به كل إنسان - وذلك بفضل سَفَرِه المستمر، وما قام به من حركة معمارية مستمرة وأيضاً، ويا للأسف، بسبب وَلَعِه المثير للسخرية بالفتى أنتينوس. وأعتقد أنّ الإعجاب بالفتية أمرٌ طبيعيٌ جداً، أما ما ليس طبيعياً أو لائقاً فهو عشقُ أي شخص بولَه مفرِط وغير مُشرِّف كالذي أبداه هادريان لأنتينوس. ولحُسن الحظ، قُتِلَ الفتى قبل أن يُتاح لهادريان أن يجعله وريثه. ولكن هادريان عَرَّضَ نفسه وعبقريةَ روما للسخرية بسبب ما أبداه من حزن. وقد أقامَ آلاف التماثيل وكرَّسَ عدداً لا يُحصى من المعابد للفتى الميت. بل إنه أعلنَ المأبونَ[٦٨] الجميلَ إلهاً! لقد كان ذلك الإعلان صدمةً وعمل باستمرار على إلقاء ظلّه الثقيل على شهرة هادريان. وللمرة الأولى في التاريخ، يتعرَّض إمبراطورٌ روماني للمُحاكاة الساخرة واعتباره مسخرةً. وتعالى الضحك الساخر من كل ركن في العالم. ولكن فيما عدا هذه الزلّة الوحيدة، أجدُ هادريان شخصيةً تستحق التعاطف معها. لقد كان عالي الموهبة، خاصةً في مجال الموسيقى. وكان خبيراً في الشعائر السرية، واعتادَ أن يقضي ساعات طوالاً يدرسُ النجوم أثناء الليل، بحثاً عن النُذُر والعجائب، مثلي. وكان أيضاً يُنمي لحية. وهذا أشد ما أعجبني فيه. يبدو هذا شيئاً تافهاً، أليس كذلك؟

إنني أندهش من نفسي بسبب قولي هذا. غير أنَّ الحبَّ والكراهيةَ، والاستحسانَ والاستهجانَ تعتمدُ على أشياء كثيرة تافهة. لقد كرهتُ وَلَع هادريان بأنتينوس لأنني لا أحتمل أن أرى إمبراطوراً-فيلسوفاً يتعرَّضُ لُمحاكاة رعيته الساخرة. لكني أحبُ لحيته. إننا جميعاً شديدو البساطة في أعماقنا إلى درجةِ أننا لا يفهمُ أحدنا الآخر.

حالما أصبحنا في الطرف الداخلي من السور، غادرتُ سائقي. ثم خرجت إلى الماضي، كَمَنْ كانَ نائماً وهو يقرأ في كتاب تاريخ. الآن بتُ واقفاً على تلك الطريق العتيقة - المعروفة ببساطة باسم " الطريق " - التي تمتد من البوابة إلى الساحة العامة إلى الأكروبوليس البعيد. إنني الآن في التاريخ. في الوقت الحاضر أنا جزءٌ من الماضي وأيضاً، في وقتٍ واحد، جزءٌ مما سيأتي. لقد فتح الزمن لي ذراعيه وشاهدت وأنا في حضنه الهادئ كل شيء : دائرةً بلا بداية ولا نهاية.

إلى يسار البوابة كانت هناك نافورة غسلتُ فيها الغبار عن وجهي ولحيتي. ثم تقدَّمتُ على طول " الطريق " إلى الساحة العامة. لقد قيلَ لي إنَّ روما أشدُ إدهاشاً بما لا يُقارَن من أثينا. أنا لا أعرف. فلم أزُر روما أبداً. لكنني أعرفُ أنَّ أثينا هي كما ينبغي على مدينة أنْ تبدو لكنها نادراً ما تبدو كذلك. بل إنَّ تخطيطها أفضل من تخطيط مدينة برغامون، على الأقلّ في مركزها. كانت الأروقة الُمعمَّدة تومضُ تحت أشعة الشمس الساطعة؛ والسماء ذات الزرقة الكثيفة تُبرِزُ الأسقف الآجرية الحمراء وتجعل الدهان الباهت اللون للأعمدة يبدو وكأنه يتوهَّج.

الساحة العامة الآثينيّة هي منطقةٌ مستطيلةٌ واسعة يُغلقها أروقةٌ مُعمَّدةٌ تعودُ إلى عصرٍ عريقٍ في القِدَم. الرواق الذي إلى جهة اليمين مُكرَّسٌ لزيوس؛ والذي إلى اليسار يعود إلى عصر أكثر حداثة، وهو هِبةٌ ملكِ برغامون الشاب الذي درسَ هنا. وفي مركز الساحة العامة يقومُ بناء الجامعة الشامخ، وكان أول مَنْ بناه أغريبا[٦٩] في عهد الإمبراطور أوغسطوس. وقد انهارَ البناء الأصلي - وكان يُستَخدَم قاعةً للموسيقى - في ظروفٍ غامضة في القرن الماضي. إنني أجدُ الهندسة المعمارية مُدَّعية، حتى في نسختها الحاليّة اللا رومانية بصورة ما. ولكن هنا يُحاضرُ أغلب الفلاسفة البارزين. وهنا استمعتُ ثلاث مراتٍ في الأسبوع إلى العظيم بروهيريسيوس، وسأوردِ مزيداً عنه لاحقاً.

خلف مبنى الجامعة يوجد رواقان معمّدان متوازيان، والأخير كان يوجد عند أسفل الأكروبوليس. إلى يمين السائر، وعلى تلٍ يُشرِفُ على الساحة العامة، يقع معبدٌ صغير لهيفيستوس[٧٠] مُحاطٌ بحدائق مُهمَلَة. وأسفل ذلك التل تقوم أبنية أثينا الإدارية، والأرشيف، والبيت المستدير الذي يجتمعُ فيه حُكّام أثينا الخمسون ـ وهذا الأخير بناءً مميَّز في مظهره ذو سقفٍ منحدر يسمّيه الآثينيون، الذين يُطلقون أسماءً على كل شخص وكل شيء، " المظلّة ". وكان البيت المستدير يحتوي في السابق العديد من التماثيل الفضية لكنَّ قبائل الغوط سرقتها في القرن الماضي.

لم يكن هناك كثير من الناس في الخارج لأنَّ الشمسَ ارتقتْ إلى كبد السماء. وهبَّتْ ريحٌ واهنة أثارتْ الغبار على الرصيف العتيق المُنقَّر. وكان هناك عددٌ من الرجال بدوا ذوي شأن، تتلفَّعُ أجسادهم الممتلئة بشكلٍ أخرق بالأردية الفضفاضة، يهرعون باتجاه البوليوتريون[٧١]. كانوا يتلبّسون هيئة الاستغراق الذاتي التي يتَّصِفُ بها السياسيون في كل مكان. ومع ذلك فهؤلاء الرجال كانوا الورَثَة السياسيين لبركليس وديموستين. حاولتُ أنْ أتذكَّر هذا بينما كنتُ أراقبهم وهم يحثّون الخُطى ليقوموا بأعمالهم.

ثم انتقلتُ إلى الظل البارد للرواق المُعمَّد المدهون. ونتيجة للعتمة المفاجئة شعرت عيناي لبرهة من الزمن بالانبهار. ولم أتمكَّن، إلا بعد بعض الوقت، من تمييز اللوحة الشهيرة لمعركة ماراثون التي تغطي الجدار الطويل الكامل للرواق المُعمَّد. ولكن مع تعوُّد عينيَّ بالتدريج على الظل، رأيتُ أنَّ اللوحة كانت حقّاً أعجوبة كما يشهد العالم أجمع. يمكن للناظر أن يُتابع مسار المعركة بالسير على طول الرواق. وفوق اللوحة عُلِّقَت التروس الفارسية المستديرة، التي أُسِرَتْ في ذلك اليوم. وكانت التروس مكسوّة بالقار للحفاظ عليها. وقد تأثرتُ كثيراً بمراقبة أثر تلك المعركة التي كانت قد نشَبَتْ قبل ثمانمائة عام. أولئك الشبان وعبيدهم - نعم، للمرة الأولى في التاريخ يحاربُ العبيد جنباً إلى جنب مع أسيادهم - أنقذوا معاً العالم. والأهم من ذلك، أنهم قاتلوا بملء إرادتهم، خلافاً لجنودنا، الذين هم إما مُجنَّدون إلزامياً أو من المُرتزقة. حتى في أوقات الخطر، لن يُحارب شعبنا لكي يحمي وَطَنَه. إنَّ المالَ، وليس الشرف، هو الآن مصدر القوة الرومانية. وحين ينتهي المال، ستنتهي معه دولتنا. لهذا السبب يجب استعادة

الهلّينية[٧٢] : لكي نغرسَ في الإنسان من جديد إحساسه الذي أنتجَ الحضارة بقيمته، وأحرزَ به الانتصار في معركة ماراثون.

بينما أنا واقفٌ هناك أرفعُ نظري إلى التروس المكسوة بالقار، اقتربَ مني شاب ملتحٍ، قذر الملابس، يرتدي زيَّ طالبٍ ويبدو نموذجاً للكلبي[٧٣] الحديث من النوع الذي كان يُثيرُ شعوري بالأسى. وقد كتبتُ مؤخراً شيئاً كثيراً عن أولئك المشرّدين. وخلال السنوات القليلة الماضية كانت فلسفة كريتيس وزينون يتبناها الكسالى الذين، على الرغم من عدم اهتمامهم بالفلسفة، يعمدون إلى تقليد الكلبيين بمظهرهم، كأنْ يَدَعوا شعورهم ولحيهم تسترسل، ويحملوا عصي وحقائب، ويستَجْدون. ولكن في حين أنَّ الكلبيين الأصلاء يحتقرون الثروة، ويسعون وراء الفضيلة، يلجأ هؤلاء المُقلّدون إلى السخرية من كل شيء، بما فيها الأشياء الحقيقية، مستخدمين قناع الفلسفة ليُخفوا الانحراف واللامسؤولية ،واليوم، كل شاب لا يختار الدراسة أو العمل يُرسِلُ لحيته، ويُهين الآلهة، ويُسمّي نفسه كلبياً. لا عَجَبَ أنَّ الفلسفة استجلَبَتْ احتقارَ عديدين في هذا العصر التعس.

دون مقدِّمات أشارَ الكلبي الحديث إلى الجدار، وقال " هذا أسخيلوس ". نظرتُ بأدب إلى رسم جنديٍ ملتحٍ، لا يختلف في شيءٍ عن الباقين اللهُمَّ إلاّ الاسم المكتوب فوق رأسه. كان يُبيِّنُ الكاتبَ المسرحيَّ منهمكاً في القتال مع أحد الفارسيين. ولكن على الرغم من أنه يحارب دفاعاً عن حياته، فإنَّ وجهه الجدّي كان مُتَّجهاً نحونا، وكأنه يقول : " أنا أعلمُ أني خالد! "

قلت بلهجة حيادية " لقد كان الرسّام خجولاً "، مُتوقِّعاً منه بدون ريب أنه سيطلبُ نقوداً ومستعداً لأن أرفض طَلَبَه.

كشَّرَ الكلبيُّ في وجهي. كان جلياً أنه اختارَ أنْ يعتبر لهجتي الحيادية كدلالة صداقة. ربَتَ على اللوحة. انهمرتْ رقاقة من الدهان وسقطت إلى الأرض بحركة لولبية. " ذات يوم ستختفي كلها، فمَنْ سيعرف كيف كانت معركة ماراثون، بعد أن تزول اللوحة؟ ". بينما كان يتكلّم، تحرَّكَ شيءٌ في ذاكرتي. لقد تعرَّفتُ إلى الصوت. لكنَّ الوجه بقيَ غريباً تماماً عليّ. حين أصبح واثقاً عندئذٍ من أننا أصبحنا أصدقاء، أبعدَ بَصَرَه عن اللوحة ووجَّهه نحوي. هل وصلتُ لتوي إلى أثينا ؟ نعم. هل أنا طالب؟ نعم.

هل أنا كلبي؟ كلا. حسنٌ، ليس هناك من سبب لأكونَ جازماً (وابتسم). هو نفسه يرتدي زيَّ الكلبيين فقط لأنه فقير. حين أفشى إليّ هذا النبأ المفاجئ، كنا قد ارتقينا الدَرَجَ المؤدي إلى معبد هيفيستوس. هنا كان المنظر المُطلّ على الساحة العامة رحباً وراقياً. على ضوء الظهيرة الصافي كان في الإمكان الرؤية حتى ما بعد المدينة نحو النوافذ الصغيرة المظلمة لتلك المنازل المُتكتّلة عند/أعتاب جبل هايميتوس.

قال مُرافقي " جَميل "، جاعلاً حتى تلك الكلمة البسيطة تبدو مُبهمة. " مع أنَّ الجمال... "

قلتُ بحزم " مُطلقٌ ". ثم لكي أُحبِط أي ثرثرة كلبيّة، التفتُّ بسرعة نحو حديقة المعبد المهجورة. كانت الأعشابُ البرية تكتسحُ المكانَ، في حين أنَّ المعبد نفسه كان يبدو رثّاً وحزيناً. لكنَّ على الأقل لم يحوّله الجليليون إلى منزل للموتى. فمن الأفضل بما لا يُقارَنْ أن ينهار المعبد ويتحول إلى أطلال على أنْ يُدنَّس هكذا. من الأفضل طبعاً أن يُعاد إلى سابق عهده.

سألني مرافقي إنْ كنتُ جائعاً. قلتُ كلا، فتلقّى جوابي على أنه نعم (كان يتعمَّد ألاّ يُصغي إلى الأجوبة). واقترحَ أنْ نذهب إلى حانة تقع في الحي الكائن خلف المعبد مباشرةً. أكَّدَ لي أنه مكانٌ يرتاده بكَثرةٍ طلابٌ من " أفضل " نوع. كان واثقاً من أنني سأستمتعُ فيه. تسلّيتُ بوقاحته (وما زالَ صوته الذي تملّكني يُحيّرني)، فرافقتُهُ خلال الشوارع الضيقة الحارة لحيِّ الحدّادين المجاور، أولئك الحدّادين الذين تتوهَّجُ دكاكينهم باللون الأزرق وهم يطرقون المعدن مُحدثين ضجّةً مُدوّية: معدنٌ يطرقُ معدناً وسط حشدٍ من الشرر، كذيول المذنّبات.

كانت الحانة مبناً منخفضاً ذا سقفٍ مرتخٍ أُزيلَ عنه كثير من حجارة الآجر بفعل الزمن وتقلّبات الطقس. انحنيتُ لألجَ من الباب الرئيسي. اضطررتُ أيضاً إلى أنْ أنحني في الداخل، ذلكَّ أنَّ السقفَ كان واطئاً جداً بالنسبة إلى قامتي، والروافد الخشبية غير منتَظَمَة، بل وخطرة وسط الضوء الخافت. ولم يواجه مُرافقي أية صعوبةٍ في الوقوف باستقامة. وأجفَلتُ من العَبَق الثقيل لرائحة الزيت الزنخ وهو يحترق في القدور على المدفأة.

كانت هناك طاولتان خشبيتان مع مقاعد تملآن المكان؛ ومجموعة من الشبان يجلسون معاً بالقرب من الباب الخلفي الذي يُفضي إلى فناءٍ موحش، يحتوي شجرة زيتون ميتة بدتْ وكأنها قد رُسِمَتْ باللون الفضي على الجدار المُبيَّض خلفها.

كـان مـرافـقي يعـرِفُ مـعظَم باقي الطلاب. فكلهم كـانوا من الكلبـيين الجُـدد، المُلتحين، الصاخبين، المُزدرين، غـيـر المُطّلعين. حيّـونا بعـبارات قذرة ومـرحة. ولم أكن مرتاحاً لكنني صمّمتُ على أنْ أمضي في مغامرتي. فقبل كل شيء، هذا ما حلمتُ به؛ أنْ أنضمَّ إلى الجموع، حتى إلى الكلبيين الجُدُد. كانت المناسبة فريدة، أو هكذا ظننت. وحين سُئلتُ من أنا، قيلَ لهم " إنه ليس كلبياً ". فضحكوا بطلاقة. ولكن حين سمعوا أني جديد على أثينا، أخذ كلٌ منهم يبذل جـهـده ليـدفـعني إلى حضـور مـحاضـرات أسـتـاذه. فـهبَّ رفـيـقي إلى إنقـاذي. " إنه مـحـجـوز. إنه يدرسُ مع بروهيـريسيـوس ". ودُهِشتُ، ذلك أني لم أكن قـد ذكَـرتُ أيَّ شيءٍ لدليلي عن بروهيـريسـيـوس، ومع ذلك كان بروهيريسيوس بالفعل الأستاذ الذي انتقيته. كيف عرِف ذلك؟

قال بإبهام " أنا أعرفُ كلَّ شيءٍ عنكَ. إنني أقرأ الأفكار، وأتنبّأ بالمستقبل ". قاطعه أحد الشبان، الذي اقترحَ عليَّ أنْ أحلق لحيتي وإلاّ اعتُبِرتُ خطأً كلبياً جديداً وأسأتُ إلى سمعتهم بسلوكي. وقد اعتُبرَ ذلك ظُرفاً في ذلك المكان. وتجادل آخرون إذا ما كان يجب أخذي إلى الحمّامات لكي أُفرَك، وهذه عقوبةٌ تقليدية تُفرَض على الطلاب الجُدد، وقد صمَّمتُ على أن أتجنّبها. وإذا لزم الأمر، سأُبدي أقل ما يمكن من الفخامة!

لكنَّ حارسي أبعدَ الطلاب عني وأجلسني على طاولةٍ مقابلة مجاورة لباب الفناء، فشعرت بالامتنان له لذلك. إنني لستُ حساساً كثيراً تجاه الروائح القوية، ولكن في يومٍ شديد الحرارة كانت رائحة الطلاب الذين لا يغتسلون الممزوجة مع الدخان الكثيف المنبعث من الزيت المُحتَرِق فوق طاقتي على الاحتمال. وحين تأكّدَ صاحب الحانة من حيازتي للنقود (من الواضح أنَّ مُرافقي كان غارقاً في الدَين) جَلَبَ لنا جبناً، وزيتوناً مُرّاً، وخبزاً قديماً، وخمراً حامضاً. وكم دُهِشتُ حين اكتشفتُ أني جائع. أكلتُ بسرعة، دون تذوّق الطعام. وفجأةً توقفتُ، حين شعرتُ بأنَّ أحدهم يُحدِّقُ إليّ. نظرتُ عبرَ الطاولة إلى مُرافقي. ماذا؟

" لقد نسيتَني، أليسَ كذلك، يا جوليان؟ "

ثم ميَّزتُ الصوت المألوف. تعرَّفتُ إلى غريغوري الناظيانزوسي. كنا معاً في برغامون. وانفجرتُ بالضحك وتصافحنا. " كيف حصل وتحوَّلَ المسيحي المتفاني إلى كلبيّ حديث؟ "

" إنه الفقر، مجرد فقر ". نظرَ غريغوري إلى الرداء القذر والممزَّق، واللحية الشعثاء. " والحماية ". أخفضَ صوتَه، وهو يُشيرُ إلى الطلاب في الطاولة المقابلة. " إنَّ عدد المسيحيين يتفوَّق في أثينا. إنَّها مدينة بغيضة؛ خالية من الإيمان، ليس فيها غير الجِدال والإلحاد "

" إذن ماذا تفعلُ هنا؟ "

تنهَّدَ. " إنَّ أفضل الأساتذة موجودون هنا، أفضل مُعلِّمي الخطابة. أيضاً، من المفيد معرفة العدو، والقدرة على محاربته بأسلحته "

أومأتُ إيجاباً وتظاهرت بالاتفاق معه. لم أكن أتحلّى بكثيرٍ من الشجاعة في تلك الأيام. ولكن في كل الأحوال لم أكن لأستطيع أبداً أن أُصارح غريغوري، لأنه كان رفيقاً مسلّياً. وكان مخلِصاً للهراء الجليليّ بقدر إخلاصي للحقيقة. أرجعتُ ذلك إلى طفولته العاثرة الحظ. كان ينحدر من عائلة كابادوسيّة، ويعيش في مدينةٍ صغيرة تقعُ على بُعد ما يُقارب خمسين ميلاً من جنوب شرق سيزاريا، العاصمة الريفية. كانت أمه امرأةً قوية الإرادة اسمها... لا أتذكّر اسمها، ولكني قابلتُها مرةً واحدة قبل بضع سنوات، وكانت مخلوقةً رائعة جداً؛ متحمّسة وذات كبرياء ومتعصّبة بشكلٍ كامل ضد كل ما ليس جليلياً.

" والد غريغوري كان يهودياً من جهة وإغريقياً من جهةٍ أخرى. ونتيجة تحذيرات زوجته التي لا ترحم استسلمَ في النهاية للديانة الجليليّة. ووفقاً لغريغوري، حين رشَّ الأسقف ناظيانزوس والده بالماء، غمَرَت المُهتدي هالة نورانيّة عظيمة. وكان تأثُّر الأسقف من الشدّة بحيث إنه أعلنَ " هذا هو خليفتي! ". إنَّ ذلك الأسقف هو أشد مَنْ عرفتُ تحرّراً في تفكيره! إنَّ معظمنا يُفضّلُ ألاّ يُسمّي خليفته. في هذا السياق، أصبحَ والد غريغوري أسقف ناظيانزوس. وكذا كان سَلَفه يتمتَّع بموهبة التنبّؤ، على الأقلّ.

كان غريغوري يخبرني عن نفسه بسرعة كبيرة. "... رحلة فظيعة، بالبحر. وقُبيل أن نصل إلى إيجينا، ضَرَبَتنا عاصفة. كنتُ واثقاً من أنَّ السفينة ستغرق. وتولاني الذعر. لم أكن قد تعمَّدتُ (ولم أتعمَّد حتى الآن). لذا إذا متُّ هكذا في البحر... حسنٌ، يجب أنْ تعرف بنفسك ما الذي عانيته ". نظرَ إليّ بتمعُّن. " هل أنتَ مُعمَّد؟ "

قلتُ إني تعمَّدتُ وأنا طفل. حاولتُ أنْ أبدو رصيناً قدرَ استطاعتي وأنا أقول هذا.

" أخذتُ أصلي وأصلي. وأخيراً استغرقتُ في النوم، من فرط الإرهاق. كلنا نمنا. وحلمتُ بأنَّ شيئاً كريهاً، أشبه بإلاهة الانتقام، جاءت لتأخذني إلى الجحيم. في تلك الأثناء، كان أحد فتية المقصورة، من ناظيانزوس، يحلمُ بأنه شاهدَ - وهذه معجزة لا ريبَ فيها - الأم تمشي على سطح الماء.

" أكانت أمَّه أم أمَّك أم أمَّ يسوع؟ " أخشى أني طرحتُ هذا السؤال بدافع الخبث. لم أتمكن من كبح نفسي.

لكنَّ غريغوري تلقَّى السؤال مباشرةً. قال " بل أمي أنا. كان الفتى يعرفها، وقد شاهدها تسير على سطح البحر العاصِف. ثم أمسكَتْ بالسفينة من مُقدّمها وسَحَبَتها خلفها إلى برّ الأمان. وهذا بالضبط ما حدث. ففي تلك الليلة بالذات هدأتْ العاصفة. ثم عَثَرَتْ علينا سفينةٌ فينيقيّة وقَطَرَتنا إلى مرفأ رودس ". واسترخى في جلسته في هيئة انتصار. " فما رأيكَ في هذا؟ "

قلتُ بدقَّة " إنَّ أمّك امرأةٌ رائعة؟ ". وافقني غريغوري وتحدَّثَ مطولاً بحماس عن تلك الحيزبون المتجهِّمة. ثم أخبرني عن مغامراته في أثينا، وعن فقره (فهمت هذه الإشارة على أنها : لقد أعطيته مبلغاً كبيراً من المال خلال فترة مكوثي)، وعن صديقنا باسيل الذي كان أيضاً في أثينا وكان، فيما أعتقد، سبب تردُّد غريغوري على الجامعة. فحيثما ذهبَ باسيل، يتبعه غريغوري. وفي أثينا كانا يُلقَّبان بـ " التوأم ".

" إنني أتوقع وصول باسيل الآن. سوف نجتمع في منزل بروهيريسيوس بعد ظهر هذا اليوم. وسوف نصحبكَ معنا. في الواقع نحنُ نُقيمُ معاً. وندرس معاً. ونتجادلُ معاً ضد السوفسطائيين المحلّيين. ونفوز عادةً ". وكان هذا صحيحاً. لقد كان هو وباسيل - ولا يزالان - فصيحَي اللسان. وطبعاً إنني أرثي الاستخدامات التي سُخِّرَت لها فصاحتهما. اليوم هما غاية في النشاط كجليلَين مُدافعين عن القضايا، وكثيراً ما تساءلتُ عن رأيهما في رفيقهما القديم الذي يحكم الدولة. أخشى أنه ليس لصالحه. وحين أصبحتُ إمبراطوراً طلبتُ منهما معاً أن يقوما بزيارتي في القسطنطينية. وافقَ غريغوري على الحضور، لكنه لم يفعل. وباسيل رفض الدعوة. كنت بين الاثنين أفضِّلُ باسيل. كان بسيطاً مثلي؛ ومُضلّلاً في مُعتقداته لكنه صادق. أعتقد أنَّ غريغوري كان أنانياً.

" مَنْ هذا ؟ ". كانت السائلة فتاة نحيلة تقف فوقَ رأسينا، ذات عينين سوداوين يشعُ منهما الذكاء وفم سريع في رسمِ السخريةِ والابتسام. عرَّفَ غريغوري كلاً منا إلى الآخر؛ قال إنني من كابادوسيا. وكانت هي من ماكرينا، وقريبة بروهيريسيوس.

قالت " تعجبني لحيتك "، وجلستْ دون دعوة. إنها مُدبَّبة. إنَّ لحى أغلب الرجال تشبه لحية غريغوري، في كل شيء. أما لحيتك فتوحي بخطّة. هل ستدرس مع عمّي؟ "

قلتُ إني سأفعل. وقد فُتِنتُ بها. كانت ترتدي نسختها من رداء الطلاب، من الكتان ذي اللون الأزرق الفاتح. وكانت ذراعاها العاريتان متينتين لَفَحَتهما أشعة الشمس؛ وأصابعها القوية تُقطِّع بحركةٍ متكاسلةٍ كسرات من الخبز البائت موجودة على الطاولة؛ وعلى المقعد الطويل تلامسَ فخذانا.

" سوف تُعجَب بعمّي. إنه أفضل معلّم في دار الثرثرة تلك. لكنك ستكره أثينا. أنا أكرهها! أكره فَرْق الشَعر. وكلام، كلام، كلام، وكل شخص يُريدُ أنْ يُدلي بدلوه، أن يدَّعي أنَّ كلَّ ذلك الكلام له معنى ما "

قال غريغوري " إنكَ الآن تصغي إلى ما يُعرَف بـ " نواح ماكرينا " "

قالت، وهي تُشيرُ إليه كممثلة في مسرحيةٍ مأساوية، " ولكنه صحيح مع ذلك. إنهما الأسوأ : غريغوري وباسيل، توأم النقاش... "

أشرقَ وجه غريغوري. " كان يجب أن تصغي إلى نقاش باسيل بالأمس حين تحدّانا أحدهم حول مولد العذراء "، ثم التفتَ غريغوري نحوي. " كما قلتُ لك، هناك العديد من الفنانين في أثينا. وبعضهم يتّصفون بمكر الشيطان. ونحن نحتقر واحداً منهم على وجه الخصوص... "

" واحد؟ أنتَ تحتقرُ الجميع، يا غريغوري! ". رشَفَتْ ماكرينا الخمر من كأسي، دون دعوة. " إنْ كان هناك وجود لأسقفَين متلازمين، فهما هذان الأسقفان ". ووجَّهَتْ كلامها مُتحدّيةً بتحبُّب إليّ " وأنت، هل أنتَ أسقف؟ "

هززتُ رأسي نفياً.

قال غريغوري " بل هو أبعد ما يكون عن ذلك "، وميَّزتُ شيئاً خبيثاً في نبرة صوته.

قالتْ ماكرينا " لكنه مسيحي؟ "

قال غريغوري بنعومة " بل يجب أنْ يكونَ كذلك؛ مفروضٌ عليه "

" مفروضٌ عليه؟ لماذا؟ لا أظنُ أنَّه ممنوع على الإنسان أنْ يكون هيلّينياً، أليس كذلك؟ على الأقل ليس حتى الآن؟ "

هنا شعرتُ بحبٍ عميقٍ لها. كنا من طينةٍ واحدة. نظرتُ إليها فجأةً بولَهٍ حين ارتفعَتْ الأصابع الرقيقة ولكن القذرة وجَرَعَتْ محتوى كأسي حتى آخر قطرة.

" أقصد أنه لا يمكن أن يكون كذلك لأنَّه... ". عَبَستُ في وجه غريغوري؛ لا يحقُّ له أن يكشِفْ عن هويتي. ولكنه كان يسيرُ في اتجاهٍ آخر. "... لأنه طالبٌ لامع ومَنْ يحب العلمَ حقّاً يُحبُّ الله، ويُحبُّ المسيح، ويُحبُّ الثالوث المقدَّس "

حطَّتْ الكأس بحزم على الطاولة. " حسن، أنا لا أحبّهم. أتساءلُ إنْ كان هو يُحبّهم "

لكنني راوغتُ. ماذا كان دفاع باسيل عن مولد العذراء؟

" لقد تحدّاه أحدهم وهو على دَرَج الجامعة، بالأمس، قُبيل حلول الظهيرة ". تكلَّمَ غريغوري بدقّة وكأنه مؤرِّخ يُعطي تفاصيل معركة يريد العالمُ بأسره أن يعرفها، ثم أضافَ إكراماً لي " إنه كلبيٌّ، كلبيٌّ حقيقي. " توقَّفَ باسيل وقال : " أنتم معشر المسيحيين تدَّعون أنَّ المسيح وُلِدَ من عذراء ". وقال باسيل إننا ليس فقط ندَّعي ذلك، بل ونطالبُ به، لأنه صحيح. إنَّ ربَّنا وُلِدَ من دون أبٍ أرضيّ. فقال الكلبيّ إنَّ هذا يناقضُ تماماً الطبيعة، وإنه من المستحيل على أي مخلوق أن يولَدَ إلاّ عبر اتّحاد ذكرٍ وأنثى. ثم قال باسيل - وحينئذٍ وكان قد تجمَّعَ حشدٌ كبير جداً - قال باسيل " إنَّ النسور تلدُ من دون تزاوج ". كان يجب أن تسمع التصفيق والضحك؛ ابتعدَ الكلبيُّ وأصبحَ باسيل بطلاً، حتى بين صفوف الطلاب الذين لا يعتنقون أي إيمان "

قلتُ بنبرةٍ معتدلة " على الأقلّ كانوا يعرفون أرسطو "

لكنَّ ماكرينا لم تتأثّر. " فقط لأنَّ النسور لا تتزاوج... "

" إنَّ أنثى النسر تحْبَل بفعل الريح ". إنَّ غريغوري هو أحد أولئك الذين عليهم دائماً أنْ يُزيّنوا ملاحظة الشخص الآخر. ولسوء الحظ، إنه ينجذب إلى الواضح. إنه يقول ما يعرفه الجميع مُسبقاً. لكنَّ ماكرينا كانت معدومة الرحمة.

" حتى وإنْ كانت النسور لا تتزاوج... "

" حتى؟ لكنها فعلاً لا تتزاوج. هذه حقيقة "

" هل شاهدَ أحدٌ مرةً نسراً تُخصبه الريح؟ ". كانت ماكرينا خبيثة.

" لابدَّ أنَّ أحدهم شاهد ذلك ". أصبحَتْ عينا غريغوري المستديرتان أشد استدارةً من شدة الغضب.

" ولكن كيف تعرف؟ إنَّ الريح غير مرئية. فكيف تعرف أيَّ ريحٍ - إنْ كان هذا صحيحاً - تسبَّبَتْ في حمل الطائر؟ "

" إنه مُنحرفٌ جنسياً ". التفتَ غريغوري إليّ، وقد انزعجَ كثيراً. " ثم، لو أنَّ هذا غير صحيح، لَما قال أرسطو إنه صحيح ولَما كنا اليوم متّفقين على أنه بالفعل الحقيقة"

باشرَتْ ماكرينا بالقول مع استغراقٍ في التفكير " لستُ متيقّنة من منطقيّة هذا "

" ذات يوم سوفَ تُدان بتهمة الإلحاد ". حاولَ غريغوري أن يكونَ عابثاً، لكنّه فشل.

ضحكَتْ ماكرينا منه، ضحكاً ممتعاً، خفيضاً، خالياً من الخبث. " حسنٌ، ثمة أنثى طائر وَضَعَتْ بيضَ صقر. قبلنا. ما دخلُ هذا بمولد المسيح؟ إنَّ مريم لم تكن نسراً. كانت امرأة. والنساء يلدنَ بطريقةٍ واحدة لا ثاني لها. ولا أرى أنَّ جوابَ باسيل للكلبي كان صاعقاً جداً. إنَّ ما يصحِ على النسر لا يصحُ بالضرورة على مريم "

قال غريغوري بإحكام " كان جواب باسيل هو على حُجَّة الكلبيّ حين قال إنَّ كلَّ المواليد تأتي من تزاوج ذكَر وأنثى. حسنٌ، إذا كان هناك شيءٌ لم يولَد بهذا الأسلوب - وهذه حُجَّة باسيل - فإنَّ آخرَ قد لا يكون... "

" لكنَّ تعبير " قد لا " ليس حُجَّة. قد ينمو لي فجأةً جناحان وأطيرُ إلى روما (يا ليتني أستطيعُ ذلك!) لكنني لا أستطيعُ، ولا أطير "

" ليست هناك حالات عن كائنات بشرية لها أجنحة، ولكن هناك... "

" إيكاروس وديدالوس " هكذا بدأت ماكرينا الشجاعة بالقول، لكن وصول باسيل أنقذنا منها. أصبحَ وجه غريغوري قاتماً من شدة الغضب، وكادت الفتاة تخرجُ عن طورها من شدة استمتاعها.

تبادلتُ مع باسيل التحيات الحارة. كان قد تغيَّرَ كثيراً منذ أنْ كنا مراهقَين. لقد أصبحَ الآن رجلاً وسيماً، ممشوقَ القامةِ ويميلُ إلى النحول؛ وخلافاً لغريغوري، كان شعره قصيراً. فقلتُ له بهذا الشأن لأغيظه " الشعر القصير يعني أسقفاً "

رسمَ باسيل ابتسامته المُحبَّبة وقال بصوتٍ ناعم " ليتَ ذلك الكأس لا يمرُ بي " مُقتطفاً من ناظارين. ولكن باسيل، خِلافاً للنجّار، كان صادقاً. اليوم هو يعيش بالضبط الحياة التي رغبتها لنفسي : حياةَ عزلة، وتقشُّف، مُكرَّسةً لقراءةِ الكتب وللصلاة. إنه مُتأمِّلٌ حقيقي وأنا شديدُ الإعجاب به، على الرغم من الديانة التي يعتنقها.

حين سمعته ماكرينا يُخاطبني باسم جوليان قالتْ فجأةً " أليس هذا اسم ابن عم الإمبراطور، ذاك الذي يُدعى جوليان، الذي يُفتَرَض أنه قَدِمَ إلى أثينا ؟ "

نظرَ باسيل بدهشةٍ إلى غريغوري، الذي أشارَ إليه لكي يلزم الهدوء. استدارتْ ماكرينا إليّ " أتعرف الأمير؟ "

أومأتُ إيجاباً. " أعرفه. ولكن ليس معرفةً جيدة ". حقيقة سولون[٧٤] الشهيرة.

أومأتْ ماكرينا إيجاباً. " ولكن طبعاً كان يمكن أنْ تعرفه. لقد كنتما معاً في برغامون. وكثيراً ما تناقش التوأم حوله "

شعرتُ بالحَرَج وبالسرور أيضاً. إنني لم ألجأ مرةً إلى استراق السمع، حتى وأنا طفل. ليس بدافع من أي حسٍ بالفضيلة ولكن لأنني بحق لا أريدُ أنْ أعرفَ رأيَ الناسَ فيَّ أو، بدقّة أكثر، ما يقولونه عني - وهما في الغالب أمران مختلفان. وفي العادة أستطيع أنْ أتصوّر الأحكام غير السارة، ذلكَ أننا نكون ما يحتاجُ الآخرون منا أنْ نكونَ. ولهذا تتغيَّرُ سمعتنا كثيراً وبقسوة، دون أنْ يعكسَ هذا أيَّ تغيُّرٍ معيَّنٍ فينا، بل فقط تغيُّراً في مزاجِ أولئك الذين يراقبوننا. وحين تسير الأمورُ سيراً حَسَناً، يكونُ الإمبراطور محبوباً؛ وإذا ساءت، يصبحُ مكروهاً. إنني لا أحتاجُ أبداً إلى أنْ أنظرَ إلى نفسي في المرآة؛ إنني أرى نفسي بوضوحٍ فائق في عيون الذين يُحيطون بي.

شعرتُ بالارتباك ليس كثيراً بسبب ما يمكن أنْ تقوله ماكرينا عني بل بسبب ما يمكن أن تكشفه عن غريغوري وباسيل. وما كنتُ سأُدهَش إذا ما كوَّنا رأياً سيئاً عني. فالشبان الأذكياء ذوو المنشأ المتدني يميلون إلى احتقار الادّعاءات الذكية للأمراء. ولو كنت في مكانهم، لفعلتُ مثلهم.

بدا الرعب التام على غريغوري، وكان التعبير المرتسم على وجه باسيل مُبهماً. حاولتُ أنْ أغيِّرَ اتجاه دفّة الحديث. سألتها متى سيستقبلنا عمّها لكنَّها تجاهلَتْ

السؤال. " إنَّ معرفة جوليان هي هدفهما الأول. إنهما يتناقشان حوله طوال ساعة. ويتكهّنان حول فُرَص وصوله إلى منصب إمبراطور. غريغوري يعتقد أنه سيصبحُ إمبراطوراً. وباسيل يعتقدُ أنَّ قسطنتيوس سوف يقتله "

على الرغم من أنَّ باسيل كان يعلم في أي اتجاه يسير الحديث، إلاّ أنه لم يكن خائفاً. " ما الذي يدفعك يا ماكرينا إلى التأكُّد من أنَّ هذا ليس أحد عملاء الإمبراطور السرّيين؟ "

" لأنكَ تعرفه "

" إننا نعرفُ مجرمين، أيضاً. ووثنيين. وعملاء الشيطان "

" مَنْ منكم رأى عميلاً سرّياً يحمل مثل هذه اللحية؟ ثم، ماذا يهمّني من هذا؟ إنني لا أتآمرُ ضد الإمبراطور ". والتفتت إليّ، وعيناها السوداوان تتوهّجان، " إذا كنتَ عميلاً سرّياً حقاً، سوفَ تتذكَّرُ ما يلي، أليسَ كذلك؟ إنني أعبدُ الإمبراطور. إنَّ شمسي تشرقُ وتغربُ في قدسيَّته. وكلما شاهدتُ ذلك الوجه الجميل محفوراً في الرخام، أرغبُ في البكاء، في الصراخ : إنكَ يا قسطنتيوس، الكمالُ مُجسّداً! "

استهجنَ غريغوري هذا بشكلٍ قاطع، وتوجَّسَ من الطريقة التي قد أتقبَّل بها هذه السخرية. وقد تسلّيتُ بذلك لكني انزعجتُ. وأعترفُ بأنه خطرَ لي أنْ لعلَّ غريغوري أو باسيل أو حتى ماكرينا عضو في الشرطة السرّية. وإذا كانَ الأمرُ كذلك، فإنَّ ماكرينا قد قالتْ للتو ما يكفي للحكم علينا جميعاً بالإعدام. سيكون ذلك أسوأ مصير يمكن أنْ يواجهنا : أنْ نموتَ بسبب نكتة!

" لا تكن كالمرأة الحيزبون، يا غريغوري! "، ثم التفتتْ ماكرينا نحوي. " إنَّ هذين الاثنين لا يحبّان جوليان. لا أفهمُ السبب. أعتقد أنها الغيرة. خاصةً من جانب غريغوري. إنه حقيرٌ جداً. ألستَ كذلك؟ ". هنا شحبَ لون غريغوري من فرط الرعب. "إنهما يشعران أنَّ جوليان مُحبٌ للفنون وليس جاداً. يقولان إنَّ حبَّه للعلم مجرَّد ادِّعاء. باسيل يشعر أنَّ رغبته الحقيقية هي في أنْ يكونَ قائداً – هذا إذا بقيَ على قيد الحياة طبعاً. أما غريغوري فيعتقد أنَّه مُشتَّتْ الفكر بحيث لا يصلُح حتى لهذا. ولكنَّ غريغوري يتوقُ إلى أنْ يصبح جوليان إمبراطوراً. إنه يريد أنْ يكونَ صديقاً لإمبراطور. أنتما الاثنين دنيويان بإفراط، وعمق، أليسر كذلك؟ "

انعـقَـدَ لسـان غـريغـوري. وباسـيل أصـيبَ بالرعـب لكنَّه أظهـرَ شـجاعـة. " سـوف أستنكرُ فقط كلمة " دنيويّ ". أنا لا أريد أيَّ شيءٍ من الدنيا. في الحقيقة، في الشهر القادم سوف ألتحق بأحد الأديرة في سيزاريا حيث سأكون أبعدَ ما يمكن عن الدنيا، عن هذا الجانب من الموت "

استجمعَ غريغوري شتات نفسه وقال " إنَّ لسانكِ قارصٌ حقاً، يا ماكرينا ". ثم التفتَ إليّ، مُحاولاً أنْ يُلطِّفَ الجو، " إنها تختلقُ كلَّ شيء؛ وتحب أن تسخر منا. إنها وثنيّة، طبعاً. مُلحدةٌ حقيقية ". ولم يتمكّن من كبح امتعاضه من الفتاة أو خوفه مني.

ضحكَتْ ماكرينا منه. " على أي حال، إنني تواقة إلى الاجتماع بالأمير "، ثم التفتَتْ إليّ، " أين ستسكن؟ أمع عمّي؟ "

قلتُ كلا، بل مع أصدقاءٍ لي. أومأتْ إيجاباً. " إنَّ عمي يعيشُ في منزل كريم ولا يغشُ أبداً. وقد أخذَ والدي شيئاً من فيضِه، وعلى الرغم من صِدقِه فإنه يكره الطلاب كلهم من أعماقِه، وبلا أمل "

ضحكتُ. التوأم ضحكا أيضاً، ضحكاً أجوف. ثم اقترحَ باسيل علينا أنْ نذهب إلى منزل بروهيريسيوس. حاسبتُ صاحب الحانة، وخرجنا إلى الغبار الحارّ للشارع. همستْ ماكرينا في أذني، " كنتُ أعلمُ طوال الوقت أنكَ أنت الأمير "

بريسكوس : سوفَ تميِّز عدداً من المفارقات فيما قرأتَ للتو. إنَّ غريغوري الفظيع مُـرشَّح لرئاسـة المجلس المسكوني الجـديد. يقـولون إنه سـيكون الأسـقف التـالي للقسطنطينيـة. ما أمتع النظر إلى ذلك الأسقف النبيل ذي الشباب الرثّ! وباسيل، الذي لم يكن يصبو إلاّ إلى الحياة في القسطنطينية، ها هو يحكمُ الآن الكنيسة في آسيا بوصفه أسقف سيزاريا. لقد أحببتُ باسيل بعد الفترة الوجيزة التي عرفتُهُ خلالها في أثينا. كان يتميزُ بحماسٍ خاص، بتفكيرٍ سديد؛ ويصلح أن يكونَ مؤرّخاً من الطِراز الأول لو لم يُقرِّر أنْ يُشكِّلَ مركز قوة في الكنيسة. ولكن كيفَ يمكن لأولئك الشبان الصغار أن يُقاوموا فرصةً للبروز؟ إنَّ الفلسفة لا توفِّر لهم أي شيء؛ أما الكنيسة فتوفِّرُ كلَّ شيء.

كان جوليان أشد حَذَراً من غريغوري مما ظننت. ولكنَّ لعلَّ هذا كان إدراكاً متأخراً. وعندما كان جوليان يُدوِّن مذكّراته، سألني عن رأيي في غريغوري فأكدتُ له أنه إذا

كان لديه عدو فهو هذا الخسيس. فلم يوافقني جوليان. ولكن من الواضح أنَّ ما قُلتُه تركَ بعض الأثر عليه. وكما قلت من قبل، لا أرغب في نشر هذه المذكرات. ومع ذلك، إذا ما نُشِرَتْ، فسأبتهج للأثر الذي ستتركه على أسقف القسطنطينية الجديد. يعجبه أنْ يتذكَّر العامة عهد شبابه حين كان كلبياً زائفاً.

من المُسلّي أيضاً المقارنة بين سلوك غريغوري الفعلي في أثينا وروايته لتلك الأيام التي قدَّمها لنا في مقطوعة الذم التي كتبها بُعيد موت جوليان. العمل أمامي الآن وأنا أكتب. إنه خالٍ تماماً من أي صدق. فمثلاً، يصفُ غريغوري شكل جوليان كما يلي: " كان عنقه مُقلقلاً، وكتفاه دائماً في حالة حركة، يهتزّان نحو الأعلى والأسفل ككفَّتَيّ ميزان، وتدور عيناه في محجريهما وترميان نظرات خاطفة ذات اليمين وذات الشمال وعلى وجهه تعبيرٌ مجنون، وقدماه ترتعشان وتتعثّران أثناء المشي، ومنخراه ينفثان غطرسةً وازدراءً، والتعبير المرتسم على وجهه يُثيرُ السخرية، ونوبات ضحكه لايضبطها ضابط وتخرجُ كعواصف هادرة، وإيماءات الموافقة والرفض غير ملائمة على الإطلاق، وحديثه يتوقَّفُ فجأةً يقطعه استنشاقه للهواء، وأسئلته لا معنى لها وغير متناسقة، وأجوبته ليست أفضل بأي حال من أسئلته...". إنَّ هذا ليس حتى تصويراً ساخراً جيداً. لا شك في أنَّ جوليان كان يُكثِرُ من الكلام؛ كان شديد التوق إلى التعلُّم وإلى التعليم؛ ويمكنه كثيراً أن يكونَ سخيفاً. لكنه ليس حتماً المخلوق المتشنّج الذي يصفه غريغوري. إنَّ خبثَ شخصٍ مسيحي حقّ يحاولُ أن يُدمِّرَ خصماً له هو شيءٌ نادرٌ في العالم. ليس هناك أي دين يعتبرُ أنَّ من الضروري تدميرُ الآخرين لأنهم لا يشاركونه المعتقدات نفسها. وفي أسوأ الأحوال، قد يثيرُ إيمانُ إنسانٍ آخر التسلية أو الاحتقار - على سبيل المثال، المصريون وآلهتهم من الحيوانات. ومع ذلك فالذين يعبدون الثور لا يحاولون أنْ يقتلوا الذين يعبدون الأفعى، أو أن يحوّلوهم بالقوة عن عبادة الأفعى إلى عبادة الثور. ليس هناك من شرٍ ولجَ العالمَ بتلك الحيوية الفائقة أو بذلك المجال الشاسع كما فعلَتْ المسيحية. إنني ليست بي حاجةٌ إلى أنْ أخبركَ أنَّ ملاحظاتي موجَّهةٌ إليك وحدك وهي ليست للنشر. إنني أدوِّنها الآن بهذه الطريقة المشوَّشة لأنني أجد نفسي أتأثَّرُ أكثر بكثير مما كنتُ أتوقَّع وأنا أستعيدُ ذِكرى ذلك الفصل في أثينا، ليس فقط من خلال عينيْ ذاكرتي بل من خلال عينَيْ جوليان.

وقد أكَّدَ غريغوري أيضاً أنه عَرَفَ حتى في ذلك الوقت أنَّ جوليان كان هلّينياً، ويتآمر سراً ضد المسيحية. وهذا غير صحيح. لعلَّ غريغوري خمَّنَ الجزءَ الأول (وإنْ كنتُ أشكُ في هذا)؛ إلاّ أنه حتماً ما كان له أنْ يعرفَ حقاً أنَّ جوليان كان يتآمرُ ضد دين الدولة، وذلك لأنَّ جوليان في ذلك الوقت لم يكن يقومُ بأي عملٍ تآمريّ ضد أي شيء. لقد كان خاضعاً لمراقبةٍ شديدة؛ أرادَ فقط أن يبقى على قيد الحياة. ومع ذلك كتب غريغوري يقول: " لقد استخدمتُ هذه الكلمات بالذات في وصفه: " أيُ شرٍ تربّي الأمةُ الرومانية "، مع أني صدَّرتُها بأمنيتي في أنْ يتَّضحَ أنَّ نبوءتي زائفة ". إذا كان غريغوري قد قال هذا لأي إنسان، فذلك خيانةً، لأنَّ جوليان كان وريثَ قسطنتيوس. وإذا كان غريغوري قد نطقَ بتلك النبوءة، فلابد أنَّه قد همسَ بها في أذن باسيل وهما في السرير معاً.

إنني أجدُ إشارة جوليان إلى ماكرينا مسلّية وماكرة. وسوف أخبرك القصة الحقيقية في الموقع المناسب، والاختيار لك في أنْ تستخدمها أم لا، كما تراه ملائماً. إنَّ رواية جوليان صحيحة ولكن فقط بقدرٍ ما. وأعتقدُ أنه أرادَ أنْ يصونَ سُمعتها، وسمعته أيضاً.

إنني أقابل ماكرينا بين حين وآخر. لطالما كانت بسيطة. أصبحتْ الآن شنيعة. ولكن هذا أيضاً حالي. وكذلك حال العالم كله، أصبحَ عجوزاً. ولكن في أيام صِباها كانت ماكرينا أشد فتيات أثينا إثارةً للاهتمام.

جوليان أوغسطوس.

لا أزالُ حتى يومي هذا أكنُّ لبروهيريسيوس أعظم الإعجاب. أقولُ " حتى اليوم " لأنه جليليٌ وقد عارضَ المرسوم الذي أصدرته بحرمان الجليليين من تعليم الآداب الكلاسيكية. وعلى الرغم من أني خرجتُ عن مألوف عادتي واستثنيته من لعنة الكنيسة، إلا أنه تقاعد. وحين قابلته، كان يُعتَبَر أشهر معلّم في المدينة في تدريس الخطابة منذ أربعين عاماً. بيته كبير يقعُ بالقُرب من نهر إليسوس. وهو - أو كان - يزدحمُ بالطلاب في ساعات النهار كافة، يطرحون الأسئلة، ويجيبون عنها.

في أول الأمر وقفتُ في خلفيّة الغرفة المزدحمة المعتمة وأخذتُ أراقبُ

بروهيريسيوس الجالس بارتياح على كرسي خشبي كبير. كان عندئذٍ في الثمانين من عمره : طويل القامة، حيوياً، ذا صدرٍ قوي، وعينين سوداوين خارقتين، تشبه عينيّ ابنة أخيه ماكرينا. كان شعره أبيضَ وكثيفاً ومتموجاً بكثرة عند الجبين، أشبه بزَبَد البحر على الشاطئ. كان رجلاً وسيماً بكل المقاييس، مع صوتٍ يلائمه. في الحقيقة، كان سيد البلاغة بحيث أنَّ كونستانس ابن عمه حين أرسله في مهمّة إلى روما، لم يكتفِ الرومان بالاعتراف بأنه أفصح من سمعوا من المتكلمين، بل إنهم أقاموا له تمثالاً برونزياً في الساحة العامة، عليه نقشٌ يقول : " من روما، ملكة المُدُن، إلى بروهيريسيوس، ملك البلاغة ". إنني أذكُرُ هذا لأؤكد على مواهبه، لأنَّ أهل مدينة روما هم الأشد إنهاكاً وضجراً في العالم. أو هذا ما يقوله لي الجميع. ولم أكن بعد قد زرتُ عاصمتي.

كان بروهيريسيوس يواسي طالباً يشكو الفقر. " ليس لدي ما أدافع به عن الفقر. ولكنه على الأقلّ محتمَل في عهد الشباب. إنه مِلْحُ الحياة. حين أتيتُ للمرة الأولى من أرمينيا إلى أثينا، عشتُ مع صديقٍ في عليّة، في مكانٍ قريب من شارع المسالخ. كنا نتقاسم رداءً واحداً وملاءة سرير واحدة. وفي فصل الشتاء كنا نقسِّم النهار إلى فترات مناوبة. حين يخرجُ هو، مرتدياً الرداء، أتكوَّم أنا تحت الملاءة. وحين يعود، ألبسُ الرداء ويستدفئ هو في السرير. لن تصدِّق كم كان ذلك مفيداً للإبداع. كنتُ أعِدُّ خطابات ذات بلاغة عالية حتى إني كنتُ أستدرُ الدموع إلى عيني وأنا ألقيها أمام تلك الملاءة العتيقة، وأسناني تصطكُ من البرد ". سادت همهمة التسلية. وانتابني إحساس بأنَّ تلك حكاية مفضّلة، تُحكى كثيراً.

ثم تكلَّمَ غريغوري معه بصوتٍ منخفض. أومأ بروهيريسيوس برأسه إيجاباً ونهضَ واقفاً. وذُهلتُ حين رأيتُ أنَّ طول قامته يقترب من سبعة أقدام.

قال للآخرين " لدينا زائر ". التفتت العيون كلها نحوي فأخفضتُ بصري نحو الأرض وقد ارتبكتُ. " إنه فقيه يتمتع ببعض الشهرة ". على الرغم مما ينطوي عليه هذا القول من المفارقة، إلا أنه قاله بشكلٍ مُحبَّب. " وابن أخ صديق شاب لنا، توفي الآن. أيها الزملاء الفقهاء، أيها الأنبل جوليان، وريث العالم المادي كله، بما أننا ورثة الأشياء الروحية، أو نحاول أنْ نكون كذلك "

سادت برهة من الفوضى. لم يكن الطلاب يعرفون كيف يتعاملون معي، هل

بوصفي فرداً من العائلة الإمبراطورية أم طالباً. عددٌ منهم ممّن كانوا جالسين نهضوا واقفين؛ والبعض انحنوا؛ وآخرون أخذوا ببساطة يحدِّقون. همسَتْ ماكرينا في أذني "تابع، أيها الأحمق! وجِّه كلامكَ إليه! "

استجمعتُ شتات نفسي وألقيتُ خطاباً، موجزاً جداً وفي صُلب الموضوع، أو هكذا ظننت. وقد أخبرتني ماكرينا لاحقاً أنه كان خطاباً مُطوَّلاً ومُدَّعياً. ولحسن الحظ، بعد أن أصبحت إمبراطوراً الآن صارتْ خطاباتي كلها تُعتَبَر لبِقة وفي صلب الموضوع. كم يتحسَّنُ أسلوب المرء مع العَظَمَة!

بعد ذلك جالَ بروهيريسيوس بين الطلاب، وهو يقدِّمني إلى هذا وذاك. كانوا خجولين، على الرغم من أني وضَّحتُ بعناية أني نويتُ أن أتردَّد على الجامعة كأي طالبٍ آخر.

تابعَ بروهيريسيوس خطابه فترةً قصيرةً أخرى، ثم صَرَفَ الطلاب وقادني إلى ردهة منزله. كانت أشعة الشمس عندئذٍ تسطعُ مائلةً من الغرب. من الطابق العلوي تناهى إلى سمعي صوت ضحك وشجار بين الطلاب الذين يقيمون هناك. وبين حينٍ وآخر كانوا يخرجون إلى الرواق ليُلقوا نظرةً سريعةً عليّ. ولكن حين يلمحونني أنظر أنا إليهم، يتظاهرون بأنَّ لديهم عملاً في غرفةِ شخصٍ آخر. كنتُ مستعداً أنْ أهبَ كثيراً مقابل أنْ أعيش مجهولَ الهوية في إحدى تلك الغرف العارية من الزخارف.

جلستُ على كرسي الشرف بجوار النافورة، بينما قدَّمَ بروهيريسيوس زوجته أمفيكليا إليّ. إنها امرأةٌ حزينة لم تتمكّن أبداً من تجاوز محنة موت ابنتيها. كانت نادراً ما تتكلَّم. من الواضح أنَّ الفلسفة لم تتمكن من مواساتها. وقابلتُ أيضاً والد ماكرينا، أنطوليوس، وهو رجل جلفٌ بدا أشبه بصاحب حانة، وهكذا كان فعلاً. لم تكن ماكرينا مولعة به.

استأذن باسيل وغريغوري بالرحيل. كان غريغوري كريماً جداً. فقد عرضَ أن يرافقني إلى كل المحضرات؛ سيكونُ دليلي. وباسيل لم يكن يقلّ عنه فتنةً مع أنه قال إنه ربما يضطر إلى الاستئذان من أغلب الجولات. " لم يبقَ غير بضعة أشهر لعودتي. ولدي كثير من الأعمال يجب إنجازها، هذا إذا تُركتُ وشأني ". وضغطَ كلتَا يديه على وَسَطه، وهو يرسم تعبير توجُّع ساخر. "أشعرُ كأنَّ كَبِدي تنهشه نسورُ بروميثيوس!"

وجدتُ نفسي أقول بسرعةٍ فائقة " إذن ابتعد عن تيارات الهواء، وإلاّ حبلت ووضعتَ بيضةَ نسر! ". فهمَ كلٌ من بروهيريسيوس وماكرينا التلميح وانفجرا بالضحك. لم يستمتع باسيل كثراً بهذا وندمتُ على السرعة التي تكلّمتُ بها. إنني غالباً ما أفعلُ ذلك. وهذا عيب. صافحني غريغوري بحرارة؛ ثم غادرَ مع باسيل. ولعلّه لا يزال حتى هذا اليوم يخشى أنْ أنتقمَ منه بسبب ما قاله عني. لكنني لا أتصرفُ هكذا، كما يعلم العالم كله.

شربنا خمراً في الحديقة. وسألني بروهيريسيوس عن شؤون البلاط. كان يهتمُ كثيراً بالسياسة، وفي الواقع حين أراد ابنُ عمي أنْ يخلع عليه لقَبَ النبالة كدلالة على الإعجاب، أسندَ إلى بروهيريسيوس لقَباً شرفيّاً هو الوالي الإمبراطوري. لكنَّ العجوزَ قال إنه يُفضِّلُ أن يكونَ المُشرِف على تموين مدينة أثينا (وهو لقبٌ ذو دلالة كان قسطنتيوس دائماً يحتفظُ به لنفسه). ثم، حين باشرَ ممارسة السلطة التي يخوِّلُهُ إياها لَقَبه، حوَّلَ مؤونة القمح لجُزرٍ عِدّة إلى أثينا. ولا حاجةَ إلى القول إنه أصبحَ بطلَ المدينة.

لقد ارتابَ بروهيريسيوس فيَّ منذ البداية. وعلى الرغم من كياسته بدا من خلال أسئلته أنه يحاولُ أنْ يدفعني إلى الاعتراف بالسبب الغامض لزيارتي لأثينا. وتحدَّثَ عن روعة ميلانو وروما، وعن حيوية القسطنطينية، وعن فساد إنطاكية الأنيق، وسِمة الذكاء الخارق لبرغامون ونيكوميديا؛ بل إنه مدحَ سيزاريا - " حاضرةُ صناعة الأدب "، كما كان غريغوري دائماً يشير إليها، من دون مزاح. وأعلنَ بروهيريسيوس أنَّ أياً من تلك المدن جديرةٌ بأنْ تجتذبني إليها أكثر مما تفعل أثينا. فقلتُ له بفظاظة إني أتيتُ لأراه.

فجأةً قاطعتني ماكرينا " والمدينة الجميلة أيضاً؟ "

كرَّرتُ طائعاً " والمدينة الجميلة "

فجأةً نهضَ بروهيريسيوس واقفاً. قال " فلنتمشَّ عند النهر؛ نحن الاثنين فقط "

عند نهر إليسوس توقّفنا أمام نبع كاليرهو، وهو أشبه بصخرة عائمة جُوِّفَتْ وشُكِّلَتْ بيد الطبيعة حتى إنها باتت بالفعل أشبه بنبع؛ تؤخذ منه المياه المقدّسة. جلسنا على المقعد، بين العشب الطويل وقد لَفَحنا حرُّ شهر آب. وَوَقَتْنَا أشجار الدلب من الشمس الغاربة. كان النهارُ مصطبغاً باللون الذهبي؛ والهواءُ ساكناً. وحولنا توزَّعَ

الطلابُ يقرؤون أو نائمون. وعبر النهر، فوقَ صفٍ من الأشجار المُغبرَّة، نهضَ جبلُ هايميتوس. وشعرتُ بالنشاط والخفّة.

أصبحَ بروهيريسيوس يخاطبني دون كِلفة كمخاطبة الأب لابنه " يا بُني العزيز، إنَّ النارَ تكادُ تحرقك "

كانت بداية غير متوقَّعة أبداً. استلقيتُ على طولي على طبقة العشب الكثيف الأسمر بينما جلسَ هو متصالب الساقين إلى جانبي، شديد الاستقامة، ظهره يستند إلى جذع شجرة دلب. رفعتُ بصري إليه، فلاحظتُ كم كان عنقه مستديراً ونضراً، وفكّه قوياً بالنسبةِ إلى سنّه.

" النار؟ نارُ الشمس؟ أم نارُ الأرض؟ "

ابتسمَ بروهيريسيوس. "لا هذه ولا تلك. ولا حتى نار جهنَّم، كما يقولُ المسيحيون"

" أليس هذا مُعتقدك؟ ". لم أكن متأكداً إلى أي مدى كان جليليّاً؛ ولا أزال، حتى الآن. لطالما كان متملِّصاً. ولا أصدِّقُ أنَّ مُعلّماً رائعاً مثله وهيلّينياً يمكن أنْ يكونَ واحداً منهم، ولكنَّ كلَّ شيءٍ ممكن، كما تُبيِّنُ لنا الآلهة يومياً.

قال " لسنا مستعدّين بعد للخوض في مثل هذه المحاورة ". وأومأ نحو النهر السريع المتضائل الذي يجري عند قدمينا. " هناك، بالمناسبة، دارت محاورة أفلاطون وفيدروس. في ذلك اليوم دار بينهم حديث خصب، وعلى هذه الضفة بالذات "

" هلاّ أقمنا ما يعادلها؟ "

" ربما، ذات يوم ". صمتَ. انتظرتُ، وكأنما لظهور نذير. " ذات يوم ستصبحُ إمبراطوراً ". قال العجوز هذا بصوتٍ متوازن، وكأنه يُعلنُ حقيقة.

" لا أريد أن أكونَ كذلك. أشكُ في حدوثه. تذكَّر أنه من بين أعضاء عائلتنا كلها، لم يتبقَّ غير قسطنتيوس وأنا. وكما رحل الآخرون، سأرحل أنا أيضاً. لهذا أنا موجودٌ هنا. أريدُ أنْ أشاهدَ أثينا أولاً "

" لعلّكَ صادقٌ فيما تدّعي. ولكنْ أنا... في الواقع، أعترفُ بأني ضعيف أمام استشارات الكهّان " صمتَ صمتاً ذا مغزى. كان ذلك كافياً. لو أضافَ كلمة واحدة أخرى لارتكبَ جرم الخيانة. كان ممنوعاً قانوناً استشارة الكهّان بشأن الإمبراطور – وهو، بالمناسبة، قانون ممتاز، إذ مَنْ يُريد أن يُطيع حاكماً موعدُ موته معروف وخليفته

مُعَيَّن...! يجب أن أعترفَ بأنّي صُعِقتُ من صراحة الرجل العجوز. ولكنّي أيضاً سُرِرتُ لأنه شعرَ بأنَّه يستطيع أنْ يثقَ بي.

" أهكذا يتنبؤون؟ ". لم أكنْ أقلَّ منه شجاعةً. لقد جرَّمتُ نفسي، أملاً في أنْ أثبت له إيماني الراسخ.

أومأ إيجاباً. " لم يُعيِّنوا اليوم، ولا السنة، فقط الحقيقة. لكنها ستكونُ مأساةً "

" بالنسبة إليّ؟ أم بالنسبة إلى الدولة؟ "

" لا أحد يعلم. لم يكن الكاهن واضحاً ". ابتسمَ. " نادراً ما يوضِّحون. أتساءلُ لماذا نؤمن بهم "

" لأنَّ الآلهة تكلَّمنا في الأحلام وفي اليقظة. هذه حقيقة. إنَّ كلاً من هومر وأفلاطون... "

" لعلّهم يفعلون. على أي حال، إنَّ عادة الإيمان عادةٌ قديمة... أنا أعرف عائلتكم كلها ". وبحركة متكاسلة نزعَ العشب الأسمر بيدين ثخينة العروق. " لقد كان كونستانس ضعيف الشخصية. ولكن كانت له خِصال حميدة. ولكنه لا يُعادل قسطنطيوس، طبعاً. أنت تعادله "

" لا تقُل هذا "

" إنني فقط أراقب ". وفجأةً التفتَ نحوي. " والآن أخمِّنُ يا جوليان أنكَ ستُعيد عبادة الآلهة القديمة "

توقَّفَ تنفُّسي. " إنكَ تُغالي في الافتراض ". ارتعشَ صوتي على الرغم من صعوبة النبرة التي كانت جديرة بأنْ تُنصِف كونستانس نفسه. والمرء يتعلَّم عاجلاً أو آجلاً الخدعة السيزارية : ذلك التغيُّر السريع في نبرة الصوت تذكِّرُ بصورة تقريبية بالقضيب والفأس اللذَين نسلِّطهما على رؤوس الناس جميعاً.

قال العجوز، بصفاء " آمل أن يكون كلامكَ صحيحاً "

" أنا آسف. ما كان ينبغي أنْ أتكلَّم بتلك الطريقة. أنتَ المعلِّم "

هزَّ رأسه نفياً. " كلا، بل أنت المعلِّم، أو ستكون قريباً. أنا أريدُ فقط أنْ أكون ذا فائدة. لكي أنبِّهكَ إلى أنه على الرغم مما قد يقوله أستاذك ماكسيموس، فالمسيحيون فازوا "

" لا أصدِّق ما أسمع! ". ذكَّرتُهُ بضراوة وبأسلوبٍ تعوزه اللباقة أنه فقط جزءٌ صغير من الرعايا الرومانيين هم من المسيحيين في الواقع.

سألني، مُقاطِعاً خطابي الطنّان، " لماذا تُطلِق عليهم لقب جليليين؟ "

" لأنَّ الجليلي جاء من هناك! "

قرأ بروهيريسيوس ما يدور في ذهني. قال " أنت تخشى كلمة " مسيحي "، لأنه يوحي بأنَّ الذين يُسمّون أنفسهم هكذا هم في الواقع أتباع ملِك، رب عظيم "

تملَّصتُ منه. قلت " إنَّ مجرَّد الاسم لا يؤثِّر على حقيقتهم ". ولكنه على حق. الاسم يشكِّلُ خطراً علينا.

تابعتُ المناظرة : إنَّ أغلب العالم المتحضِّر لا هو هيلّيني ولا جليليّ، ولكن مُعلَّقٌ بينهما. والغالبية العظمى من الناس تكره الجليليين، لسببٍ وجيه. لقد ذُبِحَ عدد غير معقول من الأبرياء بسبب مشاجراتهم العقائدية الحمقاء. يكفي أن أذكُر جريمة قتل الأسقف جورج في الإسكندرية لكي أعيد بحيوية إلى أذهان الذين يقرؤون هذا وحشيةَ ذلك الدين، ليس فقط تجاه أعدائه (الذين ينعتونه بأنه " عاقّ ") ولكن أيضاً تجاه أتباعه.

حاولَ بروهيريسيوس أنْ يجادلني، ولكن على الرغم من كونه أشد الرجال بلاغةً، رفضتُ أنْ أصغي إليه. وأيضاً، كان ساذجاً بشكلٍ غير معهود في دفاعه عن الجليليين، مما دفعني إلى الشكّ في أنه ليس واحداً منهم. إنه، ككثيرين غيره، ضائعٌ بين الهلّينية وعبادة الموت الجديدة. ولا أنا معتقدٌ أنه يتصرَّف بصورةٍ آمنة فقط. إنه حائرٌ حقاً. إنَّ الآلهة القديمة تبدو بالفعل أنها تخذلنا، ولطالما قبلتُ إمكانية أنْ تكون قد انسحَبَتْ عن الاهتمام بشؤون البشر، على الرغم من فظاعة هذه الفكرة. لكنَّ العقلَ لم يخذلنا. والفلسفة لم تخذلنا. ومن هومر إلى أفلاطون إلى إيامبليخوس والآلهة الحقيقية تُعرف من خلال أوجهها وقدراتها : التعدّدية مجتمعة في الواحد، والكل ينبثقُ من الحقيقة. أو كما كتب أفلوطين يقول : " الروح تحبُ الله بالفطرة وتتوقُ إلى الاتّحاد به ". وطالما أنَّ روحَ الإنسان موجودة، فالله موجود. الأمرُ غايةٌ في الوضوح.

كنتُ أدرِكُ أني ألقي خطاباً أمام سيد البلاغة، ولكنني لم أتمكَّن من التوقُّف. والطلاب الناعسون انتصبتْ قاماتهم ونظروا إليّ بفضول، وقد اقتنعوا بأني مجنون،

لأني كنتُ ألوِّحُ بذراعيَّ على هيئة أقواسٍ عظيمة كما أفعلُ عادةً حين يتولاني الحماس. وقد تقبَّلَ بروهيريسيوس الأمرَ كله قبولاً حَسَناً.

أخيراً قال " آمِنْ بما تشاء "

" ولكن أنتَ أيضاً تؤمن! إنكَ تؤمن بما أؤمن. لابد أنكَ كذلك وإلاّ لما تمكَّنتَ من ممارسة التعليم كما تفعل الآن "

" أنا أرى المسألة من زاويةٍ مختلفة. هذا كل ما في الأمر. ولكن حاولْ أن تكونَ عملياً. لقد بُتَّ الأمر. والمسيحيون يحكمون العالمَ عبر قسطنتيوس. إنَّ في رصيدهم ثلاثين عاماً من الثروة والسلطة، ولن يستسلموا بسهولة. لقد جئتَ متأخراً، يا جوليان. طبعاً لو كنتَ في مكان قسطنطين وحدثَ هذا قبل أربعينَ عاماً وجلسنا نتفكَّر في هذه المشاكل ذاتها، فربما كنت قلتُ لكَ : " اضربْ! جَرِّمهُمْ! أعِدْ بناء المعابد! "، ولكنَّ اليومَ ليس كالأمس. وأنتَ لست قسطنطين. إنَّ العالمَ لهم. وأفضل ما يمكن لنا أن نأمل في أن نفعله هو أن نمدِّنهم. لهذا أنا أمارس التعليم. ولهذا ليس في وسعي أنْ أساعدك.

في ذلك اليوم احترمته. وأحترمه الآن. وإذا كان لا يزال على قيد الحياة مع انتهاء هذه الحَملة، فسوفَ أبدي رغبتي في التحدُّث معه ثانية. كم نتوقُ كلنا إلى إقامة الأحاديث!

وكمتآمرَين، عُدنا إلى منزله. كان الرباط بيننا قد أضحى متيناً ولا يمكن فصمه، ذلكَ أنَّ كلاً منا باحَ للآخر بأمورٍ صحيحة وخطرة. وكان الخوف يصبغ صداقتنا ويضيف إليها نكهةً خاصة.

في الردهة المعتمة، كان الطلاب مرة أخرى يتجمّعون، يتحدثون بحماس كلهم دفعةً واحدة كعادة الطلاب. وحين لاحظوا دخولنا، رانَ عليهم الصمت. أعتقد أنَّ مرآي أفزعهم. لكنَّ بروهيريسيوس قال لي إني سأُعامَل كأي طالبٍ آخر.

" طبعاً هذا لا يعني أنه كأي طالب آخر، على الرغم من وجود اللحية والملابس العتيقة ". ضحكوا. " إنه مختلف عنا ". كدتُ أقول إنه حتى أعضاء عائلة قسطنطين يحملون بعض (إذا لم نقُل كثيراً من) الشَبَه من العائلة الإنسانية، فإذا به يقول : "إنه فيلسوف حقيقي. لقد اختارَ أن يكون ما ينبغي علينا أن نكونه ". وقد قوبلَ كلامه بشيءٍ من الابتهاج. ولم تتبدَّ لي المفارقة فيما قاله إلا بعد مرور يوم كامل.

أمسكتْ مارينا بي من ذراعي وقالتْ " يجب أن تقابل بريسكوس. إنه أبغض مَنْ عرفتُ في أثينا كلها "

جلسَ بريسكوس على مقعدٍ بلا ظهر، يُحيطُ به الطلاب. إنه رجلٌ نحيل، بارد تعبير الوجه ، يقترب طول قامته من قامة بروهيريسيوس. حين اقتربنا منه نهضَ واقفاً وغمغمَ " أهلاً ". وقد سرَّني أنْ أقابل هذا الأستاذ العظيم الذي طالما عرفته من خلال سُمعته، لأنه مشهورٌ من خلال ذكائه بقدر شهرته بسبب جوانب شخصيته الغامضة. وهو أيضاً خالٍ تماماً من أي حماس، مما جعلَه على الفور يبرز أمام عيني لأنني غالباً ما أتحمَّس للتوافه. وقد أصبحنا صديقَين منذ البداية. وهو الآن معي في بلاد فارس.

قالت ماكرينا، بعد أنْ التفتت إليّ، وهي تضعُ يدها على ذراع بريسكوس النحيلة وكأنها تقدِّمه إليّ لكي نباشر جولة من المصارعة، " حاول أنْ تثبِّته، على أي شيء. إننا ننظر إليه بوصفه ضليعاً في التملُّص. إنه لا يجادل أبداً "

حرَّرَ بريسكَوس ذراعه من قبضة ماكرينا مع تعبيرِ امتعاضٍ أعرفه جيداً (وأخشاه حين يوجِّه نحوي!). " ولماذا أجادل؟ أنا أعرف ما أعرفه. والآخرون دائماً يهمّون إلى إخباري عما يعرفونه هم، أو يعتقدون أنهم يعرفونه. لا حاجة إلى المواجهة "

" ولكن ألا ينبغي أنْ تكتشف الأفكار الجديدة التي تتمخَّض عن الجِدال؟ ". كنت ساذجاً، طبعاً؛ وضغطتُ أكثر. " إنَّ سقراط، منذ البداية، قاد الآخرين إلى الحِكمة من خلال المجادلة وتبادل الحديث "

" الأمران ليسا شيئاً واحداً. إنني أعلِّمُ عبر المحادثة، أو أحاولُ أنْ أفعل. لكنَّ المحادثة هي شرُ هذه المدينة. فأصحاب الألسن الزلقة يستطيعون دائماً تقريباً أن يتغلَّبوا على الأكثر حكمة والأقل كلاماً. وأسلوب الكلام في هذه الأيام هو الأهمّ؛ أما المضمون فبلا أهمية. إنَّ أغلب السوفسطائيين ممثلون - والأسوأ من ذلك أنهم محامون. والشبان يدفعون نقوداً لكي يسمعوا أداءهم، كمغنّي الشوارع "

" إنَّ بريسكوس يُهاجمني! ". كان بروهيريسيوس قد انضمَّ إلينا. وقد تسلّى بما بدا بجلاء أنه أسلوب قديم في المناقشة.

" أتعرف ما هو رأيي ". كان بريسكوس صارماً. " إنكَ أسوأ المجموعة لأنكَ أفضل المؤدّين ". والتفتَ إليّ. " إنه من شِدَّة البلاغة بحيث أنَّ كل سوفسطائي في أثينا يكرهه "

علّقَت ماكرينا " الكل إلاّ أنتَ "

تجاهلها بريسكوس. " قبل بضع سنوات قرَّرَ المنعمون عليه أنه قد أصبح محبوباً أكثر مما ينبغي. لذا رشوا البروقنصل[٧٥]... "

قالتْ ماكرينا " حذارِ، يجب ألاّ نتكلّم عن رشوة موظفي الحكومة أمام مَنْ ربما يصبح ذات يوم أعظم الموظفين الحكوميين قاطبةً "

قال بريسكوس، وكأنها لم تتكلّم، " رشوا البروقنصل لكي ينفوا مضيفنا. وتمَّ ذلك. ولكن البروقنصل تقاعدَ وخلفَه شابٌ صغير كان من شدّة السخط مما حدث بحيث أنه سمحَ لبروهيريسيوس بالعودة. لكنَّ السوفسطائيين لم يستسلموا بسهولة. وتابعوا التآمُر على أستاذهم. لذا عقدَ البروقنصل اجتماعاً في مقر الجامعة... "

" تلبيةً لاقتراحٍ من عمي "

سُرَّ بروهيريسيوس. " إنَّ ماكرينا لا تترك لنا أي سر. نعم، أحطته علِماً بالأمر. أردتُ أن أجمع أعدائي كلهم في مكانٍ واحد لكي أتمكّن من... "

قالت ماكرينا " قتلهم "

قال عمّها " الفوز عليهم "

قالتْ ماكرينا " ضربهم "

تابعَ بريسكوس. " كان عرضاً رائعاً. وقد تجمَّع الكلّ في القاعة الرئيسية من الجامعة. كان الأصدقاء متوتري الأعصاب، والأعداء نشطين. وصل البروقنصل، وتولى زمام الاجتماع. أعلنَ أنه يجب اقتراح موضوع على بروهيريسيوس ليناقشه. أي موضوع. ولم ينطق أحدٌ بكلمة "

" إلى أنْ شاهدَ عمي اثنين من أسوأ أعدائه يدخلان خلسةً من الخلف. فدعاهما لاقتراح موضوع. حاولا أن يفرا هاربَين، لكنَّ البروقنصل أمرَ حرّاسه بإعادتهما "

بدا بريسكوس صارماً حقاً. " اقترحُ أنَّ الحرّاس هم الذين فازوا لفضيلتهم "

" يا للسان بريسكوس المعسول! ". ضحكَ العجوز. " لعلّكَ على حق. وإنْ كنتُ أعتقد أنَّ حكم العدوّين السيئ هو الذي قدَّم المساعدة الأفضل، ذلك أنهما اقترحا لي موضوعاً يتَّصفُ بفحشٍ استثنائيّ وأفقٍ ضيِّق "

" أي جانب من شخصية المرأة هو الأشد إمتاعاً واجهتها أم ظهرها ". كشَّرَت ماكرينا.

قال بريسكوس " لكنّه قَبِلَ التحدّي؛ تكلَّمَ بفعاليةٍ بالغة حتى إنَّ الحضور حافظوا على صمتٍ فيثاغوريّ.

" وأصرَّ أيضاً على أن يُدوِّن كَتَبَةُ اختزالٍ من المحكمة الشرعية كل كلمة ". كانت ماكرينا فخوراً، بشكلٍ غير مباشر، ببراعة عمّها الفائقة. " وأصرَّ أيضاً على ألاّ يُصفِّق أحد "

تابعَ بريسكوس " لقد كان خطاباً للذكرى. أولاً، عَرَضَ المناظرة بكل دقائقها. ثم اتَّخَذَ جانب أحد الأطراف... الأمامي. وبعد ساعة، قال " والآن لاحظوا بانتباه إنْ كنتُ أتذكَّر المناظرات التي استخدمتُها قبل قليل ". ثم أخذ يُكرِّر الخطاب بكل تفصيلٍ معقَّد فيه، إلاّ أنه في هذه المرة اتَّخَذَ جانب وِجهة النظر المقابلة... الخلفي. وعلى الرغم من أمر البروقنصل، ملأ التصفيق أجواء القاعة. كان أعظمَ انتصارٍ للذاكرة والبلاغة في عصرنا "

" ثم...؟ ". كان بروهيريسيوس يعلم أنَّ بريسكوس لن ينتهي دون أن يُحدِث تحوُّلاً مفاجئاً.

" ثم؟ لقد هُزِمَ أعداؤكَ هزيمةً نكراء؛ وقد كانوا من قبل يحتقرونكَ وأصبحوا الآن يكرهونكَ ". والتفتَ بريسكوس إليّ " وفي العام الذي تلا كادوا يقتلونه. ولا يزالون يتآمرون ضده "

" وعلامَ يبرهنُ هذا؟ ". كان بروهيريسيوس لا يقلُّ عني توقاً إلى معرفةِ ما يدورُ في ضمير بريسكوس.

" إنَّ إحراز الانتصارات في المناظرات شيءٌ لا فائدة منه. إنها مُبهرجة. وما يتمُّ التعبير عنه بالكلام دائماً يُسبِّبُ من الغضب أكثر مما يُسبِّبه أي صمت. وهذا النوع من النقاش لا يُقنع أحداً. وبعيداً عن الحسد الذي يُثيره مثل هذا الانتصار، هناك مشكلة المهزوم. إنني أتحدَّثُ الآن عن الفلاسفة. إنَّ المهزوم، حتى إذا أدركَ في نهاية المطاف أنه يقاتل الحقيقة، يتألم من إثبات خطئه عَلَناً. حينئذٍ يصبحُ همجياً وعُرضَة لأنْ ينتهي به الأمر إلى كراهية الفلسفة. إنني أفضِّل ألاّ أخسر أحداً من أجل الحضارة ".

وافقه بروهيريسيوس " أحسنتَ القول "

قالت ماكرينا الشيطانة " " أو ربما أنتَ نفسك لا تريد أن تخسر مناظرةً، لعلمكَ

أنَّه خليقٌ بكَ أن تشعرَ بالمرارة نتيجة الإذلال العَلَني. آه، يا بريسكوس، كم أنتَ تافه! إنكَ ترفض المنافسة مخافةَ ألاّ تفوز. والواقع هو أنه لا أحد منا يعرف مدى حكمتكَ. إنَّ الصمت هو أسطورته، أيها الأمير. وهذا يزيد من عَظَمَته. وفي كل مرة يتكلّم بروهيريسيوس يُقلّل من قيمة نفسه، لأنَّ الكلمات تُقلّل من قيمة كل شيء، لأنها هي قليلة القيمة. لهذا كان بريسكوس هو الأكثر حِكمة : إنَّ الصمت لا يمكن الحكم عليه. الصمتُ يُخفي الأشياء كلها أو لا شيء. وحده بريسكوس يستطيع أنْ يُخبرنا ما يُخفيه صمته، ولكن بما أنه لن يفعل، فإننا نرتابُ في عَظَمَته "

لم يُدلِ بريسكوس بجواب. كانت ماكرينا هي المرأة الوحيدة التي عرفتُها تعرف كيف تتكلّم مع كثير من الالتواءات والمنعطفات الغريبة. إنَّ السخرية ليست شيئاً عادياً بالنسبة إلى المرأة، غير أنَّ ماكرينا لم تكن بأي حال امرأة عادية. وقبل أن تُتاح لنا الفرصة لنرى إنْ كان بريسكوس سيجيبها، قاطَعَنا وصول حارسي الخاص، بالإضافة إلى ضابطٍ من بطانة البروقنصل. وكان قد شاعَ في أثينا كلها أنني كنتُ في منزل بروهيريسيوس. ومن جديد تمَّ حجزي.

بريسكوس : لقد كانت ماكرينا بنت حرام. وكلنا بغضناها، ولكن لأنها كانت بنت أخي بروهيريسيوس تحمّلناها. إنَّ وصف جوليان للقائنا الأول ليس دقيقاً. بمعنى، أنَّ ما يتذكّره هو ليس ما أتذكّره أنا. فمثلاً، هو يقول إنَّ حارسه الشخصي وصلَ قبلَ أنْ أجيب ماكرينا. وهذا غير صحيح. لقد أخبرتها في التو واللحظة أنَّ صمتي يُخفي شَفَقَة على نقائص الآخرين الفكرية بما أني لا أرغبُ في إيذاء أحد، حتى هي. وقد أثارَ هذا بعض الضحك. بعد ذلك وصلَ الحرّاس.

سوف أعطي انطباعي الأول عن جوليان للتاريخ. كان شاباً وسيماً، قويّ الصدر ككل أفراد عائلته، مفتول العضل، وهذه هبة من الطبيعة بما أنه في ذلك الوقت كان نادراً ما يمارس التمارين. كان منهمكاً أكثر بكثير في الكلام. ولم تخُن الدقة غريغوري حين وصفَ انقطاع أنفاس جوليان وأحاديثه المتواصلة. في الواقع، كنتُ أقولُ له " كيف تتوقّع أنْ تتعلمْ أي شيء في وقتٍ تتولّى أنت الكلام كله؟ "، فيضحك بإثارة ويقول " لكنني أتكلّم وأصغي في وقتٍ واحد. هذا فنٌ خاصٌ بي! " ولعلَّ هذا صحيح. كنتُ دائماً أُدهَش من مقدار ما يستوعب.

لم أعرف بأمر حديثه مع بروهيريسيوس إلاّ بعد أنْ قرأتُ المذكرات. لم يخطر في بالي أبداً أنَّ العجوز يتَّصف بذلك القدر من المكر والشجاعة. لقد كان من الخطر الاعتراف لأمير غريب بأنه استشارَ كاهناً. ولكن كانت نقطة ضعفه دائماً هي الكهّان.

إنَّ العجوز لم يكن مرةً محطّ إعجابي. ولطالما شعرتُ أنه ينطوي أكثر مما ينبغي على ديماغوجي[٧٦] وأقلّ مما ينبغي على فيلسوف. وقبِلَ أيضاً دورَ الرجل العجوز العظيم بجدّية. كان يُلقي خطابات تتناول أي موضوع، وفي أي مكان؛ ويعتني بالأمراء كما يعتني الأساقفة بالرُفات. كان خطيباً مفوَّهاً، أما كتاباته فكانت مُبتذلة.

دعني أخبرْكَ شيئاً عن ماكرينا! بما أنَّ جوليان ليس نزيهاً وإذا لم أخبركَ لنْ تعرف أبداً. لقد كانا مرتبطَين بعلاقة حب كانت حديث المدينة. وقد تصرَّفَتْ ماكرينا بفظاظتها المعهودة، بمناقشة تلك العلاقة مع كل شخص بتفاصيلها الحميمة. وأعلَنتْ أنَّ جوليان عاشق رائع، مُشيرةً إلى أنَّ تجربتها الخاصة واسعة. في الواقع، لعلّها كانت ما تزال عذراء حين تقابلا. لم يكن هناك كثيرٌ من الرجال من نمطها يمكن أنْ يتكبّدوا مشقَّة فضّ بكارتها. إنَّ أثينا، قبل أي شيء، شهيرة بالفتيات الراضيات عن أنفسهنَّ، وليس كثيرٌ من الرجال يحبون أن يضاجعوا نساءً ثرثارات، خاصةً إذا توفّرَ عددٌ وافر من الصامتات. أنا متأكّد من أنَّ جوليان كان أول عشيق لماكرينا.

في ذلك الوقت كانت هناك رواية مضحكة تدور، مشكوكٌ في صحَّتها طبعاً. فقد سمع أحدهم جوليان وماكرينا أثناء ممارستهما الحب. ومن الواضح أنَّ كلاً منهما استمرَّ في الكلام أثناء العملية. ويبدو أنَّ ماكرينا كانت تُفحِمُ حُجَجَ الفيثاغوريين بينما كان جوليان يُعيد إقرار القوى الأفلاطونية، حدث ذلك قبل وأثناء الرعشة الجنسية. وكانا مُتكافئَين.

نادراً ما ذكَرَ جوليان ماكرينا أمامي. كان يشعر بالحَرَج، لعلمه أني أعرفُ بأمر علاقتهما. آخر مرة تحدَّثنا فيها عنها كانت في بلاد فارس حين كان يُدوِّن المذكَّرات. أراد أنْ يعرف ماذا حلَّ بها، ومَنْ تزوَّجَتْ، وكيف أصبحَ شكلها. فأخبرتُهُ أنه زادَ وزنها قليلاً، وأنها تزوَّجَتْ من تاجر سَكَندري يعيشُ في بيريوس، وأنها أنجَبَتْ ثلاثة أطفال. لم أخبره أنَّ أكبر أولادها هو ابنه.

نعم. هذه هي الفضيحة الشهيرة. فبعد سبعة أشهر من مغادرة جوليان لأثينا، وَضَعَتْ ماكرينا. وأثناء فترة الحمل مَكَثَتْ مع والدها. وعلى الرغم من سلوكها الجريء

كانت مُحافِظة في هذا الأمر بصورة مُدهشة. كانت في حاجة ماسّة إلى زوج على الرغم من أنه كان معروفاً على نِطاق واسع أَنَّ ابنَ الحرام هو ابن جوليان وبالتالي علامة تُشرِّف الأم. ولحُسن الحظ، تزوَّجها السكندري وأعلنَ أنَّ الطفل ابنه.

كنت أرى الصبي بين حينٍ وآخر بينما هو يكبر. إنه الآن في عشرينات عمره ويبدو بصورةٍ ما أقرب شَبَهاً بوالده، مما جعلَ من اجتماعي به أمراً صعباً. وعلى الرغم من كوني رواقيا[٧٧]، ففي ذكريات معيَّنة هناك ألم. ولحسن الحظ، فإنَّ الفتى يعيشُ الآن في الاسكندرية، وهناك يُديرُ مكتب تجارة زوج أمه. وقد أخبرتني ماكرينا ذات مرة، أنه لا يهتم مُطلقاً بالفلسفة. وهو مسيحيٌ تقي. إذن فهذه هي نهاية آل قسطنطين. هل كان جوليان يعلم أنَّ له ابناً؟ أعتقدُ أنْ لا. إنَّ ماكرينا تُقسِم على أنها لم تُخبره أبداً، وأكادُ أصدِّقها.

قبل بضع سنوات قابلتُ ماكرينا في ما نسمّيه نحن الآثينيين بالساحة العامة الرومانية. تبادلنا التحيّات بودّ، وجلسنا معاً على دَرَج برج الساعة المائيّة. سألتها عن ابنها.

" إنه وسيم؛ يشبه أباه تماماً، إمبراطور، إله! ". لم تكن ماكرينا قد فَقَدَتْ شيئاً من سيل لغتها القديم العنيف، على الرغم من أنَّ حِدَّة ذكائها قد خفَّتْ قليلاً. " لكني غير نادمة "

" على الشَبَه؟ أم على كونكِ أم ابن جوليان؟ "

لم تُجِب. نظَرَتْ بشرود عبر الساحة المُزدحمة كعهدها دائماً بالمُحامين وبجُباة الضرائب. كانت عيناها السوداوان تتلألآن كما تفعلان دائماً، على الرغم من أنَّ وجهها أصبحَ مُترهِّلاً وتراخى صدرها الضخم من الأمومة ومن التقدُّم في السن. التفتت إليّ بسرعة. " لقد أرادَ أن يتزوجني. هل كنتَ تعرف هذا، يا بريسكوس؟ كان يمكن أنْ أكون إمبراطورة روما. يا لها من فكرة! هل كان سيُعجبك هذا الوضع؟ هل تعتقد أنني كنتُ سأبدو... مُزخرَفة؟ شيء غير عادي حتماً. كم عدد الإمبراطورات اللواتي كُنَّ فلاسفة لصالحهنَّ؟ كان الأمر سيكون مسلّياً. كان يجب أنْ أضع كثيراً من الجواهر الكريمة، مع أني أكره الزينة. انظُر إليّ! "، وشدَّتْ طرفَ ثوبها البسيط الذي ترتديه. وعلى الرغم من ثروة زوجها، لم تكن ماكرينا تضع أقراطاً، أو دبابيس زينة، أو مشطاً

في شعرها، ولا جواهر في أذنيها. " ولكن على الإمبراطورات أنْ يُتقنَّ أدوارهنَّ. لا خَيَار لهنَّ. طبعاً كانت شخصيتي ستسوء. كنتُ سأمثِّل شخصية ميسالينا[٧٨] "

" أنتِ؟ شَبِقة؟ "، لم أتمالك نفسي من الضحك.

" حتماً! ". هكذا ردَّتْ بحدَّتها القديمة باقتضاب؛ كانت العينان السوداوان فكهتَين. " إنني زوجة وفيّة الآن لأنني بدينة ولا أحدَ يريدني. على الأقلّ لا أحد ممَّن أريدُ أنْ يُريدني. لكنني أنجذبُ إلى الجمال. كنتُ أودُّ أن أصبح عاهرة! غير أني كنتُ سأودُّ أن أنتقي زبائني، ولهذا كنتُ سأحبُ أن أصبحَ إمبراطورة! كان التاريخ سيُحبني أيضاً! ماكرينا الشَبِقة! "

إنَّ مَنْ شاهدنا نجلس على ذلك الدَرَج ربما تساءلَ : يا لهما من زوجٍ مُحتَرَمَين جداً! فيلسوفٌ عجوز وعقيلته الجليلة، يتناقشان برصانة حول أسعار القمح أو عِظة الأسقف الأخيرة. لكنَّ ماكرينا كانت ترنِّمُ ترتيلة الشَبَق.

" ماذا كان جوليان سيظن؟ ". نجحتُ في قول هذا قبل أن تسترسل في إعطاءِ عددٍ هائل من التفاصيل الدقيقة عن شهوتها. غريبٌ قِلّة اهتمامنا بالرغبات الجنسية لأولئك الذين يجذبوننا.

" لا أدري ". وصمتت. " لستُ واثقة من أنه لم يكن ليمانع. لا، لا، لا، كان سيُمانع حتماً. أوه، ليس بدافع الغيرة. أعتقد أنه غير قادر على ذلك. هو ببساطة يكره الإفراط. وأنا كذلك، في المسألة نفسها، لكنَّ الفرصة لم تُتَح لي أبداً للإفراط، إلا في الأكل، طبعاً "، وربتَتْ على نفسها. " أترى النتيجة؟ طبعاً لا أزالُ أُعتَبَرُ جميلة في بلاد فارس. إنهم يشتهون النساء البدينات ". ثم قالت : " هل ذَكَرَ لكَ هذا مرةً؟ مؤخّراً؟ حين كنتَ معه في بلاد فارس؟ "

هززتُ رأسي نفياً. لستُ متأكِّداً من السبب الذي دفَعَني إلى الكذب عليها، إلاّ إذا كانت الكراهية دافعاً كافياً.

" كلا، أعتقدُ أنه ما كان ليفعل ". لم يبدُ عليها الحزن. إنَّ قوَّة أنانيتها تفرضُ الإعجاب بها. " قبل أنْ يعودَ إلى ميلانو أخبرني بأنه إذا كُتبَتْ له الحياة فسوفَ يتزوجني. وخِلافاً لما دار من شائعات، لم يكن يعلم بأنني كنتُ حُبلى حينئذٍ. أنا لم أخبره أبداً. لكنني أَخبرته بأني أرغبُ في أنْ أكونَ زوجته، على الرغم من أنّه لو كان

قسطنتيوس يُعِدُّ له خِططاً أخرى (وهذا ما فَعَلَه طبعاً) لما حَزِنْت. آه، كم كنتُ فتاةً رائعة! "

" هل سمعتِ أيَّ شيءٍ عنه بعد ذلك؟ "

هزَّتْ رأسها نفياً. " بل ما وَصَلَتني منه رسالة. ولكن بعد أنْ أصبحَ إمبراطوراً بوقتٍ قصير أمرَ بروقنصل اليونان الجديد أنْ يأتي ويُقابلني ويسألني إنْ كنتُ بحاجةٍ إلى أي شيء. لن أنسى ما حييت نظرةَ الدهشة التي ارتسمَتْ على وجه البروقنصل حين رآني. لقد تأكَّدَ من نظرةٍ واحدة من أنَّ جوليان لا يمكن أنْ يكون قد أبدى أيَّ اهتمامٍ بتلك المرأة البدينة. لقد ذُهِلَ، ذلك المسكين. أتعتقد أنَّ جوليان يعلمُ بأمر ابننا؟ لم يكن ذلك السر محفوظاً جيداً "

قلتُ إنني لم أعتقد ذلك. ولا أزال. إنني حتماً لم أخبره، ومَنْ غيري كان سيجرؤ على فعل ذلك؟

" هل تعرّفتَ إلى زوجة جوليان؟ "

أومأتُ إيجاباً. " في بلاد الغال. كانت أكبر منه سناً بكثير. وعاديّة جداً "

" هذا ما سمعتُه. إنني لم أكن مرةً غيورة. فقبل أي شيء، لقد أُجبِرَ على الزواج منها. أحقاً أضْرَبَ عن الزواج بعد موتها؟ "

" هذا ما أعرفه "

" لقد كان غريبَ الأطوار! أنا واثقةٌ من أنَّه كان جديراً بالمسيحيين أنْ يجعلوا منه قديساً لو أنه واحد منهم، ولكانت عظامه الهشّة في هذه اللحظة بالذات تشفي من آلام الكبد. لكنَّ هذا كله انتهى الآن، أَليس كذلك؟ ". وألقَتْ نظرةً إلى الساعة المائية خلفنا. " لقد تأخَّرت. بكَمْ رشوتَ مُخمِّنْ الضرائب؟ "

" إنَّ هيبيا هي التي تهتم بهذه الأمور "

" النساء أفضل في مثل هذه الأشياء. الأمر يتعلّق بالتفاصيل. نحن نبتهج بها. إننا أطفال العَقْعَقْ ". نهَضَتْ بتثاقُل، بشيءٍ من الصعوبة. ثبَّتَتْ نفسها على جدار البرج الرخامي الأبيض. " نعم، كنتُ أودُّ أن أصبح إمبراطورة روما "

" أشكُّ في هذا. لو أنكِ أصبحتِ إمبراطورة، لكنتِ الآن ميّتة. كان المسيحيون قتلوكِ "

" أتظن أنَّ ذلك كان سيهمّني؟ "، والتفَتَتْ بكامل جسمها نحوي وتوهَّجَتْ عيناها السوداوان كالسَّبج[٧٩] في الشمس. " ألا تُدرِك - ألا تفهم من مجرَّد النظَر إليّ، يا عزيزي العجوز الحكيم بريسكوس - أنه لم يمرّ يومٌ واحدٌ خلال عشرين عاماً لم أتمنَّ خلالها الموت! "

تركتني ماكرينا على الدرَج بينما كنتُ أراقبُ القامة المُتبلّدة تتهادى في مشيتها خلال الحشد نحو مكتب القاضي. وتذكَّرتُ كيف كانت قبل سنين عديدة ويجب أنْ أعترفْ للحظة بأني تأثَّرتُ بإلحاح ذلك الصراخ الصادر من القلب. لكنَّ ذلك لا يُغيِّر حقيقة أنها كانت ولا تزال امرأةٌ كريهة بشكلٍ سامٍ. ومنذ ذلك اليوم لم أتحدث معها أبداً، على الرغم من أننا دائماً نتبادل الإيماء بالرأس حين نتقابل في الشارع.

-٨-

جوليان أوغسطوس.

بعد أسبوع من وصولي إلى أثينا قابلتُ هيروفانت[80] اليونان. وبما أني لم أرغب في أنْ يعلم البروقنصل بأمر ذلك اللقاء، تمَّ الإعداد على أنْ يجري في مكتبة هادريان، وهو بناء لا يتردَّد عليه كثيرون ويقعُ في منتصف الطريق بين الساحتين الرومانية والآثينية.

عند الظهيرة وصلتُ إلى المكتبة وتوجَّهتُ من فوري إلى قاعة المطالعة الشمالية، مُستمتعاً كعادتي دائماً بالعَبَق الجاف المُغبَرّ لورق البَردي والحبر المُنبعث من المشكاة الطويلة حيثُ تُحفَظ المُدرجات والمخطوطات. كانت القاعة بسقفها المُزخرَف (التي يجب أنْ نشكر عليها الوصي على أنتينوس) خالية. هنا انتظرتُ الهيروفانت. كنتُ متوتّر الأعصاب كثيراً، لأنه كان أشد الرجال وَرَعاً. وممنوعٌ عليَّ قانوناً أنْ اكتبَ اسمه ولكن أستطيع أنْ أقول إنه ينتمي إلى عائلة يومولبيده، وهي إحدى عائلتين ينحدرُ من سلالتهما الهيروفانت تقليدياً. وهو ليس فقط كاهن اليونان الأعظم، بل القيِّم والمُفسِّر لأسرار إليوسيس التي يعود تاريخها على الأقلّ إلى آلاف السنين، إذا لم أقُل إلى بداية الخليقة. وأولئك منا الذين سُمِحَ لهم بالتعرُّف إلى الأسرار قد لا نُخبر عمّا شاهدناه أو عرفناه. ومع ذلك، وكما يقول بندار[81] : " سعيدٌ هو مَنْ شاهد تلك الطقوس واندثرَ في جوف الأرض؛ لأنه يعرفُ نهاية الحياة ويعرفُ البداية التي حدَّدها الإله ". وقد وَصَفَ سوفوكليس المُهتدين بأنهم " أناسٌ بمقدار ثلاثة أضعاف، لأنهم بعد أنْ شاهدوا تلك الطقوس رحلوا إلى هيدس؛ ولهم فقط وُهِبَتْ الحياة الحقيقية هناك؛ وأما الباقون فلهم الشر ". إنني أنقلُ عنه من الذاكرة (ملاحظة للسكرتير : صَحِّح المقتطفات، إذا كانت فيها أخطاء)

إليوسيس مدينةٌ تبعد مسافة أربعَة عشر ميلاً عن أثينا. ومنذ ألفَي عام والأسرار يُحتفى بها في ذلك المكان، لأنه في إليوسيس عادت برسيفون من العالم السفلي حيث كان قد سرقها إله الموت هيدس وأخذها إليه وجَعَلَها مَلِكَتَه. وبعد أنْ اختفَتْ برسيفون ظلَّتْ أمها ديمتر، إلاهة الحصاد، تفتّشُ عنها طوال تسعة أيام، لا تأكل ولا تشرب. (بينما أنا أحكي هذه الحكاية سوفَ يشهدُ المُهتدون الكشف عن الأسرار. ولكن قد لا يعرفُ أحدٌ غيرهم معناها) وفي اليوم العاشر وصلَتْ ديمتر إلى إليوسيس. استقبلها الملك والملكة، وأعطياها إبريقياً من ماء الشعير المُنكّه بالنعناع فشربته دفعةً واحدة. وحين قال ابنُ الملك الأكبر " ما أشدَّ نَهَمكِ! "، حولّته ديمتر إلى عظاءة. لكنها ندمَتْ على ما فعَلَتْ به فمنحَتْ ابنَ الملك الأصغر، تريبتوليموس، قوى هائلة. أعطته بذور قمح، ومحراثاً من خشب وعَرَبَة تجرّها أفاعٍ؛ فأخذ يرتحل في أرجاء الأرض يُعلِّم الناسَ الزراعة. وقد فعلَتْ ذلك لأجله ليس فقط لتعوِّض عمّا فَعَلَته في لحظة غضب لأخيه، ولكن أيضاً لأنَّ تريبتوليموس كان في استطاعته أنْ يُخبرها بما حدثَ لابنتها. فقد كان موجوداً في الحقول حين انشقَّتْ الأرضُ فجأةً أمام عينيه. ثم ظَهَرَتْ عَرَبَةٌ تجرّها خيول سوداء خارجة من البحر. وكان هيدس هو الذي يقودها؛ ويحمل بين ذراعيه برسيفون. وبينما العربة تميل مندفعةً بأقصى سرعتها نحو الجوف، انغَلَقَتْ الأرض فوقهم. وهيدس هو أخو زيوس، ملك الآلهة، وكان قد قامَ بسرقة الفتاة بموافقة زيوس. وحين عَلمَتْ ديمتر بهذا، انتقمَتْ لنفسها؛ أمَرَتْ الأشجار ألاّ تُثمر والأرضَ ألاّ تُزدهر. وفجأةً، أصبحَ العالمُ قاحلاً. وجاعَ البشر. فأذعَنَ زيوس: إذا لم تكن برسيفون قد أكَلَتْ بعدُ من طعام الموتى، فيمكنها أنْ تعودَ إلى أحضان أمها. ولكن اتَّضحَ أنَّ برسيفون كانت قد أكلَتْ سبعاً من بذور ثمرة الرمان وكانت كافية لإبقائها إلى الأبد في العالم السُفلي. لكنَّ زيوس أعدَّ حلاً وسَطاً. سوف تبقى مع هيدس مدة ستة أشهر، بوصفها ملكة تارتاروس. أما باقي الأشهر الستة فسوف تنضمُ خلالها إلى أمها في العالم العُلوي. ولهذا يدوم فصل العُقم البارد مدة ستة أشهر من العام ويدوم الفصل الدافئ ستة أشهر. وأعطت ديمتر أيضاً شجرة التين لأتيكا، وحرَّمَت زراعة البقول. إنَّ هذه القصة المقدَّسة تُمثّل في سياق طقوس الأسرار. لا أستطيع أنْ أُضيف أكثر على ما قلت. إنَّ أصل نشوء المراسم يعود إلى جزيرة كريت، ويقول بعضٌ، إلى ليبيا. ومن المستحيل أن تكون

تلك الأماكن قد عَرَفَتْ شيئاً شبيهاً بالأسرار، ولكنَّ الحقيقة هي أنَّ إليوسيس هي المكان الفعلي الذي عادتْ إليه برسيفون من العالم السُفلي. لقد رأيتُ بأمّ عيني الفجوة التي خرَجَتْ منها.

والآن : لقد أعطيتُ من خلال الأسطر المدوَّنة أعلاه للمُهتدين رؤية واضحة لما يحدث بعد الموت على هيئة قصة. وقد بيَّنتُ في إحدى الصفحات كلَّ شيء بالأرقام والرموز. لكنَّ المُدنَّس لا يحلّ اللغز. سوف يلاحظون فقط أنني رويتُ حكايةً قديمة عن الآلهة القديمة.

ولَجَ الهيروفانت قاعة المطالعة. إنه رجلٌ قصير بدين، لا يترك أي انطباعٍ قوي لدى النظر إليه. حيّاني برصانة. وصوته قويٌ وهو يتكلّم الإغريقية القديمة تماماً كما كانت تُنطَق قبل ألفَي عام، ذلك أنه على امتداد السلالة الطويلة لعائلته تَردَّدَت الكلمات نفسها بالضبط بالطريقة نفسها من جيلٍ إلى جيل. ومن المرعب أنْ نتصوَّر أنَّ هومر قد سمعَ ما نزال نسمعه حتى الآن.

" لقد كنت مُنشغلاً. أنا آسف. لكنَّ هذا هو الشهر المقدَّس. ومراسم الأسرار تبدأ في غضون أسبوع ". بدأ كلامه بهذا الأسلوب الممل.

قلتُ له إنني تمنَّيتُ أنْ أهتدي إلى الأسرار كلّها : الأقلّ قيمة، فالأعظم، فالأعلى قيمة. وأدركتُ أنَّه سيكون من الصعب الإعداد لذلك في فترة قصيرة جداً، ولكن لم يكن لديَّ كثير من الوقت.

" طبعاً يمكن تدبير الأمر. ولكن ستحتاج إلى أنْ تجتهد في الدراسة. هل تتمتَّع بذاكرة قوية؟ "

قلتُ إنني ما زلتُ أحفظُ أغلب مؤلفات هومر. فذكَّرَني بأنَّ الأسرار تستمرُ تسعة أيام وأنَّ هناك كثيراً من كلمات المرور، والتراتيل والصلوات يجب تعلُّمها قبل الكشف عن السر الأعظم. " ينبغي ألاّ تتلعثم ". كان الهيروفانت صارماً. قلتُ إنني أعتقد أنَّ في استطاعتي أنْ أتعلَّم ما أحتاجُ إلى معرفته خلال أسبوع، لأنني بحق أتمتَّعُ بذاكرة جيدة؛ على الأقلّ تكون جيدة حين تُلهَم بشكلٍ مناسب.

كنتُ صريحاً. قلتُ له إنني إذا بقيتُ على قيد الحياة، فآمل أنْ أدعم الهيلّينية في حربها مع الجليليين.

كـان سـريعـاً. قـال، مُـردِّداً قـول بروهيـريسـيـوس، " لقـد فـات الأوان. لا شيء ممّا تستطيع أن تفعله سيغيِّر ما يوشك أنْ يحدث "

لم أكن اتوقَّع مثل ذلك الجواب. " وهل تعرف ما يُخبِّئه المستقبل؟ "

قـال ببساطة " أنا هيروفـانت؛ آخر هيروفانت في اليونان، وأعـرف أشيـاءَ كثيـرة، وكلها مأساويٌ "

رفضتُ قبول هذا، " ولكن كيف يمكن أنْ تكون الأخير؟ لماذا، فمنذ قرون... "

" أيها الأمير، إنَّ هذه الأمور مُدوَّنةٌ منذ البداية. لا أحد يستطيع أن يعبث مع القَدَر. وحين سأمـوت، لن يخلفني أحد أفراد عـائلتنا بل كـاهنٌ من طائفـةٍ أخرى. سـوف يكونُ اسمياً، وليس فعلياً، الهيروفانت الختامي. بعد ذلك سيُدمَّر معبد إليوسيس - بل معابد اليونان كلها سوف تُدَمَّر. وسيأتي البرابرة. وسيسود المسيحيون. وسيحلُ الظلام"

" إلى الأبد؟ "

" مَنْ يدري؟ لم تكشف لي الإلاهة عن أكثر ممّا أخبرتُكَ به. معي، تنتهي السلالة الحقيقية. ومع الهيروفانت التالي سوف تنتهي الأسرارُ نفسها "

" لا أستطيع أنْ أصدِّقُ ما أسمع! "

" إنَّ هذا لا يُغيِّرُ أيَّ شيء "

" ولكن إذا أصبحتُ إمبراطوراً... "

" لن يُغيِّرَ هذا أي شيء "

" إذن من الواضح أنني لن أُصبِحَ إمبراطوراً "

ابتسمتُ لهذه الملاحظة الذكية، لأننا كنا قد اقتربنا من قانون تحريم التنبّؤ.

" سواء أكنتَ إمبراطوراً أم لا، فإنَّ إليوسيس سوف تُدمَّر قبل انقضاء هذا القرن "

دقَّقتُ النظرَ إليـه. كنا جالسَين على مقعد طويل بلا ظهر تحت نافذة عـاليـة ذات شعرية. وقد ركَّبَتْ أشكالٌ معيَّنةٌ من الضوء تصاميمها على الأرض المكسوّة بالآجر عند أقدامنا. وعلى الرغم من إيمانه الراسخ، فـإنَّ ذلك الرجل البـدين والقـصـيـر بعـينيـه الجاحظتين ويديه البدينتين كان شديد التماسُك. لم أرَ دهري مثل ذلك الضبط للنفس، حتى عند قسطنتيوس.

أخيراً قلتُ " أرفضُ أنْ أصدِّق أنَّه لا يوجد ما نستطيع أن نفعله "

هزَّ كتفيه استخفافاً. " سوف نستمر طالما كان ذلك في استطاعتنا، كما نفعل دائماً". نظرَ إليّ برصانة. " يجب أن تتذكَّر أنَّ اقتراب الأسرار من نهايتها لا يُقلِّل من صحَّتها. والذين يهتدون سوف يكونون محظوظين على الأقلّ في العالم السفلي. طبعاً نحن نرثي الذين سيأتون من بعدنا. ولكن ما سيكون يجب أنْ يكون ". ونهض بفخامة؛ وانتصبَ جسمه الممتلئ القميء مشدوداً بقوة، وكأنه يستطيع أنْ يقوّي اللحم الرخو بقوة الإرادة. " سوف أوجّهكَ بنفسي. سوف نحتاج إلى تخصيص عِدَّة ساعات في اليوم. تعالَ إلى منزلي هذا المساء ". وبعد أنْ انحنى انحناءة احترام قصيرة، انسحب.

خلال الأسابيع التي تلَتْ، كنا نتقابل في كل يوم. لكنَّ معرفتي بالهيروفانت لم تزدد. فقد رفضَ أن يتحدَّث في أي موضوعٍ لا صلة له بالأسرار. وتخلّيتُ عن فكرة التحدُّث إليه، وقبلته كما هو : كصِلة وصل محسوسة بالماضي المقدَّس ولكن ليس رفيقاً بشرياً.

لستُ بحاجةٍ إلى وصف الاحتفالات التي تسبق الهداية، لأنها معروفة للجميع. وعلى الرغم من أنني قد لا أستطيع أنْ أصِفَ الأسرار نفسها، إلا أنني أستطيع أن أقول إنه في هذا العام بالذات ازدادَ عدد المشاركين في الاحتفالات بصورة غير اعتيادية، مما آلمَ الجليليين.

المسألة كلها استغرقَتْ تسعة أيام. اليوم الأول كان حاراً وموهِناً. فيه تُليَ البلاغ وجُلِبَتْ الأغراض المقدَّسة من إليوسيسْ إلى إليوسينيون، وهو معبد صغير قائم عند أسفل الأكروبوليس حيث توجد لائحة كاملة بممتلكات ألسيبيادس[82] الخاصة - بالإضافة إلى أشياء أخرى مُثيرة للانتباه - تمَّ الاستيلاء عليها حيِنَ دنَّسَ الأسرار ذات ليلة وهو سكران بمُحاكاة شعائر الهيروفانت السرية على قارعة الطريق. والأغراض المقدَّسة يحتويها عددٌ من البرطانات مربوطة بأشرطة حمراء. وهي مودعة الإليوسينيون، لكي تُعاد إلى إليوسيس أثناء تحرُّك الموكب الرئيسي، الذي يحدث في اليوم الخامس.

في اليوم الثاني، اغتسلنا في مياه البحر وغسلنا الخنزير الذي جَلَبَه كلُّ منا ليضحّي به. وقد اخترتُ شاطئ فاليرون، وكدتُ أفقد الخنزير الذي اشتريته بستة دراخمات. إنَّ مشهد بضعة آلاف من الناس يغتسلون في مياه البحر، ومع كلٍ منهم خنزيرٌ يصرخ بصوتٍ حادّ، يُثيرُ الذهول.

اليوم الثالث هو يوم تقديم الأضاحي، وليله طويل.

اليوم الرابع مقدَّس بالنسبة إلى إله الطب؛ وفيه يلزم الجميع المنزل.

في اليوم الخامس ينطلق الموكب من بوابة ديبيلون إلى إليوسيس.

كانت ليلة جميلة. تُحمَل صورة الإله لاخوس، ابن ديمتر، في عربةٍ من خشب على رأس الموكب. وهذا الجزء من المراسم مقدَّس بالنسبة إليه. وعلى الرغم من أنَّ من المُفتَرَض أنْ يتوجَّه الجميع إلى إليوسيس سيراً على الأقدام، فإنَّ أغلب الأثرياء يُحمَلون على محفَّات. أنا مشيتُ على قَدَمَيّ. تذمَّرَ حرسي الخاص، لكنني كنتُ مبتهجاً. وضعتُ تاجاً من الآس على رأسي وحمَلتُ ليس فقط الأغصانَ المُقدَّسة المربوطة بخيوط من الصوف ولكن أيضاً، كما تقتضي التقاليد، ملابس جديدة داخل صُرَّة محمولة على عصا ترتكز على الكتف. ورافقتني ماكرينا.

كان الجو في ذلك اليوم غائماً، مما جعلَ الرحلة أكثر إمتاعاً مما تكون عادةً في مثل ذلك الوقت من العام. كان عددنا الكامل في الموكب يبلغ ألفاً، بغضّ النظر عن الفضوليين الذين كانوا يضمّون عدداً من الجليليين انهالوا علينا بلعناتهم المُلحِدة.

في ضواحي أثينا، بعيداً قليلاً عن الطريق العامة، أشارتْ ماكرينا إلى مجموعة مُعقَّدة من الأبنية القديمة. " هذا أشهر ماخور في اليونان " قالت هذا مُعبِّرةً عن ابتهاجها المعتاد بمثل تلك الأشياء " إنه مقامُ أفروديت ". من الواضح أنَّ الناس يأتون من أرجاء العالم كلها ليزوروا المقام، ويستمتعوا مقابل سعر مُحدَّد بـ " الكاهنات ". ويتظاهرون بأنَّ ذلك تديُّنٌ. في الحقيقة، هو دعارة جماعيّة. واستهجنتُه أكثر من أي شيءٍ آخر.

وبعد المزار مباشرة هناك جسرٌ قديم. هنا تبدأ المِحنة. فعلى حاجز الجسر يجلسُ رجالٌ بوجوهٍ مكسوَّة بقلنسوة. فمن ضمن التقاليد تذكير الأشخاص المهمّين بأخطائهم وإدانة غرورهم. إنني أواسي نفسي بتذكُّر أنَّ هادريان وماركوس أورليوس قد سبقاني بالمرور على هذا الجسر. فإذا كانا هما قد تحمّلا المذلّة، فأنا أستطيع.

حاولتْ ماكرينا أنْ تُطمئنني. " لن يكون الأمر سيئاً. إنَّ بهم من فرط الخوف من قسطنتيوس مايمنعهم من التعرُّضِ لك ". لكنني تذكَّرتُ كيفَ نظروا باستهجان إلى هادريان بسبب حبّه لأنتينوس، وهادريان كان الإمبراطور الحاكم، وليس فقط ابن عمي.

كنتُ أتصبَّبُ عَرَقاً مع اقترابنا من الجسر. العيون كلها كانت متركِّزة عليَّ. وكان الرجال ذوو القلنسوات - كان عددهم يبلغ على الأقل ثلاثين - قد انتهوا من تعذيب قاضٍ محلّيّ. والآن التفتوا إليّ. ماكرينا أمسكتْ ذراعي بحزم. أخذتُ أمشي ببطءٍ على الجسر، وقلبي يضربُ بقوة وسرعة وعيناي منخفضتان. كانت اللعنات الساخرة فظيعة. في أول الأمر حاولتُ ألاّ أصغي، لكنني بعد ذلك تذكَّرتُ أنَّ هذه الإهانة هي جزءٌ أساسي من الأسرار : من أجل التخلُّص من الغرور. أصغيتُ. اتَّهموني في الغالب بالزيف والادِّعاء؛ بأنني لستُ عالِماً حقيقياً. وأنني مُدَّعٍ. وأشبه التيس. وجبان وأخافُ أنْ أخدم في الجيش (هذا لم يكن متوقَّعاً). وشعرتُ بكراهية للجليليين. وأثارَ هذا غضبي الشديد لكنني كنتُ سعيداً، ولم تُقَل إلاّ مرة واحدة. فقبل أي شيء، كان الذين يُعذّبونني ينتمون إلى الدين الحق وليس من المتوقَّع أن يُهدّدونني بكراهيتي للجليليين.

أخيراً، عبرنا الجسر. وانتهتْ المحنة. مشيتُ ما تبقَّى من الطريق إلى إليوسيس، شاعراً بأني مُطَهَّر ومرتاح، وماكرينا تُدمدم إلى جانبي. أخشى أنها وبَّختني ساخرة بقدر ما فعلَ الرجال على الجسر. لكنني اقتربتُ من الأسرار، كنتُ مُترعاً بإحساسٍ غامرٍ بالتوقُّع بحيث لم يكن في وسع أي شيء أن يُعكِّر مزاجي.

حين وصلنا إلى إليوسيس كان الليل قد حلّ. المدينة صغيرة تقعُ على خليج سارونيك، وتطلُّ على مشهدٍ لجزيرة سالاميس. وكأغلب المدن التي مصدر دخلها الرئيسي هو الغرباء، تمتلئ إليوسيس بالنُزُل والمطاعم والتجّار التوّاقين إلى بيعِ نسخٍ من الأغراض المقدَّسة بأسعار عالية إلى درجةٍ مُثيرةٍ للسخرية. والعجيب أنَّ أيَّ مكانٍ يبقى مُقدَّساً، إذا أخذنا في الاعتبار الحضور الحتمي للّذين تعتمد أسباب رزقهم على غش الآخرين. وقد سمعتُ أنَّ دلفي هي حتى أسوأ من إليوسيس؛ في حين أنَّ أورشليم - التي هي طبعاً " مقدَّسة " بالنسبة إلى الجليليين - هي الآن أشد الأماكن التي زرتها بثّاً للأسى.

كانت المشاعل تتوهَّج في كل شارع من البلدة. وأصبح الليل أشبه بالنهار. وكان أصحاب النُزُل يحثّوننا على الدخول، وعند كل قارعة طريق كان هناك رجالٌ يُخبروننا عن أماكن يمكن تناول الطعام فيها. حتى الرذيلة كانت لها عروض، مما يُبيِّن مدى انحطاط السكان المحلّيين، لأنَّ عليهم أنْ يعلموا أكثر من أي شخص آخر أنه خلال أيام

الحج الثلاثة إلى إليوسيس، عليهم أن يصوموا، ويتعفَّفوا، ولا يلمسوا الجسد الميت أو جسد امرأة وضعَت مولوداً لتوّها؛ والبيض والبقول أيضاً مُحرَّمة علينا، حتى بعد صيام أوّل يوم.

تبعتُ مع ماكرينا الحشد إلى حيث تُمارَس الأسرار. وكان هومر قد وصَفَ كيف أنَّ المعبد الأصلي كان قائماً عند أعتاب الأكروبوليس، تماماً في المكان نفسه الذي يقوم عليه المعبد الحالي، أو تيليستريون كما يُسمّى. في هذه الليلة كان كل شيء مُضاءً على شرف الأسرار العُظمى.

الدخول إلى المُحتَجَز المقدَّس كان من بوابة، تبدو أكثر نبلاً حتى من بوابة ديبيلون في أثينا. ودخلنا، مارِّين من خلال القسم المُحدَّد بشريط حيث تأكَّدَ الحراس والكهان من أننا من المهتدين فعلاً، من فخامة ملابسنا وإشارات أخرى. وقد أُعِدَّتْ البوابة بمهارة شديدة بحيث أنَّ مَنْ يختلس النظر من خلالها لا يستطيع أنْ يرى أكثر من بضع ياردات من الدرب المقدَّس؛ ورؤية أي قدرٍ آخر من التيليستريون كان يُعيقها جدار البلوتونيون الكبير والمُصمَت، وهو معبد بُنِيَ فوق الممر الأصلي المؤدي إلى هيدس وظهرتْ منه برسيفون.

ارتقيتُ مع ماكرينا، وعيوننا تتألم بتأثير دخان المشاعل، الدرب المقدَّس، متوقِّفين أولاً عند بئر كاليخوروس. واستولتْ عليَّ الرهبة، لأنَّ هذه هي البئر نفسها التي وصفها هومر. إنها قديمةٌ قِدَمَ الزمن. وموجودة هنا منذ أنْ كانت الآلهة تمشي على أقدامها على الأرض بحيث أنَّ نساء إليوسيس كنَّ يرقصنَ على شرَف ديمتر. وفوهة البئر تقع على مسافة بضع دَرَجات أسفل المصطبة الرئيسية، ويواجهها جدار هائل من الرخام. وبالقرب منها يقومُ حوضٌ ضخم يحتوي مياهاً مقدَّسة. غسلتُ يديَّ وبدأتُ أتعرَّف على ديمتر وحزنها. وكان تأثُّري من الشدِّة بحيث كدتُ أنسى أن أدفع للكاهنة الدراخما مقابل خوض التجربة.

بعد ذلك ولجنا البلوتونيون، المُقام في حفرة صخرية من الأكروبوليس. كانت الأبواب المصنوعة من خشب الدرداء موصدة في وجوهنا، لكنَّ المذبح في الخارج، المحفور في الصخر الحيّ، كان مُضاءً.

أخيراً وصلنا إلى رواق فيلون الطويل والمُعمَّد، الذي يواجه تيليستريون. وبعد ذلك الرواق المرصوف باللون الأزرق تنهض واجهةُ البناء الأكثر قداسة على الأرض المُصمَتة

ملاصقةً الأكروبوليس، ومُشكِّلةً جداره الرابع. وفي العالم معابدُ أعظم وأكثر روعة من تيليستريون، ولكن لا أحد غيره يُثيرُ ما يُثيره من التبجيل، لأنه مقدَّس منذ اليوم الأول لخلق الإنسان تقريباً، منذ خلق ذلك العالم الجميل الضائع حين عاشت الآلهة، غير المُحاصَرة، بيننا، وكانت الأرضُ بسيطةً والبشرُ طيّبين.

بما أننا لم نكن قد أصبحنا بعد منتسبين، لم نتمكّن من ولوج التيليستريون. عند هذه النقطة، انضمَّ إلينا كاهنان قادانا إلى المنزل الذي عاشَ فيه يومولبيده طوال ألف عام. وتقرَّرَ أنْ نقضي الليل هناك. لكنَّ الهيروفانت لم ينضمّ إلينا. وفي تلك الليلة دون الليالي كلها صامَ وتأمَّلَ.

سهرتُ مع ماكرينا حتى الفجر. وبَّختُها، كما كنتُ أفعل دائماً، " يجب أنْ يُسمَح لكِ بحضور الأسرار ".

لكنَّها كانت منحرفة. " كيف أستطيعُ ذلك؟ انا لستُ شخصية هامة، ولا أحب المسيحيين لأنهم قُساة. ولا أحب الأسرار وما إلى ذلك لأنني لا أؤمنُ بأنَّ في استطاعة أحد أنْ يساعدنا حين نموت. فإما أنْ نستمر بطريقةٍ أو بأخرى، أو نتوقَّف. ولكن مهما يحدث، فإنه خارج سيطرتنا ولا سبيل لنا إلى عقد صفقَة مع الآلهة. لدينا مثلاً المسيحيون، الذين يؤمنون بوجود إله واحد... "

" ثلاثي الأجزاء! "

"حسنٌ، أما آلهتك فذات ألف جزء. على أي حال، إذا تصادفَ أنْ كان المسيحيون على حق، فإنَّ هذا كله " ـ وأومأتْ باتجاه التيليستريون ـ " خاطئ وسوف تذهب إلى جحيمهم بدل أن تذهب إلى إليزيوم "

" لكنَّ الجليليين مخطئون حقاً "

" مَنْ يُقرِّر هذا؟ "

" هومر. ألفُ عامٍ من الإيمان الحق. هل من المُنتَظَر منا أنْ نصدِّق أنه لم يظهر أي إله إلى أنْ ظهر نجَّار دهماوي[٨٣] قبل ثلاثمائة عام؟ من غير المعقول أنْ نصدِّق أنَّ أعظم عصور الإنسان كانت بلا إله "

قالتْ ماكرينا " يجب أنْ تتناقش مع التوأم "؛ ثم تحدَّثنا عن شؤونٍ لن أسجّلها.

الأيام الثلاثة التالية كانت تفوقُ كلَّ خيال. لقد سُمِحَ لي بحضور الأسرار كلها، بما

فيها السرّ الختامي والأشد سرّيةً. لقد شاهدتُ ما يؤدَّى، ما يُعرَض وما يُحكَى. شاهدتُ آلام ديمتر، وهبوط برسيفون إلى العالم السُفلي، وإعطاء القمح للإنسان. شاهدتُ العالم كما هو والعالم الآتي. تخلَّصتُ من إحساسي بالخوف من الموت في تيليستريون حين نظرتُ، تحت الضوء المُبهِر، إلى الأغراض المقدَّسة. كانت حقيقية. لا أستطيع أنْ أكتبَ أكثر من هذا. مُحرَّمٌ الكشفُ عن أي شيء يراه المرء ويسمعه خلال الليلتَين اللتين نقضيهما في التيليستريون. لكنني سأدلي بتعليقٍ عامٍ واحد، وهو خروج عمّا قاله أرسطو، الذي كتبَ: " إنَّ المُهتدي لا يتعلّم أيَّ شيءٍ بقدر ما تنتابه انفعالاتٌ معيَّنة وتُصاغ ضمن إطارٍ فكريّ معيَّن ". أولاً، يجب مناقشة القضية القائلة إنَّ الانفعال الجديد ليس شيئاً يتعلَّمه الإنسان. أنا أعتقد أنه كذلك. على أي حال، لم أكن قد قابلتُ بعد أحداً اهتدى إلى إليوسيس ولم يتعلَّم أشياءَ جديدة ليس فقط عن الحياة التي نعيشها الآن بل الحياة القادمة. إنَّ هناك كثيراً من المنطق فيما يُكشَف عنه النقاب في تينك الليلتين بحيث أنَّ المرءَ ليُدهَش لأنه لم يفهمها من قبل - مما يُبرهن لي حقيقة ما يُرى، ويُسمَع ويُعرَض. إننا نشكِّلُ جزءاً من الدورة التي لا تنتهي، من حركة الحياة اللولبية المُضاءة، التي فُقِدَتْ واستُعيدَتْ، من الموت إلى الحياة إلى... ولكن ها أنا الآن قد بدأتُ أُفرطُ في الكلام.

ليبانيوس : كم هذا خليقٌ ببريسكوس! إنه لا يستطيع أن يكبح غيرته مني، واستياءه من تأثيري على جوليان. لكنَّ اهتمامي بجوليان ليس من باب البحث عن الذات. كيف يمكن أنْ يكون كذلك؟ وأنا الذي رفضتُ لَقَبَ الحاكم الإمبراطوري. لقد قلتُ إنَّ لقبَ سوفسطائي يليقُ بي. إنَّ إشارتي ما تزال عالقة في البال ليس فقط هنا في إنطاكية بل حيثما وُجِدَ تقديرٌ للفلسفة. والذين منْ بيننا يرغبون في قيادة الآخرين إلى الحكمة يستجيبون لأي شخصٍ يطرح أسئلةً، أميراً كان أم شحّاذاً. إنَّ جوليان قد أبدى سوء حُكمٍ، أحياناً، كما في حالة ماكسيموس، ولكنه في العموم هذَّبَ أفضل عقول عصرنا. ووجدتُ أيضاً تعليقات بريسكوس حول إليوسيس بغيضةً، بل مُلحدة. لقد كتب شيشرون، الذي لم يكن مُتطيِّراً، يقول إنه لو أنَّ كل ما جَلَبَته أثينا إلى العالم قد ضاع، فإنَّ الأسرارَ وحدها ستكون كافية لتجعل البشرية مدينةً لأثينا أبد الدهر. إنَّ لتقدُّم بريسكوس في السن أثره السيئ عليه. الحَسَدُ يتقيَّح. إنه لم يكن مرةً فيلسوفاً حقيقياً. وأجدُ نفسي أرثي لحاله وأنا أقرأ تعليقه المرير.

بريسكوس : على أي حال، حين نظرَ جوليان نظرةَ تعبُّد إلى حزمة القمح التي كُشفَ النقابُ عنها برصانةٍ قصوى في لحظة الذروة من المراسم...

ليبانيوس : إنَّ هذا كفرٌ مُبين! هذه الأشياء ينبغي ألاّ يُكشَفُ النقابُ عنها. سوف يُصْلى بريسكوس ألوانَ العذاب من أجل هذا في العالم الآخر، في حين أنَّ كُلَّ مَنْ يكشف له سرّنا الأكبر سوف يغرق إلى الأبد في الروث. شيء مرعب!

بريسكوس : ... انتابه شعور فوري بالبهجة، مؤمناً بأنه كما أنَّ القمح يذوي، ويموت ويولد من جديد، كذلك الأمر معنا. ولكن هل التشبيه صحيح؟ أنا أقول كلا. لسببٍ واحد، وهو أنَّ حزمة القمح التي تنمو من البذرة ليست نفسها. إنها حزمة قمح جديدة، وهذا يوحي بأنَّ خلودنا، كما هو، يكمن بين سيقاننا. إنَّ بذورنا تخلقُ بالفعل إنساناً جديداً لكنه ليس نحنُ. الابن ليس هو الأب. فالأب يُزرَع في الأرض وينتهي أمره. والابن هو رجلٌ آخر سوف يُنجِب ذات يوم رجلاً آخر وهلمَّ جراً ـ ربما إلى الأبد ـ لكنَّ الوعي الفردي يتوقَّف.

ليبانيوس : إنني أكره بريسكوس! إنه أسوأ من مسيحي. لقد آمنَ هومر. فهل كان هومر على خطأ؟ طبعاً لا.

بريسكوس : إنَّ جوليان لم يفعل أيَّ شيء لإهانة المسيحيين في أثينا، على الرغم من أنَّه معروف جيداً أنه كان يميل إلى الفلسفة. لكنه كان حذِراً. وفي مناسبة واحدة على الأقلّ ارتاد الكنيسة.

لقد أحبّه الهيروفانت لكنه رأى أنه محكومٌ عليه بالموت، أو هذا ما قاله لي بعد ذلك بسنين. والهيروفانت كان رجلاً مُثيراً للاهتمام. ولكن طبعاً أنتَ عرفِته لأنه سُمِحَ لك بحضور الأسرار خلال فترة حُكمه. لقد أدركَ بصفاءٍ خارق أنَّ عالَمنا القديم قد انتهى. وأحياناً أعتقدُ أنه كان يستمتعُ بمعرفة أنه آخر سلالة امتدَّتْ ألفيّ عام. إنَّ الرجال غريبو الأطوار؛ إذا لم يستطيعوا أن يكونوا في المركز الأول، لا يُمانعون على الإطلاق في أنْ يكونوا في المركز الأخير.

جوليان أوغسطوس.

انتهت تلك الأيام الرائعة التي أمضيتُها في أثينا بسرعة حين وصل رسول إمبراطوريّ حاملاً أوامر تفيدُ بأنَّ عليَّ أنْ أوافي قسطنتيوس في ميلانو. لم تُعرفْ

أسباب لذلك. اعتقدتُ أنه سيُنفَّذُ فيَّ الحُكم بالإعدام. كانت رسالةٌ مشابهة قد بُعِثَتْ إلى غالوس. وأعترفُ الآن بأنني مررتُ بلحظة ضعف. رحتُ أتمشّى في الساحة العامة، وفكَّرتُ في الهرب. هل أختفي في شوارع أثينا الخلفية؟ هل أغيِّر اسمي؟ هل أزيل شعر رأسي؟ أم هل ألجأ إلى الطريق ككلبيّ من الموجة الجديدة وأقطع المسافة حتى مدينة برغامون أو نيكوميديا سيراً على قَدَمَيّ وأختفي بين صفوف الطلاب، وأختبئ إلى أن يُنسى أمري، ويُعتَقَد بأني قد متُّ، ولم أعُد أشكِّلُ خطراً؟

فجأةً فتحتُ ذراعَيَّ للإلاهة أثينا. رفعتُ بصري إلى تمثالها المُقام فوق الأكروبوليس، أمام دهشة المارّة الكبرى (وقعَ ذلك أمام مكتبة بانتينوس). وصلّيتُ كي تسمح لي بالبقاء في مدينة أثينا، مُتمنّياً الموت الفوري على الرحيل. لكنَّ الإلاهة لم تُجِب. أسقطتُ ذراعَيَّ بحزن. في تلك اللحظة بالذات، ظهرَ غريغوري من المكتبة واقتربَ مني مع تكشيره الذئبيّ.

قال " ستغادرنا ". لم تكن هناك أسرار في أثينا. قلتُ له إنني ذاهبٌ على مضضٍ لكنَّ إرادة الإمبراطور يجب أن تُنفَّذ.

قال، وهو يُمسكُ بذراعي بإلفة، " ستعود "

" آملُ ذلك "

" عندئذٍ ستصبح القيصر، رجلَ دولة، مع تاج وحرّاس وحاشية! سوفَ يكون من المثير أنْ نرى كيف تغيَّر صاحبنا جوليان بعد أنْ نُصِّبَ علينا كإله "

وعدتُه " سأبقى كما أنا "، وأنا متأكدٌ من أني سألقى حتفي.

" تذكَّرْ أصدقاءكَ في أوقات عَظَمَتِكَ ". وقَعَتْ لُفافة كانت مُخبّأة في حِزام غريغوري على الرصيف. احمرَّ خَجَلاً، والتقطها.

تلعثمَ وهو يقول " لديَّ إذنٌ خاص. أستطيعُ أنْ أسحب كتباً، كتباً معيَّنةً، كتباً مُصَدَّقاً عليها... "

ضحكتُ من ارتباكه. كان يعلمُ أنني أعلمُ أنَّ مكتبة بانتينوس لا تسمح أبداً بخروج أي كتاب من قاعة المطالعة. قلتُ إنني لن أُخبِرَ أحداً.

عاملني البروقنصل بكياسة. كان رجلاً طيباً، ولكنه رعديد. لاحظتُ على الفور على وجهه نظرة الموظف الرسمي الذي لا يعلم إنْ كان المرء سيُعدَم أو سيُرفَع إلى

العرش. لابد أنَّه أمرٌ مُحرجٍ بشكلٍ قاسٍ لمثلِهِ من الرجال. إذا كانوا لطيفين، فإنهم حينئذٍ يكونون عُرضَةً لأنْ يُتَّهَموا بالتآمُر؛ وإذا كانوا فطِنين، فقد يعيشون حتى يجدوا ضحيتهم وقد أصبحَ رجلاً عظيماً وحقوداً. البروقنصل اتَّخَذَ موقفاً وَسَطاً؛ كان مستقيماً؛ وذا ضمير حي؛ وفي صباح اليوم التالي أعدَّ العدَّة لرحيلي.

لا يزالُ يؤلمني ألماً لا يُطاق أنْ أصِفَ أمسيتي الأخيرة في أثينا. لقد أمضيتُها مع ماكرينا. قطعتُ لها وعداً بالعودة إنْ استطعت. وفي اليوم التالي، مع ظهور أول خيوطٍ للشمس، غادرتُ المدينة. لم أقوَ على عدم النظر خلفي إلى معبد أثينا العائم في الفضاء، أو إلى حدود جبل هاييتوس البنفسجي الذي تضربه أشعة الشمس. وانطلقتُ في رحلتي إلى بيريوس ومنها إلى البحر وعيناي متجهتان صوب الشرق وشمس الصباح.

-٩-

وصلتُ إلى ميلانو في منتصف شهر تشرين أول. كان الجو جافاً والفضاءُ نقيّاً فَأَمْكَنَ رؤية قمم الألب الزرقاء التي تفصلُ الحضارة عن البربرية، عالم شمسنا عن تلك الغابة الخضراء المُقبِضة حيث يُقيمُ أعداء روما، بجلاءٍ تام.

أمام بوابة المدينة مباشرةً قابلنا خصي قسطنتيوس، وهو شخصٌ فخم ذو ذقنٍ ضخمة وترتسم على وجهه نظرة ساخرة بليدة. لم يُحيّني كما ينبغي، وهي دلالة شؤم. أعطى آمرَ حرسي رسالةً من الإمبراطور. حين رأيت هذا، بدأتُ أردِّدُ أول كلمات المرور التي سأحتاجها حين أصلُ إلى مملكة الموتى. لكنَّ قتلي لم يكن قد حان موعده بعد. بدلَ ذلك أُخِذتُ إلى منزلٍ يقعُ في إحدى الضواحي. لقد كنتُ سجيناً.

السجن هي الكلمة الدقيقة التي تصِفُ وضعي؛ فقد كنتُ خاضعاً لحراسةٍ مُشدَّدة. وأثناء النهار، كان يُسمَحُ لي بالتجوُّل في الردهة المركزية للمنزل. أما في الليل فكانت غرفة نومي تُقفَل. لم يكن في استطاعة أحد أنْ يقومَ بزيارتي، وهذا لا يعني أنه كان هناك في ميلانو مَنْ أردتُ أن أراه أو من يُريد أنْ يزورني، ما عدا الإمبراطورة يوسيبيا. ولم يُسمَح لي بالاحتفاظ من طاقَم بيتي إلاّ بصبيّين وبرجلَين. أما الباقون فنُقِلوا إلى القصر الإمبراطوري. ولم يكن هناك مَنْ أتحدَّثُ معه. وذلك كانَ أصعب الأمورِ قاطبةً. كان يمكنني أنْ أرضى بصُحبةِ حتى خصيٍّ واحد!

لماذا عوملتُ بتلك الطريقة؟ منذ ذلك الحين وأنا أجمعُ أطرافَ الحكاية كلها. فحين كنتُ في أثينا، أعلنَ قائد للجيش اسمه سيلفانوس نفسه أوغسطوساً في بلاد الغال. وأنا مُقتَنِعٌ بأنه في قرارته كان بريئاً من أي رغبةٍ جدّيةٍ في الاستيلاء على الرداء الأرجواني، لكنَّ عداوة خصيان البلاط دَفَعَته إلى التمرُّد.

حالما وقعَ هذا، ألقى قسطنتيوس القبضَ عليَّ لأنه خشيَ من إمكانية أنْ أستغلَّ

حركة الردّة في بلاد الغال لأثورَ عليه في أتيكا. ويشاءُ القَدَر، قبل أنْ أصلَ إلى ميلانو، أنْ يموتَ سيلفانوس في كولونيه. ومرةً أخرى يكون حظ قسطنتيوس أنْ تبرُزَ إمكانية نشوب حرب أهلية.

لكنَّ موت سيلفانوس لم يحُلّ مشكلة جوليان. فبينما كنتُ حبيسَ تلك الدارة في الضواحي، أُعيدَ فتحُ باب الجِدال القديم. أراد يوسيبيوس إعدامي، أما يوسيبيا فرفضَتْ ذلك. واحتفَظَ قسطنتيوس برأيه لنفسه.

كتبتُ عِدَّة رسائل ليوسيبيا، أناشدها فيها أنْ تتوسطَ لي مع الإمبراطور لكي يسمح لي بالعودة إلى أثينا. لكنني في النهاية قرَّرتُ ألاّ أبعثَ إليها أي رسالة، لأنَّ شكوك قسطنتيوس كانت تثور بسهولة، على أقلّ تقدير، وأي صِلات مُتبادلة بين زوجته ووريثه المُحتَمَل ليس فقط سيعلمُ بأمرها بل ستُثيرُه حتماً ضدنا نحن الاثنين. وقد اتّخذتُ الخطوة الحكيمة.

عند فجر اليوم الثالث عشر من فترة سجني، تغيَّرَ مجرى حياتي إلى الأبد. فقد أيقظني أحدُ العبيد بضربٍ عنيفٍ على باب غرفة نومي. " انهضْ، يا مولاي! انهضْ! وصَلَت رسالةٌ من الأوغسطوس! ". قفزتُ خارج السرير وأنا بكامل ملابسي. ثم ذكَّرتُ العبدَ بأنّني لن أتمكَّن من استقبال الرسول الإمبراطوري إلاّ بعد أن يفتحَ أحدهم لي الباب المُقفَل.

وفُتِحَ الباب. كان قائد حَرَسي مُشرِق الوجه. فأدركتُ عندئذٍ أنَّ الإرادة الإلهية قد بدأتْ تقومُ بعملها. لقد أُبقيَ على حياتي.

" الرسول، يا سيدي. سيستقبلكَ الإمبراطور هذه الليلة "

خطوت إلى الردهة المركزية وذقتُ أولَ طَعمٍ لمعنى أنْ أكونَ ذا حظوة. كان المنزل عندئذٍ قد امتلأ بالأشخاص الغرباء : خصيانٌ بأثوابٍ حريرية مُبهرجة؛ وكَتَبَة من مكاتب حكومية مختلفة؛ وخياطون؛ وإسكافيون؛ وحلاّقون؛ وضباط ممتلؤون بالشباب كأنما انجذبوا إلى شمسٍ جديدةٍ ومنبعٍ للشرف. كان شيئاً مُدوِّخاً.

الرسول القادم من لدُنّ الإمبراطور لم يكن إلاّ أرينثيوس، الذي يخدمُ معي الآن في بلاد الفرس. إنه على قدرٍ هائل من الجمال، والجيش يحبّه بالطريقة المُتَّقدة التي تحبُ بها الجيوش الضباط الوسيمين. إنه أصحَرُ الشعرِ أزرقُ العينين، ذو جسمٍ قويّ لَدِنْ؛

وبعيدٌ كلّ البُعد عن الثقافة، لكنه شجاع وعنيفٌ في الحرب. أما عيبه الوحيد فإفراطه في اشتهاء الصبيَة، وهي ممارسةٌ أجدها عادةً غير لائقة عند القادة. لكنَّ الرجال يتسلّون بميله الجنسي هذا. أيضاً، هو فارسٌ، واللواطة بين الفرسان تقليد معروف. ويجب أنْ أعترف أنه في ذلك اليوم الذي تقدَّمَ فيه أرينثيوس مني، بعينيه الزرقاوَين الوامضتين ووجهه المتورِّد المُكشِّر، كدتُ أخطئ وأعتبره هرمس نفسه، يسكبُ المجدَ من فوق جبل أوليمبوس وهو قادمٌ ليُنقذَ ابنه التافه. حيّاني أرينثيوس بنشاط؛ ثم قرأ بصوتٍ عالٍ رسالة استدعائي لمقابلة الإمبرطور. حين انتهى من القراءة (فعلَ ذلك بشيٍ من الصعوبة، لأنه لم يُحسن مرةً القراءة السهلة)، نحّى الرسالة جانباً، ونفحني ابتسامته الأشد فتنة وقال " حين تصبحُ قيصراً، لا تنسني. خُذني معك. إنني أفضِّلُ الفعل "، وربَتَ على غمد سيفه. ارتجفتُ كأحمق. ورحل.

ثم بدأ صِراعٌ جديد. يجب أنْ أحلِقَ لحيتي، وأيضاً أنْ أتخلّى عن ملابس الطلاب. إنني الآن أمير، ولست فيلسوفاً. وهكذا حلقتُ لحيتي للمرة الأولى في حياتي. شعرتُ كأني فقدتُ إحدى ذراعيّ. انهمكَ حلاّقان في العمل عليّ وأنا جالس على كُرسيّ في وسط الردهة الرئيسية بينما شمس الصباح تشرقُ على مشهدٍ كان، حين أعود بذاكرتي إليه، مثيراً للسخرية والضحك. فها أنا ذا، طالب فلسفة أخرق في الثالثة والعشرين، تأخَّرَ عن الانتساب إلى جامعة أثينا، لأنه تحوَّلَ إلى أحد أفراد حاشية البلاط.

كانت خادمة من العبيد تُشذِّب لي أظافر قَدَمَيّ وتكشطُهما، وشعرتُ بالحَرَج؛ وعَمَلَتْ أخرى على يَديّ، وتُبدي عَجَبَها من تلوُّث أصابعي بالحبر. والحلاّق الذي حلقَ لحيتي حاولَ بدوره أنْ يحلقَ لي شعر صدري لكنني منعتُه وأنا أجدِّف. ووصلنا إلى حلٍ وسط بتركِه يُشذِّب شعرَ منخرَيَّ. وبعد أن أنتهى، جلبَ لي مرآة. لم أستطع أنْ أتعرَّف إلى الشابِ الذي حدَّقَ إليّ بعَينَين جاحظتَين من المعدَنْ المصقول - إنه شاب، وليس رجلاً كما كنتُ أظن، لأنَّ اللحية كانت خادعة، أضفَتْ عليّ مظهر الحِكمة والعمر المتقدِّم الذي لا أستحقّه. ومن دونها، صرتُ أشبه أي فتى آخر من البلاط.

بعد ذلك حُمِّمتُ، ودُلِّكتُ بالزيت، وضُمِّختُ بالعطور وألبِستُ فاخر الثياب. انكمَشَ لحمي من ملمس الحرير الفاسِق، الذي يجعل الجسد يعي نفسه بصورةٍ مُزعجةٍ. واليوم أنا لا أرتدي الحرير أبداً، وأفضِّلُ عليه الكتّان الخشن أو الصوف.

إنني لا أحتفظ إلاّ بذكرى مُبهمة عن باقي ذلك اليوم. فقد حُمِلتُ إلى القصر خلال شوارع مزدحمة. وحدَّقَ الناسُ إليَّ بفضولٍ، غير واثقين مما إذا كان من اللائق أن يُهلِّلوا أم لا. وجَّهتُ نظري أمامي مباشرةً كما أرشدوني أنْ أفعل حين أكونُ مُعرَّضاً للأنظار. وحاولتُ ألاّ أسمع الأحاديث التي تدور في الشارع. حاولتُ بيأس أنْ أتذكَّر إرشادات الخصي.

عند حافة الساحة الرئيسية للمدينة نهضَ القصر أمامي، كئيباً وبغيضاً من خلف صفوف أعمدته الكورينثية ، كالقَدَر نفسه. أوقفَ الجنود بكامل ملابسهم على كِلا جانبَيّ الباب الرئيسي. وحين خطوتُ خارج المِحفَّة، حيّوني.

اقتربَت عِدَّة مئات من سكان ميلانو ليتفحَّصونني. وفي كل مدينة هناك طبقة مُعيَّنة يبدو أنَّ وظيفتها الوحيدة هي أنْ تتجمَّع في الأماكن العامة وتتفرَّج على المشاهير. وهم ليسوا ودودين أو عِدائيين، بل فقط مُهتمّين. كان جديراً بفيل أنْ يُدخِل السعادة إلى قلوبهم أكثر، ولكن لمّا لم يكن هناك فيل، كان يجب على الأمير الغامض جوليان أنْ يفي بالغرض. وقليلٌ منهم تعرَّفَ إليّ. ولا أحد كان متيقِّناً من طبيعة الصِلة التي تربطني بالإمبراطور. مُذهِلٌ مدى قلّة ما يعرفنا رعايانا. وأنا أعرف أماكن تقع على كِلا حدود الإمبراطورية يعتقدون فيها أنَّ أوغسطوس نفسه ما يزال يحكم، وأنه ساحر عظيم قد لا يناله الموت. طبعاً، إنَّ حقيقةَ أنَّ كلاً منا يُطلِقُ على نفسه لَقَبَ أوغسطوس هي محاولة مُتعمَّدة للإيحاء بأنَّ استمرارية السلطة التي تنشأ في روما هي تلك الثابتة في عالمٍ من التدفُّق. ولكن حتى في المدن التي تنتشر فيها معرفة القراءة والكتابة، غالباً ما يكون المواطن العادي غير متأكِّد من هوية الحاكم. وحتى الآن خاطبتني وفودٌ مفوَّضةٌ أصابها الارتباك مرات عِدَّةٍ بلقَب قسطنتيوس، في حين اعتقد رجلٌ عجوز أنني قسطنطين ومَدَحني بقوله إنني لم أتغيَّر أبداً منذ معركة الجسر الملفي Mulvian!

داخل القصر، امتزجَ الفضول بالإثارة والتوقُّع. لقد كنتُ ذا حُظوة. قرأتُ حظي الحَسَن على الوجوه كلها. وفي المدخل المسقوف قدَّموا لي واجب الإجلال. برزتِ الرؤوس؛ وومضَتْ الابتسامات؛ وشُدَّ على يدي بحرارة، وتلقَّيتُ قُبُلاتٍ مُفعمة بالأمل. كان شيئاً مُثيراً للاشمئزاز... حين أستعيدُ ذكراه. وحينئذٍ، كان ذلك برهاناً على أني سأعيشُ مدةً أطول.

سُلِّمتُ إلى رئيس المراكز، الذي أصدرَ إليَّ همساً آخر الأوامر. ثم، وعلى نفير الأبواق، دخلتُ غرفة العرش.

كان قسطنتيوس يرتدي الثوب الأرجواني. وكان الرداءُ ينهمرُ بتصلُّب ويصل حتى حذائه. إحدى يديه كانت تحملُ صولجاناً من العاج، بينما ارتاحت الأخرى على ذراع كرسي العرش، وراحتها متّجهة نحو الأعلى، وتحملُ الكرة السلطانية الذهبية. وكالمعتاد، كان يُحدِّقُ أمامه مباشرةً، غير واعٍ لأي شيء ما عدا ما يجري على الخط المباشر لاتّجاه نظره. بدا مريضاً. كانت عيناه مُحاطتين بهالتين سوداوين، ووجهه مُبقَّعاً قليلاً، كأنما كان ذلك بسبب الإفراط في شرب الخمر؛ لكنه كان معتدلاً في ذلك. وعلى عرشٍ موضوعٍ على سوية الأرض جلسَت يوسيبيا، تومضُ بالأحجار الكريمة. وعلى الرغم من أنها هي أيضاً كانت تتَّخذ وضع التمثال، إلاّ أنها نجحَتْ في الإيحاء بالإنسانية المتعاطفة. وحين رأتني، انفرجَ الفم الحزين قليلاً.

على اليمين واليسار وقفَ أعضاء المجمع المقدَّس، بكامل زي البلاط، وكلهم يحدّقون إليَّ بينما أنا أعبر ببطء إلى العرش، مُطرق العينين. تسرَّبَ ضوء شهر تشرين أول من النوافذ العالية، وكان عَبَق البخور ثقيلاً في الغرفة. مرةً أخرى شعرتُ أني طفل، وهذا هو قسطنتيوس. للوهلة الأولى، طافَتْ الغرفة أمام عينيّ. ثم نطقَ قسطنتيوس أول سطر من التحيّة الطقسية. بادلتُه التحية، وسجدتُ عند قَدَميه. قبَّلتُ الرداء الأرجواني، ثم نهضتُ واقفاً. وكاثنين من الممثّلين أدّينا مشهدنا بتجرُّد حتى نهايته؛ ثم أُعطيتُ مقعداً دون ظهر بجوار يوسيبيا.

جلستُ بسكون، أنظرُ أمامي مباشرةً، مُدركاً وجودَ يوسيبيا إلى جانبي. كان في استطاعتي أنْ أشمَّ عطرَ أثوابها الزكي. لكنَّ أحداً منا لم ينظر إلى الآخر.

تمَّ استقبالُ السفراء، وتعيينُ القادة، وخلعُ الألقاب. انتهتْ المقابلة حين نهضَ الإمبراطور واقفاً. وخرَّ الباقون منا على رُكَبِهِم. مشى قسطنتيوس، متيبِّس الساقين يتمايلُ قليلاً من ثقل أثوابه ومجوهراته، مُتَّجهاً إلى جناح المعيشة في القصر، تتبعه يوسيبيا. وحالما انغلَقَت الأبواب البرونزية الخضراء خلفهما، وكأنما بفعل رقيّة ساحر، أُطلِقَ سراحنا جميعاً.

اكتنفني أعضاء البلاط من كل جانب وطرحوا عليَّ ألف سؤال : هل سأصبح

قيصراً؟ أين سأُقيم؟ هل أحتاج إلى أي خدمة؟ يكفي أنْ أصدر أوامري. أجبتهم بأشد ما استطعت من اتّزان والتباس. ثم اقتربَ عدوّي يوسيبيوس، ووجهه الأصفر الكامل الاستدارة والمُحتَرَم بجديّة. همسَتْ الأثواب الحريرية بينما الجسم الثقيل ينحني لي باحترام، " مولاي، سوف تتناول طعام العشاء مع العائلة المقدَّسة ". سَرَى همسُ الإثارة في أرجاء البلاط. كان ذلك بمثابة الاعتراف بأعلى مستوى. كنتُ عالي المقام في العيون كلها. على الرغم من أنَّ ردَّة فعلي الأولية كانت : العشاء يعني السُمّ.

" سوف أرافقكَ حتى المسكن المقدَّس ". قادني يوسيبيوس إلى الأبواب البرونزية التي عبر خلالها للتو الزوج الإمبراطوري. لم نتبادل الحديث إلى أنْ أصبحنا وحدنا في الرواق البعيد.

" يجب أنْ تعلَمْ، يا مولاي، أنني لطالما أكَّدتُ للأوغسطوس، بالطُّرُق كافة، ولاءكَ له "

" أعلمُ أنكَ فعلتَ ". كذبتُ بفخامة مُعادلة.

" هناك أعداءٌ لك في المجمع المقدَّس "، وأشارَ إلى حارسٍ لكي يفتح باباً صغيراً من خشب السنديان. ومررنا. " لكنني دائماً أعارضهم. وكما تعلم، كنتُ آملُ دائماً أنْ تحتل المكانةَ التي تستحقُّها هنا في البلاط. وعلى الرغم من وجود بعض مَنْ يعتقدون أنَّه يجب إسقاط لقَبَ قيصر لأنَّ أخاكَ... ". وتركَ الجملة ناقصة. " لقد ألححتُ على أبديَّته لكي يجعل منكَ قيصراً "

غمغمتُ " إنني لا أسعى وراء مثل هذا اللقب "، وأنا أتلفَّتُ حولي بقَدرٍ من الاهتمام. القصر في ميلانو بناءٌ كبير مترامي الأطراف. في الأصل كان مقراً متواضعاً للحاكم العسكري. وخلال القرن الماضي حين لم تعُد روما هي مركز الغرب عملياً، تمَّ توسيع القصر ليصبح المقام الإمبراطوري. وبسبب القبائل الجرمانية، اضطُرَّ الإمبراطور إلى أنْ يكونَ قريباً من جبال الألب. أيضاً، كلما ابتعدَ الإمبراطور عن مدينة روما ازداد احتمال أنْ يطولَ أمَدُ حُكمه، ذلك أنَّ جماهير تلك المدينة متقلّبون ومتغطرسون بصورة شائنة، وتحمل ذاكرة طويلة للآباطرة الذين أطاحوا بهم. لا أحد منا يمكث طويلاً في روما إذا استطاع ذلك.

وسَّعَ قسطنطين قصر ميلانو، فأنشأ الغرف الرسمية، بينما أضافَ قسطنتيوس مقر

المعيشة في الطابق الثاني الذي نمشي فيه الآن. هذه الغرف تطلُ على فناءٍ داخليّ كبير. شخصياً أفضِّلُ الشكل التقليدي للهندسة المعمارية، مع غرفٍ خاصة صغيرة موزعة حول القاعة المركزية، لكنَّ قسطنتيوس كان يميل إلى الحداثة في الهندسة المعمارية وأيضاً في الدين. إنني أجدُ تلك الغرف مفرطة الاتّساع، وطبعاً تدفئتها تكلِّفُ مبالغَ مُدمِّرة.

كان الحراس والخصيان يقفون عند كل باب، متعجرفون لكنَّهم عبيد. إنَّ البلاط هو أشد الأماكن إشاعةً لانقباض الروح على الأرض. فحيثما وُجِدَ عرشٌ، يلاحظ المرء بتفصيلٍ دقيق كل حماقة وعمل شرير يمكن للإنسان أنْ يقومَ بها، مُلبَّسةً بطبقة من حُسن السلوك ومُذهَّبةً بالنفاق. إنني أحتفظ بحاشية في ساحة القتال؛ وفي المنزل بأقل عدد ممكن من الأشخاص.

عند الباب الأخير، تركني يوسيبيوس مع انحناءة كبيرة. فتحَ الحرّاس الباب، ودخلتُ إلى غرفة طعام خاصة. كان قسطنتيوس يتّكئ على إحدى أريكتين وثمة طاولة تقع ضمن زاوية مناسبة منهما. وقبالته جلسَتْ يوسيبيا على كرسيٍ من العاج. انحنيتُ باحترامٍ جمّ لكليهما، وأنا ألقي صيغة العبارة المناسبة.

غمغمَ قسطنتيوس برداً. ثم لوَّحَ لي لأجلس على الأريكة المجاورة له.

" تبدو أفضل من دون تلك اللحية اللعينة "

احمرَّ وجهي خجلاً بينما كنتُ أتَّخذُ مجلسي على الأريكة. ابتسمت يوسيبيا مُشجِّعةً. قالت " أنا كنتُ أحب اللحية ".

" هذا لأنك مُلحدة، أيضاً "

توقَّفَ قلبي لحظة عن الوجيب. لكنَّ السبب كان فقط ظُرف الإمبراطور الثقيل.

" إنها تحب أولئك الكلبيين عالي الأصوات، المنخفضي مستوى المعيشة "، وأشارَ إلى زوجته بيدٍ مُدجَّجة بالعُقَد وبالخواتم. " إنها دائماً تقرأ لهم. إنَّ القراءة لا تفيد النساء ". قلتُ شيئاً لطيفاً، مُبدياً امتناني لأني وجدته في مزاجٍ حَسَن. كان قسطنتيوس قد خلعَ تاجه ورداءَه الخارجي، فبدا أقرب إلى المخلوق البشري، ولا يشبه بأي حال الوضع التمثالي الذي ظهر به قبل ذلك بقليل.

أُحضِرَ الخمرُ لي وعلى الرغم من أني نادراً ما أغالي في شربه، إلاّ أني في ذلك اليوم أفرطتُ في شربه، لكي أتغلَّب على ارتباكي.

" مَنْ يُشبه؟ "، كان قسطنتيوس يتفحَّصني بفضول، وكأني عبدٌ أو حصانٌ جديد، " من دون تلك اللحية؟ "

تجهَّمَتْ يوسيبيا، متظاهرةً بأنها مستغرقة في التفكير. إنَّ المرء لا يتخلَّى عن أي شيء حين يتعاملُ مع طاغية، حتى وإنْ كان الطاغية هو الزوج.

كرَّرَ الإمبراطور سؤاله. " كونستانس. إنكَ تشبهه؛ تشبه أخي تماماً ". غاصَ قلبي بين أضلعي. لطالما عُرِفَ عن قسطنتيوس أنه كانت له يد في موت أخيه. ولكن تلك الملاحظة كانت خالية من المغزى، مع ذلك. فقسطنتيوس يميل، في أوقات استرخائه، إلى أنْ يكون واقعياً وأقرب إلى البساطة.

قلتُ إنني أصغر سناً من أنْ أتذكَّر كيف كان شكل ابن عمي المرحوم.

" هذا أفضل لنا نحن الثلاثة. كان طويل القامة. كوالدنا ". كان قسطنتيوس شديد القلق بشأن قصَر قامته.

قُدِّمَ لنا عشاءٌ فخم، وقد حرِصتُ على تذوُّق كل شيء، ذلكَ أنَّ رفض تذوُّق أي لونٍ من الطعام يدلُ على أني أعتبر الإمبراطور خائناً. كان الأمرُ محنةً، وكادت معدتي تتمرَّد.

قادَ قسطنتيوس دفّة الحديث، كما يُفتَرَض بالأباطرة أنْ يفعلوا ـ إلا إذا كانوا ميّالين إلى الجِدال الفلسفي مثلي، وفي تلك الحالة يجب أنْ أسرِع في الكلام من موقعي على المائدة لكي يسمعني.

سألني عن دراستي في أثينا. فوصفت وضعَها، وختمتُ بالقول، " يمكنني أنْ أمضي باقي حياتي كلها هناك ". بينما كنتُ أقولُ هذا لاحظتُ أنَّ يوسيبيا تجهَّمت بشكلٍ غير ملحوظ : وهي إشارة مفادها أنه ينبغي ألاّ أتكلَّم عن حياة الدراسة.

لكنَّ قسطننتيوس لم يكن يُصغي. كان عندئذٍ مستلقياً على ظهره، يتجشّأ بصوتٍ خافت ويُدلِّك بطنه الشبيه بالبرميل بإحدى يديه. وحين تكلَّمَ، فعلَ وعيناه مُغمضتان.

" أنا أول أوغسطوس يحكم وحده منذ أيام والدي، الذي بدوره كان أول مَنْ حَكَمَ وحده في زمنه. لكنه لم يكن ينوي قط أن يجعل من أيٍ منا حاكماً، بقدر ما ديوكليتان لم ينوِ أنْ يجعل من أيٍ من خلفائه يحكم وحده ". رفعَ قسطنتيوس نفسه مرتكزاً على أحد مِرفقَيه ونظرَ إليَّ بتينك العينين الحزينتين بشكلٍ غريب، تلكما العينين اللتين

كانتا أشد ما في قَسَماته جاذبيةً وإثارة للحيرة. كانتا عيني شاعر شاهد كل مآسي هذا العالم ويعرف ماذا ينتظره في العالم الآخر. لكنَّ أثر تينك العينين الطيب ألغاه تماماً الفمُ النكِد.

مَنْ كان في استطاعته أن يعرف قسطنتيوس؟ أنا حتماً لم أعرفه. كنتُ أكرهه، لكنَّ يوسيبيا أحبَّته - في اعتقادي - فقد كانت امرأةً لا تأبه بما هو شرير. وكان قسطنتيوس، مثلنا جميعاً، رجالاً عديدين في جسد رجلٍ واحد.

" إنَّ العالم من الضخامة بحيث يعجز شخص واحد عن حُكمِه ". أسرع وجيبُ قلبه لأنني عرفتُ ما الذي سيلي. " لا يمكنني أن أكون موجوداً في كل مكان. ومع ذلك ينبغي على السلطة الإمبراطورية أنْ تكون حاضرة في كل مكان. الأمور عادة تسوء كلها دفعةً واحدة. فحالما ينطلقُ عقال القبائل الجرمانية في الشمال، يُهاجمُ الفرس في الجنوب. أحياناً أعتقد أنهم خطَّطوا للأمر معاً. إذا مشيتُ إلى الشرق، سُرعان ما أتلقَّى تهديداً من الغرب. إذا تمرَّد قائد عسكري عليّ، فيجب أنْ أتعامل مع خائنيْنِ آخرينِ على الأقلّ في وقتٍ واحد. إنَّ الإمبراطورية كبيرة. والمسافات هائلة. وأعداؤنا كُثُر". مزَّق ساق بطّة مشوية ومَضَغَها، وكان طِوال الوقت ينظر إليّ بتينك العينين الحالمتين.

" إنني مُصمِّم على إبقاء الدولة وحِدةٍ واحدة. لن أتنازل عن مدينةٍ واحدة للبرابرة، ولا بلدة واحدة، ولا حقل واحد! ". كاد الصوت العالي النبرة يصبحُ أجشاً. " مُصمِّمٌ على إبقاء الدولة في أيدي عائلتنا. لقد كسبناها. ويجب أنْ نحتفظ بها. ولهذا ينبغي أن يُخلِص كلُ منا للآخر ". يا لفخامة تلك العبارة التي صدَرَتْ عن تينك الشفتين القاسيتين! لم أجرؤ على النظر إليه.

" جوليان ". كان الصوت قد اضحى الآن أكثر انخفاضاً. " أنوي أنْ أجعلك قيصراً، ووريثي إلى أنْ أُرزَق بولد "

" مولاي... ". هذا كل ما استطعت أنْ أقوله. ملأتْ الدموع عينَيّ بصورة غير متوقَّعة. ولن أعرفَ أبداً إنْ كنتُ أردتُ قَدَري. ولكن حين أتاني، انقَطَعَ خيطٌ سرّي داخلي وبدأتْ الرحلة الخطِرة.

هنّأتني يوسيبيا. ولا أذكُر ماذا قيل حينئذٍ. وجُلِبَ مزيدٌ من الخمر وأخبرني قسطنتيوس، وهو بمزاجٍ مرِح، كيف أنَّ المُنجّمين يفضِّلون السادس من شهر تشرين ثاني

على أي يوم آخر في الشهر. وألحَّ أيضاً على أنْ أدرس الاستراتيجية العسكرية، أثناء تكوين حاشية خاصة تتناسب ومركزي الجديد. وتقرَّرَ أنْ أحصل على راتب. قال إنه لن يكون كبيراً، مُبدياً استخفافه الشديد بالمسألة : ولو لم أكنْ أتلقَّى دخلاً صغيراً من أمي، لَمُتُّ جوعاً في ذلك العام. كان من المستحيل اتّهام ابن عمي بالكَرَم.

كاد قسطنتيوس يبتسم لي. قال " والآن، لديَّ مفاجأة لك ". المفاجأة كانت أخته هيلينا. ولجَتْ الغرفة بفخامة عُظمى. لم أكنْ قد قابلتُها قبل ذلك، على الرغم من أني كنتُ قد رأيتُها عن بُعد أثناء زيارتي الأولى لميلانو.

لم تكنْ هيلينا امرأةً جذّابة. كانت قصيرة القامة، تميلُ إلى البدانة، وبساقين قصيرتين ولها خصر قسطنتيوس الطويل. وبفضل إحدى تلك الفُرَص البائسة، كان وجهها يشبه وجه أبيها قسطنطين الأكبر. كان تقريباً مُفزِعاً : الوجنتان العريضتان نفساهما، والفم المتكبِّر الرفيع، والأنف الكبير، والفك الممتلئ الضخم، صورة شخصية للإمبراطور أُعيدَ خلقها على وجه امرأة في منتصف العمر. ولكن، على الرغم من هذا الشبه المؤسِف، كانت فيما عدا ذلك مفعمة بالأنوثة من خلال صوتها الناعم الممتع. (لطالما كرهتُ النساء ذوات الأصوات الحادة) كانت حركاتها تدل على الاحتشام، بل على الحياء. وفي ذلك الوقت لم أكن أعرف عنها إلاّ أنها تكبرني بعشر سنين، وأنها أخت قسطنتيوس الأثيرة لديه.

بعد تبادل التحيات الرسمية، اتَّخذت هيلينا لها مجلساً على الكرسي الخالي. كان جلياً أنها تخضع لتوتُّر عصبي شديد. وكذلك كنتُ أنا، لأنني كنتُ أعلمُ بالضبط ما الذي سيحدث بعد ذلك. ولطالما كنت أعلمُ أنَّ شيئاً كهذا سيكون قَدَري، لكنني أبعدتُ ذلك عن تفكيري قدر ما استطعت. وها قد جاءت اللحظة الحاسمة.

قال قسطنتيوس " إننا نُشرِّفكَ بإعطاء أختنا الحبيبة على قلبنا زوجةً لك ومواسية، كرابط واقعي وإنساني يجمع بين التاجَين ". من الواضح أنه كان قد أعدَّ تلك الجملة مُقدَّماً. وأتساءلُ إنْ كان قد تكلَّم هكذا مع غالوس حين زوَّجه كونستاتينا.

أطرقَتْ هيلينا نظرها إلى الأرض. وأخشى أنَّ لونَ وجهي أضحى قرمزيَّ اللون، وراقبتني يوسيبيا، وتسلَّتْ ولكن بحَذَر. والآن يمكنها، وهي صديقتي وحليفتي، أن تصبح عدوَّتي بسهولةٍ شديدة. كنتُ مُدرِكاً لهذا، حتى عندئذٍ. أم هل أنا أكتبُ الآن

بإدراكٍ متأخر؟ على أي حال، كان جلياً تماماً أنه إذا أنجبَتْ هيلينا طفلاً وبقيَتْ يوسيبيا عاقراً، فسيصبحُ طفلي وريث قسطنتيوس. كنا نحن الأربعة الآن أشبه بذبابٍ واقعٍ في فخ شبكة عنكبوت.

لا أحملُ ذِكرى واضحة عمّا قلتُهُ لقسطنتيوس. أنا متأكّد من أنني تلعثمت. وقد قالت لي هيلينا لاحقاً إنني كنتُ فصيحاً جداً، على الرغم من أنني لم أتمكّن من النظر إليها أثناء إلقائي خطاب قبولي. كنتُ ولا شك أفكِّرُ في واجباتي الزوجية. لا أعرفُ امرأةً أقلَّ جذباً لي منها. ولكن كان ينبغي أن تُنجِبَ طفلاً. وهذا النوع من الأعباء هو عادة قَدَر الأمراء وأعترفُ بأنه كان ثمناً بخساً للعَظَمَة، على الرغم من أنه في حينه بدا باهِظاً أكثر مما ينبغي.

كانت هيلينا امرأةً طيّبة لكنَّ لحظاتنا الحميمة كانت نادرة، وغير مُرضية، وتدعو للرثاء بصورةٍ ما، ذلك أنني كنتُ أرغبُ فعلاً في إسعادها، ولكن لم يكن ممتعاً أبداً مُضاجعة تمثال قسطنطين النصفي. وعلى الرغم من أنني عجزتُ عن إسعادها، إلا أنني لم أسبِّب لها الألم، وأعتقد أننا أصبحنا أصدقاء.

انتهتْ وجبة العشاء حين دلّى قسطنتيوس ساقيه القصيرتين المقوّستين نحو الأرض، وتمطّى إلى أن فرقعَتْ عِظامه. ثم غادر الغرفة، دون أن يقولَ أيَّ كلمةٍ لأي منا. ونَفَحَتني يوسيبيا بنصف ابتسامة. ثم مدَّت يدها لهيلينا وغادرتْ المرأتان المكان معاً، وتركتاني أحدِّقُ إلى البيض الجميل الذي نسَّقَه طبّاخٌ فنان وسط عشٍ من الريش بشكلٍ جميل كإجراءٍ أخير. كانت لحظة استثنائية. كنتُ قد دخلتُ الغرفة وأنا طالب مُبعَد، وغادرتُها قيصراً وزوجاً. كان التغييرُ مُدوِّخاً.

أعتقدُ أنه يصحُّ على أغلب القصور أنَّ الشخصيات الرئيسية نادراً ما تتقابل. وهذا يعودُ جزئياً إلى الخَيار. فكلّما قلّت المقابلات، قلّتْ فرصة حدوث أمرٍ غير مؤاتٍ. لكنَّ الأهمّ من ذلك أنه يُناسبُ أعضاء البلاط إبقاء العظماء متباعدين، وبذلك تزدادُ أهمية الوسطاء الذين يصبح في استطاعتهم أن يُهْرعوا من جناحٍ في القصر إلى آخر، وأثناء ذلك يوقعون الشِقاق ويمارسون الدهاء السياسي.

كان بلاط قسطنتيوس الأسوأ من نواحٍ عديدة منذ عهد دوميتيان. كانت السلطة كلها في أيدي الخصيان. كانوا يُبعِدون الجميع عن الإمبراطور. فإذا أغضبَ شخصٌ

خصياً، فقد قُضيَ عليه ويُستدعى مركوريوس المُلقَّب بـ " كونت الأحلام " أو بولس المُلقَّب بـ " السلسلة " (لُقِّبَ هكذا لأنه كان عبقرياً بعثورهِ على الحَلَقات الغامضة لسلسلة لا تنتهي من الخيانات بينما اختصَّ الآخر في تحليل ما يبدو ظاهرياً أحلاماً بريئة والتي يتَّضِحُ، حتماً، وبعد التدقيق، أنها نوايا للخيانة). ولما كان قسطنتيوس لا يُصغي إلاّ للخصيان، استشرى الجور. ولم يعُد أحدٌ آمناً، بما فيهم الشخصيات الكُبرى نفسها، خاصةً أمثالي ورَثة الإمارة بالدم.

لطالما شعرتُ أثناء دراسة التاريخ أنَّ أهمية أولئك الوسطاء لم تُستَغَلّ بالقَدر الكافي وقد كانوا الحُكَّام الفعليين. إننا نميلُ إلى تصوُّر القصور أشبه بدواليب يجلس الإمبراطور في مركزها، يمتدُ منه، كالبرامِق[٨٤]، كل الذين يخدمونه، ويستمدّون سلطتهم مباشرةً من حضوره المركزي. والحقيقة هي خِلافُ ذلك. إذ لم يكن يُسمَحُ لأي شخص أنْ يقترب من قسطنتيوس. وحده الخصي يوسيبيوس كان يراه يومياً. ونتيجةً لذلك، كانت تتشكَّلُ زُمَرٌ داخل البلاط ويُعادُ تشكيلها، بعيداً عن السلطة الاسميّة.

حين يقرأ المرء سرداً لمُجريات تلك الأسابيع في ميلانو، قد يظن أن قسطنتيوس وأنا كنا نتقابل يومياً، نناقشُ السياسة العُليا، والاستراتيجية العسكرية، بما أننا نتشارك في حياة عائلية واحدة. وحقيقة الأمر، أنني لم أقابل الإمبراطور إلاّ أربع مرات في شهرٍ واحد. اللقاء الأول قمتُ بوصفهِ؛ والثاني كان عند تقليدي منصِب قيصر.

نُصِّبتُ قيصراً في السادس من شهر تشرين ثاني من عام ٣٥٥، العام الذي أصبحَ فيه آريتيو ولوليانوس قُنصلين. وسوفَ أقولُ شيئاً واحداً في صالح قسطنتيوس، وهو أنه كان يتمتَّع بموهبة فنان في إقامة المراسم. وعلى الرغم من أنني أحبُ أنْ أعتقد أنني أبزَّه من نواحٍ عِدَّة، إلاّ أنني أعلم أنني لن أتمكَّن أبداً من خلق إحساسٍ بالفخامة الهائلة التي كان هو قادراً على استحضارها متى شاء. فالمرء يعرف الأوغسطوس حين يظهر أمام الجمهور. وحين كنتُ أظهر، لم يكن الناس يتأثّرون البتّة. وأعتقدُ أنَّهم يكنّون لي حبّاً خاصاً. وأنا لا أُثيرُ لديهم أي إحساس بالرعب. إنهم يعتقدون أنني أبدو أشبه ببروفسور في الخطابة. وهم على حق تماماً، فأنا كذلك فعلاً.

في الطرف القصيّ من الساحة الرئيسية، زُيِّنَتْ منِصَّةٌ عالية من الخشب بنسور روما وتنانين عائلتنا. والساحة نفسها كانت تعجُّ بالجنود وهم بكامل لباسهم العسكري.

وبينما كان قادة الجيش يقودونني إلى المنصّة، وعيتُ أنَّ كلَّ عَضَلَة في جسمي تتألَّم، لأنني كنتُ أتدرَّب يومياً على استخدام السيف والرمح. كنتُ مُستنزفاً، وأخشى أنَّ مُرشديَّ لم يكونوا يضمرون لي إلاَّ الاحتقار . كانوا يرونَ فيَّ أحمقَ مُدمناً على قراءة الكُتُب لا يعرفُ أيَّ شيء عن الأسلحة ويُفضِّل الكلام على الحرب. طبعاً كانوا دمثين في وجهي، ولكن من خلف ظهري كثيراً ما سمعتُ ضحك المُحاكاة الساخرة الخافت. وقد فوجئتُ إذ اكتشفتُ، بالمُصادفة، مدى قلَّة تحمُّلي للمُحاكاة الساخرة. إنَّ إحدى أفضل أساليب مواساة الفلسفة أنه يُنتَظَر منها أنْ تُعدُّ المرء لاحتقار الآخرين. بل إنَّ بعض الفلاسفة يجدون مُتعةً بالغة في كراهية السوقيّ. ليس أنا. لعلَّ للأمر صلة بفكرة الدم والوراثة. فقبل كل شيء أنا مُنحدِر من سلالة ثلاثةٍ من الأباطرة؛ وأَنْ يعتبرني ضباطُ شبان متعافون ضعيفاً وأنثوياً كان شيئاً لم أقوَ على تحمُّله. وصمَّمتُ، يملؤني الاشمئزاز، على أنْ أبُزّهم بالطُّرُق كافة. ولسوء الحظ، فإنَّ الأهم بالنسبة إليَّ في هذه اللحظة كان أمنية أكثر منه حقيقةً واقعة. لقد أنجزتُ أكثر مما ينبغي بسرعةٍ كبيرة. والنتيجة كانت أنني أصبحت أخرق أكثر من المعتاد.

حالما بلغت أسفل المِنصَّة، هَدَرَتْ الأبواق بالنفير. وبدأ التهليل. فُتِحَ طريقٌ بين الفيالق، وظهرَ قسطنتيوس في عَرَبَتهِ الفخمة المُذهَّبة؛ يعتمر خوذةً من الذهب على شكل تنين والرداء الأرجواني. ولدى مروره بي لَمحتُ في عينيه نظرةَ رجلٍ أعمى كنظرة هومر! ففي العَلَن، لايرى الإمبراطور حتى مجردَ أناس.

ارتقى قسطنتيوس ببطء الدَرَج إلى المَنصَّة. وقلَّلت ساقاه القصيرتان المقوَّستان قليلاً من فخامة حضوره. ومن المِنصَّة استقبل تهليل الفيالق. ثم أشارَ لي لكي أنضمَّ إليه. ارتقيتُ الدَرَجَ الخشبيَّ الشديد الانحدار، يتملَّكني إحساسُ الذاهبِ إلى حتفه، واتَّخذتُ مكاني إلى جانب قسطنتيوس... وكدتُ أسجلُ اسمي على هامش التاريخ، ذلك أنني كنتُ قد صرتُ أسطورة. وأصبحتُ، للأحسن أم للأسوأ، جزءاً من ذلك التاريخ الطويل الذي بدأ مع يوليوس قيصر ولا أحد يعرف كيف سينتهي.

مدَدتُ بصري عبر كتل الجنود. كانت تلك هي أول نظرة ألقيها على جيشي، وأعترفُ بأني استمتعتُ أيما استمتاع بالمشهد. وامَّحى كل تفكير في الفلسفة من رأسي بينما رايات التنين ترفرفُ في وجه ريح الخريف، وحين تصاعد التهليل غاصت رايات النسور.

مدَّ قسطنتيوس يده وأمسكَ بيدي اليُمنى. كانت قبضته حازمة وخشنة. ألقيتُ نظرةً سريعة عليه من زاوية عيني، وقد أدركتُ أنَّ هناك شيئاً ليس على ما يُرام : كان أطول قامةً مني بمقدار رأس. وأخفضتُ نظري فرأيتُ أنه كان واقفاً على مقعد للقدمَين. لم يكن قسطنتيوس يُهمِلُ أيَّ تفصيلٍ يمكن أن يُعزِّز من هيبته.

وتحدَّثَ قسطنتيوس إلى الفيالق. خرجَ صوته العالي النبرة بشكلٍ جيد. كانت اللغة اللاتينية التي استخدمها هي التي يلجأ إليها أفراد الجيش، لكنها كانت سهلة الفهم. وكان قد حفظَ خطابه غيباً. " إننا نقفُ أمامكم، أيها المُدافعون البواسل عن بلدنا، لكي ننتقم لقضيَّتنا المشتركة. ولكي نُنجِزَ هذا أكِلُ الأمر إليكم ليس بوصفكم جنوداً بل كقُضاةٍ نزيهين. فبعد موت أولئك الطغاة المتمرّدين الذين دفَعَهم الغضب المجنون إلى الاستيلاء على الدولة، عبرَ البرابرة في شمال الحدودِ إلى بلاد الغال، مُعتقدين أنَّ هذه الإمبراطورية العظيمة ضعيفة وتعيثُ فيها الفوضى. إنهم هناك الآن. وفقط أنتم ونحنُ نستطيعُ، في توافُقٍ تام، أنْ نردّهم على أعقابهم. والخَيارُ لكم. وهنا يقفُ أمامكم ابن عمّنا جوليان، المعروف بتواضعه، العزيز علينا لهذا السبب وأيضاً لِما تربطنا به من صِلة دم؛ وهو شابٌ ذو مقدرةٍ بارزة أرغبُ في أنْ أجعله قيصراً إذا وافقتم على ذلك... "

هنا، وعلى الرغم من أنه كان وسط جملة، أسكتَ قسطنتيوس أصوات مختلفة تُعلِنُ بوضوح أنَّ إرادة الله، وليس الإنسان، هي التي سترفعني إلى منصبِ قيصر. واتّفقتُ معهم على ذلك، على الرغم من أنَّ الإله الذي كانوا يعنونه والواحد الذي رَفَعني بحق ليسا واحداً. ومع ذلك، أعجبتني المهارة التي أدَّى بها قسطنتيوس المشهد المسرحي. وهَدَرَتْ الأصوات كأنما بعفويةٍ (في الحقيقة، لقد تمَّ التدرُّب على كل شيء بعناية). بقيَ قسطنتيوس ساكناً تماماً بينما كانوا يتكلّمون، وكأنه يُصغي إلى وحي إلهي. أخذتْ يدي التي تحتويها يده تتعرَّق؛ لكنه لم يُرخِ قبضته الحازمة أبداً. وحين عمَّ الصمت من جديد، أومأ للفيالق برصانة. " إنَّ جوابكم كاف. وأرى أنني حصلتُ على موافقتكم "

حررَّ يدي. وأشارَ إلى اثنين من القادَة لينضمّا إلينا على المِنصَّة. كان أحدهما يحمل إكليلاً؛ والآخر يحمل رداءً أرجوانياً. ووقفا خلفنا.

" إنَّ قوَّة هذا الشاب الهادئة وسلوكه المعتدل " (شدَّدَ على كلمة " معتدل " ليطمئنهم إلى أنَّني لست غالوس) " يجب أنْ يُقتدا بهما وليس الإعلان عنهما؛ وتوافقي مع مزاجه الممتاز، الذي دُرِّبَ بالفنون الراقية، يتجلّى باختياري ترقيته. وهكذا، بالفضل الفوري لإله السموات، أخلعُ عليه هذا الرداء الفخم "

أُحيطَ كتفايَ بالرداء، ورتَّبَ قسطنتيوس من شأنه حول العُنُق. نظرَ إليَّ مباشرة مرة واحدة فقط حين تواجهنا، هو على مقعد القَدَمَين وأنا أعطي ظهري للفيالق. النظرة التي ألقاها عليَّ كانت ماكرة ومُترددِّة بشكل غريب، في تبايُنٍ حادّ مع الفخامة السلسة لحركاته والقوة الصافية لصوته.

لقد كان قسطنتيوس رجلاً يشعرُ بالرُعب من حياته. رأيتُ ذلك جلياً في تينك العينين. وبينما هو يضع الإكليل على رأسي، أغمضَ عينيه برهةً، كَمَنْ يُجفلُ توقُّعاً لمِبضَع الجرَّاح. ثم أمسكَ من جديد بيدي اليُمنى وأدارني بحيث أواجه الفيالق. ولكن قبل أنْ يُتاحَ لها أن تُحيّيني، رفعَ ذراعَه. كان لا يزال لديه مزيد ليقوله. وعلى الرغم من أنه تكلَّمَ وكأنه يوجّه كلامه إليّ، إلاّ أنه كان ينظر مباشرةً إليهم. ولما لم أكن أعرف كيف أتوجَّه، توزَّعَ نظري بينه وبين الجنود في الساحة.

" يا أخي، يا أعزَّ الرجال عندي، لقد تلقَّيتَ وأنتَ في ريعانك، زهرة منشئك الرائعة. ولكن يجب أنْ أعترف بأنكَ ضاعفتَ مجدي، لأنني شخصياً أبدو أعظم بحق لأني أهبُ سلطةً تعادلُ تقريباً/سُلطتي " (كلمة " تقريباً " لُفِظَتْ مع تشديد) " لأميرٍ نبيلٍ هو قريبي وليس من خلال السلطة نفسها. هيا بنا، إذن، نتقاسم الآلام والأخطار، ونتولّى أمر الدفاع عن أرض الغال، ونُخفِّف الأعباء عن مناطقها المُبتلية بكل ما نستطيع من غِلال. وإذا لزِمَ الأمر تتشابك مع العدو، وتأخذ مكانك بين حاملي الرايات. تقدَّم بنفسك، وأنت الرجل الشجاع المستعدّ لقيادة رجال لا يقلّون عنك شجاعة. سوف يدعمُ أحدنا الآخر بحبٍ ثابت وراسخ، ومعاً - إذا تقبَّلَ الله صلواتنا - سوف نُهيمن على العالم الذي يسوده السلام بالاعتدال والضمير الحي. سوف تكون دائماً حاضراً في أفكاري، ولن أخذلك في أي شيءٍ تتولاّه. والآن اذهب، وبسرعة، تصحبكَ صلواتنا جميعاً، لتدافع بشرف عن المنصِب الذي أسنَدَته إليك روما نفسها، وبتعيين من الله! المجد، للقيصر! "

هذا الهتاف الأخير قاله بصوتٍ عالٍ ردَّدت أصداءه على الفور الفيالق. كان أشبه بقصف الرعد. وكنتُ حاضر البديهة بقدرٍ كافٍ بحيث أجيب : " المجد، للأوغسطوس!". ردَّدَ الرجال هذا، أيضاً. وحيّيتُ قسطنتيوس. ثم التفتُّ وحيَّيتُ الفيالق. كان هذا مُخالفاً لكل الأصول. فالقادة لا يُحيّون رجالهم. الرايات، نعم؛ الفيالق، كلا. لكنَّ لفتتي كانت تعوزها اللباقة بصدق. وبعد الدهشة الأولية، زأرَت الفيالق باستحسانهم لتصرّفي وضربوا بتروسهم بقوة رُكبِهم المُصفّحة؛ لعلّه أرقى ثناء قدَّموه لرجل. والأعلى صوتاً أيضاً. وحسبتُ أني سأُصاب بالصمم إلى الأبد حين ردَّدت أرجاء الساحة صدى القرقعة المدوّية. لكنَّ الأسوأ من ذلك هو معارضة الجيش، حين يضرب أفراده رماحهم مراراً وتكراراً على تروسهم، كمقدمة للتمرُّد.

كدتُ أشعر بقسطنتيوس متصلّباً إلى جانبي. لقد كان ذلك أكثر مما توقّع. وأنا واثق من أنه كان متأكّداً من أنَّ إيماءتي إلى الفيالق أعِدَّ لها مُسبقاً. لكنَّ الإنجاز تمّ. وأصبحتُ قيصراً.

غادرَ قسطنتيوس المِنصَّة على عَجَل. وتبعتُهُ. سادتْ برهة من الفوضى حين وَلَجَ عَرَبَتَه. نظرَ إليّ مدة لحظة طويلة. ثم أشارَ إليّ كي أنضمَّ إليه. جاهدتُ للجلوس إلى جانبه، ومضينا معاً نشقُّ طريقنا بين الفيالق الهاتفة. شعرتُ بحب مُفاجئ لهم جميعاً. كنا مُتَّحدين كأنما برباط زواج، وكالعديد جداً من الزيجات المُعدَّة مُسبقاً، وعلى الرغم من غرابة هذا الزواج، اتَّضَحَ أنه سعيد.

تحرَّكَتْ العَرَبة ببطء خلال ساحة القصر. لم يقُل قسطنتيوس لي أيَّ شيء، ولم أجرؤ على التحدُّث إليه، ولحُسن الحظ أدركتُ أنه ليس في العَرَبة أي مقعد للقَدَمَين وأنني أطول منه قامةً، فأل مشؤوم آخر. غمغمتُ لنفسي سطراً من الـ " إلياذه " : "قبضَ عليَّ الموت الأرجواني، والقَدَر الأسمى ". داخل فناء القصر افترقنا أنا وقسطنتيوس دون أنْ نتبادل أي كلمة. لم أرَه بعد ذلك طوال أيام عدَّة.

أوَّل عمل قمتُ به كقيصر أني أرسلتُ في طلب أوريباسيوس، الذي كان موجوداً في أثينا. وكان قد وصَلَ إليها بعد أسبوع فقط من استدعائي. وكتبتُ أيضاً لماكسيموس ولبريسكوس، أدعوهما للانضمام إليّ. وأثناء ذلك، واصلتُ تدرُّبي العسكري. وأيضاً تعلَّمتُ أكبر قدرٍ ممكن عن إدارة بلاد الغال.

خلال تلك الفترة لم أرَ أياً من أفراد العائلة الإمبراطورية، بمَنْ فيهم التي كانت ستصبح زوجتي قريباً. لكنَّ يوم الزفاف كان قد حُدِّدَ والوثائق اللازمة أُحضِرَتْ إليّ لكي أدرسها. أُعطيتُ مُخطَّط تامّاً على الأرض لكنيسة صغيرة تمَّ اقتفاء موقعي عليها بدقَّة من لحظةٍ إلى أخرى خلال المراسم.

لم يكن لدي غير صديق واحد في البلاط، إنه يوثريوس، الخصي الأرمني الذي كان قد علّمني في القسطنطينية. كنا في كل مساء ندرس مختلف الوثائق والمُذكرات. كانت مهمَّته، كما قال، أنْ يجعل مني رجلاً إدارياً.

في الليلة التي سَبَقَتْ الزفاف، جاءني يوثريوس حاملاً أخباراً مفادها أنني سأغادرُ إلى بلاد الغال خلال الأسبوع الأول من شهر كانون أول.

" إلى أي مدينة؟ "

" إلى فيين. سوف تقضي الشتاء هناك. وفي فصل الربيع سوف تنزل إلى ساحة القتال ". ونظرَ إليَّ بتمعُّن. " هل يبدو لك غريباً أنْ تكونَ قائد جيش؟ "

انفجرتُ قائلاً " غريب! بل جنوني! "

رفعَ يده بشيءٍ من الفزع، وأشارَ إلى الظِلال حيث يقفُ الحرّاس والمُخبرون يُصغون، ودائماً يحدوهم الأمل في القبض عليَّ بتُهمة الخيانة.

أخفَضتُ صوتي. " طبعاً غريب. إنني لم أحضر معركةً دهري. ولم أُصدِر أمراً لأي جندي، فكيف بجيش. ولكن... "

" ولكن؟ "

" ولكنني لستُ خائفاً ". لم أبُح بحقيقة شعوري؛ وهو أني كنتُ أصبو إلى خوضِ مغامراتٍ عسكرية.

ابتسمَ يوثريوس. " لقد ارتحتُ، لأنني عُيِّنتُ للتو كبير الحُجَّاب في بلاط القيصر جوليان. سوف أرحلُ معكَ إلى بلاد الغال "

كانت تلك أخباراً رائعة. عانقتُهُ بحرارة، وأنا أهذي بسعادة إلى أنْ اضطرَّ إلى أنْ يقول، " إنها الجاذبية الرومانية، أيها القيصر. أرجوك. أنتَ آسيويٌّ أكثر مما ينبغي "

ضحكتُ. " لا حيلة لي في هذا. أنا آسيويّ.... "

فجأةً، نهضَ يوثريوس واقفاً على قَدَمَيه. وبسرعةٍ ما كنتُ لأعتقد أنَّ رجلاً في مثل سنِّه يمكن أنْ يؤدّيها، اندفعَ إلى المدخل المُقنطر المُظلّل المقابل لنا مباشرةً. وبعد ذلك ببرهة عاد إلى الظهور مع رجل أسمر يرتدي ملابس مرفّهة.

قال يوثريوس بنبرة رسمية متجهِّمة، " أيها القيصر، اسمحْ لي أنْ أقدِّمَ لك بولس، العميل السرّي. لقد جاء لكي يُقدِّمَ إليك واجب إجلاله الأعظم "

لم أكد أُدهشِ؛ كنتُ طوال حياتي خاضعاً للمراقبة. وحضور عميل الحكومة السري الأول ذكّرني فقط بأنَّني كلما علا شأني ازدادت أهمية مُراقبتي بالنسبة إلى قسطنتيوس.

قلتُ بأدب " يُسعدنا دائماً أنْ نستقبل عملاء الإمبراطور "

كان بولس متمالكاً نفسه. لمعَتْ عيناه تحت ضوء المصباح؛ وجعله أنفه المعقوف يشبه أحد الطيور الكاسرة الضخمة. انحنى احتراماً. وتكلّمَ بلكنةٍ أسبانية خفيفة. "كنتُ في طريقي إلى الجناح الشرقي. لكي أقدِّمَ تقريري إلى روفينوس، الحاكم الإمبراطوري "

قال يوثريوس بودّ، " ليست هذه هي الطريق المعتادة للتوجّه إلى الجناح الشرقي "

نشَرَ بولس يديه، ومخالب الطائر مُستعدّة للقبض، " ماذا يسعني أنْ أقول؟ "

قلتُ " تستطيع أنْ تقول تصبحون على خير، يا بولس، ومن ثم تقدِّم تقريرك إلى الحاكم الإمبراطوري الذي ستقول فيه إنكَ لم تسمع شيئاً مفيداً "

انحنى بولس احتراماً. " إنني أبلِّغ فقط بما سمعته، أيها القيصر ". كان وقحاً بحذَر.

قلت " امكث مدّة أطول، وسوفَ تسمع عن بداية موتك "

هذا الجواب هزّه، على الرغم من أنَّ جراءتي كانت خدعةً صِرفاً؛ لم تكن لديّ أي سلطة. كلمة واحدة منه كانت جديرة أنْ تقضي عليّ. لكنني كنتُ أعلمُ أنني إذا أردتُ أنْ أصبحَ قيصراً فيتوجَّبُ عليّ أنْ أثبِتْ نفسي أو أنْ أستجلب احتقار الخصيان والجواسيس القاتل. وانسحبَ بولس.

التفتُّ إلى يوثريوس. " هل كنتُ مفرطاً في آسيويتي؟. أزعجتُهُ، مع أنَّ قلبي كان يضرب بقوة.

هزَّ رأسه نفياً. " لعلَّ هذه هي الطريقة الأشد حِكمة للتعامُل معه. على أي حال ، أنتَ آمن في الوقت الحاضر "

" لكنّه يُشكِّلُ إحدى حَلَقَات سلاسله "

" قد يقع في الفخ الذي نَصَبَه "

هززتُ رأسي إيجاباً. كان بولس هو المُحرِّك الأساسي لمؤامرة تدمير أخي. في تلك الليلة في قصر ميلانو بدأتُ في وضع مؤامرتي الخاصة.

يوم زفافي... ما أغرب أنْ يكتب عازب عن هذا! يبدو مستحيلاً الآن أنه كان في استطاعتي أن أصبح زوجاً. ومع ذلك أصبحتُ كذلك في الثالث عشر من شهر تشرين ثاني عام ٣٥٥ . ولن أصِف المراسم الجليلية الشنيعة. يكفي أنْ أقول إنني تحمّلتها، وأنا مُثقلٌ بالرداء الأرجواني وأتلألأ بجواهر الدولة التي بعتُها لاحقاً في بلاد الغال لكي أشتري بثمنها جنوداً.

بعد انتهاء المراسم، أقيمتْ الاحتفالات والألعاب المعتادة على شرفنا. وابتهجَتْ بكل أبّهة المركز الرفيع؛ كانت في ذلك تشبه أخاها. وكنت أنا فقط مُطيعاً وأقومُ بما هو متوقَّعٌ مني. بعد انتهاء المراسم ببضعة أيام استُدعيتُ للمثول بين يديّ يوسيبيا.

" ما رأيكَ في العالم الآن؟ ". لمعَتْ عينا يوسيبيا بالمكر.

قلتُ بحرارة " إنني أدين بكل شيء إليكِ "

" وكيف تجد هيلينا ؟ "

قلت برسميَّةٍ " إنها زوجتي "؛ ومن جديد رمتني بتلك النظرة المتآمِرة.

قالت يوسيبيا، مع قدرٍ من الخبث، " إنها شديدة... الوسامة "

" أنا أقول، النُبل ". كدتُ أنفجرُ بالضحك، ولكن هناك أصولاً لتلك الألعاب.

" ستغادر قريباً "

قلتُ " أنا سعيدٌ لذلك ". ثم أردفتُ " هذا لا يعني أنني أصبو إلى الرحيل...". لم أستطع أنْ أقول " عنكِ " فقلتُ " عن ميلانو ".

هزَّتْ رأسها نفياً. " هذا النوع من الأماكن لا يناسبك. ولا يناسبني أيضاً، ولكن...". ولم تبُح بالكلام الجادّ. ثم: "سوف تذهب إلى المقرّ الشتوي في فيين. المال..."

" سيكونُ شحيحاً ". كان كبيرُ الحُجَّاب قد أخبرني مُسبقاً أنه سيتوجَّب عليَّ أنْ أعيلَ نفسي وأهل بيتي من راتبي كقيصر. وفي تلك الأثناء لا يمكن الحصول على أي موارد مالية إضافية.

" لحُسن الحظ أنَّكَ مُقتصِد "

" هيلينا ليست كذلك "

قالت يوسيبيا بحدِةّ، " هيلينا لها أموالها الخاصة. يجب أن تلجأ إليها. إنها تملُك نصف روما "

ارتحتُ لسماع هذا، وجهَرتُ بهذا.

قالتْ يوسيبيا " آمل أنْ تحصل على ابن قريباً، ليس فقط من أجلك بل من أجلنا جميعاً "

أعجبتني جرأتها. ذلك كان الشيء الوحيد الذي لم تُرِدْ يوسيبيا لي أنْ أحصل عليه، لأنه سيُهدِّد مركزها. وبدل أن يقبل قسطنتيوس ابني كوريث، كان يمكنه أنْ يُطلِّق يوسيبيا ويتَّخِذ له زوجةً جديدة تستطيع أنْ تمنحه أشد ما يرغب في الحصول عليه.

أجبتُها بصوتٍ متوازن "إنَّ أشد ما آمله هو أن يمنّ الله عليك بعديدٍ من الأطفال"

لكنها لم تصدِّقني. هنا أصبحَ الحوار مؤلماً. ومهما قال أيٌّ منا كان يبدو زائفاً. لكنني أصدِّقُ فعلاً أنها تريد لي الخير، ما عدا الأمْرَ في تلك المسألة.

أخيراً، ابتعدنا عن الموضوع وكَشَفَتْ لي عن حالة قسطنتيوس العقلية. " إنني أحدّثكَ بنزاهة ". وهذا اعترافٌ منها بأنَّ أياً منّا لم يكن يتحدث بنزاهة قبل ذلك. وأصبحَ الوجه الحزين أشد حُزناً، بينما كانت أصابع يديها الطويلتين المتوتّرتين تعبث بتضاعيف ردائها. " إنه مُشتَّتْ. إنه عاجز عن اتّخاذ قرار بشأنك. طبعاً، هناك مَنْ يقولونَ له إنكَ تريد أن تُطيحَ به عن العرش "

" هذا غير صحيح! ". بدأتُ أُبدي احتجاجي لكنّها أسكتتني.

" أنا أعرفُ أنه غير صحيح "

" ولن يكونَ صحيحاً أبداً! "، وصدَّقتْ ما قلتُ.

" كُنْ متسامحاً. إنَّ على قسطنتيوس أنْ يواجه أعداءَ عديدين. ومن الطبيعي جداً أن يخشاك "

" فلماذا لا يدعني أعود إلى أثينا، حيث لن أشكِّل أي خطر؟ "

" لأنه يحتاجُ إليك أكثر مما يخشاك ". نظرتْ إليّ، وقد أصابها الرعب فجأةً. "جوليان، هناك خطرٌ يُهدّدنا بأننا سنخسر بلاد الغال "

حدَّقتُ إليها دون أنْ أنطِق.

" في صباح هذا اليوم وصلتْ إلى قسطنتيوس رسالةٌ من الحاكم الإمبراطوري في فيين. لا أعلمُ ما تحتوي. لكنني أظن انه الأسوأ. لقد خسرنا تقريباً مدن الراين. ولو أنَّ الجرمان هاجمونا في هذا الشتاء، فسيكون ذلك هو نهاية بلاد الغال، إلاّ إذا... ". وضعَتْ يدها فوق لهب مصباح المرمر. توهَّجَ اللحم. " جوليان، انجدني! ". حسبتُ لوهلةٍ حمقاء أنها أحرقَتْ يدها. " يجب أن تكونَ موالياً لنا. يجب أنْ تساعدنا! "

" أقسِمُ بالآلهة كلها، بهيليوس، بـ... "

أسكتتني، غير مُدرِكةٍ أنني في غمرةِ صدقي أقسمتُ بالالهة الحقيقية. " اصبرْ عليَّ. سوف يبقى دائماً مُرتاباً بكَ. هذه هي طبيعته. ولكن ما دمتُ حيّةً، ستكونُ آمناً. وإذا ما حدث لي أي مكروه... ". كان ذلك أول تلميح حصلتُ عليه إلى مرض يوسيبيا. " ابقَ مُخلصاً له في كل الأحوال "

نسيتُ ما قلت. إنها بلا شك دلالة على مزيدٍ من احتجاجات الولاء، والصدق التام. حين نهضتُ واقفاً، قالتْ " لديَّ هدية لك. سوف تراها في يوم رحيلك "

شكرتُها وغادرت. وعلى الرغم من هذا كله لم تسبِّب لي يوسيبيا خلال العامين التاليين أي أذى، ولا أزال أحبها. فقبل كل شيء أنا أُدينُ لها ليس فقط بالإمارة بل بحياتي.

عند فجر الأول من شهر كانون أول غادرتُ ميلانو إلى بلاد الغال. ودَّعتُ هيلينا، التي كانت ستنضم إليّ لاحقاً في فيين. كلانا عَمِلَ وِفقاً لِما يتطلّبه البروتوكول الخاص الذي وُضِعَ بخصوص وداع القيصر لزوجته الجديدة لدى مغادرته إلى مقاطعة مُحَاصَرَة. ثم نزلتُ، مصحوباً بأوريباسيوس العائد حديثاً، إلى فناء القصر لأقفَ على رأس جيشي.

في الخارج، في الجو المُصقعِ، تجمَّعَ ما يُقارب ثلاثمائةٍ من جنود المُشاة وثلّة من

الفرسان. اعتبرتُ ذلك هو حَرَسي الخاص، وكدتُ أسألُ عن مواقع انتشار الجيش في بلاد الغال حين انضمَّ إليَّ يوثريوس. كان متجهِّم الوجه. " كنتُ أتحدَّث للتو مع كبير الحُجَّاب. لقد جرى تغييرٌ في الخُطَطْ في اللحظة الأخيرة. إنَّ فيالقكَ قد أُرسِلَتْ إلى الدانوب "

أشرتُ إلى الرجال الواقفين في الفناء. " أهذا هو جيشي؟ "

" أخشى أنه كذلك، أيها القيصر "

لم أكن مرةً في حياتي أشد غضباً مني عندئذٍ. وحدَه وصول قسطنتيوس منعني من قول ما لا يُقال. حيَّيتُ الإمبراطور؛ وردَّ لي التحيَّة، بجدّية. ثم امتطى جواداً أسود وامتطيتُ أنا واحداً أبيض. اصطفَّ حَرَسُهُ الخاص (الذي كان يبلغ عدده ضعف عدد أفراد " جيشي ") خلفه. وجاء جنودي وحَرَسي الخاص في المؤخّرة. هكذا أطلقَ الأوغسطوس وقيصرُه قوةَ روما لمُهاجمة البرابرة. كان شيئاً مُثيراً للسخرية.

المواطنون القلائل الذين تواجدوا في مثل تلك الساعة هلَّلوا بدافع الواجب. وقد تركنا أثراً جيداً بشكلٍ خاص في سوق الخضار الذي كان يقعُ مباشرةً عند بوابة المدينة من الداخل. لوَّحت لنا القرويات بثمار الجزر واللفت، ووجدنَ فينا مشهداً يدل على الشجاعة.

لم ينطق قسطنتيوس أو أنا بأي كلمة إلى أنْ أصبحنا على الطريق العامة، وأضحَت جبال الألب بادية للعيان عبر سهل اللومبارد. كان قد وافقَ على أنْ يصحبني حتى العمودين القائمين على كِلا جانبَي الطريق، في مُنتَصَف الطريق بين مِلو وبافيا. كان جلياً أنه قرَّرَ أنَّ هذا سوف يمنحنا وقتاً كافياً لتبادُل حديثٍ مفيد. وهذا ما حدث.

باشرَ قسطنتيوس بالقول، " إننا نضعُ ثقةً كُبرى في فلورنتيوس، حاكمنا الإمبراطوري في بلاد الغال ". كان ذلك إعلاناً بأنه لا يتوقَّع مني أنْ أعلّق.

طبعاً يثقُ في فلورنتيوس، هكذا قلتُ لنفسي بضراوة، وإلاّ لكان الآن قد قتَلَه. لكنني قلتُ، " نعم، أيها الأوغسطوس ". وانتظرتُ. مشينا مسافة قصيرة. كانت ساقانا المُدرّعتان تتلامسان، معدن يضربُ معدناً، وكلٌّ منا ينكمشُ غريزياً مُبتعداً عن الآخر. ولطالما كان لمسُ رجلٍ آخر يُزعجني؛ ولمسُ قاتل أبي بثَّ فيَّ الرعب.

مررنا بعددٍ من عرباتٍ تحملُ دواجن؛ فابتعدَتْ عن الطريق لدى اقترابنا. حين

شاهدَ الفلاحون الإمبراطور، انبطحوا على بطونهم، وكأنما انبهروا بمرأى الشخص المقدَّس. فتجاهلهم قسطنتيوس.

" إننا مولعون بأختنا هيلينا ". هذا أيضاً قيلَ في جوٍ باردٍ جافٍ بنبرة صوت مَهيبة.

أجبتُ " إنها عزيزة على قلبي أيضاً، أيها الأوغسطوس ". كنتُ أخشى من أن يبدأ في إلقاء مُحاضرة على مسمعي حول واجباتي الزوجية، لكنه لم يأتِ بعد ذلك على ذِكر هيلينا.

كان قسطنتيوس يبني قضية. كانت جُمَلُه الصريحة المتفرِّقة، المناسبة لتُحفَر في الرخام، تشكِّلُ جزءاً من صرحٍ أقيمَ ليضمَّني. كان مُنتَظَراً مني أنْ أطيعَ الحاكم الإمبراطوري في بلاد الغال، على الرغم من أنه بوصفي قيصراً كنتُ أرفعَ منه مقاماً. وكان عليَّ أنْ أتذكَّر أنَّ ولاء هيلينا الأول هو لأخيها ومَلِكها، وليس لزوجها. كنت، حتى ذلك، أفهمه جيداً.

" لقد سمعنا من مُدرِّبكَ العسكري أنكَ تُبشِّرُ بالخير "

" لن أخذلك، أيها الأوغسطوس. ولكن ما فهمتُه هو أنني ذاهبٌ إلى بلاد الغال مع جيشي، وليس كمُرافِق "

تجاهلَ قسطنتيوس هذا. " لقد جئتَ إلى عالم الجيش في وقتٍ متأخِّر. وآمل أنْ تكونَ قادراً على تحصيل ما تحتاجُ إلى معرفته "

لم يكن هذا يدعو إلى التفاؤل، لكنه لم يكن أمراً غريباً. لم يكن ثمة ما يدعو إلى توقُّع أنْ يُبدي طالب فلسفة أيَّ موهبة في فن الحرب. والغريب في الأمر، كنتُ أتسلَّح بما يكفي من الثِقَة في النفس لأني كنتُ أعلم أنَّ الآلهة لن تتخلَّى عني الآن بعد أنْ رَفَعَتني عالياً. ولكن ما كان لابن عمي من سبيلٍ أنْ يعرف مشاعري، أو مدى قُدُراتي. إنه يرى فقط جندياً شاباً قليلَ الخِبرة يوشكُ أنْ يحارب أعتى مُقاتلين في العالم.

" تذكَّرْ دائماً أننا من صنف الآلهة في نظر الناس جميعاً ومقدَّسون في السماء "

اعتبرتُ ضمير " نحن " يعني قسطنتيوس وأنا، على الرغم من أنه ربما كان فقط يُذكِّرني بمركزه. " سأتذكَّر، أيها الأوغسطوس ". كنتُ دائماً أخاطبه بلقَبِه المناسب، على الرغم من أنه كان يُفضِّل مُخاطبته بمولاي، وهو لقب أمقته ولا أستخدمه لأنه يعني أنَّ شخصاً هو سيد رجالٍ آخرين، بدل أنْ يكون ببساطة الأول بينهم.

" سيطِرْ على قياداتك ". على الرغم من أنه ظلَّ يبدو كأنه يُردِّد أقوالاً مأثورة، أدركتُ أنه الآن باتَ على شفا أنْ يُعطي نصيحة حقيقية، إذا لم أقُلْ يفتحُ حديثاً. "يجب ألاّ يُسمحْ لأي ضابط ببلوغ مرتبةِ السيناتور. الضباط كلّهم يجب أن يخضعوا لسيطرةٍ مَدَنيّة صارمة. إنَّ أي حاكم لأي مُقاطعة هو أعلى مرتبة من أي ضابط يُرسَل إليه. يجب ألاّ يُسمَح لأي ضابط بلعب أي دور في الشؤون المدنيّة. وحُكّامنا الإمبراطوريون أعلى مرتبة من كل الموظفين الرسميين المدنيين والعسكريين. ولهذا ترى أنَّ إدارة الإمبراطورية تتمُّ بالسلاسة التي تعرفها "

لا حاجة إلى القول إنني لم أعلّق بالقول إنَّ انهيار بلاد الغال لا يدلُّ بأي حال على سلاسة الإدارة. ولكن في المبدأ كانت نصيحةُ قسطنتيوس جيدةً وأميلُ إلى الآن إلى الأخذ بها؛ إذ لا يمكن إنكار أنه كان موهوباً في الإدارة.

" فيما يخصُّ جمع الضرائب، اجمعْ كل ما هو من حقّنا. لا تُبدِ أي رحمة في تلك المُدُن والقُرى المُتأخِّرة في الدفع؛ فمن طبيعتهم الشكوى. افترِضْ أنَّ جُباة ضرائبكَ صادقون إلى أنْ يُثبتَ العكس. إنهم أبعد ما يكونون عن الصدق، ولكن لا أحدَ اكتشف حتى الآن طريقةً لتصحيح مفاسدهم. وماداموا يعودون إليكَ بأكبر جزء مما جبوه، أبدِ رِضاك "

لاحقاً قمتُ بإعادة النظر في نظام جمع الضرائب في بلاد الغال، مُستهجِناً كل ما قاله. لكنَّ هذا سيردُ ذكره في موقعه المناسب.

" سيطِرْ على قادتكَ ". كرَّرَ هذا فجأةً وكأنه نسيَ أنه قد قاله لي للتو. ثم استدارَ ونظرَ إليَّ للمرة الأولى في ذلك اليوم. أجفَلتُ. لم يعُد إله الشمس يمتطي صهوةَ جواده؛ كان ذاك ابنَ عمي، عدوّي، مولاي، ومصدرَ عَظَمَتي والمصدرَ المتوقَّع لموتي. قال، يبدو أقرب إلى الإنسان منه إلى الموحَى إليه، " يجب أن تُدرك ما أعني. لقد شهدتَ تمزُّق أوصال الدولة. إنَّ مكانتنا العالية تتزعزع. والمقاطعات تتحطَّم. والمُدُن تُدمَّر. والجيوش تُبَدَّد. والبرابرة يحتلون أراضينا، لأننا كنا من فرط الانشغال في قِتال أحدنا الآخر بحيث نسينا أن نحمي أنفسنا من العدو الحقيقي. حسنٌ، أيها القيصر، تذكَّر هذا : إياكَ أنْ تمنحَ أيَّ قائدٍ من السلطة ما يكفي ليقلبْ الجيش ضدَّك. لقد رأيتَ ما أعاني. لقد استنفد مغتصبٌ للعرش بعد آخر قِوانا. فخُذ حَذَرَك "

" سأفعلْ، أيها الأوغسطوس "

ثم قال، ببطءٍ شديد، وعيناه مُصوَّبتان إلى عينَيّ، " كما أفعلُ أنا ". أشاحَ بصرِه عني حينَ وجدَ أنَّ مغزى كلامه قد اتَّضَحَ تماماً. ثم أضافَ حول النقطة نفسها، " حتى الآن لم ينتزع أيُّ مُغتصِب أي موطئ قدم، ولن يحدث هذا أبداً "

" ما دمتُ حيّاً، أيها الأوغسطوس، سوفَ تكون لكَ على الأقل ذراعٌ واحدة تحارب معك "

بقينا سائرين حتى منتصَف الظهيرة. ثم توقَّفنا عند العمودَين. كانت ظهيرة منعشة وصافية السماء، وعلى الرغم من الهواء المُصقع، فقد كانت الشمس حارة وكنا جميعاً نتصبَّبُ عَرَقاً من تحت دروعنا. وصدرَ أمرٌ بالتوقُّف.

ترجلنا قسطنتيوس وأنا عن جوادينا وأشار إليّ كي ارافقه إلى حقلٍ محصود ووعر. لم يكنْ يُرى في الأفق أحد غير جنودنا. ففي كل بلد كان الفلاحون يختفون عن الأنظار حين يشاهدون رجالاً مُدرّعين قادمين؛ فكل الجنود أعداء، وأتمنى لو أنَّ هذا المفهوم يتغيَّر.

مشى قسطنتيوس أمامي نحو مقامٍ صغير مُهدَّم مُكرَّسٍ لهرمز مبنيّ عند حافة الحقل (وهذا يُبشِّرُ بالخير، فلطالما كانت عين هرمز تحرسني). وخلفنا، كان الرجال يسقون الحصانَين، ويرتِّبون من شأن الدرع، يسبّون ويُثرثرون، مسرورين بالطقس الحَسَن. وحالما ولَجَ قسطنتيوس المقام، قطفتُ زهرةً يابسة عن ساقها. ثم تبعتُه إلى داخل المقام، الذي كانت تفوح منه رائحة البراز الإنساني. كان قسطنتيوس يتبوَّل على الأرض. حتى في هذا، كان رصيناً ومهيباً.

سمعتُ نفسي أقول " أمر مؤسف "، مُدرِكاً وأنا أتكلَّم أنني أخرُقُ الأصولَ، " ما حدثَ لهذه المعابد القديمة "

" أمرٌ مؤسِف؟ يجب تدميرها جميعاً"، ورتَّبَ من شأن ملابسه، " إنني أكره مرآها"

تمتمتُ " طبَعاً "

قال " سأتركُكَ هنا ". وقفنا وجهاً لوجه. وعلى الرغم من أنني انحنيتُ عن عمد، إلاّ أنني لم أستطع إلاّ أنْ أنظر إليه من علٍ. ابتعدَ عني، باحثاً غريزياً عن أرضٍ أكثر ارتفاعاً.

" سـوف تحـصل على كل مـا تريد. عَـرِّجْ عليّ. أيضـاً، اتَّكِلْ على حـاكـمنا الإمبراطوري. إنه يُمثِّلنا. سوفَ تجد فيالقنا في فيين يَقِظة، وعلى أهبة الاستعداد لحملة الربيع. فاستعد "

سلَّمني وثيقةً سميكة. " إنـها التعليمات. يجب أنْ تقرأها في وقت فراغك ". سكتَ. ثم تذكَّرَ شيئاً. " لقد أعدَّتْ لك الإمبراطورة هدية. تجدها ضمن أمتعتك. أعتقد أنها مكتبة "

أسرفتُ في التعبير عن امتناني؛ قلتُ بعض الكلمات لكنَّ قسطنتيوس لم يُصغِ. تحرَّكَ نحو الباب. ثم توقَّفَ؛ التفتَ؛ حاولَ أنْ يُكلِّمني. احمرَّ وجهي خَجَلاً. أردتُ أنْ أمدَّ يدي وأمسِكُ بيده وأقولُ له ألاّ يخشاني، لكني لم أجرؤ. لم يكن أيٌّ منا قادراً على مواجهَة الآخر.

حين تكلَّمَ قسطنتيوس أخيراً، كان صوته أجَشَّ من شدَّة التوتّر. " إذا أتتكَ هذه..."، وأشارَ بحركة خرقاء إلى نفسه ليدلَّ على إمارة العالم. " تذكَّر... ". ثم سكتَ صوته وكأنَّ إبهام مجرم خنّاق يسدُّ قصبة هوائه. لم يتمكَّن من المتابعة. الكلمات خَذَلَته من جديد، وأنا أيضاً.

لطالما تساءلتُ ماذا كان ينوي أنْ يقول؛ ما الذي كان عليَّ أنْ أتذكَّره. إنَّ الحياة قصيرةٌ؟ أنَّ السلطان مُرّ؟ كلا. إنَّ قسطنتيوس لم يكن رجلاً عويصاً. وأشكُّ في أنه كان سينفحني بأي رأيٍ استثنائيّ ثاقب. ولكن حين أعودُ بذاكرتي إلى ذلك المشهد الذي جرى في المقام المتهدِّم (وكثيراً ما أفكِّر فيه، بل إنني حلمتُ به). أعتقد أنّ كلَّ ما نوى أنْ يقوله كان، " تذكَّرني ". إنْ كان هذا ما نويتَ أنْ تقوله، يا ابن العم، فقد بقيتُ على ذِكراك، بكل معاني الكلمة.

غادرَ قسطنتيوس المقام. وحالما أدارَ ظهرَه لي، وَضَعتُ الزهرة اليابسة على الأرض المُدنَّسة وهمستُ على عَجَل صلاةً لهرمز. ثم تبعتُ الإمبراطور عبر الحقل إلى الطريق العامة.

امتطينا جوادَينا، وتبادلنا تحيات الوداع الرسمية، وانطلقَ قسطنتيوس عائداً إلى ميلانو، وراية التنين تتموَّج في وجه الرياح الباردة التي تهبُ في وجهه. ولم نتقابل بعد ذلك أبداً.

القيصر

-١٠-

في تورين، بينما كنتُ أستقبلُ الموظفين الرسميين في قاعة المحكمة، وصلَ رسولٌ من فلورنتيوس، الحاكم الإمبراطوري في بلاد الغال. لقد رأى الحاكم أنَّ على القيصر أنْ يعْلَمَ أنَّ كولونيه قد سَقَطَتْ في أيدي الجرمان قبل بضعة أسابيع، وانَّ الراين أصبح تحت سيطرتهم. وكتب فلورنتيوس بصيغةٍ بدت أقرب إلى الرضى يقول إنَّ الوضعَ العسكريَّ خطير؛ وإنَّ ملك الجرمان قد أقسَمَ على أنْ يطردَ الرومانَ من بلاد الغال في غضون عام. هذه هي الأنباء السيئة التي لم يُخبرني بها قسطنتيوس.

بينما الاستقبال مُستمر، انسحبتُ وأوريباسيوس إلى غرفة مكتب الحاكم لدراسة التقرير. لسببٍ مُبهَم كان التمثال النصفي الوحيد الذي يُزيِّن الغرفة هو للإمبراطور فيتيليوس، وهو خنزيرٌ بدين حَكَمَ بضعة أشهر في العام الذي مات فيه االإمبراطور نيرون. ولماذا فيتيليوس؟ أكان أحد أقارب المسؤول الرسمي؟ هل أعجبه العُنُق السمين، والكتل اللحميّة الضخمة على خد الرجل الذي كان معروفاً بأنه الشرِه الأعظم في عصرِه؟ إلى مثل هذه الترّهات يميل العقلُ إلى الهَرَب في لحظات الرعب. وأنا كنتُ مرعوباً.

" لقد أرسلني قسطنتيوس إلى هنا لكي ألقى حتفي. لهذا لم يُزوّدني بأي جيش "

" لكنه حتماً لا يريدُ أنْ يخسر بلاد الغال "

" ماذا يهمّه من بلاد الغال؟ ما دام لديه أفراد حاشيته، وخصيانه، وأساقفته، ما حاجتُهُ إلى أكثر من ذلك؟ ". لم يكن هذا الكلامُ دقيقاً؛ فقسطنتيوس، على طريقته، كان وَطَنياً. ولكنني وأنا في غمرة إحساسي بالمرارة لم يكن هناك ما يمكن أنْ يُسكِتني. أخذتُ أكيل الاتهامات لقسطنتيوس بتهورٍ وغضب. ارتكبتُ الخيانة العُظمى من كل نَفَسٍ من أنفاسي. وبعد أنْ انتهيت، قال أوريباسيوس، " إنَّ الإمبراطور يجب أنْ يضعَ خطّة؛ الأمر ليس بهذه البساطة. ما هي التعليمات التي أعطاكَ إياها؟ "

كنتُ قد نسيتُ تماماً الرُزمةَ التي أعطانيها ونحن في الطريق إلى تورين. كانت ما تزالُ في محفَظَتي. حللتُ بلهفةٍ الخيوط، وقرأتُ بسرعة، مع دهشةٍ تتزايدُ. " أصول التعامل! "، هكذا صرختُ أخيراً، وأنا أرمي بالوثيقة عبر أرض الغرفة. " كيف تستقبل سفيراً. كيف تُقيمُ حفلَ عشاء. بل إنَّ هناك وصفات لأطعمة! ". انفَجَرَ أوريباسيوس بالضحك، لكنني كنتُ قد تماديتُ كثيراً بحيث لم أعُد أجدُ أي شيئ مضحك في الوضع.

أخيراً قلتُ " سنهرب! "

" نهرب؟ ". نظرَ أوريباسيوس إليّ وكأنّي أُصبتُ بالجنون.

" نعم، نهرب ". غريب... لم يخطر في بالي أنني سأتمكّن من تدوين أي شيء من هذا. " نستطيع أنْ نرحل معاً، أنت وأنا. سيكون الأمرُ سهلاً. ليس لدينا ما نتخلّى عنه غير قطعة الملابس التي نرتديها ". وشددتُ الرداء الأرجواني الذي كنتُ أرتديه. "ثم نطلق لحيتنا لتنمو، ونعود إلى أثينا. أنا أتجه إلى الفلسفة، وأنت إلى الطب "

" كلا ". قالها بشكلٍ مباشر.

" ولِم لا ؟ سوف يسعد قسطنتيوس أن يتخلَّص مني "

" لكنه لن يعلم أنه تخلّصَ منك؛ سوف يعتقد أنكَ ذهبتَ لكي تتآمر ضده، وتجمعَ جيشاً، وتغتصب العرش "

" لكنه لن يعثُر عليّ "

ضحكَ أوريباسيوس. " كيف يمكنكَ أن تختبئ في أثينا ؟ حتى إذا أطلقتَ لحيةً جديدة وارتديتَ ملابس الطلاب، فأنتَ جوليان نفسه الذي قابَلَه الجميع قبل بضعة أشهر مع بروهيريسيوس "

" إذن لن نلجأ إلى أثينا. سأجدُ مدينةً لستُ معروفاً فيها. إنطاكية مثلاً. أستطيع أنْ أختبئ في إنطاكية. سوف أدرسُ مع ليبانيوس "

" وهل تعتقد أنَّ في استطاعة ليبانيوس أن يُمسِكَ لسانه؟ إنَّ غروره التافه سوف يدفعه إلى كشف أمرك في غضون يوم واحد "

ليبانيوس : سأقولُ هنا إنني لم أجد أوريباسيوس في أي وقتٍ من الأوقات إنساناً متعاطفاً. من الواضح أنه حمل الشعور نفسه تجاهي. وهو طبعاً في هذه الأيام شهير

جداً (إذا كان ما يزال حيّاً)؛ لكنَّ أصدقاء مُختصّين بالطب أخبروني أنَّ موسوعته الطبية بمجلداتها السبعين ليستْ أكثر من انتحالٍ هائل من غالن[٨٥]. وبعد وفاة جوليان، نُفيَ ولجأ إلى بلاط بلاد فارس، وقد سمعتُ أنَّ الفارسيين يعبدونه هناك وكأنه إله؛ لابد أنه استمتعَ بذلك، لأنه طالما كان مغروراً تافهاً؛ وأيضاً يحب جمع المال : ذات مرة تقاضى مني خمس صوليدات ذهبية مقابل معالجة واحدة لمرض النقرس. بعد ذلك عجزتُ عن المشي مدة شهرٍ كامل.

جوليان أوغسطوس.

" إذن سأجد مدينة لم يشاهدني فيها أو يسمع فيها باسمي أحد "

" حتى وإنْ ذهبتَ إلى ثول[٨٦]. أينما ذهبت، سوف يتعرَّف الموظفون الرسميون إلى هويتك "

" حتى إذا تخفَّيتُ تماماً؟ واتَّخذتُ اسماً جديداً؟ "

" إنك تنسى العملاء السرّيين. ثم، كيف ستعيش؟ "

" أستطيع أنْ أمارس التعليم، أن أكونَ مُعلِّماً خاصاً... "

" وعبداً؟ "

" إذا لزِمَ الأمر، ولِمَ لا؟ إنَّ العبدَ، في المنزل المناسب، يمكن أنْ يكونَ سعيداً. يمكنني أنْ أعلِّم الفتيان. سوف يتوفَّرُ لي وقت للكتابة، وأَنْ أُحاضِر... "

" من الثوب الأرجواني إلى عبد؟ "، قال هذا بنبرة تعجُّب باردة وبطيئة. فانفجرتُ قائلاً " وماذا تظنني الآن؟ ". وثُرتُ غضباً. وندبتُ. حين سكتُّ أخيراً لانقطاع أنفاسي، قال أوريباسيوس، " سوف تواصل طريقك إلى بلاد الغال، أيها القيصر. وسوف تقضي على القبائل الجرمانية، أو تموت وأنت تحاولُ ذلك "

" كلا "

" كُنْ عبداً إذن، يا جوليان ". كانت المرة الأولى التي يُخاطبني فيها باسمي منذ أن ارتقيتُ إلى منصبِ قيصر. ثم تركني وحدي في غرفة المكتب، حيثُ جلستُ كأبله، منفرج الشفتين، ووجه فيتيليوس الشبيه بوجه الخنزير يُحدِّقُ إليّ من فوق ممر الباب... حتى بعد مرور ثلاثة قرون على نحته في الحجر، كان لا يزال يبدو جائعاً.

طويتُ الرسالة إلى مُربّعات عديدة، كلٍ منها أصغر من الأخرى. استغرقتُ في التفكير. صلّيتُ لهرمز. مشيتُ إلى النوافذ المزوّدة بشعريات وبحثتُ عن الشمس، إلهي الخاص. بحثتُ عن علامة. وأخيراً جاءت؛ وَمَضَ شعاعٌ من نور فجأةً، من الشمس الغاربة، في وجهي. نعم، من جهة الغرب حيث بلاد الغال، توهَّجَ هرمز ذهبياً قاتماً في عَينَيّ. يجب أنْ أتبع إلهي، فإذا أرادَ موتي، فسأقدّمه له. وإذا أراد انتصاري، فسيكون ذلك مجدنا. أيضاً، كان جلياً تماماً أنني لن أهرب حتى وإنْ أردتُ ذلك. لقد كان الموت بالرداء الأرجواني هو بحق قَدَري.

عدتُ إلى مواطني تورين وكأنْ لا شيء قد حدث. وبينما كنتُ أتلقّى تقديرهم، نظرَ إليّ أوريباسيوس مُستفهماً. غمزتُ له. فشعرَ بالارتياح.

في صباح اليوم التالي تابعنا رحلتنا. لم يكن الطقسُ في الجبال قد أصبحَ بارداً بعد، ولم يكن هناك ثلج إلاّ على المنحدرات العالية. حتى الجنود، الذين كانوا ثلّةً من الجليليين المتذمّرين بشكلٍ مُلفتٍ، اعترفوا بأنَّ الله لابد واقفٌ معنا. لابد أنه كان كذلك: لأنهم لم يكفّوا عن الصلاة. كان ذلك الشيء الوحيد الذي يُحسنون عَمَله.

حين عبرنا الحدود إلى بلاد الغال، وقعَ أمرٌ مُثيرٌ للاهتمام. فقد انتشر خبر مجيئي بفرح على طول طريقنا، ذلك أنني كنتُ أول قيصر شرعي يُرى في بلاد الغال منذ سنين عديدة. أقولُ " شرعي " لأنَّ بلاد الغال هي، تقليدياً، بلاد مُغتصبي العرش. ظهرَ ثلاثةٌ منهم في غضونِ عقدٍ من الزمان. وكلٌّ منهم ارتدى الزي الأرجواني. وكلٌّ منهم ضربَ عملةً. وكلٌ منهم قَبِلَ قَسَم الولاء. وكل منهم تحطَّمَ تحت ضربة قسطنتيوس أو القَدَر. والآن ها قد وصلَ أخيراً قيصرٌ حقيقي إلى بلاد الغال، وتشجَّعَ الناسُ.

في أوائل مساء أحد الأيام ولجَنا أول قرية غاليّة، تقومُ عالياً بين الجبال. وتجمَّع أهالي القرية على طول الشارع الرئيسي لكي يُحيّوني. كانوا قد ربطوا معاً، على سبيل الزينة، كثيراً من أكاليل أغصان التنوب والصنوبر وعلّقوها بين المنازل على كلا جانبَي الطريق. ولما كان هرمز هو شاهدي، انحلَّ أحد الأكاليل عن مكانه وسقطَ على رأسي، وقد انطبقَ على حجمه وكأنه تاج. فجمدتُ في مكاني، لم أفهم ماذا وقع. ردّةُ فعلي الأولى كانت أنَّ غصناً قد ضَرَبَني. ثم رفعتُ يدي وتحسَّستُ الإكليل. كان القرويون جاحظي العيون. حتى جنودي القذرون دُهِشوا. غمغمَ يوثريوس الواقف إلى جانبي، " حتى الآلهة ترغبُ في أنْ تتوَّج "

لم أُجِبه، ولا أنا حرَّكتُ الإكليل. وتظاهرتُ بأنَّ لا شيء قد حدث، وتابعتُ المسير خلال القرية وسطَ تهليل السكان بزخمٍ جديد.

قال أوريباسيوس " بحلول الغد سيعلم الجميع في بلاد الغال بما حصل "

أومأتُ موافقاً. " وبحلول اليوم الذي يليه سيعلم قسطنتيوس ". حتى هذه الفكرة لم تزعجني. لقد كنتُ حينئذٍ في مزاجٍ رائق، أعكسُ صورةَ النهار الشتوي البرّاق، بالإضافة إلى الحب الذي أظهَرَته الآلهة لي.

كان عبوري للبلدات الغاليّة احتفالياً. وصمَدَ الطقس على حاله إلى أنْ وصلنا إلى بوابات فيين. ثم زحَفَت غيومٌ سوداء من جهة الشمال وهبَّتْ رياحٌ قارسة. كان في الإمكان شمّ رائحة الثلج في الجو. اجتزنا نهر الرون الشتوي الأسود، ونحن نشدُّ أرديتنا علينا، وولجنا المدينة نحو الساعة الثالثة. وعلى الرغم من برودة الجو، كانت الشوارع مزدحمة، ومرةً أخرى تلقّينا الاستجابة الرائعة نفسها. لم أفهم الأمر. لقد كان قسطنتيوس يوحي بالرهبة والخوف أما أنا فيبدو أني لا أوحي إلاّ بالحب... إنني لا أذكُرُ هذا بدافع من غروري التافه بل كحقيقة مُحيِّرة. ذلك أنَّ كل أولئك الناس كانوا يعلمون أنني قد أكونُ نسخة أخرى من غالوس. ومع ذلك ها هم، يُحيّونني وكأنني ربحتُ معركةً هامة أو زدتُ مؤونة القمح. كان أمراً مُبهماً، لكنه مُبهِج.

حالما وصلتُ إلى قِبالة معبد أوغسطوس وليفيا، دفعَ الحشدُ امرأةً عجوزاً عمياء إلى الأمام، فارتمَتْ على حصاني. أبعدها الحُرّاس عني؛ فوقعَتْ من جديد. أمرْتُهم "ساعدوها "

أنهضوها لتقف على قدميها. فسألَتْ بصوتٍ عالٍ، " مَنْ هذا؟ ". فصرخَ أحدهم "إنه القيصر جوليان! ". ثم رَفَعَتْ عينيها الضريرتين نحو السماء وبصوت عرّافة أعلنَتْ، " سوف يُعيدُ المعابدَ والآلهة! ". أجفَلتُ، وحثثتُ حصاني مندفعاً بين الحشد، وكلماتُها لا يزال صداها يتردَّد في أذني.

قابلتُ فلورنتيوس في القاعة الرئيسية للقصر، الذي تقرَّرَ أنْ يكون مقرّ إقامتي، على الرغم من أنَّ كلمة " قصر " ليست الكلمة المناسبة لوصفِ لتلك الدارة الشديدة الاتّساع. استقبلني فلورنتيوس بكياسة . نعم، أقول استقبلني، بدل العكس، وقد أوضحَ لي بجلاء تام منذ البداية أنَّ تلك هي مقاطعته، وليس مُقاطعتي، حتى وإنْ كنتُ القيصر وهو مجرَّد حاكم إمبراطوري.

قال، أثناء تبادلنا التحيات، " أهلاً بكَ في بلاد الغال، أيها القيصر ". لم يجد أنَّ الأمر يستحقُ أنْ يدعو كبار الشخصيات في المدينة أو، بهذا المجال، أي موظف رسمي. كان يصحبه عددٌ من العسكريين، لا أكثر. أما أنا فكان رفيقي الوحيد هو أوريباسيوس.

قلتُ " ترحيب دافئ بالنسبة إلى الفصل البارد، أيها الحاكم. الناس على الأقلّ يبدون مسرورين لمجيئي ". شدَّدتُ على عبارة " على الأقلّ ".

" إننا جميعاً مسرورون لأنَّ الأوغسطوس رأى من المناسب أن يرقّيك ويُرسلكَ إلينا كدلالة على اهتمامه بالمسألة الغاليّة ". كان فلورنتيوس رجلاً ضئيلاً أسمر البَشَرَة وذا قسمات حادّة. واذكُرُ بشكلٍ خاص ساعدَيه القويّين، الأسودَين من غزارة الشعر، وأشبه بساعدَي قرد وليس إنسان.

قلتُ بجفاف " إنَّ الأوغسطوس سيسعد دون شك حين يعلَم أنكَ تستحسِن أفعاله". ثم مشيتُ وتجاوزتُه إلى حيث وُضِعَ كرسيُ الغرفةِ الوحيدِ على منصَّة صغيرة. جلستُ. رأيتُ أنَّ ذلكَ تركَ أثراً. فقد تبادل العسكريون النظرات. لكنَّ فلورنتيوس كان هادئاً، على الرغم من أني كنتُ أحتلُّ كرسيه.

" قدِّم الضباط، أيها الحاكم ". كنتُ هادئاً بأقصى ما يسمح لي مزاجي.

فعل فلورنتيوس كما طلبت. الضابط الأول كان مارتشيلوس، رئيس هيئة جيش بلاد الغال. حيّاني بلا حماس. والضابط التالي كان نيفيتا، وهو افرنجي قويّ البنية، أزرق العينين، عالي الصوت، وقائد جيش متميِّز يعمل في خدمتي الآن في بلاد فارس. ولكن في ذلك اليوم في فيين، عاملني بازدراءٍ واضح حتى إنني أدركتُ أنني سأُضطرُ إلى الردّ عليه بلطف، أو أخسر كل ادّعاءٍ للسلطان. إمّا أنْ أكونَ القيصر أو أخسر.

التفتُّ إلى فلورنتيوس، وتكلّمتُ بعناية، " نحنُ لسنا بعيدين عن ميلانو بحيث يمكننا أنْ نُلغي واجب الاحترام الذي يجب أنْ يُقدَّم للقيصر. وظروف الحرب لا تسودُ في العاصمة الريفية، على الرغم من هزائم جيوشنا في الراين. ارشِدْ ضبّاطك، أيها الحاكم، إلى واجبهم تّجاهنا. أرِهم بقدوتكَ مَنْ أنتَ "

ما كان يمكن لقسطنتيوس أنْ يفعل ما فعلتُه بصورة أفضل، وفي الحقيقة كنتُ أعني كلَّ كلمةٍ من ذلك الخطاب المتغطرس. كنتُ مُقتنعاً بأنني قَدِمتُ إلى بلاد الغال

لأموت فيها، ومُصمِّماً على الموت بأشرف طريقة ممكنة، ودعم لَقَبي العظيم حتى النهاية.

بدت الدهشة على فلورنتيوس. وبدا الخوف على الضباط. وتأثَّرَ أوريباسيوس... غريبٌ كم نستمتع بتلك اللحظات النادرة التي نستطيع خلالها أنْ نترك أثراً على صديقٍ قديم بأداء مشهد عام.

وسطَ تلك الفوضى، استغرقَ من فلورنتيوس وقتاً طويلاً ليُبدي ردَّة فعل. لذا، وبتقليدٍ دقيق لقسطنتيوس، رفعتُ ذراعي اليمنى وأشرتُ بسبّابتي إلى الأرض أمامي، وبصوتٍ قاسٍ قلت، " نحن نرتدي اللون الأرجواني "

خرَّ العسكريون وهم يقرقعون بدروعهم على رُكَبِهِم. وحذا فلورنتنيوس، الذي يبدو عليه الغل الفريد، حذْوَهم. قبَّلَ الرداء. وبتلك الإيماءة، بدأت العداوات بيننا. واستمرَّتْ خمسَ سنوات.

لم يكن قسطنتيوس يتوقَّع مني أبداً أنْ أتولَّى عملياً قيادة جيش المقاطعة. كان مُنتظراً مني أنْ اكونَ شخصية شكلية، أُذكِّرُ الغاليين بحضوري أنَّ قسطنتيوس كرَّسَ، إنْ لم يكن جيشاً بأكمله، فعلى الأقلّ لحمَه الخاص ودَمَه لإنجازِ مهمّةِ حشدِ قوى شعبٍ خائفٍ للدفاعِ عن المقاطَعة. أما فلورنتيوس فكان صاحب السلطة الفعلية كلها . كان مسؤولاً مباشرةً عن الجيش في فيين وكانت خدمة مراسلاته الخاصة تربط مختلف الفيالق المنتشرة في أرض الغال معاً. وبالمناسبة فإنَّ مُعظمها كان مُحاصَراً داخل حصون، لأنَّ الجرمان ضربوا حِصاراً حول كل بلدة وحامية عسكرية يمكن احتلالها من الراين إلى بحر الشمال.

في العام الفائت فقط، أثناء خوضي في ملفات قسطنتيوس السرّية - وهي تجربة فاتنة وإنْ كانت أحياناً مُحزِنة، وأشبه بسماع ما يقوله الناس عنكَ من خلف ظهرك - وَقَعَت في يدي تعليماته التي وجَّهها إلى فلورنتيوس. والآن بعد أنْ قرأتها أصبحتُ أكثر تسامُحاً تجاهه؛ لقد كان فقط يُنفِّذ الأوامر. كتبَ قسطنتيوس يقول - وأنا أُعيدُ صِياغتها، لأنَّ الوثائق كلها موجودة في القسطنطينية - إنَّ هذا " العزيز الحبيب قريبنا القيصر جوليان " كان يجب أنْ يُنظَر إليه كمُبتدئ في فن الحرب وكمُبتدئ في شؤون الحُكم. وكان على فلورنتيوس أنْ يكون ذلك المُعلِّم المُكرِّس، لكي يُرشده، ويُثقِّفه،

ويحميه من رِفاق السوء ومن إصدار الأحكام الخاطئة. بعبارة أخرى، كان يجب إدخالي إلى المدرسة، ويجب إبعاد الأمور العسكرية عني، ويجب مراقبتي لئلا تظهر عليّ علامات الـ ambitio، كما يقولها الرومان، وهي كلمة لم تخترعها أي لغة أخرى، وتعني ذلك النوع من الطموح الدنيوي الذي يخلُّ بتوازن الدولة.

عامي الأول في بلاد الغال علّمني كثيراً، ليس فقط في مجال فن الحرب ولكن أيضاً في فنون الكتمان والصبر. أصبحتُ يوليسيس آخر، أنتظرُ فرصتي الملائمة. ولم يُسمَح لي بحضور المجلس العسكري. ولكن بين حينٍ وآخر كان يتمُ إطلاعي على الوضع العسكري العام. لم يزوّدني ما كنتُ أسمعه بالشجاعة . وعلى الرغم من أنَّ جيش الغال كان ضخماً، إلاّ أنَّه لم يكن في نية فلورنتيوس أنْ يُنزِله إلى ساحة القتال.

لم نفعل أيَّ شيء. ولحُسن الحظ فإنَّ عدوَّنا كنودومار أيضاً لم يفعل أيَّ شيء؛ ووعوده بالهجوم علينا لم تتجسَّد عملياً. وقد أعلنَ عن سعادته التامة بالسيطرة على الراين وعلى مُدننا الكبرى. كنتُ توّاقاً إلى الاشتباك معه، ولكن لم تكن لي سيطرة على جندي واحد، ما عدا أمراً سهلاً هو حارسي الخاص الإيطالي الباسل. وكنتُ أيضاً في أمسّ الحاجة إلى المال. فراتبي كقيصر كان من المفروض أنْ يُدفَع لي فصليّاً، لكنَّ كونت الهِبات المقدَّسة كان دائماً يتأخَّر في الدفع. وخلال عامي الأول في بلاد الغال عشته بشكلٍ كاملٍ بالدَين، والاستدانةُ لم تكن أمراً سهلاً في وقتٍ كانت تدور إشاعات يومية تقول أنْ لا حُظوةَ لي وقد أُقالُ من منصبي في أي لحظة. وقد أغضبني أيضاً أنْ أكتشف أنَّ الدارة التي أُقيمُ فيها ليست قصر القيصر بل هي ما يشبه منزل الضيوف يحلُ فيه الزوّار الرسميون. أما قصر المدينة فكان يقومُ على ضفاف نهر الرون؛ حيث يعيشُ فلورنتيوس وحاشيته الضخمة حياةً مرفَّهةً. كان يعيشُ حياةَ قيصر، وكنتُ أعيشُ حياةَ قريبٍ فقير. ولكن كانت هناك تعويضات: كان أوريباسيوس معي، وبريسكوس أيضاً، الذي وصل في شهر آذار من أثينا.

بريسكوس : يجب أنْ أُضيفَ قليلاً على سرد جوليان لصِلاته بفلورنتيوس. لقد كان الحاكمُ الإمبراطوريُ مُحبّاً لجمع المال ولكنه ذو مقدرة. وزيادة على ذلك، كان يتبع تعليمات الإمبراطور حرفيّاً. ولطالما وجدتُ أنَّ جوليان يشعر بالمرارة الشديدة تجاهه. وطبعاً، عملَ الحاكم الإمبراطوري في مناسباتٍ عامة عديدة على إهانته. وأذكُرُ في أحد

العروض العسكرية أنه لم يكن هناك مكان مُخصَّص للقيصر على المِنصَّة، مما اضطرَّ القيصر إلى استعراض " جيشه " من بين صفوف الحشد، تُحيطُ به نسوة عجائز يبعنَ السجق. لعلَّ ذلك كان انتقامَ فلورنتيوس من سلوك جوليان خلال لقائهما الأول.

سأذكُرُ شيئاً لصالح قسطنتيوس... لماذا يحاولُ المرءُ دائماً أنْ يعثُر على أشياء جيدة يقولها عن الأشرار؟ ألمعرفتنا المُزعجة أنَّ نظرتهم إلينا ستكون بالضبط كنظرتنا إليهم، من منظورٍ آخر وكتعارُضٍ للمصالح؟ على أي حال، كان قسطنتيوس مُحقًّاً تماماً في عدم سماحه لشابٍ ليست لديه أي خِبرة عسكرية أو إدارية في تولّي إدارة حربٍ صعبة خسِرَها تقريباً جنودٌ أكبر سناً وربما أكثر حِكمة. لم يكن أحد ليعرف عندئذٍ أنَّ جوليان كان عبقريةً عسكرية، اللّهم إلاّ هو نفسه ربما. إنني أكادُ أؤمنُ بإلهه هليوس حين أفكِّرُ في انتصاراته التي أحرزها في بلاد الغال.

ولكن في ذلك الوقت كان يعيشُ حياةً أقرب إلى حياة طالبٍ في الدارة القريبة من سور المدينة. " حاشيته "، كما يجب أنْ توصَف، لم يكن يتجاوزُ عددُ أفرادها المائة، بِمَنْ فيهم العبيد. كان طعامنا هزيلاً. ولم يكن يتوفَّر ما يكفي من الخمر. لكنَّ الحديث كان ممتعاً. وكان أوريباسيوس يوفِّر لنا التسلية والصحة. كان، حتى في ذلك الوقت، يجمع الأدوية من كل ساحرة يعثُر عليها، ويجرّبها علينا. ويوثريوس أيضاً كان رفيقاً ودوداً.

لاحظتُ مع شيءٍ من السرور أنه على الرغم من أنَّ جوليان يذكُرُ خاصةً انضمامي إليه في فيين، فإنه لا يأتي على ذِكر أيِّ شيءٍ عن شخصٍ أكثر أهمية وصلَ مع حلول العام الجديد : إنها زوجته هيلينا. لم أكن حاضراً حين أتتْ إلى فيين لكنني سمعتُ أنها وصلَتْ مع حاشية فخمة من مُصفّفي الشعر، والخياطين، والطُّهاة، والخصيان، وملْء عرباتٍ كاملة من الأثواب الفاخرة والأحجار الكريمة. أعتقد أنها لم تتمكّنْ أبداً من تجاوز صدمة الدارة الباردة والمُقبضة. لكنَّ جوليان كان دائماً شديد اللطف معها، على الرغم من شرود ذهنه. كان يهمُّ بمغادرة المائدة من دونها، أو يُخطِّطُ علَناً للقيام بزيارة إلى بلدة مُجاورة ونسيَ أنْ يضعها ضمن ترتيباته. أعتقد أنَّ إعجابها به كان يفوقُ كثيراً إعجابه بها. وهذا لا يعني أنه كان يكرهها؛ بالأحرى، كان لامبالياً إلى أقصى مدى. وأشكُّ في أنه كان يؤدي واجباته الزوجية كثيراً. ومع ذلك، حَمَلَتْ مرَّتين خلال السنوات الأربع من فترة زواجهما.

إنَّ الذكرى الرئيسية التي أحملها عن هيلينا هي محاولاتها الباسلة في ألاّ تبدو مملّة حين كان جوليان يتحدَّث بحماس عن تلك الأشياء التي كانت تُثيرُ اهتمامه وتُثيرُ إرباكها. ولحُسن الحظ، كانت قد تعلَّمَتْ الفن الراقي في التثاؤب دون فتح الفم؛ ولكن إذا راقبتَها عن كثب، كلما دار حديثٌ عن أفلاطون أو إيامبليخوس أو عنكَ، يا عزيزي ليبانيوس (ثلاثيٌ عظيم!)، يمكنكَ أنْ ترى فتحتَيّ منخريها تتَّسعان بشكلٍ مُريب بين حينٍ وآخر. أنا واثق من أننا أثرنا ضَجَر هيلينا حتى الموت، ودون مبالغة.

ليبانيوس : لا أتصوَّر أحداً يجد قول جوليان عن أفلاطون، وإيامبليخوس وعني إننا من النوع الراقي شيئاً مدهشاً. ولكن يمكننا دائماً أنْ نتأكَّد من أنَّ بريسكوس حسود. " ثلاثيٌ عظيم! " حقاً! ولأنه ببساطة فشلَ كفيلسوف وكمعلِّم، يودُّ أنْ يحطَّ من قَدر كل مُعاصريه حتى يصبحوا في مستواه. حسناً، سوف يفشل في هذا، أيضاً.

جوليان أوغسطوس.

ليس من السهل فهم الغاليين. أساليبهم غريبة بالنسبة إلينا، على الرغم من مرور سنين عديدة على كونهم رعايا رومانيين. أعتقد أنهم أشد شعوب الأرض وسامةً. الرجال والنساء طِوال القامة على قَدَم المساواة وبشرتهم ناعمة، وغالباً هم ذوو عيون زرق وشعر أشقر؛ دائماً يغسلون ملابسهم وأجسادهم. يمكننا أنْ ننتقل من مقاطعة إلى أخرى دون أنْ نرى رجلاً أو امرأة بملابس قذرة أو رثّة. والغسيل تراه مُعلّقاً ليجفّ بجوار كل كوخ، مهما كان فقيراً.

ولكن على الرغم مما يتَّصفون به من جمال، إلاّ أنهم مُشاكسون بشكلٍ مُلفتْ. والرجال والنساء يتكلّمون بأصواتٍ عالية بشكلٍ غريب، ينهقون بأحرفهم الليّنة ويلفظون الأحرف الساكنة بقسوة. وكلما أقمتُ العدلَ، كانت أصوات المحامين المنافسين والمُدَّعين تُصيبني بالصمَمْ، وهم يجأرون كثيرانٍ جريحة. إنهم يتفاخرون بأنه في المعركة كل غاليّ يساوي عشرة من الإيطاليين. أخشى أنَّ هذا صحيح. إنهم يعشقون القتال. ويتحلّون بالقوَّة وبالشجاعة في ذلك. نساؤهم أيضاً يُحببنَ القتال. وليس غريباً على الغاليّ في قلب المعركة أنْ يُنادي على زوجته كي تهبَّ لنجدته. وحين تفعلُ، تزدادُ قوته عشرة أضعاف. وقد شاهدتُ بأم عَينَيّ نساءً غاليّات يُهاجمنَ العدوَّ، ينهشنَه بأسنانهنّ،

والعروق تبرز من أعناقهنّ، وسواعدهنّ البيضاء الكبيرة تدور كأذرع طاحونة الهواء المتصالبة، وأقدامهنّ ترفسُ كقذائفَ تُطلقها مجانيق. إنَّهنَّ هائلات.

والرجال الغاليون يفخرون بأداء الخدمة العسكرية، خِلافاً للإيطاليين، الذين لا يُمانعون في أنْ يُقطَع لهم إبهامهم لكي يتجنّبوا مواجهة ضباط تجنيد الدولة. أما الغاليون فيبتهجون بسفك الدماء، وجديرٌ بهم أنْ يُصبحوا أعظم الجنود لولا سببَان: أنهم لا يُحبّون الانضباط العسكري، وأنهم يسكرون. ففي اللحظات غير المناسبة أبداً قد يجد آمر القوات الغاليّة جنوده شبه مجانين من فرط السُكر، بحُجَّةِ أنَّ يومَ كذا وكذا مقدَّسٌ ويجب أنْ يُحتفى به بقليلٍ من الخمر أو بكأسٍ من تلك المشروبات القوية التي يُقطِّرونها من القمح والخضروات.

لن أصفَ حَمَلاتي في بلاد الغال، لأنني نشرتُ فعلاً سرداً لها يقول عنه المُعجبون به إنه يعادلُ كتاب يوليوس قيصر " التعليقات ". وأعترفُ بإنني اهتممتُ أكثر بالكتابة عن الحروب الغاليّة أكثر من اهتمامي بالاشتراك فيها! لكنني سأسجِّلُ بعضَ الأشياء التي لم أتمكّن من الكشف عنها في حينها.

كان شتاء عام ٣٥٥-٣٥٦ شتاءً مؤلماً. لم تكن في يدي أي سلطة. وكان الحاكم الإمبراطوري يتجاهلني. لم تكن لدي أي واجبات، ما عدا أنْ أقومَ برحلةٍ بين حينٍ وآخر إلى مناطق الريف. ومع ذلك أينما ظهرتُ بين الغاليين، كنتُ أجذبُ حشداً كبيراً منهم. حتى في أشد أيام الشتاء برودةً، كان الناسُ يأتون من مسافةِ أميال لينظروا إليّ، ويُحيّوني. وقد تأثَّرتُ كثيراً على الرغم من إدراكي أنهم دائماً لم يُحيّونني بوصفي القيصر جوليان بل كيوليوس قيصر. في الواقع، كانت تدور بين الفلاحين أسطورة تقول إنَّ يوليوس العظيم كان ذات مرة قد أقسمَ على أنْ يعودَ من القبر لكي يحمي بلاد الغال من أعدائها؛ وقد اعتقدَ كثيرون أنَّ الوقتَ قد حان لكي يفي القائد العظيم بوعده، وأنني أنا هو.

من تلك الرحلات تمخَّضَت انتصارات عدَّة غير مُنتَظَرَة لصالحنا. فإحدى البلدات، التي يُحاصرها الجرمان، تزوَّدَت بالشجاعة بحضور القيصر، وطرد أهلها العدوَّ من حقولهم. وبلدةٌ أخرى في أكويتانيا، لا يقومُ على حمايتها غير العجائز من الرجال، صدُّوا هجوماً جرمانياً، وهم يهتفون باسمي كصيحةِ حربٍ وطلسمِ الانتصار.

في أكويتانيا خضتُ أولَ " معركةٍ " لي. كنا مارّين بصفٍ مزدوج في قلب غابةٍ كثيفةٍ، وإذا بعُصبةٍ من الجرمان تنقضُّ علينا. للوهلة الأولى خفتُ أن يتشتَّتَ جنودي الإيطاليون ويهربوا، ولكنَّ قلوبهم ثبتتْ. وهذا كل ما يحتاج إليه المرء حين يُفاجأ. خلال تلك الدقائق القليلة من الهجوم يمكن للقائد اليقِظ أنْ يحشد قواته ليرد على الهجوم، إذا ما ثبتوا منذ البداية.

لحُسن الحظ، كنا عند حافة الغابة. أمرتُ الرجال في المقدِّمة أنْ يُحولّوا انتباه الجرمان ريثما يشقُّ رجال المؤخرة طريقهم في الغابة إلى السهل المنفتح. وفي غضون دقائق قليلة تحرَّرَ رجالنا من الغابة. ولم تقع خسائر. ثم، حين بدأنا ننالُ من الجرمان، لاذوا بالفرار: أولاً واحد، ثم آخر، ثم عِدَّة رجال دفعةً واحدة.

وفجأةً سمعتُ نفسي أهتف، " وراءهم! قطِّعوهم! ". وأطاعت قواتي. هنا أطلَقَ الجرمانُ سيقانهم للريح، عائدين إلى الغابة. وصرختُ " أعطي قطعةً فضيّة مقابل كل رأس جرماني! ". وتبنَّى ضباطي تلك الدعوة إلى سفك الدماء. كانت هي الحافز اللازم. وانقضَّتْ قواتي على العدو وهي تزأرُ إثارةً وجشعاً. ومع انتهاء النهار، كان قد تجمَّع عندي مائة رأسٍ جرماني.

لقد أتيتُ على وصف ذلك الاشتباك ليس لأنه كان على جانب من الأهمية العسكرية - إذ هو ليس كذلك - بل لأنها كانت المرة الأولى التي أتذوَّق فيها طعم القتال. وخلافاً لأسلافي كلهم تقريباً (بالإضافة إلى كل إنسانٍ نبيل حي الضمير)، لم تكن لدي أي تجربة عسكرية. لم أكنْ قد رأيتُ من قبل رجلاً يُقتَل في معركة. كنتُ دائماً أفضِّل السلام على الحرب، والدراسة على الفعل، والحياة على الموت. ولكن ها أنا ذا أصرخُ بصوتٍ أجش عند حافة غابة غاليّة، وأمامي تلٌ من الرؤوس البشرية المُدمّاة. فهل أثارَ ذلك اشمئزازي؟ أو إحساسي بالخجل؟ لا هذا ولا ذاك. كنتُ أشعرُ بالإثارة بالطريقة التي يشعر بها الرجال الذين اختاروا أنْ يخدموا أفروديت بإثارة الحب. ولا أزالُ أفضِّلُ الفلسفة على الحرب، ولكن لا شيءَ آخر. ولا أعلم كيف حدثَ وأصبحتُ هكذا؛ لابد أنَّ منشأه إلهي، حدَّدته تلك الشمس الجبّارة التي هي أصل البشر كلّهم وحامية الملوك.

في طريق عودتنا إلى فيين على ضوء الشتاء الباهت، ارتعشتُ بإثارةٍ كادتْ أن

تكونُ فرحاً، لأنني بتُّ أعرف الآن أنني سأبقى على قيد الحياة. وكنتُ حتى تلك اللحظة أشعر بالثقة في نفسي. فحسب علمي، كان يمكن أنْ أكون جباناً، أو ما هو أسوأ، أنْ تشلَّني فوضى اللحظة وأعجز عن اتّخاذ تلك القرارات السريعة التي من دونها لا يربح أحدٌ أي معركة. ومع ذلك حين بدأ الهتاف وسالت الدماء، شعرتُ بعلو الهِمَّة. أدركتُ ما ينبغي فعله بجلاءٍ تام، ونفَّذته.

هذه المُناوشة لم تؤخذ بكثيرٍ من الجَدّ في فيين. ولكن ما أُخِذَ بعين الجَدّ كان أنَّ قسطنتنيوس أطلقَ عليَّ لقب رفيقه القنصل بمناسبة العام الجديد. كانت المرة الثامنة التي يخلع فيها لقب قنصل، وكانت المرة الأولى بالنسبة إليّ. وسُررتُ، ولكن فقط باعتدال. ولم أفهم أبداً لماذا يُقدِّر الرجال إلى هذه الدرَجة ذلك اللقب القديم. فالقنصل لا يتمتَّع بأي سلطة (إلاّ إذا تصادفَ وكان أيضاً إمبراطوراً)، لكنَّ الطموحين مستعدون لإنفاقِ ثروةٍ مقابل أنْ يُمنَحوا مرتبة القنصل. طبعاً اسمُ المرءِ سوفُ يُعرَف إلى الأبد، بما أنَّ التواريخ كلها يُحدِّدها القناصل. ومع ذلك، لا تجذبني كثيراً أي صيغة فَقَدَتْ مغزاها. ولكن كان قسطنتيوس يتصرَّف معي وأنا في منصبي بتحضُّر تقريباً، وهذا كَسْب. وفي اجتماعٍ خاص، أخبرني، " إننا نُخطِّطُ لشن هجومٍ في أواخر الربيع. وسوفَ تشترك فيه، إنْ شئت "

" بوصفي قائداً؟ "

" إنَّ القيصر هو آمر بلاد الغال كلها "

" القيصر هو الأشد إدراكاً لمكانته الرفيعة. ولكن هل سأقود الجيوش؟ هل سأخطِّط للحرب؟ "

" ستكون دليلنا في الأمور كلها، أيها القيصر ". تملَّصَ من الإجابة. كان جلياً أنه لن يتخلَّى عن سيطرته على المقاطعة. لكنَّ خطوة البداية كانت قد اتُّخِذَتْ؛ وحدثَ اختراقٌ في الجدار. عندئذٍ جاء دوري لانتهاز ذلك التغيير الصغير للأحسن.

بعد مغادرة فلورنتيوس، أرسلتُ في طلب سالوست، مستشاري العسكري. كان قد أُفرِزَ إليّ فورَ وصولي إلى بلاد الغال وأنا أَدينُ إلى الأبد إلى قسطنتيوس لأنه جمع بيننا. إنَّ سالوست جندي روماني وفيلسوفٌ يوناني معاً. أي لقبٍ أرفع منهما أستطيع أنْ أخلع عليه؟ حين تقابلنا كان سالوست في أواخر أربعينات عمره. إنه طويل القامة،

بطيء الكلام، لكنه سريع البديهة؛ ينحدرُ من عائلةٍ رومانيةٍ عريقة، وكالعديد من الرومان الأرستقراطيين لم يتزحزح أبداً عن ولائه للآلهة الحقيقية. وكان صديقٌ مُقرَّبٌ من هلّينيين بارزين أمثال سيماخوس وبريتكستاتوس قد نشر قبل ذلك ببضعة أعوام دفاعاً من الطراز الأول عن ديانتنا : " في الآلهة والعالم ". وكما أنَّ ماكسيموس هو دليلي إلى الأسرار وليبانوس هو نبراسي في الأسلوب الأدبي، كذلك يبقى سالوست هو مَثَلي الأعلى لِما ينبغي على الرجل أنْ يكون.

فرِحَ سالوست بالنبأ بقدر فرحي. ورحنا ندرسُ معاً خريطة بلاد الغال، وقرَّرنا أنَّ أفضل خطوة يجب اتّخاذها هي أنْ نضرب مباشرة ستراسيورغ. هذه المدينة الكبيرة ليست فقط تُشرِف على الجزء الأكبر من الراين؛ لكنها أيضاً كانت تُستَخدَم كمركزٍ لقيادة عمليات الملك كنودومار. وكان استرجاعها سيشدُّ أزرنا إلى حدٍ بعيد ويُضعِف العدو.

فجأةً قال سالوست " هناك درسٌ نتعلّمه من هذا "

" ممَّ؟ "

" ماذا يفعل الجرمان في بلاد الغال؟ "

" ينهبون. ويطمعون في احتلالِ مزيدٍ من المناطق. ما الذي يدفع بالقبائل البربرية إلى الانتقال من مكانٍ إلى آخر؟ "

" إنهم في بلاد الغال لأنَّ قسطنتيوس دعا القبائل إلى مساعدته للقضاء على ماغنينتيوس[٨٧]. وقد فعلوا. ومن ثم مكثوا في بلاد الغال "

كان المغزى واضحاً؛ على المرء ألاّ يطلب أبداً المساعدة من البرابرة. استخدمهم كمُرتزقة، ارشِهم إذا كانت تلك هي الوسيلة الوحيدة للمحافظة على السلام، ولكن أبداً لا تسمح لقبيلةٍ أنْ تنتقل إلى منطقةٍ رومانية لأنها في نهاية المطاف سوف تحاولُ أن تحتفظ بما هو مُلكٌ للرومان لنفسها. حتى بينما كنا نتحدَّث أنا وسالوست، كان قسطنتيوس موجوداً في منطقة الدانوب، يحاربُ قبيلتين مُتمرِّدَتين كان ذات مرة قد سمحَ لهما بالاستقرار هناك.

أخبرني سالوست بأنَّ هناك دليلاً حاسماً على أنَّ فلورنتيوس كان يتعاملُ سرّاً مع أحد زعماء الجرمان. وقد دفعَ لبعضهم مالاً خِلسَةً ليمكثوا حيث كانوا؛ ودفعَ آخرون له

مالاً لكي لا يُزعج ممتلكاتهم الحالية. ورحنا أنا وسالوست نبني قضيَّتنا لإدانة فلورنتيوس.

في شهر أيار سلَّمتُ أنا وسالوست خطة توجيه الضربة المباشرة إلى مدينة ستراسبورغ إلى فلورنتيوس وقائده، مارتشيلوس. فرُفِضَتْ على الفور. تجادلنا. ووعدنا بإحراز النصر. لكنّهما رفضا الإصغاء إلينا.

" إننا لسنا مُستعدّين بعد لتوريط الجيش في معركةٍ كُبرى. إنَّ الوقتَ لم يحُنْ بعد". ولما كان مارشيلوس هو رئيس قوات المقاطعة، اضطررتُ إلى الإذعان.

سألت، وأنا أتلفَّتُ حولي في غرفة الاجتماع (كنا في قصر الحاكم) " ومتى سنتمكَّن من إطَاعة أمر الإمبراطور ونطرد الجرمان من بلاد الغال؟ "

كان فلورنتيوس مُهذَّباً. كان سلوكه معي أشد حَذَراً من ذي قبل، وإنْ بقيَ مُتعالياً. من الواضح أنني لم أكنْ لأسقط إلاّ بعد أن يبذل جهداً مُتقَناً.

" هل لي أنْ أعرِضَ على القيصر حلاً وَسَطاً؟ ". كان فلورنتيوس يعبث بكيس نقود رقيق من جلد الغزال، يحتوي " إلهه "، الذهب. " نحنُ ليس في حوزتنا ما يكفي من الرجال لشنّ هجومٍ كبير. وإلى أنْ يُرسِل الإمبراطور تعزيزات، وهذا غير متوقَّع منه في هذا العام بما أنه الآن متورط في الدانوب، علينا أن نكتفي بالمحافظة على ما لدينا الآن، وأنْ نسترجع قدر ما نستطيع، دون كثير مجازفة "

صفَّقَ فلورنتيوس بيديه، فقفزَ سكرتيرٌ كان يجلس القرفصاء عن الجدار واقفاً على قَدَمَيه. كان فلورنتيوس غايةً في الفخامة في أساليبه، فقبل كل شيء إنَّ الحُكَّام الإمبراطوريين هم شخصيات هامة. وفي ذلك الوقت كان فلورنتيوس يحكمُ مراكش، واسبانيا، وبلاد الغال وبريطانيا. ثم نشرَ السكرتير خريطةً لبلاد الغال.

أشارَ فلورنتيوس إلى بلدةٍ تُدعى أوتون، تقع مباشرة إلى الشمال منا. " لقد تلقَّينا أنباءً تقول إنَّ البلدةَ مُحاصَرة ". كدتُ أسأله لماذا لم أبلَّغ من قبل، لكنني أمسكتُ لساني. " والآن إذا شاء القيصر، يمكنه - مع القائد سالوست - " ووجَّه فلورنتيوس ابتسامة ملتوية إلى سالوست، الذي بقيَ وجهه مُنتبهاً بأدب - " أنْ يُحرِّرَ أوتون. إنها مدينةٌ عتيقة. كانت جدرانها ذات يوم منيعةً لكنها الآن مُهمَلة بشكلٍ مُزرٍ، ككل دفاعاتنا. وليست هناك حامية حقيقية، لكنَّ أهل البلدة بواسل "

أخبرتُه بسرعة أنه لا شيء يسرّني أكثر من ذلك؛ وأودُّ أنْ أنطلق فوراً لأحرِّرَ أوتون.

قال فلورينتيوس " طبعاً، تجهيز قواتكَ، وجمع المؤن، سوف يستغرق بضعة أسابيع، و... "

قاطَعَه مارشيلوس " ثمة أمرٌ واحد جيد، وهو أنكَ لن تُضطرّ إلى القلق بشأن مُعدّات الحِصار. إذ حتى إذا استولى الجرمان على المدينة قبل أنْ تفعل أنت، فلن يحتلوها. إنهم لا يفعلون هذا أبداً "

" ولكن ماذا عن كولونيه وستراسبورغ؟ "

قال مارشيلوس، " دُمِّرتا "، بكثير من السرور وكأنه شخصياً قام بتدميرهما. "لكنّهما لم تُحتلاّ. إنَّ الجرمان يخافون المُدُن؛ ولا يُمضون في إحداها ليلةً واحدة "

قال فلورنتيوس " عادتهم هي أنْ يحتلوا الريف المُحيط بالمدينة ويُجيعوا السكان حتى الموت. وحين تستسلم المدينة أخيراً، يحرقونها ومن ثم يرحلون "

" كم من القوات سيُخصَّص لي؟ "

" لسنا متأكّدين بعد. هناك... حالات طارئة أخرى ". نقَلَ فلورنتيوس كيس الذهب من يدٍ إلى أخرى. " لكننا سنعرف في غضون بضعة أسابيع وعندئذٍ يمكن للقيصر أنْ يُباشر حربه الغاليّة... الأولى ". هذا الاستهزاء كان فظّاً لكنني كنتُ قد تعلّمتُ ألاّ أُبدي استياءً.

قلتُ، بأشد ما استطعتُ من فخامة، " إذن اسهرْ على إنجاز هذا، أيها الحاكم "، ثم غادرتُ القصر مصحوباً بسالوست.

بينما نحن نمشي في شوارع المدينة متوجّهين إلى دارتي، لم يكن في استطاعة حتى ذكرى احتقار فلورنتيوس أن تقضي على البهجة التي حصلتُ عليها من مجرد التفكير في القتال. " تكفي حملة عسكرية ناجحة واحدة حتى يُسلّمني قسطنتيوس الجيشَ بأكمله! "

قال سالوست وهو يفكِّرُ بعمق " ربما ". قطعنا الساحةَ العامة، حيث تجمَّعتْ عرَبات الجرّ القادمة من الريف حاملة تباشير إنتاج الموسم. كان هناك حارسان يتبعانني عن بُعد. وعلى الرغم من أنني كنتُ القيصر، فإنَّ أهل المدينة كانوا حينئذٍ قد تعوَّدوا تماماً

على رؤيتي أتجوّل وحدي في الشوارع، وفي حين كانوا من قبل ينحنون لي بخوف، أصبحوا الآن يُحيّونني - باحترام طبعاً - كجارٍ لهم.

" إلاّ إذا... "، وسكتَ سالوست.

" إلاّ إذا حققّتُ انتصاراً باهراً، وعندئذٍ سوف يحرص قسطنتيوس على ألاّ أُصدِرَ أمراً واحداً لجيشٍ بعد الآن "

" بالضبط "

هززتُ كتفيَّ باستخفاف. " يجب أنْ أنتهزَ فُرصتي. ثم، بعد الدانوب، سوف يتوجَّب على قسطنتيوس أنْ يواجه الفُرس. لن يبقَى أمامه إلاّ أنْ يثِقَ بي. لا يوجد أحد غيري. إذا تمكّنتُ من السيطرة على بلاد الغال، فيجب أن يدَعني أفعل "

" ولكن لنفرض أنه لم يُهاجم بلاد فارس؟ لنفرِض أنه هاجمكَ أنتَ؟ "

" ولنفرِض أنَّ هذه العربَة ضربَتني... ومُتُّ؟ ". وقفزنا معاً إلى جانب الطريق حين هَدَرَتْ عَرَبَة يجرّها الثيران مارَّةً بنا بينما كان السائق يصبُّ لعناته بصوتٍ عالٍ عليها وعلينا وعلى الآلهة التي جَعَلَته يتأخَّر عن السوق. قلتُ، لدى اقترابنا من دارتي، "ستجري الأمور على أحسن ما يُرام، يا سالوست؛ لقد شاهدتُ إشارات "

قَبِلَ سالوست هذا، لأنه كان يعلم أنني أتمتَّعُ بحماية هرمز، الذي يمثِّل ذكاء الكون السريع.

-١١-

في الثاني والعشرين من شهر حزيران غادرتُ فيين على رأسِ جيشٍ من اثني عشر ألفَ جندي - من فرسان مُدرَّعين، ورجال النشّابية، والمُشاة. خرجَتْ البلدة كلها لتودِّعنا. كان فلورنتيوس يشعُّ بالسخرية، بينما لم يتمكَّن مارشيلوس من إخفاء سروره. وأنا متأكِّد من أنهما اعتقدا أنَّ تلك هي آخر مرة يرونني فيها. وودَّعَتني هيلينا بجلالٍ رواقيّ. لقد كانت تمثِّلُ روح العقيلة الرومانية، ومُستعدّة لعودتي محمولاً على ترسي.

كان نهاراً مُشمساً حين خرجنا من المدينة. كان على يميني سالوست وعلى يساري أوريباسيوس، وأمامي مباشرةً حامل راية يحملُ صورةً قبيحةً بالحجم الطبيعيّ لقسطنتيوس، يضعُ تاجاً ويرتدي الرداءَ الإمبراطوري. وكان ابن عمي قد أرسل إليّ مؤخراً تلك الصورة، مُرفَقَةً بتعليمات حول الطريقة المُثلى لعرضها. وذكَّرَني أيضاً بأنني لم أُرسَل إلى بلاد الغال كملك بل كممثِّل للإمبراطور الذي مَهمَّته الأساسية هي عرض الرداء الإمبراطوري والصورة للشعب. وعلى الرغم من تلك الإهانة الصغيرة، كنتُ أشعر بمعنويات عالية ونحن نسير على الطريق.

وصلنا إلى أوتون في السادس والعشرين من شهر حزيران. وفي ذلك اليوم بالذات هزمتُ الجرمان وحرَّرتُ المدينة. ملاحظة للسكرتير : أضفْ هنا فصلاً ذا صلة من كتابي " الحروب الغاليّة ". سوف يغطي ذلك المقطع الحملةَ من أوتون إلى أوكسير إلى تروي إلى رايمس، حيث أمضيتُ شهر آب.

بريسكوس : كما وصَفَ جوليان، كان سالوست على يمينه، وأوريباسيوس على يساره، وأنا كنتُ خلفه مباشرةً. وسرده الرسمي للحملة دقيقٌ بصورةٍ عامة. فمنذ عهد يوليوس قيصر وقوّاد الجيوش يميلون إلى إظهار أنفسهم في أحسن صورة في مذكّراتهم،

لكنَّ جوليان في العادة صادق. طبعاً هو يميل إلى إغفال أخطائه. فهو لا يُخبرنا كيف خسرَ جزءاً من فيلقه بسبب الإهمال : لقد أرسله ليتغلغل في الغابة وكان قد تلقّى تحذيراً بوجود جرمان... وقد كانوا هناك فعلاً. ولكنْ في العموم، كان جوليان آمراً حَذراً. ونادراً ما يورِّط رجلاً إلاّ إذا كان متأكداً من أنَّ الأرجحيّة لصالحه. أو هذا ما يؤكِّده لنا الخبراء. فأنا عملياً لا أعرفُ أيَّ شيءٍ عن الشؤون العسكرية، وإنْ كنتُ قد خدَمتُ مع جوليان معاً في بلاد الغال وفي بلاد فارس. أنا طبعاً لم أكنْ جندياً، على الرغم من أنني كنتُ أحاربُ بين حينٍ وآخر، من دون استمتاع. لم يكن لديَّ شيء من شهوة سفك الدماء التي أشارَ إليها قبل بضع صفحات، وهو اعترافٌ مُفاجئ لأنه خلال أحاديثي مع جوليان لم يعترف أمامي ولا مرّة واحدة بحبّه للحرب.

كان سالوست يتولّى أمرَ التفاصيل كلها. كان ذا مقدرةٍ هائلة ورجلاً مُثيراً للإعجاب في المجالات كلها. هل أقول مثيراً للإعجاب أكثر مما ينبغي، ربما؟ كان دائماً يولِّد لديَّ إحساساً بأنه كان يؤدي دوراً ما (عادةً دور ماركوس أورليوس)؛ كان على الدوام رزيناً وحييّاً ومتواضعاً وعاقلاً، وكل تلك الصفات التي يعتقدُ العالم أنها تُثيرُ الإعجاب. وهذا هو المهم. فالرجال الأقل حياءً يتّصفون دائماً بخصالٍ لا تُعجبنا. إنّ الخير والشر يمتزجان معاً. أما سالوست فكانَ خيّراً صِرفاً. ولابد أَنَّ هذا قد تطلّبَ منه انضباطاً هائلاً بالإضافة إلى وعي أنه في الحقيقة يحاولُ أنْ يكون شيئاً ليس فيه. ولكنْ كائناً ما كانت دوافعه، فإنه تركَ أثراً قوياً، وكان أثراً جيداً على جوليان.

رفعَ جوليان الحصار عن أوتون. ومن ثم انتقلَ شمالاً إلى أوكسير. وبقي هناك بضعة أيام. كان دائماً ينتهز كل فرصة تُتاح له لإنعاش قواته، خلافاً للعديد من القادة الذين يسوقونهم إلى ما فوق طاقتهم. ومن أوكسير انتقلَ إلى تروي. كانت تلك رحلة صعبة. كنا دائماً نتعرَّض لتحرُّش الجرمان. إنهم قوم ذوو مظهرٍ يُثيرُ الرعب؛ طِوال القامات ومُدجَّجون بالعضل، ولهم شعور مُسترسِلة مصبوغة باللون الأحمر الدَمَوي، وهي عادةٌ قَبَليّة. ويرتدون ملابسَ جميلة مثلنا، ويضعون دروعاً سرقوها من الجثث الرومانية. في الريف المنفتح، يمكن قهرهم بسهولة، أما في الغابات فهم خطِرون.

في تروي أمضينا بضع ساعات خارج الأسوار في محاولةٍ لنشرحَ للحامية الخائفة أننا لسنا من الجرمان وأنَّ هذا حقاً هو القيصر. وأخيراً أصدرَ جوليان بنفسه إلى الناس، وتلك الصورة " الشنيعة بالحجم الطبيعي " إلى جانبه، بفتح البوابات.

مكثنا في تروي يوماً واحداً. ثم انتقلنا إلى رايمس. وكان جوليان قد اتفَّقَ قبل ذلك مع فلورنتيوس على أنَّ جيش الغال الرئيسي سوف يتركَّز هناك في شهر آب، استعداداً لاستعادة كولونيه. لذا كان مارشيلوس موجوداً في رايمس حين وصلناها. وبعد أنْ وصلنا بفترةٍ وجيزة، تمَّ استدعاء المجلس العسكري إلى الاجتماع. رافقتُ جوليان وسالوست إلى الاجتماع وأنا شديد الارهاق من طول الركوب وأتوقُ إلى اللجوء إلى الحمّامات.

لم يُسرَّ مارشيلوس أبداً حين وجدَ أنَّ جوليان يُبلي بوضوح بلاءً حَسَناً في الحياة العسكرية. وحين سألَ جوليان إنْ كانت القوات جاهزة، قيلَ له إنها ليست كذلك. ومتى ستصبح جاهزة؟ تملُّصْ. وأخيراً : لا يمكن شن هجوم كبير هذا العام.

ثم نهضَ جوليان وألقى كذبةً عبقرية جديرة بيوليسيس. كدتُ لا أصدِّق أذنَيّ. لقد تكلَّم أولاً بحُزن. " كنتُ آمل أنْ أجدكم جميعاً هنا توّاقين وجاهزين لقتال القبائل. بدلَ ذلك، أجدُ أنْ لا شيء قد تمَّ التخطيطُ له وأننا نقفُ موقف الدفاع عن النفس كعادتنا". بدأ مارشيلوس يتلعثمُ بشكلٍ خطير لكنَّ جوليان كان في أحسن حالاته. وأنتَ تعلم كيف يكون حين تحل عليه الروح (غالباً تكون مُطابقة لروح هليوس).

" لقد أُرسِلتُ إلى هنا، أيها القائد، من قِبَل الإمبراطور لأعرِضَ صورته على البرابرة. وأُرسِلتُ أيضاً إلى هنا لكي أستعيدَ المدن التي خسرتَها. وأُرسِلتُ إلى هنا لكي أطرد المتوحشين إلى غاباتهم خلف نهر الراين. لقد أقسمتُ بوصفي قيصراً على أنْ أقهرهم أو أنْ أموتَ دون ذلك "

" ولكن أيها القيصر، نحن... ". كان هذا كل ما سُمِحَ لمارشيلوس أنْ يقوله. وحين قاطَعَه جوليان، أخرجَ وثيقةً من تحت ردائه. كانت عبارة عن كُتيِّب حول أصول السلوك الذي كان قسطنتيوس قد أعطاه إياه. لوَّحَ جوليان به كراية منشورة ، وقال " أترى هذا، أيها القائد؟ أترونه كلّكم؟ ". لا أحد كان يعلم ما هو بالضبط، لكنَّ الختم الإمبراطوري كان مرئياً بوضوح.

" إنه من الإمبراطور الإلهي. إنه موجَّه إليّ. وصلني على يد رسولٍ خاص في أوتون. وهو يتضمَّن أوامر تفيد بأنَّ علينا أنْ نستعيد كولونيه. هذه هي أوامره ونحن عبيده. ولا خَيارَ أمامنا إلاَّ أنْ نطيع "

ساد الذعر على الجانب الذي يجلس فيه مارشيلوس من طاولة الاجتماع. لا أحدَ سمعَ أبداً عن تلك التعليمات لسببٍ ممتاز هو أنَّ لا وجودَ لها. لكنَّ الكذبة الجريئة عَمِلَتْ عَمَلَها إلى حدٍ بعيد لأنَّ مارشيلوس سياسيٌ حقيقيٌ بمعنى أنه لا يستطيع أنْ يعترف بأنَّ هناك أيَّ شيء عليه أنْ يعرفه وهو في الحقيقة لا يعرفه. وسلَّمَ جوليان الجيش.

جوليان أوغسطوس.

في رايمس استعرضتُ الجنود لدى عبورهم بوابات المدينة ، وكلّنا نتصبَّبُ عَرَقاً تحت شمس آب اللاهبة. كان يوماً يُضعِفُ الجسم، رطباً ومشؤوماً. وبينما كنتُ واقفاً على المنصّة خارج بوابة المدينة، كان البعوضُ يطنُّ حول رأسي والعَرَقُ يسيلُ على وجهي، سُلِّمَتْ إليّ رسالة من فيين. كانت عبارة عن ملاحظة موجزة من فلورنتيوس. لقد وَضَعَتْ زوجتي صبيّاً مات بعد ذلك بقليل. وهي في صحة جيدة. هذا كل شيء.

غريبٌ أنْ يكونَ المرءُ والداً لابنٍ ووالداً حزيناً لابنٍ ميِّتٍ، الاثنين في وقتٍ واحد. سلّمتُ الرسالة لسالوست. ثم استدرتُ نحو الفيالق التي كانت تمشي بإيقاعٍ مُنتَظَم نشيط على موسيقى القُرَب.

بريسكوس : لقد قصَّرَتْ القابلة حبل الطفل السُرّي أكثر مما ينبغي. وقد علمنا لاحقاً أنَّ الإمبراطورة يوسيبيا رَشَتها بالمال لتفعَلَ ذلك. إلاّ أنني لم أسمع جوليان أبداً يُشيرُ إلى يوسيبيا إلاّ بأعذب الكلام. ومن المؤسف كم تصبح العلاقات بين الأمراء مُتشابكة... يا لها من مقولة مُثيرة للسخرية! ونحنُ جميعاً لدينا عادة انتقاد العظماء، وكأننا كُتّابُ مسرحيون معروفون، في حين أنَّ العاديين من الناس لا يقلّون مراوغةً وعناداً وشَبَقاً إلى الحياة (إذا لم أقُل الانتصار) عن العظماء؛ خاصة الفلاسفة.

ألغى جوليان باقي حملة العام بطلب إضافة مقطع من كتابه الأول. وهذه المهمّة موكلة إليك. شخصياً، أجدُ كتابه عن الحروب الغاليّة مملاً تقريباً ككتاب يوليوس قيصر. أقول " تقريباً " لأنَّ وصف شيء عاشه المرء عملياً لا يمكن أنْ يكونَ مملاً بشكلٍ كامل. ولكن وصف المعارك سرعان ما يغدو مُضجراً. وأقترحُ - على الرغم من أنكَ لم تطلب نصيحتي الأدبية - أنْ تختصر الإضافات العسكرية إلى الحد الأدنى.

كانت حملة جوليان الخريفية ناجحة. وقد خاضَ معركةً ضارية في برومات التي يعتبرها خبراء الاستراتيجيا نموذجاً للحرب البارعة. أنا لا أعلم. في ذلك الوقت حسبتُ أنها مُحيِّرة، لكنَّها فتحَتْ الطريق إلى كولونيه. وبالمناسبة، ذلك الجزء من العالم جميلٌ جداً، خاصةً منطقة تدعى المُلتقَى، وعندها - كما هو واضح - يلتقي نهران، الموزيل والراين، عند بلدة اسمها ريماغن - تخصّنا؛ وبعد ريماغن مباشرةً هناك برجٌ رومانيّ قديم يُشرِفُ على الريف كله. وليس بعيداً عن ريماغن تقعُ كولونية، التي استعادها جوليان أمام دهشة الجميع بعد خوض معركةٍ قصيرة.

بقينا في كولونية طوال شهر أيلول. كان جوليان في أحسن حالاته. وتوددَّ إليه عددٌ من رؤساء قبائل الفرنجة الذين بثَّ جوليان في نفوسهم معاً الفتنة والخوف، وهي هِبةٌ نادرة كان جلياً أنه يشترك فيها، إذا صدَّقَ المرء ما قاله شيشرون، مع يوليوس قيصر.

ملاحظة خفيفة ذات مغزى : راهنني أوريباسيوس بقطعة ذهبية واحدة على أنَّ قسطنتيوس سوف ينتقم من جوليان لأنه كذبَ على مارشيلوس. وأنا راهنتُه على أنّه لن يفعل. وربحتُ القطعةَ الذهبية. ثم أمضينا فصلَ الشتاءِ في سين، وهي بلدة ريفية مُقبِضة تقع شمال فيين. كان ذاك تقريباً هو آخر شتاء بالنسبة إلينا جميعاً نقضيه هناك.

جوليان أوغسطوس.

بعد إحراز الانتصارات الموصوفة، ذهبتُ إلى المقرّ الشتوي في بلدةٍ جميلة تُدعى سين ميزتُها الخاصة أنها أبقتني على مسافةٍ مُناسِبة من فلورنتيوس في فيين ومن مارشيلوس في رايمس.

خلال تلك الأشهر بقيَتْ هيلينا وحدها. كانت تصحَبُ معها عِدَّة سيدات من بلاط ميلانو، وأعتقدُ أنها كانت قانعة بوضعها بشكلٍ عاقل، على الرغم من سوء حال صحتها : بسبب تقدّمها في السن كانت ولادتها متعسّرة. وكانت صِلتي بهيلينا دائماً مضطربة. لم أستطع أنْ أنسى أنَّها أخت عدوّي. وبقيتُ ردحاً طويلاً من الزمن غير متأكّد إلى أيٍ منا تدين بولائها. ما أعرفه هو أنها كانت تتبادلُ مع أخيها المراسلات

بكثافة (وقد دُمِّرَتْ؛ بيدِ مَنْ؟ أمرٌ يلفّه غموضٌ تام)؛ ونتيجة ذلك، حرِصتُ على ألاّ أقولَ أيَّ شيءٍ في حضورها من شأنه أنْ يُثيرَ ريبة قسطنتيوس. هذا الانضباط الذاتي شكَّلَ عبئاً ثقيلاً على كاهلي.

في مناسبةٍ واحدةٍ فقط كَشَفَتْ هيلينا أنَّ لديها فكرةً عمّا يدور في ذهني وقلبي. حدثَ ذلك في شهر كانون أول. كنا قد تناولنا وجبةً اقتصادية في غرفة مكتبي، التي كانت تدفئتها أسهل من شُقق الدولة. كان هناك عددٌ من المجامرِ تُعطي ما يكفي من الحرارة - على الأقل بالنسبة إليّ؛ كان بريسكوس يتذمَّر بمرارة من بُخلي في هذا الخصوص. جلَسَتْ هيلينا مع سيداتها في الجهة المقابلة من الغرفة، وهي تُصغي إلى إحدى النسوة تغني أغاني يونانية، بينما اضطجعتُ مع أوريباسيوس، وسالوست، وبريسكوس على أرائك في الطرف الآخر من الغرفة.

في أول الأمر كان حديثنا رخيّاً، كما يحدثُ عادةً بعد تناول العشاء. تطرّقنا قليلاً إلى الوضع العسكري. لم يكن جيداً. فعلى الرغم من انتصاري في كولونيه، كان فلورنتيوس قد تركني مع فيلقَين فقط. أما باقي جيشي فتمَّ استدعاؤه إلى رايمس وفيين. كنتُ في الوضع نفسه الذي عشتُه خلال فصل الشتاء الأول الذي أمضيته في فيين؛ أميراً بلا إمارة. الفرق أنني عندئذٍ كنتُ أحملُ عبئاً أثقل. ولكن كما يجري المثَل السائر " السَرج يوضع على ظهر الثور؛ وهذا العبء حتماً ليس لي ". لقد كانت مهمَّتي ليس فقط أن أحتفظَ بسين بل وأن أحمي القُرى المجاورة من القبائل الجرمانية التي كانت تنتقل دون كللٍ من بلدةٍ إلى أخرى، حتى في عزّ الشتاء، تحرق وتنهبُ. بل إنَّ كنودومار نفسه في الحقيقة أقسمَ على أنْ يشنقني قبل أنْ يذوبَ الثلج في الربيع. ولكي أُقيمُ حاميةً في البلدات المجاورة اضطررتُ إلى التخلّي عن ثُلثَي الجنود الذين كانوا تحت إمرتي. إضافةً إلى هذا، واجهنا عددٌ غير عادي من الفارين من الجندية، خاصة بين صفوف الجنود الإيطاليين.

قال سالوست " إنَّ كل مَنْ يهرب من الجندية يجب أنْ يُعدَم عَلَناً، أمام الفيالق "

قال بريسكوس بطريقته الماكرة " إنَّ إعدامَ فارٍ من الجندية أمرٌ غاية في الصعوبة، أيها القائد. إذْ عليكَ أولاً أنْ تقبض عليه "

قلتُ " الحلُ الوحيد هو إحراز انتصار. إذا نجحنا في ذلك، فسيصبحون مُخلصين لنا. في الجيش المنتصرِ لا يفرُّ إلاّ القلائل "

قال بريسكوس بدقّةٍ مزعجة " ولكن لا نحنُ منتصرون ولا لدينا جيش "

" وهذا بالضبط ما يُريده الإمبراطور ". تكلّمَ أوريباسيوس بصوتٍ عالٍ. فأسكتُّه بإيماءة. كانت هيلينا قد سمعَتْ هذا لكنَّها لم تنبس ببنت شفة.

" أنا واثق من أنَّ الإمبراطور المقدَّس، ابن عمي وزميلي، يتوقُ إلى أنْ ننجح في طرد الجرمان من بلاد الغال ". في الواقع، لم أكُنْ قد تلقَّيتُ أي كلمة من قسطنتين منذ أنْ أقمتُ في سين. وافترضتُ أنه غاضبٌ مني لأنني لم أعُدْ إلى فيين.

ثم طلَبَ بريسكوس مني أنْ أقرأ من مقطوعة المديح التي كنتُ أكتبها عن يوسيبيا. فأرسلتُ في طلب الموثّق العام، الذي أحضرَ إليّ المخطوط. قرأتُ منه بضع صفحات، ولم تعجبني على الإطلاق. لقد كان العمل خشِناً. وبُحتُ برأيي.

قال بريسكوس الخبيث " ربما، لأنها تكادُ تكون صادقة "

ضحكَ الآخرون. في فيين كنتُ قد كتبتُ مقطوعة مديح مُطوّلة عن قسطنتيوس كانت - إذا حقَّ لي أنْ أقول - تحفة فنيّة، نُظِمَتْ بعناية وكُتِبَتْ بجمال. إنَّ فن المديح لا يستثني بالضرورة الصدق، على الرغم من أنَّ المشاعر الصادقة لا صِلة لها البتّة بالصيغة النهائية، التي أساسها البراعة، وليس الحقيقة. حتى قسطنتيوس أدركَ أنني ابتكرتُ شيئاً رائعاً وبعثَ إليّ برسالة كَتَبَها بخطّ يده، مملوءة بالأخطاء الإملائية والنحوية. ثم حاولتُ أنْ أكتبَ مقطوعة مديح عن يوسيبيا، فوجدتُ الأمرَ صعباً؛ والسبب، دون شك، وكما اقترحَ بريسكوس، يعودُ إلى احترامي الصادق لموضوعها. كنتُ مُلزَماً أيضاً بعهد شرف ألاّ أكشف إلى أي مدى أنقذَتْ حياتي. كان ذلك يُقيّدني.

كنا نتبادل الأحاديث الوديّة، وإذا بي أسمعُ عن بُعد صهيلاً مضطرباً لخيول لكنني لم أشكّ في أيّ شيء. ثم أتى أوريباسيوس على ذِكر تلك الكُتُب العبرية التي يُشيرُ إليها الجليليون بعبارة العهد القديم. كان ذاك هو موضوعي المُفضَّل، إلى درجةِ أنني نسيتُ أنَّ هيلينا موجودة في الغرفة. " إنني مُعجَبٌ باليهود بسبب إخلاصهم لربٍ واحد. ومُعجَبٌ بهم أيضاً بسبب انضباطهم. لكنني أرثي الطريقة التي يؤولون بها إلههم. فمن المفروض أنه كونيّ، ولكنه لا يهتمُّ إلاّ بهم... "

قالتْ زوجتي فجأةً " لقد أرسلَ الله المسيح لنا جميعاً ". ورانَ صمتٌ مُربِك.

أخيراً قلتُ، بأقصى رِقَّة، " القضية هي فقط ما يلي : هل يتدخَّل الإله الواحد بتلك الطريقة؟ "

" نحن نؤمن بأنه يفعَل "

هنا سادَ السكونُ التامِ الغرفة وفُسِحَ المجال لضجيج الخيول البعيد. وكان رفاقي متوتّرين.

" ومع ذلك ليس مكتوباً فيما يُسمّى بسفر يوحنا أنه " لن يخرج من الجليل أي نبي " ؟ "

قالت هيلينا " الله هو الله، وليس نبياً "

" لكنَّ فكرة بشارة الناصري، التي تردُ على لسانه، مأخوذة من العهد القديم، وهو يهودي، ويقولُ إنَّ نبيّاً - مسيحاً - سيأتي ذات يوم إلى اليهود، وليس الله ذاته "

اعترفَتْ " هذه نقطةٌ صعبة "

وكنتُ أنا فظاً بحماقة "في الحقيقة، ليست هناك تقريباً أي صِلة بين ما يؤمنُ به الجليليون وما يُنادي به الناصري. وزيادة على ذلك، لا أرى في النص اليهودي ما يسمح بوجود شيءٍ فظيع كالإله الثلاثي. لقد كان اليهودُ موحِّدين. والجليليون ملحدون"

كنتُ قد تماديتُ كثيراً. نهضَتْ هيلينا واقفةً، وانحنَتْ، ثم انسحَبَتْ، تصحبها سيداتها.

ارتعبَ رفاقي. تكلَّمَ بريسكوس أولاً، " كم أنتَ موهوبٌ، أيها القيصر، في جعلِ الصعب مستحيلاً! "

وافقَه الآخرون. وطلبتُ صفحَهم. قلتُ، غيرَ مُصدِّق ما أقول، " على أي حال، نستطيع أن نثِقَ في هيلينا "

" آملُ ذلك ". كان سالوست كئيباً.

قلتُ " على المرء أنْ يُخلِص لِما هو حق "، ثم وددتُ كما أفعلُ دائماً لو أنني أمسكتُ لساني.

ثم سمعنا صراخاً مفاجئاً في الشوارع. قفزنا جميعاً واقفين على أقدامنا. وما إنْ وصلنا إلى الباب حتى جاءنا ضابطٌ لكي يُبلِّغنا أنَّ سين تتعرَّضُ للهجوم. وقد وَصَفتُ في موقعٍ آخر ما حدثَ، ولن أكرِّره هنا.

بريسكوس : حوصِرنا مدةَ شهر. وانتقلَ عددٌ من الفارين من عندنا إلى الجرمان ونقلوا إليهم ضعفَ حالنا. فسارَ الملكُ كنودومار، وقد تشجَّعَ لسماعِ ذلك، مُنتشياً بفكرةِ أسرِ قيصرٍ رومانيّ، قاصداً السين. كان وقتاً عصيباً، وفي نهاية المطاف كنا ندين بحياتنا لحيوية جوليان وذكائه. وعلى الرغم من أنه لم يستطع أن يبثَّ روح البهجة أو حتى الثقة في نفوسنا، إلاّ أنه على الأقل حافظَ على إحساسنا بالواجب وبقدرٍ متواضع من الأمل.

في تلك الليلة هَدَرَ نداءٌ بحمل السلاح. فاندفعَ الرجال إلى مواقعهم على الشُرُفات المفرّجة. كان في الإمكان رؤية الجرمان على مسافةٍ تقلُّ عن نصف ميل، تضيئهم بيوت المزارعين المحروقة. لقد كان صهيل خيول المزرعة هو الذي عكَّرَ صفو حديث ما بعد العشاء. ولو أنَّ الجرمان كانوا أكثر هدوءاً، فربما كانوا استولوا على المدينة. ولُحسن حظّنا أنَّ واحداً من كلّ اثنين منهم كان ثملاً.

خلال الأيام القليلة التالية تبدَّلَ مزاجُ جوليان من الإثارة الصاخبة تقريباً إلى الغضب النكد. كان متأكِّداً من أنَّ التخلّي عنه عملٌ مقصود. وهذا ارتياب تأكَّدَ حين وصل رسولٌ من رايمس ليقول إنَّ مارشيلوس لن يهبّ لنجدتنا؛ وبرَّر موقفه بالضعف. وأصرَّ أيضاً على أنَّ لدى جوليان ما يكفي من الرجال لصدّ الجرمان.

حين رحل الجرمان بشكلٍ مُفاجئ كما كانوا قد وصلوا، كانت مؤنتنا قد أوشكت على النفاد. لقد أثارَ الحِصارُ الضجرَ في نفوسهم. وعلى الفور أرسلَ جوليان في طلب إمدادات من فيين. ثم استدعى قواته كلها إلى سين وأمضينا ما تبقّى من فصل الشتاء، إن لم يكن في راحة، فعلى الأقلّ دون خوف من الإبادة المفاجئة. وكتبَ جوليان أيضاً إلى قسطنتيوس تقريراً كاملاً عن رفض مارشيلوس المجيء لنجدته. كانت وثيقة رائعة. أعلم؛ لقد ساعدناه أنا وسالوست في كتابتها. بل كان من الروعة بحيث أنَّ هذا التقرير خِلافاً لأغلب الأوراق الرسمية كان ذا أثر. واستُدعيَ مارشيلوس إلى ميلانو وبعد فترةٍ وجيزة كان لجوليان ما أراد؛ أصبحَ آمر الجيوش في بلاد الغال.

عام ٣٥٧ كان عام صيرورة جوليان بطلاً عالمياً. في الربيع، حين نضجَ القمح، تقدَّمَ إلى رايمس، وهناك علِمَ أنَّ بارباشيو، آمر المُشاة الرومان، في طريقه إلى أوغست مع جيشٍ قِوامه خمسة وعشرون ألفاً وسبعة من القوارب النهرية. كان من المفترض أن

يساعد جوليان في الهجوم الأخير على الجرمان. ولكن قبل وضع الخطة، مرَّتْ قبيلة تُدعى ليتي عبر منطقتنا وضربت حِصاراً على ليون، وحرقتْ كل المناطق الريفية المُحيطة. أرسلَ جوليان على عَجَل ثلاث سرايا من الخيالة الخِفاف لتحرير المدينة. بل إنه وضعَ حَرَساً على الطُرُق الثلاثة الخارجة من ليون، لكي يكمنوا للمتوحشين حين يفرّون. ولسوء الحظ، سمحَتْ قوات بارباشيو للجرمان بالمرور لأنَّ تريبيون الرماة، يُدعى سيلا، ويعمل تحت إمرة بارباشيو، منعَ آمر الخيّالة من الهجوم. لماذا؟ لأنَّ بارباشيو كان يتوقُ إلى فشل جوليان. وكان أيضاً مُتحالفاً بدرجةٍ معينة مع القبائل الجرمانية. فأمرَ جوليان بطرد سيلا وبطانته؛ ولم يُطلَق سراح أحَدٍ إلاّ آمرَ الخيّالة الذي، بالمناسبة، كان فالانتاين، إمبراطورنا في المستقبل.

عندئذٍ كان الرعب قد نالَ من الجرمان. حاولوا أن يُعيقوا تقدُّمنا إلى الراين بإسقاطِ أشجارٍ ضخمة في عرض الطرقات. ولجؤوا إلى جُزُر الراين، ومنها كانوا يصبّون علينا كافة أنواع الإهانات، وفي الليل يصدحون بأشدّ الأغاني كآبة. وحين طلبَ جوليان من بارباشيو قواربه السبعة، إذا بها بسرعة وبصورةٍ غامضة تتعرَّض للحرق. وهكذا أمرَ جوليان، المُبتكِر دائماً، جنود الاحتياط ذوي الدروع الخفيفة من فيلق الجوقة بالتوجُّه سباحةً إلى إحدى تلك الجُزُر، مُستخدمين دروعهم الخشبية كطوافات. وقد نجحَتْ الفكرة، وقتلوا المدافعين الجرمان ومن ثم هاجموا الجُزُر الأخرى، مُستخدمين القوارب الجرمانية. فتخلى الهمجيون عن باقي الجُزُر وفرّوا إلى داخل الغابة الشرقية.

بعد ذلك استعادَ جوليان الحصن في سافيرن، وهو مُنشأة هامة لأنه يقوم مباشرةً في درب أي شخص ينوي أنْ يُغير على قلب بلاد الغال. ثم جمَعَ المحاصيل التي كان الجرمان قد زرعوها. فوفَّرَ له هذا مؤونة عشرينَ يوماً. وباتَ بعدئذٍ مستعداً لمواجهة الملك كنودومار. العَقَبة الوحيدة التي كانت تقفُ في وجهه هي بارباشيو. ولحُسن حظنا جميعاً، تعرَّضَ ذلك المخلوق الشاذ لهجوم الجرمان مباشرة في موقعٍ يقعُ شمال أوغست. وعلى الرغم من أنَّ بارباشيو كان في حوزته جيشٌ ضخم، حَسَن الانضباط، إلاّ أنه هربَ فَزِعاً عائداً إلى أوغست وأسرعَ في إعلان أنه أحرزَ انتصاراً مُبيناً ومن ثم توجّه إلى المقر الشتوي، على الرغم من أننا كنا لا نزال في شهر تموز. كان ذلك آخر ما سمعنا عنه طوال عامٍ كامل. وشعرنا بارتياحٍ كبير.

سار جوليان مع ثلاثة عشر ألف رجل مباشرةً إلى ستراسبورغ. وعلى مبعَدَة بضعة أميال من المدينة، بعثَ كنودومار إلى جوليان سفيراً ليأمره بمغادرة بلاد الغال لأنها أصبحتْ الآن " بلداً جرمانياً، اكتُسِبَ بقوة الجرمان وشجاعتهم ". فضحكَ جوليان من مبعوثي الملك ساخراً. ولكنَّ كنودومار كانَ رجلاً جاداً. فمنذ أنْ دَحَرَ القيصر ديسنتيوس أصبحَ حراً في التجوُّل في أرجاء الغال وكأنها حقّاً مملكته الخاصة. والآن، وقد استمدَّ الشجاعة من انهيار بارباشيو، أصبحَ متأكِّداً من أنه سينتصر من جديد.

وحُلَّتْ القضية، كما نعلمُ جميعاً، وأنا واثقٌ من أنكَ ستُضيفُ عند هذه النقطة سردَ جوليان معركة ستراسبورغ. أعتقد أنه أفضل ما كتب - وأنتَ تعلم تحامُلي ضد التعليقات العسكرية! وحدها ثرثرة الشيخوخة تجعلني أسترسلُ في الكلام عن أحداث تلك الأشهر في بلاد الغال. وأنا أفعل هذا من ناحية لكي أبلغُكَ ومن ناحيةٍ أخرى - صدقاً - لكي أختبر ما تبقّى لدي من ذاكرة؛ إنَّ لديَّ أكثر مما ظننت. وقد تذكَّرتُ حالما كتبتُ كلمة " ذاكرة " ما يلي : بينما كنتُ أتجوَّل على ظهر حصان خارج أسوار بلدةٍ غاليّة، رأيتُ مقبرةً يوجد فيها عدد من القبور المغطّاة بشباك صيد السمك. فسألتُ أحد الجنود المحليين عمّا يعنيه هذا. فقال " إنها لكي تمنع الأمهات اللواتي مُتن أثناء الولادة من سرقة أطفالهنّ ". هناك كثيرٌ من التراث الشعبي المُثير للاهتمام في ذلك الجزء من العالم وآمل أنْ يأتي هيرودوتوسٌ[٨٨] عصري ويعمل على تدوينه قبل أن يذوب الناس بشكلٍ كامل في الهوية الرومانية وتندثر العادات والتقاليد العريقة.

بالمناسبة، في ذلك الوقت استُدعيَتْ هيلينا إلى روما، حين كان قسطنتيوس يحتفل ليس فقط بانتصاره الأول بل بزيارته الأولى إلى العاصمة. لقد حَبِلَتْ مرةً أخرى، ومرةً أخرى فَقَدَتْ جنينها، وهذه المرة من إجهاضٍ سببه جرعة دواء أعطتها إياها يوسيبيا.

أما عن معركة ستراسبورغ الشهيرة، فليس لديَّ ما أضيفه إلى ما ذَكَرَه جوليان بنفسه.

ليبانيوس : فلماذا تتكلّم إذن؟ إنَّ بريسكوس لا ينِي يحتجّ بأنْ ليس لديه ما يُضيفه ومن ثم يُكثِرُ من الكلام. لقد تقدَّمَ في السن. لطالما كان موجزاً، إلى درجةِ الاقتضاب. أما الآن...! "

بريسكوس : إنَّ ذكرياتي عن ذلك اليوم من شهر آب ما تزالُ حيّةً وكاملة بشكلٍ مُدهِش، إذا أخذنا بعين الاعتبار أنني لا أحمل أي ذِكرى لِما حدثَ في العام الفائت، أو حتى في صباح هذا اليوم.

سلَّمَ جوليان خطَّته للمعركة إلى فلورنتيوس في فيين وكم دُهِشنا لأنها قُبِلَتْ. لا أحد سيعرف ماذا كانت دوافع فلورنتيوس في ذلك. أعتقدُ لكونِ جوليان لديه ثلاثة عشر ألفاً من الجنود في حين أنَّ الجيش الجرماني كان يعدُّ ما يُقاربُ الخمسة وثلاثين ألفاً أعتقد أنَّ لذلك صِلةً بالأمر.

في صباح الرابع عشر من آب توقَّفنا على مسافة نحو عشرينَ ميلاً من الراين، الذي كان كنودومار قد جمَّعَ جيشه على ضفَّتيه. إنني أذكُر أنَّ ذلك اليوم كان من اشد الأيام التي عرفتُها حرارة. والحرارة في بلاد فارس حتى أسوأ من ذلك، لأنها مصحوبة بالرطوبة. أيضاً، كان الهواء يعجُّ بالحشرات، وكنتُ أعطشُ باستمرار كما يحدثُ معي دائماً في مثل ذلك الوقت من العام، نتيجةً لانبعاث البخار من الأرض التي تزدحم بالأعشاب الضارة.

كنتُ إلى جوار جوليان طوال فترة المعركة تقريباً، كقطعة زينة أكثر مني كجندي، على الرغم من أني كنتُ أنطرح حولي بين حينً وآخر ببساطة لأتجنَّب الموت. وقد ألقى جوليان خطاباً جيداً على جيشه. على الرغم من أنَّ خطاباته لم تكن لامعة كثيراً، إلا أنها كانت تضرب على الوتر الحساس عند الرجال. ولطالما تساءلتُ كيف تمكَّنَ ذلك الشاب المدمن على القراءة أنْ يُخاطب بتلك السهولة بعضاً من أشد الرجال جهلاً وتحاملاً على الأرض. ومع ذلك فعل. كان صوته المُثقَّف يغدو أجَشَّ، وسلوكه فخماً؛ والمُحتوى متواضعاً، والأثر مُلهِماً.

جلسَ جوليان على حصانه أرجوانياً ويُنذرُ بالشر، وحامل الراية إلى جانبه يحملُ رمحاً يرفرفُ عليه التنين الإمبراطوري في وجه الريح الحارة. كان جنود المُشاة يملؤون المُنحَدَر الضيِّق عند أسفل التل حيث تمركزَ جوليان وأركان حربه، وكلهم غائصون حتى الرُكَب بين سنابل القمح الناضجة، لأننا كنا نقفُ وسطَ مزرعة كبيرة.

هَدَرَتْ الأبواق في انسجام. تحرَّكَت سرايا الخيالة، والفرسان المُدرّعون ورُماة السهام من اليسار واليمين إلى أنْ أحاطَتْ بجوليان من كل جانب . وبعد أنْ اكتملَ تجمّعهم

أخيراً ورانَ عليهم الصمت، تكلَّمَ فيهم. لم يكن مرةً كما كان عندئذٍ رهافةً على الرغم من أنَّ سلوكه كان نشطاً ومباشراً. أراد أنْ يُقنعهم بالقتال على الفور، ولكن بما أنه كان يعلم أنهم مُتعبون ويشعرون بالحر من شِدَّة وطأة الشمس، أدركَ انَّ عليه أنْ يلجأ معهم إلى الحيلة ليُحقِّق ما يريد.

" إنَّ ما علينا أن نهتمَّ به هو سلامة رجالنا، وعلى الرغم من لهفتنا إلى الانخراط في قتال العدو، إلاّ أننا نُدركُ أيضاً أنَّ التهوُّر يمكن أن يُعرِّضَ للخطر وأنَّ الحَذَرَ فضيلة. وعلى الرغم من أننا جميعاً من الشبان ونميلُ إلى الاندفاع، فإنَّ عليَّ كقيصر أن أتحرَّكَ بحَذَر، على الرغم من أنني - كما تعلمون - أبعد ما أكون عن الخوف. والآن إليكم وضعَنا. نحنُ الآن في منتصف الظهيرة تقريباً. الحرارة فظيعة. وسوف تسوء أكثر. ونحن جميعاً مُتعبون من طول المسير. ولسنا واثقين من وجود ما يكفي من المياه في هذا الجانب من الراين. إنَّ العدوَّ نشطٌ، وينتظر. لذا أقترحُ أنْ نقفَ على أُهبة الاستعداد، وأنْ نأكل وننام ونُعِد العدَّة للمعركة غداً حين نقوم، بمشيئة الله، بضربتنا مع أول خيوط الفجر، تتقدَّمنا رايات النسور، ونطرد الجرمان عن الأرض الرومانية... "

لكنَّ الفيالق قاطعَته. صرّوا بأسنانهم، وأصدروا صوتاً فظيعاً، وضربوا رِماحهم على تروسهم.

ثم هتف أحد حاملي الرايات، " إلى الأمام، أيها القيصر! اتبعْ نجمك! ". التفتَ بطريقةٍ مسرحية إلى الفيالق، " لدينا قائد سوفَ ينتصر! وبمشيئة الله، سوف نُحرِّر بلاد الغال في هذا اليوم! المجد، للقيصر! "

كان هذا كل ما يحتاجه. وبينما الفيالق تُهلِّل، أصدرَ جوليان أمره بالاستعداد للقتال. وبعد ذلك، استفردتُ به برهة. كنا متقاربيْنِ إلى درجة أنَّ الرِكَابَين ارتطما. قلتُ " خطاب رائع. جديرٌ بأنْ يُذكَر في التاريخ "

رسمَ ابتسامةً عريضة كتلميذ مدرسة " ما رأيكَ في خطاب حامل الراية؟ "

" بالضبط كما هو مطلوب "

" لقد درَّبتُه على إلقائه في الليلة الفائتة، بالإيماءات ". ثم رثى جوليان حال قواته. فقد كان الجرمان في وضع القتال للتو. كانت قواتهم من اليمين واليسار وعلى امتداد النظر تقفُ على طول النهر . وفي صفِّهم الأول وقفَ الملك كنودومار، وهو رجل ضخم الجثة ذو بطن كبير ويضعُ ريشةً قرمزية في خوذته.

عند الظهيرة، صدرَ أمر جوليان بالقتال. كان الجرمان قد حفروا عدداً من الخنادق في طريقنا اختبأ فيها رُماة السهام، مُستترين بأغصان خضراء، أخذوا فجأةً يُطلقون سهامهم على الفيالق التي توقَّفَتْ وقد تلبَّسها الرعب. لم تتراجع؛ لكنها لم تتقدَّم.

كان جوليان عندئذٍ في الجو الذي يلائمه. أخذ يتنقَّل بسرعة من سرية إلى أخرى، ومن فيلقٍ إلى آخر، ويُعطي تعليماته بصوتٍ أجشٍ من فرط التوتُّر، ويحثُّ الرجال الذين تراجعوا، على الهجوم. هدَّدهم. لا أتذكَّر بالضبط ماذا قال، لكنَّ المعنى العام كان : إنَّ هؤلاء المتوحشين هم الذين أفسدوا أرض الغال، والآن حانت الفرصة لنُحطِّمهم، هذه هي اللحظة التي كنا ننتظرها! ولجأ أيضاً إلى أسلوب الخداع مع أولئك الذين أبدَوْا ميلاً إلى التراجع. " أتوسّلُ إليكم، لا تتبعوا العدو عن كَثَب! توقَّفوا عند الراين! دعوهم يغرقون. ولكن كونوا حذرين! "

بالنسبة إليّ، كان النهارُ يعيثُ بالفوضى. وفي سياق فترة ما بعد الظهر القائظة، مرَّتْ المعركة بعدَّة فترات من الشك. وفي نقطة ما تشتَّتَ فرساننا : وكان يمكن أن يفرّوا لو لم يواجهوا سداً منيعاً من جنود المُشاة ينتظرُ خلفهم. وأشد ما أذكُر هو القوات الجرمانية. لم أرَ أبداً شيئاً مُشابهاً لها، وآمل ألاّ أراه في هذا العالم. وإذا كان هناك جحيم، فأنا واثقٌ من أني سأقضي وقتي فيه وأنا أشتبكُ مع الجرمان في القتال. كان شعرهم المصبوغ باللون الأحمر يسترسلُ طويلاً، مُنهمراً حول الوجه كعُرف الأسد. وهم يصرّون بأسنانهم ويصرخون بكلمات ليست كلمات لكنّها أصواتٌ تعبِّرُ عن الحنق. وعيونهم تدلُ على جنونٍ تام وهي مُحدِّقة، وعروقهم تبرزُ ثخينة في أعناقهم. وأعتقدُ أنَّ كثيرين منهم كانوا سكارى ولكن ليس إلى درجة فقدان ضراوتهم. لقد قتلتُ عديداً منهم، وكدتُ أنا نفسي أُقتَل.

بعد أنْ شقَّ الجرمانُ صفوفَ خيّالتنا، التفتوا إلى جنود المشاة، ينوون أنْ يتغلَّبوا عليهم بمجرَّد تفوقهم في العدد. لكنَّهم لم يُدخِلوا في حِسابهم أفضل فيلقَين في روما: الكورنوتي والبراكياتي. أولئك الرجال الذين يتَّخذون أشكال السلاحف، ورؤوسهم مُستترة خلف تروسهم، ويتقدَّمون بثباتٍ نحو جموع الجرمان. تلك كانت ذروة المعركة، تماماً كما برهنَ أوريباسيوس على أنَّ هناك نقطة ذروة في الحمّى يتقرَّرُ عندها إنْ كان المريض سيعيش أم سيموت. وعشنا. ومات الجرمان. كانت مذبحةً هائلة – مُثيرة

للاشمئزاز. كان الجرحى والمحتضرون متكوّمين كل أربعة أو ثلاثة فوق بعضهم على ضفة النهر؛ بعضهم ماتوا اختناقاً بفعل الجثث المُلقاة فوقهم؛ وبعضٌ آخرُ غرقوا دون مبالغة في الدماء. ولم أشهد بعد ذلك أيَّ يومٍ مُشابهٍ لذاك، وأنا شاكر لذلك.

وفجأةً، وكأنما تلبيةً لإشارةٍ تلقّوها (لكنَّ الأمر تمَّ بفعل الغريزة وحدها؛ وقد لاحظَ هذه الظاهرة نفسها آخرون شهدوا حرباً)، اندفَعَ الجرمان نحو النهر. وتبعهم رجالنا. كان مشهداً رهيباً. وحاول الهمجيون يائسين أن يسبحوا إلى الضفة المُقابلة. وعند نقطةٍ معيَّنة، وهذه ليست مُبالغةً تاريخية، أصبحَ لون مياه الراين أحمر من كثرة الدم المُراق.

كنا في وقتٍ متأخِّر من بعد الظهر. كنتُ أتوجَّع في كل عَضَلَةٍ وأرتجفُ من هولِ ما رأيتُ وفعلت. ووجدتُ جوليان وأركان حربه قد نصبوا الخيام فوق مرتفعٍ من الأرض بجانب النهر. ؟ كانت خيمة جوليان منصوبة داخل دغلٍ من أشجار الدرداء؛ وعلى الرغم من أنَّ وجهه كان أسود بسبب العَرَق والتراب، إلاّ أنه بدا نضراً كما كان قد بدأ نهاره. وعانقني بحرارة.

هتفَ " والآن ها نحنُ جميعاً هنا! وما نزالُ أحياء ". شربنا النبيذ وظِلالُ الأشجار من حولنا تستطيلُ، ونقلَ سالوست إلينا أنّنا فقَدنا أربعة من الضباط ومئتين وثلاثة وأربعين رجلاً. ولم يستطع أحد أن يُقدِّر خسائر الجرمان ولكن في اليوم التالي اتَّضحَ انَّ العدد يتراوح بين خمسةِ إلى ستة آلاف. كان أكبر انتصارٍ يُحقّقه جيشٌ روماني في الغال منذ أيام يوليوس قيصر. على الرغم من أنه من الصعب أنْ أبتهج فيما يخص الشؤون العسكرية، لم أستطع إلاّ أنْ أتأثَّر بالإثارة العامة، التي ازدادت حين جُلِبَ الملك كنودومار، قُبيل منتصف الليل، إلينا، وذراعاه موثقتان خلف ظهره، وبطنه الكبير مُتهدِّل، وعيناه بيضاوان من شدَّة الرعب. لقد كان الجرمان يفتقرون إلى الكبرياء الحقيقية، كما لاحظَ آخرون مراراً. إنهم إذا ما انتصروا كانوا مستبدّين؛ لكنهم في الهزيمة ينكمشون. ارتمى الملك عند قَدَمَيّ جوليان، يئنُّ باستسلام. في اليوم التالي أرسله جوليان إلى قسطنتيوس، الذي بدوره سجَنَه في كاسترا بيريغرينا في روما على التل الكيلي، حيث مات بفعل الشيخوخة. وهو، في العموم، مصيرٌ أفضل من مصير المُنتصرِ عليه.

لم يسجِّل جوليان أيَّ شيء من أحداث ما تبقَّى من ذلك العام. وقام بدفن الموتى الغاليين بكل احترام. ثم عاد إلى سافرن. وأمر بنقل الأسرى والغنائم إلى ميتز. ومن

ثم عبر نهر الراين إلى داخل الأراضي الجرمانية. وجمع كل المواشي والقمح؛ وأحرق المنازل، التي كانت مبنيّة كمنازلنا على الرغم من أنه كان يُعتَقَد أنَّ الجرمان يفضّلون العيشَ في أكواخ في الغابة - إنها مجرد أسطورة. ثم اخترقنا تلك الغابات المرعبة المترامية الأطراف التي تملأ وسطَ أوروبا. لا يوجد شبيه لها في العالم كله. فالأشجار شديدة الكثافة بحيث لا يتمكّن غير شُعاع أخضر مُعتِم من النفاذ إلى الأرض. والأشجار القديمة قِدَمَ الزمان تجعل المرور بينها أمراً صعباً. هنا تكون القبائل الهمجية آمنة وسالمة من الهجمات، إذ أيُ غريبٍ يمكنه أن يعثر على طريقه في تلك المتاهة الخضراء؟ الإمبراطور تراجان وحده استطاع ذلك. وقد صادفنا أحد حصونه المهجورة، وقد عَمَدَ جوليان إلى إعادةِ بنائه وتزويده بحامية عسكرية. ثم عبرنا النهر مرةً أخرى وتوجّهنا إلى المقرّ الشتوي في باريس، وهي مدينة يُشيرُ إليها الرومان دائماً، بأناقتهم المعهودة، بأنها مدينة الطين.

-١٢-

جوليان أوغسطوس.

من بين مُدُن الغال أفضِّلُ مدينة باريس وقد أمضيتُ ثلاثة فصول شتاء هناك. المدينة تقومُ على جزيرة صغيرة في نهر السين. تربطها جسورٌ خشبية بكلتا الضفَّتين حيث يحرث أهل المدينة الأرض. إنه بلدٌ جميلٌ أخضر ينمو فيه تقريباً كلُّ شيء، حتى أشجار التين. وخلال الشتاء الأول زرعتُ عدداً منها (دثَّرتُها بالقش) فلم يعُش منها غير واحدة. طبعاً مدينة باريس في فصل الشتاء ليست باردة كما هو حال سين أو فيين لأنَّ قُرب المحيط يُدفئ الهواء. ونتيجة ذلك، فإنَّ سطح نهر السين نادراً ما يتجمَّد؛ ومياهه كما يعلم كُل مَنْ زارَ ذلك المكان - عذبةٌ جداً وشربها لذيذ. والمدينة مبنيّة من الخشب والقرميد، وفيها قصر للحاكم معقول الحجم استخدمته كمقر لقيادة الجيش. ومن الطابق الثاني الذي كنتُ أشغله كان في استطاعتي أنْ أرى المياه عند نقطة تفرُّعها عند رأس الجزيرة الحادّ، كبحرٍ يتكسَّر على مُقدَّم سفينة. في الحقيقة، إذا أمعنَ المرء بقدرٍ كافٍ في تلك النقطة من النهر لانتابه إحساس غريب بأنه يتحرَّك، وكأنه بحقّ على متن سفينة تنطلقُ بأقصى سرعتها، والشاطئ الأخضر يمرُّ مندفعاً.

أما الباريسيون فهم شعبٌ يعملُ باجتهاد ويستمتع بمشاهدة المسرح وأيضاً (للأسف) بالمراسم الجليلية. في الشتاء هم سكان مدُن، وفي الصيف هم فلاحون. وبعونٍ من حظٍ حَسَنٍ رائع يجمعون بين الصِفات الأفضل وليس الأسوأ للوضعَين. وقد كانت الصلة جيدة جداً، بين الباريسيين وبيني.

ازدادت علاقاتي سوءاً بفلورنتيوس. حاولَ أن يَنسِف سُلطتي عند كل منعطف. وأخيراً تشاجرتُ معه حول النقود. فبسبب الغزو الجرماني، عانى مُلاّك الأراضي من خسائر ضخمة. وعاماً بعد عام، كانت المحاصيل تتدمَّر، والأبنية تُحرَق، والماشية

تُسرَق. ولكي أُقَلِّل من العبء عن الناس الذين أفلسوا فعلاً، اقترحتُ تخفيض ضريبة الرؤوس وضريبة الأرض معاً من خمسٍ وعشرين إلى سبع قطعٍ ذهبية في العام. فعارض ذلك فلورنتيوس، وواجهه باقتراحٍ شائن هو فرضُ ضريبة خاصة على الممتلكات كلها، بغرضِ سداد نفقات حملتي! وهذه الضريبة المُقتَرَحَة ليست فقط جائرة، بل إنها سبَّبَت ثورة.

والآن على الرغم من أنَّ فلورنتيوس كان يُهيمنُ على الإدارة والخدمة المدنية، فإنَّ أيَّ إجراءٍ لم يكن يصبح شرعياً إلاّ بختمي، بوصفي القيصر المقيم. لذا عندما أرسل فلورنتيوس اقتراح ضريبة الرساميل، أعدتُه إليه دون توقيع. بل إنني ضمَّنته أيضاً مُذكَّرة طويلة أستعرضُ فيها الوضعَ الماليَّ في بلادِ الغال، ومُثبِتاً بالأرقام الدقيقة أنَّه قد جُمِعَ حتى الآن أكثر مما يكفي من الدخل من الأشكال التقليدية لجبي الضرائب. وذكَّرتُهُ أيضاً بأنَّ عديداً من المقاطعات قد دُمِّرَتْ من قبل بسببِ إجراءاتٍ كالتي اقترحَها - خاصة مقاطعة إلّيريكوم.

أمضى المراسلون الشتاء وهم يندفعون جيئةً وذهاباً على طول الطرُق المُثلجة بين باريس وفيين. وأَسقطَتْ ضريبة الرساميل، لكنَّ فلورنتيوس كان لا يزال مُصمِّماً على رفع قيمة الضرائب. وحين أرسلَ إليّ اقتراحَ زيادة ضريبة الأرض، رفضتُ توقيعها. في الواقع، لقد مزَّقتُها وأمرتُ المراسل بأنْ يُعيدَ الورقة الممزَّقة إلى الحاكم الإمبراطوري، مع تحياتي.

ثم احتَكَمَ فلورنتيوس إلى قسطنتيوس، الذي بعثَ إليّ برسالةٍ معتدلةِ اللهجة بصورةٍ مُدهِشة. جاءَ في طرفٍ منها : " يجب أنْ تُدركَ، أيها الأخ العزيز، أنه يؤلمنا أنْ تنسفَ ثقتنا في ضباطنا الرسميين المُعيَّنين في بلاد الغال. إنَّ لفلورنتيوس أخطاءه، على الرغم من أنَّ طيش الشباب ليس أحدها ". (حينئذٍ كنتُ قد تعوَّدتُ كليّاً على مثل تلك الإهانة) " إنه إداريٌّ كفءٌ وصاحب خبرةٍ واسعة، خاصة في مجال جبي الضرائب. إننا نضعُ كلَّ ثقتنا فيه، ولا نستطيع بكل صراحة أن نستهجن أيَّ جهدٍ باتجاهِ زيادة دخل الدولة في وقتٍ تتعرَّضُ الإمبراطورية إلى تهديدٍ من الدانوب وفي بلاد ما بين النهرين. إننا نوصي أخانا أنْ يكونَ أقلّ حماساً في محاولاته كسبَ حُظوة عند الغاليين، وأكثر عوناً لحاكمنا في محاولاته الصادقة لتمويل دفاعكَ عن المقاطعة "

لو أنَّ هذا حدثَ قبل عام من ذلك لرضختُ طائعاً لقسطنتيوس دون أي سؤال؛

كنتُ أيضاً غضبتُ بشدّة لإشارته إلى انتصاري في معركة ستراسبورغ على أنه مجرَّد "دفاعٌ عن المقاطعة "، ولكنني كنتُ أتعلَّم الحِكمة. وعلِمتُ أيضاً أني إذا أردتُ أنْ أنجحَ في بلاد الغال، فأنا بحاجةٍ إلى دعم الشعب الصادق. لقد كانوا منذ ذلك الحين يعتبرونني المُدافعَ عنهم، ليس فقط ضد الهمجيين بل وضد جشع فلورنتيوس.

كتبتُ إلى قسطنتيوس أقولُ له إنه على الرغم من أنني قبلتُ حُكمَه في كل الأمور، فإننا لا نأمل في أنْ نسيطر على المقاطعة بزيادة الضرائب على أناسٍ مُدمَّرين. وقلتُ إنه إذا لم يُصدِر الإمبراطور أمراً مُباشَراً إليَّ للتوقيع على زيادة الضريبة، فلن أسمحَ بتفعيلها.

سادَ ذُعرٌ في باريس. وانتظرنا عِدَّة أسابيع لصدورِ ردٍ ما. وقد سمعتُ أنَّ الرهان كان مُكثَّفاً لصالح إقالتي من منصبي. لكنني لم أُقَلْ. وبما أنَّ قسطنتيوس لم يُجِب فمعنى ذلك أنه غفرَ لي فِعلتي. ثم عمدتُ إلى تخفيض الضرائب. وكان أهالي المقاطعة من الشعور بالامتنان والدهشة إلى درجةِ أننا جبينا كامل دَخْلنا من الضرائب قبل الموعِد المُحدَّد للتسديد. واليوم، تقومُ بلاد الغال على أساسٍ ماليّ صلب. وأنوي أنْ أُجري إصلاحات ضريبية مشابهة في مكانٍ آخر.

سمعتُ أنَّ قسطنتيوس قد جُنَّ جنونه حين سمعَ نبأ انتصاري في ستراسبورغ. بل إنَّ حزنه تفاقمَ حين أرسلتُ إليه الملك كنودومار مغلولاً، كدليلٍ مرئيّ على انتصاري. ولكنْ للرجالِ أسلوبُهم الخاص في التملُّص من الحقيقة الصلبة، خاصةً الأباطرة المُحاطون بالمتزلّفين الذين لا ينون يُخبرونهم بما يُحبّون أن يسمعوه. في البلاط كانوا يُلقّبونني بـ "المنتصر الصغير " للتشديد على حقارة انتصاري – في نظرهم. وفي وقتٍ لاحق من فصل الشتاء، دُهِشتُ حين قرأتُ كيف أنَّ قسطنتيوس هو الذي احتلَّ شخصياً ستراسبورغ وفرضَ الهدوءَ على بلاد الغال. وكانت ادّعاءات انتصاره المُظفَّر تُقرأ في كل ركنٍ من الإمبراطورية، مع تجاهُلٍ تام لي. ومنذ ذلك الحين وأنا أسمع من اولئك الذين كانوا في ميلانو أنَّ قسطنتيوس صدَّقَ في نهاية المطاف أنه هو حقاً الذي كان موجوداً في ستراسبورغ في ذلك اليوم القائظ من شهر آب وأنه أسرَ بيديه الاثنتين الملك الجرماني. من فوق عرش العالم، أيُّ وهمٍ يمكن أن يصبحَ حقيقةً واقعة.

الأمر المُحزِنُ الوحيد في ذلك الشتاء كان سوء صحة زوجتي. كانت قد أسقَطَتْ

حملَها مرةً أخرى أثناء قيامها بزيارة روما، وكانت تشتكي باستمرار من ألمٍ في بطنها. وقد بذل أوريباسيوس أقصى جهده معها ولكنْ على الرغم من أنه تمكَّنَ عموماً من تخفيف الألم، إلاّ أنه لم يتمكَّن من شفائها.

أما صحتي - بما أنه يبدو أنني لا أُشيرُ أبداً إلى هذا الموضوع - فهي جيّدة على الدوام. من ناحية، لأنني آكلُ وأشرب باقتصاد، ومن ناحيةٍ أخرى لأنَّ عائلتي من منبتٍ قويّ. ولكنني في ذلك الشتاء اقتربتُ من الموت. حدثَ ذلك في شهر شباط. وكما قلتُ، كان منزلي في القصر الحكومي يُشرفُ على النهر، والغُرَف لم تكن مُزوَّدة بالتدفئة المعتادة من خلال الأرضية. ونتيجةً لذلك، كنتُ دائماً أشعر بقليل من البرد. لكنني تحمَّلتُ ذلك الوضع، لإدراكي أنني أوطِّن نفسي على القساوة على مدى أيامٍ طويلة في ساحة القتال. وكانت زوجتي تتوسّلُ إليّ كي أستخدم المجامر لكنني كنتُ أرفض، مُشيراً إلى أنّه إذا زادت حرارة الغُرَف أكثر من المعتاد، فإنَّ الجدران الرطبة سوف تتبخَّر، وتجعل الهواء ساماً.

ولكن ذات مساء أصبحَ البرد فوقَ طاقتي على تحمُّله. كنتُ أقرأ في وقتٍ متأخر من الليل - شعْراً، حسبَ ما اذكُر. استدعيتُ سكرتيري وأمرتُه بإحضار مجمرة مملوءة بالفحم المتوهِّج. وفعلَ. وواصلتُ القراءة. هدهدَتني خرخرة مياه النهر تحت نافذتي، فأخذتُ أنعسُ باطّراد. ثم أصابني الإغماء. وكاد الدخانُ المُنبعث من الفحم ممزوجاً بالبخار المتصاعِد من الجدران يخنقني.

لحُسن الحظ، شاهد أحد الحرّاس البخار يتسرَّب من تحت عقب الباب، فاقتحمَ المكان وجرَّني إلى الرواق وأخيراً عدتُ إلى وعيي. وأخذتُ أتقيأ على مدى ساعات. وقال أوريباسيوس لو أنني مكثتُ بضع دقائق أخرى في تلك الغرفة لمُتُّ. وهكذا أنقذَتْ عاداتي الاسبرطيّة[89] حياتي؛ على الرغم من أنَّ بعضاً قد يقولون، طبعاً، إنَّ سبب ذلك يعودُ إلى بُخلي! والغريب أنني، حين أعودُ بذاكرتي إلى تلك الليلة، لا أستطيع إلاّ أنْ أفكِّر في أنها ربما كانت ستكون ميتةً ممتعة. في لحظةٍ أكونُ أقرأ بندار، وفي اللحظة التالية يكونُ خَدَرٌ ممتع، ومن ثم النهاية. وفي كل يوم أُصلّي لهيليوس كي يحلّ الموت عليّ، حين يأتي، بسرعة ومن دون ألم مثل بداية تلك الليلة.

كانت أيام ممتلئة. كنتُ أقيمُ العدل أو، كما يقول بعضٌ، فقط أُطبِّق القانون، بما أنه

لا توجد عدالة حقيقية من صنع الإنسان. كنتُ أتشاور يومياً حول المشاكل الإدارية مع ضباط مختلفين في المقاطعة، وفي كل شهر كنتُ أدفع بنفسي رواتب كِبار الضباط. وهذه عادة قديمة ولطالما عملتُ على البحث عن أصولها. أعتقد أنها تعود في التاريخ إلى الجمهورية المبكِّرة. ومن بين أولئك الذين دفعتُ لهم عملاء سرّيون. وعلى الرغم من استهجاني لهم - ومعرفتي أنَّ عملهم في باريس هو مراقبتي وإرسال تقارير حول تحركاتي في ميلانو - كنت عادةً أُخفي كراهيتي. إلاّ في مناسبةٍ واحدة.

كنتُ أجلسُ على طاولة مُغطّاة برقع الجلد المدبوغ، وأمامي أكوام مختلفة الأحجام من الذهب. وحين جاء وقت الدفع لرئيس العملاء، غودنتيوس، مدَّ يده وأخذَ نصيبه من الذهب، دون أن ينتظرني كي أعطيه له. حتى رفاقُه من العملاء ذُهلوا من تصرُّفه الفظ ذاك، الذي عَلّقتُ عليه بقولي : " أترون، أيها السادة، إنَّ الاستيلاء، وليس القبول، هو أسلوب العملاء ". وقد استُعير هذا القول مني كثيراً.

الأمسيات كنتُ أقضيها، أولاً، في العمل، ثم في النوم ومن ثم، أخيراً، وهو الجزء المفضَّل، الوقت المتأخِّر من الليل، في التحدُّث في الفلسفة والأدب مع الأصدقاء، الذين كانوا يتعجَّبون كيف يمكنني أنْ أستغرق في النوم بتلك السرعة ومن ثم أستيقظ بالضبط في الساعة التي أريدها. أنا نفسي لا أعلم كيف يحدثُ هذا لكنني كنتُ دائماً قادراً على فِعلِه. فإذا قلتُ لنفسي أتمنى أنْ أستيقظ في الساعة الأولى من الليل، فسوفَ أفعلَ - وبدقَّة. إنني أعزو هذه الهِبة المحظوظة إلى هرمز. لكنَّ أوريباسيوس يعتقدُ أنَّ لها صِلةً بشيءٍ ما في دماغي ويريدُ أنْ يُلقي نظرةً عليه بعد أنْ أموت!

كان سالوست مؤرِّخاً هاماً وقد علَّمَني بشكلٍ واسع أصول التأريخ المحلّي والعالمي. درسنا خاصّةً حقبة ديوكليتيان، لأنه هو الذي حدَّثَ الإمبراطورية خلال القرن الأخير وإصلاحاتُه لا تزال تعيشُ بيننا.

إحدى مجادلاتنا كانت تدورُ حول مرسوم ديوكليتيان الذي أمرَ الرجال كلّهم بأنْ يلتزموا بالمهنة أو العمل الذي يقومون به في ذلك الوقت؛ وأيضاً، بأنَّ على سلالتهم أنْ تتخذ السبيل نفسه : فابن المزارع يجب أن يًصبح مزارعاً، وابن الإسكافيّ إسكافياً، وعقوبة تغيير المرء لوضعه شديدة. وقد أكّدَ سالوست، كما فعلَ ديوكليتيان، أنَّ ذلك القانون كان ضرورياً من أَجَل الاستقرار الاجتماعي. وفي الأيام الخوالي، كان الناس

ينتقلون من مدينةٍ إلى أخرى، يعيشون على الإعانات وارتكاب الجرائم. ونتيجةً لذلك، أصبحَ إنتاج كل شيء غير وافٍ. وديوكليتيان لم يعمل فقط على تثبيت الإنتاج بل حاولَ أنْ يُسعِّر الأطعمة والمواد الأساسية الأخرى. وهذا الإجراء الأخير فشلَ، للأسف. وقبل بضعة أشعر حاولتُ أنا نفسي أن أُسعِّرَ القمح في إنطاكية، وعلى الرغم من أنني فشلتُ في هذا حتى الآن، أعتقد أنَّ هذا النوع من المعالجات سوفَ ينجح في الوقت المناسب.

كان رأي بريسكوس أنَّ قانون ديوكليتيان كان صارماً أكثر مما ينبغي. ورأى أنَّ يُسمَح للناس بتغيير قَدَرهم إذا أبدوا كفاءةً كافية. ولكن مَنْ هو المؤهَّل للحُكمِ على كفاءتهم؟ لم يتمكَّن من إعطاءِ جوابٍ على هذا. واقترحَ أوريباسيوس أنْ يُرسلَ البلاطُ وُكلاء إلى المُدُن الرئيسية لاختبار الشبّان لتحديد أيُّهم يُبدي مقدرة. وأشرتُ إلى أنَّ الدمار الذي سيحدث سيكون فادحاً؛ بالإضافة إلى إمكانية الحُكم على الآلاف بشكلٍ صحيح. وشخصياً، أؤمنُ بأنَّ الطبقات الدنيا تُنتجُ، أحياناً، رجالاً أكفاء وأؤمنُ بأنَّ تلك الكفاءة، إذا كانت كبيرة بقدرٍ كافٍ، سوف يتمُّ التعرُّف إليها واستخدامها. لسبب واحد وهو أنَّ الجيش دائماً موجود. فابن المزارع الطموح يمكنه أن ينضمّ إلى صفوف الجيش الذي هو - بالمعنى الإغريقي القديم - أشد المؤسسات ديموقراطية : أي شخص يمكنه أنْ يتدرَّج على سُلَّم المراتب، بغضّ النظر عن مدى تواضع منشئه. أجابَ بريسكوس على هذا بالقول إنَّه ليس كل ذي كفاءة يميلُ إلى خوض الحرب. واضطررتُ إلى الموافقة على أنَّ هناكَ حقاً صعوبة في وجه الرجل ذي المواهب الأدبية أو القانونية، لكنَّ سالوست أسرعَ إلى الإشارة إلى أنَّ مدارس القانون في بيروت والقسطنطينية مزدحمة، وأنَّ الخدمة المدنية تضمُ من المُرشّحين " الأكفاء " أكثر مما تستطيع أن تجد وظائف لهم. إنَّ لدينا ما يكفي من المحامين.

يعتقدُ بريسكوس أنَّه يجب أنْ تنتشر معرفة القراءة والكتابة على أوسع مدى. ويعتقد سالوست خِلافَ ذلك، على أساس أنَّ معرفة الأدب لن تعمل إلاّ على جعل المتواضعين غير راضين عن أوضاعهم. أنا أرى الرأيين. إنَّ سواد الثقافة السطحية أسوأ من عدمها : نتيجتها تشجيع الحَسَد والكَسَل. أما الثقافة المتكاملة فتفتح عينَيْ كل إنسان على طبيعة التجربة الإنسانية؛ ونحنُ جميعاً إخوة، كما يُذكّرنا إبيكتيتوس[٩٠].

ولم أتَّخذ قراري بعد بشأن هذه المشكلة. والصعوبة تتضاعف بسبب اللغة. فمن أجل تثقيف أي شخص بصورةٍ جيدة عليه أنْ يتعلّم اليونانية. ومع ذلك ففي مدينةٍ من المفترض أنها هلّينية مثل إنطاكية، أقلّ من نصف السكان يُحسنون اليونانية؛ أما الباقون فيتكلّمون إحدى اللغات الساميّة. الأمر نفسه يصحُّ على الإسكندرية وعلى مُدُن آسيا. واللغة اللاتينية تشكِّلُ تعقيداً آخر. فلغة القانون والجيش هي اللاتينية، في حين أنَّ لغة الأدب والإدارة هي اليونانية. ونتيجة لذلك، على الإنسان المُثقَّف أن يُحسن لغتين. فإذا كان، مثلاً، ابنَ خيّاطٍ سوريّ في إنطاكية فعليه أن يُتقِنَ ثلاث لغات. إنَّ مجرَّد تعلُّم اللغات سوف يستهلك مُعظَم وقته. أعلمُ هذا. فعلى الرغم من طول دراستي للاتينية، لا أزالُ أجدُ صعوبةً في قراءتها. وعلى الرغم من أنني أتكلَّم الرطانة العسكرية بسهولة، فلا صِلة لها بلغة شيشرون الذي أقرأه بالترجمات اليونانية! هكذا كنا نتجادل فيما بيننا ونحن في أبهج مزاج طوال فصل الشتاء وفصل الربيع الأجمل الذي غطّى ضِفاف نهر السين بالأزهار، وذكّرنا، في الحياة، بما كَشَفَه إليوسيس لنا في اللغز.

في بداية حزيران انتهَتْ القصيدة الرومانسية. نقلَ قسطنتيوس سالوست إلى مقر قيادة الجيش في ميلانو. كأنه قطعَ يدي اليُمنى. ردّة فعلي : حزنٌ، وغضب، ثم، أخيراً، تقليداً للفلاسفة، كتبتُ مقالةٍ طويلة عن الآلهة، وأهديتها إلى سالوست.

أضِفْ سرداً لحملة ذلك الصيف.

بريسكوس : حملة ذلك العام كانت عسيرة. كان قسطنتيوس قد تجاهلَ تزويد جوليان بالمال ليدفع رواتب جنوده. وأيضاً، كانت المؤن قليلة واضطرَّ جوليان إلى تحويل ما استطاع جمعه من قمح إلى بسكويت البحر[٩١]، وهو ليس نوع الجراية التي تُقدَّم لإسعاد الجنود المُرهقين أصلاً من طول القتال. لقد كانت الموارد قليلة مع جوليان إلى درجة أنه في مناسبةٍ واحدة على الأقل، حين طلبَ منه أحد الجنود ما يُسمّيه الرجال "أجرة الحلاقة" أو " أجرة الحلاّق "، لم يتمكَّن من إعطاء الرجل حتى قطعة نقدية واحدة.

تحرَّكَ جوليان شمالاً إلى فلاندر. وبأشد السُبُل مكراً، قَهَرَ قبيلةً فرنجيّة كانت قد احتلَّتْ مدينة تونغريس. ثم هزَمَ قبيلةً جرمانيّة تُدعى كورنبفي تقيمُ عند مصبِّ نهر

الراين. وبعد ذلك مشى إلى نهر ميوز واستعادَ ثلاثة من الحصون المُدمَّرة. عند هذه النقطة، نَفِدَ الطعام. وتأخَّرَ المحصول المحلّي، ووصلَ الجنود إلى شفا العصيان. كانوا يرمون جوليان بالنظرات الساخرة عَلَناً ويُطلقون علية لقب " الآسيوي " و " المُتأغْرِق ". لكنه احتفظَ بكرامته، وقام بتجريد الريف مما احتواه من طعام، وأخمَدَ العصيان.

بعد ذلك أنشأ جوليان جسراً عائماً عبر نهر الراين وعبرناه إلى بلد الملك الجرماني، سوماريوس... لكنَّ هذا كله وارد في التاريخ العسكري. وبعد تلك الحملة القصيرة، عبرنا من جديد نهر الراين وعُدتُ إلى باريس لقضاء فصل الشتاء.

جوليان أوغسطوس.

شتاؤنا الثاني في باريس كان ممتعاً أكثر من الأول، على الرغم من اشتياقي إلى سالوست بشكلٍ يفوق قدرتي على التعبير عنه - لكنني عبَّرتُ عنه فعلاً، في مقطوعةٍ مديحٍ نثرية؛ وكنت لا أزالُ خالي الوفاض من المال. كان العميل السرّي غودنتيوس يراقبني ويُرسل التقارير عني. وبقيت زوجتي مريضة. ولكن على الرغم من ذلك كله، كنتُ راضياً. كنتُ قد اعتدتُ على الحُكم، ولم أعُد أفكِّر بحُزنٍ في حياتي الخاصة، وفي التدريس في أثينا. كنتُ سعيداً جداً بكوني قيصراً في بلاد الغال.

الحَدَث الأبرز في الشتاء كان المحاكمة الكُبرى الأولى التي رأستُها. فقد اتُّهِمَ نيومريوس، حاكم غاليا ناربوننسيس (وهي إحدى المقاطعات التي تطل على البحر المتوسط)، باختلاس أموال الدولة. وكان الأعداء قد أعدّوا قضيةَ إدانةٍ ضدّه. وأُحضِرَ إلى باريس لمحاكمته. كانت تجربةً رائعة بالنسبة إليّ ولم تكن أقلَّ إثارة بالنسبة إلى الباريسيين من المسرح الذي يُحبون ارتياده، ذلك أنني سمحتُ للجمهور بحضور وقائع المحاكمة.

كانت قاعة المحكمة تمتلئ يوماً بعد يوم. وسرعان ما اتَّضَحَ أنه لا وجودَ لدليلٍ معقول ضد نيومريوس. كان رجلاً ساحراً فاتن المظهر، طويلَ القامة ومهيباً. واختارَ أنْ يُدافعَ عن نفسه بنفسه ضد دلفيديوس، المُدَّعي العام. ودلفيديوس هو أحد أشد المتكلّمين حيوية وحماساً وأشدّ عقول القانون دهاءً في الإمبراطورية؛ ولكنّهُ لم يستطع أنْ يُوجِدَ الدليل من لاشيء، على الرغم من أنه حتماً حاولَ ذلك، بمجهوده الخاص.

كان لنيومريوس أعداءُ سياسيون، مثلنا جميعاً، وقد قاموا بتلفيق التُهَم ضدَّه على أمل أن أقيله من منصبه. ونجحَ نيومريوس في تفنيدِ كلِّ تهمةٍ نقطةً بعد أخرى بمهارةٍ فائقة وأخيراً التفتَ دلفيديوس إليّ وصرخَ بغضب، " أيمكن، أيها القيصر العظيم، إثبات أيّ ذنبٍ على شخصٍ إذا كان كل ما عليه أنْ يفعله هو إنكار التهمة؟ "، فأجبته على هذا بواحدة من تلك الاندفاعات النادرة وغير المُتعَمَّدة التي كانت الآلهة هي التي تتكلّم فيها من خلالي - أو على الأقل هذا ما اعتقدته : " أيمكن لأي إنسان أن تثبُت براءته، إذا كان كل ما عليكَ أنْ تفعله هو أنْ توجِّه إليه إصبع الاتّهام؟. وسادَ صمتٌ مُفاجئ في القاعة. ثم انفجرَتْ عاصفةٌ عظيمة من التصفيق، وكانت تلك هي نهاية المحاكمة.

إنني أروي هذه الحكاية بدافع الغرور، طبعاً. إنني فخورٌ جداً بما قُلتُه - أو قاله هرمز. ولكن صدقاً، أنا لستُ أفضلَ القُضاة في العالم. وغالباً عندما أعتقد أنني أقولُ شيئاً بارعاً، أكون في الواقع أشيعُ الفوضى لا أكثر. ومع ذلك أتيتُ على إيرادِ هذه القصة لأنها تُبيِّنُ، في اعتقادي، الأساسَ الصحيحَ للقانون. إنَّ حُكّام العالم من الطُغاةَ دائماً يفترضون أنه إذا ظُنَّ أنَّ إنساناً مُذنبُ فيجب أن يكونَ مذنباً إذ لماذا يجدُ نفسه خلافَ ذلك في هذه الحالة. والآن إنَّ كلَّ طاغيةٍ يعلمُ أنَّ إنساناً قد يكون بريئاً تماماً ولكنَّ لديه أعداءً أقوياء (غالباً ما يكون الطاغية نفسه هو رئيسهم)، وهذا يُفسِّرُ السبب في أني أفضِّلُ أنْ أضعَ عبءَ البرهان على كاهل المُتَّهِم وليس على كاهل المُتَّهَم.

في ذلك الشتاء تحسَّنَت صحة هيلينا قليلاً. كانت تنتعش خاصةً حين تناقشُ أمرَ زيارتها إلى روما. وذات يوم، وكنا نتناول طعامَ العشاء معاً - وهو أمرٌ غير معتاد - سألتني " أتعتقد أننا سنتمكّن ذات يوم من العيش هناك؟ "

قلتُ " هذا أمرٌ يعود تقريره إلى أخيكِ. شخصياً، أحبُّ بلاد الغال. أستطيعُ أنْ أكونَ سعيداً تماماً بحياتي هنا حتى آخر عمري "

" في باريس؟ ". الطريقة التي نطقتها بها كَشَفَتْ عن مدى كُرهِها لحياتنا.

" نعم، ولكن مع ذلك مَنْ يدري ماذا سيحدث في العام القادم، أو في الأسبوع القادم؟ "

قالت بحزن "سوفَ تُحب المنزل في فيا نومنتانا. لديَّ أجمل الحدائق في العالم..."

" أفضلُ من حديقتنا؟ هنا؟ ". كنا في باريس فخورَين بالأزهار وأشجار الفاكهة العديدة التي تنمو بمجهودٍ بسيط.

تنهَّدَتْ وقالت " بما لا يُقارَن! إنني شديدة الشوق إلى العودة "

" أنا آسف ". كـانت تلك لحظة مُـربِكة ورحتُ ألعنُ في سـرّي كلّ مَنْ دبَّرَ أمـر انفرادنا معاً على مائدة الطعام. أعتقد أنَّ هذا لم يحدث بعد ذلك أبداً.

" إنَّ أخي يحترمك ". هذا أيضاً كان شيئاً غير عادي؛ فنادراً ما كنا نتحدَّث عن قسطنتيوس. " خشيته الوحيدة هي من أنْ... تُصغي إلى النصيحة الخطأ ". صاغَتْ القضية بلباقة.

قلتُ " ليس هناك ما يخشاه، سواء مني أو من ناصحيّ. ليستْ لدي أي نيّة في اغتصاب العرش. كل ما أريده هو أنْ أؤدي المهمَّة التي أُرسلتُ إلى هنا لأقومَ بها : أن أشيعَ السلام في بلاد الغال. واسمحي لي أنْ أقول لكِ إنَّ أخاكِ لم يُسهِّل لي مهمَّتي "

" لعلّه هو الذي يُصغي إلى الناصحين الخطأ ". كان هذا أقصى ما اعترَفَتْ به.

هززتُ رأسي بكآبة إيجاباً. " وأستطيعُ أنْ أذكُرهم بالاسم، بدءاً بيوسيبيوس..."

قاطعَتني فجأةً " لديكَ صديقٌ واحدٌ في البلاط ". ودفعَت طَبَقَها بعيداً عنها ، وكأنما تفسحُ مكاناً لشيءٍ جديدٍ سيوضعُ فيه، " الإمبراطورة "

باشرتُ بالقول " أعلمُ... "، لكنَّ هيلينا قاطعَتني بنظرةٍ غريبة؛ كانت المرة الأولى التي تضرب فيها على وترٍ حميم منذُ زواجنا. " إنَّ يوسيبيا تحبُّك "، قالتْ هيلينا هذا بطريقةٍ لم أفهم منها بدقَّة ما تقصده بصيغة الفعل المُستَهلَكة والمتأرجحة المعنى دائماً تلك. وتابعَتْ، مُضيفةً ولكن دون أنْ تُحدِّد ، " وحبُّها ثابت. وما دامَتْ على قيد الحياة، أنتَ في أمان. طبعاً، هذا الوضع قد لا يطولُ أَمَدَه ". وتبدَّلَتْ نبرة صوتها بسرعة؛ أصبحَتْ عادية أكثر، أقرب إلى نبرة صوت امرأة تثرثر. " ليلة وصلنا إلى روما، أُقيمَ استقبالٌ لقسطنتيوس في القصر فوق تل البالاتين. كان أعضاء مجلس الشيوخ والقناصل كلهم حاضرين. لم أكنْ قد شاهدتُ شيئاً يجاريه في البهاء. لقد كان أخي جاداً حين قال، " هذه أعظم لحظة في حياتي! ". أعتقدُ أنَّ الوضع يكون دائماً هكذا حين يقومُ إمبراطورٌ رومانيٌّ بزيارته الأولى إلى روما. على أي حال، كان قسطنتيوس يضعُ التاج، وجلسَتْ يوسيبيا إلى جانبه. بدتْ مُتعَبَة ولكن لم يشكَّ أحدٌ في أنها

مريضة. ثم أثناء إلقاء الإمبراطور خطاب الجواب على ترحيب أعضاء مجلس الشيوخ به، أصبحَ لونها شاحباً. حاولَتْ أنْ تنهضْ لكنَّ أطراف ثوبها كانت شديدة الثقَل عليها. وبما أنَّ الجميع كانوا ينظرون إلى قسطنتيوس، لم يُلاحظ أحد ما حدثَ لها. أما أنا فلاحظتُ. كنتُ أوَّل مَنْ شاهَدَ الدمَ يتدفَّقُ من فمها. ثم مالتْ نحو الخلف إلى الأرض. حين حُملَتْ إلى خارج المكان كانت فاقدةَ الوعي ".

أصابني الرعب. ليس فقط بسبب هذا الخبر السيِّئ، بل بسبب سرور هيلينا لتألُّم يوسيبيا. " طبعاً، لقد قلِقَ أخي - كلنا قلقنا. لكنها بعد بضعة أيام استعادَتْ عافيتها. وطبعاً كانت شديدة اللطف معي عندما جاء دوري لـ... أنزف. وطوال فترة حملي، بقيَتْ يوسيبيا تسهر على راحتي. ما كان يمكن أنْ تكون ألطف مما فَعَلَتْ. بل إنها أعدَّتْ لطفلنا الميت كي يُدفَنْ في ضريح قسطنتينا. كانت شديدة الرعاية وكأنني أختها الحقيقية... ولستُ عدوَّتها ". هذه الكلمة الأخيرة رمتني بها رمياً، ثم نهَضَتْ واقفةً على قَدَمَيها. وأجفَلتُ من طبيعة غضَبَها.

" إنَّ صديقتك، حاميتك، قَتَلَتْ وَلَدَينا كليهما ". كانت هيلينا عندئذٍ قد استقرَّتْ على الأرض. تكلَّمَتْ بهدوءٍ تام، كسوفسطائي درسَ بدقَّة ماذا سيتضمّنه خطابه المكتوب وكيفَ سيُلقيه. " إنكَ تفخرُ بفلسفتك، بحُبِّك للتناغُم والتوازُن. حسنٌ، قُلْ لي كيف تُقيِّم هذا في ميزانك؟ هنا ولدان "، ورفعَتْ يدها اليُسرى. " وهنا يوسيبيا "، ورفعَتْ يدها اليُمنى وجعلَتْ الكفَّتَين متعادلتَين.

لم أُجِبها. كيف كان يسعني أنْ أفعل؟ ثم غادرَتْ هيلينا الغرفة. لم نعُدْ إلى هذا الموضوع ثانيةً، لكنني احترمتُ انفعالها، لإدراكي أنَّ المرءَ لا يمكنه أنْ يتوصَّل إلى معرفةِ مخلوقٍ بشريٍّ آخر معرفةً كاملة حتى وإنْ قاسمَه السرير نفسه والحياة نفسها.

بعد ذلك بشهر، تلقَّينا رسالةً تقول إنَّ يوسيبيا قد توفِّيَتْ.

بينما كنتُ أقضي فصل الشتاء في بلاد الغال، كان قسطنتيوس على بُعد ألف ميل في سيرميوم، وهي مدينةٌ كبيرة تقعُ على الحدودة الفاصلة بين داسيا وإليريكوم. وأمضى هو، على عكسي، شتاءً مضطرباً. فأولاً توفيَتْ يوسيبيا. ثم، على الرغم من أنه نجحَ في إخماد ثورة السارماتيين للمرة الثانية، إلاّ أنَّ الدانوب كان أبعد ما يكون عن الهدوء. فالقبائل كانت على الدوام في حالة غليان، تسبِّبُ كثيراً من الدمارَ لنا.

لكنَّ قسطنتيوس أصدرَ مرسوماً يُعلِنُ فيه إحرازه الانتصار مرةً أخرى على السارماتيين، واتَّخَذَ لنفسه مرةً أخرى لَقَبَ " سارمارتيكوس ". ولم يقُل كيف يريد أن يُصاغَ لَقَبه النهائي، لكنَّ بريسكوس رأى أنَّ علينا أنْ نُشيرَ إليه بـ قسطنتيوس سارماتيكوس سارماتيكوس.

بقيَتْ اتِّصالاتي بقسطنتيوس سيئة كالمعتاد. في الواقع، كانت نكساته تُبعِد تفكيره عني. وأنا أعلمُ أنه لطالما أشارَ باحتقارٍ إلى " نجاحي " في بلاد الغال. في الواقع، كان يوسيبيوس يستمتعُ في ابتكارِ نعوتٍ لي، لعلمه أنها ستُسرُّ سيّده. ومن بين تلك التي تردَّدَتْ على مسمعي - من المُذهِل كم يمكن للأمراء أنْ يسمعوا إذا اختاروا أن يُصغوا - " البغل الثرثار "، " القرد ذو الرداء الأرجواني "، " المُتحذلِق المتأغْرِق " و " المعزاة " لأني تركتُ لحيتي تسترسل من جديد.

الرجال فضوليون عندما يتعلّق الأمر بالموضة. فبما أنَّ قسطنتيوس وورثته حليقو الذقون، فعلى الجميع أن يكونوا حليقي الذقون، خاصّةً كبار الموظفين الرسميين. وأنا دائماً أُجيبُ الذين ينتقدون لحيتي بالإشارةِ إلى أنَّ هادريان وخُلفاءَه كلهم كانوا ذوي لحى، وأنني أعتبر عصرهم أعظم من عصرنا. في الواقع، كانت لحيتي مكروهةً لأنَّ الفلسفةَ مكروهة. وكان الفلاسفة يُربّون لحى؛ وجوليان يُربي لحيته؛ لذا فجوليان هو فيلسوف ولعلّه يُشاركُ تلك القبيلة المُخرِّبة مشاعرها العدائية نحو معتقدات الجليليين الخرافية.

لقد وصفتُ في موقعٍ آخر حملة ذلك العام. وباختصار، أعدتُ بناءَ سبعَ مُدُنٍ مُدمَّرَة تقع على ضفاف الراين أو بالقرب منه، واستعدتُ مخازن للقمح وزوّدتُها بحاميات. والمدن هي : حصن هرقل، شنكنشانتس، كيلن، نوي، أندرناخ، بون وبنجن. وكلها تمَّتْ استعادتها دون كبير جهد.

في بنجن، كان في انتظاري مفاجأة. فقد ظهرَ فجأةً الحاكم الإمبراطوري فلورنتيوس، الذي لم أكن قد رأيته منذ أكثر من عامَين، على رأسِ جيشه ليساعدني في أداء مهمَّتي. ولما كانت الحملة قد انتهت تقريباً، لم يبقَ أمامي إلاّ أنْ أشكره لكياسة لفتته وأخذتُ منه قدرَ ما استطعتُ من القمح والذهب. ودارَ بيننا حوارٌ مسلٍ.

نُصِبَت خيمتانا كلاهما خارج بنجن. وقد اخترتُ أنْ أقيمَ في خيمتي بما أنَّ البلدة كانت تعجُّ بالضجيج بسبب عملية إعادة البناء، بينما نصبَ جيش الحاكم الإمبراطوري

خيامه إلى الجنوب من مكاني، بالقُرب من النهر. وفي اليوم التالي لالتقاء جيشينا طلبَ فلورنتيوس مقابلتي. فقبلتُ، ولاحظتُ بسرور أنَّ فلورنتيوس جاءَ هذه المرة إليَّ بدلَ أنْ يُصِرَّ على أنْ أذهبَ إليه.

وصلَ فلورنتيوس عند الغروب. استقبلتُهُ داخل خيمتي، وحدي. حيَّاني بطريقة رسمية غير معتادة. كان قد تغيَّرَ بشكلٍ ملحوظ . ولم تكن هناك أي إشارة ساخرة إلى منزلي الإسبارطي. كان ببساطة مرتبكاً. ولكن لماذا؟

جلسنا على كرسيين قابلَين للطي بالقُربِ من فتحة الخيمة التي كان يدخل منها ضوء المساء الصيفي الذهبي. كانت العصافير تغرِّد. وكان ضجيج الجنود من حولنا متواصلاً لكنه مُهدهِد. وعلى البُعد كان في الإمكان مشاهدة أسوار بنجن الرمادية، من فوق الغابات الخضراء مباشرةً. وبدأ فلورنتيوس الحوار. " كما تعلم، أيها القيصر، إنَّ بلاد فارس الآن في حالِ حرب معنا "

قلتُ إنَّ كلَّ ما أعرفه ما هو إلاَّ معلومات عامة، وإنَّ الرسول الذي كان قسطنتيوس قد بعثَه إلى سابور[٩٢] قد فشلَ في مهمَّته.

" أخشى أنَّ الأمرَ أسوأ من هذا ". كان تحديقه المتوتّر يرفرفُ هنا وهناك كعصفورٍ يُفتِّشُ عن غصنٍ ليحُطَّ عليه. وكانت يداه ترتعشان. " قبل بضعة أشهر سار سابور إلى بلاد ما بين النهرين، وضربَ حِصاراً حول مدينة أميدا "

لم أُدهَش لأنَّ سابور هاجمنا قدر دهشتي بأنَّ الخبرَ أُخفيَ عني. في الحالة العادية لم يكن يسقط رأسٌ واحد في الإمبراطورية دون أن يُشاعَ نبأه على بُعد أميال في الحال، كالريح – كلا، بل أسرع، كأشعة الشمس. لا أحد يعلم كيف تنتقلُ الأخبار أسرع من الرجال والأحصنة، ولكن هذا ما يحدث. ومع ذلك لم ينتشر ذلك الخبر. وبُحتُ بهذا له.

أومأ فلورنتيوس، وقال " لقد أبقى الأوغسطوس الأمر سرّياً قدر الإمكان. أنتَ تعلمُ كيف هو "

كان جزءٌ من مهمَّة فلورنتيوس أنْ يتَّصِلَ بي ويُدليَ بملاحظاتٍ استنباطية ماكرة عن قسطنتيوس، آملاً أن يستدرجني إلى الجهر بعواطف خائنة. لكنني لم أقع أبداً في فخّه، وعلِمَ هو أنني لن أفعل؛ ومع ذلك واصلنا ممارسة اللعبة المعتادة، كأولئك العجائز

الذين نراهم في القُرى يجلسون ساعة بعد ساعة، وسنة بعد أخرى، يمارسون معاً لعبة الداما، ويقومون بالحركات والحركات المضادة نفسها حتى آخر حياتهم.

أصابتني الحيرة. " لماذا يُريد أنْ يُبقي الأمر طيَّ الكتمان؟ "

" لأنه، أيها القيصر، كارثة ". أخرجَ فلورنتيوس كيسَ نقوده المصنوع من جلد الظبي وأخذ يعبث بالقطع الذهبية. " لقد دُمِّرَتْ أميدا "

لم أكُنْ لأتأثَّر أكثر لو أنه قال إنَّ إنطاكية أو القسطنطينية قد وقعَتْ بأيدي البرابرة. لقد كانت أميدا أشد مُدُن حدودنا أهمية ، ومن المفترض أنها منيعة.

" لقد حوصِرَتْ المدينة طوال ثلاثةٍ وعشرينَ يوماً. لديَّ سردٌ كامل من أجلك، إذا ما أردتَ أنْ تدرسَ الوضع. كانت هناك سبعة فيالق داخل أسوار المدينة. تلك القوات، إضافةً إلى السكان، تعني أنَّ مئةً وعشرين ألف نسمة كانوا يحتشدون داخل مساحةٍ صغيرةٍ. عانوا الأوبئة، والجوع، والعطش. سابور نفسه كان يُحاربُ في الصفوف الأولى. ولحُسن الحظ، قاتلنا بشكل أفضل، وخسرَ سابور ثلاثينَ ألفاً من رجاله "

" لكنّنا فقدنا أميدا؟ "

" نعم، أيها القيصر "

" ما العمل الآن؟ "

" يُخطِّطُ الأوغسطوس للانتقال إلى إنطاكية لقضاء فصل الشتاء فيها. وفي الربيع التالي سوفَ يشنُ هجوماً ضخماً على بلاد فارس. لقد أقسمَ على استعادة أميدا.

" وسابور؟ "

" لقد انسحبَ إلى تسيفون ليُعِدَّ.. مَنْ يدري ماذا يُعِدّ؟ "

جلسنا صامتَين بينما ضوء النهار يختفي خلف الأشجار. كان الهواء الدافئ مُترعاً برائحة الطبخ، وضَحك الرجال، وقرقعة معادن، وصهيل الجياد؛ نبحَ كلب أحد الجنود. فكَّرتُ في أميدا، مُدَمَّرةً.

" طبعاً، الأوغسطوس سوف يحتاجُ إلى كل القوات التي يستطيع أن يحشدها ". بادرتُ إلى قول هذا، لعِلمي أنَّ هذا هو سبب مجيء فلورنتيوس لمقابلتي.

" نعم، أيها القيصر "

" هل حدَّدَ بالضبط ماذا يريد مني؟ "

" كلا، أيها القيصر. ليس بعد "

" لديّ، في الإجمال، ثلاثة وعشرون ألف رجل، كما تعلم "

" نعم، أيها القيصر. أعلم "

" ومعظم رجالي من المتطوعين الغاليين. لقد انضمّوا إليّ شريطةَ ألاّ يُحاربوا إلاّ في بلاد الغال لكي يحموا ديارهم "

" إنني أعي هذا، أيها القيصر. لكنّهم أيضاً جنودٌ رومان. وقد أقسموا على عهد الولاء للإمبراطور. ويجب أن يطيعوه "

" ومع ذلك، لا أستطيعُ أنْ أضمنَ كيف ستكون ردّةُ فعلهم إذا نقضتُ العهد الذي قطعته لهم "

" دعْ هذه المسؤولية عليَّ، أيها القيصر ". نحَّى فلورنتيوس كيس النقود جانباً.

" لا يمكن فعلُ أيّ شيء في بلاد الغال من دون إذني، أيها الحاكم. إنَّ المسؤولية كلها تقع على كاهلي ". تركتُ هذا الإقرار القاسي يسقطُ بيننا كسقوط بلاطة من الرخام في المكان.

قال فلورنتيوس بأدب، مع أثرٍ خفيفٍ فقط من سخريته المعتادة، " فلتكُنْ مشيئة القيصر ". نهضنا معاً. وعند فتحة الخيمة، توقفَ. " هل لي أنْ أقابل العميل غودنتيوس؟ "

لم أكنْ أقلّ منه رقّة. " ألمْ تتحدث إليه للتو؟ ولكن طبعاً تستطيع. اسألْ كبير حُجّابي. هو يعرف أين يجده. أنا متأكّد من أنكَ ستجد غودنتيوس في أتمّ صحّة، وغزير الأخبار، كعهده دائماً "

حيّاني فلورنتيوس. ثم اختفى داخل الشَفَق. جلستُ وحدي فترةً طويلةً. كان من واجبي أن أدعَ قسطنتيوس يحصل على كل ما يُريدُ من جنود؛ ولكن إذا أرسلتُ الغاليين إلى آسيا سأخون العهد الذي قطعته لهم؛ وسوف يضعُف مركزي إلى درجةٍ قاتلة كآمر. ما العمل؟

خلال الأيام القليلة التالية، أصبحتْ أدقّ التفاصيل عن سقوط أميدا معروفة لدى أفراد الجيش. وعلِمنا أيضاً أنَّ قسطنتيوس أرسلَ بولس " السلسلة " إلى الشرق لكي

يُدير مُحاكمات بالخيانة. كان ذلك هو رد فعل قسطنتيوس المحتوم : لابد أنَّ أي هزيمة هي من عمل خَوَنَة. وطوال فصلٍ كامل عاث بولس في آسيا فساداً، وتمَّ نفيُ أو إعدامُ عددٍ من الرجال الأبرياء.

ما تبقَّى من ذلك الصيف أمضيته في الراين، أتعاملُ مع الملوك الجرمان، أحياناً بقسوة، وطوراً بسماحة. إنَّ الجرمان بفطرتهم خونة، وكلمتهم لا وزنَ لها. إنهم عويصون. لو أننا أبعدنا بلدهم- الغابة عنهم، لفهِمتُ ازدواجيتهم المستمرة : إنَّ حبَّ المرء لأرضِه شائع بينهم جميعاً، حتى بين البرابرة. لكنَّ الأرض والمُدُن التي أخذناها منهم ليست لهم، بل هي لنا، وكانت بحوزتنا منذ قرون وهم خرَّبوها. ومع ذلك كلما خُرِقَتْ معاهدة، يكونون هم مَنْ فعلَ ذلك. وكلما وقعَ أمرٌ شائن، يكونون هم مصدره.

لماذا الجرمان هكذا؟ لا أدري. من الصعب فهمُهُم، حتى أولئك الذين تلقّوا ثقافتهم على أيدينا (منذ أيام يوليوس قيصر ونحن نتّخذ أبناء الملوك رهائن ونُحضّرهم، ولكن بلا طائل!). إنهم جامحون بالفطرة؛ يحبّون القِتال بقدر كراهية الإغريق والرومان له.

من أجل السيطرة على ذلك كله، كان من الضروري أنْ أحظى بسُمعة الصرامة. وقد حقَّقتُ ذلك. أعدمت ملوكاً نكثوا بوعودهم. عبرتُ الراين كلما شئتُ. كنتُ قاسياً. كنتُ عادلاً. وقد أدركَ الجرمان ببطءٍ أنني جادٌ في إبقائهم في جانبهم من نهر الراين وأنَّ كلّ مَنْ يُفكّر في التمرُّد عليّ سيُقضى عليه. وحين غادرتُ بلاد الغال، كان السلام يسودُ المقاطعة.

- ١٣ -

فصل الشتاء الثالث والأخير الذي أمضيته في باريس كان حاسماً. لم يكنْ قد وصلني أي نبأ عن قسطنتيوس بشكلٍ مباشر أو غير مباشر منذ لقائي بفلورنتيوس. وفضَّلَ الحاكم الإمبراطوري أنْ يمكث في فيين بينما بقيتُ أنا في باريس. لم نتقابل، على الرغم من أنَّ الوثائق كانت دائماً تنتقل بيننا. ولما كنتُ واعياً لاقتراب حدوث أزمة في شؤوننا، اقترحتُ في وقتٍ من الأوقات على فلورنتيوس أنْ ينضمَّ إليّ ويقضيَ فصل الشتاء في باريس. لكنه رفض. من الواضح أنه أرادَ أنْ يحتفظ بما لديه من سلطة. في المبدأ كنتُ سيد بريطانيا، وبلاد الغال، واسبانيا ومراكش. أما الواقع فهو أنَّ فلورنتيوس كان يُدير ذلك الجزء من الغال الذي يقع إلى الجنوب من فيين ، بالإضافة إلى اسبانيا ومراكش. وسيطرتُ أنا على بريطانيا. في ذلك الوقت، كان بيننا اتفاقٌ ضمنيٌ على ألاّ يتدخَّل أيٌ منا في مناطق الآخر.

ازدادت حالة هيلينا الصحيّة سوءاً، وعندما حلَّ الجو البارد، لازَمَتْ سريرها. وتفاقم الألم. فأرسلتُ في طلب أوريباسيوس. لم يُبدِ كثيراً من التفاؤل. " أخشى أنَّ أقصى ما في وسعي أنْ أفعله هو أنْ أُخفِّف عنها الألم. إنها مُصابة بورم خبيث في المعدة. ولا يمكن فعل أي شيء بشأنه ". وأخبرني عن نوعٍ جديد من الأعشاب اكتشفَه يجعلُ اللحم يفقد الإحساس.

كان أوريباسيوس رفيقاً مواسياً. وكذلك كان بريسكوس، على الرغم من أنه ظلَّ يُهدِّد بالعودة إلى الوطن. كانت زوجته هيبيا قد بعثَتْ إليه بعدد من الرسائل الغاضبة، وكان يشتاقُ إلى أثينا، على الرغم من أنه أنكَرَ ذلك. إنَّ بريسكوس دائماً يحب أنْ يظهر بأنه معدوم الإحساس أكثر مما هو فعلاً. وكان يوثريوس مصدراً لا ينضب من الذكاء. ولكن إذا استثنينا أولئك الأصدقاء الثلاثة، كنتُ منعزلاً تماماً. كان رئيس

أركاني لوبيسينوس، الذي حلَّ محل سالوست، مُتعجرفاً وجاهلاً، بينما سينتولا، آمرُ سرايا الخيّالة، لم يكن يصلح رفيقاً. أما نيفيتا، ذلك الضابط الرائع، فاحتفظتُ به في كولونيه، لكي يحرس الراين.

كتبتُ بدافع اليأس رسائلَ إلى أصدقاءَ قُدامى، أدعوهم إلى باريس. وأولئك الذين يُحبّون الصيد وعدتُهم بعددٍ وافرٍ من الغزلان وبطقسٍ معتدل. وللفلاسفة مدحتُ لهم مباهجَ الحياة الفكرية الباريسية، على الرغم من أنه لم يكن هناك غير الأسقف الجليليّ وبطانته، الذي كنتُ أحافظُ على وجودِ مسافةٍ بيننا. ولكن لا أحد جاء. حتى ماكسيموس لم يكن قادراً على القيام بتلك الرحلة، على الرغم من أنه كان كثيراً ما يُكاتبني، بشِفرةٍ من ابتكاره.

في ذلك الوقت تقريباً، شهر تشرين ثاني أو كانون أول، رأيتُ حُلماً نبوئياً. فخلال نوبة الحراسة الثالثة ليلاً استغرقتُ في النوم، من شِدَّة تعب إملاء الملاحظات التي أضحتْ لاحقاً تعليقاً على معركة ستراسبورغ. وكما يحدثُ غالباً حين يشغلُ بالي أمرٌ معيَّن، حلمتُ أولاً بالمعركة. ثم اختفَتْ المعركة، كما يحدثُ في الأحلام، ووجدتُ نفسي في غرفة رحبة في مركزها نَمَتْ شجرةٌ باسقة؛ وفي ذلك الوقت بدا ذلك أمراً طبيعياً تماماً. ولكنَّ الشجرة سقَطَتْ على الأرض، ولاحظتُ أنَّ شجرةً أصغر تنمو من بين جذورها، وأنَّ الشجرةَ الأصغر لم تُجْتَثْ من جذورها جرّاء سقوط أبويها. سمعتُ نفسي أقول " لقد ماتت الشجرة. والآن ستموت الشجرة الأصغر، أيضاً ". وامتلأتْ نفسي بشفقةٍ غامرة على ما حدث. وفجأةً وعيتُ وجودَ رجلٍ إلى جانبي. أمسكني من ذراعي. ولكن على الرغم من أنني لم أميِّز قَسَمات وجهه، لم يبدُ لي غريباً. " لا تيأسْ"، وأشارَ بيده، " أترى؟ إنَّ جذورَ الشجرة الصغيرة ممتدة في الأرض. وما دامت هناك، سوف تنمو، بل ستكون آمنة أكثر من ذي قبل "

ثم انتهى الحُلم، وعلِمتُ أنني تحدثتُ إلى إلهي الحارس، هرمز.

حين أخبرتُ أوريباسيوس بهذا، فسَّرَه بأنه يعني أنَّ قسطنتيوس سوف يسقط وأني سأزدهر، وستتغلغلُ جذوري في الواحد الكُلّي المعرفة. ولا حاجة إلى القول إننا أبقينا ذلك الحُلم طيَّ الكتمان. لقد كان الناس يُعدَمون بانتظامٍ بسبب أحلامٍ بريئة وحُلمي كان بعيداً عن البراءة. كان نبوءة.

*

في شهر كانون أول عكَّرَ صفوَ سكون بلاطنا خبرٌ يقول إنَّ البكتيين والاسكتلنديين الذين يسكنون شمال بريطانيا يُهدِّدون الحدود. واستنجد حاكمنا لإرسال تعزيزات. كنتُ في ورطة. كان لديّ قوات قليلة كافية وكنتُ أعلمُ أنَّ فُرَصي حتى بالاحتفاظ بها قليلة جداً لأنَّ إشاعةً كانت تدورُ أنَّ القيصرَ في الغال سيُجرِّد من جيشه يوم سيُهاجِمُ قسطنتيوس الفرس. لكنَّ بريطانيا كانت ذات أهمية اقتصادية عُظمى بالنسبة إلينا. ولأنَّ عديداً من المزارع الغاليّة كانَ قد نَهَبَها الجرمان، اضطُررنا في ذلك العام إلى الاعتماد على القمح البريطاني لإطعام شعبنا.

قمتُ باستشاراتي وقرَّرتُ أنْ يذهبَ لوبيسينوس من فوره إلى بريطانيا. لقد كانَ آمراً جيداً، على الرغم من أننا كثيراً ما تساءلنا إنْ كان طمّاعاً أكثر منه قاسياً، أم كانَ عكسَ ذلك..؟

في يوم وصول لوبيسينوس إلى بريطانيا، وصل التريبون ديسنتيوس، وهو سكرتير الدولة الإمبراطوري، إلى باريس مع بطانةٍ ضَخمةٍ من المُحامين وموظفين في خزانة الدولة. وقبل أن يأتي إليّ، أمضى بضعة أيام في فيين مع فلورنتيوس. لم يُعجبني ذلك التصرُّف، بما أنَّ العادة تقضي بأنْ يُقدِّم واجب الولاء للقيصر أولاً.

كان ديسنتيوس مُرهَقاً حين وصل. فسمحتُ له بالجلوس أثناء قراءته رسالة الإمبراطور. كانت نبرتها ودّية، لكنها باتّةً في مطالبها. إذ كانَ عليَّ أنْ أُرسِلَ إلى قسطنتيوس فيالقي الإيرولية، والباتافيانية، والكلتيّة والبتولانتية - وهي أفضل ما عندي - إضافةً إلى ثلاثمئة رجل من كلٍ من الفيالق المُتبقّية. وكان عليها أنْ تتوجَّه إلى إنطاكية من دون تأخير، لكي تصل في الوقت المُحدَّد لشن هجومٍ ربيعي على بلاد فارس.

بعد انتهاء ديسنتيوس، قلتُ له بأشد ما استطعتُ من هدوء، " إنه يريدُ أكثر بقليل من نصف جيشي "

" نعم، أيها القيصر. سوف تكونُ حرباً صعبة في بلاد فارس. وقد تكون حاسمة "

" هل وضعَ الإمبراطور في حِسبانه الأثر الذي سيتركه هذا الإجراء على الجرمان؟ إنَّ جيشي صغير في الأصل. فإذا تُركَ لديَّ أقلّ من اثني عشر ألف جندي - وهم الأسوأ - فإنَّ الجرمان سيهاجمونني من جديد من دون أدنى شك "

" لكنَّ الأوغسطوس فهِمَ من تقاريركَ أنَّ بلاد الغال يسودها السلام منذ جيل من الزمن، بسبب انتصاراتك العظيمة ". تساءلتُ إنْ كان ديسنتيوس قد حفظَ هذا مُسبقاً أم أنه وليد اللحظة أم انَّ قسطنتيوس قد وصَّاه أنْ يُزعجني بأرقّ طريقة ممكنة.

" ليس هناك مقاطعة يسودها السلام التام. فمادام الجرمان أحياء، نحنُ في خطر"

" ولكن ليس هناك من خطرٍ داهم، أيها القيصر. ألا توافقني؟ "

" كلا، أيها التربيون، لا أوافقك. أيضاً، في هذه اللحظة، هناك مشكلة خطيرة في بريطانيا "

" المشاكل دائماً موجودة، أيها القيصر. ومع ذلك، في سياق الحرب القائمة ضد الفرس، يشعرُ الإمبراطور بأنَّ عليه أنْ يضمَّ إليه أفضل ما في جيوشه؛ يشعر... "

" هل يعي العهد الذي قَطَعتُه للجنود الغاليين بألاّ يُقاتلوا خارج حدود مقاطعتهم؟"

" إنَّ وعدكَ لهم يُبطِله تعهّدهم للأوغسطوس ". قال هذا بلهجة قانونية حادّة.

" هذا صحيح، ولكن يجب أنْ أحذِّركَ، أيها التربيون، بأنَّ هناك فرصة لحدوث عصيان "

نظرَ إليّ بإمعان. كنتُ أعرفُ فيمَ يُفكِّر. هل سينتهزُ هذا القيصر المُفتَرَض أنه غير طموح الفرصةَ ليفتعِلَ عصياناً ويغتصب عرش الغرب؟ إنَّ رجال البلاط لا يأخذون الأمور بظواهرها. فحين قلتُ إنَّ الجنود قد يُعلنون العصيان، فَهِمَ هو هذا على أنه تهديدٌ بأني، إذا ما تمَّ استفزازي، فسوف أدفعهم إلى التمرُّد.

قلتُ بعناية " إنني مُخلِصٌ لقسطنتيوس. وسوف أنفِّذُ ما أمرني به. إنني أحذِّركَ فقط من أنه ربما تحدث مشاكل. حتى ذلك الحين، يجب أنْ ننتظر على الأقلّ مدةَ شهرٍ قبل إرسال القوات إلى الشرق "

باشرَ ديسنتيوس بالقول " لقد قال الأوغسطوس فوراً... "

قاطعتُه. " أيها التربيون، بينما نحن جالسان هنا، الفيالق التي طلبَها تمخرُ الآن البحر، في طريقها إلى بريطانيا "، وأخبرتُهُ عن لوبيسينوس. ولكن لكي أُظهِرَ قوّةَ إيماني، سمحتُ له بالاستماع إليّ وأنا أُملي رسالةً موجَّهَةً إلى لوبيسينوس آمره فيها بالعودة من بريطانيا. وبعد الانتهاء منها أرسلتُ ديسنتيوس إلى سينتولا وأصدرتُ

الأوامر بأنْ يُطاعَ التربيون دون نقاش. ومع نهاية الأسبوع، كان بعضٌ من أفضل جنودي قد غادروا إلى إنطاكية. لابد أنَّ الماكر ديسنتيوس قد وَعَدَهم بهبات سخيّة متنوِّعة، لأنهم غادروا بمزاجٍ أفضل مما كنت أعتقد أنه ممكن.

وهناك الآن مَن يعتقدون عند هذه النقطة أنني خطَّطتُ للخروج عن طاعة قسطنتيوس وتنصيب نفسي أوغسطوس الغرب. وهذا غير صحيح. لن أُنكِر أنني فكّرتُ حقّاً في ذلك كإمكانية - كان من المستحيل ألاّ أفعل. فقبل كل شيء أصبحَ الراين آمناً وهيمنتُ على ثُلث العالم، بفضل جهودي. ومع ذلك، لم أكنْ تواّقاً إلى أنْ أخرج عن طاعة قسطنتيوس. لقد كان أقوى مني. الأمر بهذه البساطة. أيضاً، لم تكن لديَّ رغبة في تحدّي ابنَ عمي في ذلك المجال الوحيد الذي كان مُبرِّزاً فيه : الاحتفاظ بعرشه.

لكنني صُدِمتُ أيّما صدمة حين أصرَّ ديسنتيوس على أنْ آمُرْ قواتي المُتبقيّة في بلاد الغال كلها بالتجمُّع في باريس لكي ينتقي منها أفضلها من أجل حملة بلاد فارس. وتناقشنا أياماً عِدَّة حول هذا. إلى أنْ هدَّدتُ بالتنحّي عن منصبي إذا وافقَ ديسنتيوس على الإنفاق على حاميات الراين إلى أقصى مدى. ثم أمرتُ جيشَ الغال بالانتقال إلى باريس. فرضخَ الجميعُ إلى أمري، ما عدا لويبسينوس، الذي كتبَ يقول إنه لا يمكن أن يعودَ إلى باريس قبل شهر نيسان. وتذمَّرَ ديسنتيوس بمرارة، ولكن لم يكن في يدي حيلة.

بحلول الأسبوع الثاني من شهر شباط حين كانت الفيالق تُخيِّمُ على كِلا ضَفَّتَيِ النهر، سقطَ قِناع ديسنتيوس المُتملّق. لم يعُدْ يتملّق؛ أصبحَ يأمُر. وكان يوثريوس معي حين ضرب التربيون الطاولة بقوة في النهاية وصرخَ " إذا لم تتحدَّث إلى الفيالق، فسأفعل أنا، باسم قسطنتيوس! ". قلتُ له باعتدال إنه لا حاجةَ به إلى الصراخ في وجهي أو أنْ يقوم بالعمل نيابةً عني. ثم صَرَفتُهُ. وبقيتُ مع يوثريوس وحدنا في غرفة الاجتماع. تبادلنا النظرات؛ هو بقلق، وأنا ببؤس.

أخيراً قلت " حسنٌ، يا صديقي العزيز، ماذا أفعل؟ "

" كما أُمرتَ. إلاّ إذا... " وسكتَ.

هززتُ رأسي نفياً. " كلا، لن أدخُل في لعبة التمرُّد "

" إذن قُل للرجال إنكَ قد أُمِرتَ بإرسالهم إلى الشرق. والباقي "، قال الكلمة الأخيرة ببطء، وتشديد، " عائدُ إليهم "

اليوم التالي كان الثاني عشر من شهر شباط. استيقظتُ مع انبلاج الفجر. أعطيتُ الأوامر إلى حاشيتي بأنْ يُعَدَّ العشاء للضباط كلهم في ذلك المساء؛ وأنْ يكونَ سخيّاً. أمرتُ بإحضار أفخر الخمور في أقبية القصر، وبإعداد أنواع لحوم الطيور والماشية كافة. وعلى الرغم من افتخاري بتقشُّف مائدتي الخاصة، إلاّ أنني هذه المرة اخترتُ أنْ أكونَ مُسرِفاً.

ثم انطلقتُ أتجولُ بين صفوف الجيش، لا يصحبني غير حامل رايتي. كانت أنفاسنا متجمِّدة ونحنُ نقرقعُ أثناء عبورنا الجسر الخشبي إلى الضفة اليسرى. شققتُ طريقي خلال المُخيَّم. تحدَّثتُ مع الرجال، كلٍ على حدَة، وفي جماعات. كان حديثاً ودّياً، وسرعان ما كوَّنتُ فكرة عن مزاجهم. كانوا مُتعاطفين معي، وتخامرهم الريبة نحو قسطنتيوس. لم تكن هناك أسرار تخفى على أي جيش.

حين وصلتُ إلى مُخيَّمات البيتولانتيين، المُفضَّلين لديَّ بين الفيالق، توقفتُ لأتحدث مع مجموعةٍ كبيرة منهم. ثرثرنا بخفّة ولكن بحَذَر. وأخيراً، تقدَّمَ أحدهم وفي يده رسالة. حيّاني. " أيها القيصر، ليس بيننا مَنْ يُحسِن القراءة ". تصاعدت بعض الضحكات على تلك الخِدعة البيِّنة، ذلك أنَّ أكثر من نصف البيتولانتيين متعلِّمٌ بقدرٍ معقول. " حين جئنا إلى هنا، وجدنا هذه عند باب الكنيسة "، وأشارَ إلى منزل الموتى القريب، وهو معبد لفيستا حوَّله الجليليون. " اقرأها لنا، ايها القيصر "

قلت بودّ " هذا إنْ استطعتُ؛ فهي باللاتينية، وأنا مجرَّد آسيوي، مُتأغرِق... " فدفعهم ذِكرُ نعتَين من النعوت المسلّية التي يُطلقونها عليَّ إلى الضحك. كانت الرسالة مكتوبة باللاتينية التي يتكلّمها الجنود. وباشرتُ بالقراءة. " أيها الرجال البيتولانتيون، قريباً سيتمُ إرسالنا إلى آخر الأرض كالمجرمين... ". توقفتُ، وقد بَهَرَني برهةً ضياءُ الشمس الشاحب الذي كنتُ قد استدرتُ غريزياً تقريباً نحوه، وكأنما طَلَباً للإرشاد. هتفَ الرجالُ بتجهُّم " تابع، أيها القيصر! ". كانوا يعلمون مسبقاً مُحتوى الرسالة المجهولة المُرسِل. هززتُ رأسي رفضاً وقلتُ بصرامة " هذه خيانة في حق الإمبراطور "

رميتُ الرسالة على الأرض وحثثتُ جوادي ليسير في المكان. " ولكن ليس في حقك! "، هكذا صرخَ الرجل الذي كان قد أعطاني الرسالة. نخستُ حصاني وخببتُ، وحامل الراية يمشي بتراخٍ ورائي، عائداً إلى الجزيرة. وحتى يومي هذا لا أعلمُ مَنْ كَتَبَ الرسالة؛ وطبعاً، اتُّهِمتُ بأني أنا الذي كتبتُها.

بُعَيد الظهيرة وصل الضباط إلى القصر. استقبلتُهُم في قاعة الولائم الكبرى التي جُعِلَتْ بطريقةٍ تبدو بهيجةً خلال تلك الفترة الوجيزة. فقد زُيِّنَتْ الجدران والعوارض الخشبية بأكاليل من الأغصان الدائمة الخُضرة بينما كانت المجامر المشتعلة تكسر حِدَّة البرد. كانت أكثرَ الولائم التي أقمتها حتى الآن كِلفةً. ولم تنضم هيلينا إلينا بسبب شدَّة وطأة المرض عليها، لذا قمت بواجب الضيافة وحدي. جلسَ ديسنتيوس إلى يميني، وأَخذَ يُراقبني بعناية. لكنَّني لم أقُل أو أفعل أي شيء يُثير الانتباه.

حين بدأ الضباط يزدادون صَخَباً بفعل الخمر، قال ديسنتيوس " حان الوقت الآن لتُخبرهم بأنَّ عليهم أنْ يُغادروا في غضون أسبوع "

وقمتُ بمحاولةٍ أخيرة. " " أيها التريبيون، في شهر نيسان ستصل الفيالق من بريطانيا إلى هنا. فإذا انتظرنا حتى ذلك الحين... "

" أيها القيصر "، انتقل ديسنتيوس بسرعة من الوقاحة إلى العقلانية المُرائية، "إذا انتظرتَ حتى ذلك الحين، سيقول الناس إنَّ الفيالق البريطانية أجبرَتكَ على إطاعة الأوغسطوس، أما إذا أصدرتَ أوامركَ الآن، فسيقولون إنه اختيارُك أنت، وإنكَ حقّاً سيد بلاد الغال، بالإضافة إلى أنكَ مخلصٌ للأوغسطوس "

لم يكن هناك أي شكٍ في هذا. وشعرتُ بالفخ يبرز. استسلمتُ. وافقتُ على إعلان القرار في آخر العشاء. هل كان في نيَّتي أي خطَّة سرّية؟ لا أعتقد ذلك. ومع ذلك يميلُ المرءُ في اللحظات الهامة في حياته إلى أنْ يفعل فطرياً ما يلزم ليُحافظ عليها.

خلال المأدبة، كان ضباطٌ صِغار يُحيّونني على فترات، خرقاً لآداب السلوك. وعند نقطةٍ معيَّنة، غمغمَ يوثريوس في أذني " لقد خرقتَ كل قاعدة تحكُم مائدة القيصر "، فابتسمتُ بودّ. كانت تلك نكتة قديمة نتبادلها. و " مائدة القيصر " هو تعبيرٌ مُبطَّن يُشيرُ إلى القيود التي فرضَها قسطنتيوس عليَّ.

عند نهاية العشاء، ألقيتُ بضع كلمات على الضباط، الذين كانوا عندئذٍ في مزاجٍ

يؤهّلهم لفعل أي شيء من التمرُّد إلى القتال. قلتُ لهم إنني للمرة الأولى في حياتي أحسدُ قسطنتيوس، ذلك أنه يوشك أن يستقبل أفضل الجنود في العالم ويضمّهم إلى جيشه. سَرَتْ همهمةٌ لدى سماعهم هذا، ولكن لا أكثر. كنتُ حريصاً على ألاّ أتلاعب طويلاً بعواطفهم. واخترتُ ألاّ أثيرهم.

بريسكوس : ومع ذلك حصل.

جوليان أوغسطوس.

بعد كثيرٍ من العناق والدموع، انتهتْ المأدبة. رافقتُ الضباط حتى الساحة أمام القصر. عند يمين الباب الرئيسي، كانت هناك منصَّة عالية من الحجر تُعلَن من فوقها القرارات. وقفتُ عند أسفلها، بينما أخذَ الضباطِ يتنقَّلون حولي بحركة دائرية مُتقلقلة. وبينما كنتُ أودِّعُ هذا وذاك، لاحظتُ أنَّ حشداً غفيراً قد تجمَّعَ في الأروقة المُقنطَرَة التي تحدُّ الساحة من الجانبين. وحين لاحظ الناس وجودي، اندفعوا نحوي. وفي الحال استلَّ حُراسي سيوفهم وتحلَّقوا من حولي. لكنَّ الحشد لم يكن عِدائياً. كانوا في غالبيتهم من النساء والأطفال. ناشدوني كي لا أرسل ازواجهم بعيداً. إحدى النسوة لوَّحَت بوليدها أمامي كراية تصرخ، " لا تُرسل أباه بعيداً! ليس لدينا غيره! "

صرختْ أخريات، " لقد وعدتنا، أيها القيصر! لقد وعدت! "

أشحتُ بوجهي بعيداً، غير قادرٍ على تحمُّل صراخهنّ. عند الباب المؤدي إلى داخل القصر، كان ديسنتيوس مُستغرقاً في حديثٍ مع العميل السرّي غودنتيوس. قَطَعا حديثهما مع إحساسٍ بالذنب حين شاهداني أقترب. قال ديسنتيوس "إنه صديقٌ قديم"

قلتُ بحِدَّة " أنا واثقٌ من ذلك "، وأشرتُ إلى الحشد، " ألا تسمعانهم؟ "

رماني ديسنتيوس بنظرة خالية من التعبير لبرهة. ثم نظرَ إلى الساحة. " آه، نعم. نعم. إنَّ هذا أمرٌ اعتيادي جداً في المقاطعات. النساء دائماً يشتكين حين يصدر الأمر برحيل الرجال. بعد أنْ تقضي في الجيش قدر ما قضيتُ، لن تُلاحِظ بعدها وجودهم "

" أخشى أني أجدُ من الصعب عليَّ ألاّ ألاحظَ وجودهم. في الواقع، لقد وعدتهم... "

لكنَّ ديسنتيوس كان قد سمعَ ما يكفيه عن وعدي الشهير. قال، وكانت نبرة

صوته أبويّة، " يا عزيزي القيصر، تلك النسوة سوف تحصل كلُّ واحدة منهنَّ على رجلٍ جديد حالما يحلُّ الطقس الدافئ. إنهنَّ حيوانات. لا أكثر "

تركتُه في الساحة وتوجَّهتُ مباشرةً إلى غرفة المكتب الكائنة في الطابق الثاني. أرسلتُ في طلب بريسكوس، وأوريباسيوس ويوثريوس. أثناء انتظار وصولهم، حاولتُ أنْ أقرأ لكنني لم أستطع أنْ أركِّز. عددتُ آجُرَّ الأرضية. تمشّيتُ جيئةً وذهاباً. وأخيراً، فتحتُ النافذة المُطلّة على نهر السين ونظرتُ منها. كان الهواء البارد مُنعشاً. التَهَبَ وجهي وكأنني مُصَابٌ بالحُمَّى. ارتعشَتْ يداي. استنشقتُ أنفاساً عميقةً، وبدأتُ أعُدُّ كُتلَ الجليد المكسورة وهي طافية مع السيل. وصلّيتُ لهليوس.

كان يوثريوس أوَّل الواصلين. أغلقتُ النافذة. أومأتُ له أن يجلس على كرسيّي؛ فبسبب حجمه لم يكن هناك غيره يحمله وكان يكسر القاعد عليه بلا ظهر.

قال " إنها مؤامرة. إنَّ لدى قسطنتيوس جيشاً قِوامه تقريباً مئة ألف رجل في سوريا. وجيشك الغاليّ لن يُشكِّلَ أيَّ فرق "

" لكنه سيشكِّل فرقاً بالنسبة إليّ، إذا خسرته "

" سيختلف الأمرُ معكَ أنت. وهذه هي المؤامرة؛ إنه يريدُ أنْ يُدمِّرك "

دُهِشتُ من يوثريوس. فمن بين اصدقائي كلهم وناصحيَّ كان الوحيد الذي يوصيني دائماً بالحَذَر. كان يحب الشكل الحسن، والعدالة، وإجراءات الدولة المنظَّمة في وقت السِلم. ولم يكن من النوع الخائن. لكنّه تغيَّر.

" أتعتقدُ هذا؟ "

أومأ يوثريوس إيجاباً، وومضَتْ العينان الصغيرتان السوداوان كعَينَيّ تمثالٍ مصري.

" فماذا يجب أنْ أفعل؟ "

هنا دخلَ أوريباسيوس وبريسكوس. وسمعا سؤالي. أجاب أوريباسيوس نيابة عن يوثريوس. قال على عَجَل " تمَرَّدْ ". اقسِمْ بهيليوس وبميثراس وبشفيعي هرمز، على أنَّ تلك كانت أول كلمة معقولة مرَّتْ بيننا صراحةً. ورانَ صمتٌ تام. جلسَ بريسكوس على حافة طاولتي الخشبية الثقيلة. ووقفَ أوريباسيوس في منتصف الغرفة، يُحدِّقُ بصمتٍ إليّ. استدرتُ نحو بريسكوس.

" ما رأيكَ؟ "

" يجب أنْ تضع في حسبانكَ كلَّ شيء. هل تستطيع أنْ تبقى في بلاد الغال من دون تلك القوات؟ إذا كنتَ تستطيع، ماذا يمكن لقسطنتيوس أنْ يفعل؟ هل سيعزلك؟ أم انه سيكون شديد الانشغال في بلاد فارس فلا يفعل أيَّ شيء؟ "، وأجابَ بريسكوس عن سؤاله، " أشكُ في أنكَ لم تسمع أخبار قسطنتيوس منذ بعض الوقت. يجب أن يستعيد أميدا ويهزمَ سابور. قد يكون ذلك هو إنجاز حياته. وحتى ذلك الحين، أنتَ سيد الغرب، وإذا مات، أنت الإمبراطور "

أومأ يوثريوس موافقاً. " هذه هي وجهة النظر العاقلة، طبعاً ". ابتسمَ. " لأنها كانت وجهة نظري طوال الوقت. ومع ذلك أعتقدُ أنَّ الوضعَ أخطر بكثير من هذا. لقد نسيتَ فلورنتيوس. إنَّ عملائي يُخبرونني أنه سيُعطى كامل السلطة في بلاد الغال حالما يفقد القيصر جيشه. وعندئذ، لن يبقى أمامنا إلا أنْ نرضخ. وبصراحة، أعتقدُ أنه من الأفضل أنْ نُقاومَ الآن على أنْ ننتظر حتى يُدمِّرنا فلورنتيوس "

بينما كانوا يتحدثون، انسحبتُ مرةً أخرى إلى النافذة وراقبتُ الشمس برتقالةً شتوية مُرَّة، تغوص نحو الغرب. تلظَّت نيران الليل على ضفَّتَي النهر. ما العمل؟ فجأةً سمعتُ ضرباً عنيفاً على الباب. فتحتُه بغضب، وأعلنتُ " يجب ألاّ يُزعجنا أحد... "

لكنَّ ديسنتيوس كان بالباب، شاحب اللون ومضطرباً، وحياني على عَجَل "أعتذرُ ألف مرة، أيها القيصر، ما كان ينبغي أنْ أزعجكَ، ولكنهم وصلوا! "

" مَنْ الذي وصل..؟ أين؟ "

" ألا تسمعهم؟ " كان ديسنتيوس يرتعش من شدَّة الخوف. وخيَّمَ الصمتُ علينا ورحنا نُصغي إلى ضجيجٍ ناءٍ لرجالٍ يصرخون ونساءٍ يولولنَ.

قال أوريباسيوس " إنه عصيان! ". وهرع إلى النافذة وأطلَّ منها. على الرغم من أنَّ المرءَ في العادة يشاهد فقط النهر وطرف الجزيرة من نافذتي، إلاّ أنه إذا مدَّ عنقه فمن الممكن أنْ يرى الجسر الخشبي إلى الشمال. " إنهم أفراد الفيلق الكلتي. إنهم يعبرون إلى الجزيرة! "

حين انضممتُ إليه عند النافذة، صدَرَتْ صرخة من تحت النافذة مباشرةً. " أيها القيصر! " نظرتُ إلى الأسفل فرأيتُ زمرة من المُشاة تشهرُ سيوفها. لوّحوا إليّ مُهلّلين لكنَّ أصواتهم كانت مُهدِّدة. " لا تدعنا نرحل، أيها القيصر. أبقِنا هنا! "

أحد الرجال، كلتيٌ طويل القامة ضارٍ ذو شاربٍ اشقر وعين بيضاء عمياء، أقحَمَ السيف باتّجاهي وبصوتٍ أجش بسبب خوض عديدٍ من المعارك هدرَ قائلاً، " المجد، للأوغسطوس! المجدُ، لجوليان أوغسطوس! " وردَّدَ الآخرون الهتاف. تراجعتُ عن النافذة. التفتَ ديسنتيوس نحوي. " هذه خيانة! اقبِضْ على أولئك الرجال! "

لكنني نحَّيتُهُ جانباً وهُرعتُ إلى إحدى الغُرَف التي تطلُ على الساحة. أنعمتُ النظرَ من شقٍ في مصراع النافذة. كانت الساحة مملوءة بالجنود ولم يكونوا أبداً سكارى، كما اعتقدتُ في أول الأمر. إنه تمرُّد حقاً.

أمام القصر، وقفَ حَرَسي الخاص بسيوفٍ مسلولة وحِرابٍ مُصوَّبة، لكنَّ الغوغاء لم يبدوا أنهم مستعدون لإثارة العنف. بدلَ ذلك، هتفوا باسمي، وطالبوا بحضوري، وأعلنوا ولاءهم. ثم، وكأنما تلبيةً لإشارة - مَنْ يدري كيف تحدثُ هذه الأمورُ فجأةً؟ أعتقد أنه هرمز - بدؤوا ينشدون، أولاً بمجموعة واحدة، ثم بأخرى، ثم بالحشد كله، "أوغسطوس! أوغسطوس! أوغسطوس! جوليان أوغسطوس! "

ابتعدتُ عن النافذة.

قال ديسنتيوس " هاجمهم! أرِهم صورة الإمبراطور!. لن يجرؤوا على تحدّي تلك "

قلتُ " لدينا أربعمائة جندي في القصر. أما في الخارج فما يُقارب عشرين ألفاً من الرجال. حتى جندي غير متمرِّسٍ مثلي خليقٌ به أن يتجنَّب مثل ذلك النزاع. أما بالنسبةِ إلى صورة الإمبراطور، فأخشى أنهم سُيمزّقونها إرباً "

" هذه خيانة! " كان ذلك كلُّ ما استطاعَ ديسنتيوس أنْ يقوله.

كرَّرتُ بتعقُّل " خيانة "، وكأني أحدِّدُ نجماً معيَّناً لشخصٍ يرغبُ في أنْ يعرف طبيعة السماوات. اندفعَ ديسنتيوس خارجاً من الغرفة.

تبادلنا النظرات، بينما كلمة " أوغسطوس " تترددُ بانتظامٍ في آذاننا كتردُّد الأمواج على الشاطئ.

قال يوثريوس " سوفَ يتوجَّبُ عليك أنْ تقبل "

" أنتَ يا مَنْ طالما نصحتني بأخذ الحَذَر تقول هذا؟ "

أومأ يوثريوس إيجاباً. وكان أوريباسيوس أكثر تشديداً. " هيا. لم يعُدْ لديكَ ما تخسره الآن "

بريسكوس كـان حَذِراً. " إنَّ اهتـمـامي، أيهـا القـيـصـر، هو بالفلسـفـة، ولـيس بالسياسة. ولو كنتُ في مكانك، لانتظرت "

التفتَ أوريباسيوس إليه وقال له بسخط " ينتظرُ ماذا ؟ "

قال بريسكوس بصورةٍ غامضة " ليرى ماذا سيحدث؛ لينتظرَ إشارة "

قبِلتُ هذا الحل بالمعنى الذي رمى إليه بريسكوس. كان يفهمني. كان يعلم أنه إذا لم أؤمن بأنّي حصلتُ على بركَة السماء الجليّة، فلا أستطيع أنْ أتصرَّف بكامل عزمي.

" حسنٌ ". أشرتُ إلى الباب . " أوريباسيوس، تولَّ أمر الحرَس. احرَصْ على ألاَّ يُسمَح لأحدٍ بدخول القصر. يوثريوس، لا تتركْ صديقنا التريبيون يغيبُ عن نظرك. بريسكوس، صلِّ لأجلي " وعلى هذا افترقنا.

في الرواق الرئيسي، كانت إحدى نساء زوجتي في انتظاري. كانت في حالة قريبة من الهستريا. " أيها القيصر، سوف يقتلوننا، كلّنا! ". أمسكتها من كتفيها وهززتُها إلى أنْ اصطكَّت أسنانها؛ في الواقع، لقد عضَّتْ على شفتها السفلى، مما كان له أثرٌ مهدّئٌ فعّالاً. ثم أخبرَتني أنَّ زوجتي تسألُ عني.

كانت غرفة هيلينا مُعتمة الإضاءة ودافئة إلى درجةٍ لا تُطاق. كان مرَضَها يجعلها تطلب الحرارة بشدّة. وكان عبَق البخور والمسك يملأ الغرفة، لكنها لم تستطع أنْ تُخفي العبَق الحلو الحادّ لانحلال اللحم. كنتُ أكره زيارة هيلينا، وبسبب كراهيتي تلك احتقرتُ نفسي.

كانت هيلينا مستلقية على السرير، وكتاب صلاة على الغطاء. كان يقف إلى جوارها أسقف باريس، دجّالٌ رصين كان أقرب أصدقائها ومستشاريها. حيّاني. "أجرؤ على القول إنَّ القيصر يريدُ أنْ يتحدَّث إلى الملكة وحدهما... "

" نعم، لقد تجرّأتَ، أيها الأسقف. وأنتَ على حق ". انسحبَ الأسقف وسط دوامة أثوابه الفخمة، وهو يُرتِّل بصوتٍ عالٍ، وكأننا مجموعة من المُصلّين.

جلستُ إلى جوارها على السرير. كانت عيناها قد اتَّسعتا، كما يحدث للعينين حين ينحلُ الوجه. برزَ شحوب المرض عليها تحت ضوء المصباح، ومع ذلك بدت بطريقةٍ ما أكثر جاذبية مما كانت في أي وقت وهي في تمام صحّتها. لم تعُد تشبه في شيء قسطنتيا القوية الحنك، الحيوية. أضحتْ الآن امرأةً، رقيقةً وحزينة، وشعرتُ بفيضٍ

مفاجئ من الأحاسيس حين أمسكتُ بيدها الحارة بفعل الحُمّى والرقيقة كجناح عصفورٍ ميِّت.

باشرَتْ بالقول "آسفة لأنني من شدَّة المرض عجزتُ عن حضور الاستقبال.."

قاطعتُها " لم يكن بالأمر الهام. كيف حال الألم؟ "

لَمسَتْ يدها الحرَّة بطنها بحركة مُعاكسة. قالت " أفضل "، وكذبَتْ. " إنَّ أوريباسيوس يجدُ لأجلي عشباً جديداً في كل يوم. وأنا أتناولُ كل ما يجده. إنني أقولُ له إنه يجب أن يجعلني معاونته حين يدوِّن موسوعته ". حاولتُ ألاّ أنظر إلى بطنها، الذي تحدَّبَ بشكلٍ كبير من تحت الغطاء وكأنها في الشهر الأخير من الحمل. لزمَ كلانا الصمتَ برهة؛ ثم كسرَ الصمتَ الهتافُ المنتظم " أوغسطوس! " والتفتت إليّ.

" إنهم يهتفون منذ ساعات "

أومأتُ موافقاً. " إنهم غاضبون لأنَّ الإمبراطور يريدهم أن يُقاتلوا في بلاد الفرس"

" إنهم يُنادونكَ بأوغسطوس " ونظرتْ إليّ بإمعان.

" إنهم لا يقصدون ذلك "

قالت بصراحة " بل يقصدون؛ يريدونكَ إمبراطوراً "

" لقد رفضتُ أنْ أظهرَ أمامهم. على أي حال، لقد حلَّ الظلام، وسرعان ما سيشعرون بالبرد وبالضجر ويرحلون، وغداً سينفّذون ما أُمروا به. لقد رحل سينتولا فعلاً، كما تعلمين؛ غادرَ بالأمس مع فيلقَين ". كنتُ أتكلَّم بسرعة، لكنها رَفَضَتْ الاستسلام.

" هل ستقبل ما عُرِضَ عليك؟ "

سكتُّ، لا أدري ماذا أقول. وأخيراً، قلت بحياد، " سيكون ذلك خيانة "

" الخونة الذين تكون لهم الغَلَبَة هم وطنيون. ومُغتصبو العروش الذين ينجحون في اغتصابها هم أباطرةٌ مقدَّسون "

بقيتُ لا أفهم ماذا تريدني أنْ أفعل. أخيراً قلتُ " إنَّ الأباطرة لا تصنعهم عِدَّة آلاف من الجنود في بلدة ريفية صغيرة "

" ولِمَ لا؟ فقبل أي شيء، إنَّ إرادة الله هي التي ترفعُ مقامنا، وإرادة الله أيضاً... ترمينا أرضاً ". أشاحَتْ ببصرها ومن جديد شَرَدَتْ يدها إلى مقرّ فنائها. " تلك الحفنة من الجنود تكفي، إذا توفَّرَتْ الإرادة "

" ماذا تريدين مني أنْ أفعل؟ " للمرة الأولى والأخيرة طرحتُ عليها سؤالاً مباشراً، من شخصٍ إلى آخر؛ وأردتُ فعلاً أنْ أعرف جوابها.

" هذه الليلة؟ لا أعلم. قد لا تكون هذه هي اللحظة المناسبة. يجب أنْ تحكُم على ذلك بنفسك. لكنني أعلمُ أنه مُقدَّرٌ لك أن تصبح إمبراطور روما "

تقابلت عيوننا وتفحَّصَ كلٌ منا الآخر وكأنَّ وجهَ كلٍ منا جديد وغير مُكتَشَف. وأجبتُ بلا تحيُّز مُعادلٍ، قلت " أنا أيضاً أعلم هذا. لقد رأيتُ أحلاماً بهذا الخصوص. كانت هناك إشارات "

قالتْ بقوة غير متوقَّعة " إذن اقبله! "

" الآن؟ فعل خيانة؟ ضد أخيكِ؟ "

" إنَّ أخي وزوجته قَتلا طفلَينا. وولائي... انتقلَ إلى ابن عمي، الذي هو زوجي "، وابتسمَتْ لدى قول كلمة " انتقلَ " لكنَّ عينيها كانتا رصينتَين.

أخيراً قلتُ " أمرٌ غريب. لطالما اعتقدتُ أنكِ تفضّلينه عليَّ "

" كنت كذلك. كنتُ كذلك. إلى أنْ قمتُ بتلك الزيارة إلى روما. في الواقع، لقد حاولَ أنْ يُبقيني هناك بعد وفاة الطفل. قال إنكَ قد تقابل مصاعب في بلاد الغال "

" لكنك عُدتِ "

" عُدتُ "

" وتركت دارتك الحبيبة؟ "

ابتسمَتْ " تركتُ أصعب الأمور قاطبةً! "

ثم أشارت إلى النافذة وإلى المدينة التي تمتد خارجها. " والآن ها قد بدأتْ المصاعب التي وَعَدَ بحصولها. يجب أنْ تتَّخِذ قرارك سريعاً "

نهضتُ " نعم "

فجأةً قالتْ " ديسنتيوس كان هنا "

ذُهلت. " متى؟ "

" مباشرةً قبل حفل استقبال ضباطك. أرادَ أنْ يعرف إنْ كنتُ أرغب في العودة إلى روما. قال إنَّ الفيالق الغاليّة سوف ترافقني حتى ميلانو "

" الماكر "

" نعم. قلتُ له إنني اخترتُ أنْ أبقى. فأصيبَ بخيبة الأمل ". ضحكت بنعومة.

" طبعاً حتى لو رغبتُ في الرحيل، لما استطعتُ أن أسافر... من جديد "

" لا تقولي هذا. ذات يوم سوف نذهب إلى روما معاً "

قالتْ " أرغبُ في هذا أكثر من أي شيءٍ آخر. ولكن أسرِع في تنفيذه... "

قلتُ " سأسرِع، أقسم لك "

قبَّلتُ جبينها، وأنا أَحبسُ أنفاسي كي لا أشمَّ رائحة الموت. فجأةً تشبَّثَتْ بي بكل قِواها، وكأنها تُعاني من نوبة ألم حادّة. ثم حرَّرتني. "خُسارة أني أكبر منكَ سناً بكثير"

لم أُجِب. قبضتُ على كلتا يديها بصمت. ثم غادرت.

كان الأسقف في غرفة الانتظار مع السيدات. " ألا تعتقد، أيها القيصر، أنَّ صحة الملكة قد تحسَّنَتْ؟ "

" نعم، لا حظت ". كنتُ مُقتضِباً بجفاف. حاولتُ أنْ أتجاوزه. لكنَّ الأسقف كان لديه ما يُضيفه.

" هي طبعاً قلقة بسبب أولئك الرعاع في الخارج. كلنا كذلك. شيءٌ مُرعِب. إنها زلّة كبيرة في الانضباط. نأمل في أنْ يعمل القيصر على تشتيت ذلك الجمع بكلماتٍ صارمة "

" إنَّ القيصر سوف يفعل ما على القيصر أنْ يفعله ". دفعتُه جانباً وتجاوزته في طريقي إلى الرواق الرئيسي. كان الخدمُ يندفعون هنا وهناك، وكأنهم يؤدون مهاماً عاجلة. ولزمَ المرافقون أماكنهم، ولكن حتى هم فقدوا وِقفتهم المُنتصبة المعتادة. كانت العيون كلها عليّ، تتساءلُ ماذا سأفعل. وأثناء عبوري الغرفة التي تطلُّ على الساحة، كدتُ أتعثَّر بغودنتيوس، الكامن في الظل. وسرَّني أنْ أرى أنه خائف.

" أيها القيصر! إنَّ التريبون ديسنتيوس يطلب مقابلتك. إنه في غرفة الاجتماع. كلهم هناك. يريدون أن يعرفوا ماذا تنوي أنْ تفعل. إننا مُحاصَرون من كل جانب. لا أحد يستطيع أنْ يهرب... "

" قُلْ للتريبيون أنا ذاهبٌ لأنام. وسيسعدني أنْ أراه في الصباح ". وقبل أنْ يفيقَ العميل من ذهوله كنتُ قد قطعتُ نصفَ مسافة الرواق المؤدي إلى غرفتي. خارج الباب كان يقفُ رئيس المُرافقين. أمرتُهُ بألاّ يُزعجني أحد إلاّ إذا وقع هجومٌ على القصر. ثم لجأتُ إلى غرفتي وأرتجت الباب خلفي.

كانت ليلةً طويلة. قرأتُ. صلّيتُ. فكّرتُ. لم أكن مرةً قبل ذلك ولا بعده مشوَّشَ الذهن كما كنتُ عندئذٍ. بدا كل شيء لي سابقاً لأوانه؛ الأحداث تدفعني وتتجاوزني

بسرعةٍ تفوقُ ما قرَّرتُه لنفسي. ومع ذلك هل ستتكرَّر مثل تلك اللحظة؟ كم مرة تمَّ تنصيب الإمبراطور بشكلٍ عفويّ؟ كلنا نعلم عن قادةٍ طموحين أعدّوا مسرحيات تتويج " شعبية " لأنفسهم؛ لكنها نادراً ما تحصل من دون تواطؤ القائد الفعّال. أنا واثقٌ من أنَّ يوليوس قيصر أرشد صديقه بعناية شديدة كي يُقدِّمَ إليه التاج عَلَناً، ببساطة لكي يرى ردَّة الفعل على ذلك. والآن ها هو ذلك التاج نفسه قد جاءَ إليّ، دون أنْ أطلبه.

نمتُ، وأنا لا أزال مشوَّش الذهن. حلمتُ ووجدتُ في الحلم، كما يحدثُ غالباً، ما عليَّ أنْ أفعله وأنا يقِظ. رأيتُني جالساً على كرسي القنصلية، وحدي دون أي رفيق، وإذا بشخصٍ يظهرُ لي، يرتدي زيَّ حارس روح الدولة، وغالباً ما يكون على هيئة الجمهورية القديمة. وكلّمني. " إنني أراقبك منذ وقتٍ طويل، يا جوليان. ومنذ وقتٍ طويل وأنا أرغبُ في رفعكَ إلى مرتبةٍ أعلى مما أنتَ عليه الآن. ولكن كلّما حاولتُ أنْ أفعل، أجد صداً. والآن يجب أنْ أحذِّرُكَ. إذا ردَدْتَني خائباً مرةً أخرى، في وقتٍ ترتفعُ فيه أصوات عديدٍ من الرجال تأييداً لك، فسوفَ أتركك كما أنت. ولكن تذكَّر ما يلي : إذا ذهبتُ الآن، فلن أعود أبداً "

استيقظتُ وأنا منقوعٌ بالعرَق البارد وقفزتُ خارجَ سريري؛ بدتْ لي غرفتي الخاصة فجأةً غريبةً عني ومُهدِّدة، كما يحدثُ أحياناً بعد أن نخرجَ من حُلمٍ عميق. أكنتُ يقظاً أم لا؟ فتحتُ النافذة؛ أنعشني الهواء البارد. كانت النجومُ تخبو. وكانت جهة الشرق باهتة اللون.

كان الرعاع ما يزالون متجمّعين في الساحة؛ وقد أضرموا النيران في الهواء الطلق. وبين وقتٍ وآخر يهتفون " أيها الأوغسطوس! " وعقدتُ عزمي. استدعيتُ خادمي الخاص، فألبسني الرداء الأرجواني. ثم خرجتُ إلى الرواق المُعمَّد. كان واضحاً أنني الوحيد الذي نامَ في تلك الليلة. كان الرجال والنساء لا يزالون يعدون ما بين الغُرَف والأروقة، كفئرانٍ تفتشُ عن جحورٍ. في غرفة الاجتماع وجدتُ ديسنتيوس وأغلبَ مُستشاريَّ. لدى دخولي، كان يوثريوس يقولُ بصوته المُهدِّئ إلى أقصى حد، "كل شيء الآن يعتمد على إرادة القيصر. وليس في يدنا أن نفعل أيَّ شيءٍ لتغيير هذا... "

قلتُ " بالضبط ". سادَ الغرفة وضع الانتباه. تقدَّمَ ديسنتيوس مني، كان يبدو عليه الإرهاق، ويحتاج إلى حِلاقة ذقنه، وأعلنَ " أنتَ وحدك تستطيع أنْ توقفهم! يجب أنْ تأمرهم بإطاعة الإمبراطور. سوف يصغون إليك "

" كنتُ أنوي أنْ أتحدَّثَ إليهم الآن " وابتسمتُ ليوثريوس. " يمكنكم جميعاً أنْ توافوني عند المِنصَّة... إذا شئتم "

بدا على ديسنتيوس أنه لا يريدُ ذلك الشرف. لكنَّ أصدقائي أرادوه. وتوجّهنا معاً إلى الباب الرئيسي للقصر.

قلتُ " استعدّوا لوقوع أي شيء. ولا يصبْكم الذهول جرّاء أيِّ شيءٍ أقوله ". ثم أشرتُ إلى الحرّاس الخائفين لكي يزلقوا المزلاج ويفتحوا البوابة.

أخذتُ نَفَساً عميقاً، وخطوتُ إلى الساحة. حين رآني العامة بدؤوا يُهللون. ارتقيتُ بسرعة دَرَجَ المنصَّة، ورفاقي خلفي مباشرةً. ثم أحاطَ حرَسي الشخصي، بسيوفٍ مسلولة، بالمنصَّة. تراجعَ العامة. لوَّحتُ لهم لكي يصمتوا؛ كان الآتي زمناً طويلاً. حين تكلَّمتُ أخيراً، كنتُ متوازناً.

" إنكم غاضبون. معكم الحق في ذلك. وأنا أقفُ إلى جانبكم في هذه الناحية. أعدكم بأنْ أحقِّقَ لكم ما تريدون. ولكن دون ثورة. إنكم تفضّلون الخدمة في بلدكم على التعرُّض لأخطارِ بلدٍ أجنبي وخوضِ حربٍ في مكانٍ ناءٍ. فليكن. فليذهب كلُّ منكم إلى بيته وليأخذ معه وعدي بأنَّ لا أحدَ منكم سيخدم خلف جبال الألب. إنني أتحمَّل كامل المسؤولية لقراري هذا. وسوفَ أشرحُ الأمرَ للأوغسطوس، وأعلمُ أنه سوف يُصغي إليّ، لأنه عاقلٌ وعادل "

بهذا الخطاب، أكون قد أدَّيتُ واجبي حيال قسطنتيوس. وبعد أن تمَّ الحفاظ على الشرف. ماذا سيحدث الآن؟ ومرَّتْ لحظة صمت، ومن ثم عاد الهتاف بـ "أوغسطوس!" من جديد؛ وصبّ الإهانات أيضاً على قسطنتيوس - ونالني بعضٌ منها لضعفي. أخذ الرعاع يتدافعون مقتربين أكثر فأكثر من المِنصَّة. بقيتُ ثابتاً بتصميم، أنظرُ عبر الساحة إلى المكان الذي يأتي منه النهار، رمادياً وبارداً من فوق منازل البلدة.

همسَ يوثريوس في أذني " يجب أنْ تقبل. سيقتلونكَ إذا لم تفعل ". لم أجب. انتظرتُ. كنتُ أعلمُ ماذا سيلي. رأيتُ ما يوشك أن يحدث بالوضوح نفسه الذي رأيت روح روما في حُلمي. في الواقع، كان الصباحُ كلّه أشبه بامتدادٍ لحُلم الليل.

أولاً، تفرَّقَ حرّاسي وتوزّعوا بينما كان الرعاع يندفعون نحو المنصَّة. صعدَ أحد الجنود إلى ظهر آخر وأمسكَ بي من ذراعي. لم أقُمْ بأي جهد للمقاومة. ثم - مرةً أخرى كما لو أنه كان حلماً لكنه ذلك النوع من الأحلام الممتعة التي يعرف المرءُ فيها أنه يحلمُ

ولا ينتابه أي خوف - سقطتُ على الجموع. أوقفتْ أياد، وأذرُعٌ، وأكتافٌ سقوطي. وكان هتاف " أوغسطوس! " المُدوّي من حولي يصمُّ الآذان؛ وملأتْ منخريَّ رائحةُ العَرَقِ والثومِ القوية، بينما أنهضتني الأجسام الصلبة بعيداً عن الأرض حيثُ كنتُ أستلقي، ورفعتني إلى فوق رؤوسها كأني أضحية ستُقدَّم للشمس.

أمام عيون الرعاع جميعاً، قبضَ عليَّ أشرس الرجال، وصرخَ " اقبَلْ! "، ونصلُ السيف موجَّهٌ إلى قلبي. نظرتُ إلى وجهه مباشرةً، فرأيتُ عروقاً حمراءَ متقطّعة على أنفه، وشممتُ رائحة الخمر في أنفاسه؛ تلك النظرة السريعة كانت أشبه بمعرفةِ عُمرٍ كامل. ثم قلتُ بنبرةِ صوتٍ عادية " أقبلُ "

كان الهدير مريعاً. وضعَ جنودُ المشاة تروسهم تحتي وحملوني إلى الساحة وكأني ملكٌ غاليّ أو جرمانيّ. هكذا جُعلتُ أوغسطوساً ليس على أيدي الرومان ولا وِفقاً للتقاليد الرومانية، وإنما على أيدي البرابرة، ووفقاً لطقوسهم.

أعادوني إلى المِنصَّة. ثم هتفَ أحدهم بأنَّ عليَّ أنْ أضعَ التاج. ولكن لم يكن بحوزتي أي نوعٍ من التيجان. كان حصولي على أحدها يوازي حياتي في قيمته. وجهرتُ بهذا للحشود.

هتف أحد الخيالة " أحضِرْ واحداً من زوجتك! ". ضحك الناس من أعماقهم. وخشية أنْ تتحوَّل أعظم لحظة في حياتي بشكل غير متوقَّع إلى حماقة وضيعة، أسرعتُ بالقول، " لا أظنكم تريدون لامبراطور أنْ يضع مجوهرات امرأة "

كان لهذا الكلام وقعه الحَسَن. ثم صعدَ رجلٌ طويل القامة اسمه ماريوس، كان حامل راية الفيلق البيتولانتي، إلى المِنصَّة. نزعَ من رَقَبَته خاتماً من المعدن يدعمُ السلسلة التي تجعل شعارَ نسرٍ فوجهِ ثابتاً في مكانه. نخعَ الحَلَقَة حتى حرَّرها من السلسلة؛ ثم هتفَ، رافعاً الخاتم المعدني عالياً فوقَ رأسي، " المجد، للأوغسطوس جوليان! " وبينما كان الرّعاعُ يُردِّدون العبارة، وضعَ ماريوس الحَلَقَة المضروبة على رأسي.

وتمَّ الأمر. أشرتُ كي يعمّ الصمت، وكان لي ما أردت. " لقد قمتم باختيارٍ خطير هذا اليوم. وأعدكم بألاّ تندموا على ذلك ما دمتُ حياً ". ثم تذكّرتُ الصيغة المعتادة في مثل تلك المسائل، قلت " إنني أمنحُ كلَّ رجلٍ هنا اليوم خمسَ قطعٍ ذهبية وقطعة من الفضة. فلتبارك السماء هذا اليوم، وما أنجزناه معاً "

ثم هبطتُ درجات المِنصَّة درجتين كل مرة واندفعتُ مسرعاً إلى داخل القصر.

ـ ١٤ ـ

توجَّهتُ مباشرةً إلى غرفة زوجتي. كانت قد سمعت لتوّها بما حدث. كانت جالسةً باستقامة على السرير، تقوم على خدمتها عدَّة نساء. كان شعرها مُسرَّحاً ووجهها الشاحب تعرَّضَ للسخرية القاسية بأحمر الشفاه. انسحبَتْ النسوة.

قلتُ " تمَّ الأمر "

" عظيم " وأمسكَتْ بيدّيَّ وشعرتُ لبرهة بقوَّة في أصابعها. "والآن ستنشب حرب"

أومأتُ موافقاً. " ولكن ليس فوراً. سوفَ أخبر قسطنتيوس بأنَّ هذا ليس من فعلي، ولم يكن كذلك حقّاً. فإذا كان حكيماً، فسيقبلني كأوغسطوس في الغرب "

حرَّرَتْ يديّ. " لن يقبَلْ "

" آمل أنْ يفعل "

كانت تُحدِّقُ إليّ بعينين نصف مُغمضَتَين (لطالما كان بصرها ضعيفاً ولكي ترى الأشياء بوضوح كانت مضطرَّة إلى تضييق فتحتَي عينيها). في اللحظة الأخيرة قالت " الأوغسطوس جوليان "

ابتسمتُ. " بفضل رعاعٍ متجمّعين في ساحة بلدة صغيرة "

صحَّحَتْ كلامي " بل بفضل الله "

" أعتقدُ ذلك. أؤمنُ بذلك "

فجأةً أضحت عمليّة. " أثناء وجودك في الساحة، جاءني أحد ضبّاطي ليُخبرني بأنَّ هناك مؤامرةً تُحاكُ لقتلك. هنا. في القصر "

لم آخذ هذا الكلام بكثيرٍ من الجَدّ. " إنَّ حِراستي جيّدة "

هزَّتْ رأسها نفياً. " إنني أثِقُ في ذلك الرجل. إنه أفضل ما لديَّ من ضباط ". وككل سيدات المنزل الإمبراطوري، لم يكن لهيلينا خَدَمها ومرافقوها الخاصون فقط بل وحرَسها الخاص.

" سوف أفكِّر في الأمر " ونهضتُ لأذهب.

" ديسنتيوس هو وراء المؤامرة "

" طبعاً "

بينما كنت أقطع أرض الغرفة نحو الباب، قالتْ بصوتٍ عالٍ، " المجد لأوغسطوس! ". التفتُّ وضحكتُ، وقلت، " المجدُ، لأوغسطا! ". ابتسمت هيلينا. لم أكن قد رأيتها أبداً سعيدة كما كانت في تلك اللحظة.

بعد ذلك ذهبتُ إلى غرفة الاجتماع، حيث اجتمعَ أفراد بلاطي كلهم، بمن فيهم ديسنتيوس.

دخلتُ في صُلب الموضوع مباشرةً. " أنتم جميعاً شهودٌ على أنني لم أعمل بأي حال على إثارة الجنود؛ ولا طلبتُ ذلك الشرف الذي خلعوه عليَّ - بشكلٍ غير شرعي". سرَتْ همهمة خيبة أمل في الغرفة. وبدأت تباشير الأمل تبدو على ديسنتيوس. ابتسمتُ له ابتسامةً ودِّية؛ وتابعت. " سوف أنقل هذا كله في تقرير إلى الأوغسطوس، أصفُ فيه بدقَّة ما حدث، وسأتعهَّدُ له، كما أفعلُ دائماً، بولائي ليس فقط بوصفي زميلاً له بل وكقريب ". هنا طغَتْ الحيرة على الجميع. وخطا ديسنتيوس إلى الأمام.

" إذا كان هذا... هو قرار القيصر ". كان شديد الجرأة بمخاطبتي بـ " قيصر " لكنني احترمتُ ولاءه لسيِّده. " فعلى القيصر أنْ يضبط جنوده؛ عليه أنْ يُنفِّذ إرادة الأوغسطوس، ويُرسلهم إلى الشرق "

" يا عزيزي التربيون... " بدوتُ حتى لنفسي كأيٍ من المُحامين المعسولي اللسان. " إنني أرغبُ في وهب حياتي كلها للإمبراطور في أي معركة ضد البرابرة، ولكنني لن أهبها بهذه الطريقة. ليست لديَّ أي نيّة في أنْ أُقتَل بأيدي أي جيش كرَّستُهُ طوال خمسة أعوام للتدريب، جيش يحبّني ربما أكثر مما ينبغي ويحبُّ إمبراطوره أقلّ مما ينبغي. كلا، لن أُعيدَ ما منحني إياه ". فجأةً تذكَّرتُ أنني ما أزال أضعُ الحَلَقَة المعدنية. فانتزعتُها ورفعتُها. " إنها مجرَّد قطعة من المعدات العسكرية، لا أكثر ". تركتُ الحَلَقَة تسقط على الطاولة أمامي. " وليس لديّ أي نيّة في إرساله إلى الشرق. لسببٍ واحد، أيها التربيون، وهو أنهم لا يريدون الذهاب، مهما أقل أو يقل أي شخصٍ آخر "

" إذن، أيها القيصر، أتنوي أن تثور ضد الأوغسطوس؟ ". كان ديسنتيوس صلباً.

هززتُ رأسي نفياً. " سوفَ أحاولُ أنْ أطيعه. ولكن قد لا يكون ذلك ممكناً. سنكتبُ رسالةً لقسطنتيوس اليوم. وسيكون وَصْفُكَ لِما حدثَ هنا في باريس أفضَلَ من الكتابة. وأنا واثق من أنه حالما تشرح له وضعنا الحقيقي، سوف يتعاطفُ معنا ". وسرَتْ غمغمة ضحك.

" حسنٌ، أيها القيصر. هل تسمح لي بالذهاب؟ "

قلتُ، أسمح "

قدَّمَ ديسنتيوس التحية وغادرَ الغرفة.

على الرغم مما شعرتُ به من تعب، دعوت إلى انعقاد المجمع المقدَّس. أمضينا فترة الصباح نُملي رسالةً طويلة إلى قسطنتيوس. باختصار، قلتُ إنني لم أعمل على إغواء الجنود، وإنهم هدَّدوني بالموت إذا لم أقبل لَقَبَ أوغسطوس، وإنني قَبِلتُ مخافةَ أنْ ينتقوا شخصاً آخرَ، ماغننتيوس أو سيلفانوس آخر. ثم طلبتُ إبقاء الفيالق في بلاد الغال. لكنني وعدتُ بأنْ أرسِلَ إلى قسطنتيوس كل الجياد الاسبانية التي يحتاجها (كنا نتراسل في ذلك الوقت حول هذا الموضوع)، بالإضافة إلى عددٍ من رُماة التروس من قبيلة ليتي على الراين : وهم جنود أكفاء، تواقون إلى الحرب. وطلبتُ تعيين حاكمٍ إمبراطوريّ جديد؛ أما الموظفون الرسميون الآخرون فسأقومُ بتعيينهم بنفسي، كما جرَتْ العادة. وختمتُ بإبداءِ أملي في ألاّ يسودَ بيننا غير الوئام، وما إلى ذلك.

جرى كثير من النقاش حول كيفية صياغة لَقَبي. واستقرَّ الرأي على وِجهَة نظري. ووقَّعتُ الرسالة بـ " قيصر "، وليس " أوغسطوس ".

عَرَضَ يوثريوس أنْ يُسلِّم الرسالةَ بنفسه في القسطنطينية. ولما كان مستشاري الأفضل، سمحتُ له بالذهاب.

الأيام القليلة التالية سادتها الحركة المحمومة. فقد غادرَ ديسنتيوس إلى فيين. ورحلَ يوثريوس إلى القسطنطينية. وطردتُ غودنتيوس. وخلال تلك الفترة، لم أظهر عَلَناً، ولا وضعتُ التاج، ولا لقَّبتُ نفسي أوغسطساً. كانت فترةً من الحَذَر.

على الرغم من أني بعثتُ برسائل عِدَّة إلى فلورنتيوس، إلاّ أنه لم يصلني أي ردٍ من فيين غير إشاعاتٍ متضاربة : فلورنتيوس خطَّطَ لقتالي في الربيع. فلورنتيوس

خُلِعَ من منصبه. فلورنتيوس يتراجعُ إلى أسبانيا، إلى بريطانيا، إلى مراكش. وفي غياب أي كلمة من الحاكم الإمبراطوري نفسه، قمتُ بتبديل كل حاكم في بلاد الغال برجالٍ من اختياري، وهكذا ضمنتُ ولاء المُدُن.

بريسكوس : إنَّ جوليان يُلغي أحداث ذلك الربيع والصيف، أعتقد لأنَّ مُعظمه تمَّتْ تغطيته في تاريخه العسكري.

في ذلك الربيع، وبينما كنا في باريس، انتقلَ قسطنتيوس إلى سيزاريا. وهناك جمعَ جيشاً من أجل الحملة على بلاد فارس. كان بارعاً جداً في جمع الجيوش. مشكلته هي أنه لم يكن يعرف أبداً ماذا يفعل بجيشٍ بعد أنْ يجمعه. وفي سيزاريا انضمَّ إليه أولاً ديسنتيوس، ثم فلورنتيوس الذي كان قد هربَ من بلاد الغال، تاركاً عائلته لتتدبَّرَ أمرها بنفسها. وأمام دهشة الجميع، سمحَ جوليان لاحقاً للعائلة بالانضمام إلى فلورنتيوس، ونقلَها على نفقة الدولة. كان جوليان قد عزَمَ على أنْ يكونَ رحيماً. لقد رأى أنْ يسيرَ على خُطى ماركوس أورليوس. في الحقيقة، لقد كان أعظم من ذلك الرجل الطيب الخجول. لسببٍ واحد، هو أنه كانت أمامه مهمَّة أصعب من مهمّة سَلَفه. لقد جاء جوليان والعالم في آخر عهده، وليس في ذروته. وهذه نقطةٌ هامة، أليس كذلك، يا ليبانيوس، يا زميلي العتيق؟ لقد مُنحنا موقعنا في الزمان كما مُنحنا عيوننا : ليس باختيارنا إذا كانت ضعيفة، أو قوية، أو صافيةً أو حولاء. حسن، لقد وُلدنا في زمنٍ أحولَ، مشوَّه العينين. ولحُسن الحظ، حين ترى أغلب العيون البديهيَّ مشوَّهاً، لا يبدو أيُّ شيءٍ شاذ غريباً، وتكون الرؤية الصافية وحدها غير سويّة.

مسكينٌ يوثريوس كانت مهمَّته عسيرة جداً. فقد سارَ كلُ شيءٍ على الطريق بشكلٍ سيئ. ولأنه كبير حُجَّاب القيصر كان لابدَّ أن يصحبه في أغلب مراحل الطريق موظَّفون هامّون آخرون. وأنتَ تعلم كيف يكون الوضع حين يُسافرُ المرءُ على نَفَقَة الدولة. الأمرُ رائعٌ طبعاً لأنه لا يُكلِّفُ شيئاً، ويحصل المرء على أفضل الجياد، وهناك دائماً مكانٌ لبيات الليل فيه، ونادراً ما يُهاجمُ قُطَّاع الطُّرُق ضيوفَ الدولة. ولكن عليه أنْ يُجادلَ أشخاصاً مملّين ذوي مراكز عالية (الذين يُجادلوننا!). هناك دائماً القائد الذي يتذكَّر معارك قديمة. والأسقف الذي كان يهيج لدى تفكيره في " هرطقات " زملائه. والحاكم الشريف الذي كان يستطيع أنْ يُثبِتَ ذلك أثناء عودته إلى المنزل مع حاشيةٍ من عِدةَّ مئات من الأحصنة المُحمَّلة بأحمالٍ ثقيلة.

وسيطرَ الموظفون الرسميون على يوثريوس. وعندئذٍ كان العالم قد سمعَ بما حدث، وكبير حُجَّاب جوليان توقَّفَ كثيراً على الطريق بداعي الأكل والشرب وفَقَدَ كثيراً من أيام السَفَر. وأخيراً، واجه عواصف بحرية وثلوج غليريكوم بشجاعة ، وعبر إلى القسطنطينية ليعلَمْ أنَّ الأوغسطوس موجود في سيزاريا. وازداد ثقل وطأة المهمَّة. وتمَّ استقبال كبير الحُجَّاب في أواخر آذار.

أخبرني جوليان أنَّ يوثريوس أخبره أنَّه لم يرَ قسطنتيوس أبداً غاضباً كما فعل. كان يتوقَّع دون أدنى شك أنْ يُذبَح على الفور. ولكن - لحُسن حظ جوليان - كان قسطنتيوس قد وقع في الفخ. وعلى الرغم من أنَّ غرائزه كلها (وبراعته السياسية كانت دائماً ماكرة) أخبرته أنَّ عليه أنْ يوجِّه ضربةً إلى جوليان في أسرع وقت ممكن، فإنه لم يتمكَّنْ من ذلك لأنَّ سابور كان في بلاد ما بين النهرين. واضطرٌّ قسطنتيوس إلى البقاء في آسيا. لذا صرَفَ يوثريوس بصورة مُلتبِسة؛ وأعطى أيضاً رسالة إلى التريبيون ليوناس لكي يُسلِّمها إلى جوليان شخصياً.

وكما شاء القَدَر، في يوم وصول ليوناس إلى باريس، قامَ جوليان بدورٍ فيما يُشبه الاحتفال حَضَرته أعدادٌ هائلة من الجنود وجماهير الباريسيين. وجوليان يحب كثيراً التباهي أمام الجماهير، وهي سِمة غير متوقَّعة من فيلسوف. ولما كان جوليان يعلم كثيراً مما جاء في الرسالة، فقد قامَ بتقديم ليوناس إلى الجماهير، وأخبرهم عن سبب وجوده في باريس. ثم قام جوليان، أمام الآلاف، بقراءة الرسالة بصوتٍ عالٍ من بدايتها وحتى النهاية. وحين وصلَ إلى الجزء الذي يأمرُه فيه بالبقاء على مركزه كقيصر، زأرت الجماهير وكأنها تدرَّبَتْ على ذلك، " أوغسطوس! جوليان أوغسطوس! "

في اليوم التالي سلَّمَ جوليان رسالةً إلى ليوناس موجَّهة إلى قسطنتيوس؛ أعتقد أنها كانت ذات صِبغة استرضائية؛ وقد قَبِلَ، من بين ما قَبِلَ، تعيين قسطنتيوس القسطور[٩٣] نبريديوس حاكماً إمبراطورياً، ووقَّع اسمه بـ " قيصر ". يجب أنْ تكون رسائله كلها بين أيدينا. أعتقد أنه يمكن العثور عليها في محفوظات مدينة القسطنطينية، على الرغم من أني لا أعرف بدقَّة ما هي طبيعة السياسة الحالية بشأنْ هذه الأوراق. وقبل بضع سنوات حين أراد أحد تلاميذي - وهو مسيحي - أنْ يدرس بعضاً من أوراق جوليان الرسمية، لم يُسمَح له بذلك. في الواقع، كان مكتب كبير

الحُجّاب مُريباً جداً، وهو أمرٌ مُريب. لكنَّ ذلك كان في عهد فالنس[٩٤]. لعلَّ الأوضاع تغيَّرَتْ. سوف تعرف هذا دون شك حين تُحرِّر هذه الأوراق.

في شهر حزيران قام جوليان بالهجوم على الفِرنجة المُقيمين بالقُرب من كالن؛ كانوا آخر القبائل التي تتحرَّش ببلاد الغال. وعلى الرغم من الدروب السيئة والغابات الكثيفة التي تحمي موطنهم عبر نهر الراين، فقد هزمهم بسهولة. لكنني لم أكن بصُحبتهِ. فقبل أن ينزل إلى ساحة القتال، غادرتُ إلى أثينا.

في يوم رحيلي، ذهبتُ لأودِّع جوليان في غرفة مكتبه، وهي غرفةٌ كان أصدقاؤه دائماً يُشيرون إليها باسم المُبرِّدة. لم أعرف قط غرفةً باردة مثلها. لكنَّ جوليان بدا غير مُبالٍ بذلك. وطبعاً بعد أنْ كادَ يختنق في ذلك الشتاء الأول، لم يلجأ أبداً إلى تدفئة الغرفة كما ينبغي مرةً أخرى. ولكنها في الجو الدافئ تكون برودتها ممتعة، وكانَ اليومُ في آخر مرة شاهدته فيها في باريس يوماً جميلاً من أيام شهر حزيران. وقد وجدتُ أيضاً أوريباسيوس ينتظر خارج باب غرفة المكتب.

قال أوريباسيوس " إنه يجتمع بالأسقف "

" ليُهديه دون شك "

" لا شك في هذا "

ثم فُتِحَ الباب ومرَّ بنا رجلٌ أحمر الوجه، عابس.

جاء جوليان إلى الباب وجرَّنا إلى الداخل. كانت عيناه تومضان. كان جليّاً أنه مسرور. " كان يجب أنْ تسمعاه! "

سألته " أي نوعٍ من الأساقفة هو؟ آريانيّ أم أثاناسيّ أم... "

" بل سياسيّ. ذاك كان ابيكتيتوس، أسقف سيفيتافيكيا. اهتماماته، أعتقد، دنيويّة أكثر منها دينية. لقد أرسله قسطنتيوس إليّ، حاملاً رسالةً شديدة الغرابة ". ارتمى جوليان على السرير العسكري الخفيف الموضوع بجانب النافذة. (وعلى الرغم من أنه لم يأت أبداً على ذكر هذا في مذكّراته، إلاّ أنه غالباً ما كان يُملي وهو مستلقٍ؛ كنتُ بعد أَنْ أقرأ بعضاً من مقالاته التي دوّنها في بهيم الليل، أتَّهمه بالكلام أثناء نومه. فيُجيب عن هذا بالقول " أثناء النوم تتحدث الآلهة معنا، فما أقوله في منامي يجب أنْ يكون مقدَّساً ")

" إنَّ زميلي، الأوغسطوس، يعرِض عليّ إذا ما تخلّيتُ عن منصبي كقيصر، وسلّمتُ جيش بلاد الغال، وعدتُ إلى القسطنطينية كشخصٍ عاديّ، أن أحتفِظَ بحياتي"

ضحكتُ مع أوريباسيوس؛ لكنني كنتُ مضطرباً. قال " شيء سخيف طبعاً. ومع ذلك ما هو البديل إذا لم تفعل؟ "

" لم يكن الأسقف دقيقاً في كلامه. المعنى الضمني هو أنَّ قسطنتيوس عاجلاً أو آجلاً سيتعاملُ معي "

قال أوريباسيوس " بل آجلاً جداً. إنَّ لديه مشاكله في بلاد فارس. سيمرّ على الأقل عام قبل أن يتمكن من مواجهتك "

هزَّ جوليان رأسه نفياً. " لستُ واثقاً من هذا ". لوَّح بقدميه من السرير الخفيف ومدَّ يده إلى الطاولة القابلة للطيّ القريبة التي استقرَّتْ عليها الحزمة المعتادة من تقارير العملاء. ربَتَ على الأوراق. " أخبار من كافة الأنواع. ههنا أمر اعترضنا سبيله وحصلنا عليه موجَّه من قسطنتيوس إلى حاكم إيطاليا : اجمعْ ثلاثة ملايين مكيال من القمح، واطمرها في جزيرة بريغينتز - التي تقع في بحيرة كونستانس - وخزِّن القمح في مُدُنٍ عِدَّة، ولتكُن كلها واقعة على حدود الغال. ثم هناك أمرٌ آخر بتخزين القمح على الجانب الإيطالي من جبال الألب البحرية. إنه ينوي مُهاجمة بلاد الغال. لا شك في ذلك "

" ولكن مَتى؟ ". على الرغم من أني كنتُ مُغادراً وضامناً الأمان قريباً (بما أني لست بطلاً، فإنَّ اهتمامي المستمرّ تَعَلّقَ بالمحافظة على حياتي)، إلاّ أني كنتُ مهتماً بما يحدث لصديقي.

" مَنْ يدري؟ ليس أمامنا إلاّ أنْ نأمل في أنْ يورِّطه سابور في حملةٍ كبرى. حتى ذلك الحين، سأحتفظُ أنا بذلك القمح كله ". رسمَ ابتسامةً عريضة جديرةً بصبي صغير. " لقد أمرتُ بمصادرته لأستخدمه لصالحي ". وسكتَ؛ ثم : " كل ما أحتاجُ إليه عامٌ من الزمن "

" وبعد ذلك؟ ". نظرتُ إليه بإمعان، لأنَّ جوليان لم يكن قد تكلَّمَ قبل ذلك أبداً عن أية فترة زمنية غير المستقبل القريب. وعلى الرغم من معرفتنا له، فلم تكن لدى أيٍ منا فكرةٌ عن مدى طموحه، أو عن طبيعة خطَّتِهِ البعيدة المدى.

أجابَ بحَذَر، مرةً أخرى وهو مستلقٍ على ظهره، وإحدى يديه تعبثُ بلحيته الغضَّة، تتلألأ ذهبيّةً كفرو الثعلب تحت ضياء شمس شهر حزيران. " في غضون عامٍ واحد سأكونُ آمناً في بلاد الغال، وفي إيطاليا ". وهكذا باح بها. إنَّ عبور جبال الألب يعني حقاً الحرب.

قال " لا خيار أمامي. إذا مكثتُ هنا، إذا بقيتُ كما أنا، فسوفَ يطيحُ برأسي ". ثم أشارَ إلى الأوراق الموضوعة على الطاولة، " هنا يوجد تقريرٌ يقولُ إنه يتفاوَضُ مع السيثيين لكي ينتقلوا إلى بلاد الغال. تصرُّفٌ نموذجيٌ، طبعاً. لكي يُدمِّرني سوفَ يُدمِّرُ بلاد الغال مرّةً ثانيةً، ويملؤها من جديد بالهمَجيين ولن يستعيدها أبداً ". استقامَ في جلسته. " في الربيع القادم، أيها الأصدقاء، سوف أقاتلُ قسطنتيوس "

كل ما استطعتُ أنْ أقوله أخيراً كان، " إنَّ لديه جيشاً يبلغ عشرة أضعاف جيشك. وهو يسيطر على إيطاليا، وأفريقيا، وإليريكوم، وآسيا... "

" أعلمُ هذا ". كان جوليان هادئاً بصورةٍ غير متوقَّعة. في الحالة العادية، كان مثل ذلك الحديث يجعله يقفُ على قدميه، ويُلوِّح بذراعيه، وتومض عيناه، وتتعثَّر الكلمات فوق بعضها في غمرة حماسه. أعتقد أنني تأثَّرتُ بجاذبيته الخارقة أكثر من تأثُّري بما قال، " ولكن إذا تحركنا بسرعة أكبر، واستجمعنا قِوانا أثناء تقدُّمنا، فأستطيعُ أن أستولي على أوروبا كلها في غضون ثلاثة أشهر "

" إذن عليكَ أنْ تواجه أضخم جيش على وجه الأرض، في القسطنطينية ". بدا الحزنُ على أوريباسيوس.

" أعتقد أني سأنتصر. على أي حال، الأفضل أنْ أموتَ وأنا على رأسِ جيش على أنْ أفنى هنا وأُعرَف في التاريخ كمُغتصبٍ لعرش قسطنتيوس الرابع أخفَقَ في سعيه. ثم إنَّ هذه المنافسة هي بين الجليليين والآلهة الحقيقية، وسوف نفوزُ فيها لأنني اصطُفيتُ لأكسبها ". قال هذا بهدوءٍ شديد، وبصورة تفتقرُ كثيراً إلى حيويته المعتادة فلم يبق لنا ما نقوله؛ وقريباً سيتوقَّفُ المطر في صباح يومٍ ربيعيٍّ في بلاد الغال.

ثم عادَ إلى حالته القديمة المعتادة. " إذن سيُفارقنا بريسكوس الآن! في الوقت الذي باشرنا فيه التخطيطَ للمعركة، إذا به ينسحب إلى أثينا "

قلتُ " إنَّ الجبن هو سِمتي الغالبة "

قال أوريباسيوس بمكر " والافتتان بالزوجة. إنَّ بريسكوس يتوقُ إلى ذراعَي هيبيا القويتين... "

" وإلى صُحبة أولادي، الذين يمرون الآن بسنٍ يُجعلني أشعر بالحَرَج ليس فقط فكرياً بل ومالياً "

" هل ستحتاج إلى نقود ؟ ". لطالما كان جوليان، حتى في أشد أحواله فقراً - وعند تلك النقطة يَغدو عاجزاً عن تسديد نفقات حاشيته - كريماً مع الأصدقاء. وقد ظنَّ ماكسيموس أنه ذو ثراءٍ فاحش... وقد كان ماكسيموس أحدَ الأسباب التي دفعَتني إلى مغادرة الغال : فقد سَرَتْ شائعة تقول إنه قَبِلَ عرض جوليان للانضمام إليه في الربيع. ولم أستطع أنْ أواجه ذلك الوضع.

أخبرتُ جوليان أنَّ في حوزتي كلَّ النقود التي أحتاجها. فأعطاني ميداليته الشخصية، أو الـ tessura (الرصيعة)، التي أتاحت لي أن أسافر مجّاناً إلى أي مكان في الغرب. وكان وداعنا حاراً جداً. لقد كان واثقاً تماماً من إحرازه الانتصار، على الرغم من أنه أفشى في مذكّراته عن شعورٍ بالقلق ما كان يمكن استشفافه من سلوكه، مما يُبرهنُ على أنَّ صاحبنا جوليان قد وصلَ أخيراً إلى سن الرشد. وللمرة الوحيدة احتفظَ برأيه لنفسه.

رافقني جوليان وأوريباسيوس بعد الظهر حتى العَرَبة التي انطَلَقَتْ من باب القصر متوجّهةً إلى فيين. وحين ولجتُ العربة مع طاقمها المعتاد من الأساقفة والعملاء السرّيين، همسَ جوليان في أذني، " سوف نلتقي في القسطنطينية ". وقد كانت تلك آخر مرة أجتمع به إلى أنْ ألتقينا فعلاً في القسطنطينية، مما أدهشني. حسبتُ أنه سيموت قبل حلول فصل الخريف.

جوليان أوغسطوس.

هنا يجب أن ألخِّص ما فعلتُه في بلاد الغال خلال السنوات الأربع التي كنتُ فيها قيصراً فعّالاً. لقد عبرتُ نهر الراين ثلاث مرات. واسترجعتُ ألفَ شخص أُخِذوا أسرى على الضفة المقابلة منه. ومن معركتين وحِصارٍ أَسَرْتُ عشرة آلاف سجين، رجالاً في ريعان شبابهم. وخلال تلك السنوات، بعثتُ إلى قسطنتيوس أربع كتائب من جنود

المُشاة الممتازين، وثلاثاً أخرى من جنود المشاة (ليسوا جيدين جداً)، وسريّتين ممتازتين جداً من الخيّالة. استعدتُ كل مكان احتُلَّ وحوصِرَ من قِبَل البرابرة، يبلغ عددها خمسين بلدة تقريباً.

بعد تعزيز دفاعاتنا حتى مدينة أوغست، تقدَّمتُ في وقتٍ متأخِّرٍ من فصل الصيف إلى فيين عن طريق بيزانسون. بشكلٍ عام، أمضيتُ ثلاثة أشهر في ساحة القتال في ذلك الصيف.

كنتُ آمل أنْ أجدَ ماكسيموس في بيزانسون. كانت هناك إشاعة تقول إنه موجود هناك، في انتظاري. ولكن على الرغم من أني أرسلتُ عملاء للبحث في كل مكان، فلم يعثروا له على أثر. وفي بيزانسون مررتُ بتجربة غريبة بينما كنتُ أتمشّى في أرجاء المدينة، وحدي، أستمتعُ بالمشاهد. وهو مشهد جميل من القلعة القائمة فوقَ صخرة عالية. المكان مُحصَّن جيداً، ليس فقط ببروزه بل بنهر دوبس الذي يكتنفها كخندق من الماء.

وبيزانسون الآن بلدةٌ صغيرةٌ، لكنها كانت ذات يوم مدينةً هامة فيها عديدٌ من المعابد المهجورة، ورُفات من عصرٍ أفضل.

بينما كنتُ واقفاً أمام معبد زيوس المُدمَّر، رأيتُ رجلاً يرتدي زيَّ الكلبيين. كنتُ متأكّداً من أنه ماكسيموس حتى إني تقدَّمتُ منه من الخلف وربتُّ على كتفه لأفاجئه. ونجحتُ. استدار وكم شعرتُ بالحَرَج حين وجدتُ أنه ليس ماكسيموس بل هو شخص كنتُ قد قابلتُه مرةً في منزل بروهيريسيوس. عَلَتْ حمرَةُ الخجل وجهينا وتلعثمنا. ثم حيّاني، وقال، " ما أعظم القيصر إذ يتذكَّر صديق شبابه، الفيلسوف المتواضع، مجرَّد باحثٍ عن الحقيقة... "

قلتُ، دون أنْ أعترف بأني أخطأتُ وحسبتُه شخصاً آخر، " أهلاً بكَ في بلاد الغال. يجب أنْ تتناول طعام العشاء معي ". وهكذا أضفتُ إلى أفراد حاشيتي وطوال عدَّة أشهر أحد أشد مَنْ عرفتهم في حياتي إثارةً للضجر. ولا يزال أوريباسيوس يناكدني بذكرهِ حتى يومي هذا. ولكن لم يُطاوعني قلبي أبداً على طرد الرجل، وهكذا مكثَ بيننا ليلةً بعد أخرى، ليُفسدَ كل أحاديثنا. لماذا أجدُ من الصعب أن أقولَ ببساطةٍ " كلا! "، لماذا أنا رعديد؟ إنني أحسد الطُغاة. أيضاً، لماذا أحكي هذه الحكاية في حين

أنَّ هدفي هو فقط وصفُ الأحداث الحاسمة؟ ولأنني أكره أنْ أصفَ حالتي الفكرية في ذلك الشتاء في فيين قرَّرتُ، كما كان يوليوس قيصر قد فعلَ قبلي، أن أعبر جبالَ الألب. ولطالما قلتُ إني تصرَّفتُ دفاعاً عن النفس، وإنني لم أرغب في اغتصاب العرش، وإنني فقط أردتُ أنْ يعترف قسطنتيوس بي كأوغسطوس شرعي في الغرب. ومع ذلك يجب أنْ أعترف بأني وجدتُ من المستحيل أنْ أصفَ ما شعرتُ به حقاً. وحدهم المؤرخون يستطيعون أنْ يتأكَّدوا من دوافع المرء! ومع ذلك، إنني أنوي أنْ أسجِّلَ الحقيقة، مهما كانت مؤلمة ومهما ألقَت عليَّ سُمعةً سيئة.

دخلتُ فيين في أول شهر تشرين أول تقريباً. وانتقلتُ إلى قصر الحاكم الإمبراطوري. كان قد أصبحَ لي عندئذٍ حاشية خاصة تتألَّفُ ممّا يُقاربُ ألفَ رجلٍ وامرأة، وعبد وجندي. ولا أدري كيف تتمدَّد تلك الحواشي، لكنها تفعل، وهي مُكلفة بصورةٍ مُدمِّرة حتى للأباطرة... أقولُ حتى؟ بل خاصةً للأباطرة! أسكنتُ نبريديوس، الحاكم الإمبراطوري الجديد، دارتي القديمة القريبة من السور. وقد كان رجلاً صالحاً بقدرٍ كافٍ وحكيماً بحيث اكتفى بذاته.

في ذلك الوقت اتَّخذتُ قراراً هاماً. فقد جرى القانون بأنْ تُعرَض صورة الإمبراطور في الأماكن العامة كلها، سواءً مرسومةً كانت أم مُمثَّلة. وكان القَسَمُ يتمُّ عليها. ولا يُعتَبَرُ أيُ قرارٍ نافذاً إلاّ إذا اتُّخِذَ في مرأى من صورته. وهكذا كان وجه قسطنتيوس الكُلّي الوجود، بعينيه العاطفيتين وفمه المشدود، ينظرُ من علٍ إلى كل موظف رسمي في الغرب، بمَنْ فيهم أنا. وفي يومي الأول في فيين، أمرتُ بوضع صورتي الخاصة، بوصفي أوغسطساً، إلى جانب صورته. وهكذا أصبح كلانا يُحدِّقُ، جنباً إلى جنب، إلى المُتقاضين والمُحامين. وقد سمعتُ أننا كنا معروفَين بـ " الزوج والزوجة "، بما أنني بدوتُ الزوجَ ذا اللحية وهو، بوجهه الأملس وجواهره، بدا الزوجة.

طوال فصل الصيف كانت الرسائل من قسطنتيوس تنهالُ عليَّ. لماذا سجنتُ لوبيسينيوس؟ لماذا سرقتُ القمح الذي يخصُّ حاكمية إيطاليا؟ أين الجنود الذين وعدتُه بهم؟ والجياد؟ لماذا لقَّبتُ نفسي أوغسطوساً؟ وأمِرتُ بتقديم تقريرٍ فوريّ إلى قسطنتيوس في إنطاكية. بل إنه حدَّدَ لي أفراد حاشيتي الذين يمكنني أنْ أجلبهم معي: لا أكثر من مئة جندي، وخمسة من الخصيان... كان يستمتعُ بوضع اللوائح. ومع ذلك وضعتُ لكلِ رسالةٍ مُتَّهِمة جواباً لطيفاً، ووقَّعتُها كلها بلقب " قيصر ".

بينما كنتُ أجمعُ الجيشَ في الغال، كان قسطنتيوس يواجه صعوباته مع آرساسس، ذلك الملك الأرمني الذي لا يُمكنُ الوثوق به، والذي كان يُظَنُّ أنه يتعاملُ مع الفُرس سراً. ومنذ ذلك الحين قرأتُ المخطوط السرّي للّقاء الذي جرى بين آرساسس وقسطنتيوس. كان صاعقاً. لقد حصل آرساسس على كل ما طَلَبَه في مقابل أنْ يبقى كما كان ينبغي أنْ يكون منذ البداية : موالياً لنا نحن الذين ندعم ليس فقط عرشَه بل واستقلال بلدَه. كان قسطنتيوس بلا حولٍ ولا قوة أثناء التفاوض. ولكي يضع ختمه على " التئام الشمل " ذاك (لا وجود لأي كلمة تصف عقد تحالُف في مسارٍ التزمَ به لتوِّه بقَسَمٍ وبمعاهدةٍ)، أعطى قسطنتيوس آرساسس ابنة الحاكم الإمبراطوري العجوز أبلابيوس زوجةً له. اسمها أولمبيا، وكان من المفترض أن تتزوج ذات يوم من قسطنتيوس، مما جعل منها أقرب صِلة له بقريبةٍ غير متزوجة. وهي الآن ملكة أرمينيا، جليلية تقيّة ومُعادية لي.

أثناء عملية التبادُل تلك بين الإمبراطور والأرمني، دارَ كثيرٌ من الحديث عني. إنَّ قراءة نسخٍ بسيطةٍ عن الأحاديث يتمُّ مناقشة أمرِ المرء فيها وكأنه إحدى شخصيات ملحمة.

فتحَ آرساسس الموضوع : هل سيُقاتلُ جوليان الإمبراطور؟ قسطنتيوس وجدَ أنَّ ذلك أمر مستبعَد. وإذا فعلتُ، تلبية لإشارةٍ منه، فسوفَ تهاجمني القبائل الجرمانية على نهر الراين. ثم، إذا نجوتُ بحياتي، سوف يعترض السيثيّون طريقي وأنا متوجّه إلى الشرق، وهناك أيضاً جيوش إيطاليا وإليريكوم الموالية.

أرادَ آرساسس أنْ يعرف إنْ كان صحيحاً أنَّ انتصارات جوليان في بلاد الغال بزَّت انتصارات يوليوس قيصر. أجابَ قسطنتيوس بغضب : " إنَّ كل ما أُنجِزَ في بلاد الغال أنجزه قادتي، تنفيذاً لأوامر الحاكم الإمبراطوري، الذي يُطيعُ أوامري ". ثم تابعَ قسطنتيوس فأعلنَ أنه هو نفسه حقَّقَ كل تلك الانتصارات، على الرغم من تخبُّطي اليائس. في الحقيقة، لقد كنتُ من قلّة الكفاءة بحيث أنَّ قسطنتيوس اضطرَّ هو نفسه إلى أنْ يتولّى قيادة الجيش شخصياً لكي يُحقِّق انتصار ستراسبورغ الشهير!

يجب أنْ أعترف بأنني ارتعشتُ من فرط الغضب حين قرأتُ تلك الأسطُر. نعم، أنا تافه. لا سبيل إلى إنكار ذلك. إنني أريدُ الفضل. أريد الشرَف. أريد الشهرة. لكنني

أريدُ فقط ما هو حقي. لقد ذُهلتُ من جراءة قسطنتيوس. كيف استطاعَ أنْ يكذب بكل ذلك التهوُّر؟ لابدَّ أنَّ آرساسس عَرَفَ أنَّ قسطنتيوس كان يُصبحُ في منطقة الدانوب سارماتيكوس سارماتيكوس، بينما كنتُ أُحرِّر الغال. وأميلُ إلى الاعتقاد أنَّ آرساسس قد علِمَ فعلاً أنَّ الإمبراطور يكذب، لأنه في نسخة الحديث قام بسرعة بتغيير الموضوع.

ذُهلتُ خاصة من فقرة تدور عني (كم نقرأ عن أنفسنا بنَهَم!). قالَ قسطنتيوس إنني لا أملك أي موهبة في المجال العسكري: إنني مُتحذلِق كان يجب أنْ يُترَك في جامعة أثينا. علّقَ آرساسس بأنَّه يبدو أنَّ المتحذلِق قد جمعَ حوله حاشيةً مذهلةً من أقرانه المتحذلقين في باريس. بل إنه خلعَ عليهم ألقاباً. قال قسطنتيوس إنه يوافق على أنَّ مجموعة أساتذة المدارس التي احتفظتُ بها سوف تُشغلني بالكُتُب وبالجدال التافه بحيث لن أجد وقتاً لأفكِّر في الخيانة. وتبرَّعَ بعرض رسالة " التملُّق " على آرساسس التي أُعلِنُ فيها ولائي له، وأرفضُ لقب " أوغسطوس ". قال آرساسس إنه يودُّ حقاً الحصول على نسخ، وهي حاضرة. أتساءلُ هل عرضَ عليه الرسائل كلها؟ إنني أحمرُّ خجلاً لدى التفكير في أنَّ ذلك الأرمني يقرأ رسائلي ذات الطابع الاسترضائي والسياسي إلى أعلى درجة (لكنها ليست " متملِّقة " أبداً).

ثم قال آرساسس " إنني أذكُرُ رجال حاشية جوليان لأنَّ هناك إشاعةً تدور مفادها أنهم جميعاً مُلحدون ". والمُدهِش أنَّ قسطنتيوس بدا أنه غير مُهتم مُطلقاً بهذا. اكتفى بالتعليق قائلاً إنَّ أساتذة المدارس في الغالب غير أهل للثقة، وقذرون، وجشعون، وعاقّون، ومُلتحون... وكلهم من الكلبيين، قالها بتبجُّح. ولكن كان واضحاً أنَّ آرساسس قلق؛ كان يأمل في أنْ يكونَ جوليان جليلياً صالحاً. قال قسطنتيوس إنه واثق من أنني كذلك ولكن ذلك غير ذي أهمية، بما أنني بعد انتهاء الحملة الفارسية لن يعودَ لي وجود. بعد ذلك انتقلا إلى مواضيع أخرى.

بعد ذلك تقدَّمَ قسطنتيوس جنوباً إلى ميليتينا، ولوكاتينا وساماراث. عَبَرَ نهر الفرات وتوجَّه إلى إديسا، وهي مدينةٌ كبيرة في بلاد ما بين النهرين، تبعُد ستينَ ميلاً إلى الغرب من أطلال أميدا، وهي الآن في أيدي سابور بحق الغزو. وكان جيش قسطنتيوس يكبر يومياً باطّراد، لكنه لم يكن يفعل أي شيء به. وأخيراً، ومع بداية فصل الخريف، سارَ إلى أميدا. وعلى مرأى من قواته، بكى؛ وهذه لفتة غير مُساعِدة

في الحرب. وفي ذلك اليوم نفسه، أطلقَ أورسولوس، كونت الهبات المقدَّسة، عبارته التي كثيراً ما تُقتَطَف، " انظر مدى الشجاعة التي يحمي بها أولئك الجنودُ المواطنين، ويُفلسنا دفعُ رواتبهم! ". هذه العبارة الساخرة كلَّفَته بعد ذلك حياته. إنَّ المرءَ يتعاطفُ مع أَمناء المال، ولكن يجب تقديم واجب الاحترام إلى الجنود، خاصةً أولئك الذين حاربوا في أميدا في ظلِ ظروفٍ مستحيلة.

من أميدا، زحفَ قسطنتيوس مسافةً تقتربُ من ثلاثينَ ميلاً إلى الجنوب من بزاباد، وهي بلدةٌ فارسية تقع على نهر دجلة. وضربَ حِصاراً حولها، ولكن بسببِ حماس الفارسيين الشديد وعجزه الخاص، صَمَدَتْ بزاباد في وجه كل هجومٍ شُنَّ عليها. ثم حلَّ فصل الأمطار. والذين كانوا هناك أخبروني أنَّ الرعد والبرق كانا مُرعبَين. وقد اهتزَّ إيمان رجالنا بما اعتبروا أنه غضبٌ من السماء - ولعله كان كذلك، موجَّهاً إلى قسطنتيوس. أيضاً، كان هناك عددٌ لا يُحصى من أقواس قزح، مما يعني أنَّ الإلاهة أيريس قد أُرسِلَتْ من السماء لتُحدثَ بعض التغيير في الشؤون الإنسانية. وتخلَّى قسطنتيوس عن الحِصار وانسحَبَ إلى إنطاكية لقضاء فصل الشتاء.

في تلك الأثناء، كنتُ أرتِّبُ أموري في فيين. أرسلتُ في طلبِ مجموعةٍ متنوعة من الحكماء والمتنبِّئين، بمَنْ فيهم هيروفانت اليونان. استشرتُ العرَّافين والكتب المقدَّسة؛ وقدَّمتُ الأضاحي للآلهة... سراً، طبعاً، لأنَّ فيين مدينةٌ يُهيمنُ عليها الجليليون. واتَّفقَتْ الدلائل كلها على أنني سأسود وأنَّ قسطنتيوس سيسقط. ومع ذلك لم أُهمِل الأمور العملية. فكل نبوءة مفتوحة للتأويل وإذا اتَّضَحَ أنَّ معناها هو غير ما ظنَّه المرء، فذلك ليس خطأ الآلهة بل خطأنا نحن الذين أسأنا تأويل إشاراتها. وقد أحسن شيشرون الكتابة عن هذا الأمر. وأنا لديَّ ثقة خاصة بالأحلام، وأتَّفقُ مع أرسطو على أنَّ الرسائل الهامة الآتية من السماء غالباً ما تُرسَل إلى الناس أثناء نومهم، على الرغم من أنه لكي يكون لأحلامنا معنى من الضروري أن تُغطي الجفون العيون لكي لا تلتفت يساراً ولا يميناً بل تبقى ثابتة، وهذا أمرٌ صعب التحقيق غالباً.

في نهاية تشرين أول، خلال انعقاد المجمع المقدَّس، بعثَ أوريباسيوس رسالة إليّ. يجب أنْ أذهب مباشرةً إلى زوجتي. كانت تُحتَضَر.

كانت هيلينا مستلقية على السرير، مُغمَضة العينين. نحيلة ما عدا منطقة البطن،

الذي كان ضخماً بشكل عجيب من تحت الغطاء. كان أوريباسيوس واقفاً إلى جوارها بينما أساقفة فيين وباريس يرتّلون ويصلّون. أمسكتُ بيد هيلين، التي أضحت الآن فاترة الحرارة، وقريباً ستصبح باردة. إنَّ من قبيل المعجزة أنْ تُغادر الروح الجسَد، توبّخنا ساخرةً من تفاهة ذلك اللحم الذي استَعْبَدَنَا تماماً أثناء الحياة، بما أنه نحنُ، أو هكذا يبدو.

تكلَّمَتْ بنبرة صوت عادية " جوليان "

وجدتُ أني لست أستطيعُ أنْ أقول أيَّ شيء، سوى غمغمات بأصوات الحنو. لكنني كنتُ أعاني معها على الرغم من أنني لم أكن بالضبط أعرفها. لقد كنا حيوانَيْن فخمَيْن، مربوطين بنيرٍ واحد إلى سيدٍ واحد ليجراً عربة من ذهب. والآن ها أنَّ أحدَ الحيوانين قد سقطَ بين الأخاديد.

" يقولون إنني أُحْتَضَرُ "، قالتْ هذا قبل أنْ أتمكَّن من تقديم مواساتي التقليدية، "لا يهمني هذا. أنا لستُ خائفة. تذكَّرْ فقط أنَّ الجناح الجديد في الجهة الشرقية ليس له إلاّ سقفٌ مؤقَّتْ. لم يتوفَّر الوقت اللازم لوضع النوع المناسب من الآجُرّ. أنتَ تعلم النوع الذي أعنيه. أعتقد أنهم يُسمّونه الآجُر النبيل. على أي حال، القهرمان يعرف ماذا عليه أنْ يشتري. يجب إزالة السقف المؤقَّتْ قبل هطول أمطار الربيع. وقد وضعتُ تقديرات التكلفة. سوف يكون مُكلفاً، لكننا نستطيع أنْ نأخذها من حسابي في روما. سوف تفسُد زخرفة الموزاييك الجديدة إذا ما هطلَ مطر غزير، وهذا مُرجَّح في مثل هذا الوقت من العام في روما ". مع انتهاء تلك الكلمات، ماتتْ هيلينا، وهي تفكِّر في دارتها الجميلة في فيا نومنتانا.

نظرَ الأساقفة إليَّ بحنق وكأنني بطريقة ما مسؤول عن إفساد استمتاعهم. ثم باشروا الصلاة، بأصواتٍ عالية جداً. غادرتُ الغرفة. وفي الصالة الخارجية وجدتُ نساء هيلينا.

" الملكة ماتت ". لم أشعر بأي شيء. وبدأنَ العويل.

قلتُ بصفاء " أعْدِدْنَها، ووفّرنَ دموعكنّ "

ولجنَ غرفة النوم. وضعَ أوريباسيوس يده على كَتِفي. نظرتُ حولي إلى كل الأشياء التي امتلكتْها هيلينا، وارتَدتْها، ولَمَسَتْها.

أخيراً قلت، بتعجُّب حقيقي، " لا أدري بماذا أشعر "

" يجب أنْ تشعر بارتياح. لقد عانَتْ. والآن انتهى الأمر "

أومأتُ برأسي موافقاً. " نحنُ دُمى، وطفلٌ مقدَّس يرفَعَنا عالياً ويُنزلنا أرضاً، ويُحطِّمنا متى يشاء "

هكذا انتهى زواجي. أُرسِلَ جثمان هيلينا إلى روما ودُفِنَتْ في الضريح نفسه الذي يحوي أختها قسطنتيا وابننا. تذكَّرتُ أيضاً أنْ أُصدِر أوامر بتبديل الآجُر في الدارة. حين توفيَتْ هيلينا كانت في الثانية والأربعين من عمرها. وكنتُ في الثامنة والعشرين. في اليوم التالي لوفاتها أعلنتُ عهد التبتُّل، كتقدُمة لسيبيل لفضلها المستمر.

في السادس من شهر تشرين ثاني عام ٣٦٠، احتفلتُ بعامي الخامس كقيصر، أو " الذكرى الخُماسيّة "، كما يُسمّيها الرومانيون.

وجدتُ أنَّ من الحِكمة تحويل تلك الذكرى إلى حَدَثٍ عظيم. ومن المعروف جيداً أنني أمقتُ ما يجري في المضامير، سواء أكانت ألعاباً، أم قتالاً أم ذبحاً للحيوانات. ولكن هناك أشياء معيَّنة يجب إقامتها في مكانٍ عالٍ؛ والألعاب من أهمّها. فإذا نجحَتْ الألعاب، يحظى المرء بشعبية عند العامة. وإذا لم تنجح، لا يحظى بشيء.الأمر بهذه البساطة. وعلى الرغم من أنني لعنتُ مرات عديدة قناصل الجمهورية القديمة الذين بدؤوا تلك العادة المملّة المُكلِفة، إلاّ أنني طالما قمتُ بما هو مُنتظَر مني وما أستطيع تنفيذه بما هو متوفِّر من الموارد.

سمعتُ أنَّ الألعاب في فيين أحرزَتْ نجاحاً. لا أستطيع أن أحكُم بنفسي. كنتُ قليلاً ما أحضرها. لكنني حين أظهر، كنتُ أظهر كأوغسطوس. كنت أضعُ تاجاً ثقيلاً من الذهب لم أتعوَّد عليه، مُبرِّراً ذلك لنفسي بأنه رمز للشمس، الموازية لله. في ذلك العام بدوتُ إمبراطورياً بكل معنى الكلمة. حتى أوريباسيوس كان راضياً؛ لم يكن يحتمل الرداء المُشبَّك الأرجواني القديم الذي كنتُ أظهر به على الملأ. كان يشتكي قائلاً " تبدو فيه أشبه بموجِّه الألعاب الرياضية "

تبادلتُ وقسطنتيوس رسائل مُهذَّبة حول وفاة هيلينا. ثم في شهر كانون أول تلقَّيتُ إعلاناً يُفيدُ بأنَّ قسطنتيوس قد تزوَّجَ من سيدة من إنطاكية اسمها فاوستينا. فبعثتُ إليه مُهنِّئاً. في تلك الأثناء، كان كلٌّ منا يُعدُّ العدَّة لنشوبِ حربٍ أهلية.

في شهر كانون أول وقعَ عددٌ من الأحداث الهامة. فبعد ظهر ذات يوم بينما كنتُ أتدرَّب على استخدام الترس والسيف (أفعل ذلك تقريباً كل يوم، لأنني انتسبتُ

متأخّراً إلى عالم الجندية وعليَّ أنْ أجتهد أكثر من غيري لأقوّي عضلاتي وأتعلّم دقائق القتال)، انكسرَ ترسي وانحلَّ عن المِقبض وعن الحزام، وسقطَ على الأرض مُحدثاً صوتاً عالياً أمام أعين كامل الفيلق البتولانتي الذي كنتُ أتدرَّب معه. وقبل أنْ يستطيع أحدٌ أنْ يؤوِّل هذا كفألٍ سيئ، قلتُ بصوتٍ عالٍ " انظروا! "، ورفعتُ المقبض الذي كنتُ لا أزال أقبضُ عليه، " إنني أحتفظ بما كنتُ أمسك به! ". وقد فُهِمَ كلامي على أنه يعني أنني سأحتفظُ ببلاد الغال، مهما حدث. لكنني أصبتُ بالحيرة إلى أنْ كانت تلك الليلة التي حلمتُ فيها أنني رأيتُ مرةً أخرى إله روما الحارس. كان يقفُ إلى جانب سريري، وكلّمني بشِعرٍ شديد الوضوح:

حين سيصلُ زيوس النبيل إلى برج الدلو
ويصل زُحل إلى درجة خمسة وعشرين من برج العذراء،
سيبلغ قسطنتيوس، ملك آسيا، في هذه الحياة العذبة،
نهايته من فرط الهمّ والحزن.

كان هذا تقريراً صافياً كما يأمل المرء أنْ يحصل عليه من الآلهة. في صباح اليوم التالي أخبرتُ أوريباسيوس بما حدث، وهو بدوره استدعى ماستارا، أفضل المُنجّمين الاتروسيين. كشفَ طالع قسطنتيوس فوجدَ أنَّ الإمبراطور سوفَ يموت فعلاً في غضون بضعة أشهر. بل إنه حدَّدَ التاريخ بأحد أيام شهر حزيران عام ٣٦١ . ولكن على الرغم من تلك الطمأنة السماوية، فإنني لم أنتهز أي فرصة. وواصلتُ استعدادي للحرب.

كنتُ مُعجَباً بالحاكم الإمبراطوري، نبريديوس، مع أنه لم يكن مُعجَباً بي، للسبب نفسه الذي جعلني أُعجَب به: إنه مُخلصٌ لسيّده وأنا احترمتُهُ لهذا. ومع ذلك على الرغم من ولائه لقسطنتيوس، إلاّ أنه لم يتآمَر ضدي. ولهذا السبب، سمحتُ له أن يُباشرَ المهام الرسمية للحاكم الإمبراطوري، ولكن لا أكثر من ذلك. ولكن على الرغم من صِلاتنا الودّية، فقد كان دائماً يترقَّب الفُرَص للإيقاع بي. وقد دبَّرَ لي موقفاً مُحرِجاً ممتازاً.

ففي السادس من شهر كانون ثاني، يحتفلُ الجليليون بشيءٍ اسمه عيد الغطاس. وهو اليوم الذي يُفتَرَض أنَّ الجليلي تعمَّدَ فيه. ولما خمَّنَ كراهيتي للجليليين، أعلنَ

نبريديوس أمام جمهور المدينة أنني سأحضرُ عيد الغطاس الذي سيُقامُ في بيت موتى فيين، وهو بازيليكا جديدة دُفعَتْ تكاليف بنائها من هِبات هيلينا الكثيرة للأساقفة. وقد غضبتُ كثيراً لِما فعل لكنني لم أجرؤ على إظهار ذلك. ويؤسفني أنْ أقول إنَّ أوريباسيوس قد تسلّى بورطتي.

قمتُ بما يتوجَّب عليّ كارهاً. أمضيتُ ساعتين في تأمُّل عِظام فخذ أحد الأوغاد الذي كانت الأسود قد التهمته في روما، بينما كان الأسقف يُلقي عليَّ موعظةً فخمة، ويُصلّي كي أجثم بكل ثقل فخامتي على الأعداء الآريانيين. بل إنه تحوَّلَ إلى السياسة بإيحائه إلى أنَّ قسطنتيوس هو آريانيّ وأنَّني ربما أثاناسيوسي، لذا يمكن رسم خطٍ بيننا في كل الأمور، وأنَّ جانبَ " الحقيقة " (وأيضاً جانب الفخامة، كما أضافَ بوضوح) سوف يسود، داعماً عرشي كالأعمدة، هكذا أعتقدُ أنه شبَّه الأمر، أو لعلّه استخدمَ عبارة الكراتيد[٩٥] المقدَّسة. وعندما حان وقت الصلاة، كانت كلماتي موجَّهة إلى الجليليّ لكنَّ قلبي كان يُخاطبُ زيوس.

كان فصل الشتاء هو وقت الانتظار. وأصبحتُ مستعداً للخروج إلى القتال. كل ما كنتُ أحتاجُ إليه هو إشارة من السماء. وعلى الرغم من أنَّ حاكم روما لم يسمح لرسلي باستشارة الكتب التنبؤية، إلاَّ أنَّ كاهناً ودوداً من النظام القديم استطاعَ أنْ يُلقي نظرة على جزءٍ من ذلك الكتاب الذي يصفُ عصرنا. ووفقاً لتقريره السرّي، سأكون حقاً الإمبراطور التالي. وسيكون عهدي عاصفاً لكنه طويل الأمد. وهذا كل ما أطلبه : الوقت. وقت لاستعادة شبابِ عالمٍ عجوز، وتحويل الشتاء إلى ربيع، وتحرير الإله الواحد من الوحش الثلاثي للمُلحدين. امنحني عشرين عاماً، يا هيليوس، وسوفَ املأ الأرض بحمد نورك، وأنيرُ دروب مملكة هيدس الملتوية المُظلمة! وكما عادت برسيفون إلى ديمتر، كذلك سيعود موتى عصرنا الأحياء إلى ذراعيك، وهما النور، والحياة، وكل شيء!

في شهر نيسان علِمتُ أنَّ قبيلة الملك فادومار الجرمانية قد عَبَرَتْ نهر الراين وهي تُدمِّر المنطقة القريبة من ريتيا. هذا الخبر كان مُحيِّراً بشكلٍ خاص لأننا كنا قبل سنتين تفاوضنا حول عقد سلامٍ " نهائي " مع فادومار. لم تكن لديه أي شكوى منا. كان إنساناً متحضِّراً، وحصَّلَ ثقافته في ميلانو. كان حَذِراً بفطرته. وكان دائماً يردُ على أي

مظهر لاستخدام العنف بتقديم ألف اعتذارٍ والاسراع بالانسحاب إلى جانبه من النهر. وكون فادومار الآن ناشطاً في ميدان القِتال ضدي لا يعني إلاّ شيئاً واحداً: أنه يعمل تنفيذاً لأوامر قسطنتيوس.

بعثتُ إلى فادومار الكونت ليبينو؛ كان جندياً ومُفاوضاً جيداً، أو هذا ما حسِبتُه. أرسلتُه مع نصف فيلق وأوامر لكي يُناقشها عقلانياً مع فادومار. فإذا فشل العقل معه، فليكن التهديد بالفناء بالترتيب. وصل ليبينو حتى سيشنغن على نهر الراين. وهناك أحاطَ به الجرمان من كل جانب. ولسوء الحظ، كان ليبينو توّاقاً إلى القتال، مع أنَّ مهمَّته كانت تنحصر في التفاوض. وكالأحمق، أمرَ رجاله بالهجوم. وبعد خمس دقائق، قُطِع ليبينو نَفْسُهُ نصفَين بسيفٍ جرمانيّ، وذُبِحَ رجاله الذين كان عددهم لا يتجاوز واحد إلى خمسة بالنسبة إلى الجرمان.

ثم أرسلتُ البتولانتيين إلى الراين فإذا بهم يجدون أنَّ الهمجيين قد اختفوا في عمق الغابات، بغموضٍ كما ظهروا. وسادَ السلام منطقة الراين فترة وجيزة من الزمن. في الحالة العادية كنتُ سأقبلُ ذلك كما بدا : مجرَّد غارة وحيدة شنَّها قبليّون قلقون، دون علمٍ من فادومار، الذي كان طِوال الوقت يكتب لي رسائل طويلة وفصيحة، يعرِض عليَّ فيها أنْ يُنزِلَ العقاب برجاله، هذا طبعاً إذا اتَّضحَ أنَّهم مُذنبون. بل إنه أرسلَ هِبةً مالية لعائلة المتوفّى ليبينو.

لم أُصدِّق فادومار، لكنني كنتُ راغباً في نسيان المسألة إلى أنْ نجح أحد رجال حرس الحدود في اعتراض رسولٍ جرمانيّ متّجه صوب الشرق. اتَّضَحَ أنَّ الرسولَ يحملُ رسالةً من فادومار إلى قسطنتيوس. وأقتطفُ منها ما يلي : " لقد تمَّ تنفيذُ إرادتكَ، يا مولاي، وقيصركَ القليل التهذيب سوف يؤدَّب ". هذا كل ما كنتُ أحتاجُ إليه. وعلى الفور أرسلتُ أحد الموظّفين العامّين، وهو شاب ذكي اسمه فيلوجيوس، لينضمَّ إلى البتولانتيين الذين كانوا ما يزالون موجودين في سيشينغن، بالقُربِ من بلد فادومار.

ليبانيوس : أشعرُ أني مُضطرٌ إلى أنْ أضيف أنَّ ذلك " الشاب الذكي الذي اسمه فيلوجيوس " نفسه عيَّنه ثيودوسيوس حديثاً كونتاً على الشرق. وهو مسيحيٌ تقيّ ولا أحد يعلم كيف سيصيرُ حالنا في ظل حكمه. ليت جوليان أرسله بدلَ ليبينو الذي نُسيَ أمره منذ زمنٍ بعيد إلى ذلك اللقاء القاتل الذي جرى على نهر الراين! ولكن على أي

حال، لو لم يكن هو، لوضعَ القَدَرُ في طريقنا آخرَ أسوأ منه. وقد صلَ الكونت إلى إنطاكية في أوائل هذا الشهر . رأيته للمرة الأولى بالأمس في مجلس الشيوخ. أخذَ يتنقَّلُ بيننا كطائر تمَّ وجدَ نفسه في بركةٍ صغيرة جداً ومقيتة. هل أجرؤ على ذِكر اسم جوليان أمامه؟

جوليان أوغسطوس.

سلَّمتُ فيلوجيوس تعليمات مختومة. إذا قابلَ فادومار على جانبنا من النهر، عليه أنْ يفتح الرسالة ويُنفِّذ ما أُمِرَ به. وإلاّ، فليُدمِّر الرسالة. كنت واثقاً كلّ الثقة من أنه سيُقابلُ فادومار، الذي غالباً ما يمرُّ في منطقتنا، ويقومُ بزيارةِ أصدقاءٍ له من الرومان. وكالعديد من النبلاء الجرمان، كان من بعض النواحي رومانياً أكثر من الرومان.

قابلَ فيلوجيوس فادومار في حفل استقبال أقامه متعهِّد بناء محلّي. في اليوم التالي دعا فيلوجيوس الملك إلى مائدة العشاء مع ضباط الفيلق البتولانتي. قال فادومار إنه يُسعده أن يتناول الطعام مع رجال مميَّزين مثلهم. حين وصلَ على موعد العشاء، استأذنَ فيلوجيوس بالانصراف قائلاً إنه نسيَ أن يُعطي تعليماتٍ معيَّنة للطبّاخ. ثم قرأ رسالتي. وفيها آمُرُه بالقبض على فادومار بتُهمة الخيانة العُظمى. ففعلَ فيلوجيوس، أمامَ ذهول ضيفه.

بعد ذلك بأسبوع، جُلِبَ فادومار إليّ في فيين. استقبلتُهُ وحدي في غرفة مكتبي. إنه رجل وسيم، أزرق العينين، أحمر الوجه من إفراطه في شرب الخمر وبتأثير فصول الشتاء الباردة. لكنَّ سلوكه كان مُهذَّباً كأي فرد من البلاط الروماني. كان يتكلَّم اليونانية بطلاقة. وكان خائفاً جداً.

قلت " لقد أسأتَ الاختيار، أيها الملك "

تلعثمَ : لم يفهم قصدي.أعطيته الرسالة التي اعترضنا طريقها. تحولَ الوجه الأحمر فأضحى مُبقَّعاً.

" لقد نفَّذتُ ما أُمرتُ به، أيها الأوغسطوس... "

" في الرسالة لقَّبتَني قيصر "

" كلا، كلا، أيها الأوغسطوس. أعني، كنتُ مضطراً إلى ذلك حين كتبتُ له. لقد أمَرَني بمُهاجمتك. ماذا يسعني أنْ أفعل؟ "

" كان يمكنكَ أن تحترم معاهدتكَ معي. أو كان يمكنكَ أنْ تُحسِنَ الاختيار، كما نوَّهت في أول الأمر. كان يمكنكَ أن تختارني بدل أنْ تختارَ قسطنتيوس سيداً لك "

" لكنني فعلتُ، يا مولاي العظيم. إنني أفعلُ الآن! ولطالما فعلتُ. لولا... "

" لا تزدْ! "، أسكتّه بإشارةٍ مني. لم أكنْ أستمتعُ برؤية رجلٍ آخر يتذلّلُ أمامي. "في الواقع، أنتَ - ورسالتكَ - كنتما مصدر فائدةٍ عُظمى لي ". استعدتُ الرسالةَ منه. " الآن في حوزتي دليلٌ على أنَّ قسطنتيوس ليس فقط يُبيِّتُ لتدميري، بل ويغوي البرابرة لمهاجمة شعبه. الآن صرتُ أعرفُ ماذا عليَّ أنْ أفعل، وكيف أنفّذه "

" ولكن ماذا ستفعل، أيها الأوغسطوس؟ ". تلهّى فادومار برهة عن التفكير في مصيره.

" ماذا سأفعل؟ سوف أنفيكَ إلى إسبانيا ". انطَرَحَ على وجهه امتناناً، ولم أتخلَّص من عناقه إلاّ بصعوبة، وحوّلتُهُ إلى الحرّاس.

أرسلتُ في طلب أوريباسيوس. لم أكنْ في حياتي مُبتهجاً كما كنتُ عندئذٍ. هتفتُ حين اجتمعنا، " نحن مستعدّون! كل شيء جاهز! ". لا أذكرُ الآن ماذا قلتُ أيضاً. أعتقد انني " بربرتُ " كما يُسمّي بريسكوس كلامي أثناء نوبات الحماس. وأذكُرُ أنَّ أوريباسيوس، وهو المستشار الأشدّ تحفُّظاً، وافقني بلا أي تحفُّظ. فإما الآن أو أبداً. بقيَتْ هناك فقط عقبة واحدة ممكنة، مزاج الفيالق. كان بعضهم لا يزالون عنيدين بخصوص مغادرة الغال.

قمنا معاً بدراسة جدول الخدمة العسكرية. فالوحدات التي تميل إلى التمرُّد أرسلناها كحاميات دائمة إلى المدُن النائية من بلاد الغال. أما الباقون فسوف يجتمعون وهم في أكمل جاهزية في الخامس والعشرين من شهر حزيران، حين ستبدأ مُهمَّتي لاستنهاض هِمَمهِم لخوضِ الحربِ ضد قسطنتيوس. وهذا أكبر تحدٍّ يواجه الخطيب. وأخذتُ أتدرَّب على إلقاء خطابي في كل يوم طوال ثلاثة أسابيع. وباشرَ أوريباسيوس بتوجيهي إلى أنْ حفظِه هو أيضاً عن ظهر قلب.

عند فجر اليوم الخامس والعشرين، اجتمعنا أنا وأوريباسيوس مع عددٍ من

الضباط من ذوي التفكير المتشابه في كنيسةٍ صغيرة تقعُ قبالة غرفة الاستشارة. وهناك قدَّمتُ تقدمة خاصة لبيلونا، إلاهة المعارك. كانت النُذُر تبشِّرُ بالخير. ثم، اندفعتُ، وأنا متوتِّر الأعصاب من التفكير في الخطاب المُنتظَر، وأنا في أبهى حُللي لأستعرِض الفيالق المجتمعة في حقلٍ خارج المدينة، بعد البوابة التي كنتُ قد دخلتُ فيين من خلالها قبل ذلك بخمس سنوات، وأنا فتى غرّ مع حفنة من الجنود الذين لم يكونوا يُحسِنون إلاّ الصلاة. فكَّرتُ في ذلك بينما كنتُ أشقُ طريقي إلى المِنصَّة الحَجَرية، وعُنُقِي مُتيبِّس من تحت ثقل الذهب.

ليس في حوزتي نسخة من هذا الخطاب. في الحقيقية، يبدو أنَّ سكرتيري الأول لم يُحضِر أياً من ملفاتي الخاصة على الرغم من أني طلبتُ بشكلٍ خاص إحضارها معنا، لعِلمي أني سأؤلف هذه المذكّرات في بلاد الفرس. ومع ذلك، أنا أتذكَّر مُعظَم ما قلته فيها، حتى الإيماءات التي أجدُ نفسي أكرِّرُ القيامَ بها وأنا أردِّد الكلمات التي قُلتَها قبل سنتين. ولن أزعج القارئ بقائمةٍ من الإيماءات، ولن أكرِّر كل كلمة من الخطبة المُنمَّقَة. سأقول فقط إنني كنتُ في أحسن حالاتي.

أولاً، خاطبتُ الجيش بـ " أيها الجنود النبلاء ". وهذا أسلوب غير معهود في مُخاطبة الجيش، وقد سبَّبَ كثيراً من التعليق. ومع ذلك أردتُ أنْ أؤكدَ لهم على أهميتهم بالنسبة إليّ وعلى احترامي لهم. تكلَّمتُ عن كل ما أنجزناه معاً ضد الجرمان والفرنجة. " أما الآن وبعد أنْ أصبحتُ الأوغسطوس، فسوف أضع نُصبَ عَينَيّ، بمعيّة دعمكم ودعم الإله - إذا ما حالفنا الحظ - تحقيقَ أهدافٍ أعظم. ولكي نسبق أولئك الذين في الشرق؛ الذين يضمرون لنا الشر، أقترحُ أنه بما أنَّ حاميات إليريكوم ما تزال صغيرة، أن نحتلَّ ديسيا كلّها ومن ثم نُقرِّر ماذا نفعل بعد ذلك. ولكي تدعموا خطَّتي هذه أريد منكم، تحت القَسَم، أنْ تعدوني بالرضوخ الدائم والمُخلص. ومن ناحيتي، سأبذل قصارى جهدي لتجنُّب الضعف والجُبن. وأُقسِمُ أيضاً على ألاّ أباشِرَ أيَّ شيءٍ لا يعود بالفائدة علينا جميعاً. إنني فقط أناشدكم : لا تفعلوا أيَّ شيءٍ يضرُّ بالمواطنين الأفراد، لأننا معروفون للعالم أجمع ليس فقط بأننا المنتصرون في الراين؛ بل أننا الذين جعلوا نصفَ العالم بسلوك المنتصرين القويم مُرفَّهاً وحُرّاً ".

هناك كثير من هذا النمط. وفي النهاية، أقسموا، مع كثير من الهتاف والتعهُّد

بأصوات عالية، على أنْ يتبعوني إلى نهاية الأرض، وهذا نوعٌ من المبالغة بما أنَّ اهتمامهم الفوري كان الاستيلاء على الغنائم كنتيجةٍ لِما أدركوا مُسبقاً أنه سيكون حملة سهلة على ديسيا.

حين طلبتُ منهم أن يُقسِموا على التعهُّد بولائهم لي كأوغسطوس، فعلوا، وسيوفهم مُسلَّطة على نحورهم. ثم التفتُّ إلى الضباط وكبار الموظفين المجتمعين حول المِنصَّة الحَجَرِيّة:

" هلاّ أقسمتُم، أنتم أيضاً، على الولاء لي، باسم الله؟ ". طرحتُ سؤالي وِفقاً لِما تتطلَّبه الأصول. أقسمَ الجميع، ما عدا نبريديوس. وصدَرَتْ عن أفراد الجيش زمجرةٌ مُهدِّدة.

" ألا تُقسِم بالولاء لي، أيها الحاكم؟ "

" كلا، أيها القيصر. لقد أقسمتُ من قبل على دعم الإمبراطور. وبما أنه لا يزال على قيد الحياة، فلا أستطيع أنْ أُقسِم من جديد دون أنْ أُعرِّضَ روحي للخطر ". كان صوته يرتعش، ولكن ليس إرادته.

لم أسمع إلاّ كامل جوابه، لأنه عند وصوله إلى كلمة " قيصر " زأرَ الرجال من الغضب. واستُلَّت السيوف. قبضَ أحد أفراد الفيلق على نبريديوس من عنقه وكادَ يرميه إلى التراب فأسرعتُ إلى النزول عن المِنصَّة ووقفتُ حائلاً بين الجندي والحاكم. تشبَّثَ نبريديوس، وقد شحبَ لونه شحوبَ الموت، برُكبَتيَّ. خلعتُ ردائي ورميته عليه: وهي الإيماءة القديمة التي تعني أنَّ الرجلَ قد حظيَ بحماية الإمبراطور. ثم هتفتُ للفيالق. " سوف يُعاني ما فيه الكفاية حين سنصبحُ سادةَ روما! ". هذا القول الديماغوجي[٩٦] شتَّتَتْ انتباه الرجال، وأمرتُ بأخذ نبريديوس تحت الحراسة إلى القصر.

ثم استعرضتُ القوات. كان مشهداً رائعاً، وعملَ اليوم الصيفي ذو اللون الأزرق المخضرّ ومشهد عشرين ألف رجل سائرين على الإيقاع العسكري المُنتظَم على تبديد الشكوكِ كلها التي كانت تعذّبني آناءَ الليل. في مثل تلك اللحظات يُدرِكُ المرءُ أنَّ الحربَ هي أحد أوجه الإله الأساسية، وأنَّ تجمُّع الجيش لغزٌ على طريقته لا يقلُّ جمالاً عن جمال إليوسيس. تخفقُ القلوبُ كلها لبرهةٍ من الزمن على إيقاع الموسيقى نفسها. كنا مُتَّحدين في واحد ولم يكن هناك أي شيءٍ في العالم لا نستطيع أن نفعله!

حين عدتُ إلى القصر، وأرسلتُ في طلب نبريديوس الحرون. نفيتُه إلى توسكاني. وكان يتوقَّع الموت. قال والدموع تترقرقُ في عينيه، "أيها القيصر، أعطني يدك. دعني... امتناناً... "، لكنني تراجعتُ.

" إذا أعطيتُكَ يدي، فلن يبقَ لديَّ أيّ احترام أو إشارة حب أعطيها لأصدقائي ". كان ذلك آخر عهدٍ لنبريديوس في بلاد الغال.

في الثالث من شهر تموز اشتبكتُ في قتال قسطنتيوس. كانت النُذُر ممتازة والجو صافياً.

انتقلنا شرقاً إلى أوغست، وهناك دعوتُ إلى اجتماع أركان الحرب. وكالمعتاد، احتفظتُ بخُططي لنفسي؛ حتى أوريباسيوس نفسه لم يكن يعلم بنواياي، على الرغم من أننا كنا نسيرُ معاً، ونأكل معاً ونتسامرُ عن أيام المدرسة.

كان معي من الآمرين نيفيتا - الفرنجي العظيم الذي أُعجِبتُ به باطّراد مع تقدُّم معرفتي به؛ وجوفينوس، الضابط الكفء؛ وغوموريوس، الذي لم أثِق فيه أبداً، لأنه كان قد خانَ آمره فترانيو حين تمرَّدَ على قسطنتيوس؛ ومامرتينوس، السكرتير الجيد؛ وداغاليف، لعلّه أفضل آمر للخيالة في تاريخ الجيش الروماني. بدأتُ بإعلان أنَّ سالوست في طريقه الآن إلى فيين ليعمل كحاكمٍ إمبراطوريّ؛ وسوف يقومُ مقامي. واستُقبِلَ هذا استقبالاً حَسَناً. لم يكن سالوست فقط محطَّ إعجابي بل كان محطَّ إعجاب الرجال كلهم.

" الآن لديَّ بعض التعيينات أقررها ". لم أكن مُضطراً إلى النظر في الورقة التي أمامي؛ كان في استطاعتي أنْ أقومَ بالمهمة المقيتة من المرة الأولى. " يا غوموريوس، إنني أُقيلك كآمرٍ للخيالة. هذا المنصِب يذهب إلى نيفيتا ". ساد صمت. غوموريوس لم يقُل أيّ شيء. كان الجميع يعلمون بدافعي لذلك. لقد كنا، نحن أفراد الجيش، عائلة صغيرة، على الرغم من حجم الإمبراطورية. كلنا يعرفُ مثالبَ الآخر ومزاياه. "لقد عيَّنتُكَ، يا جوفينوس، قسطوراً؛ وأنتَ يا مارمرتينوس، خازناً؛ وداغليف، آمراً على الحرس الوطني "

ثم مشيتُ حتى الخريطة المنشورة على الطاولة. " إننا نفوقُ بنسبة عشرة إلى واحد عدد الجيوش المجتمعة لإليريكوم وإيطاليا. ولحُسن الحظ، تلك الجيوش ليست مجتمعة

معاً. إنها تتألَّفُ في غالبيتها من جنود حاميات، في حين أنَّ جيشنا هو جيش مناضل، متعوِّدٌ على الهجمات السريعة. والآن، ما هو أفضل مسار للتحرُّك؟ " سكتُّ. اعتبروا سؤالي نوعاً من البلاغة وقد كان كذلك فعلاً. " حين ينتابكم الشك، قلِّدوا الإسكندر. فحين كان يقلُّ عدد جيشه بشكلٍ خطير عن عدد جيش العدو، كان يوزِّع جنوده بطريقةٍ تُعطي الانطباع بأنَّ لديه من الرجال أكثر بكثير من تقدير أي إنسانٍ لهم. لذا أنوي أنْ أقسِّم الجيش إلى ثلاثة أجزاء. سوف نبدو كأننا نُهاجمُ من الجهات كلها.

" جوفينوس سوف يسير في الدرب المتّجه مباشرةً إلى إيطاليا ". أشرتُ إلى الخريطة. " سوف تلاحظ أنني علَّمتُ الطُرقَ الرئيسية لك. انتشرْ على طولها. أريدُ أنْ يراك الجميع. وأنتَ يا نيفيتا، خُذ الطريق الوسطى، باتجاه الشرق عبر ريتيا. وسوف آخذُ أنا ما تبقّى من الجيش وأذهبُ شمالاً خلال الغابة السوداء إلى الدانوب. ثم أتّجه شرقاً فجنوباً على طول نهر الدانوب، ومباشرةً إلى سيرميوم. ومَنْ يستولي على سيرميوم يُسيطر على إليريكوم وعلى الطريق إلى القسطنطينية ". ثم التفتُّ إلى نيفيتا. " أنتَ وأنا سوفَ نتواعد على اللقاء في سيرميوم، في موعدٍ أقصاه شهر تشرين أول "

لم يعترض أحدٌ على خطَّتي. وبالمصادفة، بالنسبة إلى الذين قد فهموا من التاريخ أنَّ الأباطرة المقدَّسين لا يناقضهم مَنْ يخدمونهم، يجب أن أقول إنَّ الحال ليس كذلك في ساحة القتال. فعلى الرغم من أنَّ كلمة الإمبراطور نهائيّة، فإنَّ أيَّ آمرٍ حرٌ في مناقشته قدرَ ما يشاء إلى أنْ توضع خطة الحرب موضع التنفيذ. شخصياً، طالما شجَّعتُ الجِدال. وغالباً ما انحدرَ إلى مستوى المماحكة، ولكن أحياناً تتحسَّن استراتيجية المرء. ولكن هذه المرة لم يكن هناك كثير من النِقاش، بل مجرَّد جدالات معتادة حول مَنْ يحصل على أي فيلق. في اليوم التالي تمَّ تقسيم الجيش، وبدأ غزو الغرب.

الغابة السوداء مكان غريب ومنذر بالشؤم. حين رأيتها من الداخل فهمتُ الجرمان بصورةٍ أفضل. " المكان مسكون؛ ثمة شياطين تتربص في كل ظل فيه... ويا لها من ظِلال! حتى عند الظهيرة، تكون الغابة مُعتِمة فتبدو كأنها غارقة في بحرٍ أخضر عميقٍ يهمسُ. وبينما كنَّا نسير على الممرات الوعرة الهادئة، كان الفيلقان يسيران برتلٍ ثنائيّ متعرِّج، كأفعى بحرية بطيئة على أرض قاع المحيط. لحُسن الحظ، كان معنا مُرشدان

موثوقان يعرفان كل انعطافة وانحناء في الغابة. لا أدري كيف فعلا ذلك، لأنه لم تكن هناك أي علامات من أي نوع؛ ومع ذلك كانا يعرفان طريقهما خلال المتاهة الخضراء. على مدى أيامٍ طويلة لم نرَ خلالها الشمس، إلى أنْ يئستُ من رؤية إلهي مرةً أخرى.

بحلول منتصف شهر آب وصلنا إلى وادي نهر الدانوب البريّ ولكن الجميل. ومع أنَّ مشهد النهر ليس رائعاً كنهر الراين، إلاّ أنَّه ليس غادراً أثناء مخره. لذا قرَّرتُ أنْ آمرَ ببناء قوارب. وأثناء إتمام تلك المهمَّة، تلقَّيتُ واجب الولاء من القبائل المحليّة. كانوا مذهولين برؤية إمبراطورٍ رومانيّ (على الرغم من أنه ليس بالضبط شرعياً!) يصلُ إلى ذلك العمق في أرض الشمال. وحين اكتشفوا أنني لا أنوي لهم أي أذى، تعاونوا معنا إلى أقصى درجة وتبرَّعوا بأن يعملوا كمرشدين في النهر. إنهم أناسٌ وسيمون، ناعمو البشرة، يغلب عليهم الحياء أحياناً.

في تلك الأثناء، كان المراسلون يصلون من جوفينوس، حاملين الأنباء الطيبة. لقد سقطَتْ مدينة ميلانو. وأرسلتْ إليَّ أيضاً آخر أخبار قسطنتيوس. لقد تقدَّمَ سابور إلى نهر دجلة. فتقهقرَ قسطنتيوس إلى إديسا، وهناك استكانَ، مُتجنّباً القتال. وتسلّيتُ بملاحظةِ أنَّه عيَّنَ فلورنتيوس حاكماً إمبراطورياً على إليريكوم. من الواضح أنني كنتُ خصمه اللدود. كنتُ قد طردته من أرض الغال؛ وقريباً سأطرده من إليريكوم. وأعتقد أنه من بين كل الذين كرهوني، كان هو أشدَّ كراهيةً لي. ولاشك في أنَّ لديه العذرَ الأفضل لذلك!

أبحرنا في الدانوب خلال بلدٍ ذهبيّ، غني بالحصاد. لم نتوقَّف في أي بلدةٍ أو حصن؛ تلك التي أخذ عددها يزداد كلما أوغلنا أعمق في الشمال. لم يكن لدينا وقتٌ نضيّعه. فإذا استوليتُ على سيرميوم، ستصبح كل تلك البلدات ملكي بالحق، ولكن إذا توقَّفتُ لكي أضربَ حِصاراً حول كلٍ منها فلن أنتهي من القتال. وقد كانت غالبية السكان المحليين ميّالةً إلينا؛ ولكننا لم نختبرذلك فيهم عملياً.

في أوائل شهر تشرين أول، ليلاً، والقمرُ يشحبُ لونه، وصلنا إلى بونمونستر، وتقع إلى شمال سيرميوم بتسعة عشر ميلاً. وهي بلدة صغيرة، ليس عليها حامية. ولما كان الوقتُ متأخِّراً، أمرتُ الرجال كلهم بالرسو على الشاطئ. ونصبنا مُخيّماً على ضفة النهر.

لا أعلمُ إنْ كان ما حصل شائعاً بين مَنْ جلسَ في موقعي، لكنَّ ما عرفتُه

كمُغتصب للعرش (ويجب أنْ أُلَقَّب بهذا الاسم الفظ) هو أنني أينما ذهبتُ يتجمهرُ حولي أولئك الذين يتمنَّونَ الخير لي والمُخبرون كاحتشادِ النحل حول العسل، إلى أنْ اضطررتُ إلى إجراء عملية غربلة لاختبار كل حليف مزعومٍ وتقرير إذا ما كان يمكن الاستفادة منه. وقد أثبتَتْ الغالبية أنها صادقة؛ ولكنني أثبتُّ أنني منتصر!

قبل أنْ يغيبَ القمر، كنتُ قد علِمتُ أنَّ الكونت لوسيليانوس موجودٌ في سيرميوم، مع جيشٍ جرّار وأوامر بتدميري. لكنَّ لوسيليانوس لم يكن ينتظر وصولي إلى المكان قبل أسبوعٍ آخر، ولذلك كان عندئذٍ نائماً قرير العين في سيرميوم.

حالما سمعتُ تلك التقارير، أرسلتُ في طلب داغاليف، وأمرتُه أنْ يتوجَّه مباشرةً إلى سيرميوم مع مئة رجل؛ لكي يقبض على لوسيليانوس ويعود به. كانت مهمّة خطيرة، ولكنني علِمتُ من الجواسيس أنَّ المدينة ليست محروسة أكثر من المعتاد وأنَّ المكان الذي يُقيمُ فيه لوسيليانوس قريب من البوابة العامة. وليلاً لن يبدو رجالنا مختلفين عن أي جنودٍ إمبراطوريين آخرين؛ ولن يواجهوا أي مشكلة في دخول المدينة. أما الباقي، فيعتمد على شجاعة داغاليف وبراعته.

بعد أنْ غادرَ دياغاليف، تمشيتُ مع أوريباسيوس على ضفة النهر. كانت ليلة دافئة. وفي السماء الداكنة ظهرَ القمر المشوَّه، أشبه برأسٍ من الرخام المُهترئ، صبغَ كل شيء باللون الفضي. وخلفنا اشتعلَتْ النيران والمشاعل في المخيَّم. كان الرجال هادئين؛ فقد صدرتْ إليهم الأوامر بعدم إثارة أي ضجيج دون داع؛ وحدها الخيول كانت تعصي أوامري أحياناً، بصهيل مفاجئ حادّ. وعند أعلى ضفة النهر توقفنا.

قلتُ، وأنا ألتفتُ إلى أوريباسيوس، الذي جلس على صخرة، يُحدِّقُ إلى السطح البرّاق المائل الذي يُلقيه ضوء القمر عبر المياه العميقة البطيئة الحركة، " أحبُ هذا "

رفعَ أوريباسيوس نظره إليّ. كان القمر شديدَ البريق فاستطعتُ أنْ أميِّز قَسَماته. عَبَسَ. " هذا؟ أتعني النهر؟ أم الحرب؟ أم السَفَر؟ "

" بل الحياة ". جلستُ على الأرض الرطبة إلى جانبه وصالبتُ قدمَيّ، مُلوِّثاً الرداء الذي ألبسه. " ليس الحرب. ولا السفر. فقط هذا. هذه اللحظة ". تنهّدتُ. " أكادُ لا أصدِّقُ أننا قطعنا نصف العالم. إنني كأنني الريح، من دون جَسَد، خفيّ "

ضحكَ. " لعلّكَ الرجل المرئيّ أكثر من أي إنسان آخر على الأرض، والأشدّ مخافةً"

كرَّرتُ، " مخافةً "، مُتسائلاً إنْ كنتُ سأرتوي من معرفة أنَّه يمكن نزع حيوات الرجال ومصائرهم منهم بإيماءة من رأسي. كلا، لا يمكنني أنْ أستمتع بذلك النوع من السلطة؛ ليس هذا ما أريده.

" وما الذي تريده؟. استطاعَ أوريباسيوس أنْ يخمِّن مزاجي، كما يفعل غالباً.

" أن أسترجع الآلهة "

" ولكن إذا كانت حقيقيّة وموجودة فعلاً... "

" إنها حقيقية فعلاً! ولا وجود لافتراض! إنها موجودة! " كنتُ عنيفاً.

أوقفني ضحكه. " إذن فهي موجودة. ولكن إذا كانت موجودة، فهي دائماً حاضرة، وهكذا لا حاجةَ " لاسترجاعها " "

" ولكن يجب أن نتعبَّد ما يأمرنا الله بعبادته "

" هذا ما يقوله المسيحيون "

" آه، لكنَّ إلههم إله زائف، وأنا أنوي أنْ أبيدهم "

تيبَّسَ أوريباسيوس لدى نُطقي كلمة " أبيدهم " . " أتقتلهم؟ "

" كلا. لن أسمح لهم بنيل متعة الشهادة. ثم إنهم على أي حال يقتلُ بعضهم بعضاً، ولا حاجة بي إلى التدخُّل. كلا، سوف أحاربهم بالعقل وبالقُدوة. أُعيدُ فتح المعابد والاعتراف بالكهانة. سوف نوقِف المذهب الهلّيني على قدميه لكي ينتقيه الناس بكامل إرادتهم "

" أتساءل ". كان أوريباسيوس يتفكَّر. " إنهم أثرياء، ومُنظَّمون جيداً. والأهمّ من ذلك، أنهم يتولّون تثقيف أولادنا "

" سوف نفعل الشيء نفسه! ". كنتُ أفكِّرُ وأنا أتكلَّم؛ ليس لديَّ خُطَّة. " والأفضل من هذا، أننا نستطيع أن نبعدهم عن المدارس "

" هذا إنْ استطعت... "

" الإمبراطور يستطيع "

" قد ينجح هذا. وإلاّ... "

" وإلاّ؟ "

" سوف تضطر إلى أنْ تحكُم كطاغية لعين وحتى عندئذٍ سوف تخسر "

" أنا لستُ متشائماً ". لكنَّ أوريباسيوس كان قد أدخلَ فكرةً إلى رأسي، فكرةً

ستعمل على إنقاذنا جميعاً. والغريب في الأمر، أنه على الرغم من أننا كثيراً ما تحدَّثنا عمّا سيكون عليه الحال حين سأصبحُ إمبراطوراً، فإنَّ أياً منّا لم يمعنِ التفكيرَ في الشكل الذي ستأخذه المنافسة بين الهلّينية والجليليين . واتّفقنا على أنه حين أستطيع سأعمل على إنكار الناصري، ولكن لم يُفكِّر أيٌ منا عما يمكن أن تكون ردَّة الفعل، خاصةً من العامة الذين صار نصفهم تقريباً من الجليليين. وحده الجيش كان متديِّناً حقاً. الرجال يعبدون ميثراس. وكان بعض الجليليين من بين ذوي الرُتَب، على الرغم من أنَّ ثلث الضباط يؤمنون بالوحش الثلاثي.

مشينا إلى أنْ طلعَ الصباح. وبينما كانت الشمس ترتفع فوق حافة العالم، كالنذير. عادَ دياغاليف إلى المُخيَّم مع الكونت لوسيليانوس سجيناً.

هرعتُ إلى الخيمة. وعلى الأرض كان لوسيليانوس منطرحاً برداء النوم، مُكَتَّفاً كدجاجةٍ. كان مرعوباً. للوهلة الأولى نظرتُ إلى جسده المرتجف، وتذكَّرتُ أنَّه في آخر مرة رأيته فيها كان سجَّانَ أخي. ثم أرخيتُ أربطته ورفعته ليقف على قَدَمَيه. هذه الإيماءة الودّية خفَّفَتْ قليلاً من قلقه. إنه رجل ضخم الجثة، يسيرُ على حِمية غذائية خاصة. أمضى سنين عديدة لا يأكل إلاّ ما يُنتجه ضرع الخنازير؛ هذا على الأقل ما سمعته.

" يسعدنا أنكَ تمكنتَ من الحضور إلينا خلال فترة قصيرة هكذا، أيها الكونت ". كنتُ رسمياً ولكن ودّياً.

" ليتني كنتُ أعلم، أيها القيصر... أعني الأوغسطوس... كان يجب أنْ أقابلك بنفسي... "

" وتقتلني، كما فعلتَ بغالوس؟ "

" كنتُ أُنفِّذُ الأوامر، أيها الأوغسطوس، ولكن يمكنكَ أنْ تعتمد على ولائي لكَ في هذا الخِلاف. لطالما كنتُ موالياً. ودائماً فضَّلتُكَ على الإمبراطور في إنطاكية "

" إننا نقبلُ ولاءكَ، وقوّاتك، ومدينتُكَ سيرميوم، وولاية إليريكوم "

شَهَقَ لكنه انحنى رضوخاً. " فلتكُن إرادة الأوغسطوس. كل ذلك لك "

" شكراً لكَ، أيها الكونت ". كنتُ في مزاجٍ عالٍ. إنَّ لوسيليانوس رجلٌ من النوع الذي لا يستبق التفكير - لاحظ فَشَلَه في تخمين وصولي - والذين لا يستبقون التفكير يميلون إلى قبول السائد؛ ولا يتآمرون أبداً.

قلتُ " والآن اقسم أمامي "، فأقسَمَ؛ وقبَّلَ الرداء الأرجواني، وتلوَّثَ وجهه بقليلٍ من طمي الدانوب. " سوف تحتفظُ برتبتكَ. أيها الكونت، وتخدم في جيشك "

استعادَ لوسيليانوس طبيعته بسرعة. " إذا سمحتَ لي، يا مولاي، إنَّ ما فعلتَه هو عمل متهوِّر جداً، بمجيئك إلى هنا بجيش قليل العدد وسط منطقةٍ تخصُّ شخصاً آخر "

" احتفظْ بحكمتكَ، أيها الكونت، لقسطنتيوس. لقد مددتُ لكَ يدي ليس لأجعلكَ مستشاري بل لأخفِّفَ من خوفك "، والتفتُّ إلى مامرتينوس. " اعطِ الأمرَ إلى الجيش. سنسيرُ إلى سرميوم "

سيرميوم مدينة كبيرة، تصلُح أن تكون مقرَّ العاصمة الإمبراطورية إلى أقصى حد، تقومُ على الحدود بين ولاية إليريكوم ودوقيّة ديسيا - وهي البلد التي تقع في أقصى غرب ولاية الشرق. عندئذٍ كنتُ أقفُ على عتبة منطقةٍ تُنسَب تقليدياً إلى أوغسطوس الشرق.

كنتُ قد حذَّرتُ ضباطي من أنَّه قد تقع حوادث. لم أتوقَّع أنْ تستسلم المدينة دون مقاومة رمزية، على الرغم من أنَّ آمرها أصبحَ الآن معنا، يركبُ إلى جانبي.

لكنني دُهِشتُ حين قُوبلنا خارج أبواب المدينة بحشدٍ غفيرٍ من الرجال، والنساء والأطفال، حاملين سلاسل من الأزهار، وأغصان الأشجار، وعدداً هائلَ من الأغراض المقدَّسة. وهللوا لي كأوغسطوس بأغرب ما رأيتُ من حماسة.

التفتُّ إلى لوسيليانوس. وهتفتُ له من فوق الضجيج الهادر، " أأنتَ أعددتَ هذا ؟ "

هزَّ رأسَه نفياً. كان من فرط الحماقة بحيث كَذَب. " كلا، أيها الأوغسطوس. لا أعلمُ مَنْ أعدَّه... "

قال أوريباسيوس " إنها معجزة! إنهم يعرفون أنكَ ستنتصر. دائماً يعرفون "

لَطَمَتني باقة من الزهور على وجهي. أزحتُها جانباً، شاعراً بوخزٍ في عينيّ؛ وعلقَ في لحيتي برعمٌ أحمر بلون الدم. وأخذ الرجال والنساء يُقبّلون طرفَ ردائي، وساقَيَّ، وحصاني. وصحبوني هكذا إلى داخل عاصمة إليريكوم في وقتٍ كان العنب لا يزالُ أخضر. كانت أول مدينة كبرى تسقط لصالحي، وتبلغ ضعف حجم ستراسبورغ أو كولونيه أو حتى تريفيس. والتاريخ كان الثالث من شهر تشرين أول، عام ٣٦١ .

توجَّهتُ من فوري إلى القصر، وإلى العمل. استقبلتُ أعضاء مجلس شيوخ

المدينة. وهدّأتُ مخاوفهم. وأقسموا على الولاء لي، كما فعلَتْ الفيالق داخل المدينة. وأمرتُ بأنْ تعمل عربات السباق على تسلية الجماهيرِ طوالَ أسبوعٍ بدءاً باليوم التالي، وهو أحد الأعباء التي يضعها المغلوب دائماً على كاهل الغالب. واستقبلتُ نيفيتا، الذي صَدَقَ في وعده، بسرورٍ غامر، وكان قد وصلَ سيرميوم بعد عبوره عبور المُنتصرِ أرضَ ريتيا. وأصبحَ الغربُ لنا.

أمرتُ باجتماع هيئة الأركان، وتناقشنا حول تحركنا التالي. فضَّلَ بعضٌ السيرَ مباشرةً إلى القسطنطينية، التي تبعُد مائتي ميل. وبيَّنَ دياغاليف أنه مع وجود قسطنتيوس في إنطاكية، سوف تسقط القسطنطينية في أيدينا دون قتال. نيفيتا لم يكن واثقاً من ذلك. كان يخشى أن يكون قسطنتيوس قد خرج فعلاً من إنطاكية قاصداً العاصمة. فإذا كان الأمرُ كذلك، فلن نستطيع، في الواقع، أنْ نواجه أعظم جيش على وجه الأرض. وافقتُ نيفيتا. سوف نمكثُ حيث نحنُ خلال فصل الشتاء.

أوكلتُ إلى نيفيتا مهمّة الدفاع عن ممر سوتشي، وهو ممر ضيّق في أعالي الجبال يفصل ثريس عن إليريكوم. ومَنْ يُسيطرْ على ذلك الممر يأمنِ الهجوم من اليابسة. ثم أرسلتُ فيلقَين من سيرميوم إلى أكيليا، لكي يحتلاً ذلك المرفأ البحري الهام لصالحنا. وانسحبتُ مع الجزء الرئيسي من الجيش مسافة تقارب خمسين ميلاً إلى جنوب شرق نيش (مسقط رأس قسطنتيوس)؛ هنا لجأتُ إلى المقرّ الشتوي.

كانت الأسابيع التي أمضيتُها في نيش مزدحمة بالعمل. ففي كل ليلة كنتُ أُملي حتى طلوعِ الفجر. كنتُ مُصمِّماً على أنْ أعرِض قضيتي ضد قسطنتيوس بأوضح صورة ممكنة لكي يقرأها الجميع ويفهمها. بعثتُ رسالة مطوَّلة إلى مجلس الشيوخ الروماني. وكتبتُ أيضاً رسائل منفصلة إلى أعضاء مجلس الشيوخ في سبارطة، وكورينث وأثينا، شارحاً فيها ما أنجزتُه وما أنوي أنْ أنجزه. ووضعت اللوم في كل ما حدث بقوة ولكن بعدل على قسطنتيوس. ثم طمأنتُ أعضاء مجالس الشيوخ المختلفة - على الرغم من تحذير أوريباسيوس لي بألاّ أفعل - بنيَّتي أنْ أُعيد عبادة الآلهة القديمة، مُبيّناً أنني شخصياً أقلّدها، بالاكتفاء بأقلّ الحاجات، لكي أرضي أكبر عددٍ منها. وتلك الرسائل تُقرأ على نِطاقٍ واسع. وقد تركَتْ أثراً عميقاً وإيجابياً.

خلال تلك الفترة خطَّطتُ لشنِ هجومٍ برمائيّ على القسطنطينية حالما يُتاح الوقت المناسِب. كنا في وضعٍ جيد عسكرياً . في سوتشي كنا نهيمن على شمال إيطاليا.

وشعرتُ بأمانٍ مُبرَّر، وكنتُ واثقاً من أنَّ قسطنتيوس، وقبل اندلاع الحرب الأهلية، سوف يتّصل بي. لكنَّ إحساسي بالأمان تهشَّمَ بعنفٍ حين علمتُ أنَّ الفيلَقَين الذين أرسلتهما إلى أكيليا قد أسرعا بالانضمام إلى صف قسطنتيوس. أصبح المرفأ الآن تحت سيطرته، وأصبحتُ مُعرَّضاً للهجوم من البحر. ولما لم أكن قادراً على مغادرة نيش ولم يعُد نيفيتا قادراً على مغادرة سوتشي، فقد أصبحَ أملي الوحيد مُعلَّقاً على جوفينوس، الذي كان موجوداً في النمسا في طريقه إلى نيش. فبعثتُ إليه برسالة هستيرية : تقدَّم فوراً إلى أكيليا. كان وضعي عندئذٍ قد أضحى محفوفاً بالمخاطر. الآن يستطيع قسطنتيوس في أي لحظة أنْ ينزل بقواته على بر أكيليا ويقطع طريقي إلى إيطاليا وبلاد الغال. كنتُ يائساً، وواثقاً من أنَّ الآلهة قد تخلَّتْ عني. لكنها لم تفعل. ذلكَ أنها تدخَّلَتْ، في اللحظة الأخيرة.

في ليلة عشرينَ من شهر تشرين ثاني كنتُ أعمل في وقتٍ متأخر. وكانت المصابيح المملوءة بالزيت الرخيص تدخِّن بشكل فظيع. وكان سكرتيرو نوبة الليل الثلاثة جالسين على طاولة طويلة، وأمامهم أكوام من المخطوطات الرقيّة. وعلى طاولة منفصلة كنتُ جالساً أدبّجُ رسالةً إلى عمي جوليان في محاولة لطمأنته - وطمأنة نفسي - بأنَّ انتصاري حتميّ. كنتُ قد انتهيتُ للتو من كتابة الرسالة، حاملاً واحداً من تلك المخطوطات التي لا يستطيع أنْ يفكَّ حروفها حتى أقدم أصدقائي، حين سمعتُ وقع أقدام سريعة تقترب. فُتِحَ الباب واسعاً دون مراسم. قفزَ الكَتَبَة وأنا معهم واقفين على أقدامنا. لا أحد يعلم إنْ كان القَتَلَة قريبين. لكنه كان أوريباسيوس، منقطع الأنفاس، ورسالةٌ في يده.

لهثَ قائلاً " لقد حصل! ". ثم فعلَ شيئاً لم يفعله قط قبل ذلك. خرَّ على رُكبتَيه أمامي، وقدَّمَ الرسالة إليّ. " هذه لك... أيها الأوغسطوس "

قرأتُ السطر الأول. ثم أخذتْ الكلمات تبهت ولم أعُد أراها. " لقد مات قسطنتيوس ". حين قلتُ تلك الكلمات الاستثنائية، خرَّ الكَتَبَة واحداً إثر آخر على رُكبِهِم. ثم، وكما في حلم، بدأتْ الغرفة تمتلئ بالناس. لقد علِمَ الجميع بما حدث. وقدّموا بيعةً صامتةً لي ذلك أنني أصبحتُ، كما المعجزة، وبعد أنْ انقطَعَتْ أنفاس الرجالِ، الأوغسطوسَ الأوحد، إمبراطور روما، سيِّدَ العالم. ودُهِشتُ، إذ وجدتني أبكي.

أوغسطوس

-١٦-

بريسكوس : هكذا وقعَ الأمر. على الأقلّ حسب رواية جوليان. فكما لابد أنكَ تذكُر، لقد حذفَ عدداً من التفاصيل. ولدى قراءة روايته يعتقد المرء أنه لم يواجه أي مقاومة، إلاّ من قسطنتيوس الخبيث. وهذا غير صحيح. يجب أنْ أذكُر أنَّ غالبية الرجال " المسؤولين " في الإمبراطورية كانوا يُفضِّلون قسطنتيوس على جوليان، والمسألة لا تقوم على أي أساسٍ دينيّ، لأنَّ ولع جوليان بالمذهب الهلّيني لم يكن معروفاً عموماً قبل شهر تشرين ثاني عام ٣٦١ . وأنا واثقٌ من أنكَ تريدُ إبقاء الأمور كما هي في الواقع. وتوازنك الشهير سوف يختلّ بصورةٍ خطيرة إذا سجّلتَ أنَّ نجاح جوليان كان نتيجةَ شعبيتهِ المتزايدة ضد قسطنتيوس. فالأمرُ ليس كذلك - على الرغم من الانطباع الذي أوحيتَ به في خطابك ذي الشهرة التي يستحقُّها عند وفاة جوليان. لكنَّ الأجنحة العظيمة لذكرى ما، تلك التي تشبه أجنحة المديح، لا يُتوقَّع أنْ تُقَصّ بالواقع المُملّ.

ليبانيوس : يا له من أسلوبٍ نموذجي!

بريسكوس : بالمناسبة، إنَّ جوليان يذكُرُ أنه بعثَ رسائل مختلفة إلى مُدُنٍ عدَّة. وقد فعلَ حقاً! لابد أنَّه كتب عدداً كبيراً من الخُطَب الطنّانة المطوَّلة، موجَّهة بأساليب مختلفة إلى أعضاء مجلسَي شيوخ روما والقسطنطينية - وهو إجراءٌ احترازيّ ليس غريباً - لكنّه بعثَ أيضاً بعددٍ مماثل من الاعتذارات لمُدُنٍ مثل كورينث وسبارطة، وكأنَّ لذلك أي أهمية في ميزان السلطة. ولابد أن أعضاء مجالس بلداتهم الفقيرة النائية قد دُهِشوا لتلقّيهم التقدير من الإمبراطور.

لقد كنتُ حاضراً في مجلس الشيوخ في أثينا حين قُرِئت الرسالة على مسامعنا. وبما أني أعلمُ أنكَ لا تريد إلاّ الحقيقة، فيجب أنْ أخبركَ أنَّ الرسالةَ لم تلقَ قبولاً حَسَناً، ومن بين المُدُن كلها كانت أثينا وحدها تميلُ إلى جوليان.

جلستُ بجوار بروهيريسيوس أثناء قراءة الرسالة. كان العجوز سعيداً، ولكن بحَذَر. كذلك كنتُ أنا. وطبعاً، كان الجميعُ في أثينا يدركون أنني فقط مؤخَّراً عدتُ من حيثُ يُقيمُ جوليان؛ ومع ذلك، كنتُ ثابتاً في قولي إنني لا أعرفُ أيَّ شيءٍ عن خِططه. بل إنني مدحتُ قسطنتيوس في مناسباتٍ عِدَّة. فقبل كل شيء، كان يمكن لقسطنتيوس أنْ يبقى على قيد الحياة، وكان يمكن لجوليان أن يُهزَم. وكان يمكن أن أُعدَم بتُهمة الخيانة. وكأي شخص آخر، فضَّلتُ أنْ أتجنَّب التعرُّض لأسى لا لزومَ له على أيدي الطُّغاة.

كنا جميعاً متوتري الأعصاب في بداية الرسالة. (إذا لم تكن في حوزتكَ نسخة من ذلك الخطاب، سأرسل لك نسختي، مجاناً) وطبعاً، شعرنا بالفخر من إشارات جوليان إلى ماضينا العريق، وباحترام تضلّعه الشديدِ المهارةِ بالخطابة، مع أنه كان ميالاً إلى الصيغ الجاهزة، خاصةً حين يناله التعب أو يكتب بسرعة كبيرة. كان نادراً ما يُعِدُّ رسالةً دون " زيركس يتحدَّى الطبيعة " أو يعرض على الملأ " شجرة السنديان " اللعينة تلك التي يبدو أنْ لا أحد من الكتَّاب المُعاصرين قادر على تجنُّبها.

ولكن بعد بدايةٍ جيدةٍ، أخذَ جوليان يُندِّد بقسطنتيوس. ذكَرَ بالاسم القَتَلَة. واستغلَّ عُقم قسطنتيوس (لم يكن يعلم أنَّ زوجة قسطنتيوس الجديدة فاوستينا كانت حُبلى). وشجبَ الخصيان، خاصةً يوسيبيوس. وعرضَ علينا سيرةً ذاتية ضخمة، دقيقة في العموم، انتهت بتقريره أنه الآن موجود في ساحة القتال لأنَّهُ لا أحد كان يمكن أن يثِقَ في كلمة قسطنتيوس، لأنها، كما أعلن (مُعتمداً مرةً أخرى على عبارةٍ مألوفة)، "مكتوبة على الرماد ". هنا بدأ أعضاء مجلس الشيوخ يتنحنحون ويجرّون صناديلهم على الأرض، وهي دائماً دلالة سيئة.

في نهاية الرسالة لم يجرِ نقاش. وانتقل أعضاء مجلس الشيوخ، بكل حِكمة، إلى مواضيعَ أخرى. لم تكن لدى أيٍّ منهم الشجاعة ليتصرَّف كما فعل شيوخ روما حين قُرِئت الرسالة الموجَّهة إليهم، وهتفَ ترتولوس، حاكم المدينة، " نحن نُطالبُ باحترام قسطنتيوس، الذي رَفَعَكم إلى مناصبكم! "

حين انفضَّ المجلس، غادرتُ مع برهيريسيوس المكان. لم يتكلَّم أيٌّ منا مع أحد. وحينئذٍ - كما الآن - كان العملاء السرّيون يتواجدون في كل مكان. كل ما عرفناه هو

أنَّ جوليان كان موجوداً في مكانٍ ما من بلاد البلقان، وأنَّه يبدو أنَّ الغرب أصبح تحت سيطرته، وأنَّ قسطنتيوس يتحرَّك لمهاجمته بجيشٍ جرَّار. لم يكن سهلاً أنْ نعرف كيف نتصرَّف. إنَّ أمثالنا دائماً يتودَّدُ إليهم مُغتصبو العروش ويُطلَبُ منهم الانضمام إلى هذا الحاكم أو ذاك. وبما أنه لا أحدَ يستطيع أنْ يطَّلع على المستقبل، فمن السهل انتقاء الجانب الخطأ. لقد كان موت ماكسيموس عِبرةً، أليس كذلك، أيها الصديق الحميم؟

ولكن طبعاً كلنا متعوّدون على تلك التغييرات المفاجئة في أساليب الحكم بحيث أنَّ هناك أصولاً في كيفية الاستجابة لدعوات يمكن بسهولة أنْ يتَّضِحُ أنها كارثيّة بقدر ما هي مفيدة. فأولاً، يبدو المرء أنه يُقلِّبُ التفكير في الطَّلَب بانتباهٍ شديدٍ؛ ثم يتحجَّج بوجود مشكلة شخصية؛ وأخيراً، لا يفعلُ أيَّ شيء. هكذا نجحنا أنا وأنت في البقاء أحياء حتى هذه السن المتقدمة في مثل هذا العصر العاصف.

أذكُرُ جيداً نزهتي مع بروهيريسيوس. لابد أنَّ ذلك كان في وقتٍ ما في الأسبوع الثاني من شهر تشرين ثاني. كان الجو بارداً، والريح لاسعة، وغيوم بعد الظهر أشد كثافة من المعتاد. وبحركة لا شعورية، شبكَ بروهيريسيوس ذراعه بذراعي. أسرعنا في خطانا بين الحشد الذي تجمَّعَ خارج مقر مجلس الشيوخ. لم نتبادل الكلام إلاّ بعد أنْ تجاوزنا معبد هيفستوس. " أنتَ تعرفه. ماذا سيحدث؟ "

" أعتقدُ أنه سينتصر "

" كيف يمكنه أنْ يفعل؟ إنَّ جيش قسطنتيوس أضخم. والشعب إلى جانبه. إنه حتماً ليس مع صاحبكَ... صاحبنا الطالب الشاب. لقد كان مزاج أعضاء مجلس الشيوخ جليّاً تماماً "

" أعتقدُ أنه سينتصر، هذا كل ما لديّ ". لكنني لم أكن واثقاً كثيراً من نفسي كما بدا من صوتي.

" الكهنة... "، لكنَّ العجوز سكتَ. لم يكن ينوي أنْ يكشف أمره لي. " تعالَ معي إلى المنزل "

وافقتُ، بما أني لم أكن قد اشتقتُ بعد إلى صُحبة هيبيا. فقد كان زواجي، التعيس دائماً، قد غدا غير مُحتَمَل : كانت هيبيا ما تزال غاضبة مني لأنني أمضيتُ ما يُقاربُ سنواتٍ ثلاثاً في باريس، على الرغم من النقود التي كنتُ أرسلها إليها.

لكننا اليوم، بعد خمسين عاماً من الكراهية المشتركة، أصبحَ كلٌ منا يعتمد بشكلٍ كامل على الآخر. إنَّ العادة أقوى من الكراهية.

دُهشتُ إذ وجدتُ ماكرينا في منزل بروهيريسيوس. لم تكن قد ظهرتْ منذ مولد طفلها (زعَمَتْ أنها انجبَته من زوجها رجل الأعمال). كان وزنها قد زاد قليلاً، وجعلها أكثر جاذبية.

حيَّتنا ماكرينا في الفناء الداخلي. كانت مُنتشية. " لقد حصل! وهو على مايرام!"

" ما الذي حصل؟ ومَنْ الذي على ما يُرام؟ ". كان بروهيريسيوس هائجاً.

" أصبح جوليان إمبراطوراً! "

هكذا عرفنا النبأ في أثينا. من الواضح أنَّ الرسالة الرسمية إلى مجلس الشيوخ كانت قد أُخِّرَتْ. لكنَّ جوليان كان قد بعثَ برسالة إلى بروهيريسيوس وإلي، مُسلِّماً بداهةً بأننا قد سمعنا النبأ مُسبقاً. وكنا نحن الاثنين مدعوّين لموافاته في القسطنطينية.

كانت ماكرينا مُبتهجة. " يجب أنْ نذهب جميعنا إلى البلاط. كلنا. سوف نعيشُ في القسطنطينية. كفانا من أثينا. كفانا من الطلاب القذرين... "

" ألم تكتفي من الزوج القذر؟ ". لم أستطع كبح نفسي عن قول هذا. ولم تعد تتكلَّم.

تجهَّمَ بروهيريسيوس، الذي كان يدرس الرسالة. " يقول فيها : " إنني أعبدُ الآلهة الحقيقية صراحةً والجنود كلهم يعبدونها. لقد قدّمتُ للآلهة ثيراناً عديدة كأضاحي شكر لانتصاري، وقريباً سوف أُعيدُ عبادتها بكل صفائها " ". نظر الرجل العجوز إلينا بتجهُّم. " إذن هو جادّ في تنفيذ ما قالَ إنه يودُّ أنْ يفعله "

" ولمَ لا يفعل؟ ". ماكرينا كانت حادّة. " لا يمكنه أنْ يكون أسوأ من الأساقفة "

" إلاّ أنه الآن أصبح إمبراطوراً ولن يبقى أي ثور في العالم! ". أعتقد أنني كنتُ أول مَنْ أطلَقَ ما سرعان أصبحَ نكتة عالمية : كانت أضاحي جوليان كثيرة فكُنِّيَ بـ"حارق الثيران "

باستثناء ماكرينا وأنا، كان بروهيريسيوس في مزاجٍ متشائم. قال " لا أرى غير المشاكل في انتظارنا "

" مشاكل؟ وأنتَ الرجل الذي يحظى بأكبر قدر من إعجاب الإمبراطور؟ ". ماكرينا لم تكن مُصدِّقة. " هراء. ستكونون أنتم المُدرّسون مَنْ يُسبِّبها. وهو سيصبح ماركوس أورليوس[97] آخر. حسنٌ، أو سبتيموس سيفيروس[98] فقط ".

قلت " إنَّ جوليان أفضل من ماركوس أورليوس "، وعنيتُ ما قلت. لقد أُعطيَ ماركوس أورليوس أكثر مما يستحق بكثير أي فيلسوف. والناس - خاصة المثقفون - كانوا في شدّةٍ من الفرح لأنَّ هناك إمبراطوراً يُتقنُ حتى كتابة اسمه بحيث يميلون إلى المغالاة في تقييم إنتاجاته الأدبية. ولو أنكَ أو أنني كنتُ مَنْ ألَّفَ تلك " التأملات "، فأنا على ثقةٍ أنهم ما كانوا اعتبروها شيئاً عظيماً. إنها حتماً أقلّ قيمة من كتابك " أفكار " الممتاز.

لم تصلنا تفاصيل موت قسطنتيوس، أو الطريقة التي تمَّ بها التيقُّن من انتقال الخِلافة، إلا بعد مرور عِدة أسابيع.

جوليان أوغسطوس.

كان قسطنتيوس حسب ما أذكُر، في حالة صحية متدنية طوال بضعة أشهر. كان يُعاني من مشاكل مزمنة في المعدة، وهي نقطة ضعف في العائلة يبدو أنني الوحيد المُستثنى منها (حتى الآن!). وحالما وصلَ إليّ النبأ، أخرجتُ الجميع من الغرفة ما عدا أوريباسيوس. ثم أُحضِرَ إليّ الضابطَان من المجمع المقدَّس. السؤال الأول الذي طرحتُهُ عليهما هو : " كيف مات؟ "

" متأثِّراً بالحُمَّى، أيها الأوغسطوس ". كان الضابط العجوز، ألجيلدوس، هو الذي قدَّمَ مُعظم الإجابات.

" هل شوهدت أي نُذُر؟ ". أردتُ أنْ أعرفَ هذا على وجه الخصوص لأنني سبقَ أنْ تلقَّيتُ عدداً من الإشارات الغامضة خلال الأسابيع القليلة السابقة. من المفيد أنْ يكونَ المرءُ علميَّ التفكير في مثل تلك الأشياء. ألا يمكن أنَّ قسطنتين رأى نذيراً مُهلِكاً ظهرَ لي في وقتٍ واحد رحيماً؟

" كثير منها، أيها الأوغسطوس. فعلى مدى أسابيع عديدة في ساحة القتال كانت تعذّبه أحلامُ يقظة وكوابيس. وفي إحدى المرات، حسِبَ أنه شاهدَ شبحَ والده، قسطنطين

الأكبر، حاملاً بين ذراعيه طفلاً، وسيماً وقوياً، تناوله قسطنتيوس منه ووضعَه على حِجرِه "

التفتُّ إلى أوريباسيوس مُتسائلاً، " هل قسطنتيوس هو مَنْ أوجدني؟ ". كان جليّاً أنَّ الطفلَ في الحلم هو أنا.

" إذن فقد حازَ الفتى على كُرة السُلطة التي كان قسطنتيوس يحملها بيده اليمنى... "

غمغمتُ " العالم "

"... ورماها حتى غابت عن الأنظار! ". وسكتَ ألجيدوس.

أومأتُ إيجاباً. " إنني أفهم الحُلم. هل فهِمَه هو؟ "

" نعم، أيها الأوغسطوس. فبعد ذلك بوقت قصير، حين قدِمنا إلى إنطاكية، باحَ الإمبراطور ليوسيبيوس بأنَّ لديه إحساساً بأنَّ شيئاً كان في حوزته قد ضاع "

قلتُ لأوريباسيوس " إنه روح روما. تلك هي الإشارات ". ومثل كثيرين ممّن يُفرطون في التعامُل مع العالم المادّي، لم يكن أوريباسيوس يؤمن كثيراً بالنُذُر وبالأحلام. ولكنني أعتقد أنه حتى هو تأثَّرَ بما سَمِع. واقتطفتُ من ميناندر[٩٩]، " الروح تُعطى لكل إنسان عند الولادة لتوجِّه مسارَه ". ثم سألتُ عن آخر أيام ابن عمي.

" لقد أمضى أغلب الصيف في إنطاكية، وهو يجمعُ جيشاً لكي... " سكتَ ألجيدوس، وقد اضطربَ." لكي يُهاجمني " كنتُ وديّاً. ولِمَ لا؟ كانت السماء في صفّي.

" نعم، يا مولاي. ثم في فصل الخريف، بعد أنْ راودته كثير من الأحلام والنُذُر المشؤومة، غادرَ قسطنتيوس إنطاكية قاصداً الشمال. وعلى مسافة ثلاثة أميال خارج المدينة في ضاحية... "

" تُدعى هيبوسيفالوس " قال ثيوليف، الضابط الآخر، يُذكِّرنا بأنه هو أيضاً رسول وشاهد عيان. " شاهدنا، على الجانب الأيمن من الطريق، عند منتصف الظهيرة، جثة منزوعة الرأس لرجلٍ يواجه الغرب "

سرَتْ رعشة البرودة في أوصالي وأنا آمل عندما يسقطُ نجمي أنْ أنجو من عذاب رؤية مثل تلك الإشارات.

" ومنذ تلك اللحظة، يا مولاي، لم يعُد الإمبراطور على طبيعته. وأسرع إلى دخول طرسوس، وهناك أقعدته الحمّى "

" لكنه لم يستطع أن يتوقف " قالها ثيوليف، وفجأةً جاءه الوحي : عن موت الأمراء والقَدَر الرهيب الذي يمسُّنا جميعاً. " أعلم هذا. أنا كنتُ معه، كنتُ أركبُ إلى جواره. قلتُ، " يا مولاي، توقف هنا. انتظر. بعد بضعة أيام سوف تتحسَّن صحتك "، لكنه رماني بنظرةٍ من عينيه الزائغتين، وقد اكفهرَّ وجهه بتأثير الحُمّى. وترنَّحَ وهو على السرج. أخذتُ أتفحَّصه بيدي وتحسَّستُ يده، فإذا بها حارة وجافة. قال " كلا "، وكان لسانه جافاً، أيضاً. كان لايكادُ يستطيع الكلام. " سنستمر. سنستمر. سنستمر " قالها ثلاث مرات. وتابعنا المسير "

تابعَ أليجيدوس، " حين وصلنا إلى الينابيع في موسوكرين، كان قد بدأ يهذي. وضعناه في السرير. وأثناء الليل تعرَّقَ وفي صباح اليوم التالي بدا أفضل حالاً. وأعطى الأوامر بالتحرُّك. أطعناه، على مضض. ولكن حين أصبحَ الجيش جاهزاً للتحرُّك، عاد إليه الهذيان. ظلَّ قسطنتيوس مريضاً ثلاثة أيام، وكان جسمه حاراً فكانَ لمسُه مؤلِماً. ولكن كان يمرّ بلحظات صفاء. وفي إحدى تلك اللحظات، وضع وصيته. وهذه هي. " سلَّمَني أليجيدوس رسالةً مختومة لم أفتحها.

" كيف كان حاله، في النهاية؟ "

" حين كان يعود إلى صوابه، كان غضبه يثور "

" مني؟ "

" كلا، يا مولاي، بل من الموت، لأنه يأخذه وهو في ذروة شبابه، لأنه يأخذه من زوجته الشابة "

قلت بلهجة رسمية " أمرٌ مؤلم ". مَنْ منا يكون مجرَّداً من الإنسانية بحيث لا يشعر بشيءٍ أمام رجلٍ يُحْتَضَرُ؟ حتى وإنْ كان عدوَّك هو المُحتضر.

أضافَ أليجيدوس، وكأنه يُلقي كلمة تأبين، " ثم، قُبيل انبلاج الفجر في اليوم الثالث من شهر تشرين ثاني، طلبَ أنْ يُعمَّد، مثل والده. وبعد المراسم، حاول أن يجلس مُعتدلاً. حاولَ أنْ يتكلَّم. اختنقَ. ومات. كان في الخامسة والأربعين من العمر ".

قال أوريباسيوس فجأةً، " صلِّ، أيها الأوغسطوس، كي يدوم ملكك بهذا القدر "

خيَّمَ الصمت علينا. حاولتُ أنْ أتذكَّر شكل قسطنتيوس وفشلت. فحين يموت رجلٌ بارز يميلُ المرء إلى تذكُّر التمثال فقط، خاصةً حين يكون هناك منه كثير. أستطيع أنْ

أتذكَّر نُصُب قسطنتيوس ولكن ليس وجهه الحيّ، ولا حتى تينك العينين السوداوَين الواسعتين اللتين هما حسب ما أذكُر فراغان محفوران في الرخام.

" أين كبير الحُجَّاب يوسيبيوس؟ "

" ما يزال في منطقة الينابيع. البلاط في انتظار أوامرك ". للمرة الأولى بدا أليجيدوس غير متأكِّد. " أنتَ، أيها الأوغسطوس، الوريث الشرعي "، وأشارَ إلى الرسالة التي أحملها بيدي.

" ألم يكن هناك... اعتراض في المجمع المقدَّس؟ "

" أبداً، يا مولاي! "

نهضت. " غداً ستعود إلى الينابيع. أخبِر المجمع المقدَّس أنني سأُقابلهم في أقرب وقت ممكن في القسطنطينية. احرَص على أنْ يُجلَب جثمان ابن عمي إلى أرض الوطن لكي يُقام له دفن لائق، وعلى أن تُعامَل أرملته بكل احترام نظراً إلى مكانتها " قدَّمَ الضابطان التحيّة، وغادرا.

ثم فتحت بحضور أوريباسيوس الوصية. كانت قصيرة وفي صُلب الموضوع، خِلافاً للنصوص الإمبراطورية المعتادة. ويعلم القارئ أنَّ الرجل أملاها، ولم تُكتَب بيد محام.

" يُرقَّى القيصر جوليان بعد موتي شرعياً " (حتى وهو على فراش موته لم يستطع أن يُقاوم تسديد هذه الطعنة) " على ولاية روما. سوف يجد أنَّ إدارتي للقصر كانت أمينة. وعلى الرغم ممّا وقعَ من خيانة في الإمبراطورية ووجود الأعداء خارجها، فإنَّ الدولة ازدهرَتْ في عهدي وساد الأمان الحدود "

نظرتُ إلى أوريباسيوس بسرور. " أتساءلُ كيف يشعرون بالأمرِ في أميدا "

تابعتُ القراءة. " إننا نعهد إلى ابن عمّنا الأنبل ووريثنا أمرَ زوجتنا الشابة فاوستينا. ونصيبها موجود في وصية منفصلة، ورجاؤنا الأخير هو أنْ يحترم ابن عمّنا الأنبل ووريثنا شروط تلك الوصية ويُنفّذها كما يليقُ بأميرٍ عظيم قادرٍ على إبداء الرحمة للضعيف... "

سكتُّ. " ذات مرة حاولتُ أنْ ألقي على مسمعه هذا الخطاب بالذات "

رماني أوريباسيوس بنظرة استغراب. قال " لقد أبقى على حياتك "

" نعم. وندمَ على ذلك ". وأسرعتُ في استعراض باقي الوثيقة. كان هناك عددٌ

من المواريث متوجّبة لُمستخدمين وأصدقاء. وقد صَدَمني أحدها. " لا أستطيع أن أوصي لابن عمّنا الأنبل وورِيثنا بمُستشارٍ أكثر حِكمة وولاء من كبير الحُجّاب يوسيبيوس ". حتى أوريباسيوس ضحكَ من هذا. ثم، في الختام، وجَّه قسطنتيوس كلامه مباشرةً إليّ. " لقد كانت هناك اختلافات في وجهات نظرنا، القيصر جوليان وأنا، لكنني أعتقدُ أنه سيجد حين يملأ مكاني أنَّ الأرض لا تبدو بالضخامة التي كان يظنّها من موقعه السابق أو من أي موقع آخر، إلاّ من هذه القمة التي لا تتّسع إلاّ لرجلٍ واحد ومسؤولية واحدة تجاه الناس جميعاً، وقرارات خطيرة يجب اتّخاذها، غالباً في عُجالة وأحياناً يندمُ عليها. ومن المفترض ألاّ يفهمنا إلا مَنْ يشبهوننا. وسوف يعلم ابن عمّنا ووريثنا الأنبل معنى كلامي حيث يحمل الكرة السلطانية التي تركتُها. والآن بعد أنْ مُتُّ أصبحتُ أخاه الدائم في الرداء الأرجواني، ومن حيث يرى الله أنَّ من المناسب أنْ يضع روحي سوف أراقبُ أعماله بمشاعر مشتركة وآملُ في أنه، حين يتوصل إلى إدراك فرادة وضعه الجديد - وعزلته القاسية - سوف يفهم إذا لم أقُل يغفر لسَلَفه، الذي لم يكن يريد إلاّ أن يستقر بلده، وتُطبَّق فيه عدالة القانون، ويُمارس فيه دينَ الله الحق مصدر حياتنا جميعاً وإليه مرجعي. صلِّ لأجلي، يا جوليان "

كان هذا كل شيء. تبادلتُ النظرات مع أوريباسيوس، أكادُ لا أصدِّقُ أنَّ تلك الوثيقة البدائية والمؤثِّرة هي من وضع رجل كان قد حكَمَ العالم على مدى ربع قرن.

" لقد كان قوياً ". لم أستطع أنْ أقول أكثر من هذا.

في اليوم التالي أمرتُ بتقديم أضحية للآلهة. كانت الفيالق شديدة الحماس، ليس فقط بسبب وصولي إلى سُدَّة العرش (وتجنّبي الحرب الأهلية)، بل لسماحي بعبادة الآلهة القديمة صراحةً. والعديد منها كان من الأشقاء في ديانة ميثراس.

بريسكوس : هذا غير صحيح على الإطلاق. والحقيقة الواقعة هي أنه كاد يقع تمرُّد حين أمرَ بتقديم الأضاحي، خاصةً بين الضباط. وفي ذلك الوقت كان جوليان واقعاً تحت ضغط تأثير شخصٍ غاليّ اسمه أبرونكولوس، كان قد تنبّأ بموت قسطنتيوس باكتشافه كبد ثور بفصّين، وهذا يعني أنَّ... الخ. وجزاءً لعثوره على ذلك الكبد المزدوج، نُصِّبَ أبرونكولوس حاكماً على غاليا ناربوننسيس. وقد قيلَ في ذلك الوقت إنَّ كبداً رُباعياً كان سيُكسبه بلاد الغال كلها.

أقنعَ أبرونكولوس جوليان بوضع صور للآلهة بجوار صورته فإذا ما جاءَ أحد لوضع

البخور على النار كعربون ولاء للإمبراطور، فإنه يقوم بتبجيل الآلهة، شاءَ أم أبى. وقد أثار هذا الاقتراح كثيراً من الاستياء، لكن جوليان لم يلاحظ شيئاً منه.

جوليان أوغسطوس.

بعد ذلك بأقلّ من أسبوع، أعطيتُ الأوامر بالتقدُّم إلى القسطنطينية. لن أتوقف عند التباهي بتلك الأيام. حتى فصل الشتاء البارد - وكان الأبرد منذ سنين عديدة - لم يزعجنا.

وسط عاصفةٍ ثلجيةٍ عاتية، قطعنا برتلٍ واحد ممر سوتشي وهبطنا إلى ثريس. ومن هناك تقدَّمنا إلى مدينة فيليبوبوليس العتيقة ومكثنا هناك سحابة الليل. ثم تحرّكنا جنوباً إلى هيراكليا، وهي بلدةٌ تقع على مسافة خمسين ميلاً إلى الجنوب الغربي من القسطنطينية وهناك، بُعيد منتصف النهار، وأمام دهشتي، اجتمعَ أغلب أعضاء مجلس الشيوخ والمجمع المقدَّس في الساحة العامة.

لم أكن مستعداً لمثل تلك اللقاءات. كنتُ مُتعباً، وقذراً، وبمسيسِ الحاجةِ إلى أخذ قسطٍ من الراحة. فتخيَّلْ إذن الإمبراطور الجديد، بعينين تنتفضان من فرط التعب، ويدين، وساقَين، ووجه مُعفَّر بالتراب، ومثانة ممتلئة، يتلقَّى الهتاف البطيء، المحسوب، الفخم، من شيوخ المجالس. وحين أستعيد ذكرى ذلك، أضحك؛ ففي ذلك الوقت، كنتُ أبذلُ قُصارى جهدي لأكون رقيق الحاشية.

ترجَّلتُ عند أحد أطراف الساحة ومشيتُ إلى منزل الحاكم. أفسحَ الحرس المدرسي ممراً لي. كان يُسمَّى بالحرس المدرسي لأنَّ ثكناته كانت تقع في الرواق المُعمَّد الأمامي - الـ " مدرسة " - للقصر المقدَّس. تفحَّصتُ جنودي الجُدُد بفتور. كانوا أنيقي الملبس؛ ومن الجرمان في غالبيتهم... ومَنْ غيرهم؟ هم أيضاً تفحّصوني. بدا عليهم في وقتٍ واحد الفضول والرعب، وهو المطلوب. في أغلب الأحيان في الماضي كان الأباطرة هم الذين يخافون الحرّاس.

ارتقيتُ دَرَجَ منزل الحاكم. وهناك، في صفٍ واحد، وقفَ ضباط الإمبراطورية. تقدَّمتُ، فخرّوا جميعاً على رُكَبِهِم، وطلبتُ منهم أن ينهضوا. إنني أكره مشهد رجالٍ في عمرٍ يصلح معه أنْ يكونَ أحدهم جَدّاً لي ساجدين أمامي. ومؤخَّراً حاولتُ أنْ أُبسّطَ

مراسمِ البلاط لكنَّ مجلس الشيوخ لم يسمح بذلك، من طول التعوُّد على العبودية. وحجَّتهم في ذلك أنه بما أنَّ ملك بلاد فارس العظيم يتبع مراسم مشابهة، فيجب أن أفعل مثله، وإلاّ قلَّتْ هيبتي في عيون رجالي. وهذا هراء. ولكن هناك أكثر مما ينبغي من التغيّرات بحيث أنَّ مراسم البلاط بالمقارنة لا تستحق القلق بشأنها.

أول شخصية رسمية استقبلتني كانت آربيشيو، الذي كان يشغل منصبِ قنصل في عام تنصيبي قيصراً. إنه رجل حيوي، قاسي تقاسيم الوجه، في الأربعين من العمر؛ ولِدَ فلاحاً، وأصبحَ جندياً، وترقَّى ليصبحَ آمراً للخيالة ومن ثم قنصلاً. إنه يطمع في منصبي، تماماً كما كان قد طمِعَ في منصب قسطنتيوس. والآن هناك طريقتان للتعامل مع مثل هذا الرجل. إحداهما قتله. والأخرى إبقاؤه قريباً منك، واستخدامه بشكلٍ آمن، ومراقبته بصورة دائمة. وقد اخترتُ الطريقة الثانية لأنني اكتشفتُ أنه إذا كان شخصٌ ما صادقاً وحَسَن النية - مع أنه عاملك معاملةً سيئة - فيجب مُسامحته. إذ حين يكون الرجال صادقين في الحياة العامة فيجب أن تكون علاقتنا بهم طيبة، على الرغم من أنهم عاملونا معاملةً سيئة على المستوى الشخصي؛ في حين أنهم إذا كانوا غير صادقين في الشؤون العامة، حتى وإنْ كانوا مُخلصين لنا على المستوى الشخصي، فيجب نبذهم.

رحَّبَ آربيشو بي باسم مجلس الشيوخ، على الرغم من أنه لم يكن كبير الضباط.

" إننا هنا لكي ننفِّذ إرادة الأوغسطوس " ، هكذا أعطى الصوت العالي الفخور معنى خاطئاً للكلمات، " في كل شيء ".

"... وللإعداد لدخوله المدينة بوصفِهِ مولانا! ". حين سمعتُ هذه الكلمات التفتُّ وإذا بي أرى جوليان، عمي، يقترب من حشد أعضاء مجلس الشيوخ. كان يرتعش من فرط الإثارة (ومن الوَهَن، لأنه كان يُعاني من حُمّى متواترة، تذكار من أيامه كحاكمٍ لمصر). عانقتُه بحرارة. لم نكن قد تقابلنا منذ سبع سنوات، مع أننا كنا نتبادل الرسائل بانتظام قدر ما جرؤنا على ذلك. كان عمي قد تقدَّمَ في السن إلى درجة مرعبة؛ كان وجهه مهزولاً، والجلد الأصفر متراخياً، والعينان غائرتين، ولكن، مع ذلك، في هذا اليوم، كانت البهجة قد بدَّلته. أبقيتُ ذراعي متشابكاً بذراعه وأنا أخاطب الحشد.

" لقد تأثّرتُ بإيماءتكَم، لأنَّ من غير المعتاد أنْ يُغادر أعضاء مجلس الشيوخ مدينتهم لكي يُقابلوا المواطن الأول. والأحرى أنْ يخرج المواطن الأول بنفسه لاستقبالكم، أنتم أقرانه، الذين تشاركونه مهمَّة الحُكم، وقريباً سأنضم إليكم في منزلكم لأقدِّم إليكم عربون الاحترام الذي تستحقون. حتى ذلك الحين، لدي شيء واحد أعلنه : لنْ أقبل أي أموال للتتويج من المقاطعات، تقليداً لهادريان وأنطونينوس بيوس. إنَّ في الإمبراطورية من الفقر في الوقت الحاضر بما لاتستطيع أنْ تُقدِّم هدية لي". وتصاعد التصفيق. ثم بعد بضع ملاحظات خرقاء أخرى، تذرَّعتُ بالتعب، واستأذنت. انحنى لي حاكم المدينة احتراماً وهو يقودني إلى داخل المبنى، يتلعثم، ويتعثَّر، ويعترض طريقي، إلى أنْ صرختُ أخيراً، " إكراماً لهرمز، قُلْ لي أين تتبوَّل؟". بهذه الطريقة المهذَّبة دخلَ الإمبراطور الجديد لروما إلى الشرق.

كان في منزل الحاكم حمامٌ خاصٌ صغير، وبينما كنتُ منقوعاً في بركة الميتة الحارة، أستنشقُ جرعات عميقة من البخار، كان عمي جوليان يُناقشُ الوضع السياسي.

" بعد وفاة قسطنتيوس، عمل يوسيبيوس على استفتاء عددٍ من أعضاء المجمع المقدَّس ليرى إنْ كانوا يقبلون آربيشو إمبراطوراً، أو بروكوبيوس... أو أنا ". ابتسمَ عمي بحياء على هذا الكلام. أرادني أنْ أسمعه من فمه وليس من مُخبِر.

قلتُ " طبعاً "، وأنا أراقب الغبار ينبعث من لحيتي ويطفو كغمامة رمادية نحو مقدَّم البركة حيث وقف زنجيٌّ، مستعدٌ ليفرك جسمي بالمناشِف والإسفنج، غير مدركٍ أنني لا أدعُ أبداً أياً من خدم الحمامات يلمسني.

" ماذا قال المجمع المقدَّس على هذا كله؟ "

" قال إنك الإمبراطور، بالدم وبالاختيار "

" وأيضاً بأنني لا أبعد أكثر من بضعة أميال "

" بالضبط "

" أين يوسيبيوس؟ "

" في القصر، يستعد لوصولك. إنه لا يزال كبير الحُجَّاب ". ابتسمَ عمي.

غصتُ قليلاً، وعيناي مُغمضتان بإحكام، لأنقعَ رأسي. حين ظهرتُ على السطح، وجدتُ أوريباسيوس جالساً على المقعد إلى جوار عمي.

" ممنوعٌ الاقتراب من الحَضرة المُقدَّسة " ورششتُ أوريباسيوس برضى تام. ضحك. وضحك عمي أيضاً، لأنني نقعتُه معه. ثم أخذني الرعب. إذ هكذا يولدُ الوحوش. أولاً، يمارسُ الطاغية ألعاباً بريئة؛ يُرشش السيناتورات في الحمّام، ويُقدِّمُ طعاماً بلا طعم لضيوف العشاء، ويُداعبهم مداعبات سمجة؛ ومهما يقلْ أو يفعل، يضحكِ الجميع ويُمدحوه، ويجدوا أشد ملاحظاته تفاهةً دالّةً على ذكاء. ثم تبدأ النكات الصغيرة بإثارة الضجر. وذات يوم يجد أنَّ من المُسلّي أنْ يغتصب زوجةَ رجلٍ آخر، أمام أنظار الزوج، أو أن يغتصب الزوج أمام أنظار الزوجة، أو أن يعذِّبهما معاً، أو يقتلهما. وحين تبدأ عملية القتل، لا يعود الإمبراطور بشراً بل حيواناً، وقد مرَّ علينا حتى الآن أكثر مما ينبغي من الحيوانات ممّن جلسوا على عرش العالم. اعتذرت بحماس لأنني بلّلتُ عمي. بل اعتذرتُ لأنني رششتُ أوريباسيوس، مع أنه مثل أخي. ولم يُخمِّن أيٌ منهما مغزى فورة الشعور بالذنب تلك.

قال لي أوريباسيوس إنَّ المجمع المقدَّس يودُّ أنْ يعرف مَنْ نويتُ أنْ أُعيِّن من القناصلِ للعام التالي.

" ما رأيكَ في أنْ أعيِّنُكَ، يا عمّاه؟ "

" لا أستطيع أن أتحمَّل نفقات منصب القنصل ". كان من دلالات ثراء عمي أنه دائماً يشتكي من الفقر. في الواقع، إنَّ منصب القنصل لم يعُد يُكلِّفُ كثيراً كما كان في السابق. في هذه الأيام، يجمع القناصل مواردهم لإقامة الألعاب التي عليهم أن يرعوها، بينما يمدّهم الإمبراطور بالإعانة عادةً من مُخصَّصاته.

" لا أظن أنه سيعجبكَ أنت يا أوريباسيوس "

" كلا، أيها الأوغسطوس، لن يُعجبني "

قلتُ، وأنا أسبحُ إلى الجهة البعيدة من البركة، " فليكن مامرتينوس "

استحسن كلٌ من عمي وأوريباسيوس اختياري. قال عمي " إنه خطيب ذو شهرة، ومن عائلة كريمة، وله شعبية... "

" ونيفيتا! "، قلتُ هذا وغصتُ تحت الماء. حين ظهرتُ لأستنشق الهواء، رأيتُ أنَّ أوريباسيوس مسرور وأن عمي مرعوب.

" لكنه... لكنه... "

هززتُ رأسي إيجاباً. " فرنجي. بربري "
خرجتُ من البركة. دثَّرني العبد بمنشفة كبيرة. فتخلَّصتُ منه قبل أنْ يبدأ بلكمي. " وهو أيضاً أحد أفضل قادتنا. سوف يُذكِّرُ وجوده الدائم في الشرق أنَّ سُلطتي تستقرُّ بأمان في الغرب "

رسم أوريباسيوس ابتسامةً عريضة. " لن يتَّهِمُكَ أحد أبداً بالثبات ". كنتُ قبل ذلك بشهرٍ واحد قد شجبتُ في نيش قسطنتيوس لأنه عيَّنَ البرابرةَ حُكَّاماً. وها أنا الآن أعيِّنُ أحدهم قنصلاً. لا شيءَ أصعب سياسياً من اضطرارك إلى مناقضة نفسك أمام الملأ. ولكن في حين أنَّ قسطنتيوس كان يُفضِّلُ الموت على أنْ يعترف بخطأ، كنتُ أنا راغباً تماماً في أنْ أبدو أحمقَ قليلاً، وأنْ أفعل ما هو صحيح.

قلتُ بكثير من العَظَمَة، " سوف نُنكِرُ أنني سبقَ وانتقدتُ تعيين برابرة في مناصب عُليا "

" أتعني أنَّ الرسالة الموجَّهة إلى مجلس الشيوخ الإسبرطي كانت زائفة؟ "

" بكل تفاصيلها "

ضحكنا أنا وأوريباسيوس لكنَّ عمي بدا مُتألِّماً. قال " على الأقلّ، سَمِّ فقط مامرتينوس اليوم. ثم، كما جرتْ العادة أنْ تُعلَن أسماء القناصِل على دُفُعات، سَمِّه على الشرق. ولاحقاً تستطيع أنْ تُعلِن الـ... الرجل الآخر على الغرب "

" فليكُن! يا عمّاه! " ، وانتقلنا معاً إلى غرفة ارتداء الملابس حيث لبستُ الرداء الأرجواني.

كان المجمع المقدَّس مجتمعاً بأكمله، نحو أربعين من ضباط الدولة، استقبلوني بكل حفاوة رسمية في مقر مجلس المدينة. رافقني آريبشو حتى كرسي العاج الخاص بي. إلى يساري ويميني كانت كراسي القناصل الخالية. واحدٌ لفلورنتيوس، الذي كان - ولا يزال - مختفياً عن وجه الأرض؛ والآخر لتاوروس، الذي هربَ إلى إنطاكية حالما وصلتُ إلى إليريكوم.

حيَّيتُ أعضاء المجمع المقدَّس بأدب. لاحظتُ غياب القناصل، فنوَّهتُ إلى أنه مع اقتراب العام الجديد، سيكون هناك قريباً قنصلان جديدان. أحدهما مامرتينوس. استُقبِلَ هذا الاسم بكل علائم الرضا. ثم أجريتُ عدداً من الإضافات على المجمع. وحين انتهيتُ، التمسَ آريبشو السماح له بمخاطبتي. غاصَ قلبي. فسمحتُ له.

انتقل آربيشو، بخطى بطيئة، ورصينة، وكأنه هو الأوغسطوس، إلى مركز المكان، أمام كرسيّي مباشرةً. تنحنحَ. " مولاي، هناك أولئك الذين تآمروا عليك " سُمِعَت شهقة حادةٌ من أرجاء المكان. إذ لم يكن هناك رجل واحد حاضر لم يتآمر ضدي. كان ذلك من صُلب واجبهم. " أولئك الرجال لا يزالون أحراراً. وبعضهم يشغلون مناصب عُليا. وهناك أيضاً، يا مولاي، أولئك الذين تآمروا ضد أخيك الأنبل، القيصر غالوس. هؤلاء، أيضاً، أحرار. وبعضهم يشغلون مناصبَ عُليا "

نظرتُ في أرجاء الغرفة فرأيتُ عِدَّة رجال " في مناصِب عُليا " يبدو عليهم الانزعاج الشديد. كان هناك الضخم بالاديوس، رئيس التشريفات في بلاط قسطنتيوس. كان قد دبَّرَ تُهَماً ضد غالوس. وإلى جواره جلسَ إيفاغريوس، كونت المُخصَّص الإمبراطوري؛ كان قد ساعدَ في تلفيق قضية ضد غالوس. وساتورنينوس، قهرمان شؤون القصر... كانت هناك حفنة من المتآمرين تنظر إليّ وإلى آربيشو. والسؤال المُرتسم على كل وجه منها : هل سيبدأ هذا العهد بإراقة الدماء؟

أورسولوس، كونت الهِبات المقدَّسة، هو الذي رفعَ صوته بجرأة، " أيها الأوغسطوس، هل ينبغي على الذين خدموا منا الإمبراطور الذي أنتَ بدورك خَدَمته، أن يُعانوا لأنهم أدّوا واجبهم؟ "

قلتُ حازماً. " كلا! "

لكنَّ آربيشو حوَّلَ تحديقه الكئيب، الشاحب إلى أورسولوس. " ومع ذلك، أيها الأوغسطوس، يجب إدانة أولئك الذين سبَّبوا الأذى لكَ ولأخيك، بالكلمة وبالفعل "

سَرَتْ همهمةٌ مضطربة في الغرفة. لكنَّ أورسولوس بقيَ ثابتاً. كان رجلاً بديناً، وسيماً ويتَّصِف ببديهةٍ سريعة وأجوبة أسرع. " إنَّ المجمع المقدَّس مرتاحٌ لأنَّ المذنبين حقاً ستوجَّه إليهم التُهَم "

قال آربيشو، متكلِّماً بالنيابة عني، وهو ما لم يُعجبني، " سوف تُوجَّه إليهم التُهَم إذا أراد مولانا "

قلتُ العبارة التقليدية باللاتينية " إنها إرادتنا "

" ممَّن ستتألف هذه المحكمة، يا مولاي؟ وأين ستُقام؟ "

طبعاً كان ينبغي أنْ أوقِف آربيشو عند هذا الحد. لكنني كنتُ مُتعباً من الرحلة

الطويلة والاسترخاء الذي أمدَّني به الحمّام الحارّ (إياك أنْ تحاول القيام بأيِّ عمل بعد الاستحمام مباشرة). لم أكن مستعداً لفرض خطَّة بإرادة قوية، وآريبشو كان لديه، للأسف، خطة . في تلك الأثناء، تقدَّمَ أورسولوس بعرض : " منذ أيام الإمبراطور هادريان، والمجمع المقدَّس هو محكَمتنا العليا. فليُحاكَم المذنبون هنا، على أيدينا نحن المسؤولين عن أمور الدولة "

" ولكن، أيها الكونت "، كان صوت آريبشو بارداً في دِقَّته، " إنَّ المجمع المقدَّس لا يزال يخصّ الإمبراطور المرحوم، وليس مولانا الجديد. أنا واثق من أنَّ الأوغسطوس سيرغبُ في أنْ يكون له منبره الخاص، كما سيرغب في الوقت المناسب في أن يحصل على مجمعه المقدَّس الخاص". لم يكن في الإمكان إنكار ذلك.

أشرتُ إلى أحد السكرتيريين كي ينتبه جيداً أثناء تكلُّمي. " سيرأس المحكمة سالوتيوس سيكوندوس ". كان لهذا أثر جيد. فقد كان معروفاً عنه كحاكمٍ إمبراطوريّ عدله. ثم عيَّنتُ مامرتينوس، وأغيلو، ونيفيتا، وجوفينوس، وآريبشو في المحكمة. باختصار، كانت منبراً عسكرياً. ثم أمرتُهم بالاجتماع في خلقيدونية، على الطرف المقابل من البوسفور من القسطنطينية. وهكذا بدأت محاكمات الخيانة العظمى. ويؤسفني أنْ أقول إنني سأشير إليها لاحقاً.

في الحادي عشر من شهر كانون أول عام ٣٦١ دخلتُ القسطنطينية كالإمبراطور الروماني. كان الثلج يهطل على فترات بطيئة وكانت رقائق الثلج الكبيرة تتقلّب كالريح في الهواء الشديد السكون حتى كاد الجو يكون دافئاً. كانت السماء واطئة وبلون فضي فاقد البريق. في ذلك اليوم كانت الطبيعة خالية من الألوان، وحده الإنسان كان ملوَّناً، وأي لون! كان يوماً من الروعة.

أمام البوابة الذهبية، بالقرب من بحر مرمرة، وقف الحَرَس المدرسي بكامل لباسه الرسمي في حالة انتباه. وعلى كل حجر من حجارة الأبراج الآجرِّية على كلا جانبَي البوابة، نُشِرَت رايات التنين. كانت البوابات البرونزية الخضراء مُغلَقَة. وكما تتطلَّب التقاليد، ترجَّلتُ بعيداً عن الجدار ببضع ياردات. أعطاني آمر المدرسيين مطرقة فضيّة. بها قرعتُ البوابة البرونزية ثلاث مرات. ومن الداخل جاء صوت حاكم المدينة، " مَنْ في الخارج؟ "

أجبتُ بصوتٍ عالٍ " جوليان أوغسطوس؛ مواطن من المدينة "

" ادخل يا جوليان أوغسطوس "

فُتحَتْ البوابة البرونزية دون إحداث ضجيج؛ وإذا بي أرى أمامي في الفناء الداخلي حاكم المدينة واقفاً - ومعه ما يُقارب ألفيْ رجل من ذوي الرُتَب المشيخيّة. كذلك أعضاء المجمع المقدَّس أيضاً كانوا موجودين هناك، وكانوا قد سبقوني إلى داخل العاصمة في الليلة السابقة. عبرتُ البوابة وحدي، وأصبحت مدينة القسطنطينية ملكي.

هَدَرَت الأبواق. وهلل الناس. وأشد ما أذهلني كان بريق الأثواب التي يرتدون. لا أدري إنْ كانت تشكيلة اللون الأبيض هي التي جعلتْ ألوان الأحمر والأخضر والأصفر والأزرق حيوية بصورةٍ لا تُحتَمَل، أو حقيقةُ أنَّني كنتُ قد أطلتُ غيابي في بلاد الشمال حيث كل الألوان خرساء ومُعتمة مثل الغابات التي يقطنها الناس. أما هذا فليس الشمال الضبابي. هذه القسطنطينية، وعلى الرغم من الأسطورة القائلة إننا نمثّل روما الجديدة (ومثل تلك المدينة الجمهورية، متزمّتة، صارمة، مستقيمة)، نحن لا نمثل روما على الإطلاق. نحن نمثل آسيا. فكَّرتُ في هذا بينما كانوا يساعدونني في ولوج عربة قسطنطين الذهبية، مُتذكِّراً بسرور شكوى يوثريوس المستمر، " أنت آسيوي بشكل ميؤوسٍ منه! ". حسنٌ، أنا آسيويّ! وعدتُ أخيراً إلى موطني.

مخرتُ الشارع المتوسط، بينما رقائق الثلج تستقرُّ على شعري ولحيتي. وكيفما تلفَّتُ أرى تغييرات. لقد تبدَّلت المدينة بشكلٍ كامل خلال سنوات غيابي القليلة. أبرز ما حدث أنها تجاوزت بنموّها أسوار القسطنطينية. وما كان ذات يوم حقولاً مفتوحة أضحى الآن ضواحي مزدحمة، وذات يوم سوف أضطرُ إلى تحمُّل نفقات بناءِ سورٍ جديد لكي يحتوي تلك الضواحي التي، بالمناسبة، لم يُؤسَّسْ لها كما هو حال المدينة وإنما أقامها كيفما اتَّفق متعهّدون لا يهمّهم إلاّ الربح السريع.

كان يحفُّ بالشارع المتوسط من أوّله إلى آخره صفّان من الأشجار. وكانت الأروقة المُقنطَرَة مزدحمة بالناس الذين هللوا لي بابتهاج. لماذا ؟ ألأنهم أحبّوني؟ كلا. بل لأنني كنتُ جديداً. إنَّ الناسَ يملّون الحاكم الواحد، مهما كان ممتازاً. لقد ملّوا قسطنتيوس وأرادوا إجراء تغيير على البرنامج وأنا كنتُ ذلك التغيير.

فجأةً سمعتُ ما بدا أشبه بقصف الرعد خلفَ ظهري. اعتبرت ذلك للوهلة الأولى

بشارة بأنَّ زيوس راضٍ عني. ثم أدركتُ أنه ليس قصف رعد وإنما هو جيشي ينشد النشيد العسكري لجنود يوليوس قيصر : " Ecce Caesar nunc triumphat, Qui subegit Gallias!" ("هذا هو القيصر المنتصر، الذي أخضعَ الغال "). إنه صوت الحرب نفسها، والمجد الأرضي كله.

سارَ حاكم المدينة إلى جانب العربة وحاولَ أن يُشيرَ إلى الأبنية الجديدة، لكنني لم أسمع ما يقول بسبب ضجيج الرعاع. ومع ذلك، كان من المُبهِج رؤية كل ذلك القدر من الحيوية، بالمقارنة مع مدنٍ قديمة مثل أثينا وميلانو حيث البناء الجديد نادر الوجود. وحين ينهار منزلٌ قديم ويتقوَّض في أثينا، ينتقل سكّانه ببساطة إلى آخر، لأنه يتوفَّرُ من المنازل أكثر من عدد السكان بكثير. أما في القسطنطينية فكل شيء جديد، حتى السكان، الذين يقترب عددهم الآن - هنا هتفَ الحاكم باسمي لدى دخولنا ساحة القسطنطينية العامة - من مليون نسمة ، بِمَنْ فيهم العبيد والأجانب.

إنَّ التمثال الضخم لقسطنتيوس القائم في منتصف الساحة البيضاوية الشكل يُجفِلني دائماً. لا أستطيع التعوُّد عليه أبداً. وفوقَ عمودٍ طويل من الرخام، وضع عمي تمثالاً لأبولو، سُرِقَ كما اعتقد من ديلوس. ثم قطع الرأس عن تلك التحفة الفنية واستبدل به شبيهُ لرأسه، وهو عملٌ متواضعٌ بكل المعايير ووضِعَ بشكل سيّئ بحيث أنَّ هناك حَلَقَة قاتمة حول مكان التقاء الرأس بالعُنُق. والناسُ يُشيرون إلى ذلك النُصُب بـ"العنق القذر العجوز ". وعلى الرأس كان هناك هالة شنيعة مؤلَّفة من سبعة أشعة برونزية، وهي إهانة لا ريب فيها، ليس فقط للآلهة الحقيقية بل للجليليّ أيضاً. لقد رأى قسطنتيوس في نفسه معاً الجليليّ وتجسيداً لإله الشمس. لقد كان مُغالياً في الطموح. وقد سمعتُ أنه تولَّه بذلك التمثال وكان يتأمّله كلما أُتيحت له الفرصة؛ بل إنه ادَّعى أنَّ الجسد الأبولوني كان جَسَده!

ثم دخلنا ذلك القسم من الشارع المتوسط المُسمَّى بالطريق الإمبراطوري والذي يؤدي إلى داخل الأوغسطيوم، وهي ساحة مترامية مُعمَّدة كانت تشكِّلُ مركز المدينة حين كانت تُدعى بيزنطة. وفي وسط الأوغسطيوم أقامَ قسطنتيوس تمثالاً كبيراً لوالدته هيلينا. ويُمثِّلُها جالسةً على كرسي عرش وتبدو شديدة القسوة؛ تحملُ بإحدى يديها قطعة من الخشب يُقالُ إنها كانت جزءاً من الصليب الذي سُمِّرَ عليه الجليليّ. وكان

لعمّتي الكبرى شغفٌ بالبقايا المقدَّسة؛ وكانت أيضاً ساذجة بلا حدود. ولايوجد بيت للجثث في المدينة لم تُعطه بعض القطع الخشبية النفيسة، أو مُزقَة من قماش، أو قطعة صغيرة من العظام قيل إنَّ لها صلة بطريقةٍ أو بأخرى بذلك الحَبْر العاثر الحظ وعائلته.

دُهِشتُ إذ وجدتُ الجانب الشمالي بأكمله من الساحة قد احتَلَّته بازيليكا كي يكون بيتَ جثث جديدة إلى درجة أنَّ السقالات لم تُزَل بعد عن الواجهة. أشرقَ الحاكم بحبورٍ في وجهي، مُعتقداً أنني سأُسرّ بهذا.

" لعلَّ الأوغسطوس يتذكَّر الكنيسة القديمة التي كانت مُقامةً هنا؟ الصغيرة التي كرَّسها قسطنطين العظيم للحِكمة المقدَّسة؟ حسنٌ، لقد قام الإمبراطور قسطنتيوس بتوسيعها. في الحقيقة، في الصيف الفائت أعاد تكريسها "

لم أقُل شيئاً بل أقسمتُ على الفور أنْ أُعيد القديسة صوفيا إلى معبد في أثينا. وما كنت لأقبل إقامة نُصُبٍ جليليّ أمام بابي مباشرةً (المدخل الرئيسي إلى القصر يقع على الجانب الجنوبي من الساحة، قِبالة بيت الجثث مباشرةً). إلى الشرق يقع مقر مجلس الشيوخ الذي كان أعضاؤه يقومون عندئذٍ بترميمه. كان نِصاب مجلس الشيوخ المعتاد خمسين عضواً، أما اليوم فألفا عضو كلهم حاضرون، يسرعون جنباً إلى جنب على الدَرَج الزلاّق.

كانت الساحة عندئذٍ قد اكتظَّت بالناس، ولا أحد كان يعلم ماذا سنفعل بعد ذلك. كان الحاكم متعوِّداً على تلقّي أوامره من حُجَّاب القصر الذين كانوا، قبل أي شيء، سادة مَنْ يُعِدّ أبّهة المهرجانات. أما اليوم فالحُجّاب مُحتجبون ولم يكن الحاكم ولا أنا نعرف ماذا يجب أن نفعله. أخشى أننا قمنا معاً بأعمال خرقاء.

كانت عربتي قد توقَّفَتْ عند المليون، وهو نُصُبٌ مُغطًّى منه تُقاس كل المسافات في الإمبراطورية. نعم، أوجدنا نسخة زائفة من روما أيضاً؛ مُطابقة في كل شيء، حتى التلال السبعة.

قال الحاكم بعصبيّة " أعضاء مجلس الشيوخ في انتظارك، يا مولاي "

" ينتظرونني؟ إنهم لا يزالون يحاولون ولوج مقر مجلس الشيوخ! "

" لعلَّ الأوغسطوس يُفضِّل أن يستقبلهم في القصر؟ "

هززتُ رأسي رفضاً، مُقسِماً على ألاّ أعود إلى دخول مدينة دون استعداد. لا أحد

كان يعلم كيف نتوجّه أو ماذا نفعل. رأيتُ عديداً من الآمرين يتجادلون مع الحرس المدرسي، الذين لا يعرفونهم، وانزلقَ المخضرمون من أعضاء المجلس ووقعوا في الوحل الممزوج بالطين. كانت فوضى عارمة، ونذير شؤم. لقد كنتُ قد بدأتُ للتو بمعالجة الأمور بصورة أسوأ مما فعلَ قسطنتيوس.

لململتُ من شتات نفسي، وقلت " أيها الحاكم، بينما مجلس الشيوخ يجتمع سوف أقدِّمُ أضحية "

أشارَ الحاكم إلى القديسة صوفيا. " على الأسقف أنْ يكون متواجداً في الداخل، أيها الأوغسطوس. وإن لم يكن هناك، فإنني أستطيع أنْ أرسلُ في طلبِه "

قلتُ بحزم " سأضحِّي للآلهة الحقيقية "

" ولكن... أين؟ ". كان العجوز المسكين مُرتبكاً، لسبب معقول. قبل كل شيء، القسطنطينية مدينةٌ حديثة العهد، ومُكرَّسة ليسوع، ولا وجود لأي معبد ماعدا ثلاثة صغيرة في الأكروبوليس البيزنطي. كان يجب أن تكفي. وأشرتُ إلى أعضاءٍ من بطانتي ممّن اخترقوا صفوف الحَرَس ليقتربوا وكوّنا معاً موكباً صغيراً مُهلهلاً ومشينا إلى التل المنخفض حيث تقوم معابد أبولو، وأرتيميس، وأفردايت الرثّة والمهجورة.

في معبد أبولو القذر والرطب، قدَّمت شكري لهليوس وللآلهة كلها، بينما احتشدَ أهل المدينة في الخارج، يتسلّون بذلك المظهر الأول لغرابة الأطوار الإمبراطورية. وبينما كنتُ أضحّي، أقسمتُ لأبولو على أنْ أُعيد بناء معبده.

ليبانيوس : قبل بضعة أسابيع أعطى الإمبراطور ثيودوسيوس معبد أبولو لحاكمه الإمبراطوري، ليستخدمه كمرآب للعربة!

جوليان أوغسطوس.

ثم أرسلتُ مامرتينوس، كقنصلٍ مُعيَّن، ليُخبر مجلس الشيوخ أنني لن أُلقي خطاباً عليهم قبل الأول من كانون ثاني، احتراماً لسَلَفي، الذي كان جثمانه عندئذٍ في طريقه إلى المدينة لكي يُدفَن. شققتُ طريقي خلال عاصفة ثلجية عنيفة أضحتْ الآن قاصفةً راعدة ، إلى القصر، ودخلتُ من البوابة الطباشيرية، ذات الردهة المغطاة بسقفٍ من البرونز. وفوق البوابة مباشرةً، لاحظتُ وجود رسم جديدٍ لقسطنطين. يبدو فيها مع

أولاده الثلاثة. وعند أقدامهم تنين، ورمحٌ مغروزٌ في جنبه، يغرقُ في حفْرة : إنها الآلهة الحقيقية مذبوحة. وفوق رأس الإمبراطور صليب. إنَّ أي طبقَة جيدة من ماء الكلس جديرة بأنْ تنفِّذ الخدعة.

على الجانب الآخر من البوابة، كان الحرس المدرسي يُقيمُ. حيّاني بأناقة. فأمرتُ آمرهم بإيواء وإطعام بطانتي العسكرية. ثم قطعتُ الفناء الداخلي ودخلتُ الجزءَ الرئيسيَّ من القصر. في القاعة الكبرى وجدتُ يوسيبيوس مع خصيانه، وكَتَبَته، وعبيده، وعملائه السريين، الذين لا يقلُّ عددهم عن مئتين من الرجال وأشباه الرجال، والجميع في انتظاري في غرفةٍ برّاقةٍ ودافئة كيومٍ من أيام الصيف. لم أرَ في حياتي جمعاً بمثل ذلك اللباس الفخم، ولا شممتُ كل ذلك القدر من العطر.

وقفتُ في ممر الباب ونفضتُ الثلج عن معطفي ككلبٍ ينفضُ الماءَ عن ظهرِه. خرَّ الحاضرون جميعاً على الأرض بميلٍ استثنائي، وقبَّلَ يوسيبيوس بتواضع حاشية ردائي. نظرتُ نحو الأسفل برهةً طويلة إلى ذلك الجسد الضخم الشبيه بأحد تلك الحيوانات الأفريقية التي تُرسلها مصر إلينا لإقامة الألعاب. كان يوسيبيوس يتلألأ بالأحجار الكريمة وتفوح منه رائحة زهر النيلوفر. ذلك هو المخلوق الذي حاولَ أنْ يُدمِّرني، كما دمَّرَ أخي.

قلتُ بخفّة " انهض، يا كبير الحُجّاب "، وأشرت للآخرين كي يفعلوا مثله. نهضَ يوسيبيوس واقفاً على قدميه مع بعض الصعوبة. نظرَ إليَّ بحياء، بعينين متوسّلتين. وعلى الرغم من ذعره، إلاّ أنَّ سنوات من التدرُّب في البلاط والمهارةَ التامة في المفاوضة خدمَته جيداً؛ لم يتهدَّج صوته مرةً ولا خانته رِباطة جأشه.

همسَ " مولاي، كل شيء جاهز. غرف النوم، المطابخ، غرف الاجتماع، الأثواب، الأحجار الكريمة... "

" شكراً لك، يا كبير الحُجّاب "

" غداً سوف يُقدَّم تقريرٌ مُفصَّل لسيد العالم "

" عظيم، والآن... "

" إنَّ رغبات مولانا أوامر ". الصوت الذي همسَ في أذني كان جديراً بالثِقة وحميماً.

مشيتُ مُبتعداً عنه. " أرني أجنحتي "

صفقَ يوسيبيوس بيديه. فخَلَت القاعة. تبعتُ الخصي في ارتقاء الدرَج الرخامي الأبيض إلى الطابق الثاني، وهناك، من خلال النوافذ ذات الشعريات، يستطيع المرء أن يرى حدائق رائعة تهبط مصطباتها الضحلة إلى بحر مرمرة. وبعيداً نحو اليمين يقوم قصر الأمير الفارسي أورميسدا الذي التجأ إلينا في عام ٣٢٣، بالإضافة إلى مجموعة من الأبنية الصغيرة أو السرادقات معروفة باسم قصر دافنى؛ هنا يعقد الأباطرة مقابلاتهم الرسمية.

اعتراني شعور غريب وأنا في جناح قسطنتيوس. تأثَّرتُ خاصةً حين رأيتُ السرير المُطعَّم بالفضة حيث كان ابن عمي ينام، ولا شك في أنه راودته أضغاث أحلام عني. وها هو الآن قد رحل وأصبحت الغرفة لي. تساءلتُ : تُرى مَنْ الذي سينام عليه من بعدي؟ قاطعَ يوسيبيوس أحلام يقظتي، متنحنِحاً بعصبيّة. ألقيتُ إليه نظرة فارغة. ثم قلتُ " أخبرْ أوريباسيوس إنني أريد أن أراه "

" أهذا كل شيء، يا مولاي؟ "

" هذا كل شيء، يا كبير الحُجّاب "

انسحبَ يوسيبيوس، بوجه جادّ وانضباطٍ كامل. وفي تلك الليلة قُبِضَ عليه بتُهمة الخيانة العُظمة وأُرسِلَ إلى خلقيدونية ليواجه المحاكمة.

عملنا أنا وأوريباسيوس على استكشاف القصر، أمام ذعر أفراد الحاشية الذين لم يروا قبل ذلك إمبراطوراً يضلُّ عن الجولة الصارمة التي فَرَضَتها عليه المراسم. كنتُ مهتماً خاصةً بمشاهدة قصر دافنى. وهكذا قمتُ انا وأوريباسيوس، لا يصحبنا أكثر من حفنة من الحُراس، بقرعِ بابِ القصر الصغير. فتحه خصيٌّ عصبيّ وقادنا إلى غرفة العرش حيث كنتُ قد رأيتُ، قبل ذلك بسنين، قسطنتيوس في يومٍ كان أفراد عائلتنا كلهم مجتمعين؛ والآن كلهم ماتوا إلاّ أنا. كانت الغرفة رائعة كما أذكُر، وكذلك، كما أخشى، الصليب المُرصَّع بالأحجار الكريمة الذي يُغطي السقف كله. أودُّ أن أزيله، لكنَّ التقليديين يتحجَّجون بأنه مهما كانت ديانة الدولة فيجب الاحتفاظ بها ببساطة لأنّ عمي قرَّرَ أن تكونَ كذلك. لعلّهم على حق.

الخصي العجوز الذي كان قد قادنا إلى الغرفة قال إنه تذكَّرَ اليومَ الذي أُحضِرتُ فيه إلى عمي.

" كنتَ طفلاً وسيماً، يا مولاي، وعرفنا حتى في ذلك الوقت أنكَ ستصبح سيدنا".
طبعاً!

استكشفنا أيضاً قاعة الولائم، بعقودها المقوَّسة في أحد الأطراف حيث تتناول العائلة الإمبراطورية الطعام، فوق منصَّة. الأرضية تتَّصفُ بجمالٍ خاص، مُطعَّمة برخام ذي لونٍ مختلف جُلِبَ من كل مقاطعة في الإمبراطورية. وبينما نحن فاغرو الأفواه كأناسٍ من الريف، ظهر رئيس التعيينات، مصحوباً بضابط نحيل وطويل القامة. وبعد أنْ أنَّبَني بلطف لهروبي منه، أشار رئيس إلى الضابط، وهو آمر خيالة اسمه جوفيان، وقال " لقد وصلَ لتوِّه، أيها الأوغسطوس، ومعه رُفات مولانا قسطنتيوس "

قدَّمَ جوفيان لي التحيّة؛ إنه رجل ودودٌ يفتقر إلى الذكاء ويخدم معي الآن في بلاد فارس. شكرتُه لجهوده وأسندتُ إليه مهمَّة مؤقَّتة مع الحرس المدرسي. ثم دعوتُ المجمع المقدَّس إلى الانعقاد حيث خطَّطنا، بالإضافة إلى أمورٍ أخرى، لجنازة قسطنتيوس. كانت آخر المراسم التي رتَّب لها الخصيان ويُسعدني أنْ أقول إنها مرَّت دون أدنى خطأ. لقد كان يُحبني؛ وهم أحبّوه. كان من المناسب أنْ تكون آخر مهمة لهم في البلاط هي إقامة جنازة لسيّدهم.

أُقيمَتْ جنازة قسطنتيوس فيما يُسميه الجليليون بكنيسة الرُسُل المقدَّسين، وتقع فوق التل الرابع من تلال المدينة. وخلف البازيليكا مباشرةً، كان قسطنتيوس قد أقامَ ضريحاً مدوَّراً، يُشبه إلى حدٍ بعيد ضريح أوغسطوس في روما. هنا ترقدُ رفاته، ورُفات أبنائه الثلاثة . فلتُخفِّف الأرضُ وطأتها عليهم.

وكم دُهِشتُ حين تأثَّرتُ بكل معنى الكلمة في جنازة عدو حياتي. لسببٍ واحد، هو أنه بما أنني عزب، فإنَّ خط سلالتنا ينتهي مع وفاة قسطنتيوس. ولكن هذا الكلام ليس دقيقاً : لقد كانت أرملتُه فاوستينا حُبلى عندئذ. رأيتُها عن بُعد، خِمارها هو الأشد سماكة بين اللابسين الحداد. وبعد أيامٍ عِدَّة اجتمعتُ بها.

استقبلتُ فاوستينا في غرفة ملابس قسطنتيوس، التي أستخدمها كغرفة مكتب لأنَّ جدرانها مغطّاة بخزائن صُمِّمَتْ أصلاً لتحتوي أثوابه وأرديته العديدة. وأنا الآن أستخدم الخزائن لحفظ الكتب.

حين دخلَتْ فاوستينا، نهضتُ لأحيِّيها بوصفها إحدى القريبات. ركعَتْ. أنهضتُها. وقدَّمتُ لها كرسياً. وجلسنا نحن الاثنين.

فاوستينا امرأةٌ مملوءة حيوية، ذات أنفٍ سوريّ عالٍ ومقوّس، وشعرٍ أسود يميلُ إلى الزُرقَة وعينين رماديتين، كدلالة على سَلَف غوطي أو سالونيكي. كان الخوف واضحاً عليها، على الرغم من أني بذلتُ أقصى جهدي لكي أُهدِّئ من روعها.

" آمل ألاّ تمانعي في استقبالك هنا "، وأشرتُ إلى صف دُمى الخياطين التي كانت ما تزال تستند إلى أحد الجدران، كذكرى خرساء للجسد الذي من المفترض أن تمثّله.

قالت بلهجة رسمية " فليكن أينما يختار مولاي ". ثم ابتسمتْ. " ثم إنني لم ألج داخل القصر المقدّس من قبل "

" هذا صحيح. لقد تزوجتما في إنطاكية "

" نعم، يا مولاي "

" أنا آسف "

" إنها إرادة السماء "

وافقتُ على أنَّ الأمرَ كذلك حقاً. " أين ستعيشين، أيتها الأميرة؟ ". كنتُ قد قرّرتُ أنْ ألقِّبها هكذا. كان من المستحيل استخدام لقب " أوغوسطا ".

" إذا سمحَ مولاي، في إنطاكية. بهدوء. في عزلة. مع عائلتي. وحدي ". كانت تُسقِط كل عبارة كسقوط قطعة نقدية عند قَدَمَيّ.

" يمكنكِ أن تعيشي أينما تشائين، أيتها الأميرة. فقبل أي شيء، أنتِ آخر قريباتي و... ". أشرتُ، بأقصى لباقة ممكنة، إلى بطنها المنتفخ من تحت ثوبها الأسود، "... تحملين آخر طفل في سلالتنا. وهذه مسؤولية عُظمى. ولولا أنتِ، لانتهى الفلافيون "

لبرهة من الزمن، شاهدتُ الخوفَ والريبة في العينين الرماديَّتين؛ ثم أطرقَتَ رأسها وعَلا عنقها لون ورديّ باهت. " آمل، يا مولاي، أنْ تُنجِبَ أطفالاً كثيرين "

قلتُ بصراحة تامة " لن يحدث أبداً. إنَّ ابنكِ - أو ابنتكِ - وحده يجب أن يُحافظ على السلالة "

" حين كان زوجي يحتضر، قال إنكَ ستكون عادلاً ورحيماً، يا مولاي "

قلتُ " لقد فهِمَ كلٌ منا الآخر ". لكنني لم أقو إلاّ على أنْ أضيف، " بقدرٍ معيَّن "

" هل أنا حرَّة في الذهاب؟ "

" أنتِ حرَّةٌ تماماً. إنَّ ما أوصى به قسطنتيوس إليكِ سوف يُحتَرَم "، ونهضتُ، "أعلميني حين يولَدُ الطفل ". قبَّلتِ الرداء الأرجواني؛ وافترقنا.

إنني أحصل على تقارير مُنتظمة عنها من إنطاكية. كانت الفكرة السائدة عنها أنها فخورة بنفسها وصعبة المراس لكنها لا تهتم بالتآمُر. وهي تكرهني لأنني لم أمنحها لقب أوغوسطا. وقد اتضحَ، بالمناسبة، أنَّ طفلها كان أنثى، وقد ارتحتُ كثيراً لهذا. اسمها فلافيا ماكسيما فاوستينا، وسيكون من المثير للاهتمام أنْ أعرف ماذا حدثَ لها.

ليبانيوس : فلافيا - أو قسطنتيا بوستوما كما نُطلِقُ عليها - هي سيدة تتَّصِفُ بسحرٍ طاغٍ، شديدة الشَبَه بأمها، وصديقةٌ حميمةٌ جداً لي. وقد تزوَّجَتْ طبعاً من الإمبراطور غراتيان وهما يُقيمان الآن في تريفيس. لذا بلغتِ الابنة ما لم تستطع أمها أن تبلغه، أوغوسطا حاكمة. وفاوستينا شديدة الفخر بابنتها، على الرغم من أنها حين رأيتها في الشهر الفائت كانت منزعجة قليلاً لأنها لم تُدعَ للانضمام إلى الإمبراطورة في الغرب. من الواضح أنَّ الابنة البعيدة النظر شعرتْ أنَّ الرحلة سوف تكون شديدة الإرهاق لأمها. وأيضاً، كما قلتُ لفاوستينا : إنَّ الأولاد يميلون إلى عيش حياتهم الخاصة وعلينا أن نكون متسامحين. بل إنني أقرضتُها النسخة الوحيدة لمقالتي الصغيرة عن " واجب الأبوين " مما يُذكِّرني بأنها لم تُعِدها إليّ بعد.

أما عن الإمبراطور غراتيان، فهو بطل الجميع، على الرغم من أنه (ويا للأسف!) مسيحيٌ مُخلص. وحين رُفِّعَ إلى مركز الإمارة، رفضَ أنْ يتَّخذَ لقب بونتيفكس ماكسيموس، وهو أول إمبراطور في تاريخنا يفعلُ ذلك، وهي دلالة مشؤومة جداً. وعلى سبيل التقرير، أقول إنه في العام الفائت حين اختارَ غراتيان ثيودوسيوس ليكونَ أوغوسطوسَ الشرق، خلعَ على حماته فاوستينا اللقب الشَرَفي أوغوسطا. وقد سُررنا كلّنا لذلك أيَّما سرور.

جوليان أوغسطوس.

حين غادرَتْ فاوستينا، أرسلتُ في طلَب الحلاّق. لم يكن شعري قد قُصَّ منذ أنْ كنتُ في بلاد الغال، وكنتُ قد بدأتُ أبدو أشبه بالمتوحش، وأقرب إلى بان إله المراعي

مني إلى فيلسوف. كنتُ أدرس جدول خدمة القصر حين دخلَ عليَّ ما بدا أنه السفير الفارسي. كدتُ أنهضُ لأقفَ على قَدَمَيّ، وقد أرعبني المشهد : خواتم من ذهب، ودبوس مرصَّع بالجواهر، وشعر مُجعَّد. لكنه لم يكن السفير. كان الحلاّق. ردَّة فعلي كانت ضعيفة. قلت " لقد أرسلتُ في طلب حلاّق، وليس جابي ضرائب ". لكنَّ الرجل تقبَّلَ كلامي بهدوء، بوصفه مزحة إمبراطورية.

أخذَ يُثرثرُ دون كلفة. أخبرني أنه يتلقّى راتباً سنوياً، تدفعه له الخزينة؛ ويكسب أيضاً عشرينَ رغيفاً من الخبز في اليوم، إضافةً إلى كميةٍ من العَلَف تكفي مجموعةً من عشرينَ حيواناً. لكنه، كما قال، وهو يُشذِّب لحيتي، يشعر بأنه ينال أقل من حقّه ويُبدي أسفه بكل لباقة لأنني أحبّها مُدبَّبة. أمسكتُ لساني إلى أنْ غادر؛ ثم أمليتُ مذكِّرةً بطرد كل الحلاّقين، والطبّاخين، وأعدادٍ زائدة أخرى من خَدَمَتي.

كنتُ منهمكاً في هذه المهمّة المتعة حين دخلَ أوريباسيوس عليّ. أصغى مستمتعاً إليّ وأنا أرغي وأزبد وألوِّح بذراعيَّ، وأزدادُ انزعاجاً باطّراد كلما فكّرتُ في البطانة التي ورثتُها. وحين انقطعَتْ أنفاسي أخيراً ، أبلغَني أوريباسيوس أنَّه كان يستكشفُ ثكنات الحرس المدرسي. ويبدو أنَّ الرجال ينامون على حشيّات من الريش؛ وموائدتهم مُترفة، وأقداحهم أثقل بمراحل من سيوفهم. وكعملٍ إضافيّ يُتاجر بعضهم بالأحجار الكريمة، وهي إما مسروقة أو مُبتزّة من تُجّارٍ أثرياء يمارسون عليهم إرهاباً مُنتَظَماً، ويطلبون منهم مالاً لحمايتهم. وكأنَّ هذا ليس عملاً سيئاً بما يكفي، فقد شكَّلَ رجال الحرس نادياً للغناء الجماعي وفي الحفلات الخاصة يغنون أغاني عاطفية؛ لقاء أجر.

أخشى أنني مع انتهاء أوريباسيوس كنتُ أصرخُ من فرط الأسى. كان دائماً يستمتع باستفزازي، ويتعمَّد إضافة تفاصيل على التفاصيل فقط ليُراقب العروق في جبيني تنبض. ثم بعد أنْ يُثيرُني حتى درجة الغضب الأعمى، يقيسُ نبضي ويُخبرني بأنني إذا لم آخذ حِذْري فسوفَ أُصابُ بسكتةٍ دماغية. وسوف يحصل هذا، فعلاً، ذات يوم.

كَنتُ متحمِّساً لفكرة إخلاء الثكنات في الحال. لكنه رأى أنَّ من الأفضل أنْ نفعل ذلك بالتدريج. " ثم إنَّ هناك ما هو أسوأ من ذلك ممّا يجري داخل القصر "

" أسوأ! "، ورفعتُ عينَيَّ نحو هليوس. " إنني لا أنتظرُ من الجنود أن يصبحوا فلاسفة. أعلمُ أنهم يسرقون. لكنَّ غناء الأغاني العاطفية، وحشيات الريش... "

" المشكلة ليست في الجنود. إنها في الخصيان ". لكنه لم يُضِف أكثر، بخصوص السكرتيريين. فعلى الرغم من قَسَمهم على الحفاظ على السرّية، فينبغي على المرء أن يكونَ حَذِراً مما يقوله أمام أي شاهد.

همسَ أوريباسيوس " لاحقاً "

فجأةً أدركنا وجود لغطٍ عظيم في الأسفل. دخلَ رئيس التعيينات وهو يلهثُ بشدّة. " مولاي، الوفد المصري يطلب المثول بين يديك، بكل تواضع، وكياسة... ". عند هذه النقطة بدأتْ الضجة في الأسفل تبدو أشبه بالشغب.

" هل هذا أمر اعتيادي، أيها الرئيس؟ "

" أوه، مولاي، ولكن المصريين... "

"... يُثيرون الضجيج؟ "

" نعم، يا مولاي "

" والحاكم الإمبراطوري غير قادر على معالجة الأمر؟ "

" بالضبط، يا مولاي. لقد أخبرهم إنكَ لا تستطيع أنْ تُقابلهم و... ". كان هناك ضجيج تكسير أواني فخّارية، وبضع زعقات عالية النبرة.

" هل المصريون دائماً هكذا، أيها الرئيس؟ "

" غالباً، يا مولاي "

تبعتُ رئيس التعيينات، وأنا مستمتعٌ كثيراً، نهبط الدَرَج المؤدي إلى غرفة اجتماع الحاكم الإمبراطوري. وحين هممتُ بدخول القاعة، إذا بحفنةٍ من الخدم تظهر من الهواء. واحدٌ أعدَّ لي كرسياً؛ وآخر رتَّبَ لي لحيتي؛ وثوبي عُدِّلَ من شأنه؛ ووُضِعَ تاجٌ على رأسي. ثم فتح رئيس التعيينات وما أصبحَ عندئذٍ بطانة ضخمة البابَ لي، فدخلتُ غرفة الحاكم، شاعراً كأني قسطنتيوس.

يجب أنْ أوضِّحَ أنَّه يمكن اعتبار المصريين بسهولة أشد رعاياي إثارةً للضجر، إذا أردنا التعميم... ومَنْ لا يريد؟ وسمعتهم السيئة لم يكتسبوها عبثاً. إنهم يبتهجونَ خاصةً في رفع الدعاوى. أحياناً تستمرُ عائلةٌ في إدارة دعوى قضائية على مدى قرنٍ من الزمان، لمجرد الاستمتاع في إثارة المتاعب. وهذا الوفد بالذات كان قد جاء ليُقابل قسطنتيوس في إنطاكية، لكنه رحل قبل وصولهم. فلحقوا به إلى منطقة الينابيع ،

وهناك أنقذه الموت منهم. ثم، سمعوا أنَّ إمبراطوراً جديداً سوف يصلُ قريباً إلى القسطنطينية، فجاؤوا مباشرةً إليّ. وما شكواهم؟ ألف دعوى مرفوعة ضد حاكمنا في مصر.

وتجمهروا حولي - كانوا من كل لون، من الإغريقي الشاحب إلى النوميدي[100] الأسود - وأخذوا يتكلمون كلهم دُفعةً واحدة، غير متأثرين بأي شكل بعظَمَتي. نظرَ الحاكم الإمبراطوري إليّ عبر الغرفة؛ وقام برسم إشارة السكين، يحدوه الأمل. لكنني كنتُ أتسلّى أكثر مني مُستاءً.

نجحتُ، مع شيءٍ من الصعوبة، في جذب انتباههم. صرختُ، " سوفَ تُطبَّق العدالة بحق كلٍ منكم! ". هذا التقرير أثارَ في وقتٍ واحد التهليل وزمجرات الاستهجان. من الواضح أنَّ بعضاً شعروا بأنَّ الأمورَ كانت تجري بشكل أسهل مما ينبغي. قلتُ بصرامة " ولكن، لايمكن إقامة العدل هنا. فقط في خلقيدونية، عبر البوسفور. هناك توجد الخزينة، وفيها يتمُ تقرير مثل هذه المسائل ". عندئذٍ كنتُ أرتجلُ بحرية كاملة، أمام ذهول الحاكم. " سوف تُنقلون كلكم إلى هناك على نَفَقَتي ". وندت عن الوفد تنهيدة ابتهاج. " وغداً سوف أنضمُ إليكم وأدرس كل قضية بالتفصيل. إذا وجدتُ أنَّ أياً منكم قد ناله أذى، فأعلم ماذا سأفعل ". كانت الاستجابة هي السرور، وانسللتُ خارجاً من الغرفة.

ابتأسَ رئيس التعيينات. "ولكن غداً مستحيل! ثم إنَّ الخزانة موجودة هنا، وليس هناك"

"انقلهم جميعاً إلى خلقيدونية. ثم أخبر ربان السفينة بألاّ يُعيد أي مصري إلى المدينة "

للمرة الأولى شعرتُ أنني كسبتُ احترام رئيس التعيينات. ومكثَ المصريون مدة شهر في خلقيدونية، وهم يُزعجون المسؤولين المحليين. ثم رحلوا إلى ديارهم.

بريسكوس : سوف تلاحظ أنه على الرغم من أنَّ جوليان أشارَ قبل قليل إلى محاكمات الخيانة العظمى التي تُقام في خلقيدونية ووعدَ بمناقشتها، إلاّ أنه لم يَعُدْ أبداً إلى ذكرها. طبعاً لم تُتَحْ له الفرصة لمراجعة أيٍ من تلك القضايا، لكنني لستُ واثقاً من أنه حتى لو وضعَ يده على الحذف كان سيكون نزيهاً. الأمر كله كان شائناً، وكان يعلمُ ذلك.

ألقى آربيشو القبضَ على حفنة من كبار موظفي قطنتيوس. وكلهم من أصدقاء آربيشو، لكنَّ ذلك لم يمنعه من اتِّهام كلٍ منهم بالخيانة العظمى. لماذا؟ لأنَّ أياً من

موظفي الدولة أولئك كان يمكن أن يُعرِّضه للشُبهة. لقد أراد آربيشو أنْ يصبحَ إمبراطوراً؛ وحاولَ أنْ يُقنِعَ يوسيبيوس بالاعتراف به وريثاً لقسطنتيوس. وكانت النتيجة أنه الآن أصبحَ رجلاً ذا هدف : محو آثار قدميه.

على الرغم من أنَّ سالوتيوس سيكوندوس كان رسمياً رئيس البلاط، إلاّ أنَّ آربيشو كان المسؤول عملياً. كان النمر بين الغنم. بالاديوس، الموظف الذي لا غُبارَ عليه؛ الذي كان رئيس التشريفات في القصر، اتُّهِمَ بتآمره ضد غالوس؛ من دون أدنى دليل. ونُفيَ بالاديوس إلى بريطانيا مع فلورنتيوس (وهو كبير حُجَاب، وليس صاحبنا من بلاد الغال). أيضاً من بين الذين نُفوا - من جديد دون أي دليل - إيفاغريوس (كونت سابق لمُخصصات الإمبراطور)، وساتورنينوس (قهرمان سابق للقصر المقدَّس)، وسايرينوس (سكرتير خاص). والمفاجأة الأكبر كانت نفي قنصل تاوروس، الذي كان خطأه الوحيد أنه انضمَّ إلى مولاه الشرعي قسطنتيوس حين سار جوليان بجيشه إلى إليريكوم. وأشدّ ما روَّعَ الرأي العام هو قراءته بياناً بدأ هكذا : " في العام الذي تولى فيه كلٌ من تاوروس وفلورنتيوس منصب القنصل، وُجِدَ تاوروس مُذنباً بتُهمة الخيانة ". إنَّ ذلك النوع من الأعمال لا يقومُ به إلاّ أشدّ الطُغاة تهوُّراً.

الحاكم الإمبراطوري فلورنتيوس حُكِمَ عليه بالموت، وهذا حُكمٌ عادل في اعتقادي. إنه لم يُحاول حقاً أنْ يُدمِّر جوليان، ولكن إذا أردنا أنْ نكون عادلين بكل معنى الكلمة (ومَنْ هو العادل في الأمور السياسية؟)، فنقولُ إنه لم يتصرَّف إلاّ بناءً على أوامر من قسطنتيوس. ولحُسن حظّه، تمَّتْ محاكمته in absentia (غيابيّاً). وكان حكيماً فاختفى عن الأنظار في يوم وفاة قسطنتيوس ولم يعُدْ إلى الظهور إلاّ بعد مرور بضعة أشهر على وفاة جوليان. وقد عاش إلى سنٍ متقدِّمة وتوفيَ في ميلانو، ثرياً وقانعاً. إنَّ بعضاً يعيشون حتى أرذل العمر؛ وبعضاً آخر يُصرَع قبل أوانه بكثير. وكان جديراً بجوليان طبعاً أنْ يقول إنه القدَرُ الذي لا يرحم، لكنني أعرف أكثر من ذلك. إنه لاشيء، لا شيءَ على الإطلاق. لا يوجد أي تصميم لأي جزءٍ منه.

بولس " السلسلة "، ومركوريوس " كونت الأحلام " وغودنتيوس كلهم أُعدموا، وهو العدل. يوسيبيوس أيضاً أُعدِم، وممتلكاته الشاسعة عادتْ إلى الملك الذي سَرَقَه.

ثم ظهر ما يُثير السخط. فمن بين كل الشخصيات المعروفة في عصرنا الجبان،

وحده أورسولوس كان دائماً شجاعاً ليبوحَ بما يرى أنه الحق، على الرغم من العواقب. لقد فهِمَ آريبشو تمام الفهم. واستهجن المحاكمات الجارية. وجهرَ بذلك. وأمام ذهول الجميع، ألقى آريبشو القبض على أورسولوس.

كانت المحاكمة شيئاً فظيعاً. وقد أخبرني أولئك الذين كانوا حاضرين أنَّ أورسولوس ساطَ آريبشو بلسانه، سخِرَ من طموحه، وتحدَّى المحكمة أنْ تُثبِتَ خيانته لجوليان أو وجود أي صِلة له بوفاة غالوس. لقد قلت إنهم " أخبروني " ذلك لأنني لم أتمكن من قراءة ما جرى : لقد اختفتْ سجلات المحاكمة. لكنني استطعتُ أنْ أتحدَّث بصراحة مع مامرتينوس، الذي أصابه الرعب جراء مشاهدته تلك المهزلة المُروِّعة. وقد أخبرني بما حدث، ولم يتَّخذ الأعذار لنفسه. وكالباقين، حتى جوليان، كان مُنقاداً لآريشو المتصلِّب، ويجب أن يُشاركه في حمل الذنب.

أُعِدَّتْ شهادة زور ضد أورسولوس، لكنَّ التزوير كان أخرقَ فاستطاعَ أنْ يدحضه كدليل. وعندئذٍ حتى آريبشو كان يمكن أنْ يستسلِم، لكنه كان ما يزال يحتفظ بسلاحٍ أخير. لقد كانت المحاكمة محاكمةً عسكرية، أُقيمَتْ في معسكر الفيلَقَين. وأورسولوس لم يكن محبوباً على الإطلاق بين صفوف الجيش بسبب تلك الملاحظة التي أدلى بها حين قال، وهو يمسح بنظره أطلال أميدا، " انظروا مدى الشجاعة التي حمى بها أولئك الجنود مواطنينا الذين يفلِسُنا دفعُ رواتبهم! "

فجأةً رمى آريبشو بهذا القول المُقتَطَف في وجه أورسولوس. وعلى الفور تعالت أصوات الضباط والرجال الحاضرين المحاكمة، مُطالبين برأس أورسولوس. وكان لهم ما أرادوا. وتمَّ إعدامه في غضون ساعة من الزمن.

حين وصلتُ في شهر كانون ثاني إلى المدينة كان هذا هو الحديث الذي يدور فيها. وقد استجويتُ جوليان عن المحاكمة؛ كانت أجوبته متملِّصة. " لم أكنْ أعلمُ ما الذي يحدث. لقد وضعتُ الأمرَ كله بين يَدَيَّ سالوتيوس. ودُهِشتُ كأي شخصٍ آخر "

" لكنَّهم تصرَّفوا باسمك... "

" إنَّ كل كاتب في قرية يعمل باسمي. فهل أنا مسؤول عن الجور كله؟ "

" ولكن لا بد أنكَ حتماً أعطيتَ الإذنَ بالإعدام. في ظل القانون الروماني... "

" إنَّ المحكمة العسكرية تعمل بمبادرةٍ منها. أنا لم أكن أعلم "

" إذن فكل عضو من أعضاء المحكمة مذنبٌ بالخيانة باستغلاله سلطتكَ في العفو والإعدام بصورة غير شرعية "

" إنَّ المحكمة لم تكن غير شرعية. لقد تشكّلَتْ بشكلٍ وافٍ وفقَ مرسومٍ إمبراطوري عالٍ... "

" إذن لابد أنهم أبلغوكَ قبل تنفيذ الإعدام وإذا كانوا قد فعلوا... "

" أنا لم أكنْ أعلم ". استشاطَ غضبُ جوليان. ولم أعُدْ أبداً إلى فتح الموضوع. ولكن حين كنا في بلاد فارس بادرَ إلى فتحَ الموضوع، من دون دعوة. كنا نتحدَّث عن فكرة العدالة حين قال جوليان فجأةً، " إنَّ أصعب عمل قمتُ به كان السماح للمحكمة بإدانة رجلٍ بريء "

" أورسولوس؟ "

أومأ إيجاباً. كان قد نسيَ تماماً أنه كان ذات مرة قد أخبرني أنه لم يكن يعلم أي شيء عن محاكمات خلقيدونية. " لقد أراد الجيش موته. لم يكن في وسعي فعل أيِّ شيء. وحين وَجَدَتْه المحكمة مذنباً بتُهمة الخيانة العُظمى - مع أنه كان بريئاً - اضطُررتُ إلى أنْ أترك الحُكمَ يُنفَّذ "

" استرضاءً للجيش؟ أم لآريبشو؟ "

" كلاهما. عندئذٍ لم أكُنْ واثقاً من نفسي. كنتُ في مسيس الحاجة إلى أي دعم يمكنني الحصول عليه. ولكن لو أنَّ تلك المحاكمة تُقامُ اليوم، لأطلقتُ سراح أورسولوس وقاضيتُ آريبشو "

" ولكن الأمسَ ليس اليوم، وأورسولوس مات "

قال جوليان " أنا آسف "، وكانت تلك هي نهاية الفصل. إنه واحدٌ من أمثلةٍ قليلةٍ أعرفها كان خلالها جوليان ضعيفاً وكان سيئاً في ضعفه. ولكن كيف كنا تصرَّفنا لو أننا في مكانه؟ أبصورةٍ مختلفة؟ لا أعتقدُ ذلك. هناك نقطةٌ جيدة واحدة في هذا الموضوع : لم يعمد جوليان إلى مُصادرة ممتلكات أورسولوس كما يتطلَّب القانون في حالة الخائن. الممتلكات كلها ذهبَتْ إلى ابنة المتوفّى.

ليبانيوس : يبدو بريسكوس عاطفياً بإفراط في هذه المسألة. وكما اعترَفَ بنفسه، فهو لم يقُمْ بدراسةِ نص المحاكمة، فكيفَ كان في وسعه أنْ يعرف ما هي الأدلة التي قُدِّمت ضد أورسولوس؟ وخلافاً لبريسكوس، لا يمكن أنْ أتنبَّأ بتصرُّفي في أي ظرف إلاّ

بعد أنْ أعرف بدقّة ما هي الحقائق المُعطاة . أليس كل تصرُّف قائم على أساس هذا النوع من التجريب؟ أم أنني خدعتُ ثلاثة أجيال من الطلاب؟

جوليان أوغسطوس.

طوال حياتي وأنا أسمع عمّا يحدث في منازل خصيان القصر المقدّس. لكنني كنتُ أميلُ إلى إهمال الثرثرة، لأنني تعرَّضتُ لكثيرٍ منها شخصياً، ومُعظمها من صُنع الخيال. وأعترفُ بأني لم أُردْ حقاً تأكيد أيٍ من الإشاعات، لكنَّ أوريباسيوس أصرَّ على أنْ نتأكّد بأنفسنا. وهكذا لبستُ رداءً مُقلنَساً بينما تخفّى أوريباسيوس بزيّ تاجرٍ سوريّ ذي عصقات مزيّتة من الشعر ولحية زائفة صقيلة.

وقُبيل منتصف الليل غادرنا شقّتي، ونزلنا من بيت سلّم خاص. خارج القصر وجدنا نفسينا في فناءٍ صغير، مُضاءٍ بنور القمر. وكمتآمرَين غامضَين، عبرنا إلى الجناح المقابل من القصر حيثُ يعيشُ الخصيان وصغار الموظفين. وتسلّلنا إلى داخل الرواق المُعمَّد. وعند الباب الثالث من الجنوب، توقّفَ أوريباسيوس، وطرقَ ثلاث مرات. قال صوتٌ مكبوت، " ما الوقت؟ "

قال أوريباسيوس " الوقتُ وقتنا ". كانت تلك هي كلمة المرور الصحيحة. فُتِحَ البابُ بقدرٍ كافٍ لدخولنا. حيّانا قزم وأشارَ إلى الدرَجِ المُعتِم. " لقد باشروا للتو "

نَفَحَه أوريباسيوس قطعة نقدية. وفي رواق الطابق الثاني دلّنا عبيدٌ بُكمٌ وصُم على الطريق إلى ما كان قاعة طعام يوسيبيوس. كانت لا تقلُّ روعة عن قاعتي الخاصة! وعلى طول جدران الغرفة كان ما يُقاربُ خمسين من الخصيان يتّكئون على أرائك. وكانت ملابسهم من شدّة الروعة حتى بدوا أشبه ببالات من الحرير معروضة. أمام كل أريكة أُعِدَّتْ مائدة مُترعة بألوان الطعام. حتى في ليلةٍ حسبتُها (من فرط براءتي) أمسية موسيقية، كان الخصيان في حاجة إلى طعامهم.

في آخر الغرفة كان هناك كراس ومقاعد بلا ظهر من أجل مَنْ كانوا يُعرفون بـ"أصدقاء البلاط ". هنا جلسَ عددٌ من الضباط المدرسيين، يُسرفون في شرب الخمر. كنتُ في حالة حيرة تامة لكنني لم أجرؤ على الكلام مخافةَ أنْ يتعرَّف أحدهم على صوتي. وكما كان ماردونيوس - ذلك الخصي الطيب - يقول : " إنَّ جوليان ليس قيثارة، بل مجرَّد بوقٍ نُحاسيّ "

جلسنا في الصف الأمامي، إلى جوار قائد المئة للفيلق الهركولاني. كان قد أصبحَ شديد السُكر. لكَزَني في أضلعي، وقال " أزلْ هذا التعبير الكئيب عن وجهك! وانزع هذه القلنسوة؛ إنها تجعلك تبدو أقرب شَبَهاً بمسيحٍ قذر! ". اعتُبِرَ هذا الكلام طرافة من أعلى مستوى، وضجَّ المكان بالضحك عليَّ. لكنَّ اوريباسيوس الزلِق اللسان أسرعَ إلى نجدتي. " المسكين قادم من الريف، ولا يجرؤ على الكشف عن ردائه المُرقَّع ". كانت لَكْنَةَ أوريباسيوس إنطاكيّة صِرفاً. وأثارَ إعجابي الشديد.

" أهو مُشترك في العَرض؟ ". قرَّبَ قائد المئة وجهه من وجهي، كانت أنفاسه أشبه بالبقيّة الباقية من زِقّ الخمر. تراجعتُ، وأنا أمسكُ القَلَنْسُوَةَ بيدي.

قال أوريباسيوس " كلا، إنه صديق فالاريس ". أثارَ هذا انتباه قائد المئة، الذي تركَني وشأني. همس أوريباسيوس في أذني. " إنَّ فالاريس هو مضيفنا. إنه هناك. في منتصف المكان " . كان فالاريس ضخم الجثة، متجهِّم الوجه، مزموم الفم. أدركتُ أني كنتُ قد رأيته من قبل، لكنني لم أتذكَّر أين. وشرحَ أوريباسيوس لي الأمر. " إنه المسؤول عن المطبخ. مما يجعل منه – الآن بعد أن توفيَ يوسيبيوس – أغنى رجل في البلاط "

شهقت. إنَّ الخدمَ يُسرفون في سرقة الإمبراطور.

ضُرِبَتْ الصنوج. دخلَ رتلٌ طويل من الجنود المدرسيين إلى الغرفة. وقفوا أمام فللاريس وقدَّموا له مُحاكاةً ساخرة للتحيّة الإمبراطورية. انتفضتُ واقفاً على قَدَمَيَّ، لكنَّ أوريباسيوس أعادني إلى مكاني. وبإيماءةٍ غايةٍ في الفخامة تُشبه أياً من حركات قسطنتيوس، تقبَّلَ فالاريس التحيّة. ثم اتَّخَذَ الجُنود أماكنهم عند الجدار، وتلبيةً لإشارةٍ من قائدهم، اخذوا يُغنون أغنيةً عاطفيّة؛ لكنَّ الأسوأ لم يكن قد وقعَ بعد.

ولجَ القاعةَ خمسون شاباً بالي الثياب. أخذوا يتحرّكون حركات خرقاء وبدوا كأنهم لا يدرون ماذا يفعلون؛ إلى أنْ دفعَ جنديٌ مدرسيٌ أحدَهم ليركعَ على رُكبتَيه أمام فالاريس؛ فحذا الباقون حذوه. ثم أشار الخصي إليهم كي يجلسوا على الأرض أمامنا مباشرةً. فأصابني إرباكٌ شديد . إنَّ أولئك الشبّان لم يكونوا حتماً مُهرّجين. بل بدوا كعمّالٍ عاديين من النوع الذي يراه المرء في كل مدينة، يتسكّعون حول الأروقة المُقنطَرَة، ويُحدّقون إلى النساء.

بعد ذلك، سيقَ عددٌ مُساوٍ من الفتيات الصغيرات إلى المكان. تنفَّسَ " أصدقاء البلاط " الذين أحاطوا بي من كل مكان تعبيراً عن الرضا. كانت الفتيات ذوات جمال

استثنائي، ومذعورات. بعد أنْ تجولّنَ ببطء حول القاعة، أمرنَ بالجلوس على الأرض بجوار الشبّان. وكنّ أيضاً يرتدين أثواباً متواضعة، مما كان يعني أنهنّ لسن من العاهرات ولا المُسلّيات. ولاحظتُ أنّ الخصيان يتفحّصنَ الفتيات بقدرٍ مساوٍ تقريباً من الاهتمام كالرجال من حولي. وجدتُ ذلك باعثاً على الدهشة، لكنّ أوريباسيوس أكّدَ لي أنّ الرغبة في النساء تبقى قوية بشكلٍ قاسٍ عند الخصيان، خاصةً عند أولئك الذين أخصوا بعد أنْ وصلوا إلى سن البلوغ. إنّ العجز الجنسي لا يمنع الشهوة.

ظهرَ الموسيقيون وأخذوا يعزفون بينما كانتْ مجموعةٌ من الراقصات cotylists السوريات يرقصن. أعتقد أنهنّ كنّ جيدات. كانت حركاتهنّ عنيفة، ويقمنَ بقفزات مدهشة في الهواء، وقمنَ بأشياء خليعة بالأكواب التي كانت تشكّلُ جزءاً من " فنّهنّ". وبينما العيون كلها كانتْ متعلّقة بهنّ، رَبَتُّ على كتف الفتى الجالس أمامي مباشرةً. أجفلَ بحركةٍ عصبيّة، واستدار، شاحباً من فرط الخوف. كان ذا بشرة ناعمة وعينين رماديتين لمقدوني؛ ويداه كبيرتين وخشنتين، والأظافر سوداء من القذارة. خمّنتُ أنه عامل مُبتدئ في مجال المعادن، ويبلغ الثامنة عشرة بأقصى تقدير.

" سيدي؟ ". كان صوته مبحوحاً بتأثير التوتُّر.

" لماذا أنتَ هنا؟ "

" لا أدري، يا سيدي "

" ولكن كيفَ وصلتَ إلى هنا؟ "

" هُم... " وأشارَ إلى الجنود المدرسيين، " كنتُ عائداً من سوق الفضة، حيث أعمل، إلى المنزل، فإذا بهم يستوقفونني ويُجبرونني على الذهاب معهم "

" ألمْ يُخبروك عن السبب؟ "

" كلا، يا سيدي. لن يقتلونا، أليس كذلك؟ ". لا شيءَ يُعادل رعبَ إنسانٍ جاهلٍ في مكانٍ غريب.

قلتُ بحزم " كلا، لن يؤذوكم "

تبعَ الراقصات ما بدا أنهنّ كاهنات مصريات في عبادة سايرا. وعلى الرغم من أني تعرّفتُ إلى عديدٍ من الإيماءات الطقسيّة، فإني أعتقد أنّ تلك النسوة لم يكُنّ حقاً كاهنات بل عاهرات، يُقلّدنَ رقصات شهوانية مقدّسة. على أي حال، لقد كانت ليلة من المُحاكاة الساخرة. تمّ أداء كل مرحلة من الأسرار، بما فيها مراسم الوفرة بكل ما

فيها من أعضاء ذكَريّة خشبيّة. وهذه الأخيرة أثارتْ تصفيقاً هادراً من " أصدقاء البلاط " وتنهدات منتشية وضحكاً مكبوتاً من الخصيان. وعلى الرغم من أنَّ عبادة سايرا لا تعجبني كثيراً، فإني ساءني أنْ أرى أسرارها تُدنَّس.

بعد أنْ انتهت الـ " كاهنات " من رقصهنَّ، أومأ عديدٌ من الجنود المدرسيين الفظّين للفتيات والشبان كي يمشوا ثنائياً في استعراضٍ أمام الخصيان المضطجعين، كما يتمشّى الشبان كثيراً في أيام العيد في البلدات الريفية. تنقَّلوا بضعَ دقائق، بتوتُّر، وحياء، كالواقعين في شَرَك. ثم أشارَ فالاريس إلى فتاةٍ وشابٍ مُعيَّنين لكي يقتربا منه. كانت تلك إشارة لباقي الخصيان كي يختاروا أزواجاً. وفعلوا، وهم يهسُّون كبطٍ غاضب.

وفجأةً مدَّ فالاريس يده ومزَّقَ ثوب الفتاة عند الكَتف؛ فسقطَ حتى ركبتيها. شهقَ المحيطون بي من شِدَّة الإثارة. وشلَّني الذهول. وحين حاولتْ الفتاة أن تسحب الثوب وتُعيدَه إلى مكانه، شدَّه فالاريس من جديد وهذه المرة انشقَّ القماش الرخيص وانتقلَ إلى يده. وَقَفَتْ الفتاة، كالأضحية، عارية، وذراعاها معقودان على صدرها. ثم استدار فالاريس إلى الفتى ورفعَ له رداءه حتى البطن. وتصاعد الضحك؛ لم يكن الشاب يلبسُ أيَّ شيءٍ تحته. ثم جرَّ فالاريس الفتاة والفتى معاً، واحد منهما كان شاحب اللون والآخر أحمر من فرط الحرج، إلى الأريكة، وذراعاه البدينتان تطوِّقُ كلاً منهما.

في تلك الأثناء، كان باقي الخصيان قد جرّدوا فريستهم من ملابسها. لم يُبدِ أحدٌ أي مقاومة، على الرغم من أنَّ سيف أحد الجنود المدرسيين العريض الشفرة صفعَ بقوة مؤخرة شابٍ كان يتملَّص بحركة لا إرادية من قبضة خصي. والآخرون استسلموا.

بينما كنتُ أراقبُ، اعتراني إحساسٌ بأني سبقَ أنْ شهدتُ مشهداً مماثلاً. إنَّ ذلك المشهد الشنيع كان يحتوي عنصراً مُحيِّراً مألوفاً. ولم أتذكَّر ما هو إلاّ بعد ذلك ببضعة أيام : إنه الأطفال وهم يفتحون الهدايا. لقد كان الخصيانُ مثل أطفالٍ جشعين. مزَّقوا ملابس ضحاياهم بالطريقة نفسها التي يمزِّقُ بها الأطفال ورق تغليف الهدايا، بلهفةٍ مشبوبة لرؤية ما في داخلها. أصابع خصيّة ثخينة وقصيرة استكشفَتْ الأجساد الغريبة وكأنها دُمى؛ كانوا مفتونين خاصة بالجنس، الذكَري أو الأنثوي. تخيَّلْ خمسينَ طفلاً وليداً ضخاماً خُصِّصوا لأناس كي يعبثوا بهم وسوفَ تقترب من فهم ما شاهدتُ في تلك الليلة.

كان يمكن أنْ أجلسَ هناك إلى الأبد، وقد تحوَّلتُ إلى حجرٍ في حالة دهشة، لو لم

ألاحظ الفتى الذي تكلّمتُ معه في وقت مُبكّر. كان مُمدّداً على حجر أحد الخصيان بينما كانتْ فتاةٌ خائفة تصبُّ بالمغرفة عَسَلاً على بطنه، والخصي يُلاطِفُه طوال الوقت، تمهيداً لارتكابِ يعلمُ الله أي نوعٍ من الآثام. واكتفيتُ بما شاهدتُ.

كنتُ قد وصلتُ إلى منتصف الغرفة حين قبضَ أحدُ الجنود المدرسيين بخشونة على كتفي. سَقَطَت القلنسوة عن رأسي إلى الخلف. كانت نظرةٌ واحدة إلى وجهي كافية. وإذا بالموسيقى تسكت، آلة بعد أخرى. لم يتحرّك أحد. لم يتكلّم أحد. وحده الشاب حدّقَ إليّ بغباء وبلا إبداء أي اهتمام. أومأتُ إلى تريبون الذي كان جالساً في الصف الأول. كان الضابط صاحب أعلى رتبة في المكان. حيّاني، وهو يرتجف. أشرتُ إلى الفتية والبنات وبصوتٍ خافتٍ لا يستطيع غيره سماعه، قلت " أرسلهم إلى بيوتهم ". ثم أشرتُ إلى فالاريس، "اقبِضْ على الخصيان. واحتجز الجنود المدرسيين الموجودين هنا كلهم في الثُكنات ". وغادرنا أنا وأوريباسيوس قاعة الوليمة وسطَ أكمل صمت عرفتُه في حياتي.

إنَّ أوريباسيوس يشعر أنني تناولتُ الأمرَ كله بجَدّيةٍ مُبالغٍ فيها لأنني عَزَب. لكن هذا ليس هو السبب. إنَّ أساس كل مجتمع يسوده القانون ألاّ يعمد أي رجل (فما بالك إذا كان نصفَ رجل!) ذي سلطة على إخضاعِ مواطنٍ آخر لإرادته . لو كان الشبان والشابات من العاهرات طوعاً، لسامحتُ الخصيان. ولكنَّ ما حدثَ في تلك الليلة – وفي ليالٍ أخرى كثيرة، كما اكتشفتُ – كان شيئاً مُنافياً للقانون ووحشياً.

بريسكوس : لقد تعوّدَ جوليان على تكرار الحديث عمّا حدث في تلك الليلة في مساكن الخصيان. كان شديد السذاجة باضطرابه ذاك. إنَّ خصيان القصور مزعجون جداً بعاداتهم وما شاهده لم يكن بالضبط كشْفاً. طبعاً، ليس من المُستحسَن أنْ تقع مثل تلك الأمور في القصر المقدّس، ولكن لعلَّ هناك ما يُقاربُ عشرين ألف شخص لهم صِلة بالبلاط، مما يجعل من القصر عالماً قائماً بذاته، ويشبه العالم. ولكن لم يكن هناك ما يمكن أنْ يوقِف جوليان حين يُصمّمُ على أمر. فطردَ عدداً كبيراً من الناس ونتيجةً لذلك، أصبحت الحياة في القصر غير مُحتَمَلَة على الإطلاق. لسببٍ واحد، وهو أن لا أحدَ كان يعرف موقع أيَّ شيء. وفي كل يوم تُرسَلُ فِرَقٌ للبحث من أجل اكتشاف أماكن الأقبية والعلّيات، وطبعاً تبرزُ إلى العلَن فضائحُ جديدة، بما فيها مصنعٌ ضخم لتزييف العملة كان قد أُقيمَ في قبو قصر دافني بأيدي عددٍ من الجنود المدرسيين المغامرين.

كانت هناك جوانب معيَّنة من الحياة لم يكن جوليان ليتعرّف عليها لو كان له

الخيار. الدافع الجنسي هو أحدها. لقد تظاهرَ بأنه صُعِقَ من الطريقة التي سخَّرَ بها الخصيان مواطنين عاديين لمتعتهم الخاصة. طبعاً هذا أمرٌ سيئ، ويُخالفُ قوانين وأعراف مجتمع متحضِّر. ويجب ألاّ يُسمَح به. هذا طبيعي. ولكنْ هل هو يُثيرُ الدهشة؟ إنَّ جوليان يكتب - وكان يتحدثُ - كما لو أنَّ العمل الشرير الذي شهِدَه أشبه برعبٍ لا يُعادله رعب، وهو ليس كذلك.

أخيراً سألتُه ذات مرة إنْ كانت لديه أي فكرة عمّا تفعله جيوشه في القُرى الجرمانية والفرنجية. هل يعي أنْ لا رجلاً، أو امرأةً أو طفلاً كان يأمنُ على نفسه من شَبَقهم الجنسي؟ فأجاب جوليان بإبهام، مُعبِّراً عن أساه من وحشية الحرب عموماً. لكنني ضغطتُ عليه إلى أنْ اعترفَ بأنَّ على الرغم من أنَّه سمعَ عن حدوثِ مثل تلك الممارسات (أنا أعرف على الأقل عدداً من حالات الاغتصاب اضطُرَّ هو نفسه إلى إنزالها كعقاب)، إلاّ أنه طالما قَبِلَها باعتبارها مُلازمة للحرب. وعلى الرغم من أنَّ هذا كان تصرُّفاً ماكراً، إلاّ أنَّ جوليان كان غالباً يبدو بريئاً بشكلٍ مدهش. إنَّ التزامه بالعزوبة بعد وفاة هيلينا لم يكن تكلُّفاً، كما اعتقدَ كثيرون (بمن فيهم أنا) في وقتٍ من الأوقات. لقد كان صادقاً تماماً في إماتة جسده، مما يُفسِّرُ كراهيته لأنْ يُلمَس وتجنُّبه أي مكان يُكشَفُ فيه الجسد الإنساني، خاصة الحمّامات العامة.

أعتقدُ أنَّ ما كان يزعجه في سلوك الخصيان هو معرفته ليس فقط أنه يتمتَّع بالسُلطة ليفعل الشيءَ نفسه بل أنه يرغبُ فيه. هذه المعرفة لطبيعته أرعبَته. لاحظْ أنَّه تلكَّأ أمام المشهد، وأشدّ ما صَعَقَه لم يكن استعراض الشهوة بل السُلطة التي تُخوِّل المرء أنْ يفعل ما يُريد مع شخصٍ آخر، وهذا الآخر ليسَ عبداً بل إنسانٌ حرّ. إنَّ في صاحبنا جوليان - مثلنا جميعاً - لمسةً من تيبريوس[١٠١]، وهو يكرهها.

منذ عشرين عاماً وأنا ممسوسٌ بتفصيلٍ واحدٍ، هو صبُّ العسل على أعضاء صبي الحدّاد الجنسية. ماالذي كان يُخطِّط له الخصي بالضبط؟ ماذا كان يُفترَض بالفتاة أنْ تفعل؟ ولماذا العسل؟ طبعاً أنا لديَّ نظريتي الخاصة حول ذلك، لكنني لن أعرف بالضبط لأنَّ جوليان أنهى الحفل قبلَ الأوان بكثير. وأنا واثق من أمرٍ واحدٍ: لقد كان الخصي يعملُ طبّاخاً ومُعتاداً على تطرية لحم الطيور بالعسل. كان جلياً أنه يعودُ إلى عادته.

ليبانيوس: إنَّ فسق بريسكوس هو تطوُّرٌ غير متوقَّع لمرحلة شيخوخته. إنني لا ألاحظُ أيَّ " لمسة من تيبريوس " في نفسي، بل على العكس.

- ١٧ -

جوليان أوغسطوس.

إنَّ قسطنتيوس نادراً ما كان يُلقي خِطاباً في مجلس الشيوخ لسببٍ ممتاز هو أنه لم يكن قادراً على أنْ يتكلَّم لأي فترةٍ من الزمن دون أنْ يتلعثم أو يرتكبَ خطأً منطقياً أو نحوياً. ونتيجةً لذلك، لم يطأ بقدمه أبداً مقر مجلس الشيوخ. كان يفضِّلُ استدعاء المجلس للانعقاد في غرفة العرش في قصر دافني حيث يستطيع أن يُخاطبهم دون رسميات، وذلك في المناسبات النادرة التي تعاملَ فيها معهم، هذا إنْ فعل.

لقد عدتُ إلى الأيام الخوالي، مُقلِّداً في ذلك أوغسطوس، الذي كان راضياً بكونه المواطن الأول. في الأول من كانون ثاني عبرتُ الساحة إلى مجلس الشيوخ فقط بوصفي عضواً. وقد تظاهر الآباء المُجنَّدون بأنهم مسرورون للفتى، وخلال الأشهر المتبقّية من مكوثي في المدينة كنتُ غالباً ما أحضر جلساتهم. ولستُ بحاجةٍ إلى أنْ أُضيف أنني مهما فعلت، كنتُ دائماً أتكلَّم!

كان من المعتاد بالنسبة للقناصل الجُدُد أن يرعوا الألعاب والملاهي. وقد أقامَ لنا مامرتينوس ثلاثة أيام من سباق العربات في الهيبودروم وكنتُ أحضرها مُجاملةً له. لقد كنتُ أجدُ السباقات طويلة ولا نهاية لها لكنني كنتُ أستمتعُ بانخراطي بين الجموع. إنهم دائماً يُحيونني بضجيجٍ يصمُّ الآذان، وقد سمعتُ أنَّ قسطنتيوس لم يستطع ولا حتى في مناسبةٍ واحدة خلال خمسةٍ وعشرينَ عاماً أن يُثيرَ مثل تلك الاستجابة المُحبّة. وبما أنَّ أناساً عديدين أخبروني هذا فلعلَّه صحيح وليس مجرَّد تملُّق.

بينما كنتُ أحضر سباقات اليوم الأول، أخذتُ أتفحَّص باهتمام الأعمال الفنية المتنوعة التي وضعَها قسطنتيوس على طول وسطِ المضمار : مسلاّت، أعمدة، نُصُب تذكارية برونزية. أحدها كان يتَّسِم بجمالٍ خاص: هو ثلاثة أفاعٍ برونزية مُنضفرة تشكلُ

عموداً طويلاً فوقه ثلاث قوائم ذهبية تدعم طاساً ذهبياً كَرَّسَه الإغريق لأبولو في دلفي كتقدمة شكر لانتصارهم على الفرس. لقد سرقَ قسطنتيوس حتى أشد القطع الأثرية قداسةً لكي يُزيِّن بها مدينته. وذات يوم سوفَ أعيدها كلها إلى مواطنها الأصلية. ولكن حين أفكِّر في دلفي تخطرُ لي فكرة. التفتُّ إلى أوريباسيوس. " يجب أن نستشير مهبطاً للوحي "

" أي مهبط؟ ". أكَّدَ أوريباسيوس أنَّني بين العرافين، والتنبّؤات والأضاحي، بثثتُ الرعبَ في المستقبل حتى استسلم.

" دلفي! إنه مهبط الوحي الوحيد "

" أما يزال قائماً؟ "

" تأكَّدْ "

ضحكَ أوريباسيوس. " هل أذهبُ الآن، قبل أن تنتهي الألعاب؟ "

" كلا. لكنكَ تريد أنْ تقومَ بزيارة اليونان في كل الأحوال. فإذا فعلتَ، فقُمْ بزيارة المَوْحَى واستشِر كاهنة المعبد "

وتم الاتّفاقُ على هذا. كنا نتساءلُ عن صيغة السؤال الذي سنطرحه على الكاهنة، حين جُلِبَ عددٌ من العبيد ليتلقّوا حرّيتهم. إنها عادة قديمة، احتفالاً برأس السنة الجديدة وتبوُّء القناصل الجُدُد مناصبهم. اصطفَّ العبيد رتلاً واحداً أمام المِنصّة الإمبراطورية وألقيتُ بلهفة الصيغة المتعارَف عليها التي ستُطلِق سراحهم. وسُمِعَت شهقة إجفال من الحشود. أصِبتُ بالحيرة. وسَرَّ مامرتينوس الجالس إلى جانبي. " أيها الأوغسطوس، من المفترض بالقنصل أن يقومَ بتحرير العبيد، تماماً كما يُعلِن القنصل عن بدء الألعاب". فهتفتُ بالناس، وأنا في حالة ارتباك شديدة، " لهذا أُغرِّمُ نفسي عشرة جنيهات من الذهب لاغتصابي عملَ القنصل! ". أستُقبِلَ هذا الحل بكثير من الضحك والتهليل، وأعتقد أنه تركَ أنطباعاً طيّباً.

في الرابع من شهر شباط عام ٣٦٢ أعلنتُ الحريةَ الدينيةَ في العالم. يمكن لأي إنسان أن يعبد أيَّ إله بأيّ وسيلةٍ يختار. ولم تعد عبادة الجليليين هي دين الدولة، ولم يعد الكهنة الجليليون مُستثنين من دفع الضرائب ومن أداء الواجبات الوطنية المعتادة. واستدعيتُ أيضاً كل الأساقفة الذين كان قسطنتيوس قد نفاهم. بل إنني سمحتُ حتى

لأثاناسيوس الشائن بالعودة إلى الإسكندرية، لكنني لم أردْ له أن يعودَ أسقفاً من جديد. ومن بين أولئك الذين عادوا من المنفى أكتيوس، الذي كان قد قدَّمَ تقريراً جيداً عني لغالوس. سوف أبقى دائماً ممتنّاً له.

بعد أنْ استوليتُ على العاصمة مباشرة، واجهتني أزمةٌ شنيعة. فأستاذي القديم الأسقف جورج خَلَفَ أخيراً أثاناسيوس كأسقفٍ للإسكندرية. ولم أُفاجأ حينَ أثبَتَ جورج أنه مطران غير محبوب. لقد كان مُستبداً ومتحكّماً بالجميع. ووصلتُ الأمور إلى ذروتها حين دمَّرَ معبد ميثراس، قائلاً إنه ينوي أن يُنشئ بيتاً للموتى على أساساته. وحين احتجَّ إخوتنا بحقّ على هذا التدنيس، انتقمَ بكشف النقاب عن مجموعةٍ من الجماجم والعظام البشرية بالإضافة إلى أغراضٍ داعرة، مُعلناً كَذباً أنه عثرَ على تلك "الإثباتات" عن وجود أضاح بشرية مدفونة في المعبد الميثراسي. لقد كان عملاً قبيحاً.

وقد استجلبَ جورج على نفسه أيضاً غضبَ الأثاناسيوسيين باضطهاده المُتعمَّد لكل أولئك الذين اتّبعوا تعاليم ذلك الأسقف. ولم يستطع أهالي الإسكندرية تحمُّله. وحين وصلَ أخيراً نبأ وفاة حاميه قسطنتيوس، هاجَ الرعاع واقتحموا قصر الأسقف وقتلوا جورج؛ ثم أوثِقَتْ جثّته إلى جَمَل وجُرَّتْ في أرجاء المدينة وحتى الشاطئ، وهناك أُحرِقَتْ وبُعثِرَ رماده في مياه البحر. حدثَ هذا في الرابع والعشرين من شهر كانون أول. وحينَ سمعتُ به، كتبتُ إلى شعب المدينة رسالة قاسية، أُهدِّدهم فيها باتخاذ إجراءات انتقامية. فأبدى كِبار موظفيهم خالص اعتذاراتهم ووعدوا بالحفاظ على الهدوء. وبعد ذلك بفترةٍ قصيرة، ظهرَ أثاناسيوس في المدينة مع جمهورٍ هائلٍ من المتعصّبين واستعاد منصبه القديم كأسقف. وأول ما قامَ به أنه " عمَّدَ " زوجة الحاكم الذي نصّبتُه. وكان ذلك تجاوزاً ما بعده تجاوز. فنفيت أثاناسيوس، موضّحاً بذلك أنَّ العودة من المنفى لا تعني العودة إلى السلطة لعزل الأساقفة، خاصةً أولئك الذين يُعتبرون من أعداء الهلّينية الدُهاة.

في ذلك الوقت تقريباً استوليتُ على مكتبة جورج، التي يمكن القول بسهولة إنها أفضل مكتبة في آسيا. إنني أرتبطُ عاطفياً بتلك المكتبة، لأنها ضمَّتْ الكتب الحقيقية التي ساهمت في تشكيل فكري. وأنا أسافرُ حالياً وبصحبتي مجموعة جورج لمؤلفات أفلوطين. أما باقي الكتب فتركتها في القسطنطينية كنواة لمكتبة جوليان.

كان لمرسوم الرابع من شباط أثرٌ طيّبٌ، على الرغم من وجود كثير من الشكوى من الأساقفة الآريين، الذين شعروا أنه بسماحي لإخوتهم الأثاناسيوسيين بالعودة، فإنني أضمنُ وقوع مشاجرات عقائدية كفيلة حتماً بإضعاف النظام الجليلي. بالضبط! إنَّ كلاً منهم الآن يُمسكُ بخنَّاق الآخر. وأصررتُ أيضاً على استعادة كل الأراضي والأبنية التي كان الجليليون قد استولوا عليها منا على امتداد السنين. إنني أدركُ أنَّ هذا سوفَ يُسبِّبُ بعض الضيق، ولكن لا توجد طريقة أخرى لتنفيذ الأمر. وأنا على أتمّ استعداد لمواجهة المشاكل.

في الثاني والعشرين من شباط أصدرتُ مرسوماً آخر، أحتفظُ فيه لنفسي بالحق في استخدام وسائل النقل العامة. فقد كان الأساقفة، الذين يُهرعون إلى هنا وهناك على نفقَة الدولة، قد حطّموا النظام. ملاحظة : عند هذه النقطة ضعْ لائحة بكل المراسيم العليا في ذلك العام، وأيضاً تعيينات الحكومة. إنها طبعاً موجودة في أضابير دائمة في مكتب السجلات، ولكن مع ذلك على المرء أنْ يكون مجتهداً. في هذه الأثناء، أريد فقط أنْ أقترب من أزهى مراحل تلك الأشهر الستة في القسطنطينية.

في أواخر شهر شباط علمتُ، بمحض المصادفة، أنَّ فيتيوس أغوريوس بريتكستاتوس وزوجته كانا في المدينة. إنه رئيس الحزب الهلّيني في روما بينما يُسمَح لزوجته، أكونيا بولينا، بحضور كل مراحل الأسرار المتوفّرة للنساء بالإضافة إلى كونها كاهنة هيكيت العليا. كنتُ توّاقاً إلى مقابلتهما.

بريتكستاتوس رجلٌ نحيل وهشّ، ذو شعر أبيض طويل ومنسدل وقَسَمات وجه صغيرة ودقيقة. وزوجته أطول قامة من زوجها قليلاً وحمراء الوجه وعنيفة كغالي، مع أنها من منبت روماني نقي. إنهما متحمّسان كثيراً لِما أفعله، خاصة أكونيا بولينا. " لقد تلقّينا ردّة فعل رائعة على معبدنا لهيكيت. رائعة حقاً. وكله بفضلك. في الحقيقة، كنا حتى العام الفائت نكاد لا نحصل على أي مهتدٍ؛ أما الآن... حسنٌ، لقد تلقَّيتُ تقارير من ميلانو، والإسكندرية، وأثينا... من كل مكان، تُفيدُ بأنَّ النساء تأتي إلينا أفواجاً! لا يسبقنا في الاكتتاب إلاّ معبد إيزيس، وعلى الرغم من أني مُكرّسٌ لعبادة إيزيس (في الواقع، أنا مهتد من الدرجة الثانية) لكنني أعتقد أنَّ هيكيت كانت دائماً تجذب إليها أفضل طبقة من النساء. آمل فقط أنْ نتمكّن من إقامة معبد هنا "

ابتهجتُ. " ستفعلان! ستفعلان! أريد لكل إله أنْ يُمثَّل في العاصمة! "

أشرقَتْ أكونيا بولينا. وابتسمَ بريتكستاتوس بجدّية. قال برقّة " إننا في كل يوم وفي كل ساعة، نصلّي لكي تنجح في مسعاك "

طوال ما لا يقلّ عن ساعة احتفلنا نحن الثلاثةَ بذلك الاتّحاد الذي لا يعرفه إلاّ المهتدون إلى الأسرار. كنا ثلاثة في واحد. ثم باشرتُ العمل.

" إذا أردنا دحر الجليليين يجب، بكل بساطة، أنْ يكون لدينا تنظيمٌ مُعادلٌ "

كان بريتكستاتوس مُرتاباً. " لطالما ناقشنا هذا الأمر في روما، وكنا حتى عهدٍ قريب نعتقد أنّنا على الأقل صامدون. إنَّ روما، في قرارتها، معادية للمسيحية. أما مجلس الشيوخ فهلّيني حتماً ". سكتَ وأطلَّ من النافذة، وكأنه يفتِّش عن زيوس نفسه في السُحُب المطريّة التي تتدحرجُ قادمة من البحر. " في الواقع، أيها الأوغسطوس، نحن لسنا منظّمة واحدة مثل الجليليين. نحن متعدّدون. أيضاً، نحن متطوّعون. ولسنا مضطرّين لدعم الحكومة... "

" أنتم تدعمونها الآن "

"... الآن، نعم، ولكن هل الآن فات أوانه؟ أيضاً، إنَّ مناشدتنا موجّهة إلى الفرد، على الأقلّ في الأسرار. وكل مَنْ يهتدي يمرُّ بالتجربة وحده. في إليوسيس الروح هي التي تواجه الأبدية "

" ولكن هناك أيضاً حسّ الصُحبة مع المهتدين الآخرين! انظر إلينا! أنتَ وأنا إخوة في ميثراس... "

" إنَّ هذا لا يشبه الانتساب إلى طائفة مفتوحة، إنَّ سلوكنا يتحكَّمُ فيه الكهنة الذين لا يقلُّ اهتمامهم بالملكية وبالسلطة السياسية عن اهتمامهم بالدين "

" أوافقك ". ربتُّ على الأوراق الموضوعة أمامي. " وأقترحُ أنْ نقاتلهم على أرضهم. لقد خطَّطتُ لرهبنة عالمية، يحكمها الروماني بونتيفكس ماكسيموس. سوف نقسِّمُ العالم إلى وِحدات إدارية، كما فعل الجليليون ـ وكل أسقفية سوف يكون لها تسلسلها الهَرَمي الخاص من الكهنة في ظل كاهن أعلى واحد، مسؤولٍ أمامي "

أثار ذلك اهتمامهما. أرادت أكونيا بولينا أنْ تعرف إذا ما كانت العبادات كلها سوف تُمثَّل في الكهانة. فقلتُ نعم. كل إله وإلاهة معروف للناس، مهما كان القناع أو

الاسم الذي يختفي تحته، سوف يُعبَد، لأنّ التعدُّديّة هي طبيعة الحياة. نحن جميعاً نؤمنُ - حتى الجليليون، على الرغم من معتقدهم المشوَّش بالثالوث - بوجود إلهٍ واحد تنبثقُ الحياة كلها منه، السماوية والدنيوية، وإليه لابد أنْ تعود. لعلّنا لا نعرف هذا الخالق، على الرغم من أنَّ رمزه الخارجي هو الشمس. لكنه عبر وسائط، بشرية وعُلويّة، يُحدثنا، يُبيِّنُ لنا أوجهاً منه، يُعدُّنا للمرحلة التالية من الرحلة. قال سقراط " إنَّ معرفة الأب وخالق كل شيء أمرٌ صعب. وإذا عرفته فمن المستحيل أن تنطق بمعرفتك تلك ". ولكن كما كتب أسخيلوس يقول بحكمةٍ مُعادلة " إنَّ الناس يفتشون عن الله والتفتيش يؤدي إلى العثور عليه ". التفتيش هو أهمّ نقطة بالنسبةِ إلى الفلسفة وإلى التجربة الدينية. إنَّ الإعلانَ أنَّ التفتيش انتهى قبل ثلاثمئة عام مضى حين تمَّ إعدام حَبرٍ شاب بتُهمة الخيانةِ هو جزءٌ من العقوق الجليلي. ولكن وفقاً لبولس الطرسوسي، لم يكن يسوعُ حَبراً عادياً ولا حتى مسيحاً؛ بل كان الإله الواحد ذاته الذي قام من بين الأموات لكي يُحاكم العالم فوراً. في الحقيقة، يُنقَل عن يسوع أنه أكَّدَ لأتباعه أنَّ بعضهم سيكون لا يزال على قيد الحياة عندما سيحل يوم المحاكمة. لكنَّ التلاميذ ماتوا واحداً إثر آخر ميتةً طبيعية ولا نزال ننتظرُ مجيء اليوم الموعود. وحتى ذلك الحين، يُكدِّسُ الأساقفةُ الممتلكات، ويضطهدُ واحدهم الآخر، وفضلاً عن ذلك ينهلون من مُتع هذه الحياة، بينما الدولة تزدادُ ضعفاً وعلى حدودنا يتكاثرُ البرابرة كذئاب الشتاء، ينتظرون حتى نترنَّح من فرط ضعفنا، ونسقط. إنني أرى هذا بالوضوح الذي أرى فيه يدي وهي تعبُر الصفحة (ذلك أنني لم أأتمن أي سكرتير على هذا الجزء). وقد وُلِدتُ كي أوقِفَ العربَة المائلة نحو الشمس.

شرحتُ خُطَطي لبريتكستاتوس. كنتُ قد وضعتُ بعضها قيد التنفيذ فعلاً. وعلى الأخرى أنْ تنتظر إلى أنْ أعودَ من بلاد فارس.

لقد كان فشل الهلّينية ' إلى حدٍ بعيد، مسألةً تتعلّقُ بالتنظيم. إنَّ روما لم تحاول أبداً أنْ تفرضَ أيَّ نوعٍ من العبادة على البلدان التي غَزَتها وحَضَّرَتها؛ في الواقع، على العكس تماماً. لقد كانت روما انتقائيّة. كانت الديانات كلّها تُعطى فرصة متعادلة حتى إيزيس - بعد بعض المقاومة - أصبحَتْ تُعبَد في روما. ونتيجةً لذلك أصبحَ لدينا مئة إله هام وعدد كبير من الأسرار. وبعضُ الطقوس تُدعَم - أو كانت تُدعَم - من قِبَل

الدولة لأنها تتضمَّن عبقرية روما. ولكن لم تُبذَل أي محاولة للتنسيق بين عبادة زيوس في العاصمة وبينَ عذارى الفستال مثلاً اللواتي يُحافظن على تأجُّج النار المقدَّسة في الساحة العامة القديمة. ومع مرور الوقت تحوَّلَتْ شعائرنا، ويجب أنْ نعترف بهذا بلا حماس، إلى مجرَّد شكل، إلى ذكرى تُطمئننا إلى عصر هذه المدينة العظيم، أو إيماءة عربون للآلهة القديمة التي ظُنَّ أنها أسَّست روما وقادتها من كونها قرية على نهر التيبر إلى إمبراطورية العالم. ولكن منذ البداية، كان هناك دائماً الساخرون. وقد سألَ عضو في مجلس شيوخ الجمهورية القديمة ذات مرة عرّافاً كيفَ استطاعَ أنْ يمرّ بمراسم العرافة دون أن يضحك. إنني لستُ طائشاً إلى هذا الحد، مع أني أسلِّمُ بأنَّ كثيراً من شعائرنا فقدَتْ معناها على امتداد القرون؛ لاحظ أنَّ تلك المعابد في روما حيث يتمُ تعلُّم أشعار معيَّنة صمَّاً تُرتَّل كل سنتين مرَّة، ومع ذلك لا أحد، بما في ذلك الكهنة،، يعرف ماذا تعني، لأنها مكتوبة بلغة الإتروسكيين المُبكِّرة، التي نُسيَتْ منذ زمنٍ بعيد.

بينما الصيَغ الدينية للدولة تزدادُ جموداً وفتوراً، ينجذبُ الناسُ إلى العبادات السرّية، عديد منها ذو منشأ آسيوي. وفي إليوسيس أو في كهوف ميثراس المتنوعة، يستطيعونَ أن يحصلوا على رؤى حولَ ما يمكن لهذه الحياة أنْ تكونَ عليه، بالإضافة إلى توقُّع ما سيأتي. إذن، هناك ثلاثة أنواع من التجارب الدينية؛ الشعائر القديمة، التي هي في الأساس استرضائية؛ والأسرار، التي تطهِّر الروح وتسمح لنا بإلقاء نظرة على الأبدية؛ والفلسفة، التي تحاولُ ليس فقط أنْ تُعرِّف العالم الماديّ بل وتقترح السُبُل العملية المؤدية إلى الحياة الصالحة، بالإضافة إلى محاولة تركيب (كما فعلَ إيامبليخوس بشكلٍ جميل) كل الديانة الحقيقية في منظومة شاملة.

ثم جاء الجليليون إلى هذا العالم الأكثر إرضاءً - على الأقلّ كاحتمال. وأقاموا أساس ديانتهم على فكرة ربٍ واحد، وكأنها فكرة جديدة : منذ أيام هومر وحتى جوليان، والهلّينيون موحِّدون. والآن هذا الرب الوحيد، وفقاً لأكبر الطوائف الجليلية، أرسلَ ابنه (الذي حَمَلَتْ به عذراء، كشأن العديد من الآلهة الآسيوية) لكي يُبشِّر العالم، ليتألَّم، لينهضَ من بين الأموات، ليُحاكم العالم في يومٍ من المفترض أنْ يكونَ قد بزغَ فجرهُ منذ أكثر من ثلاثمئة عام. وقد درستُ بدقّة كأي أسقف كتابات أولئك الذين عرفوا الجليليين، أو قالوا إنهم فعلوا. وهي مكتوبة بيونانية رديئة، كان يمكن

اعتبارها سبباً كافياً لتنفير أي إنسان مثقّف، في حين أنَّ القصة التي يحكونها مشوَّشة، هذا أقلّ ما يُقال فيها (لقد اكتشفتُ على خُطى بورفايري[١٠٢] ما يُقارب أربعة وستين تناقُضاً وتفاهاتٍ ملموسة).

لقد اختفَتْ سيرة حياة الجليلي الحقيقية. لكنني أمضيتُ وقتاً مُثيراً للاهتمام في محاولة جمع شتاتها. وحتى قبل ثلاثين عاماً، كانت محفوظات روما تتضمَّن عدداً من التقارير المؤقَّتة عن حياته. وقد اختفَتْ منذ ذلك الوقت، دمَّرها نظام قسطنتيوس. طبعا من قبيلً النكتة القديمة والمريرة القول إنَّ الناصريّ نفسه لم يكن مسيحياً. بل كان شيئاً مختلفاً كليّاً. وقد تحدَّثتُ مع تجار الأثريات الذين كانوا يعلمون بأمر وجود الملفّ في المحفوظات؛ وكثيرون كانوا إمّا قرؤوها أو يعرفون أناساً فعلوا. لقد كان يسوع، ببساطة، كاهناً يهودياً مُصلِحاً، استثنائياً ككل اليهود، ليس لديه أي اهتمام بهداية أحد خارج نِطاق عالم اليهود الصغير. ومشاكله مع روما لم تكن ذات صِبغة دينية (متى كانت روما تعدمُ أحداً بسبب معتقده الديني؟) لكنها سياسية. هذا اليسوع اعتقدَ أنه المسيح. والمسيح هو ضربٌ من البطل اليهودي الذي، وفقاً للأسطورة، سوف يُقيمُ إمبراطورية يهودية قُبيلَ انتهاء العالم. هو حتماً ليس إلهاً، وأقلّ من هذا ابن الإله الواحد. والمسيح هو موضوع العديد من النبوءات اليهودية، وقد أدَّى يسوع بعناية كل مُتطلَّب نبوئي لكي يصبحَ شبيهاً بهذا البطل (المسيح يدخل أورشليم على ظهر أتان؛ وقد فعلَ ذلك، الخ). لكنَّ الأمر لم يسرِ سيراً حَسَناً. فالناس لم يدعموه. وتخلّى ربّه عنه. فتحوَّلَ إلى العنف. ومع عُصبةٍ كبيرة من المتمرّدين استولى على المعبد، مُعلِناً أنه جاءَ شاهراً السيف. وما رَفَضَ ربُّه أن يفعله لأجله يجب أن يفعله بنفسه. وهكذا في نهاية الأمر لم يصبح إلهاً ولا حتى المسيح اليهودي بل مُتمرِّداً حاولَ أن يُنصِّبَ نفسه ملِكاً على اليهود. فأعدمه حاكمنا، وكان الحقُّ معه تماماً.

يجب ألاّ ننسى أنَّ يسوع، كما قال بعَظْمة لسانه، يهوديٌّ آمنَ بناموس موسى. وهذا يعني أنه لم يستطع أنْ يكونَ ابنَ الله (وهذا إلحادٌ صِرف)، فما بالك بأنْ يكونَ الله نفسه، المرتبط بالأرض مؤقتاً. ولا يوجد في كتاب اليهود ما يعدنا بمجيء مسيح ذي صلة قرابة بيهوه. ولم يتمكّن الجليليون من تغيير مسيرة حياة هذا المُصلِح-الحَبر إلى مُحاكاةٍ ساخرة لأحد آلهتنا الخاصة، إلاّ بإعادة التأويل المستمر و " الرؤى "

المناسبة، مُثيرين بذلك شَغَفاً بالموت وبولادة جديدة غير مفهومة على الإطلاق بالنسبة لِمَنْ حافَظَ على ناموس موسى... ناهيكَ عن إثارة اشمئزازنا نحن الذين لا نعبد الرجال الذين أُعدموا زمنيّاً بل شخصيات رمزيةٍ مثل ميثراس وأوزيريس الذين لا يهمٌّ وجودهم الواقعي لكنَّ أسطورتهم ورؤاهم المُبهمة مُنتشرة في كل مكان.

إنَّ تعاليم الجليلي الأخلاقية، على الرغم من أنها غالباً مُسجَّلة بصورة مُشوَّشة، تتجاوز النقد. إنه يُنادي بالصدق، وبالرزانة، وبالطيبة، وبما يشبه الزُهد. بعبارةٍ أخرى، لقد كان حبراً يهودياً عادياً جداً، مع ميول فريسيّة[١٠٣]. وهو يُشبه بصورة بدائيّة ماركوس أورليوس. وبالمقارنة مع أفلاطون أو أرسطو، هو طفل.

إنَّ عجيبةَ عصرِنا أنَّ هذا الكاهن الريفي البسيطِ التفكير تحوَّلَ بشكلٍ خارقٍ إلى إله على يد بولس الطرسوسي الذي بزَّ كل الدجّالين والغشاشين في أي مكان من العالم. وكما كتب بروفايري بحدَّة شديدة في القرن الماضي، " لقد أعلنَتْ الآلهة أنَّ المسيح هو الأشدّ وَرَعاً؛ وأصبحَ خالداً وبقيَتْ ذكراه في بالهم. في حين أنَّ المسيحيين مجموعةٌ مُدَنَّسة، ملوَّثة وتتخبَّطُ في الخطأ ". الأمرُ أضحى أسوأ الآن. وفي الوقت الذي نجحَ فيه قسطنطين، وقسطنتيوس، وحشد الأساقفة في التعامُل مع يسوع، لم يكن قد بقيَ أيُ شيءٍ من أصالة رسالته. وفي كل مرة يعقدون السنودس[١٠٤] يبتعدون أكثر عن تعاليم الرجل الأصليّة. ومفهومهم للإله المثلَّث الأقانيم هو آخر تُحفهم.

أحد الأسباب التي جعلَت الجليليين يزدادون قوةً وخطورةً بالنسبة إلينا هو تجميعهم المستمرّ لشعائرنا ومناسباتنا المقدَّسة. وبما أنهم يعتبرون عن حق أنَّ مذهب ميثراس يشكِّلُ المنافِس الرئيسي، فإنهم منذ بضع سنوات يتبنّون أوجهاً متنوعة من الطقس الميثرائي ويدمجونها مع مراسيمهم. وبعض النقّاد يؤمنون بأنَّ عملية الامتصاص التدريجي لصيغنا وصلواتنا حديثة العهد جداً. لكنني احدِّدُ التاريخ بأنه منذ البداية الأولى. وفي واحدة على الأقلّ من سِيَرْ الجليليين هناك أمثولة غريبة لم يتمكّن أتباعُه أبداً من شرحها (وهم في المعتاد بارعون فقط في إضفاء المعنى على الهراء). ذهب جليليٌّ إلى شجرة تين لكي يجمع ثمارها. ولكن بما أنه لم يكن موسم الإثمار، كانت الشجرة عقيمة. وفي ثورة غضب، أنزلَ الجليليّ على شجرة التين سحراً، فقتَلَها. وشجرة التين هذه شجرةٌ مقدَّسة عند ميثراس : في شبابه، كانت له منزلاً،

ومصدراً للطعام وللكِساء. وأقترحُ أنَّ المُدافع عن الدين الذي كتبَ تلك الفقرة في القرن الأول فعلَ ذلك عن عمد، فاخترعها أو دوَّنها، لا يهمّ أيّهما، كدلالة على أنَّ الجليليّ سوفَ يُدمِّرُ عبادة ميثراس بالسهولة التي دمَّر بها الشجرة المقدَّسة.

لكنني لا أرمي هنا في الصفحات التي تضمُ ما يُفتَرَضُ أنه تاريخٌ إلى أنْ أضعَ حُججي المألوفة ضد الجليليين. يمكن العثورُ عليها في المقالات العديدة التي نشرتُها حول الموضوع.

عملتُ مع بريتكستاتوس بجهدٍ مشترك طوال ذلك الشتاء في القسطنطينية. وقد وجدتُه وزوجتَه ينطويان على معرفةٍ واسعةٍ في الشؤون الدينية. ولكن كلما تكلَّمتُ عن النواحي العمليّة، يفقدُ بريتكستاتوس اهتمامه. لذا طفقتُ وحدي أُعيدُ تنظيم... كلا، بل أنظِّمُ المذهبَ الهلّينيَّ. لقد كَسَبَ الجليليون كثيراً من السمعة الطيّبة بسبب مَنحِهِم الصَدَقَةَ لكلِّ مَنْ يطلبها. ونحن الآن نفعلُ الشيءَ نفسه. وكهنتهم يُثيرون إعجاب الجَهَلَة بما يُسمونه حياتهم المقدَّسة. إنني الآن أُصِرُّ على أنَّ كهنتنا مقدَّسون حقاً. لقد أعطيتهم تعليمات كاملة حول كيفية التصرُّف في حياتهم العامة والخاصة. وعلى الرغم من افتقار بريتكستاتوس إلى الإلهام، إلاّ أنه عملَ معي باجتهاد على تلك الخُطط. أما أكونيا فلم تساعدنا في أي شيء. فهي، كما يقول المثل السائر، لم تنشأ على ذلك. وأخشى أنَّ اهتمامها الوحيد ينصبُّ على خلاصها الخاص. إنها تعتبرُ الدين نوعاً من اليانصيب، وإذا ما جرَّبَتْ حظَّها مع كلِ إلهٍ من الآلهة، فلابد أن يمنحها قانون المعدلات الوسطى فرصةً لانتقاء الإله المناسب الذي سيخلِّص روحها. أما ما تريده الأبدية من أكونيا بولينا، فهذا ما لا أعلمه.

بريسكوس : برافو جوليان!

على الرغم من أنَّ جوليان لا يأتي على ذِكر هذا، إلاّ أنه في ذلك الوقت تقريباً دخل صديقنا القديم ماكسيموس دخول المنتصرِ إلى القسطنطينية. لم أكن موجوداً لدى وصوله، لكنني حتماً سمعتُ ما يكفي عن ذلك. وعندما أصبحَ جوليان إمبراطوراً، دعا كل فيلسوف وساحر في الإمبراطورية إلى البلاط. وقد لبَّى الجميع الدعوة تقريباً. وحدهم أصدقاؤه المسيحيون تخلَّفوا. كان باسيل مقدَّساً في كابادوسيا؛ ولا أعتقدُ أنَّ غريغوري دُعيَ. لعلَّ من المثير للاهتمام التفتيش في مكتب السجلات عن غريغوري

لأنه يبدو أنني أتذكَّر رسالةً مغرقة في التملُّق كتبها جوليان في ذلك الوقت تقريباً، ولكن لعلّي أحلم بهذا... في الأسبوع الفائت فقط خاطبتُ هيبيا باسم أمي، بعد مرور نصف قرن من الزواج! إنني طبعاً أفقدُ عقلي. ولكن لِمَ لا؟ حين يأتي الموت، فلن يجد أمامه ما يأخذه غير كيسٍ من العظام الضامرة، لأنَّ ذِكرى بريسكوس، التي هي بريسكوس، سوفَ تكون قد انتشرتْ منذ زمن بعيد.

حاولَ جوليان مراتٍ عديدة أنْ يدفع ماكسيموس إلى مغادرة إفسوس والمجيء إلى بلاد الغال، لكنَّ النُذُر لم تكن مُبشِّرة. أنا واثق من أنها لم تكن كذلك! لم يكن ماكسيموس يوشك أن يتحالف مع ما ظنَّ أغلب الناس أنه الجانب الخاسر في التمرُّد. ولكن حين وصَلَتْ الدعوة أخيراً من القصر المقدَّس، كان ماكسيموس مستعداً. وصلَ إلى القسطنطينية بينما كان جوليان موجوداً في مجلس الشيوخ. وبالمصادفة، كان جوليان في الوسط الملائم له مع ذلك الحشد، مع أني لستُ متأكّداً من أنهم استمتعوا بوجوده بقدر استمتاعه بهم. فأعضاء المجلس عادةً لا يكتملُ نِصابُهم. ولكن بحضور الإمبراطور، هدَّدَ مقر مجلس الشيوخ بالانفجار. جلسَ آباء التجنيد الإلزامي بعضهم فوق بعض بينما كان جوليان يمزح، ويُصلّي، ويحضُّ وكان كذلك، في الإجمال، يُنجِزُ أعمالاً كثيرةً، إذ لم يكن هناك مجال إلاّ ويُبدي اهتماماً به.

خلال الأشهر الستة التي أمضاها في القسطنطينية، أنشأ جوليان مرفأً عند أسفل القصر. وأعفى كلَّ الرجال الذين لديهم ثلاثة عشر طفلاً أو أكثر من دفع الضرائب: كان شديد القلق بشأن انحدار معدَّل المواليد. لا أفهمُ لماذا. فالأرض تعجُّ بِمَنْ عليها من البشر والتقليل من عددهم سوفَ يُخفِّف ببساطة من كثافة الذريّة. لكنّه كان منزعجاً من زيادة عدد البرابرة وانخفاض أعدادنا. وعمل أيضاً على تقوية صديقنا القديم سالوست كحاكم إمبراطوري في الغال، مع أنه كان بوضوح يرغبُ في أنْ يجعله قريباً منه. لقد قامَ بتلك التضحية الشخصية لأنه لم يكن يثق بقدرةِ أحدٍ غيره على حمايةِ الغرب، وكان على حق، كما يؤكّد كل عامٍ يمر. واليوم لا تزال الغال آمنة مع أنَّ الغوط لا يبعدون إلاّ مسيرة بضعة أيام عن منزله في أثينا حيث أجلس، أكتبُ عن أشياء غابرة، وأتذكَّرُ أكثر مما أفكِّر.

كان جوليان منهمكاً في إلقاء خطابٍ حماسيٍّ حين ظهرَ ماكسيموس عند باب

مجلس الشيوخ. كان " الفيلسوف " العظيم يرتدي أثواباً من الحرير الأخضر مغطّاة بتصاميم قَبَلانيّة[١٠٥]؛ ولحيته الطويلة الشائبة مُعطَّرة وحاجباه الشعثان ممشّطَين بعناية - الحقُّ أني شاهدته وهو يمشِّطهما ليُعطيا الإيحاء بقنطرتين مكتملتي الاستدارة. كان يحملُ عصاه السحرية المحفورة من عَظْمة تنين، أو ما شابه من الهراء. صُعِقَ الشيوخ، إذ لم يكن يُسمح بمقاطعة الجلسة إلا شيخ مثلهم؛ وطبعاً، لا يُسمح لأي شخص بالدخول بينما الإمبراطور يتكلَّم. لكنَّ جوليان، حين رأى ماكسيموس، توقف عند منتصف الجملة وهرعَ، مفتوح الذراعَين، ليُعانقَ ذلك الدجّال الحميم. ويسعدني أنني لم أكن موجوداً هناك.

ثمَّ قدَّمَ جوليان ماكسيموس لمجلس الشيوخ، ولقَّبَه بأحكم الرجال وأشدّهم وَرَعاً في العالم مؤكداً على أنه يُشرِّفُ الحاضرين أنْ يتمكّنوا من تقديم واجب الثناء لمثل هذا الرجل. ولا حاجة إلى القول إنَّ الجميع رُوِّعوا. وخُصِّصَ لماكسيموس وزوجته جناحٌ كاملٌ في القصر المقدَّس ليكونَ بلاطاً خاصاً بهما؛ وأصبح هناك إمبراطوران في القسطنطينية. وانهمكَت زوجة ماكسيموس في مهمّة هائلة كنوعٍ من رئيس تعيينات غير رسمية، تنظِّمُ المقابلات مع الإمبراطور وتحوِّل الالتماسات. وخلال تلك الأشهر جمعا ثروةً. لقد كانا زوجاً نادراً.

على الرغم من أنه ليس من عادتي أنْ اضحك على موت أحد، فأنا لا ازالُ أقهقه بيني وبين نفسي حين أفكِّر في موتها هي. أتعرف القصة؟ بعد انتهاء الحملة الفارسية في أول عهد ماكسيموس بالمشاكل، قرَّرَ أنْ ينتحر. ووافقَتْ زوجته على أنَّ ذلك هو أفضل ما يمكن عمله. وأصرَّتْ أيضاً على أنْ تنتحر. وبكفاءتها النشطة المعتادة، أعدَّت العدَّة لكليهما؛ جَلَبَتْ السُمّ وكتبتْ رسائل وداع هائلة الحجم. ثم، وبوقار، تبادلا عبارات الوداع. شربَتْ أولاً وماتت بسرعة. أما ماكسيموس فانهارت أعصابه، ونجا. ولا أزالَ حتى يومي هذا أبتسمُ مع نفسي كلما فكَّرتُ في تينك الزوج اللذين لا يُصدَّقان.

جوليان أوغسطوس.

في بداية شهر نيسان، ومن باب التسلية، استدعيتُ الأساقفة إلى القصر. فقبل أي شيء، أنا بونتيفكس ماكسيموس والديانة كلها منطقتي، مع أني ما كنتُ لأتهوَّر

وأبوح لأي كاهن بما قاله قسطنتيوس للأساقفة في سينودس ميلانو في عام ٣٥٥ :
"سوفَ تكون إرادتي هي مرشدكم! "

استقبلتُ الجليليين في قصر دافنى. كنتُ أضع التاج وأمسكُ بالكرة السلطانية. (الجليليون دائماً يتأثّرون بالاستعراض الطقسي للسلطة). كانت مناسبةً رائعة. حضرَ ما يُقارب ألْفَ أسقف، بمن فيهم أولئك الذين استدعيتهم من المنفى. ونتيجة لذلك، كان هناك في الغالب أسقفان لكلِ كرسيٍّ أسقفي. وهذا عزَّزَ كثيراً من التشاحن. إنَّ كهنة الجليليّ أولئك ليسوا رقيقين.

في أول الأمر كان الأساقفة يخافونني، لكنني طمأنتهم. قلتُ لهم إنني لست جلاّداً، على الرغم من أنَّ الذين سبقوني كانوا كذلك، وليسوا جميعاً من الأباطرة. هذا الكلام كان موجَّهاً إلى العديد من الأساقفة المقاتلين الذين كانوا قد دمَّروا أعداءهم بالعنف.

قلتُ، " لن ينال أحداً أيُّ أذى مني بسبب معتقده " . سادَ ارتياح عام في المكان. لكنهم ظلوا حذرين. " طبعاً أحبُّ أن أقنعكم بأني على حق. ولكن بما أنَّ الحقيقة واضحةٌ وضوحَ الشمس، ولم تروها، فلن تروها. ولكن لا أستطيع أنْ أسمح لكم بإيذاء الآخرين، كما فعلتُم على مدى سنين عديدة. ولن أعدِّد الجرائم التي ارتكبتموها، أو سمحتُم بارتكابها. إنَّ القتل، والسرقة، والأعمالَ الشريرة اعتياديةٌ أكثر بالنسبة إلى حيوانات البراري وليس للكهنة، حتى المعتنقين للإله الخطأ "

رفعتُ حزمة ضخمة من الوثائق. " ههنا آخر جرائمكم. جرائم قتل مطلوبٌ تنفيذها، وممتلكات مطلوبٌ الاستيلاء عليها... آه، كم تحبّون جمع ثروات هذا العالم! مع أنَّ دينكم يُنادي بوجوب أن تقاوموا الإيذاء أو اللجوء إلى القضاء أو الاستيلاء على الممتلكات، ناهيك عن سرقتها! لقد تعلَّمتم ألاّ تعتبروا أيَّ شيءٍ ملككم، إلا مكانكم في العالم الآخر والأفضل. لكنكم تتزيّنون بالأحجار الكريمة، وترتدون الأثواب الغالية، وتشيّدون البازيليكات الضخمة، وكله في هذا العالم، وليس في الآخر. لقد تعلَّمتم أن تحتقروا المال، لكنَّكم تُكدِّسونه. وأمرتُم بألاّ تنتقموا إذا ما تعرَّضتم للأذى، الواقعي أو الوهمي، وأنَّ من الخطأ الردَّ على الشر بالشر. ومع ذلك تتقاتلون على صورة عصاباتٍ خارجة عن القانون، تعذِّبون وتقتلون أولئك الذين لا يعجبونكم. لقد

عرَّضتم للخطر ليس الدين الحق فقط بل وأمان الدولة التي أنا قاضيها الأعلى، بإرادة السماء. إنكم لا تستحقّون حتى الناصريّ. إذا كنتم لا تستطيعون أنْ تعيشوا وفقاً لتلك المبادئ الأخلاقية التي أنتم راغبون في الدفاع عنها بالخنجر والسُمّ " (الإشارة هي إلى تسميم آريوس وأثاناسيوس)، " فماذا تكونون غير منافقين؟ "

خلال ذلك كله كانت الغمغمة تسري. ثم حدث انفجارٌ جليليّ. بدؤوا يصرخون ويتحدثون بصَخَب، ويهزّون قبضَات أيديهم ليس فقط في وجهي - وهذه خيانة - بل أحدهم في وجه الآخر - وهذه حماقة، ذلك أنَّ عليهم أنْ يتَّحدوا ضدّ العدو المشترك. حاولتُ أنْ أتكلَّم ولكنهم لم يتمكّنوا من سماعي، وفي العراء يستطيعُ صوتي أنْ يُسمِع جيشاً بأكمله! بدا الرعب على تريبيون الحَرَس المدرسي، لكنني أشرتُ إليه كي لا يقومَ بأي حركة.

أخيراً، وكثور ميثراس، جأرتُ، " كان الفرنجة والجرمان يُصغون إليّ حين أتكلَّم!". كان لهذا أثرٌ مُهدِّئٌ. "وتذكَّروا أين هُم".

عندئذٍ عدتُ معتدلاً. اعتذرتُ بسبب تهوُّري في الكلام. حدثَ ذلك بسبب احترامي الشديد لكلمات الناصري فقط، وكذلك بسبب قانون اليهود الصارم الذي سعى فقط - بوصفهِ يهودياً - إلى تمجيده. أثارَ هذا همهمةً قليلة لكنّها وجيزة. ثم قلتُ إنني راغبٌ في مَنح الناصريّ مكاناً بين الآلهة يقع بين إيزيس وديونيزيوس، بل إنه لا أحد يمتلكُ أقلّ تبجيل لخالق الكون الفريد يمكنه أن يفهم أنَّ صانع المعجزات الريفيّ هذا هو خالق نفسه. وقبل أنْ يُتاح لهم أنْ يباشروا هذر القرود، تكلَّمتُ بسرعة وبصوتٍ عالٍ. "لكنني راغبٌ في تصديق أنه تجسدٌ للواحد، الشافي، وأقرب شَبَهاً بأسكليبيوس، وعلى هذا الأساس أرغبُ في تشريفه "

ثم كرَّرتُ ما كنتُ قد كتبتُه في مرسوم الرابع من شهر شباط. سوف يسود تسامحٌ شامل. في استطاعة الجليليين أنْ يفعلوا ما يشاؤون بين أقرانهم ولكن يُمنَع عليهم أن يقتل بعضهم بعضاً، ناهيك عن قتل الهلّينيين. واقترحتُ أنْ يقلّلوا من جشعهم في اقتناء الممتلكات. واعترفتُ بأنني أسبِّبُ لهم الأذى حين أطلب استعادة الأراضي التابعة للمعابد لكنني أشرتُ إلى أنهم سبّبوا لنا أذى هائلاً حين قاموا بسرقتها. واقترحتُ أنه إذا قلّلوا من احتقارهم لأساطيرنا القديمة - كرونوس يبتلعُ أطفاله - فقد نصبح أقلّ فظاظة بشأن إلههم الثلاثي الأقانيم وولادته من عذراء.

" قبل كل شيء، وبوصفنا مثقفين، يجب أنْ نُدرك أنَّ الأساطير دائماً ترمزُ إلى أشياءَ أخرى. إنها دُمى من أجل ظهور أسنان الأطفال. إنَّ الرجل يعرفُ أن الحصان الدمية ليس حصاناً حقيقياً لكنه مجرَّد إيحاء إلى فكرة الحصان لعقل الطفل الصغير. وعندما نصلّي أمام تمثال زيوس، فعلى الرغم من أنَّ التمثال يحتويه كما ينبغي على كل شيء، فإنَّ التمثالَ ليس هو الإله نفسه بل مجرَّد إيحاء إليه. ولاشك في أننا نستطيع، كرفاقٍ في الرهبنة، أن نتصارح بشأن أمور البالغين هذه "

" يجب الآن أنْ أطلبَ منكم أنْ تحافظوا على الهدوء في المدن. فإذا لم تفعلوا، فسوف أعمل بوصفي كبيركم على تهذيبكم. ولكن لا حاجةَ بكم إلى الخوف مني كبونتيفكس ماكسيموس، هذا إذا أحسنتم السلوك وأطعتُم القوانين المدنية وعالجتُم نزاعاتكم دون اللجوء، كما فعلتُم في الماضي، إلى النار والخنجَر. بشِّروا فقط بكلمات الناصريّ وسوفَ نستطيع أنْ نتعايش معاً. ولكنَّكم طبعاً غير راضين عن تلك الكلمات القليلة. إنكم تُضيفون إليها جديداً في كل يوم؛ تقضمون من الهلّينية برفق، وتنتحلون أعيادنا المقدسة، ومراسمنا، وكل ذلك باسم شخص يهودي لا يعرف عنها أي شيء. إنكم تسرقوننا، وتنبذوننا، وتقتطفون من سيبريان[106] الذي قال إنه خارجَ معتقدكم لا وجودَ لخلاص! فهل على المرء أنْ يُصدِّقَ أنَّ ألف جيلٍ من الرجال، من بينهم أفلاطون وهومر، ضائعون لأنهم لم يعبدوا يهودياً من المفترض أنه الإله؟ رجلاً لم يولد حين بدأ العالم؟ وأنَّكم تدْعوننا إلى تصديق أنَّ الإله الواحد ليس فقط " غيوراً "، كما يقول اليهود، ولكنه شرير؟ أخشى أنَّ تصديق هذه الأشياء يتطلَّبُ قدراً خارقاً من خِداع النفس. لكنني لم آتِ إلى هنا لكي أنتقدكم، بل لأطلبَ منكم فقط أن تُحافظوا على الهدوء وألاّ تنسوا أبداً أنَّ عَظَمة عالمنا كانت هِبةً من الآلهة الأخرى وفلسفةً مختلفةً وأشدَّ رهافةً، تعكسُ التنوُّع في الطبيعة "

نهضَ أسقفٌ عجوز واقفاً على قدميه. كان يرتدي ثيابَ رجل ورِعٍ متواضعة وليس ملابس أمير. " ليس هناك إلاّ ربٌ واحد. واحدٌ فقط منذ بدء الزمان "

" أوافقكَ. ويمكنه أنْ يتَّخذَ قدرَ ما يشاء من الأشكال لأنه كُلّيّ القُدرة "

" الرب الواحد ليس له إلا شكلٌ واحد ". على الرغم من رقَّة الصوت العجوز إلاّ أنه كان حازماً.

" هل كُشِفَ النقابُ عن هذا الربُ الواحد في كتاب اليهود المقدَّس؟ "

" بلى، أيها الأوغسطوس. ولا يزالُ موجوداً "

" ألم يقُل موسى في الكتاب المُسمَّى سفر التثنية إنَّكم " لن تضيفوا إلى الكلمة التي أعطيتكم إياها، ولن تُنقصوا منها "؟ ". أوَلَمْ يلعن كلَّ مَنْ لا يلتزم بناموس الرب الذي أعطاه إياه؟ "

ساد صمت. لقد كان الأساقفةُ رجالاً حادّي الذكاء ويدركون تماماً أنني نصبتُ لهم ما يشبه الفخ، لكنهم اضطرّوا إلى أنْ يُكمِلوا وِفقاً لكتابهم المقدَّس، لأنه لا شيء في هذا الجزء منه يتَّصِفُ بأي قدرٍ من الغموض.

" إنَّ كل ما تقول إنَّ موسى قاله ليس فقط صحيحاً بل سرمديّ "

هنا تركتُ الفخ ينطبق عليهم. " إذن، لماذا غيَّرتُم الناموس لكي يُلائمكم؟ لقد عملتم بألفِ طريقةٍ على تشويه لا صورةِ موسى بل الناصري وقد قمتم بذلك منذ أنْ قال بولس الطرسوسي الكافر " إن المسيح هو نهاية الناموس! ". أنتم لستم يهوداً ولا جليليون بل انتهازيون "

انفجرَتْ العاصفة. نهضَ الأساقفة وقوفاً على أقدامهم وهم يهتفون بمقاطع من الكتاب المقدَّس، وإهانات، وتهديدات. للوهلة الأولى حسبتُ أنهم ينوون أنْ ينقضّوا عليّ وأنا على العرش، ولكن حتى وهم في ذروة غضبهم التزموا حدودهم.

نهضتُ واقفاً وقطعتُ أرض المكان إلى الباب جيئةً وذهاباً، وقد تجاهلني الأساقفة الذين أخذوا عندئذٍ يشتم بعضهم بعضاً ويشتمونني أيضاً. وعندما هممتُ بمغادرة الغرفة، اعترضَ طريقي فجأةً الأسقفُ العجوزُ الذي كان قد تحدّاني. كان ماريس الخلقيدوني. لم أرَ في حياتي كلها على وجهٍ إنسانيّ مثل كل ذلك الحقد.

" أنتَ ملعون! " وكادَ يبصقُ على وجهي. شهرَ التربيون المدرسي سيفه لكنني أشرتُ إليه كي يتراجع.

" في نظرك ربما، ولكن ليس في نظَر الله ". كنتُ معتدلاً، بل جليلياً.

" مُرتدّ! ". رشقني بالكلمة.

" ابتسمتُ. " ليس أنا. بل أنت. أنا أعبدُ ما عبده الناس منذ بداية الزمن. وأنتَ مَنْ تخلّى ليس فقط عن الفلسفة بل عن الله ذاته "

" سوف تحترق في نار جهنّم! "

" حذارِ، أيها العجوز، أنت هو المُعرَّض للخطر. بل كلّكم. لا تظنوا أنَّ الأجيال العديدة التي مرَّتْ منذ وفاة الناصريّ تساوي أكثر من لحظة في الأبدية. إنَّ الماضي لا يموت لمجرَّد أنكم تتجاهلونه. إنَّ ما تعبدونه هو الشر. لقد اخترتُم التفرِقة، والقسوة، والتطيُّر. في الواقع، أنا مُصمِّم على القضاء على المرض، على استئصال السرطان، على تقوية الدولة... والآن تنحَّ عن طريقي، يا زميلي الطيب، ودعني أمرّ "

لم يتنحَّ جانباً بل مشى مباشرةً في اتّجاهي. فجأةً قال تريبون الحرس المدرسي، "إنه ضرير، أيها الأغسطوس "

أومأ العجوز إيجاباً. " وأنا سعيد لأنني لا أستطيع أنْ أراك، أيها المُرتدّ "

" يجب أن تطلب من الناصريّ أنْ يُعيدَ إليك بصرك. فإذا كان حقاً يحبّك، فإنها مسألة بسيطة ". قلتُ هذا وانعطفتُ حوله. بينما كنتُ أفعلُ هذا أصدرَ هسيساً، من ذلك النوع الذي يصدر عن النساء حين يعبّرن عن خوفهنَّ من حضور شيطانٍ شرّير. وقام أيضاً برسمِ إشارة الصليب على جبينه. أجبتُ على تلك الإيماءة المهذّبة بالقيام بالإشارة التي تصدّ العين الشريرة، لكنها لم تنفع معه.

حلَّ الربيع باكراً على المدينة. كانت فترةً رائعةً ملأى بالإنجازات الجديدة. وواظبتُ بانتظام على حضور جلسات مجلس الشيوخ. كنتُ أوّلَ إمبراطور منذ أيام أوغسطوس يتصرَّف ببساطةٍ كأي عضو في ذلك الجمع بدل أنْ أكون سيداً عليه والمُستبد به. إنَّ بريسكوس يعتقد أنهم يكرهونني بسبب مساهمتي في مناقشاتهم؛ لعلّه على حق، ولكن حتى إذا كانوا كذلك، فمن الجيد دائماً إعادة المعنى إلى المؤسسات القديمة.

أجريتُ إصلاحات عديدة. أخرجتُ كل الجليليين من بين صفوف الحرس المدرسي؛ ورفضتُ أنْ أسمحَ لأي جليليّ أنْ يكونَ حاكماً على ولاية. وقد علَتْ بعض الأصوات المُحتجَّة على ذلك. لكنني على حق. إنَّ الحاكم الذي يتعاطفُ مع الجليليين لا يمكن أن يُتوَقَّعَ منه أنْ يُطبِّق مراسيمي العليا، خاصةً تلك المتعلِّقة بإعادة بناء المعابد. وكثيرٌ من شيوخ المجلس كانوا يُعنّفونني أثناء النقاش : مادمتُ مُتسامحاً إلى هذه الدرجة بالنسبة إلى الأديان كلها فلماذا اضطهدتُ الموظفين الرسميين من الجليليين؟ ولأسبابٍ واضحة كانت أجوبتي سفسطائيةً أكثر منها صادقة.

" هل يُوافقُ الآباء الإلزاميـون على أنَّ على الحـاكم أنْ يدعم قـوانين الدولة؟ ". وافقوا. " أليس هناك من جرائم - كالخيانة العظمى - تستحق عقوبة الموت؟ ". وافقوا من جديد. " ألا توافقون أيضاً على أنه لا أحد يمكنه أن يكونَ حاكماً فعَّالاً، إذا لم يكن لديه الحق في إصدار حكمٍ بالإعـدام؟ ". وعندئذٍ لم يكن هناك غـيـر حـفنة ممَّن لديهم الاندفاع في المناقشة مثلي. " حسنٌ، فكيف يمكن لجليليّ إذن أنْ يكون حاكماً في حين أنَّ الناصريّ يأمره صراحةً بألاّ يقتلَ شخصاً آخر، كما وَرَدَ في ذلك الكتاب الذي يُقال إنَّ متّى ألَّفه، في الفصل السادس والعشرين، الآية الثانية والخمسين، ومرةً أخرى في عمل الكاتب يوحنا؟". دائماً استخدمْ أسلحتهم ضدهم؛ لأنهم يستخدمون أسلحتنا ضدّنا.

عـملتُ على نزع الصليب عن كل الشـارات العـسكرية والمدنيـة، وأيضـاً عـن قِطَعِ العُملة المعدنية التي طرقتُها، واستبدلْتُ به صوراً للآلهـة. وخاطبتُ الجميع بـ " يا صديقي الطيب "، مُقلِّداً في ذلك سقراط. وأخيراً، تولَّيتُ بنفسي زمام الجيش. فالإمبراطور طبعاً هو القائد الأعلى، ولكن إذا لم يكن جندياً مُتمرِّساً فلا يمكنه أبداً أنْ يكونَ أكثر من نوعٍ من الطوطم أو الصورة المقدَّسة، أما فعلُ الحربِ نفسه فتُركَ لآمري الميدان. واستطعتُ أنْ أسيطرَ على الجيش جاعلاً من جيشي الغاليّ الخاص نواةً له، وبمساعدة الضباط الذين جلبتُهُم معي من الغال، خاصةً نيفيتا، وداغاليف، وجوفينوس؛ ومن جيش الشرق القديم احتفظتُ بفيكتور، وأرينثيوس وابن عمي بروكوبيوس.

والغريب في الأمر، أنَّه لم يصلني أيَّ شيءٍ مباشرة من سابور منذ أنْ أصبحتُ إمبراطوراً. وكان ذلك خرقاً خطيراً لأصول المعاملة، ذلك أنَّ الحُكَّام الرومان والفُرس دائماً يتبادلون التهاني الرسمية بمناسبة بلوغ حاكم من هذا الطرف أو ذاك سُدَّة العرش. ومع ذلك لم يصلني غير الصمت من ستيسيفون. لكنني علِمتُ شيئاً عن سابور حين وصل وفدٌ رسمي غريب وغاية في الثراء إلى المدينة في بداية شهر أيار. كان السفراء من ذوي البشرة السمراء، أناساً ضئيلين ورقيقين من سيلان، وهي جزيرةٌ تقعُ قِبالة الشاطئ الهندي. جلبوا معهم هدايا فاخرة؛ وعبَّروا عن أمنيتهم بإقامة علاقات تجارية معنا، وكنا منفتحين جداً. وقد أخبرني سفيرهم أنَّ سابور قد تابعَ عن قُرب أخبار حملاتي في بلاد الغال وأنه يخشاني. ما أغرب التفكير في أنَّ ملكاً شرقياً من آخر العالم يعلمُ كل شيء عن غزواتي التي تجري على بُعد ثلاثة آلاف ميل منه! غير أنني

أعرف كثيراً عنه. إنَّ بيني وبين سابور من القواسم المشتركة أكثر مما بيننا وبين أصدقائنا الحميمين، ذلك أننا نشتركُ معهم في المسؤولية نفسها والقوة الهائلة نفسها. فإذا أخذتُهُ أسيراً، فسوف يدورُ بيننا حديثٌ طويل.

وضعتُ خطَّةً لشن حملةٍ في الشتاء، مُتذكِّراً القولَ المأثورَ إنه في الجو البارد "يرفضُ الفارسيّ أنْ يُخرجَ يده من معطفه". ولسوء الحظ، وكما اتَّضَحَ، أنني كنتُ متأخراً بعدَّة أشهر عن الجدول الموضوع. ولكن في تلك الأثناء، قامَ نيفيتا بتدريب القوات التي كانت روحهم المعنوية عالية؛ حتى الكلتيون لم يأبهوا كثيراً بالشرق كما كانوا يعتقدون.

خلال تلك الفترة، تعرَّفتُ إلى الأمير الفارسي أورميسدا؛ الأخ غير الشقيق لسابور، وصاحب الحق في تبوّء عرش فارس شرعياً. ولكن حين كان صبياً صغيراً عمل سابور على نفيه. وبعد مكوثه فترة وجيزة في بلاط أرمينيا تحالفَ أورميسدا معنا. وعلى مدى أربعينَ عاماً (هو الآن في الستين) لم يكن يراوده إلاّ حلمٌ واحدٌ، بشن حملة رومانية على بلاد فارس توصله إلى سُدَّة العرش. وقد قام كلٌ من قسطنطين، وقسطنتيوس وأنا على استغلاله كجندي وكمصدر للمعلومات. ولكن بين الثلاثة كنتُ أنا أول مَنْ حاولَ أنْ يُخرِجَ حلمه إلى حيِّز الواقع. في تلك الأثناء، هو لا يُقدَّر بثمن بالنسبة إليّ. فلديه كثيرٌ من الموالين السرّيين في بلاد ستيسيفون؛ وهو جندي كفء حاربَ مع قسطنطين في أوروبا؛ وطبعاً كان دائماً يصحب قسطنتيوس كلما عمل ذلك المحارب الشجاع على جمع الجيش الشرقي للسير إلى منطقة الفرات. وحين يصل الإمبراطور إلى حافة النهر، يضربُ مُخيّماً وينتظرُ ظهور سابور والجيش الفارسي. وحالما يبدو العدو في الأفق، ينسحبْ قسطنتيوس بوقارٍ جليل إلى إنطاكية أو طرسوس ويلجأ إلى المقر الشتوي. ولابد أنَّ تلك الأبّهة العسكرية كانت نكتة مُحزنة جداً. واستولى اليأس على أورميسدا، إلى أنْ أصبحتُ إمبراطوراً. هو الآن سعيد. وبينما أنا أدوِّن هذه الأسطر، يكادُ يكون ملك فارس العظيم.

في وقت فراغي - ولا وقتَ فراغٍ عندي! - أسهرُ حتى وقتٍ متأخِّر مع أصدقاء ونتحدث عن ألف شيء. كنتُ خاصةً شديدَ القُرب من ماكسيموس؛ في الواقع، كأنَّ أيام إفسوس الحميمة عادت من جديد. وكعهده دائماً، كان صِلة وصل بيني وبين الآلهة. وأذكر أمسيةً بعينها كان لها مغزى خاص؛ بل رؤيويّ.

كان عددُ منا قد اجتمعوا على مصطبة الحديقة في قصر دافني. كانت ليلة دافئة، وثمة مشهدٌ رائع لبحر مرمرة، يتلألأ على ضوء القمر البدر. والأشجار والشجيرات المُزهِرة تملأ الهواء بالعطر. وعلى البُعد تخفقُ أنوار المدينة على حافة البحر. كان الليل هادئاً، ما عدا ما يصدر عنا وصراخَ حارس عابر وهو يتحدى الغرباء.

بدا أورميسدا متلهّفاً للتحدُّث إليّ؛ فأشرتُ إليه كي يأتيَ معي إلى الطرف النائي من المصطبة. جلسَ على حافة بين ورودٍ في أول تفتُّحها.

" إنَّ سابور لا يريدُ الحرب، أيها الأوغسطوس ". إنَّ أورميسدا لا يزال يتكلّم بلكنةٍ فارسية ثقيلة على الرغم من إقامته بيننا عمراً طويلاً.

" هذا ما تُبلغني به السفارة السنغالية ". كنتُ مُلتبساً؛ أخذتُ أوقِّعُ بعقب قدمي على الحافة كمن يضرب وشم الحرب.

" أتعلم بماذا يلقّبكَ الفرس؟ "

تنهّدتُ. " أستطيع أنْ أتخيّل ". من المُذهل كم يستمتع أصدقاء المرء الحميمون بترديد الأشياء الفظيعة التي تُقال عنا. في الأزمان الغابرة كان الذين يجلبون الأخبار السيئة يُعدَمون : كانت إحدى مُتَع الطاغية الكلاسيكي!

" الصاعقة "

" ألأنني أمثِّلُ زيوس؟ "

" بل بسبب السرعة التي قطعْتَ بها أوروبا وفاجأتَ الجيش في سيرميوم "

سُررتُ بهذا. " إنه جيد كالانتصار في معركة وبثّ الخوف في قلوب أعدائك "

" إنهم يخشون " الصاعقة " "

" لكنَّ جيش قسطنتيوس يخاف سابور. وهكذا يتعادلَ الخوفان الآن "

وصل أورميسدا إلى صلب الموضوع. " سوف يفعلون كُلَّ ما من شأنه أنْ يرضيك. لقد سمعتُ من... "، وأومأ برقّة بوردة. كان يعلم أنني عرفتُ أنه يُقيمُ صِلات مع الحزب المُنشق في بلاد فارس. "... إنَّ سابور يرغبُ في الانسحاب من الحدود، أن يترك بلاد ما بين النهرين. سوف يُنفِّذ كل ما تريد "

نظرتُ إليه بجدّية. وبادلني النظر. مرتْ لحظة طويلة. ثم ابتسمتُ. " لقد وعدتُكَ بأني لن أُصغي إلى أي وفد "

" ولكن ليس هذا ما ألمحتُ إليه، أيها الأوغسطوس "

" لا وفد. لا معاهدة. فقط حربٌ حتى النهاية. هذا هو القَسَم المقدَّس "

" أعتقدُ هذا، يا مولاي. شكراً لك ". تكلَّم برقّة، بلكنته الإغريقية الغريبة.

" وإذا كانت الآلهة في صفّنا، فسوفَ أقومُ بتتويجك بنفسي في ستيسيفون، وسيكون سابور بمثابة... "

" مداسٍ للقدَمَين! " ضحكَ أورميسدا، مُشيراً إلى إحدى عادات ملوك الفرس الشنيعة، الذين يسلخون جلود الأسرى من الحُكّام ويحشونها لاستخدامها كوسائد. ثم انضمَّ بريتكستاتوس إلينا على الحافة. وكما توقَّعتُ، وجدتُ صحبته ثقيلة. لم يكن يتَّصِفُ باي خِفَّة ظل، كان على الدوام يتَّسِمُ بجدّيةٍ نبيلة. ولكن في المواضيع الدينية، لم يكن لي غِنى عنه.

" هل نُحرِزُ تقدُّماً؟ ". هكذا كنتُ عادةً أرحِّبُ به.

" آملُ هذا، أيها الأوغسطوس. أعتقدُ ذلك. في الأسبوع الفائت فقط هَدَتْ زوجتي مئة من سيدات البلد إلى أسرار هيكيت "

" رائع! ". كان كذلك فعلاً، لأنَّ النساء هنَّ عناصر فعّالة في الدين وعلى الرغم من أنهنَّ نادراً ما يمتلكن الحسّ الدينيَّ الصحيح، إلاّ أنهنَّ ممتازات في إتمام الأعمال واستجلاب المُهتديات. والجليليون الأوائل خصَّصوا كثيراً من الوقت في تملُّق النساء من العبيد ليدفعنهنَّ إلى كسب سيداتهنَّ. حتى في روما اليوم، ليس غريباً على شيوخ المجلس أن يدعموا بضراوة الآلهة القديمة في مجلس الشيوخ ومن ثم يعودوا إلى منازلهم ليجدوها ملآى بالنساء الجليليات، يرتّلنَ الأناشيد الجليليّة.

" حين أغادرُ إلى الجنوب، يا بريتكستاتوس، أريدُ منكَ أنْ تشغلَ منصِباً هاماً نيابةً عني "

" ما هو، أيها الأوغسطوس؟ ". على الرغم مما يتَّصِفُ به من نبالة، إلاّ أنني تبيَّنتُ ذلك الانتباه المفاجئ في الوجه الذي تعرَّفتُ فيه على النظرة الأوليّة لرجلٍ يأملُ في أنْ يرتقي منصبه.

" إذا كان يُناسبكَ، أنوي أنْ أجعلكَ بروقنصل اليونان ". إنه يناسبه جداً، وأخذَ يشكرني ويزيد في الشكر. ثم زوّدتُهُ بالإرشادات لكي يكون مفيداً قدر المستطاع لأصدقاء مثل بروهيريسيوس وابنة أخته ماكرينا.

بعد هذا، غادرتُ مصطبة الورود وهبطتُ مجموعةً من الدَرَج المنخفض، مُستنشقاً هواء الليل بشيءٍ من الابتهاج، واعياً الفرصة القليلة المُتاحةَ لي الآن لمجرَّد أن أثبتَ وجودي. فبالنسبةِ إلى شخصٍ اهتمامه الأساسي هو الفلسفة نجحتُ في أنْ أكون تقريباً كل شيء آخر : جندياً، مديراً، محامياً... كل ما ليس له علاقة بالتأمل!

كان ماكسيموس واقفاً عند أسفل الدَرَج في ظِل شجرة سرو باسقة. كان ينظر إلى القمر، ويحمل بيده عصا صغيرة بين حينٍ وآخر يرفعها نحو السماء، وينقلها جيئةً وذهاباً، والظل يعبُرُ وجهه، وقد امتقعَ لونه تحت الضوء الشاحب.

" ما هي النُذُر؟ ". بقيتُ خارج دائرة الشجرة غير راغبٍ في إزعاج ما يمكن أن يكون سحراً. ظلَّ ماكسيموس بضع دقائق لا يُدلي بجواب وهو يواصلُ درس العصا والقمر من زوايا مختلفة.

أخيراً قال " جيدة "، وهو يخرج من دائرة ظل الشجرة ، " النُذُر جيدة في أي وقت من أوقات هذا العام. وكل ما تحاول أنْ تفعله ستنجح في إنجازه "

قلتُ بتكاسُل " لقد قطعنا مسافةً طويلة "، وأنا أنظر إلى المدينة في الأسفل، وإلى البحر من بعدها. من المخيف التفكير أنَّ كلّ شيء هو مُلكُ المرء، على الأقلّ لفترة وجيزة من الحياة - لهذا السبب كان دائماً ينتابني إحساسٌ بأني يجب أن أسرع في إنجاز الأمور، بأنه ليس هناك أي متَّسع من الوقت للإنسان لإثبات جودته وشغفه للعالم الذي سيستمرُ من بعده لا مبالياً، كما كان من قبله. وفي كل يومٍ أعيشه أقولُ لنفسي: إنَّ العالمَ المرئيَّ ملكي، استغلّه، غيِّره، ولكن أسرِعْ، لأنَّ الليلَ يحلُّ بسرعةٍ كبيرة ولا شيء يكتملُ إنجازه أبداً، لا شيء.

" لقد جعلتَ من بريتكستاتوس بروقنصل اليونان "

مرةً أخرى كان ماكسيموس يعرفُ ما كنتُ - حتى قبل بضع دقائق - أعرفه وحدي. هل يقرأ أفكاري، كما يفعل الكلدانيون؟ أم أنه يسترشدُ بعبقريته الخاصة؟ مهما كانت طريقته، فإنه دائماً يستطيع أنْ يتوقَّع ليس فقط مزاجي ولكن تعييناتي الإدارية!

بريسكوس : كان جوليان غالباً ساذجاً عن عَمْدٍ. كان ماكسيموس واقفاً تحت المصطبة مباشرة حين صدر الإعلان. لم يكن بحاجة إلى استشارة " عبقريته الخاصة "،

بل فقط أذنيه. وفي الحقيقة كانت أذنا ماكسيموس أشبه بأذنيّ ثعلب : طويلتين، مُدببتين ومائلتين قليلاً نحو الأمام. كان مختلساً شائناً للسمع، مُثبِتاً أنَّ الطبيعة دائماً تتروّى في تركيب رجلٍ ما. ويمكننا أنْ نردّ، حتى بوصفنا فلاسفة، بالقول إنَّ إنساناً يولد بأذنَي ثعلب قد يُضطرّ إلى أنْ يُصبح مُسترَقاً للسمع.

جوليان أوغسطوس.

" هذا المساء أرى شيئاً مُثيراً للاهتمام ". أمسكَ ماكسيموس بي من ذراعي وقادني على طول المصطبة إلى مقعد يواجه البحر. كانت عِدَّة سفن صغيرة تتَّجه إلى المرفأ الجديد الذي أبنيه إلى الشمال مباشرةً. كان في استطاعتنا أنْ نسمع هتاف البحارة الطويل عبر المياه، والرد عليهم من المرفأ. " فليكُنْ رسواً آمناً "، هكذا ابتهَلتُ لبوزيدون على غير عادتي. وجلسنا.

" كل الدلائل منذ عِدَّة أسابيع تشير إلى إحراز انتصار رائع لصالحك - لصالحنا " وأشارَ إلى نجمي، الذي كان يسطع في تلك اللحظة من جهة الغرب.

أومأتُ إيجاباً. " رأيتُ أيضاً إشارات طيبة "

" بالأمس - بينما كنتُ أبتهلُ لسيبيل - تحدَّثَتْ الإلهةُ إليّ "

أثار هذا اهتمامي. غالباً ما يتكلَّم ماكسيموس مع آلهة من مراتب دنيا (وطبعاً مع شياطين من كل نوع) لكنه نادراً ما سمع صوت سيبيل، الأم الكبرى، والأرض نفسها "

فرِحَ ماكسيموس لسماع هذا، على الرغم من أنه حاولَ أنْ يُخفيه. كان لديه كل الأسباب ليفرح، ذلك أنَّ التكلُّم مع سيبيل هو إنجازٌ فذ. كلا، ليس إنجازاً فذاً، لأنَّه ليس من الممكن تفجير السماء؛ بالأحرى، هو إشارة جميلة على أنَّ مُحركي الكون الأوَل رأوا الآن أنه بات مستعداً ويستحق أنْ يتلقّى رسائل.

" إنني أبتهلُ في مقامها. هناك "، وأشارَ إلى المعبد المؤقَّتِ الذي أقمتُهُ بالقُرب من قصر دافني. " كانَ المُصلّى مُظلماً، كما يُوصى. وعَبَق البخور ثقيلاً. وصورتها مُعتِمة الإضاءة من مصباحٍ وحيد. وصلّيتُ لها كما أفعلُ دائماً... "

" الأيات بأكملها؟ للقوة السابعة؟ "

أومأ إيجاباً. " كل شيء، كما يوصى. ولكن، بدل الصمت المعتاد والارتياح، شعرتُ بالرعب، وكأنَّني شردتُ إلى حافة الإمارة. استولَتْ عليَّ برودةٌ لم أشعر بمثلها في حياتي. حسبتُ إنني أوشك أنْ أُصابَ بالإغماء، وأموت. هل أهنتُها؟ هل حلَّ عليَّ القضاء؟ لكنها بعد ذلك كلَّمتني. فجأةً وَمَضَ الضوء الصادر عن المصباح وتوهَّجَ وكشفَ عن صورتها، لكنها لم تعُد برونزية، كانت هي نفسُها! "

غمغمتُ بابتهالٍ لنفسي، وقد سَرَتْ البرودة فيَّ من روايته.

" " ماكسيموس "، هتفَتْ باسمي وكان صوتها أشبه برنينِ جرسٍ فضّي. فحيَّيتُها بألقابها. ثم قالت " إنَّ مَنْ تُحبه أحبّه أنا " "

حين كان ماكسيموس يتكلَّم عجزتُ عن الإتيان بحركة أو التنفُّس. وكأني أنا نفسي كنتُ أصغي إلى صوت تلك الإلاهة.

" " ومَنْ تُحبّه الآلهة كحُبّها لابنٍ حقيقيٍ لها سيكونُ سيداً على الأرض ومن عليها " "

همستُ " فارس...؟ أكانت تعني بلاد فارس؟ "

لكنَّ ماكسيموس تابعَ يقول بصوت الإلاهة " "... على الأرض ومَنْ عليها. لأننا أرسلنا إليه روحاً ثانية لتساعده في مسيراته الطويلة " "

" أهو هرمز؟ "

" " الذي هو معنا الآن سينضمُ إليه ويذهب معه إلى نهاية العالم ويُنهي العمل الذي بدأته تلك الروح، لتحقيق مجدنا " ". سكتَ ماكسيموس، وكأنه وصل إلى نهاية صفحة.

سادت فترة صمتٍ طويلة. انتظرتُ، ثم التفَتَ ماكسيموس إليَّ، وعيناه تومضان، ولحيته أشبه بمياهٍ تنهمرُ في ضوء القمر. ونطق باسم " الإسكندر! سوفَ تُنهي عَمَلَه "

" في بلاد فارس؟ "

" وفي الهند، وفي كل ما يقعُ في الشرق الأقصى! ". أمسكَ ماكسيموس بطرف ردائي وقرَّبه من شفتيه، الإيماءة التي يقومُ بها المتضرِّع ليقدِّمَ ثناءه. " أنتَ هو الإسكندر "

" إذا كان هذا صحيحاً... "

" إذا! لقد سمعتَ كلماتها "

" إذن فسوف نُحطِّم سابور "

" بعد ذلك لن يقفَ أيُ شيءٍ في طريقك من بلاد فارس وحتى المحيط الشرقي. إنها لا تطلبُ منكَ إلاّ أنْ تستعيدَ معبدَها في بيسينوس[١٠٧] "

" بكل سرور! "

قام ماكسيموس بأداءِ إيماءةٍ سريّةٍ ومقدّسة لنجمي. وفعلتُ مثله. ثم قاطَعَنا بريسكوس، الذي قال بصوته العالي والصافي، " تُحدِّقُ إلى النجوم من جديد؟ "

بريسكوس : لو كنتُ أعلم بما ينويان، لقلتُ أكثر بكثير مما فعلتُ بـ " صوتي العالي والصافي ". ومن بعض الأشياء التي تسربّتْ من بين شَفَتي جوليان أثناء الحملة الفارسية فهمتُ أنه يؤمنُ بأنَّ الآلهة تدعمه بصورةٍ ما فذّة، ولكن لم أكن أعلم أنه اعتقدَ أنه هو الإسكندر فعلاً، أو على الأقل أنَّ شبحَ الإسكندر كامنٌ داخله، متموضعٌ في مكانٍ ما بين القلب والكبد. إنَّ هذا النوع الخاص من الجنون يُفسِّرُ كثيراً حول المراحل النهائية من تلك الحملة حين بدأ جوليان -الإسكندر يتصرَّف بطريقة غريبة جداً حقاً. شخصياً، لو كنتُ قائدَ جيش، لما رغبتُ في أنْ تسكنني روحُ قائدٍ آخر، خاصةً قائد أصيبَ بالجنون! لكنَّ ماكسيموس كان قادراً على فعل أي شيء؛ ولم يراودُ جوليان في أمره أيُ شك.

هذا كل ما يمكنُ أنْ يُقال فيما يخصُّ القسطنطينية في المذكّرات. كان جوليان ينوي أنْ يُعطي سرداً لمراسيمه العليا كلها وتعييناته، ولكن لم تُتَح له الفرصة لذلك أبداً. ولا شك أنَّ في إمكانكَ الحصول على تلك المادة من مكتب السجلات.

في شهر أيار، غادرَ جوليان القسطنطينية لكي يتجوَّل في غالاتيا وكابادوسيا، في طريقه إلى مقرّه الشتوي في إنطاكية. وعلى الرغم من أنه لم يقُل أي شيءٍ عَلَناً، إلاّ أنَّ الجميع علِموا أنَّ الجيش الشرقي سوف يتجمَّع في إنطاكية، استعداداً لغزو بلاد فارس.

بقيتُ في القسطنطينية لأنني كنتُ في حاجة ماسّة إلى النقود في ذلك الوقت. وخلافاً لوضع ماكسيموس وزوجته اللذيْن كانا يجنيان ثروةً من راعيهما الإمبراطور، لم أطلب أيَّ شيء ولم أحصل على أيّ شيء. جوليان لم يكن يُفكّر في المال إلاّ إذا ذكّرته

به. عندئذٍ يكونُ سخياً. ولحسن الحظ، كان في استطاعتي أن أعطي محاضرات في الجامعة. وقد كان نيكوكلز ذا عونٍ كبير بحصوله لي على تلاميذَ. أنتَ تعرفه، أليس كذلك؟ طبعاً تعرفه. لقد أجبركَ على مغادرة المدينة في الأربعينيات. كان حادثاً مؤسفاً. لكنَّ نيكوكلز كان صديقاً صدوقاً لي، وسرعان ما تمكَّنتُ من إرسال مبلغٍ كبير من المال إلى هيبيا. كذلك، سمحَ لي جوليان بالإقامةِ في القصر المقدَّس أثناء ممارستي التعليم، لذا كانت مصروفاتي الشخصية قليلة.

ثمة تفصيلٌ واحدٌ مثيرٌ للاهتمام: قُبيل مغادرة جوليان إلى إنطاكية، عادَ أوريباسيوس من اليونان. كان صامتاً بشكلٍ ملحوظ ولم يعُد يدور أي حديث عن استعادة معبد أبولو. ولم يُخبرني أوريباسيوس عمّا حدثَ في دلفي، أو ما يُسمّى بـ"سُرَّة العالم"، إلا بعد ذلك بسنين عديدة.

لقد وجدَ أوريباسيوس وضعَ دلفي الحديثة مُحزناً جداً. فالأعمال الفنية التي كانت ذات يوم تزيِّنُ المقامات التي لا حصرَ لها اختفَتْ كلها. قسطنطين وحده سرقَ ٢٧٠٠ تمثالاً. وليس هناك من مشهدٍ يفوق تلك المساحات من قواعد التماثيل الفارغة في بؤسها. والبلدة مهجورة إلاّ من حفنة من الكلبيين الرثّي الثياب، الذين تبرَّعوا بمرافقة أوريباسيوس في التجول في المكان. أنا لم أزُر دلفي أبداً، ولكن لطالما سمعنا أنَّ الذين كانوا يسكنون هناك كانوا أشدَّ الناس جشعاً على الأرض، بل أسوأَ من تجّار إليوسيس. لا أستطيع أنْ أقول إنني أشعر الآن بأسى خاص لأجلهم. لقد أمضوا ألفَ عامٍ وهم يسرقون الزوار. ومن غير المعقول التفكير في أنَّ هذا النظام كان سيدوم إلى الأبد.

أعتقدُ أنَّ أوريباسيوس كان يكره الأديان كلها، مثلي تماماً. ولكن لمّا كنتُ أفضِّلُ عقل الإنسان على أي نوعٍ من السحر، كان أوريباسيوس يُفضِّلُ الجسد. لم يكن يُثيرُ اهتمامه إلاّ ما يُرى وما يُلمَس. كان صديقاً غير عادي لأمير شَغَفه الوحيد كان بالطب، الذي طالما اعتبرتُه فرعاً من فروع السحر، على الرغم من أنَّ انخراطه فيه كان طبيعياً بشكل رائع. هل لاحظتَ أنه كلما وصفَ طبيبٌ علاجاً ما، وسار عليه المرء وشُفيَ، ينتابه دائماً قليلٌ من الدهشة؟ إنَّ كل ما يفعله الطبيب هو نتيجة تخمين. لهذا عليه أنْ يكون بارعاً في التمثيل كأي سفسطائي؛ وعلاجاته تعتمد بأكملها على استعراضٍ لقوة الإقناع.

في معبد أبولو، هتفَ أوريباسيوس، " أينَ الكاهن؟ ". لا جواب. ولجَ إلى الداخل. كان جزءٌ من السقف قد انهار : والغبار يعمُّ المكان. خلفَ قاعدة التمثال مباشرةً حيث كان يقومُ تمثال الإله، وجدَ كاهناً نائماً وإلى جواره زقٌّ نصف ملآن من الخمر. استغرقَ من أوريباسيوس بضع دقائق حتى تمكَّنَ من إيقاظه. وحين سمعَ أنَّ أوريباسيوس هو مبعوث الإمبراطور، أصابه ارتباكٌ شديد. " لقد كان موسماً سيئاً للمعبد، سيئاً جداً. لقد تلاشتْ عائداتنا. خسرنا حتى حفنة الزوار الذين حصلنا عليهم في العام الفائت. ولكن يجب أنْ تُبلِغَ الأوغسطوس أننا ما نزال نؤدي مهامنا المقدَّسة، على الرغم من انعدام المال اللازم لإصلاح السقف، أو لدفع ثمن الأضاحي ". نهضَ واقفاً على قدمَيه، وهو يترنَّحُ من تأثير الخمر.

سألَ أوريباسيوس عن الكاهنة.

" أوه، إننا لا نزالُ نقوم بعملنا. لدينا كاهنة ممتازة؛ عجوزٌ لكنها تحصل على نتائج جيدة. أبولو يكلّمها طوال الوقت، كما تقول. " ونحن مسرورون من عملها. وأنا واثقٌ من أنكَ ستجدها مُرضيةً. طبعاً سوف ترغبُ في التحدّث إليها. سأذهب لأرى متى يمكنها أنْ تستقبلك. لقد مرَّتْ بأيامٍ سيئة، في الواقع... "، وقام بإيماءة مُبهمة. ثم اختفى أسفل الدَرَج الشديد الانحدار.

أخذَ أوريباسيوس يتفحَّص المعبد. كانت التماثيل الشهيرة كلها قد اختفَت، بما فيها تمثال هومر الذي كان قائماً عند الباب. وبالمصادفة، عثرَ جوليان على هذا التمثال بالذات في مخزنٍ في القصر المقدَّس، وأمرَ بوضعه في غرفة مكتبه. لقد رأيته بنفسي: عمل جميل، الوجه مترعٌ بالحزن، هوميريٌّ في الواقع.

عادَ الكاهن ليقول إنَّ الكاهنة سوفَ تستشير الوحي في اليوم التالي. وحتى ذلك الحين، يجب إقامة المراسم الاسترضائية، خاصةً الأضحية. سالَ لعاب الكاهن لدى ذكر الكلمة.

في اليوم التالي، ضحَّى الكاهن بمعزاة على المذبح خارج المعبد. وحالما مات الحيوان، رشَّه الكاهن بماء مقدَّس فارتعشتْ قوائمه، ومن المفترَض أنه فألٌ حسن. بعد ذلك، ولجا المعبد وهبطا الدَرَج المؤدّي إلى السرداب. ورغماً عنه، وجد أوريباسيوس الهراء كله مُثيراً جداً للاهتمام.

جلسا فيما يشبه غرفة انتظار محفورة في الصخر. وقبالتهما كان باب يؤدي إلى داخل صومعة الإله. هنا، ومن صدعٍ في الأرض، تصاعدَ بخارٌ؛ هنا، أيضاً، سُرَّة العالم - the omphalos - وهي حجرٌ مُدوَّر يُقال إنَّ زيوس أطاحَ به إلى الأرض.

دخلَتِ الكاهنة من المعـــبـــد. لم تنظر إلى الكاهن ولا إلى الزائر. ووفـــقـــاً لأوريباسيوس، كانت عجوزاً منكمشة ودرداء إلى أقصى مدى.

همسَ الكاهنُ " إنها الآن طاهرة. لقد اغتسلَتْ لتوّها في النبع الكاستالياني ". رَمَتْ الكاهنة عدداً من أوراق الغار وجريش الشعير في مجمرة؛ وامتلأ المكان بدخانٍ لاذع. قال الكاهن " والآن هي تُنقّي الهواء ". ثم تبعَ أوريباسيوس الكاهنة، وعيناه تسيلُ دموعاً من أثر الدخان، إلى الصومعة الداخلية حيث، على مدى ألف عام، كلَّمَ أبولو الإنسان. وبجانب حَجَرِ السُرَّة مباشرةً كان هناك مرجلٌ ثلاثي القوائم، جلسَت الكاهنة عليه، متصالبة الساقين، ووجهها محنيٌ نحو البخار وهو يتصاعدُ مندفعاً من بطن الأرض من تحتها. وأخذتْ تُمتمتم ببضع تعاويذ.

همسَ الكاهن " حسنٌ، إنها مُستعدّة لسماعك "

قال أوريباسيوس بصوتٍ عالٍ : " لقد جئتُ مبعوثاً من فلافيوس كلوديوس جوليانوس، أوغسطوس و بونتيفكس ماكسيموس. إنه يقدِّمُ ثناءه للإله أبولو، ولكل الآلهة الحقيقية "

كانت الكاهنة أثناء ذلك ترتّلُ بنعومة لنفسها، وانتباهها مركّزٌ على البخار المنبعث من أسفل المرجل.

" إنَّ الأوغسطوس يتمنّى نيل الإرشاد من الإله أبولو. سوفَ يُنفِّذُ كل ما يُؤمَرُ به"

" ما هو السؤال؟ ". كان الصوتُ العجوزُ رفيعاً وغير واضح.

" هل سيستعيدُ الإمبراطور معبد دلفي المقدَّس؟ "

للحظةٍ طويلة من الوقت كان الصوت الوحيد المسموع في المُصلّى هو الضجيجُ الهاسُّ للبخار المُندفع من بين الصخور. لعلَّ ذلك الصوت هو مصدر الأسطورة القائلة إنَّ إلاهة الأرض غي Ge كان لديها ابن على هيئة أفعى اسمها بايثون (أفعى الأصلة). ظلّتُ الأفعى تهيمن على الوحي إلى أنْ قَتَلَها أبولو ورماها إلى بطن الصدع. ويُفتَرَضُ أنَّ البخار متصاعدٌ من الجثة. والصوت الهاسّ هو صوت الأفعى المُحتضرة.

أخيراً تحرَّكَتْ الكاهنة. استنشقَتْ عدَّة مرات من البخار. شهقَتْ؛ وسعلَتْ؛ أدارتْ عينيها في محجريهما؛ تشبَّثَتْ بيدين أشبه بمخلبَين بأعلى المرجل، وأخذتْ تهزّه جيئةً وذهاباً. ثم سَكَنَتْ حركاتها. حين تكلَّمتْ أخيراً، كان صوتها حازماً وواضحاً على الرغم من غياب الأسنان.

" قُلْ للملك : لقد انهارَ المسكنُ المجيدُ على الأرض، ومياهُ الينابيع التي تكلَّمَتْ سَكَنَتْ. لم يبقَ شيءٌ للإله، لا سقفَ، لا مأوى، ولم يعُد يحملُ في يده أزهار غار النبي "

كان ذلك هو كل شيء. أغمَضَتْ الكاهنةُ عينيها. بدَتْ كالنائمة. وغادرَ أوريباسيوس والكاهن. كان الكاهنُ مذهولاً. قال " لا أصدقُ ما سمعتُ. طبعاً أبولو يريدُ أنْ يُعادَ بناء معبده . لا أدري ما الذي ألمَّ بها. طبعاً تلك الرسائل دائماً مفتوحة للتأويل. أحياناً تكون منحرفة عن عمد، وغامضة... ". ولكن لا فائدة.

سألتُ أوريباسيوس ماذا قال جوليان حين سمع الوحي. فقال أوريباسيوس " لا شيء. ما عدا أنه طلبَ مني ألاَّ أحكي ما جرى لأي مخلوق "

شخصياً، أنا متأكِّدٌ من أنَّ الكاهنة مأجورة عند المسيحيين. إنهم يعرفون الأهمية التي يضعها جوليان على النبوءات، خاصة هذه. لماذا أعتقدُ أنَّ لهم يداً في النبوءة؟ إذ لو كانت الكاهنة غير مُزيَّفة لفَعَلَتْ كل ما يَسَعُها لترى ما ينبغي فعله لإعادة بناء معبد دلفى. ما كانت لتعترف مُستخدمةً كل تلك الكلمات بأنَّ اللعبةَ قد انتهَتْ. وكلامها ضد مصالح مؤسستها معناه أنها تلقَّتْ عرضاً أفضل. طبعاً أنا لا أصدِّقُ - كما فعل جوليان - أنَّ أبولو يُكلِّمنا عبر سلسلةٍ من النسوة مُصابات بنوبات بسبب استنشاق البخار. إنَّ الأمرَ كلّه كان دائماً زائفاً. ولكنْ هذه المرة أنا متأكِّدٌ من أنه زائف بصورة مُضاعفة. وكان أوريباسيوس أمْيَل إلى الاتفاق معي حين عرضتُ عليه نظريَّتي.

كما قلتُ، غادرَ جوليان القسطنطينية بمعنويات عالية ولم أره بعد ذلك على مدى بضعة أشهر. وحين فعلتُ، لاحظتُ تغيُّراً كبيراً طرأ على مزاجه. كانت الحيوية والنشاط اللذان تمدُّه بهما القسطنطينية قد اختفيا. أصبحَ منزعجاً وسريع الغضب، وطبعاً كان يكره إنطاكية التي يصفِها.

-١٨-

جوليان أوغسطوس.

في العاشر من شهر أيار غادرتُ القسطنطينية إلى إنطاكية. كانت النُذُر كلها مُبشِّرة. فالطقسُ جميل، مع أنَّه كان جافاً أكثر مما ينبغي بالنسبة إلى ذلك الوقت من العام. وبدلَ أنْ أتوجَّه مباشرةً جنوباً إلى سوريا، انحدرتُ نحو الشرق، ماراً بفريجيا وغالاتيا. تظاهرتُ بأني أرغبُ في أنْ أرى بعيني تلك المناطق على الطبيعة لكي تكون لديَّ معرفة مباشرة بمشاكلها عندما يحين الوقت لإجراء إصلاحات على جبي الضرائب التي ألحَّ كونت الهِبات المقدَّسة، فيليكس، عليَّ كي أجريها. لكنَّ دوافعي الحقيقية كانت أنْ أقومَ بزيارة معبد سيبيل في بيسينوس وأقدِّم قرباناً مهيباً لراعيتي.

كان برفقتي الفيلقان البيتولانتي والمدرسي. أما باقي الجيش فكان من المفترض أن يجتمع في إنطاكية في الخريف. وكنتُ قد قرَّرتُ لعددٍ من الأسباب أنْ أُرجئ غزو بلاد فارس إلى الربيع التالي. وذلك كي يتوفّر لديّ نصفُ عامٍ في إنطاكية أقوم خلاله بتدريب القوات وأضع موضع التنفيذ إصلاحات دينية ومَدَنيّة متنوعة. ولم يصحبني من بين أصدقائي المُقرّبين في تلك الرحلة إلاّ ماكسيموس. بقيَ بريسكوس في القسطنطينية، بينما فضَّلَ أوريباسيوس أنْ يشق طريقه الخاص في إنطاكية، ويتوقَّفَ في قرى نائية بحثاً عن أدوية - وهو الذي يتَّهمني بأني أحبُ السحر!

كان من الممتع التحرُّك من جديد، وعلى الرغم من محاولتي التقليل من عدد حاشيتي، إلا أنه بقيَ كبيراً ومُرهِقاً. فقد لازمني نصف أعضاء المجمع المقدَّس، بالإضافة إلى مُعظم الهيئة الإدارية للقصر المقدَّس. وقد أثارَ الكونت فيليكس فيَّ ضجراً خاصاً - وإعجابي أيضاً - وهو المعروف بأنه ألمع المشعوذين في الإمبراطورية، وهي سُمعةٌ لم يسمح لي أبداً أنْ أنساها لأنَّ غروره التافه لا حدود له. وكلما حاولتُ

بجزع أنْ أتذكَّرَ تجاربي الخاصة مع الموارد المالية في بلاد الغال، يُشيرُ بإصبعٍ طويل إليّ ويقوم بنبرةِ صوتِ مدير مدرسة بتحديد مدى جهلي، وحماقة غرائزي، وإلى حاجتي إلى نصيحته التي لا غِنى عنها : إياكَ أنْ تنسى الضرائب المتأخرة. وأصبحتُ أخافُ قامته الطويلة الشبيهة بطائر الكركي كلما اقتربَ مني بعد انفراط عقد المَجْمَع المقدس، والوجه الطويل الصارم يتلبَّسُ قناعاً مُتكلِّفاً من الصبر المُزيَّف. لكنَّ فيليكس كان ممتازاً في الإحاطة بالتفاصيل وقد تعلَّمتُ منه، شئتُ أم أبيتُ، كثيراً.

عبرنا البوسفور في يومٍ ربيعيّ صافٍ. كان اللون الأصفر يُلوِّن الريف من الأزهار البرية وكانت الريح الدافئة تفوحُ بعَبَق العسل. مررنا بخلقيدونية لكننا لم نلج المدينة. وفي ليبيسّا، توقَّفتُ لألقي نظرةً على ضريح هانيبعل. قدَّمتُ له واجب الاحترام كما فعل أسلافي. كنتُ مُعجَباً به خاصةً كجندي، لأنَّ حملاته في إيطاليا كانت ربما الأعظم في التاريخ كله، ما عدا حملات الإسكندر. لن يعرفَ أحدٌ أبداً لماذا فشلَ هانيبعل في الاستيلاء على روما - وهذا برهانٌ لي على أنَّ الآلهة في تلك المناسبة تدخَّلَتْ لإنقاذ روما من أشد أعدائها دهاءً. الضريح في حالة يُرثى لها : إنه مجرَّد بلاطة من الرخام العادي تحمل تاريخ وفاة المنفيّ.

بعد ذلك تقدَّمنا إلى نيكوميديا. كانت تلك مناسبةً حزينة، لأنَّ نيكوميديا أضحتْ الآن أطلالاً. في الرابع والعشرين من آب عام ٣٥٨ دمَّرَ زلزالٌ نصفَ المدينة. كانت أسوأ كارثةٍ طبيعية في زماننا.

وصلنا إلى ضواحي نيكوميديا في وقتٍ متأخِّر من بعد الظهر. هنا قابلتُ أعضاء مجلس شيوخ المدينة، وكلهم في ملابس الحِداد الحالكة السواد. حين مررنا خلال الشوارع الملأى بكِسارة الحجارة، كدتُ أبكي؛ لقد اندثر كثيرٌ من المشاهد المألوفة أو تغيَّرَتْ معالمها فلم يعُد ممكناً التعرُّف إليها. وعلى طول الشارع المؤدي إلى القصر وقفَ الناس، في حالة من التركيز والانتباه. وبين حينٍ وآخر يتقدَّمُ أحدهم ليُقبِّلَ يدي أو يلمسَ الرداء الأرجواني. تعرَّفتُ على بعضهم كزملاء لي من أيام الدراسة في الجامعة، وآخرين كأناسٍ كنتُ قد رأيتهم في الساحة العامة. كان يوماً بائساً.

منحتُ مدينة نيكوميديا مبلغاً كبيراً من المال من أجل إعادة البناء. وقد رأى فيليكس أنني أقومُ بسابقةٍ سيئة، لكنني بيَّنتُ له أنَّها ليستْ كغيرها من المُدُن لكنها

عاصمةُ عالَمٍ سابق، أصبحَتْ تستحق البقاء في الذاكرة لأنه في الرابع والعشرين من شهر شباط من عام ٣٠٣، أصدر ديوكليتيان مرسومه العالي ضد الجليليين، يأمرُ فيه بتدمير بيوت جثثهم ويحل جمعياتهم. ولسوء الحظ، استقالَ ديوكليتيان بعد ذلك بعامَين ولم يكتمل عمله. ولو أنه أكتملَ... لكنَّ هذا مجرَّد تمنّ. إنَّ المُهمّة نفسها مُلقاة على كاهلي، أصبحتْ الآن دون شك صعبة الإنجاز، لأنَّه استغرقَ من العدو نصف قرن لكي يُؤسّس نفسه ليس فقط بين الجهلة بل في القصر المقدَّس نفسه.

لم أصبر حتى مغادرة نيكوميديا. فحالما أصبح ممكناً بشكلٍ مُهذَّب، ودَّعتُ أعضاء مجلس الشيوخ. ويجب أن أذكُر هنا أنني أينما حللتُ كنتُ أقوم بأعمال ترميم للمعابد، ولم يكن ذلك بالأمر السهل. فأغلبها إما أطلال أو يحتلّها جليليون. ومما زاد الطين بلّة، أنَّ الكهانة في أماكن كثيرة اندثرتْ تماماً. وأصبحتْ مقاطعات مثل كابادوسيا الآن مُلحدة كلها.

ومع ذلك لم أُمارس الضغط على أحد. بدل ذلك، ناقشتُ، وأقنعتُ. وأحياناً، أعترفُ، كنتُ أرشو الناس لكي يحترموا آلهتهم الدائمة كما ينبغي الاحترام. وتلقَّيتُ النقد بسبب هذا، خاصة من الكونت فيليكس، الذي لم يكن لديه أيُ اهتمامٍ في الأمور الدينية ويرى أنَّ من الحماقة إنفاق أي شيء على المعابد المحلّية، ناهيك عن الناس أنفسهم. لكنني شعرتُ أنها أعمال تستحق القيام بها. فمهما كان ما يُكرِه إنساناً على الصلاة لإلهٍ، فإنَّ مجرَّد أدائه الشعائر بحدّ ذاته هو عملُ عبادة وبداية، على الرغم من أنَّ قلبه زائف. إنني لا أخدعُ نفسي بالقول إنني هديتُ كثيرين. ومع أني تحدَّثتُ مطوَّلاً مع جماعاتٍ عديدة في غالاتيا، وكابادوسيا، وسيليسيا، لم أُقنِع إلاّ القِلّة. إنني أعي هذا تماماً. ومع ذلك على المرء أنْ يبدأ من مكانٍ ما، حتى وإنْ كان هذا يعني التحدُّث إلى الحجارة. إنني الآن أدركُ أنَّ عملية استعادة المعابد ستكونُ بطيئةً، لكنّها ستكونُ ثابتة الخُطى. أثناء ذلك، الجليليون في حالة انقسامٍ لا أمل يُرجى منها، وفي انقسامهم أملٌ لنا.

في بيسّينوس توجَّهتُ مباشرةً إلى معبد سيبيل، عند أسفل أكروبوليس البلدة. المعبد قديمٌ جداً ومُثيرٌ جداً للاهتمام، ولكنه في حالةٍ يُرثى لها. إنه مكان للعبادة منذ أنْ سقطَ تمثال الإلاهة من السماء. وفي ذلك الوقت أنجبَتْ ابنها، الملك الأسطوري

ميداس، الذي بنى أول حَرَمٍ، على شرف أمه. والأسطورة التي تقول إنَّ كل ما كان ميداس يلمسه يتحوَّل إلى ذهب، على الرغم من أنها مدهشة رمزياً - وتحذيريّة حتماً! - لعلّها تقوم على أساس أنَّ المنطقة الريفية المُحيطة ببيسّينوس غنيّة بمعدن الحديد. وميداس كان أحد أول مَنْ صنعوا الأسلحة من الحديد وباعوها مما جعله ذا ثراءٍ فاحش. لقد كان حقاً كل ما يلمسه يتحوَّل إلى معدن، لكنَّ المعدن كان حديداً. وعلى جانب الأكروبوليس، بجوار قبر ميداس، رأيتُ بأم عيني أول مسبكٍ للمعادن في العالم، أعطته الأم لابنها الملك.

قدَّمتُ أضحية عظيمة لسيبيل، لكنَّ أهل البلدة رفضوا أنْ يُشاركوا في المراسم على الرغم من أني عرضتُ عليهم هِبةً سخيّة أمام رعب الكونت فيليكس. واعتمدتُ على ماكسيموس أكثر من أي وقتٍ آخر، الذي هو على اتّصالٍ دائم بالإلهة. وهو الذي عثرَ لي على آرساسيوس، الهلّيني الذي عيّنته كاهناً أكبر في غالاتيا. وآرساسيوس رجلٌ عجوز وثرثار، لكنه يُنفّذُ ما يُؤمَرُ به. وفي أقلّ من أسبوع جنَّدَ ما يُقاربُ عشرينَ كاهناً في خدمة سيبيل. وفي مناسباتٍ عديدة ألقيتُ عليهم محاضراتٍ مُطوَّلة حول ضرورة إثبات ذواتهم كفاضلين في كل معاملاتهم كما يدَّعي الجليليون أنهم كذلك في معاملاتهم. وقد حرَّمتُ عليهم خاصةً ارتياد المسرح، ودخول الحانات، أو الانخراط في معاملات تجارية مشبوهة. وأمرتُهم أيضاً بإقامة بيوت لرعاية الفقراء وأن يكونوا كرماء بشكلٍ خاص مع الجليليين. ثم خصَّصتُ لأسقفيّة غالاتيا حصّةً سنويةً مقدارها ٣٠,٠٠٠ كيس من القمح و ٦٠,٠٠٠ مكيال من الخمر، يُعطى خُمسها للفقراء الذين يخدمون الكهّان، والباقي يُعطى للغرباء والمتسولّين، بما أنه " من زيوس يأتي كل الغرباء والمتسولين، والهِبة، على الرغم من قلّتها، فهي غالية " . المُقتطَف لم يُؤخذ من الناصري، ولكن من صاحبنا هومر!

ليلتي الأخيرة في بيسينوس، أمضيتُها ساهراً حتى وقتٍ متأخِّر مع ماكسيموس ، نناقشُ طبيعة الأم العظمى الإلاهة. كان فصيحاً أكثر من المعتاد وأنا استلهمتُ منه أكثر من المعتاد، ومن روحها طبعاً. وسيبيل هي أول الآلهة، أُمُّ الجميع؛ وعلى الرغم من أني لا أحبِّذ انخراط الخصيان في سلك السياسة، إلاّ أني لا أكنُّ غير التبجيل لأولئك الذين هم من كهنتها؛ الذين، تقليداً لآتيس، يُخصُون أنفسهم لكي يخدموا

الإلاهة بشكل كامل. وبعد أنْ غادرني ماكسيموس، أصبحتُ عصبياً جداً حتى إني بدأتُ أُملي ترنيمة لأم الآلهة. أكملتُها قبل طلوع الصباح. وماكسيموس يعتقدُ أنها بسهولة أفضل أعمالي في ذلك المجال.

انتقلنا بعد ذلك إلى أنسيرا. هنا كنتُ مُحاصَراً بألفٍ من الأعداء . كان الأمرُ أشبه بزيارة مصر. وبذلتُ أقصى جهدي لإقامة العدل، لكنّي كنتُ أصبحُ سريعَ الغضب. وكانت تقاريرُ عن انشقاقاتٍ دينية تردُ من كل الجهات. وكان بعضٌ من أفراد شعبنا يُدمِّرون، بدافع الغيرة المفرطة، ممتلكات الجليليين، بينما بذلَ الجليليون كل ما يسعهم لمنعنا من إعادة فتح المعابد. وسرعان ما علِمتُ أنَّ عليَّ أن أتَّخِذَ موقفاً وأنْ أعمل على إقناع الجليليين، بلفتةٍ خشنة، بوجوب طاعتي. لكنني في ذلك الوقت اكتفيتُ بالتفكير وبالجِدال. وعدتُ أهل بيسينوس بموارد مالية لإنجاز الأشغال العامة، هذا إذا دعمَ أهالي البلدة مشروع معبد سيبيل. ورفضتُ أنْ أقومَ بزيارة نصيبين إلاّ إذا أصبحوا أقلّ عِداءً للهلّينية. وعزلتُ عديداً من الأساقفة وأنذرتُ باقين بألاّ يتدخّلوا . ولا أدري ماذا كنتُ سأفعل من دون ماكسيموس. كان دائماً إلى جانبي ؛ بطاقته التي لا تهِن؛ بمعينه الذي لا ينضب من السلوان، وكنتُ بحاجة إلى مَنْ يواسيني.

في أنسيرا فقدتُ صبري. كنتُ قد أمضيتُ ثلاثة أيام في دار القضاء، أصغي إلى أناسٍ يكذبُ كلٌ منهم في حق الآخر. إنَّ الامتدادات الخلاّقة التي يمكنُ للخبث الإنساني أنْ يصلَ إليها تبعثُ الرعبَ في النفس. كان هناك رجلٌ يأتيني في كل يوم، في نيَّته أنْ يُحطِّمَ منافسه في العمل، جالباً معه تُهَماً جديدةً ضد خصمه. وقد تمَّ بسرعة رفضُ كلٍ منها. وأخيراً، أعلنَ المُتَّهِم بصوتٍ مدوٍ، " لقد ارتكبَ الخيانة العُظمى، أيها الأوغسطوس. إنه يطمحُ إلى أنْ يحلَّ محلَّك "

هذه العبارة جذَبَت انتباهي كلّه. " ما هو دليلك؟ "

" قبل أسبوعَين طلبَ تفصيل رداءين من الحرير، باللون الأرجواني! " . شهَقَ الجميع من فرط الرعب جرّاء الطعن في الذات الملكيّة. وطفحَ كيلي. خلعتُ حذائي الأحمر وأطحتُ به بكل عزمي في رأس الأحمق. " إذنْ اعطه هذا الحذاء! إنه يتماشى مع اللون الأرجواني ". ارتمى الوغد المرعوب مُنبطحاً أمامي. " ثم ذكّره - وذكِّرْ نفسك - أنَّ الأمرَ يتطلّبُ أكثر من مجرَّد ملابس لكي يصبحَ إمبراطوراً! ". لم أكنْ بالضبط

مسروراً من نفسي لأنني استسلمتُ لنوْبة الغضب تلك، لكنني كنتُ خاضعاً لتوتُّرٍ عظيم.

من أنسيرا تحركْتُ غرباً وجنوباً. وعند ما يُسمّونه البوابات، وهو ممرٌ جبَليّ يصلُ كابادوسيا وسيليسيا، قابلتُ سيلسوس، حاكم سيليسيا. كنتُ قد عرفته معرفةً سطحية في أثينا، كزميلٍ في الدراسة. وكان أيضاً تلميذاً لليبانيوس. وأخشى أنني كنتُ مغموراً بالسرور لرؤيتي وجهاً هلّينياً ودوداً قبّلتُهُ أمام مرأى فيلَق البيتولانتيين. ثم جعلتُهُ يجلسُ إلى جانبي في العربة حتى طرسوس. وفي بلدٍ غريب، وأُناسٌ عدائيون يُحيطون بالمرء، يتعلّقُ فقط بمعارِف وكأنهم إخوة له. وفي ذلك اليوم سَرّني أنْ أجعل سيلسوس حاكماً إمبراطورياً في الشرق، ببساطة لأبدي سروري للتحدُّث مع شخصٍ يؤمِن بما أؤمنُ به.

في الطريق إلى طرسوس، أخبرني سيلسوس أشياءَ كثيرة. لم يكن متفائلاً بشأن استردادي للهلّينية، لكنه شعرَ أننا، إذا توفَّرَ لنا الوقت، سوفَ نسيطر. اتّفَقَ معي على أنَّ الأمرَ سينتهي بتصفية الجليليين بعضهم بعضاً.

ناقشنا أيضاً أهم مشكلة سياسية في الإمبراطورية : مجالس الشيوخ في البلدات.

في كل الأماكن التي انتقلتُ إليها كإمبراطور، قابلتُ حشوداً من المواطنين الموسرين توسّلوا إليّ كي أعفيهم من الخدمة في مجالسهم المحلّية. وما كان ذات يوم أعلى شرف يمكن لساكن المقاطعات انْ يوحي به أصبحَ الآن عبئاً قاسياً، لأنَّ المجالس مسؤولة عن جمع الضرائب. وهذا يعني أنه في عام القحط حين يعجز الناس عن دفع ضرائبهم، يتوجَّب على أعضاء المجلس المحلي أن يُعوِّضوا عن العجز في الضريبة من جيوبهم الخاصة . وطبعاً، لا أحد يرغبُ في الخدمة في مجلسٍ محليّ. والبديل الوحيد لذلك هو ممارسة الحُكم مباشرةً وِفقَ مرسومٍ إمبراطوري، وهذا ليس عملياً لأسبابٍ جليّة. إنَّ المسألة كلها مشوَّشة ولم يعرف أيُ إمبراطور كيف يتعامل معه. أنا لا أعرف. وكسلَفي، ألقي خطابات مُثيرة على مَنْ يهمّهم الأمر. أخبرهم فيها أنَّ حُكم المدينة يُشرِّفُ صاحبه وأنَّ الدولة ستضمحلّ من دون تعاون أفضل مواطنيها. لكنَّ المواطنين لا يزالون يتوسّلون لاستثنائهم من الخدمة العامة ولا أستطيعُ أنْ ألومهم. أحد الحلول طبعاً

هو الكفّ عن جعل المجالس مسؤولة عن جبي الضرائب. لكنَّ هذا سيختزل دخل الدولة منها إلى النصف، وهو ما لا نستطيع تحمّله. ويجب أنْ يكون هناك مَنْ يسهر على جبي الضرائب ومَنْ أكفأ في ذلك من كِبار مواطني المجتمع؟ وهكذا اخترتُ أنْ أُعيدَ تنشيط المجالس بدلَ أنْ أغيِّر النظام بعُنف. وإحدى طُرُق توزيع المسؤولية بعدالة أكثر هي عدمُ السماحِ لأي إعفاءٍ من الخدمةِ في المجالس. وفي ظل حكم قسطنتيوس أعفيَ كلٌ من الكهنة الجليليين وأفراد الجيش منها. وقد غيَّرتُ هذا، وبدلَ أنْ أُقلِّل من عدد المواطنين المنخرطين في الخدمة زدتُهُ. وقد نتجتِ عن ذلك ردودُ فعلٍ كثيرةٍ، لكنني أعتقدُ أنَّ المجتمعات سوفَ تتقوّى في الوقت المناسب. ولاشك في أنه حين يرفض ذوو الأملاك أن يكونوا أعضاءً في مجلس الشيوخ في مدينةٍ كإنطاكية، يكون الوضعُ غير مُحتَمَل.

مكثتُ عدداً من الأيام في طرسوس، وهي بلدةٌ جميلة تقع على ضفاف بحيرة موصولة بالبحر بقنال. جمعَ سيلسوس مجموعةً مُثيرةً للاهتمام من الفلاسفة لمقابلتي، وخضنا في نقاشات متنوّعة ممتعة. إنَّ الطرسوسيين الحديثين يستحقّون أسلافهم، الرواقيين العِظام المُنتمين إلى ما قبل ستة قرون. بل إنني ذهبتُ لأسبحَ بعد ظهر أحد الأيام في نهر سيدنوس، مع أنَّ الإسكندر كادَ يُقتَل بعد أن سبَحَ في ذلك النهر. وعلى الرغم من أنَّ طرسوس جليليّة في غالبيتها (هناك عددٌ لا يُحصى من النُصُب التذكارية للشيطاني بولس الذي وُلِدَ هنا)، وجدتُ الأهالي عقلاء وبسطاء في سلوكهم. بل إني شعرتُ تقريباً بالحُزن عندما حان وقتُ الرحيل. لكنني عزّيتُ نفسي بالتفكير في أنّني أُبادلُ طرسوس بإنطاكية، ملكة الشرق. والآن أجدني أرتعشُ حيث أتذكَّرُ فرحتي.

وصلتُ إنطاكية في الأسبوع الأخير من شهر تموز، في يومٍ حارٍ ورطب. وخارج المدينة مباشرةً قابلتُ حشداً كبيراً من الرجال والنساء. وطبعاً، حسِبتُ أنهم جاؤوا للترحيب بي، وكدتُ ألقي عليهم خطابَ شُكر. لكنهم تجاهلوني، وهتفوا بكلماتٍ غريبةٍ، وهم يلوِّحون بأغصانٍ في الهواء.

تلفَّتُ حولي بحثاً عن عمي جوليان، ولكن لم أرَ أيَّ موظَّفٍ رسمي في الأفق، فقط هذا الحشد الذي ظلَّ يُرتِّلُ بتوقيعٍ منتظَم أنَّ " نجماً جديداً قد ظهرَ في الشرق ". وأخشى أنني اعتبرتُ ذلك إشارةً إليّ. إنَّ المرءَ يتعوَّدُ على كافة أنواع الغلوّ. ولكن حينَ حاولتُ أن أتحدَّثَ إليهم، تجاهلوني، وعيونهم متوجِّهة نحو السماء. عند البوابة

الشمالية رحَّبَ بي بشكلٍ رسميّ كلٌ من الحاكم الإمبراطوري، سالوتيوس سيكوندوس، وعمي وأعضاء مجلس الشيوخ. وحالما انتهت التحيات المتبادلة، سألتُ " ما هذا الحشد؟ "

قدَّمَ عمي تبريراته الاعتذاريّة. لقد تصادفَ أني وصلتُ إلى إنطاكية في يوم الاحتفال بذكرى موت أدونيس، عشيق أفروديت، من بين الأيام كلها. وأدونيس هو أحد الآلهة الرئيسيين في سوريا، وكان ينبغي عليَّ وعلى ماكسيموس أنْ نعرف أنَّ هذا يومٌ مقدَّس بالنسبة إليه. لكنَّ الخطأ ارتُكِبَ ولم يعُد في الإمكان فعل أي شيء. لذا ولجتُ إنطاكية وسط الصراخ والأنين والعويل المأتمي، مُفسدين بذلك انطباعي الأول عن المدينة التي هي، قبل أي شيء، مكانٌ جميل تسكنه حثالة البشر. كلا، هذا ليس مُنصفاً. إنَّ لهم أساليبهم وأنا لي أسلوبي. إنني على النقيض منهم.

البوابة الشمالية هي كتلة ضخمة صُنِعَتْ من الغرانيت المصري. بعد عبور البوابة، أول مشهد يُقابلُ الناظر للمدينة مُذهلٌ، ذلكَ أنَّ الشارعَ الرئيسيّ يبلغ طوله ميلَين وعلى كلا جانبيه أروقة مُعمَّدة بُنيَتْ في عهد تيبريوس. لا تستطيع في أي مكانٍ في العالم أَنْ تسيرَ تحت رواقٍ مُعمَّد ثنائي بطول ميلَين. الشارع نفسه كان مرصوفاً بحجارة الغرانيت وقد جُعِلَ كذلك لكي يصله دائماً نسيم البحر، الذي يبعُد مسافةَ ميلَين. دائماً نسيم... ما عدا هذا اليوم. كان الهواء خانقاً؛ والشمس شديدة الوطأة؛ والعرقُ يسيلُ من تحت خوذتي. اتّجهتُ بتجهُّم نحو الساحة العامة، بينما كان من تبقَّى من أناسٍ داخل الرواقَين الظليلَين يئنّون بين حين وآخر على موت أدونيس.

بينما أنا أتقدَّمُ راكباً، تلفَّتُّ حولي بفضول. إلى اليسار جبل سيلبيوس الذي يرتفع بسرعة من السهل. مُعظم المدينة محصورٌ بين نهر أورونتيس من الغرب وسيلبيوس من الشرق والجنوب. أجمل الدارات تقع على منحدرات الجبل، حيثُ يوجد ظلٌ صباحيّ، وحدائق غنّاء، ومشهد رائع للبحر. أحد الملوك السلوقيين، خلال عام الطاعون، حفرَ رأساً عملاقاً في الصخر فوق المدينة مباشرةً. يُسمّى الكاروني[108] وهو يتفكَّرُ متأمّلاً فوق المدينة كروحٍ شريرة. ويمكن رؤيته تقريباً من كل زاوية. وهو مَحَطّ إعجاب السكان المحليّين. أنا لم أُعجَب به، لأنه بالنسبةِ إليّ يُمثِّل إنطاكية.

ساحة تيبريوس تحتوي تمثالاً ضخماً لذلك الإمبراطور إضافةً إلى تمثال حورية من

الرخام والفسيفساء أقيمَ فوقَ نافورة ادَّعى الإسكندر أنَّ ماءها أحلى مذاقاً من حليب أمّه. شربتُ منه ووجدتُ أنَّ الماءَ عذبُ المذاق، غير أنني كنتُ غايةً في الظمأ، كما لابدَّ أنَّ الإسكندر كانَ. لا أستطيع أنْ أتذكّر مذاق حليب أمي، ولكنْ بما أنَّ أمّ الإسكندر كانت مُرَّة في الأشياء كلّها، فلا شك في أنَّ حليبها كان كذلك، أيضاً.

ثم دخلتُ، بصُحبة كبار موظّفي المدينة، الساحة الرئيسية للجزيرة في النهر حيث ينهضُ، مباشرةً قبالة واجهة القصر الإمبراطوري، بيتٌ جديد للجثث، باشره قسطنطين وأنهاه قسطنتيوس. ثُمانيّ الزوايا وتتوّجه قُبّةٌ مُذهَّبة. والبناء يُعرَف باسم البيت الذهبي ويجب أنْ أعترف بأنه أجمل مثال على هندسة العمارة الحديثة. حتى أنا أعجبني، وأنا لستُ من أنصار الحداثة. وأمام بيت الجثث وقفَ الأسقف ميليتيوس ورفاقه من الكهنة. تبادلنا التحيات بتهذيب. ثم ولجتُ القصر الذي بنى ديوكليتيان مُعظَمَه، وكان دائماً يبني نسخةً منه أينما ذهب : وهو مستطيلٌ قائم على أساس مخيَّم عسكري. ولكن في السنوات الأخيرة أضافَتْ عائلتي كثيراً إلى القصر القديم بحيث أنَّ التصميم الأصلي الصارم أصبحَ غامضَ الملامح تماماً بسبب الأبنية الجديدة والحدائق المُتقَنة. وداخل مُجمَّع القصر هناك حمّامات، وكنائس صغيرة، وسرادقات، وفوق ذلك كله، مضمارٌ بيضاويّ الشكل لسباق الخيل مُحاطٌ بنباتات دائمة الخضرة، وجدَ هوى عظيماً عندي.

تلقّيتُ تحيّةً من كبير حُجّاب القصر، وهو خصي عجوز أصيبَ بالرعب خشيةَ أنْ أفعلَ به ما كنتُ قد فعلتُه بالخصيان في القسطنطينية. لكنني طمأنتُه. وقلت، إنَّ كل ما أطلبه هو السلوك المُهذّب. وإذا ما تمّتْ خدمتي بصورة حَسَنة، فلن يتغيّر أي شيء. ولا حاجةَ إلى القول إنَّ خدمتي نُفِّذَتْ بشكلٍ ممتاز، وهذا تطوُّر طرأ على فترة الأسابيع القليلة الأخيرة من مكوثي في القسطنطينية حين كان سريري غالباً لا يُرتَّب وطعام العشاء لا يجهز في موعده. وهناك شيءٌ يجب أنْ يُقال لصالح كوني مرتاحاً، على الأقلّ حين لا يكون المرء في الميدان.

اخترتُ لنفسي شقّة عالية تطلُّ على النهر، لها مصطبة مسقوفة حيث أستطيعُ أنْ أجلسَ أو أتمشّى في الهواء الطلق، وأمدّ بصري عبر السهل الغربي إلى البحر. هنا كنتُ أقضي مُعظَمَ وقتي. أثناء النهار، أتلقّى الزائرين وأعمل؛ وفي المساء، ينضمُّ إليَّ الأصدقاء. وبالقُربِ من القصر كان مضمار سباق الخيل، وهو أحد أكبرها في الشرق.

نعم، لقد أدَّيتُ واجبي. حضرتُ الألعاب حين توجَّبَ عليَّ ذلك، مع أني لم أكن أمكث أكثر من ستة سباقات.

كان هناك كثيرٌ من الطقوس. فاستقبلتُ أعضاء مجلس الشيوخ؛ واستمعتُ إلى شهادات التقدير؛ وحضرتُ العروض المسرحية. ألقيتُ خُطَباً جميلة، مع أنَّ بريسكوس يدَّعي أنه مهما كانت المناسبة دنيوية، فإني عاجلاً أو آجلاً أصلُ إلى موضوع الدين! واستعرضتُ القوات الموجودة أصلاً هناك، ووضعتُ خططاً لاستقبال الفيالق التي لم تصل بعد. وأمام رعب الكونت فيليكس ألغيتُ خُمس مجموع الضرائب المتأخرة في سوريا، على أساسٍ معقول هو بما أنه ليست لنا فرصة طيّبة في الحصول على تلك العائدات في كل الأحوال، فلماذا لا نقوم بالإجراء الشعبي؟ وأصبحتْ شعبيتي في ذروتها - على مدى ثلاثة أشهر.

في شهر آب وأثناء اجتماع المجمع المقدَّس تلقَّيتُ نبأً يقول إنَّ سابور كان قد بعَثَ إليَّ رسولاً حاملاً رسالةً هامّة. فالتفتُّ إلى أورميسدا الذي تصادَفَ حضوره المجمع في ذلك اليوم. " أيُريدُ السلامَ أم الحرب؟ "

" إنَّ أخي دائماً يريدُ كليهما؛ السلامَ لنفسه، والحربَ لكَ. وحين تنزع أسلحَتكَ، سوفَ يتسلَّحُ هو. وحين تتسلَّح أنت، سوفَ... يبعثُ إليكَ رسائل "

أحضِرَ المبعوثُ ليَمثُلَ أمامَ المجمَع. لم يكن فارسياً بل تاجراً سورياً ثرياً له علاقات عمل مع بلاد الفرس. كان قد وصل من ستيسيفون للتو. لم يكن يفهمُ أيَّ شيءٍ في السياسة. لقد طُلِبَ منه أن يوصِلَ رسالة. لا أكثر. ولكنَّ كان بصُحبتِهِ رجلٌ فارسي، لكي يحمِلَ جوابي إلى الملك العظيم. طلبتُ مثولَ الفارسي أمامنا. اتَّضَحَ أنه رجل نبيل نحيل البنية وطويل القامة، ذو وجهٍ هادئ وكأنه تمثال. مرةً واحدة فقط أبدى انفعالاً: حين خاطَبَه أورميسدا بلغته الخاصة. أجابَه، وهو مذهول. ثم حين أدركَ مَنْ هو أورميسدا، استقرَّ تعبير فمه. ورانَ عليه الصمت. سألتُ أورميسدا ماذا قالَ له. قال أورميسدا باعتدال " سألتُه عن والده. أنا أعرفُ عائلته ".

" يبدو أنه ليسَ مُعجَباً بكَ. لعلَّ في استطاعتنا أن نغيِّرَ هذا ". أعطيتُ أورميسدا الرسالة فقرأها بسرعة بلغته الفارسية الصافرة الناعمة. ثم ترجمها. باختصار، سابور

يُريدُ أنْ يُرسِلَ إليَّ وفداً رسمياً. لا أكثر؛ ولكن المعنى الضمني كان واضحاً. قال أورميسدا " إنه يريدُ السلامَ، أيها الأوغسطوس. إنه خائف ". وسلّمني الرسالة. فتركتُها تسقط على الأرض، كإهانة لزميلٍ مَلك. والتفتُّ إلى أورميسدا.

" قُلْ للفارسي إنه لا حاجةَ لسابور أن يُرسِلَ إلينا وفداً رسمياً، بما أنه سيراني قريباً جداً في ستيسيفون "

وهكذا استؤنفَتْ الحرب رسمياً.

في إنطاكية كنتُ أُملي على مدى عشر ساعات، بل قُلْ عشرينَ ساعة، دون انقطاع، إلى أنْ نالَ الإرهاقُ من صوتي؛ ثم أنتقلُ إلى الهمس بأفضل طريقة ممكنة. ومع ذلك لم يكن هناك ما يكفي من الوقت لإنجاز العمل اللازم. لم تكن ردَّة الفعل على المرسومَين اللذين صدرا في شهر شباط جيدة. وأضرمَ الجليليون في قيصريّةَ النارَ في معبد إله الحظ المحلّي. نظّفتُ المدينة وغيَّرتُ اسمها وأعدتُ إليها اسمَ مازاكا؛ إنها لا تستحقُ لَقَبَ قيصريّة. وتلقَّيتُ معلومات سرّية من الإسكندرية تقول إنَّ عدوّي، الأسقف أثاناسيوس، لم يُغادر المدينة على الرغم من أني نفيتُه بوضوح من مصر. بدلَ ذلك شَرَعَ يعيشُ مختفياً في منزل امرأةٍ فاحشة الثراء، إغريقية وجميلة هي، كما تُلمِّح المعلومات، خليلته. إذا كان الأمرُ كذلك، فإنَّ لدينا سلاحاً فتّاكاً يمكننا أنْ نستخدمه ضده، بما أنَّ معظَم سُلطته مُستمَدٌ ممّا يُسمّى بقداسة حياته. وكنتُ قد أصدرتُ الأوامر بأنْ يوضع تحت المراقبة إلى أنْ تحين اللحظة المناسبة لنا للكشف عن انغماسه في الملذات. وحين سمعَ أثاناسيوس أنني نفيتُه، من المفتَرَض أنه قال " إنها سحابة صيف وسوف تمرُّ قريباً ". إنه يتمتَّع بقدرٍ عالٍ من الثقة بالنفس.

وأصدرتُ أيضاً أمراً بإعادة بناء معبد السيرابيون في الإسكندرية، وأعدتُ إليه النايلوميتر العتيق الذي كان تُسجَّلُ به مستويات نهر النيل. وكان الجليليون قد نقلوا النايلوميتر إلى أحد أبنيتهم الخاصة. وأنا أعدتُه. خلال ذلك الوقت عزَّزتُ قوة مجلس شيوخ إنطاكية بأن أضفتُ إليه (على الرغم من احتجاجاتهم المُثيرة للشفقة) مئتين من أشدّ رجال المدينة ثراءً.

في شهر أيلول، وبمساعدة ماكسيموس، دبَّجتُ أهمّ مرسومٍ عالٍ في فترة حكمي حتى الآن : بخصوص الثقافة. ولطالما شعرتُ أنَّ القدر الأكبر من النجاح الذي حقَّقه

الجليليون يعود إلى تضلُّعهم في أسلوب الكتابة والنقاش الهلّينيين. وبفضل براعتهم في ديانتنا، حوّلوا أسلحتنا الخاصة ضدنا. والآن نحن لا نطلبُ أبداً من كهنتنا تعليم أعمال متّى، ومرقس، ولوقا ويوحنا، وليس فقط لأنهم يكتبون بيونانية رديئة. كلا. إنَّ كهنتنا لا يؤمنون بالناصريّ -الإله. لذلك، لماذا ينبغي أنْ نوجّه الإهانة إلى الذين لا يؤمنون به بتدريس عمل المُدافعين عنه؟ لكنَّ الجليليين يُدرِّسون كلاسيكياتنا في كل جامعة في العالم. إنهم يُدرّسونها كنماذج للأسلوب والفطنة، في حين يستبعدون ما يقولون إنه غير صحيح. وهذا شيء لا يُحتَمَل. لذا أصدرتُ مرسوماً بعدم السماح لأي جليليّ بتدريس الكلاسيكيات. وطبعاً، جوبهَتْ صرامة هذا القانون بالاستياء وأنا آسف للأذى الذي سبَّبه لبعض الرجال المُثيرين للإعجاب. ولكن لم يكن أمامي خَيار. فإما أنْ يُرسَمَ خطٌ واضح بين آلهة هومر من ناحية وأتباع اليهودي الميِّت من ناحية أخرى، أو يبتلعنا الإلحاد السائد. إنَّ بعضَ أصدقائي لا يوافقونني؛ خاصةً بريسكوس. لكنْ ماكسيموس وأنا صامدان. في أول الأمر لم أضع أي استثناءات للقانون، لكنني بعد ذلك قمتُ بتعديله لكي أسمح لبروهيريسيوس في أثينا وماريوس فيكتورينوس في روما بمواصلة التدريس. وكلاهما قبِلَ ذلك بفرح. وفي القسطنطينية نبذَ أستاذي القديم إسيبوليوس الجنونَ الجليليّ، وعاد إلى حظيرة الآلهة الحقيقية بإعلانٍ غايةٍ في الفصاحة.

بريسكوس : إنَّ جوليان هنا يُسيء تمثيل كل شيء. نحن نعرف أمر إسيبوليوس. فكل ما يعبده الإمبراطور الحاكم، يعبده إسيبوليوس. أمّا أنا فلم أكن موجوداً في أثينا عندما أصبحَ المرسوم العالي ساري المفعول، وقد أخبرني بروهيريسيوس لاحقاً أنه هو نفسه أسرعَ بالكفّ عن التدريس. ولاحقاً، وحين صدر استثناؤه الشخصي من القانون، بقيَ على رفضِه التعليم، مُعلناً أنه على الرغم من أنَّ المرسوم جائر إلى أقصى مدى، إذا تحوَّلَ إلى قانون، فيجب على الأقلّ أن يكون متماسكاً. الحقيقة أنَّ هذا الكلام يبدو أكثر شجاعة مما هو في الواقع، ذلك أنَّه في يوم إصدار المرسوم قامَ بروهيريسيوس بزيارة صديقه القديم الهيروفانت. ولا أدري كيف فعل الهيروفانت، ولكنه كان يتمتَّع بعبقرية في تخمين المستقبل. كان المتكهِّن الوحيد الذي تركَ تأثيره عليَّ. وبالمناسبة، لقد توقَّعَ لتوّه دمار المعابد كلها في اليونان في غضون هذا العقد. لا أدري إن كان

يعني بيد ثيودوسيوس أم بأيدي الغوط . فمن الطريقة التي تتجمَّع بها القبائل على كِلا الضفَّتين، أعتقد أنَّ الأمرَ سيتمُّ بأيدي الغوط.

على أي حال، دار حديث بين بروهيريسيوس والهيروفات. والآن من الواضح أنه لم يستطع أنْ يسأله مباشرةً عن توقّعه بشأن حياة جوليان. كان ذلك خيانة. لكنه يستطيع أنْ يسأله عن أحد مشاريع جوليان الأثيرة لديه : إعادة تخمين كل العقارات الآخيّة[١٠٩] من أجل تخفيض قيمة ضريبة الأراضي. فتظاهرَ بروهيريسيوس بأنه قلِقٌ على ملكيّة خاصة بزوجته. فهل ينبغي عليها أنْ تبيعها ؟ أم تنتظر إلى أنْ يصبح قانون الضريبة ساري المفعول؟ فقال الهيروفانت، بعْها الآن (من دون صخرة تتبخَّر أو رقيات سحرية)، إنَّ قانون تخفيض الضريبة لن يرى النور. فأدركَ بروهيريسيوس أنَّ فترة حكم جوليان ستكون قصيرة.

كان جوليان على حق تماماً حين قال إنني عارضت المرسوم الخاص بالتعليم. لقد رأيتُ أنه قاسٍ، بالإضافة إلى أنَّ من المستحيل تنظيمه. إنَّ نصفَ الأساتذةِ الجيدين على الأقلّ في الجامعات مسيحيون. فمَنْ يستطيع أن يحلَّ محلَّهم؟ لكنَّ جوليان في تلك الفترة كان يظهرُ عليه أكثر فأكثر ضغط عمله الضخم. وبطريقةٍ ما، كان من المؤسف أنه لم يكن شبيهاً بتيبيريوس أو حتى بديوكليتيان. لو أنه تحوَّلَ إلى جزّار، لوجدَ طريقَه. وعلى الرغم من أنَّ المسيحيين يُعلنون أنَّ دماءهم مِني، فإنَّ إمبراطوراً نيَّته الوحيدة تدميرهم قد ينجحُ في مسعاه عبر العنف، خاصةً إذا كان في الوقت نفسه يبتكر ديناً بديلاً جذّاباً. لكنَّ جوليان كان قد عقد عزمه على أنْ يكونَ فيلسوفاً حقيقياً. سوف يفوزُ عبر النقاش والقدوة الحَسَنَة . هنا كانت غلطته. يكفي أن يتفحَّص المرءُ ما يؤمن به المسيحيون ليُدرِكَ أنَّ العقلَ ليس مركز قوَّتهم. وحده الخنجر كان يمكن أن يحوِّلهم إلى إيمان جوليان. ولكن، بسبب طيبته، بقيَ الخنجر في غمده.

على الرغم من تصميم جوليان على أنْ يُحافظَ على هدوئه، إلاّ أنَّ توارد الأنباء السيئة من المقاطعات أثَّرَ عليه؛ أصبحَ سريع الغضب وبدأ يثأر. حَسِبَ أنَّ مرسوم التعليم كان بمثابة الضربة القاضية. ولو أنه عاشَ أكثر، لربما كان مرسومه نجح، مع أني أشكُ في ذلك. لقد كان في قرارته من شدَّة الاعتدال بحيث يُنفّذه. وفي هذا كلّه تلقَّى الحضّ من قِبَل ماكسيموس ، الذي كان لا يُحتمل أبداً خلال تلك الأشهر في إنطاكية.

ليبانيوس: للمرة الأولى أكونُ على اتّفاقٍ تامٍ مع بريسكوس. إنَّ ماكسيموس لم يكن سوفسطائياً ولا فيلسوفاً، لا محامياً ولا مُعلِّماً؛ كان ساحراً. أنا لا أقول إنني لم أكن أؤمنُ بالسحر (فقبل كل شيء، هناك كثيرٌ من الأشياء المألوفة التي لا نتوصَّلُ إلى فهمها)، لكنَّ سحر ماكسيموس كان زيفاً صريحاً والتأثير الذي مارسه على جوليان كان يبعثُ على الأسى.

جوليان أوغسطوس.

كانت هناك نتيجة واحدة مسلّية لمرسوم التعليم... الوحيدة، في رأيي. فقد أسرع اثنان من الأدباء المأجورين، أب وابنه باسم أبوليناريس، بإعادة كتابة نصوص العهد الجديد الجليليّة وسفر اليهود القديم على شكل تراجيديات ومسرحيات إغريقية ! بهذه الطريقة أمِلا في التحايُلِ على المرسوم وتعليمِ الأدب الكلاسيكي الإغريقي. وقد قرأتُ عدداً من تلك الأعمال الشنيعة ويجب أنْ أعترف بأنَّ قراءتها ممتعة أكثر من قراءة الأصل على الرغم من فجاجتها. أعادا كتابة العهد الجديد على هيئة سلسلة من الحوارات السقراطيّة، مُقلّدَين أفلاطون (ولكن على وزن بحر الأنبسط[110] anapests!)، بينما ضُغِطَ عهدُ اليهود القديم إلى أربعةٍ وعشرينَ فصلاً من ألفا إلى أوميغا، كُتِبَت بتفعيلة الدكتيل المتطرِّفة.

أعمال الثنائي أبوليناريس أرسلها إليّ أسقفٌ في قيصريّة... أقصد مازاكا، شديد الغضب لكي أعلّق عليها. فرددتُ عليه بجُملةٍ واحدة : " قرأتُ؛ فهمتُ؛ وأُدينُ ". وقُبَيل أنْ أغادر إنطاكية وصلني جوابٌ على هذه الرسالة من صديقي القديم باسيل (دعوته مراتٍ عدّة لزيارة البلاط لكنّه لم يأت). رسالة باسيل أيضاً كانت جملة واحدة: " لقد قرأتَ لكنَّكَ لم تفهم، إذ لو أنكَ فهِمتَ لما أدنتَ ". لا يمكن لأحدٍ أنْ يتّهِمَ باسيل بالانتهازيّة!

لن أصِفَ بأي قدرٍ أهلَ إنطاكية. إنَّ سوء شخصيتهم معروفٌ تماماً. إنهم مُشاكسون، مُتخنّثون وعابثون؛ متحمّسون لسباقات الخيل، والمقامرة واللواطة. المدينة طبعاً جميلة ومُفضّلة لمناخها وموقعها الجغرافي. هناك قسم كبير من السكان السوريين يعيشون في الحيّ الخاص بهم بالقرب من النهر، قِبالة الجزيرة. وزيارة ذلك الحي تشبه

الذهاب إلى بلاد فارس، فالناس شرقيون جداً في أزيائهم ومظهرهم. وهناك أيضاً عدد كبير من اليهود يحتلُ القِطاع الجنوبي من المدينة وينتشر على طول الطريق إلى معبد دافنى؛ واليهود في غالبيتهم من المزارعين الذين حصلوا على الأرض مكافأةً لهم على خدماتهم العسكرية. سوفَ أقول مزيداً عنهم لاحقاً.

خلال فترة " شعبيَّتي " في الأسابيع الأولى، كنتُ أظهر في كل المناسبات المعتادة. لكنَّ الضحك كان طلقاً. وارتدتُ أيضاً المسرح، الذي بُنيَ داخل سفح جبل سيلبيوس مُتَّخذاً شكل انحناء طبيعي في التل. كان العرض عملاً لأسخيلوس لذا لم أشعر أنّي ضيَّعتُ وقتي. وعموماً، من المطلوب مني أن أحضر المسرحيات الكوميدية. بما أنَّ معظم الأباطرة كانوا مُستهترين، وكان مُدراء المسارح يوفّرون أشد المسرحيات الهزليّة تفاهةً لعرضِها أمام الزبائن من الأباطرة. كان قسطنطين يحبُ أعمال ميناندر. ولعلَّ قسطنتيوس أحبَّ المسرحيات الهزلية مع أنَّ أحداً لم يكن يعرف ذلك بما أنَّ سياسته كانت ألاّ يضحك أو يبتسم أبداً عَلَناً. ولكنْ أعتقدُ أنَّ اللغة اليونانية السريعة الإيقاع التي كُتِبَتْ بها المسرحيات الهزلية بتورياتها الكثيرة والتلاعُب بالألفاظ ربما كانت تُحيِّره. كان عمي جوليان، كونت الشرق، قادراً على الأقل على إعفائي من حضور الهزليات. لقد استمتعتُ كثيراً بمشاهدة مسرحية أسخيلوس؛ " بروميثيوس ".

قسمٌ كبير من وقتي أمضيته في قاعات المحاكم. كانت القضايا كثيرة ومُربكة عادةً، يُفاقمها حضوري. وحين يعلم الخصوم أنَّ إمبراطوراً سيحضر إلى مدينتهم، يُحاولون جميعاً أنْ يجعلوه القاضي، مُعتقدين أنه نزيه (وعادل) ويميلُ إلى التساهُل لأنه يرغب في أن يتملّقه العامّة ليكسبوه إلى جانبهم (في هذه الحالة، ظُلماً).

على الرغم من أنَّ الأباطرة يميلون إلى الرحمة أكثر من الحُكّام المحليين، إلاّ أنَّ بعض المحامين يعتمدون دائماً بقوة على حظهم ونحن جميعاً نُطلِقُ بين حينٍ وآخر حُكماً غاضباً نتمنى بعد ذلك لو أننا لم نطلقْهُ. وقد أعطيتُ أمري إلى حاكم المدينة، مُدركاً هذا الميل عندي، كي يُوقِفني كلما رأى أنني أُغالي في العاطفية وأبتعد عن الموضوع. وبعد أنْ تغلَّبَ على حيائه الأوليّ، أصبحَ مفيداً جداً لي، وحافظَ على مساري، كما يُقال.

وبدافع من فضولٍ خاص كنتُ أسألُ كلاً من الخصمَين عن ديانته، وأعتقدُ أنَّ مُعظمهم صَدَقَ في إجابته. واعترفَ عددٌ لا يُستهانُ به بأنهم من الجليليين عندما كان

الكذب يخدم قضيتهم (هكذا ساد الاعتقاد). ولكن بما أنه سرعان ما أصبحَ معروفاً أنني لا أسمحُ أبداً لتمييزي الديني أنْ يُؤثِّر على حُكمي، أعلنَ عديدٌ ممَّن مثلوا أمامي أنهم جليليون بأشد انفعال، طالبين إعدام الذين ليسوا على مُعتقدهم.

الجليليون في إنطاكية مُنقسمون بين أتباعٍ عميان لآريوس وأتباع شبه عميان؛ ويتشاجرون باستمرار. هناك طبعاً هيلّينيون صالحون في المدينة، ولكنهم غير فعَّالين. وضمناً هناك عديد ممَّن يتّفقون معنا، لكننا لا نتقدم أي خطوة، لأنَّ الإنطاكيين لا يهتمّون بالدين الجادّ. إنهم يحبّون الناصريّ لأنه " يغفرُ " خطاياهم وجرائمهم برذاذٍ من الماء... ومع ذلك لا دليل على أنَّ ذلك الماء شفى حتى من ثؤلول! وهي مفارقةٌ أوردتُها للأسقف ميليتوس. وقد تقابلنا مرتين فقط؛ مرةً بحَذَر، ومرةً بغضب. في المناسبة الأولى والحَذِرة، قال لي ميليتوس إنَّ المدينةَ جليلية مُخلصة ليس فقط لأنَّ بولس الطرسوسي نفسه هدى عديداً من الناس بل أيضاً لأنَّه في إنطاكية استُخدمَتْ كلمة " مسيحي " الوقحة للمرة الأولى لنعت الجليليين.

" إذا كان قومك مخلصينَ إلى هذا الحد للناصريّ، فلماذا إذن، أيها الأسقف، تحتفلُ المدينةُ كلها بموت أدونيس، أحد أربابنا؟ "

هزَّ ميليتوس كتفيه استخفافاً. " من الصعب التخلّي عن العادات القديمة "

" وكذلك الأمر مع المعتقَد القديم "

" إنهم يعتبرونه مجرَّد احتفال "

" ومع ذلك خرقوا القانون الذي يُنادي به الناصريّ: لا تتَّخِذوا غيري إلهاً "

" أيها الأوغسطوس، إننا لا نغفر لهم ما يفعلون "

" لا أصدِّقُ أنَّ من الممكن للجليليين أنْ يعبدوا معاً أدونيس والرجل الميت الذي يُسمّونه ربّاً "

" نأملُ في أنْ نتمكَّن ذات يوم من إقناعهم بالتخلّي عن كل الاحتفالات العاقّة "

" طبعاً إلاّ إذا نجحتُ في إقناعهم بعبادة الرب الواحد "

" تقصد آلهة الوثنية المتعدِّدة؟ "

" إنَّ كلَّ واحدٍ منها يُشكِّلُ وجهاً للواحد "

" إنَّ ربّنا هو الواحد فعلاً "

" لكنه مذكور في كتاب اليهود - الذي تؤمن بأنه مقدَّس لأنَّ الناصريّ يعتقدُ ذلك... "

" إنه مقدَّس، أيها الأوغسطوس "

"... مذكورٌ أنَّ أعظم إله عند اليهود هو إلهٌ غيور... "

" مذكورٌ وهو كذلك فعلاً "

" ولكن ألم يكن أيضاً حسب ما جاء على لسانه الإلهَ الخاصَّ فقط باليهود ؟ "

" إنه يحتضن كل... "

" كلا، أيها الأسقف. لقد كان إله اليهود الخاص بهم، كما كانت أثينا الاهة مدينة أثينا. إنه لم يدَّعِ أنه الإله الواحد، بل فقط أنه إلهٌ خاصٌ وغيورٌ، خاصٌ فقط بقبيلةٍ واحدةٍ لا أهمية لها. فإذا كان محدوداً فهو لا يستطيعُ، تعريفاً، أنْ يكونَ الإله الواحد، الذي، وسوفَ توافقني على هذا، لا يعرفُ حدوداً، بما أنه موجودٌ في كل شيء ويتألَّفُ من كل شيء "

في تلك الفترة كنتُ شديد الحماس، لأنني كنتُ أقومُ بأبحاث من أجل كتابي " ضد الجليليين "، وفيه، على غرار بروفايري، أعددتُ قضية كبرى ضد الملحدين. والأساقفة طبعاً يميلون إلى صرف الأنظار عن التناقضات العديدة في كتبُهم المقدَّسة بوصفها إشارات إلى سرٍ مقدَّس وليس دليلاً واضحاً على أنَّ دينهم من صنع إنسان، وتناسب العبيد والنساء الجاهلات.

حتى نهاية فترة مكوثي في إنطاكية، كنتُ ذا شعبية في قاعات المحاكم، أكثر من أي مكانٍ آخر. الناس دائماً يستقبلون قراراتي بموجة من التصفيق. والآن أدركُ أنني من بعض الأوجه شديد الإعجاب بنفسي. إنني أستمتع بسماع التصفيق. طبعاً أغلب الناس هكذا، ما عدا ربما أعظم الفلاسفة. ولكن أعتقد أنني قادرٌ على التمييز بين الإعجاب الحقيقي وذاك الزائف. وأهل إنطاكية يُحبّون إثارة الضجيج، وهم مُتملّقون ماكرون. وذات يوم قرَّرتُ أن أُدخِلَ في روعهم أنني مُنتبه إليهم. وبعد أنْ انتهيتُ من إصدار حكمٍ مُطوَّلٍ على قضيةٍ تتسِمُ بصعوبةٍ خاصة، ضجَّتْ قاعة المحكمة بتصفيقٍ هستيري، وسمعتُ مَنْ يهتف " عدالة مثالية! "

على هذا أجبتُ، " من المفترَض أن يغمرني الفرح لمديحكم لحكمي الجيد. لكنَّ

الأمرَ ليسَ كذلك. ذلك أنني أعرف - للأسف - أنَّه على الرغم من أنكم قادرون على مدحي على كوني مُنصفاً، فليست لديكم القوة على لومي على خطأي "

في أول عهدي بالمجيء إلى إنطاكية، لم أكن قادراً على أنْ أفعل ما أريدُ فعله. كان وقتي يُستنفد في أداء المهام الإدارية، والتعوُّد على جو قاعة المحكمة. ولم أتمكَّن من الذهاب إلى ضاحية دافنى والتعبُّد في معبد أبولو. وكنتُ قد قمتُ بمحاولات عدَّة للذهاب إلى هناك لكنَّ العمل المُلِحّ كان دائماً يُبقيني في المدينة. وأخيراً تمَّت الاستعدادات كلها. واستدعى البرنامج تقديم الأضحية عند الفجر في معبد زيوس فيليوس في الحي القديم من إنطاكية؛ ثم أعلنتُ أمام ذهول الإنطاكيين أنني سأقطع الأميال الخمسة حتى دافنى سيراً على قَدَمَيّ، كأي حاجٍ آخر.

عندما حل اليوم الموعود، استيقظتُ قبل بزوغ الفجر. عبرتُ الجسرَ بصحبة ماكسيموس وأوريباسيوس (الذي تذمَّر بسبب استيقاظه في ساعة مُبكِّرة)، إلى الحي السوري. لم يكن يرافقني غير رماة سهام، وكأنني حاكم مدينة بسيط. كنتُ أتمنى ألاّ يلاحظني أحد، ولكن الحي كله عرف طبعاً أنني سأقدم الأضحية عند الفجر.

دخلنا الحي السوري، بشوارعه الضيقة المزدحمة. هنا على ضفة النهر أُسِّسَتْ إنطاكية الأصلية قبل نحو سبعمائة عام مضى على يد أحد قادة جيوش الإسكندر. ومعبد زيوس فيليوس هو واحد من قِلّة تبقَّتْ من ذلك الزمان. إنه صغير ومُحاط بشكلٍ كامل بسوقٍ كانت آلاف العربات ذات المظلات تجعل منه مشهداً غنياً بالألوان، بالإضافة إلى كونه مقدّساً. ولحُسن الحظ، لم يكن المعبد مهجوراً بشكلٍ كامل. حتى الجليليون يحترمونه بسبب صِلته بتأسيس المدينة.

بينما رُماة السهام يُفسحون لي مجالاً لشق طريقي في السوق المزدحمة، أبقيتُ يديَّ بعناية تحت ردائي؛ لأنهما كانتا مُطهَّرتين وِفقاً للطقوس، لم أتمكَّن من لمس أي شيء. تجاهلني مُرتادو السوق. حتى إمبراطور لا يمكنه أن يؤثِّر على أهمية عمل البيع.

ولكنْ في المعبد تجمَّعَت جمهرةٌ كبيرة من الناس. هلَّلتْ لي بمرح. وامتدَّتْ الأيدي السمراء لتلمسني. وهو الشيء الذي أكرهه أكثر من أي شيء في مركزي: تشبُّث الأيدي الدائم بالأثواب. أحياناً كان ذلك يحدث فقط لمجرد الحصول على إثارة لمس الرداء الأرجواني، ولكن في المعتاد الأيدي تخصُّ مرضى يؤمنون بأنَّ الجسد الحيّ

لإمبراطور تشكّلُ دواءً ناجعاً. والنتيجة هي أنَّ الأباطرة عُرضةً خاصةً لنقل عدوى الأمراض. لذا إذا لم يُنه الخنجر تقدُّمنا في هذا العالم، فسوف تقومُ يدُ تابع مريضٍ بالمهمّة. ديوكليتيان وقسطنتيوس لم يسمحا أبداً للعامة للاقتراب منهما لأكثر من مسافة بضعة أقدام. قد أقلّدهما لاحقاً، على أُسس صحيّة!

كان المذبح أمام المعبد مزيَّناً بالأكاليل وجاهزاً. أحد الكاهنَيْن اللذَين أمسكا بالثور الأبيض بدا أشبه بجزّار بشكل مُريب. إنَّ لدينا نقصاً في الكهنة. وعلى دَرَج المعبد، خلف المذبح مباشرةً، تجمَّعَ أقطاب المذهب الهلّيني، وعلى رأسهم عمي جوليان. بدا هزيلاً جداً وكان يسعل باستمرار، ولكن فيما عدا ذلك كان مبتهجاً. قال " كل شيء جاهز، أيها الأوغسطوس "، وهو ينضم إليّ على المذبح.

كان الحشد ضاجّاً، مُبتهجاً وغافلاً تماماً عن المغزى الديني لِما يحدث. همستُ لنفسي، اهدأ، لا تُفشِ أيَّ شيء. اصطفَّ رُماة السهام على شكل نصف دائرة حول المذبح، حريصين على ألاّ يلمسني أحد خلال أداء المراسم. وخلفنا تابعَ السوقُ عمله بضجيجه الذي يُشبه ضجيج أعضاء مجلس الشيوخ وهم يُناقشون أمر الضرائب.

التفتُّ إلى ماكسيموس وسألته بعبارات طقسيّة إن كان يمكنهُ أن يساعدني، فأجابني بأنه سيفعل. أُحضِرَ الثور. ألقيتُ عليه نظرة شديدة الاحتراف. أعتقد أنني قمتُ بتقديم عشرة آلاف أضحية وأعرفُ كل شيء تقريباً عن الكهانات. إنَّ كل شيء ذو مغزى، حتى طريقة مشي الثور وهو يُقاد إلى المذبح. وهذا الثور كان ذا ضخامة غير عاديّة. من الواضح أنه قد خُدِّرَ، وهي طريقة يُجيزها أغلب الكهّان، رغم أنَّ الصفائيين[111] يُحاجُّونَ بأنَّ التخدير يجعل حركات ما قبل الذبح لا معنى لها. ومع ذلك، حتى حين يكون المرءُ مُخدَّراً يمكن أنْ يقولَ أشياء كثيرة. وتحرَّكَ الثور بخُطى مترنّحة. كانت إحدى قوائمه ضعيفة. تعثَّرَ. وهذا نذير شؤم.

تناولتُ السكين الطقسيّة. قلتُ ما ينبغي قوله. ثم نحَرتُ عنقَ الثور بحركة ثابتة واحدة. على الأقل سارَ هذا الأمر على ما يُرام. وانبجسَ الدم. وتلطَّختُ به، وهذه أيضاً إشارة جيدة.

عبر هذا كله، كان الكهّان يقومون بالإيماءات المناسبة والاستجابات، ورحتُ أردِّدُ صيغة التقدِمة كما فعلتُ مرات عديدة جداً من قبل. كان الصمت قد ران على الحشد،

بسبب اهتمامه، فيما أعتقد، بالمراسم العتيقة التي لم يكن كثير من الحاضرين قد شاهدها.

حين جاء وقت التكهُّن، تردَّدَتْ يدي. لقد حاولَ أحد الشياطين منعي من القبض على كبد الثور. صلّيتُ لهيليوس. وبعد أن فعلتُ، ارتفعَتْ الشمس من خلف جبل سيلبيوس. انهمرَ الضوء على كِلا جانبَي الجبل، مع أنَّ ظلّه كان ما يزال ينتشر على صباح المدينة. غصتُ بيدي في الأحشاء وأخرجتُ الكبد.

كان النذير مُخيفاً. كانت أجزاءٌ من الكبد جافة بسبب إصابتها بالمرض. تفحَّصتُهُ بعناية. في " منزل الحرب " وفي " منزل الحب " كان الموت هو النذير. لم أجرؤ على النظر إلى ماكسيموس. لكنني علِمتُ أنه شاهدَ ما شاهدتُه. تابعتُ المراسم التي أحفظها عن ظهر قلب، ورفعتُ الأضحية عالياً إلى زيوس، وقمت مع ماكسيموس بدراسة الأحشاء، وكرَّرتُ الصيَغ القديمة. ثم ولجتُ إلى الداخل لأستكمل المراسم.

ارتعبتُ إذ وجدتُ المعبد مزدحماً بالمتفرجين؛ والأسوأ من ذلك، أنهم صفّقوا لدى دخولي. توقَّفتُ لا أُبدي حِراكاً أمام هذا التصرُّف العاقّ وقلت " هذا معبد، وليس مسرحاً! ". كانت المراسم عندئذٍ قد أضحَتْ فوضى عارمة. ولو أنَّ كلمة واحدة وُضِعَت في غير مكانها في الصلاة، لتوجَّبَ البدء بالمراسم كلها من أوَّلها. وبتحدّثي إلى الحَشد كسرتُ السلسلة التي تصِل بونتيفكس ماكسيموس بالآلهة. أصدرتُ الأوامر، وأنا ألعن من تحت أنفاسي، بإخلاء المعبد، لكي أبدأ من جديد.

الثور الثاني - غير مُخدَّر - حاولَ أنْ يتملَّص حالما رفعتُ السكين، مرةً أخرى أشد النُذُر شؤماً. ولكن على الأقل كان الكبد سليماً، وتمَّتْ المراسم على خير. ومع ذلك، باشرتُ السير إلى دافني وأنا في أسوأ مزاج، ليس في برودة الصباح الباكر كما كنتُ قد عزمتُ ولكن في عز قيظ الظهيرة.

سار ماكسيموس وأوريباسيوس إلى جانبي. وحُمِلَ عمي، بداعي المرض، على محفَّة إلى جوارنا. أفسحَ رُماة السِهام طريقاً لنا خلال الحشود التي تجمَّعَتْ أحياناً على طول الطريق، ولم تحاول أن تلمسني؛ ولم يكن هناك كثير من الإلحاح، مع أنه كالمعتاد كان هناك ذلك الرجل الذي ارتمى فجأةً عند قَدَمَيَّ والتمسَ معروفاً إمبراطورياً. لا أدري كيف نجحَ في ذلك، ولكن سواء أكان ذلك في بلاد الغال أو إيطاليا أو آسيا، فإنه

دائماً ينجحُ أحدهم في كسر كل حِراسة والاستقرار عند القَدَمَين. وبحلمٍ، سجَّلتُ اسمه وحاولتُ أنْ أفعلَ شيئاً لأجله - هذا إذا لم يكن، كما هو حال عدد كبير منهم - مجرَّد مجنون.

كان السير إلى دافنى تسليةً ممتعة، وأنا في حالتي من الانقباض والتوتُّر. كان الطريق يسيرُ مُحاذياً لنهر العاصي. الأرض خصبة، وبسبب توفّر المياه بغزارة ترى الحدائق المُقامة على طول الطريق هي الأجمل في العالم . في الواقع، إنَّ أصحابها يُقيمون مسابقةً سنوية لمعرفة مَنْ صاحب الحديقة الأكثر تنوُّعاً وإمتاعاً. وهذا العام، على الرغم من شحّ المطر، بقيَتْ الحدائق مذهلة في جمالها كعهدها دائماً، ورويَتْ بالمياه الجوفية.

هناك طبعاً عديدٌ من الدارات الجميلة على طول الطريق، وعدد غير عادي من الأنزال[١١٢]، بُنيَتْ في الأصل من أجل آلاف الحُجّاج الذين اعتادوا أن يأتوا من أرجاء العالم كافة للتعبُّد في معبد أبولو. أما الآن فلم يعد يأتي إلا القليل من الحجّاج والأنزال سُخِّرَتْ بأكملها تقريباً لتوفير ملجأ للعشّاق. ومعبدُ دافنى، الذي كان ذات يوم مقدَّساً، أصبحَ الآن سيئ السمعة بسبب زوّاره من العشّاق.

عند منتصف المسافة إلى الضاحية، اقترحَ عمي أنْ نتوقَّف في أحد الأنزال يُديره عبدٌ سابق له. ويجب أنْ أعترف بأنه كان مكاناً جذاباً، أنشئ بعيداً عن الطريق العامة ومخفيّاً عن الأنظار بسورٍ من الغار.

جلسنا في الخارج على طاولة طويلة تحت عريشة من الكرمة مُثقَلة بالعنب الأرجواني المُغبرّ الذي كانت رائحته العَبِقَة تجذب إليه النحل الطنّان. جلبَ لنا صاحب الخان أباريقَ من الفخّار مملوءة بعصيرِ الفاكهةِ الممزوجِ بالعسل، وشربنا بنَهَم. كانت أول لحظة ممتعة في يومٍ رديء. وحدها حالة عمي الصحّية أزعجتني. كانت يداه ترتعشان وهو يشرب. وبين حينٍ وآخر كان تعبير وجهه ينحرف بفعل الألم. ومع ذلك لم يسمح لألم جسده أن يتدخَّل في حديثه الذي كان، كما هو دائماً، رائقاً وكيِّساً.

قال " سوف تجد المعبد في حالة جيدة جداً. لقد تفرَّقَت جماعة الكهّان القديمة قبل بضعة أعوام، ولكن لا يزال كبير الكُهّان موجوداً. وطبعاً، إنه فرحٌ جداً لمجيئك "

هزَّ ماكسيموس رأسه بحزن وعبثَ بلحيته. " حين كنتُ هنا وأنا صغير كان هناك ألفٌ من الكهّان، وأضاحي في كل يوم، وأنزالٌ مُزدحمة... "

إنني دائماً أُذهَل أمام كثرة أسفار ماكسيموس. لا يوجد مكان مقدَّس في العالم لم يزُره، من تلك الصخرة البافوسيّة حيثُ خرجَتْ أفروديت من البحر إلى الموقع الدقيق على ضفة نهر النيل الذي عثَرَ إيزيس فيه على رأس أوزيريس.

قال عمي " أخشى أنكَ ستجد دافني قد تغيَّرت. ولكن سنتمكَّن من إعادة الأمور إلى نِصابها من جديد. فقبلَ كل شيء، الجميع يُريدون أن يزوروا دافني. حتى ولو كان ذلك من أجل مشهد المياه وجمال المكان. إنه مكان مثاليّ ما عدا شيئاً واحداً.... "

تولَّيتُ أمرَ إنهاء جملتُه، وهي عادة سيئة لديّ. إنني أقاطعُ كل شخص، حتى نفسي. " فيما عدا بيت الجثث الذي رأى أخي أنَّ من المناسب أنْ يحتوي عِظامَ... ماذا كان اسمُ ذلك المجرم؟ "

" المرحوم الأسقف بابيلاس، الذي أعدمه الإمبراطور ديسيوس ". ارتعشَتْ يد عمي وأراقَ عصير الفاكهة على ردائه. تظاهرتُ بأني لم ألاحظ ذلك. لكنَّ أوريباسيوس، الذي كان يعمل بعناية على تشريح نحلة عسل كبيرة بسكين تقطيع الفاكهة، مدَّ يدَه عبر الطاولة وتحسَّسَ رسغ عمي. قال أوريباسيوس أخيراً، " اشرب الماء اليوم "

قال عمي، بلهجة اعتذار، وعلائم الموت بادية على وجهه، " لم أكُنْ على ما يُرام". لاحظتُ أنَّ عيونَ الرجال المحتضَرين لأسبابٍ طبيعية تكونُ لامعةً بشكل خارق. ولديهم نظرة مشدودة كأنهم يريدون أن يشاهدوا كل ما يمكنُ مشاهدته قبل أن يموتوا. كنتُ أحب عمي، وأردتُ له أن يعيش.

أما عن دافني، فأستطيعُ أنْ أقول إنها بالجمال الذي سمعه المرء عنها. فالبلدة مُقامة بين حدائق وينابيع. وفي الجوار توجَدُ أيكة شهيرة من أشجار السرو زُرِعَتْ قبل قرون على يد سيلوقص[113]، بأمرٍ من أبولو. والآشجار اليوم باسقة وكثيفة إذ غَدَتْ أغصانها تشكِّلُ سقفاً يمنع نفاذ أشعة الشمس، ويمكن السير طوال ساعات كاملة في الظلّ الرطيب. لطالما كان معبد دافني مقدَّساً؛ أولاً لهرقل، ثم لأبولّو. وهنا لاحقَ أبولّو الحورية دافني. وحين استغاثت بزيوس لكي يُنقذها، حوّلها زيوس إلى شجرة غار. أنا رأيتُ تلك الشجرة بأمّ عيني. إنها عتيقة جداً وعجفاء، لكنها في كل فصل ربيع تنبتُ فروعاً جديدةً، وتذكِّرنا بأنَّها ستبقى دائماً غضّة. لأنَّ فتاةً صغيرة مسحورة تغفو داخل

قبضتها العتيقة. ويمكن أيضاً زيارة الأيكة التي طُلِبَ من باريس[١١٤] فيها أن يحكم من هي الأجمل بين ثلاث إلاهات.

أسرعتُ في أداء مراسم الترحيب في ساحة البلدة. ثم بدل أن أتوجّه مباشرةً إلى القصر، ذهبتُ مع ماكسيموس وأوريباسيوس لمشاهدة المناظر الطبيعية وتابعَ عمي طريقه إلى معبد أبولو ليضحّي.

أشد ما أعجبني هو مجموعة ينابيع الحجر الكلسي. إنها تتدفّقُ بحريّة في الأحوال الجوية كلها. وقد بنى هادريان - نعم، هو أيضاً كان هنا - خزّاناً كبيراً عند نبع سارامانّا مع صفٍ من الأعمدة؛ هنا يستطيع المرء أنْ يجلس على مقعد رخامي ويستمتع بالهواء البارد المنعش الذي تجلبه مياه النبع تلك معها من تحت الأرض. وشاهدتُ أيضاً النبع الكاستالي الشهير الذي كان ذات يوم مهبط وحي لأبولّو. وحين كان هادريان مواطناً عادياً طلبَ معرفة مستقبله وذلك بإسقاطِ ورقة غار في الماء. فعادت الورقة إليه بعد برهة وقد كُتِبَ عليها كلمة واحدة " أوغسطوس ". وحين أصبح هادريان أخيراً أوغسطوساً، ختمَ النبع بحجرٍ من الرخام بحجّة معقولة هي أنَّ الآخرين قد يعرفون ما عرفَه وهذا ليس في مصلحة الدولة. ونويتُ أن أُعيدَ فتح النبع، إذا كانت النُذُر تبشِّرُ بالخير.

أرانا حاكم البلدة بشكل تعوزه اللباقة البازيليكا التي تضمُ رفات المجرم بابيلاس. وقد أحزنني أنْ ارى صفّاً طويلاً من المتفرَجين بانتظار السماح لهم بالدخول. إنهم يعتقدون أنَّ عِظام رجلهم الميت فيها قِوى شفائيّة، لكنهم لن يقتربوا من ينابيع أبولّو! وإلى جوار بيت الجثث قامَ مصنع كبير لإنتاج التُحَف الجليليّة. من الواضح أنَّ هذه الصناعة تدرُّ ربحاً عظيماً . ما أشدَّ تعلُّق الناس بالخرافات!

وصلنا إلى معبد أبولّو في ساعة متأخرة من بعد الظهر. كان حشدٌ كبير من الناس يتجمَّع في الخارج، ولكن لم يأتِ أحدٌ ليُقدِّمَ واجب الشكر للإله. كانوا جميعاً من المتفرِّجين.

ولجتُ إلى الداخل. استغرقَ من عينَيَّ برهة لتتعوَّدا على الداخل الظليل. وأخيراً استطعتُ أنْ أُميِّزَ تمثال أبولّو الضخم والرائع. ورأيتُ أيضاً أنّه لم تجرِ أي استعدادات لتقديم الأضحية. وحالما استدرتُ لأغادر، هُرِعَ شخصان لم أميِّز شكلهما نحوي من الطرف البعيد من المعبد. أحدهما كان عمّي، والآخر كان رجلاً بديناً يحملُ كيساً ثقيلاً.

وِفقاً لأقوال عمي المقطوع الأنفاس، كان هذا الرجل هو الكاهن الأعلى لمعبد أبولّو. الكاهن الأعلى! لقد كان عاملاً يدوياً محلّياً أوكلَ إليه مجلس المدينة الحفاظ على نظافة المعبد وعدم السماح باستخدامه كمأوى للفقراء، أو كمرتعٍ للعشاق، ولِمَن يُريدون إفراغ مثاناتهم الممتلئة. ولما لم يتوفَّر أي حارسٍ آخر، أصبحَ هو كاهن الإله.

" طبعاً، يا مولاي، ليس لدينا مال. لم أتمكَّن من الحصول على ثورٍ أبيض مناسب أو حتى على معزاة... وأنا دائماً أقول إنَّ المعزاة يمكن أيضاً أن تنوب، إذا لم تكن عجوزاً وعجفاء. ولكن لمّا كنتُ أعلمُ أنكَ موجود هنا، أحضرتُ لكَ هذه من الوطن. إنها آخر ما حصلتُ عليه. إنها ليست قوية جداً، أعترف ". وبهذا أخرجَ إوزّة رمادية غاضبة من الكيس الذي يحمله.

حين أدركَ عمي أني أوشكُ أن أنفثُ غضباً، أسرع بالقول، " سوف تنفع كبديل جيد، أيها الكاهن الأعلى. في الوقت الحاضر. أما غدا فسوف نُقيمُ مراسم لائقة. يجب أنْ تحرص على العثور على أكبر عدد من الكُهّان السابقين. وسوفَ أتكفَّل بالنفقات كلها. نستطيع أن نتدرَّب عليها في الصباح. ثم... ". ظَلَّ يُثرثرُ إلى أنْ تحكَّمتُ في نفسي. شكرتُ الأخرق بأدب لِما بذل من جهود، وتلوتُ صلاةً للإله وغادرتُ، دون التضحية بالإوزة.

وجدتُ لحُسن الحظ تسلية سريعة في القصر. كان العظيم ليبانيوس قد وصلَ من إنطاكية. وكان ذاك هو لقاءَنا الأول، ويجب أنْ أعترف بأنني فرحتُ به كثيراً. إنه رجل ذو مظهرٍ نبيل، وله لحية شائبة وعينان باهتتا اللون بسبب إعتامهما. إنه يسيرُ نحو العمى، لكنه لا يشتكي، بما أنه فيلسوف. ودارَ بيننا حديثٌ طويلٌ في تلك الليلة، وفي كل ليلة تقريباً أمضيتُها في سوريا. وقد سرَّني كثيراً أنْ أعيِّنه قَسطوراً، وهو مركزٌ سرَّه جداً أنْ يقبله.

ليبانيوس : غريبٌ كيف تُخطئ ذاكرة الناس. إنني لم أطلب أبداً مركز القسطور. أما ما طلبتُه فعلاً - بإلحاحٍ من مجلس شيوخ إنطاكية - فالحقُّ في أنْ أتمكَّن من مناقشة قضية المدينة أمام المجمع المقدَّس. وكنتُ قد استفدتُ كثيراً من هذا في الماضي، مُحاولاً تبرير أعمال - غالباً أعمال شريرة! - أهل مدينتي. حتى قبل حلول الثاني والعشرين من شهر تشرين أول المشؤوم، شعرتُ بأنه ستقع مشكلة خطيرة بين

الإمبراطور والمدينة، وبما أنَّ حبي لكليهما متساوٍ، شعرتُ بأني قد أتمكَّنُ من الحِفاظ على السلام. ووافقني أقراني في مجلس الشيوخ. ووافقني جوليان. ونلتُ بعضَ السمعة الحَسَنة لإنقاذي إنطاكية مما كان يمكن أن يتحوَّل، في ظل حُكم أي إمبراطورٍ آخر، إلى حمّام دم. في كل الأحوال، عيَّنني جوليان قسطوراً بمبادرةٍ خاصة منه. أنا لم أطلب المركز الوظيفي، ولا أي مركز. فقبل أي شيء، قمتُ لاحقاً برفض لقب " الحاكم الإمبراطوري "، وهذه حقيقةٌ يعرفها العالم كله. إنني لم أشته أي ألقاب أو تشريفات رسمية.

لقد كنتُ في تعاملاتي مع جوليان على النقيض المباشر من ماكسيموس. ولم أبذل أي محاولة لكسب الفضل. لم أطلب أبداً أي جلسة استماع، إلا حين كنتُ أتصرَّف كناطقٍ باسم المدينة. إنَّ جوليان لم يُسجِّل كيف تقابلنا أما أنا فسأفعل، لأنَّ سلوكي في البداية يُحدِّدُ بشكلٍ دائم طبيعة علاقتنا الشخصية، التي قُدِّرَ لها أنْ تكون قصيرة الأمد.

في أول زيارةٍ لجوليان لإنطاكية، أعترفُ بأنني توقَّعتُ أنْ أُستدعى على جناح السرعة. كنا قد تبادلنا المراسلات على مدى سنوات. وفي نيكوميديا، كان يُدوِّن محاضراتي بالاختزال. وكان أسلوبه في كتابة النثر قائماً على أساس أسلوبي، وليس هناك تقريظ يفوق هذا. لكنّ مرَّتْ أسابيع ولم يتم استدعائي. وقد اعتذرَ لي لاحقاً بقوله إنه كان من فرط الذهول بحيث لم يرني. وطبعاً فهمتُ المعنى. ومع ذلك أعترفُ بأني كنتُ أشبه بأبٍ فخور أرادَ أن يبتهجَ بنجاح ابنه الموهوب أكثر من أي شيءٍ آخر. طبعاً، رأيته حين خطَبَ في مجلس شيوخنا، لكننا لم نتقابل على الرغم من أنه نوَّه إليّ في خطابه بعبارة " زخرفة أساسية في تاج الشرق! ". بعد ذلك أصبحَ يُنظَر إليّ على أني صاحب حُظوة عالية، ومع ذلك لم يكن ثمَّة استدعاءٌ إلى القصر.

لم تصلني دعوة من جوليان حتى أواخر شهر تشرين أول، طالباً مني فيها أن أتناول الطعام معه في ذلك اليوم. أجبتُ عليها بأني لا أتناول طعام الغداء أبداً بسبب رقَّة صحَّتي، وهذا صحيح : إنَّ وجبةً في عزّ حرّ النهار تجلبُ دائماً الصداع. ثم دعاني لأنضمَّ إليه في الأسبوع التالي في دافنى، فقبلت.

كما تُظهِر السجلات بجلاء أنا لم " أسعَ " إليه؛ بالأحرى، هو الذي سعى إليّ. إنه

يأتي على ذِكر إعتام عينَيّ. لم أكُنْ أعلم أنه ظاهر إلى هذه الدرجة. وفي تلك الأيام كان في استطاعتي أنْ أرى جيداً. أما الآن فأنا طبعاً أعمى بكل معنى الكلمة.

فُتِنتُ بجوليان، كما حدثَ لأغلب الرجال. إنه يمدح المرء بشكلٍ لا يُطاق، ولكن كان هناك دائماً ما يكفي من الحسّ السليم في تقريظه ليجعله مقبولاً أكثر.

كان لسوء الحظ، يستمتعُ بالسهر طوال الليل وأنا لا أفعلُ؛ ونتيجةً لذلك، كنتُ على الدوام استأذن بالرحيل حالما يبدأ بجولة جديدة. ومع ذلك، وجدنا وقتاً لمناقشة كتابي بتفصيلٍ هائل، وشعرت بالامتنان لاكتشافي مبلغ ما يحفظه غيباً منه. وناقشنا أيضاً إيامبليخوس وأفلاطون.

جوليان أوغسطوس.

أخيراً قدَّمتُ أضحية محترمة لأبولّو، على شكل ألف طائر أبيض. وهذا استهلكَ سحابةَ يوم واحد. ثم ولجتُ المعبد لأستشير وسيطة الوحي. طرحتُ أسئلةً معيَّنة، قد لا آتي على ذِكرها، ولكن الكاهنة لم تُجب عنها. بقيَتْ صامتة ما يقرُب من ساعة؛ ثم تكلّمَتْ بصوت الإله. " عِظام وجيفة. لا يُمكنُ سماعي. هناك دماء في النبع المقدَّس ". هذا كل ما قالته. وكان كافياً. وعرفتُ ما ينبغي عَمَله.

حالما غادرتُ المعبد، كان هناك حشدٌ من الناس متجمِّعاً أمامه. هلّلوا لي. توقَّفتُ ومددتُ بصري حتى بيت الجثث، سبب التلوُّث. التفتُّ إلى عمي. " غداً أريد إزالة عِظام ذلك الجليليّ، بابيلاس "

" إزالة، بابيلاس؟ "، بدا الحزن على عمّي. " ولكنه أحد أشهر مقاماتهم. إنَّ الناس يأتون من أرجاء آسيا كلها ليلمسوا رفات القديس... الأسقف "

" لا يزال في استطاعتهم أنْ يلمسوها كما يشاؤون. ولكن ليس هنا. ليس في دافني. هذا المكان مقدَّس بالنسبة إلى أبولّو "

" ستحدث مشاكل، أيها الأوغسطوس "

" ستحدث مشاكل أكثر إذا لم تُطَعْ أوامر أبولّو "

انحنى عمّي باكتئاب، ومشى إلى بيت الجثث في الطرف المقابل للساحة.

حين هممتُ بركوب مِحفَّتي، لاحظتُ مجموعةً من العُجَّزِ اليهود واقفين على حافة

الحشد. أومأتُ إليهم كي يقتربوا. اتّضحَ أنَّ أحدهم كاهن. كان رجلاً عجوزاً، فقلتُ من باب مضايقته، " لِمَ لمْ تنضم إليّ في تقديم الأضحية؟ "

" إنَّ الأوغسطوس يعلم أنه لا يُسمح لنا بذلك ". كان الكاهنُ قاسياً؛ وكان رفاقه متوتري الأعصاب. في الماضي كان الأباطرة غالباً ما يقتلون اليهود لأنهم لا يُشاهدون طقوس الدولة.

" لكنكَ حتماً تُفضّلُ أبولّو على... ذاك! "، وأشرتُ إلى بيت الجثث عبر الساحة.

ابتسمَ العجوز. " على الأوغسطوس أنْ يعلم أنَّ هذا أحد أقلّ الخيارات التي لم نُجبَر أبداً على اتّخاذها "

قلتُ " ولكن على الأقلّ لدينا عدوٌ مشتركٌ "، وأنا مُدركٌ تماماً بما أنَّ القريبين منا كان يمكنهم سماع صوتي، فسرعان ما ستُردَّدُ كل كلمة نطقتُ بها من نهر دجلة إلى نهر التيمس. لم يُجِبْ العجوز، لكنّه ابتسمَ من جديد. تابعت " عليكم على الأقل أنْ تُقدّموا أضحية بين حينٍ وآخر. فقبل أي شيء، إنَّ إلهكم الأعلى هو إله حقيقي "

"يمكننا أن نقدِّم الأضاحي في مكانٍ واحد، أيها الأوغسطوس. في معبد أورشليم"

" ولكن ذلك المعبد دُمِّرَ "

" وهكذا لم نعُد نقدِّم الأضاحي "

" فإذا أُعيدَ بناء المعبد؟ "

" عندئذٍ سوف يتوجَّب علينا أنْ نقدم صلاة شكر لإلهنا "

لجأتُ إلى محفَّتي، وقد تمَّتْ نصف الخُطّة. " تعالَ وزُرني في إنطاكية "

لقد تنبأَ الناصريّ بأنَّ معبد اليهود سوفَ يُدمَّر إلى الأبد؛ وبعد موته أحرقَ تيتوس المعبد. فإذا أعدتُ بناءه، فسوف يبرهنُ ذلك على أنه نبيٌ زائف. وبشيءٍ من السرور أصدرتُ الأوامر بإعادة بناء المعبد. أيضاً، أيُّ حُلفاء أفضل يمكن للمرء أن يتّخذ ضد الجليليين من اليهود، الذين لابد أنَّهم يتفكّرون برُعبٍ يوميّ في التحريفِ الذي أُجريَ على كتابهم المقدَّس بيد إلهٍ- إنسان؟

بريسكوس : مرةً أخرى يُغفلُ جوليان ذكر هذه المسألة، ولكن حين أصدر أوامره بإعادة بناء معبد اليهود، ساد ذُعرٌ بين المسيحيين. إنهم يكرهون اليهود، من ناحيةٍ لإحساسهم بالذنب لأنهم سرقوا إلههم منهم، ولكن في الغالب لأنهم يُدركون أنَّ اليهودَ

يعرفون أكثر من غيرهم أيّ هراءٍ تام هو الخليط المسيحي. فإذا أُعيدَ بناء المعبد، فإنه ليس فقط سوفَ تتمُّ البرهنة على أنَّ يسوع نبيٌ زائف بل سيصبحُ للمسيحيين من جديد مُنافسٍ أبديّ على أورشليم. لابد من فعلِ شيء. وهكذا كان.

لقد حصلتُ على القصة الحقيقية من صديقي القديم أليبايوس، الذي كان مسؤولاً عن المشروع. كان نائب الحاكم في بريطانيا حين كان جوليان قيصراً. وجاءَ أليبايوس إلى إنطاكية بحثاً عن مهمّة جديدة وأصبحنا نتقابلُ كثيراً، لأنه كان مولعاً بالملذات الجسدية مثلي - أو كما كنتُ. وذات ليلة قمنا بزيارة كل ماخور في شارع سينغون. ولكن سأوفِّرُ عليك سماع التباهي التافه لرجلٍ عجوز.

ليبانيوس : على هذا المعروف الصغير، أشكر السماء.

بريسكوس : لقد بعثَ جوليان بأليبايوس إلى أورشليم لكي يُعيدَ بناء المعبد. كان مُطلق الصلاحية في ذلك. وبمساعدة الحاكم، بوشِرَ العملُ، أمامَ ابتهاج اليهود المحليين، الذين وافقوا على جمع كل الأموال اللازمة. ثم حدثَت " المعجزة " الشهيرة. فذات صباح ظهَرَتْ كُراتٌ من اللهب بين الحجارة، ودفعَتْ بها ريحٌ شماليّةٌ عنيفة هبَّتْ فجأةً وأخذتْ تتدحرجُ، مُثيرةً الرعبَ بين العُمال الذين فرّوا هاربين. وكانت تلك هي النهاية. وقد اكتشفَ أليبايوس لاحقاً أنَّ الجليليين كانوا قد وضعوا مقاديرَ كبيرةً من النفط بين الأطلال، لكي يُعطوا الانطباعَ بوجود شياطين من نار تعدو في المكان.

لَم تدخل الرياح الشمالية في حسبانه؛ ومن الممكن طبعاً أنْ يكون يسوع قد أرسلَ الرياح لكي يصونَ سُمعته كنبيّ، ولكنني أعتقدُ أن المُصادفة هي السبب المُحتمَل أكثر. كانت الخُطط قد وُضِعَتْ لإعادة البناء في الربيع، ولكن عندئذٍ كان الأوان قد فات.

جوليان أوغسطوس.

اليوم التالي كان الثاني والعشرين من شهر تشرين أول. عند الفجر، تجمَّعَ ألفٌ من الجليليين ليزيلوا رُفات المرحوم بابيلوس من المقام الذي بناه غالوس لأجلهم. لقد خُطِّطَ لكل شيءٍ بعناية. أعرفُ هذا لأنه في ذلك اليوم نفسه عدتُ أنا أيضاً إلى المدينة وشاهدتُ الموكب.

كان الجليليون - رجالاً ونساءً - يرتدون ملابس الحِداد وهم يُرافقون بوقار التابوت الحَجَري الذي يضمُّ رُفات المجرم. لم ينظر أحدٌ إليّ. كل الأنظار كانت مُطرِقة. ولكنَّهم

كانوا يُرتّلون تراتيل مشؤومة لصالحي، خاصةً، " اللعنة على الذين يعبدون الصور المحفورة، الذين يتأنّقون في مظهرهم كالتماثيل ". حين سمعتُ هذا نخستُ حصاني وخببتُ متجاوزاً إياهم، تتبعني حاشيتي. أثرنا قدراً هائلاً مُفرِحاً من الغبار، أعاقَ المُرتّلين قليلاً. ووصلتُ إنطاكية بروحٍ عالية.

في اليوم التالي علِمتُ بما حدث أثناء الليل. وقد فوَّضَ عمي بإبلاغي. الباقون كانوا من فرط الرعب بحيث يفعلون.

" أيها الأوغسطوس... "، كان صوت عمّي مبحوحاً من شِدّة التوتُّر. أشرتُ إليه كي يجلس، لكنه ظلَّ واقفاً، وهو يرتجف.

تركتُ الرسالة التي كنتُ أقرأها. " يجب أنْ تزور أوريباسيوس، يا عمّاه، تبدو مريضاً جداً "

" إنَّ معبد أبولّو... "

" لديه عشبة يستخدمها الفارسيون. ويقول إنَّ الحُمّى تُفَكّ خلال ليلة "

"... قد أُحرِق "

توقّفتُ. وكالعديد مِمَّن يُكثرون من الكلام، تعلّمتُ كيف أستوعب ما يقوله الآخرون حتى حين يطغى صوتي عليهم. " أُحرِقَ؟ الجليليون؟ "

أومأ عمّي بحركة بائسة. " لا أحد يعلم. لقد شبَّتْ قُبيل منتصف الليل. واحترقَ المكان كله، اندثر "

" وتمثال أبولّو؟ "

" دُمِّرَ. هم يدَّعون أنها مُعجزة "

كبحتُ نفسي. وجدتُ أنَّ حنق المرء (الذي خليقٌ به أن يجعل المرءَ الأمور الصغيرة معدوم) أما في اللحظات العظيمة فيشحذ الأحاسيس. قلتُ بنبرة صوت متوازنة، "أرسلْ إليَّ أسقفهم ". وانسحبَ عمي.

بقيتُ فترةً طويلة جالساً أمدُّ بصري عبر السهل. كانت الشمس مُعلّقة في جهة الغرب، حمراء بلون الدم. سمحتُ لنفسي بتخيُّل أني طاغية مثالي. رأيتُ الدماء تغطي شوارع إنطاكية، دماءٌ منتشرة على الجدران، والأروقة المُقنطرة، والبازيليكات. سأظل أقتلُ وأقتلُ وأقتلُ! آه، كم استمتعتُ بتلك الرؤيا! لكنَّ فترة الجنون مرَّتْ، وتذكَّرتُ أنَّ في حوزتي أسلحةً أخرى غير السيف.

الأسقف ميليتيوس ساخرٌ أنيق، بالأسلوب الاسكندري. وبالنسبة إلى مطرانٍ جليلي كانت لغته اليونانية راسخة بصورة غير عادية وكان موهوباً بالخطابة. لكنني لم أُتِحْ له أي فرصة لاستغلالها. وحالما بدأ بالكلام، ضربتُ بقوة على الطاولة بيدي المفتوحة. كان الصوت أشبه بقصف الرعد. كنتُ قد تعلّمتُ هذه الخدعة من كاهنٍ إتروريّ، لم يكتفِ بتعليمي كيف أُصدر صوتاً مُرعباً بجُمْعِ يدٍ واحدة ولكن أيضاً كيف أحطِّمُ قطعةً صلبةً من الخشب شذراً بأصابع اليد المجرَّدة المشدودة. تعلّمتُ أول خدعة لكنني كنتُ حتى ذلك الحين أفتقرُ إلى الشجاعة لتجريب الثانية، على الرغم من أنها كانت مُدهشة جداً حين قامَ بها الإترروري وليس فيها أي شيء من السحر. شهَقَ ميليتيوس من فرط رُعبه.

" لقد أحرقتُم أحد أكثر المعابد قداسةً في العالم "

" أيها الأوغسطوس، صدِّقني، نحن لم... "

" لا تسخَرْ مني! ليس من باب المصادفة أنه في يوم نقل رُفات سَلَفَكم المجرم من دافنى إلى إنطاكية نفسه يُحرَق معبدنا الذي ظلَّ قائماً طوال سبعة قرون "

" أيها الأوغسطوس، أنا لا أعرفُ أيَّ شيءٍ عن هذا "

" عظيم! ها نحنُ نُحرزُ تقدُّماً. أولاً، قلتَ " نحنُ " وها أنتَ الآن تقول " أنا ". ممتاز. أنا أُصدِّقكَ أنتَ. ولو لم أَفعلْ، لكنتُ زوَّدتُ رعاياكَ بمجموعة جديدة من العظام ليعبدوها". انحَرَفَ تعبير وجهه بصورة لا إرادية. كان مُصاباً بتقلُّصٍ ما لا إراديَّ في الوجه. حاولَ أنْ يتكلّم ولكن لم يخرج منه أي صوت. أدركتُ عندئذٍ كيف يشعر الطاغية حين يكون في مكاني. إنَّ الحنق بحقّ شيءٌ رائع ومنعش، وإنْ كان خطراً على الروح.

" غداً سوف تسلِّم المذنبين إلى الحاكم الإمبراطوري. وسوفَ يُحاكَمون مُحاكمةً عادلة. وطبعاً ستدفع أبرشية إنطاكية تكاليف إعادة بناء المعبد. حتى ذلك الحين، وبما أنَّ الجليليين حرمونا التعبُّد في معبدنا، فسوف نحرمكم التعبُّد في معابدكم. ومنذ هذه اللحظة، كاتدرائيتكم مُغلقة. لن يُسمح بإقامة أي قدّاسٍ فيها. وسوف نُصادرُ ما لديكم من نفائس لتسديد نفقات إعادة بناء ما أُحرِقَ "

نهضتُ واقفاً. " أيها الأسقف، أنا لم أُردْ نشوب هذه الحرب بيننا. لقد قلتُ ما لديّ وأنا جادٌ فيما قلته: سوفَ أُجيزُ كل أشكال العبادة. نحنُ لا نطلب أكثر من حقّنا. ولا نأخذ ما هو لكم شرعاً. ولكن تذكّر، أيها الكاهن، أنكم حين تُسدِّدون ضربةً إليّ،

فإنكم لا توجّهونها فقط إلى القوة الأرضية - الهائلة بقدرٍ كافٍ - ولكن إلى الآلهة الحقيقية. وحتى إذا اعتقدتم أنها ليست الحقيقية، حتى إنْ كنتم مُلحدين بشكلٍ مرير، فإنكم بسلوككم تعصون تعاليم نبيِّكم الناصريّ، الذي تدَّعون أنكم تتبعونه. أنتم منافقون! قُساة! جشعون! وحوش! "

لم أكُنْ أقصد أنْ أقول هذا كلّه، كالمعتاد. لكنني لم أندم على إخراج كل ما في داخلي. خرج الأسقف، معقود اللسان ويرتجف. وأجرؤ على القول إنه سوف ينشر ذات يوم موعظةً طويلة لاذعة، يدَّعي فيها أنّه ألقاها في وجهي مباشرةً. إنَّ الجليليين يتفاخرون بأعمال التحدّي، خاصةً إذا كان العدو إمبراطوراً. لكنَّ تحذيراتهم الطائشة هي دائماً تقريباً سابقة لعصرها وغالباً ليست من إنجاز يدٍ أخرى.

أرسلتُ في طلب سالوتيوس وأمرتُه بإغلاق المنزل الذهبي. كان قد كوَّنَ لتوِّه نظريات حول حادث الحريق وواثقاً من أنه في غضون بضعة أيام سوف يتمكَّن من إلقاء القبض على زعماء الفتنة. رأى أنَّ ميليتيوس جاهلٌ بالقضية كلها. أما أنا فلم أكن متأكداً كثيراً؛ وربما لن نعرف أبداً.

بعد ذلك بأسبوع، تمَّ القبض على عددٍ من الأشخاص. المسؤول عن حادث الحريق كان شاباً ثورياً اسمه ثيودور، كان قسّاً في بيت الجثث في دافنى. وأثناء عملية تعذيبه، أخذَ يرتِّل الترتيل نفسه الذي وجَّهه الجليليون إليّ وأنا في طريقي إلى إنطاكية. وعلى الرغم من أنه لم يعترف، إلاّ أنَّ من الواضح أنه كان مُذنباً. ثم شكَّلَ سالوتيوس هيئةً للتحقيق وأمام دهشة الجميع إذا بمَنْ يُسمّى كاهن أبولّو (الذي جلبَ لي الإوزة لأقدمها كأضحية) يُقسِم بالآلهة كلها إنَّ الحريق كان حقاً حادثاً وإنَّ الجليليين ليسوا مسؤولين. فبوصفه حارس المعبد كان دائماً مأجوراً لهم، ولكن لأنه كان معروفاً في إنطاكية باسم " كاهنَ أبولّو " نجحَتْ شهادته في إنهاء القضية.

وحتى الآن لا يُطاوعني قلبي على العودة إلى دافنى. فقبل كل شيء، كنتُ أحد آخر مَنْ شاهدوا ذلك المعبد الجميل. ولا أعتقد أنه كان في استطاعتي أنْ أتحمَّل مشهد الجدران المحترقة والأعمدة المسفوعة، التي لا يُظللها غير سقف السماء. وفي تلك الأثناء سوف يبقى المنزل الذهبي في إنطاكية مُغلقاً إلى أنْ يُعاد بناء معبدنا. هناك كثير من التذمُّر. جيد.

-١٩-

بريسكوس : وصلتُ بُعيد وقوع الحريق. كان عهدي بالتدريس قد انتهى مع انتهاء العام المنصرم، وسافرتُ من القسطنطينية إلى إنطاكية في غضون ثمانية أيام، وهي فترةٌ ممتازة. كان جوليان قد أجرى إصلاحاً كاملاً تقريباً على نظام المواصلات في الدولة بحيث أصبحَ السفرُ مُتعة. لم أر أي أسقف في الأفق، مع أنه كان قد تمّ تعيين عددٍ جديدٍ من كِبار الكُهّان في العربات، وأعترفُ بأني بدأتُ أتساءلُ إنْ كان حصل أي تطوُّر على المسيحيين. أعتقدُ أنه لو أنَّ جوليان عاشَ أكثر، لأصبحتْ الأمور بالضبط كما كانت أيام قسطنتيوس، ما عدا أننا بدل أنْ يُصيبنا الملل جرّاء المشاحنات حول طبيعة الثالوث الأقدس كنا سنُضطرّ إلى الإصغاء إلى المجادلات حول طبيعة حياة زيوس الجنسية ... وهذا تطوُّر، حين نفكّر فيه، لكنَّ الوضعَ في جوهره هو نفسه.

وجدتُ أنَّ تغييراً كبيراً طرأ على جوليان. طبعاً أنتَ كنتَ تراه كثيراً في ذلك الوقت، ولكنْ بما أنكَ لم تعرفْه من قبل، فإنكَ لا تستطيع أن تلاحظ كم أصبحَ متوتر الأعصاب ونكداً. وحريق المعبد لم يكن فقط تدنيساً في نظره، بل إهانة مباشرة موجَّهة إلى سلطته العُليا. لطالما واجه صعوبة في الحِفاظ على توازن دورَيه كفيلسوف وكملك. فأحدهما قد يغفر ويُخفِّف الألم، أما الآخر فيجب أنْ يُخدَم، بالدم، إذا لزِمَ الأمر.

في يومي الأول في إنطاكية، أصرَّ جوليان على أنْ أرافقه إلى المسرح. " على الأقلّ نستطيع أن نتحدَّث إذا كانت المسرحية شديدة التفاهة ". وتصادَفَ أني أحبُ كثيراً المسرحيات الهزليّة، خاصةً المساخر الرخيصة. ليست هناك نكتة قديمة إلى درجة ألاّ تُبهجني، ولو بمجرَّد إلفتها المُحبَّبة. والمسرحية الهزلية في تلك الليلة كانت "الضفادع" لأريستوفان. جوليان كرهها، كره حتى النكات الجيدة التي دارت حول الأسلوب الأدبي الذي كان ينبغي أن يسلّيه. وجوليان لم يكن يفتقر إلى الحس الفكاهي. كان يستجيب

بحيوية للأشخاص المملّين؛ لشيء من الموهبة في المُحاكاة؛ وكان يستمتع بالضحك. لكنه كان أيضاً واعياً في كل لحظة لُمهمّته المقدَّسة، وقد عَملَ هذا على اتِّخاذه جانب الحَذَر ضد أي شكل من أشكال الظُرف يمكن أن يُوجَّه ضدَّه؛ إنَّ الأبطال لا يفلتون من المُحاكاة الساخرة وجوليان كان بطلاً حقيقياً، وربما الأخير الذي أنجبَته سلالتنا.

ابتهجتُ لوجودي في إنطاكية في ذلك اليوم. إنني أستمتعُ بالطقس الذي يدعو إلى الاسترخاء، وبالحشود المُعطَّرة، وبالشوارع العريضة... وكما تستطيع أن تُخمِّن، أحبُ أساليب الحياة المُرفَّهة و " الفاسقة " لمدينتكم. ولو كنتُ أملك المال، لوجدتني أعيش هناك الآن. كم أحسدك!

كنتُ في مزاجٍ رائق لدى وصولنا إلى دار المسرح. كلنا كنا كذلك. حتى جوليان كان على سجيَّته القديمة، يُسرِعُ في الكلام، يُلوِّحُ بودٍّ للجماهير التي تُهلِّل له. ولكن بعد ذلك صدرَ عن المقاعد الرخيصة السعر هتافُ مشؤوم " أيها الأوغسطوس! أيها الأوغسطوس! "، ومن ثم بدأ النشيد " كل شيء وافر، كل شيء عزيز! ". استمرٌ هذا مدَّة نصف ساعة، والأصوات تعلو باطّراد إلى أنْ بدا كأنَّ كل شخص في المسرح يجأر بتلك الكلمات. وأخيراً أشارَ جوليان لآمر القوات الخاصة، فظهرَ مائة من الحَرَس بسرعة كبيرة بحيث أعطوا الانطباعَ بأنهم جزءٌ من البرنامج حين تجمَّعوا حول الإمبراطور بسيوفٍ مسلولة. وعلى الفور سكتَ الترتيل، وبدأتْ المسرحية، بجوٍ كئيب. وفي اليوم التالي بدأت أعمال شغب بسبب الطعام، ولكنكَ تعلم، بما أنكَ قسطور، أكثر مني عن هذا الموضوع كله.

ليبانيوس : إنَّ أحد جوانب الحياة الإنسانية العجيبة هو أنَّ الإجراءات الوقائية نادراً ما تُتَّخَذ لتفادي الكارثة، حتى عندما تكون الطبيعة الحقيقية للمصيبة القادمة واضحةً بجلاء. وفي شهر آذار حين كفَّ المطر عن الهطل، علمَ الجميعُ أنَّ المحصول سيكون ضئيلاً؛ وبحلول شهر أيار كان قد بات جليّاً أنه سيكون هناك نقص في الطعام؛ وبحلول شهر حزيران، كانت المجاعة. ولكن على الرغم من أننا كثيراً ما ناقشنا هذا الأمر في مجلس الشيوخ - والناس في الأسواق لا يتحدثون إلاّ عن الجفاف غير العادي للموسم - فإنه لم توضع أي خطة لشراء القمح من بلدانٍ أخرى. وعلمنا جميعاً ماذا سيحدث، ولم يفعل أحدٌ أيَّ شيء. هناك في هذه القضية ثباتٌ مَروِّع جديرٌ بفيلسوف أن يوليه قدراً من البحث.

من سوء حظ جوليان أنه قدِمَ إلى إنطاكية في بداية فترة النقص. ولكن مع أنه لا يمكن وضع اللوم عليه بأي حال من الأحوال لجفاف الطقس أو لغياب بصيرة آباء المدينة، إلاّ أنَّ أهالي إنطاكية (الذين لابد أنَّ رمزهم هو كبش المحرقة) أسرعوا إلى نسب سبب المجاعة إليه.

ادَّعوا أنَّ إيواء جيشه الهائل وتزويده بالمؤون قد ساهمَ في رفع الأسعار وشحّ الطعام. كان هذا ينطبقُ على عددٍ من السلع ولكن ليس على القمح، الوجبة الأساسية : كان القمح بالنسبة إلى الجيش يُستورد مباشرةً من مصر. لكنَّ أهل المدينة كانوا توّاقين إلى الإساءة إلى جوليان. لماذا؟ لقد أعلنَ الأسقف ميليتيوس أنَّ قَدَر جوليان كان قد تقرَّرَ حين نقلَ عِظام القديس بابيلاس من دافنى. وقد فاجأني هذا بأنه وجهة نظر خاصة. وأكَّدَ ميليتيوس أيضاً أنَّ شعب المدينة انقلبوا عليه يوم أغلَقَ أبواب الكاتدرائية. أنا أشكُ في هذا. البعض صُعِقَ طبعاً، ولكن الإنطاكيين ليسوا مسيحيين مُكرَّسين؛ إنهم ليسوا مُكَرَّسين لأي شيء، إلاّ للانغماس في الشهوات. ولأنهم لا يُريدون أنْ يُلاموا على المجاعة، وضعوا اللوم على جوليان، الذي كان عرَّضَ نفسه للسخرية أمامهم بتقديمه المستمر للأضاحي وللإحياء الفخم للمراسم الغابرة.

أعترفُ بأنه حتى في ذلك الوقت شعرتُ بأنَّ جوليان يُغالي في ممارساته. وذات يوم في دافنى، ضحَّى بألفٍ من الطيور، بتكلفةٍ لا تعرف إلاّ السماء مقدارها! ثم ضحّى بمائة ثور لزيوس. ولاحقاً، ضحّى بمائة بقرة لسيبيل. وكانت تلك مناسبة فاضحة بصورة استثنائية. فخلال السنوات الأخيرة كانت شعائر سيبيل ممارسة شخصية، وتتضمَّن كثيراً من المراسم الشائنة بالنسبة إلى الأخلاقية العادية. وقد قرَّرَ جوليان أنْ يجعل المراسم عامة. وقد صُدِمَ الجميع للجلد الطقسيّ لمائة من الشباب على أيدي الكاهنات. وما زاد الطين بلّة، أنَّ الشبان وافقوا على الاشتراك في المراسم ليس بدافع الإيمان بل ببساطة لنيل حُظوة عند الإمبراطور، بينما كانت الكاهنات كلّهنَّ تقريباً من المنتسبات الجديدات. كانت النتائج تعيسة. فقد تأذّى العديد من الشبان بشكلٍ خطِر وأصيبَ عددٌ من الكاهنات بالإغماء لمرأى سيل كثير من الدماء. لقد كانت الطقوس النهائية هي فوضى من الفحش.

لكنَّ جوليان أصرَّ بشراسة على الأرض على أنه مهما بدا لنا ما يُثيره بعضٌ من

تلك الشعائر مُرعِباً، فإنَّ كلاً منها يُشكِّلُ جزءاً من مُحاولةِ سلالتنا المستمرَّة لاسترضاء الآلهة. ولكل شعيرةٍ قديمةٍ منطقها الداخلي ، وفعاليتها. العيب الوحيد الذي أراه في جوليان هو أنه كان في حالة استعجال متهوِّرة. لقد أرادَ أنْ يستعيدَ كلَّ شيءٍ فوراً. وفي غضون بضعة أشهر عُدنا إلى عصر أوغسطوس. وأنا متأكِّد من أنه كان سيُعيد ترسيخ الديانات القديمة خلال عدد قليل من السنوات. لقد كان الناس متعطشِينَ إليها. إنَّ المسيحيين لا يقدِّمون ما يكفي، مع أني أعترفُ بأنهم جريئون بصورةٍ شائنة في تكييف أشد شعائرنا واحتفالاتنا قداسةً لأهدافهم الخاصة. وهذه إشارة واضحة إلى أنَّ دينهم زائف، ارتجله رجلٌ جاء في وقته، ولم ينبثق تلقائياً من الأبدية.

لقد حاولَ المسيحيون منذ البداية أنْ يُخفِّفوا من خوف الإنسان من الموت. ومع هذا لم يجدوا بعد طريقة لتحرير ذلك العنصر في كلٍ منا ، وهو العنصر الذي يتطلَّب الاتِّصال الحميم بالواحد. إنَّ أسرارنا ترسِّخُ ذلك، ولهذا هم محط حَسَدْ المسيحيين والغاية الثابتة لاحتقارهم. وأنا راغبٌ تماماً في التسليم بأنَّ طريقة المسيحيين هي إحدى الطُرُق الموصِلة إلى المعرفة. لكنها ليست الطريقة الوحيدة، كما يُعلنون. إذ لو كانت كذلك، فلماذا هم توّاقون إلى الاستعارة منا ؟ إنَّ أشد ما يزعجني يأسهم الغريب من هذه الحياة، والتشديد غير الضروري الذي يضعونه على الحياة الآخرة. طبعاً الأبدية أرحب من فترة حياة الإنسان الوجيزة، لكنَّ العيش بالكامل داخل نطاق فكرة الأبديّة يُقيِّد الروح ويجعل الإنسان بائساً في وجوده اليومي، بما أنَّ عينيه يجب أنْ تتركَّزا دائماً ليس على هذا العالم الجميل بل على ذلك الباب المُظلِم الذي ينبغي أن يجتازه ذات يوم. إنَّ المسيحيين يكادون يَصْبُوُن إلى الموت كالمصريين الأصليين، وأنا لم أقابل أحداً منهم بعد، حتى تلميذي وصديقي الحبيب باسيل، الذي كان دائماً يستمدّ من إيمانه ذلك الإحساس بالفرح، وبالاتّحاد بالخليقة والابتهاج بالمخلوقات، كالذي يستمدّه الإنسان حين يمرّ بتجربة تلك الأيام والليالي في إليوسيس. إنَّ ضآلة الشعور المسيحي هو ما يُقلقني، ورفضهم لهذا العالم لصالح العالم الآخر الذي - بلباقة - ليس مؤكَّداً تماماً. أخيراً، على المرء أن يقاومهم بسبب غطرستهم الفكرية، التي تبدو لي غالباً أشبه بالجنون. لقد قيلَ لنا إنَّ هناك فقط طريقاً واحدة، وحيٌ واحد : وحيهُم. ولا تجد في تقريعاتهم المُطوَّلة وتحذيراتهم تواضُعَ وحِكمةَ أفلاطون، أو عالم الجَسَد والروح النقي

ذاك الذي يتغنّى به هومر. منذ البداية كانت اللعنات والشكاوى هي أسلوب المسيحيين، الذي ورثوه عن اليهود، الذين يُثيرُ انضباطهم الإنساني والفكري الإعجاب بقدر ما يُقيِّدُ إحساسهم المُستمرّ بالمرارة ويُفسد.

إنني لا أرى أي شيء جيد يأتي من هذا النظام الديني مهما استوعبَ من عاداتنا العريقة وطبَّقَ لصالحه الظُرف والمنطق الهلّينيين. ولكن لم يعُد لديَّ الآن أيُ شكٍ في أنَّ المسيحيين سيسودون. لقد كان جوليان هو آخر أملٍ لنا، وقد رحلَ قبل الأوان. لقد دخل شيءٌ ضخمٌ ومؤذٍ إلى حياة هذا العالم العتيق. ونتذكّر هنا، برزانة، أنذار سوفوكلس: " وحين سيترسَّخ هذا القانون جيداً، لن يلجَ حياة البشر أي شيء هائل من دون لعنة "

وهناك مغزى أيضاً في أنَّ تترسَّخ عبادة الموت هذه في وقت احتشاد البرابرة على حدودنا. ومن الملائم هنا أنَّه إذا انهارَ عالمنا القديم - وأنا واثقٌ من أنه سيحدثُ - فسوف يُصبحُ وَرَثَةُ أولئكَ الذين ابتدعوا في الأصل هذه الحضارة الجميلة وأخرجوا فنّاً عظيماً بلا فن في نهاية المطاف، ويعبدون رجلاً ميتاً ويزدرون هذه الحياة من أجل أبديّةٍ تقع خلف الباب المُظلِم. لكنني استسلمتُ لأسوأ عيوبي! الإسهاب! لقد ألقيتُ خُطبةً صغيرة بينما كان ينبغي عليَّ أن التزم بالمهمة الحاضرة، وجود جوليان في إنطاكية.

لم يعتبرِ الناسُ سلسلةَ أضاحي جوليان المتواصلة متلافةً ومُثيرةً للسخرية فقط: بل كانوا يُصابون بالرعب من القوات الغاليّة التي تُواظِب على حضور كل أضحية، مُتظاهرةً بأنها تقدِّمُ واجب الاحترام للآلهة لكنّها في الحقيقة كانت تنتظرُ وقت مدّ مأدبة اللحم المُدخَّن التي تلي ذلك. وحالما يُغادرُ جوليان المعبد، يُباشرُ الجنود بافتراس الحيوانات المُضحَّى بها ويعبّون الخمر إلى أنْ يفقدوا وعيهم. وحينَ يُحمَل الجندي المخمور كالجثة الهامدة خلال الشوارع، كان الناس يقولون، " لقد عاد الإمبراطور إلى الصلاة من جديد ". وقد أضرَّ هذا بالهلّينيّة في نظر أهالي إنطاكية، المتعوّدين على ممارسة الإثم بحيث لم يكونوا يسكرون، ويحتقرون إلى أقصى درجة الذين يسكرون.

ومحاكمات أولئك الذين افتُرِضَ أنهم المسؤولون عن حرق معبد أبولّو قَلَبَتْ المدينة ضد جوليان. وبوصفي قسطوراً، اطّلعتُ على القضية ربما عن قُربٍ أكثر من أي شخصٍ آخر. لقد رأى جوليان بكلّ صدق أنَّ المسيحيين هم الذين أضرموا النارَ لكنهم في هذه المرة (ربما) كانوا أبرياء. بعد ذلك بسنوات عديدة تحدَّثتُ مع مَنْ يُسمَّى كاهن أبولو فأخبرني بما لم يقُله لهيئة التحقيق.

ففي الثاني والعشرين من شهر تشرين أول، وبُعَيد مغادرة جوليان تخوم المعبد، وصلَ الفيلسوف أسكليبيادس، على أمل أنْ يُقابلَ الإمبراطور. ولما لم يجده ولجَ أسكليبيادس المعبد ووضعَ كتقدمةٍ تمثالاً صغيراً من الفضة للإلاهة كيليستيس عند قَدَمَيّ أبولّو، عند الحاجز الخشبي مباشرةً من الداخل. وأضاءَ أيضاً عدداً من الشموع ونسَّقَها حول التمثال. ثم غادرَ. حدثَ ذلك عند غروب الشمس. وقُبَيلَ منتصف الليل، وصَلَتْ شراراتٌ من الشموع قبل أن تخمد إلى الحاجز. كان الفصل جافّاً؛ والليلُ عاصفاً، وخشب الأرز عتيقاً. واحترقَ المعبدُ. والآن لو أنَّ هذا الأحمق فقط أخبرَ جوليان الحقيقة قبل عمليات إلقاء القبض، لما حدثَ شيء، لكنَّ خوفه من الإمبراطور الهلّيني لم يكن يقلُّ عن خوفه من المسيحيين.

إنَّ الحادثة برُمَّتها كانت مؤسفة. ولحُسن الحظ، لم تقع خسائر في الأرواح. وكل ما عاناه المسيحيون لم يتعدَّ إغلاق الكاتدرائية. ولاحقاً جاءَ رهطٌ من الأساقفة إلى جوليان يشتكون من أنه يُسبِّبُ لهم أذى عظيماً فأعطى على هذا جواباً فكِهاً. " ولكن من واجبكم أن تتحمّلوا هذه " المضايقات " بصبر. عليكم أن تُديروا الخد الآخر، إذ هكذا أمر ربُّكم "

جوليان أوغسطوس.

في وقتٍ لاحق من خريف ذلك العام ناشدني حشدٌ كبيرٌ من الناس في مكانٍ عام وهم يُرتّلون قائلين إنه على الرغم من أنَّ كل شيء وافر، فإنَّ الأسعار مرتفعة بشكل غير معقول. كان ذلك اتِّهاماً صريحاً للطبقة الثرية في إنطاكية، المستعدة لعمل أيّ شيءٍ لتجني المال، حتى بتعريض الشعب لخطر المجاعة. وقبل ذلك بسبع سنوات كانوا قد استغلوا ظرفاً مُشابهاً، وثار الشعب. وسقط قتلى، ودُمِّرَت ممتلكات. واعتقدنا أنَّ المواطنين تعلَّموا درساً من ذلك التاريخ الحديث؛ لكنَّهم لم يفعلوا.

بعد تلك المظاهرة بيومَين، أرسلتُ في طلب أكابر المدينة. وقبل اللقاء، أعطاني الكونت فيليكس تعليمات نهائية مُطوَّلة. جلسنا في غرفة الاستشارة، تفصلُ بيننا كومة من الأوراق على الطاولة؛ وتمثالُ ديوكليتيان البرونزي ينظرُ باحتقارٍ إلينا. كانت تلك من نوع المشاكل التي يستمتعُ بمصارعتها. أنا لستُ كذلك.

" هذه الأرقام، أيها الأوغسطوس، تُبيِّنُ أسعار القمح على مدى قرنٍ من الزمان وهي تتقلّبُ ليس فقط من عامٍ إلى عام بل من شهرٍ إلى شهر ". أشرقَ وجه الكونت بالسعادة. لقد استمدَّ من لوائح الأرقام تلك البهجة نفسها التي يستمدّها آخرون من قراءة أفلاطون أو هومر. " بل إنني - كما ستلاحظ - التمستُ الأعذار لتقلّبات العملة. إنها مُثبَتة هنا "، وربَتَ على إحدى المخطوطات الورَقيّة، ورماني بنظرةٍ حادّة ليتأكَّد من أنني أوليه انتباهي. لطالما شعرتُ مع الكونت فيليكس أنني أعودُ طفلاً من جديد وهو ماردونيوس. لكنَّ فيليكس كان دليلاً ممتازاً إلى عالم المال السفلي الغامض. كان يؤمنُ، كما فعل ديوكليتيان، بتثبيت الأسعار. كان لديه كل الأدلة المُستمدَّة من تجارب ماضية على أنَّ ذلك النظام سوف يزيد الرخاء العام. وحينَ أكون معه ينجحُ دائماً في إقناعي بأنه على حق. ولكن فيما يخص الشؤون المالية يمكن لأي شخص أن يُقنعني، على المدى القصير على الأقلّ، بأي شيء. وبعد حديثٍ لامع، ولكنه مُبهم بالنسبة إليّ، نصحني فيليكس بتثبيت سعر القمح عند قطعة فضيّة واحدة لكل عشرة مكاييل، وهو سعر معقول في إنطاكية. وبعد ذلك نُحافظ بصرامة على ذلك السعر عند مستواه، لمنع التجّار من انتهاز ظرف شح الموسم.

في المبدأ اتَّفقتُ مع فيليكس. سألتُه " ولكن، ألا ينبغي أنْ نترك أمر تحديد السعر لأعضاء مجلس الشيوخ أنفسهم؟ أنْ يكبحوا شعبهم؟ "

رماني الكونت فيليكس بتلك النظرة المُشفِقة التي كان ماردونيوس يرميني بها حين أبدي ملاحظةً تتَّسِمُ بحماقة خاصة. " لا يمكنكَ أنْ تطلب من ذئب ألاّ يأكل خروفاً شارداً. إنها طبيعته. حسنٌ، من طبيعتهم أن يجمعوا أكبر قدر ممكن من الأرباح ". لم أوافقه على هذا. وكما اتّضَحَ، كان فيليكس على حق.

في الساعة المُعيَّنة أدخلَ ما يُقارب ثلاثمائة من أكابر مواطني إنطاكية إلى غرفة الاستشارة. أبقيتُ فيليكس قريباً مني، وسالوتيوس أيضاً. وبوصفه كونت الشرق كان يجب أنْ يترأس الجلسة، لكنّه كان مريضاً. كان الإنطاكيون وسيمين، ورسميّين في مظهرهم، ويميلون إلى الخنوثة وتفوح منهم - على الرغم من الحر - رائحة كأنهم ثلاثمائة حديقة من دافنى؛ وفي تلك الغرفة، أصابتني رائحة العطر بالصداع.

دخلتُ في الموضوع مباشرةً. أوردتُ سعر القمح في صباح ذلك اليوم . " أنتم

تطلبون من الناس أنْ يدفعوا ثلاثة أضعاف ما يستحق القمح. إنَّ الطعام شحيح ولكن ليس إلى هذه الدرجة، إلاّ إذا كان ما سمعتُ صحيحاً، من أنَّ بعضَ المضاربين يُخفون القمح عن الأسواق إلى أنْ يجوع الناس وينال اليأس منهم ويستعدوا لدفع أي سعر ". سمعنا كثيراً من التنحنُح على هذا، وتبادلوا النظرات القلقة. " طبعاً، أنا لا أصدِّق هذه القصص. لماذا يرغبُ أكابر أي مدينة في استغلال شعبهم؟ الأجانب، نعم. حتى البلاط الإمبراطوري ". ساد صمتٌ تام بعد هذه الملاحظة. " ولكن ليس أمثالكم. لأنكم رجال، ولستم وحوشاً يفترسون أقرانهم الأضعف "

بعد أنْ خفَّفتُ من اضطرابهم، لخَّصتُ بعناية خطّة الكونت فيليكس. وبينما كنتُ أتكلَّم، تحرَّكَتْ شفتاه، مُردِّدةً بصمت معي بدقَّة الحجَج التي كان قد تعلَّمها مني قبل بضع دقائق. ذُهِلَ المواطنون. وحين بثثتُ الرعبَ الكاملَ فيهم، قلتُ " ولكنني أعلمُ أنَّ في إمكاني أنْ أَضعَ ثقتي فيكم لاتّخاذ الإجراء الصحيح ". أطلقوا زفيراً طويلاً على هذا. كانوا جميعاً مرتاحين.

عندئذٍ أجابني حاكم المدينة " في وسعك الاعتماد علينا، يا مولاي، في كل شيء. سوف - وأنا أعلم أنني أتكلَّم بالنيابة عن كل رجل هنا - نثبِّت سعر القمح عند مستواه العادي ، ولكن يجب الأخذ بعين الاعتبار أنَّ هناكَ نقصاً في... "

قاطعته " كم مكيال؟ ". تشاورَ الحاكم برهة مع عدد من الرجال القُساة الوجوه.

" أربعمئة ألف مكيال، يا مولاي "

التفتُّ إلى سالوتيوس. " أرسِل في طلب كالسيس و هيرابوليس. القمح في حوزتهما. اشترِه منهما بالكلفة المعتادة ". رفعتُ بصري إلى ديوكليتيان؛ كان الوجه الثقيل فخماً ولكن ينم عن احتقار؛ كم كان يحتقر الجنس البشري!

حين غادر أهالي إنطاكية، انهالَ فيليكس عليّ. " لقد قمت بالضبط بالتصرُّف الخطأ! أنا أعرفهم أفضل منكَ. سوف يحتفظون بالقمح. سوف يُحدثون مجاعة. وبعد ذلك سيبيعون، وكلما جادلتهم سيقولون لك : ولكن هذه هي الطريقة المُتَّبَعَة دائماً. الأسعار دائماً تعود إلى مستواها المناسب. لا تفعلْ أيَّ شيء. اعتمِدْ على قوانين السوق المعتادة. حسن، عَلِّمْ على كلامي... ". كانت سبّابة فيليكس الطويلة تنشر الهواء أمامي حين تجمَّدَ فجأةً، وارتسمَتْ على وجهه نظرة دهشة.

سألته " ما الخطب؟ "

نظرَ إليّ بغموض. ثم لَمسَ بطنه. قال " صلصة السمك، أيها الأوغسطوس "، وشحبَ لونه. " ما كان يجب أنْ أقربها، خاصةً في الطقس الحارّ " وهرعَ مُسرِعاً نحو الباب، وهو في حالة انزعاجٍ شديد. أخشى أنَّ سالوتيوس وأنا ضحكنا.

قال " أعتذر، أيها الأوغسطوس، ولكن ثمة ما هو أعظم منكَ يُناديني! ". بهذه الملاحظة الخفيفة غادرنا فيلكس. بعد ذلك بساعة وُجِدَ جالساً على المرحاض، ميتاً. لن أتَّخِذ لي بعد الآن مُستشاراً جيداً في شؤون الضرائب.

بعد ذلك بأسبوعَين رأيتُ أشد الرؤى تشوُّشاً. كنتُ قد ذهبتُ لأصلّي في معبد زيوس على جبل كاسيوس، الموجود في سيليوسيا، ليس بعيداً عن إنطاكية. وصلتُ إلى المعبد قُبيلَ الفجر. كانت الاستعدادات قد تمَّتْ لتقديم الأضحية، ولم أواجه أياً من مظاهر الفوضى التي وجدتها في دافني. كنتُ مُطهَّراً. ارتديتُ العباءة المقدَّسة. وقلتُ ما ينبغي قوله. وجُلِبَ الثور الأبيض إلى المذبح. وحين رفعتُ السكين، أُصبتُ بالإغماء.

عزا عمّي هذا إلى صوم أربعٍ وعشرين ساعة وهو الصومُ الذي يسبق تقديم الأضحية. وكائناً ما كان السبب، أدركتُ فجأةً أنَّ حياتي مُعرَّضة للخطر. لقد تلقَّيتُ تحذيراً. كلا، لم أرَ وجه زيوس أو أسمع صوته، بل تلقَّيتُ تحذيراً أشبه ببحرٍ أخضر قاتم يكتنفني من كل جانب : الموت عن طريق العنف بات قريباً. أعادني أوريباسيوس إلى الوعي، أقحمَ رأسي بين رُكبتَيّ إلى أن عادَ وعيي.

في تلك الليلة، سُمِعَ جنديان مخموران يقولان إنه لا حاجة للقلق بشأن الحملة الفارسية لأنَّ أيامي باتت معدودة. فقُبِضَ عليهما. وكان هناك ثمانية آخرون متورطون. كانوا كلهم من الجليليين أغواهم بقولِ هذا بعضُ المُشاغبين، لم يُعرَف اسمُ أي منهم. كانت الخطة تقضي بأنْ أُقتَل أثناء العرض العسكري في اليوم التالي، ويُنصَّبُ ساوتيوس إمبراطوراً.

أُحرِجَ سالوتيوس أيَّما إحراج بسبب ذلك، لكنني طمأنتُهُ بأنني لم أصدِّق أنه مسؤول عن تلك المؤامرة الرعناء. قلتُ له بكل ودّ، لأنني أحترمه، " كان يمكنكَ أنْ تقتلني بسهولة كبيرة بطرقٍ أشد ذكاءً "

" لا رغبة لدي في قتلك، أيها الأوغسطوس، حتى وإنْ كان السبب الوحيد هو أني سأقتلُ نفسي قبل أنْ أسمحَ لأي شخص بتنصيبي إمبراطوراً "

ضحكتُ. " أنا شعرتُ هكذا ذات مرة. ولكن غريبةٌ هي السرعةُ التي يتغيَّرُ بها الإنسان ". ثم قلتُ له بجدّيةٍ تامة، " إذا مُتُّ، فقد تكون اختياري الشخصي لخلافتي"

" كلا! ". كان عنيفاً في رفضِهِ . " لن أقبل الإمارة حتى من زيوس نفسه "

أعتقدُ أني أصدِّقه. ليس لأنَه متواضع أو لأنه يشعر بأنه ليس أهلاً لذلك، على العكس تماماً. لكنه يشعر حقاً (وقد استشفيتُ ذلك مما لم يقُله) أنَّ هناك نوعاً من - لا أجدُ إلا الكلمة الأشد فظاعة لتصِفَ موقفه - " اللعنة " تحلُّ على الإمارة. وسوفَ يُستثنى منها، كإنسان. لعلّه على حق.

أُعدِمَ الجنود العشرة. واستغللتُ العرضَ العسكري الذي كانَ من المُفتَرَض أنْ أُقتَلَ أثناءه ليكون مناسبةً لأُعلِنَ أني لن أقوم بمزيدٍ من التحقيقٍ في المسألة. قلتُ إني خِلافاً لسَلَفي لستُ خائفاً من الموت المفاجئ على يد خائن. ولماذا أكونُ كذلك وقد تلقَّيتُ إنذاراً من زيوس نفسه؟ " إنَّ الآلهة تحميني. وحين تُقرِّرُ أنَّ عملي قد أُنجِزَ عندئذٍ - وليس قبل ذلك - سوف ترفع حمايتها عني. وحتى ذلك الحين، من الخطر البالغ الاعتداء عليّ ". هذا الخطاب استُقبِلَ بكثير من التهليل، والسبب في ذلك يعود بشكل كبير إلى أنَّ الجيشَ شعر بالارتياح لاكتشافه أني لستُ أحد أولئك الطغاة الذين لا يعرفون الرحمة ويرغبون في توريطِ أكبرِ عددٍ ممكن في أعمالِ الخيانة.

ولكن في حين أنَّ هذه المسألة انتهت على خير، إلاّ أنَّ علاقاتي بذوي المقامات العالية في إنطاكية أخذت تتدهور بسرعة. وبعد مضي ثلاثة أشهر على اجتماعنا حجبوا القمح الذي استوردته بنفسي عن الأسواق ولم يثبتوا الأسعار. وارتفعَت إلى عنان السماء: قطعة صوليدوس ذهبية مقابل عشرة مكاييل. الفقراء كانوا يموتون جوعاً. وأعمال الشغب أصبحت يومية. وشرعتُ في التصرُّف.

قمتُ بتثبيتْ سعر القمح بحيث أصبحَ سعر خمسين مكيالاً منه بقطعة فضيّة واحدة، مع أنَّ السعر المعتاد هو قطعة واحدة مقابل عشرة مكاييل. ولكي أُجبِر التجّار على إخراج مخزونهم من القمح، طرحتُ في السوق ملء سفينة كاملة من القمح أُرسِلَتْ من مصر من أجل استخدام الجيش. فانسحَبَ التجّار إلى الريف، وفرضوا سعرهم المرتفع للقمح على القُرى، مُعتقدين أنني لن أحيط عِلماً بما يفعلون. لكنّهم لم يحسبوا حِساب

آلاف القرويين الذين يتوافدون أفواجاً على المدينة ليشتروا القمح. وانكشفَتْ لعبتهم كلها.

حينئذٍ أصبحتُ أحكمُ بمرسومٍ إمبراطوري وبقوة الجيش. ومع ذلك، وعلى الرغم من تأكّدهم من إجراءاتي التقييدية (التي اعتبروها طبعاً نقطة ضعف) استمرَّ التُجَّار في سرقة الفقراء وفي استغلال ظروف المجاعة التي هم أنفسهم أوجدوها.

مرةً أخرى بعثتُ رسالةً إلى أعضاء مجلس الشيوخ، آمرُ فيها التجَّار بإطاعتي. عند هذه النقطة وجد عديدٌ من أشد أعضاء المجلس ثراءً (أنا الذي عيَّنتُهُم) من المناسب أن أُستجوَبْ عَلَناً حول معرفتي بـ " تعقيدات التجارة ". وأرسلَتْ إليّ نسخة من هذا التعنيف أثناء انعقاد المجلس. وطفحَ كيلي. فأرسلتُ قوات، وأنا في حالةٍ من الحنق، إلى مجلس الشيوخ وألقيتُ القبضَ على كامل الأعضاء بتُهمة الخيانة العُظمى. وبعد ساعة من ذلك، ألغيت الأمر وقد شعرتُ بالخجل من نفسي، وأُطلِقَ سراح الشيوخ.

بعد ذلك انتقل انتقادي ليصبح سرّياً. وراجت أغانٍ فظّة وخُطبٌ لاذعة مجهولة المصدر نُسِخَتْ ووزِّعَتْ. والأسوأ من هذا كله كان الهجوم الماكر الوحشي الذي كُتِبَ بوزن شعري أنيق. وتسلّى الآلاف به. قرأته، وأنا غاضب. هذه الأشياء دائماً تؤذي مهما كان المرء متعوِّداً على الإساءة. نعتوني بالمعزاة المُلتحية (كالمعتاد)، وبذابح الثيران، وبالقرد، وبالقزم (مع أنَّ طولي هو فوق المتوسط)، والمتطفِّل على المراسم الدينية (مع أني الكاهن الأكبر).

بلغ تأثُّري من الشِدّة بذلك الهجوم أني في اليوم نفسه الذي قرأتُهُ كتبتُ جواباً على شكل مقطوعة هجائية عنوانها " كاره اللحية ". كُتِبَتْ وكأنها هجوم مني على نفسي، وصيغَتْ بالأسلوب نفسه الذي كُتِبَ به عمل المؤلِّف المجهول. وتحت سِتار السخرية من نفسي، شرحتُ بوضوح شديد طبيعة نزاعي مع مجلس الشيوخ وشعب إنطاكية، مُبيّناً أخطاءهم، بشكلٍ يُعادلُ انتقادهم الشديد لي. وأوردتُ أيضاً سرداً مفصلاً لما فعله المُضاربون عن عمد لإحداث المجاعة.

أُصيبَ أصدقائي بالرعب حين نشرتُ هذا العمل، لكنني لم أندم أبداً على فعلتي تلك. وقد تمكّنتُ من أنْ أقول عدداً من الأشياء الصحيحة واللاذعة. وقد رأى

بريسكوس أنَّ العمل عادي وأنَّ نشره كارثة. واعترضَ خاصةً على اعترافي بأني مُصاب بالقمل. لكنَّ ليبانيوس شعرَ بأنّي سجَّلتُ انتصاراً أخلاقياً ضد مُنتقديَّ المجهولين.

ليبانيوس : إنني حقاً مُعجبٌ بـ " كاره اللحية " كثيراً. إنها جميلة التأليف، وعلى الرغم من وجود أصداء من عديدٌ من كُتّاب آخرين (وأنا منهم!) فقد وجدتها مُثيرة بوجه عام. إلاّ أنَّ جوليان يُسيء نوعاً ما تقديمي بتلميحه إلى أنني أستحسن العمل وأرى أنَّ أثرَه طيّب. كيف كان يمكنني أنْ أفعل؟ كانت إيماءة جديدة. لم يحدث قبلها أن هاجمَ الإمبراطورٍ شعبه بكُرّاس! بالسيف والنار، نعم، ولكن ليس بالأدب. ولا حدث من قبل أن كتب إمبراطورٌ مقطوعة هجاء بحق نفسه.

لقد ضحكَتْ إنطاكية. أبديتُ أنا وأصدقائي وأقراني من أعضاء مجلس الشيوخ احتجاجنا، وذكَّرتهم بأنَّ صبرَ هذا الإمبراطور غير العادي يمكن أنْ يذهب إلى أبعد مدى. ولكن على الرغم من أنَّ إلقاء القبض على أعضاء مجلس الشيوخ قد أخافهم حتماً، إلاّ أنَّ إبطال الأمر لاحقاً قد أقنَعَهم بأنَّ جوليان مجنون، ولكن بصورة غير مؤذية. وطبعاً لاوجود لمثل هذا الإمبراطور المجنون غير المؤذي، ولكن تحذيراتي المتواصلة تجوهلت. ولحُسن الحظ، استطعتُ أنْ أنقذ إنطاكية من ثورة غضب جوليان، وقد حصلتُ على فضل ذلك في حينه. وطبعاً هذا كله نُسيَ أو شُوِّه بالخبث وأصبحَ بعيداً عن الحقيقة. لا شيء يضيع بسرعة أكثر من تذكُّر العامة للعمل الصالح. ولهذا يُصرُّ العظماء على إقامة تماثيل تذكارية لهم وتسجيل إنجازاتهم بدقّة، لأنَّ الذين أنقذوهم لن يُشرّفوهم في الحياة ولا بعد الموت. على الأبطال أنْ يسهروا على شُهرتهم. فلا أحد غيرهم سيفعل ذلك.

يجب أن أذكُر - بل سأذكُرُ حين أجمع هذه المادة من أجل الطبعة النهائية - أنَّ أعضاء مجلس الشيوخ اقامَ دعوى ضد جوليان. وعلى الرغم من أنَّ قليلاً منهم كانوا من المُضاربين، فإنَّ مُعظمهم لم يستغل ظروف المجاعة. خطأهم الوحيد كان إهمالهم الاستعداد لوقت الشحّ، ولكن لو كانت صفة الإهمال في رجال الدولة إهانة كُبرى لَما بقيَ رأسٌ فوق كَتفَي أي شيخ في العالم. حين قُرئت رسالة جوليان علينا، استُقبلَتْ باحترامٍ جمّ. ولكن اتّفقَ الجميع على أنَّ إسراعه في تخفيض سعر القمح سوف ينتج عنه

نقص أسوأ مما سينتج عن رفعه على يد المُضاربين. وكما اتَّضحَ، كان أعضاء مجلس الشيوخ على حق. فالقمح الذي بيعَ بسعرٍ أقلّ من التكلفة بشكل كبير سرعان ما نفدَ ، والنقص أصبحَ أسوأ من ذي قبل.

أعتقدُ أنَّ جوليان أرادَ أنْ يزيد من شعبيته عند العامة. كان يأمل في أنْ يكسب دعمهم ضد العنصر المسيحي الثري، لكنه فشل. إنَّ شعبنا يمكن شراؤه بسعرٍ رخيص، ولكنه من فرط الطيش بحيث يستمر شراؤه. وأيضاً، أغفلَ خَفْضَ أسعار باقي السلع، إذ أنَّ وسائل الرفاهية هي، في النهاية، مفتاح قلوب الإنطاكيين. ولهذا فشلت محاولته في التحكُّم في الأسعار، تماماً كما فشل ديوكليتيان. ولو أنَّ الكونت فيليكس بقيَ حياً لنجحَت المحاولة، لأنه كان لامعاً جداً في مثل هذه المسائل وظلَّ طوال حياته ينتظرُ أميراً يضعُ نظامه الدقيق في وسائل التحكُّم الاقتصادي موضع التنفيذ. أما أنا فأميل إلى الاعتقاد، بما عندي من عنصرٍ مُحافظ، بأنَّ التضخُّم والنُدرةَ لابد من تحمُّلهما دورياً، وبأنَّ الأمورَ كلها سوف تستقيم بشكلٍ أو بآخر في الوقت المناسب. ولكنْ لا أنا تاجر ولا وكيل مالي... أنا مجرَّد رواقيّ!

وبالمناسبة، كانت لدى الكونت فيليكس طموحاتٌ أدبيّة، ذات مرَّة أمضيت فترة بعد ظهر أحد الأيام ممتعة بصُحبته في دافنى في منزل صديقٍ مُشترَك. قرأ الكونت علينا خلالها مجموعةً مُسلّية جداً من الأشعار حول ما أظنه مباهجَ الزراعة. وهذا غريب لأنه كان ينتمي إلى المدينة بالدرجة الأولى. وأذكرُ أنه قال إنَّ مقالتي "إلى أريستوفان" قد فتحَتْ عينيه على مشهدٍ جديد تماماً لذلك الكاتب الممتاز.

جوليان أوغسطوس.

بعد ظهيرة يوم الثاني من كانون أول بقليل، جاءني رسولٌ حاملاً أخباراً مُرعبة مفادها أنَّ نيكوميديا قد ضربها زلزالٌ جديد . وكل ما كان قد أُعيدَ بناؤه انهار.

حالما سمعتُ النبأ خرجت. كان النهار مُظلِماً وبارداً، ومطرٌ خفيفٌ يهطل. مشيتُ إلى الحديقة حتى شمال مضمار ركوب الخيل، وهناك صلّيتُ لزيوس ولبوزيدون. بقيتُ أصلي طوال النهار، بينما استمرَّ المطر يهطل والرياح الباردة تهبّ. لم أكفّ إلا مع غروب الشمس. وبعد ذلك بيومين علِمتُ أنَّ الارتجاجات قد توقّفَتْ تماماً في اللحظة

التي بدأتُ فيها صلواتي في الحديقة. وهكذا تحولّتْ أسوأ الإشارات فأصبحتُ أفضلها: لا تزال الآلهة تنظرُ بعين التفضيل إليّ، واستجابت لصلواتي.

بعد ذلك بأسبوع أصبتُ بحزنٍ عميق، لكنني لم أُفاجأ، لعلمي أنَّ عمي جوليان قد توفي أثناء نومه. وأسرعَ الجليليون وأعلنوا أنَّ الناصريّ قد صَرَعَه لأنه نقلَ الكنز من بيت الجثث في إنطاكية. لكنَّ مَرضه طبعاً سبقَ ذلك ببضع سنوات. في الحقيقة، لقد دُهشتُ لأنه عاشَ كل ذلك العمر، إذا أخذنا بعين الاعتبار جاذبية مرضه. أستطيعُ فقط أنْ أفترضَ أنَّ أسكليبيوس[115] قد باركه.

لقد كنتُ مولعاً بعمي. كان موظفاً جيداً ومُخلصاً؛ وكان أيضاً آخر صِلة إنسانية لي مع أبويّ. عَيبه الوحيد كان حبَّه الشائعَ للمال. لم يكن يشبع من المال. في الواقع، لقد أفسدَ لقاءنا الأخير شجارٌ صغير حول المزرعة البثينية التي تركها جدّي لي. وقد ثارَ غضبه حين أعطيتُها لصديقٍ فيلسوف، مع أنَّ الأرض لا تساوي واحدة من المزهريات الذهبية التي كان يعرضها في غرفة طعامه. ويبدو أن عيب حب المال قد أخطأني. إذ لم تكن لدي أي رغبة في امتلاك أي شيء. كلا. وحين أُعيدُ التفكير، أجدُ أنني شرِه في مجال حب الكتب. فأنا أرغب في حيازتها. أعتقدُ أنني يمكن أنْ أرتكبَ جريمة لكي أمتلكَ كتاباً. ولكن ما عدا ذلك، أنا خالٍ من ذلك الشغف الغريب الذي يبدو أنه يُصيبُ أغلب الرجال، حتى الفلاسفةَ، وبعضُهم قريبٌ مني.

بريسكوس : هذا تلميحٌ إلى صديقنا ماكسيموس. ففي ذلك الوقت كانَ يقومُ بشراء عقارٍ في إنطاكية بالمال الذي جمعه من بيع المراكز الوظيفية والألقاب. وحين أستعيد ذكرى تلك الأيام، ألعنُ نفسي لأنني لم أجمع بعض الثروة. وخِلافاً لجوليان، أميلُ أنا إلى الجشع، لكنني فخورٌ أيضاً وفرط كبريائي يمنعني من طلب أي شيء من أي شخص. لا أستطيع أن أقبل بسهولة هدية. ومع ذلك أستطيع أنْ أسرق، إذا رأيتُ أنه لن يتم القبض عليّ.

كان عم جوليان رجلاً ودوداً، مع أنه كان يُغالي في الحماس كموظف رسمي. وقد أخبرني ذات مرة أنَّ أخته باسيلينا، أم جوليان، كانت طموحة بشكل شاذ. وعندما كانت حُبلى بجوليان، سألها أي نوع من الحياة تريد لطفلها، فأجابت، " هناك فقط حياةٌ واحدة في انتظار ابني. يجب أنْ يكونَ إمبراطوراً "

كان جوليان يصفُ أمّه (من الشائعات) بأنها كانت شقراءَ تماماً. وقد كانت كذلك فعلاً. ووفقاً لأخيها، كانت مهقاء[116]. وفي إحدى المرات ضاجعتُ فتاةً مهقاء في القسطنطينية. كان لها عينان حمراوان بلون الدم لم أر مثيلاً لهما دهري، كعيني حيوان. والشعر كان أبيض تماماً، حتى شعر العانة. أعتقد أنَّ اسمها كان هيلينا.

ليبانيوس : شيء مُثير!

جوليان أوغسطوس.

في الأول من شهر كانون ثاني عام ٣٦٣، أصبحتُ قنصلاً للمرة الرابعة مع سالوست. طبعاً، صدرَ عدد من الشكاوى، بما أنَّ سالوست لم يكن ذا مرتبةٍ إمبراطورية. ولكنني تجاهلتُ التقاليد. إنَّ سالوست هو ذراعي اليمنى في بلاد الغال. وعيَّنتُ أيضاً روفينوس أراديوس كونتاً في الشرق وملأتُ عدداً من المناصب الرسمية الأخرى، غالبيتها في الغرب. عندئذٍ أصبحتُ مستعداً للحملة الفارسية. انتظرتُ فقط الحالة الجوية.

في غُرَّة شهر كانون ثاني ذهبتُ إلى معبد عبقرية روما لكي أقدِّم الأضحية. هنا، على الدَرَج، تجمع أغلب كهنة المدينة وكبار موظفيها. وبينما كنتُ أكملُ أداء الشعائر، تصادَفَ أني رفعتُ بصري في لحظة سقوط أحد الكهنة من أعلى الدَرَج، ولاحقاً علمتُ أنَّ الكاهن الذي سقط لم يكن فقط أكبرهم سناً بل سقط من أعلى دَرَجة، ومات متأثِّراً من نوبة قلبيّة.

مع هبوط الليل كانت إنطاكية كلها قد فسَّرَتْ ذلك بأنَّ الأعلى مقاماً (الأكبر سناً) في الدولة سوفَ يسقط من مقامه العالي (الدَرَجة العالية)، ميتاً. لذا افترِضَ أنَّ أيامي قد أضحتْ معدودة. لكنني فسَّرتُ النذير بطريقةٍ مختلفة. فالكاهن الميت كان على الدَرَجة الأعلى. ومرتبتنا الأعلى هي القنصل. وهناك قنصلان . والكاهن الميت كان الأكبر سناً. وسالوست يكبرني بسنواتٍ عديدة. فإذا ماتَ أيٌ منا، فإنَّ النذير يُلمِّح إلى أنه سيكون سالوست، وليس أنا. طبعاً الأمر برمّته قد لا يكون له أي مغزى. وربما كان ينبغي عليّ أنْ أُصغي أكثر إلى بريسكوس، الذي لا يؤمن بالإشارات.

بريسكوس : حقاً لا أؤمن! أنا واثق من أنه إذا كانت الآلهة (التي ربما لا وجود

لها) حقاً تريد أن تُكلّمنا، فيمكنها أنْ تجد رسولاً أفضل من كبد ثور أو انهيار كاهن عجوز أثناء أداء المراسم. لكنَّ جوليان كان رجلاً مجنوناً تماماً في هذا الموضوع، يجب أن أعترف بهذا، على الرغم من أني لا أؤمن بالنُذُر، إلاّ أني تأثَّرتُ بعدد الكوارث التي سُجِّلَتْ. ومن بينها : الزلزال الثاني في نيكوميديا، ونشوب النار في المعبد اليهودي، واحتراق معبد أبولّو، وكأنَّ هذه " الإشارات " كلها ليست سيئة بما يكفي، فأرسلَ جوليان إلى روما مَنْ يستشير الكتُب السيبيليّة. وكما نعلم جميعاً، هذه "الكتب " هي حقيبةٌ ذات كُلاّب من الأقوال المأثورة والألقاب التي لا معنى لها، أُعيدت كتابتها في الغالب في لحظات الأزمة. ولكن سواء أكانت زائفة أم لا، فإنَّ رسالتها إليه كانت واضحة : إياك أن تتخطّى حدود الإمبراطورية في هذا العام. أنا لم أسمعه أبداً يُعيد تفسير تلك الجملة. لا أستطيع أنْ أفهم لماذا أسجِّل هذا كله. فأنا لا أؤمن بأي شيء منها، لكنَّ جوليان يفعل، وهذا هو المهم. وهذه الإشارات، سواء أكانت صحيحة أم زائفة، أثَّرَتْ على تحركاته.

كان هناك أمر واحد تافه. ففي يوم مغادرة جوليان لإنطاكية إلى بلاد فارس، وقعَ زلزال هزَّ القسطنطينية. وقلتُ لماكسيموس إنه إذا أخبر جوليان بما حدث، فسأقتله. وحسب علمي، لم ينطق بأي كلمة.

جوليان أوغسطوس.

في أواخر شهر شباط أكملتُ خُطط حملة بلاد فارس. أبلغَت الفيالق بأننا سنتحرَّك شرقاً خلال الأسبوع الأول من شهر آذار. وبعثتُ أيضاً رسالةً إلى طرسوس، أُعلِمُ فيها الحاكم أنَّ مدينته ستكون مقرّي الشتوي، بما أني لن أعود إلى إنطاكية. وسرعان ما عرف مجلس شيوخ إنطاكية بأمر رسالتي الخاصة التي بعثتُها إلى الحاكم وشعر أعضاؤه بندمٍ شديد. ألن أراجعَ نفسي؟ لن أفعل. وهكذا أصبحت جاهزاً للرحيل ، بروحٍ عالية، ما عدا أنَّ أوريباسيوس، الذي أُصيبَ فجأةً بالحمى، لم يتمكَّن من مرافقتي. كانت هذه ضربة موجعة. ولكن سوف أراه في وقتٍ لاحق من العام في طرسوس.

في اليوم السابق لرحيلي عن إنطاكية، قابلتُ أخيراً ليبانيوس. ربما كانت معرفتي بهذا الرجل الحكيم هي التجربة الجيدة الوحيدة لي في تلك المدينة الفظيعة. لم يتمكَّن

من حضور حفل العشاء التي أقمته في الليلة السابقة، بسبب معاناته من داء النقرس. ولكن في اليوم التالي شعرَ بشيء من التحسُّن واستطاعَ أنْ ينضمَّ إليّ بينما كنتُ أتدرَّب في مضمار الخيل.

كان أول يوم ربيعي. الهواء دافئ، والسماء زرقاء ضبابيّة، وتباشير الأزهار صغيرة لكنها مفعمة بالحياة بين أعشاب الشتاء. كنتُ أتدرَّب على استعمال السيف مع أرينثيوس ومع أننا كنا قد باشرنا التدرّب ونحن ببزّة الشتاء الكاملة، فمع وصول ليبانيوس وانضمامه إلينا، كنا نِصفَ عرايا ونتصبَّبُ عرقاً بغزارة في الشمس.

جلسَ ليبانيوس بهدوء على كرسي بلا ظهر بينما كنَّا نتبادل الضربات. كان لأرينثيوس جسد إله وأشد رشاقة من جسدي، لكنَّ ذراعيَّ أقوى من ذراعيه، لذا كنا مُتكافئين. ثم إنّ من غير الممكن إنسانياً لمجرَّد آمر في الجيش أنْ يهزمَ إمبراطوراً، حتى في قتال مازح.

أخيراً، سدَّدَ أرينثيوس، مع صرخة مدوّية، ضربةً عنيفةً إلى ترسي مما جعلني أترنَّح متراجعاً. وكاد ينهال عليّ بسيف التدريب الكليل حين رفعتُ يدي بعظمة وقلت "يجب أنْ نستقبل القسطور ليبانيوس "

قال أرينثيوس " كالمعتاد، حين أفوز عليك "، وهو يرمي بأسلحتِه إلى أقرب جندي ليلتقطها. ثم سار الهوينى، لا يرتدي غير السروال الداخلي القصير.

قال ليبانيوس، مُستحسناً، وهو يراقبُ القامة العضلية وهي تغيب داخل الثكنة، " ألسيبيادس[١١٧] الشاب "

تلفَّعتُ بالعباءة، وأنا ألهث. " فلنأمل ألاّ يلجأ إلى الخيانة كما فعل الأصلي ". جلستُ على كرسيِّي القابل للطي. وران صمتٌ طويل. ولما أدركتُ أنَّ لدى ليبانيوس أمراً خاصاً يريدُ أنْ يُفضي به إليّ، أشرتُ إلى الحرَاس كي يبتعدوا إلى حافة مضمار الخيل.

كان ليبانيوس متوتّر الأعصاب بشكلٍ غير متوقَّع. ولكي أهدِّئ من روعه، طرحتُ عليه سؤالاً في الفلسفة. استعادَ هيئته وهو يُجيب. ومع ذلك، مرَّ بعض الوقت قبل أن تواتيه الشجاعة ليقول " أيها الأوغسطوس، لديَّ ابن. في الخامسة. أمه... " وسكتَ، مُحرَجاً.

" أهي جارية؟ "

" بل مُحرَّرة. كانت جارية "

سُررتُ بهذه الدلالة غير المتوقعة على فورة الحيوية عند شخصٍ كنتُ أعتقدُ أنَّ مثل هذه الأشياء قد نُسيَتْ فيه منذ أمدٍ بعيد. لكنَّ ليبانيوس كان يحملُ سمعةً فضائحية في أول عهده بالتدريس في القسطنطينية. كان غالباً يتورَّط مع فتيات صغيرات من عائلات كريمة (ومع فتيان أيضاً)، إذا صدَّقنا مُنافسيه الحاسدين. أنا صدَّقتُ ولم أصدِّق. هناك عادةً بعض الحقيقة في الشائعات، إلاّ إذا كان الأمر يتعلّق بي!

" هذا الصبي - واسمه تشيمون - لا يمكن أنْ أورِّثه طبعاً. وحتى الآن تمكّنتُ من إعالته. ولكن بعد أنْ أموت، لن يبقى له أي مورد، كأي عبد. في الواقع، يمكن أن يُباع في سوق النخاسة إذا لم يجد مَنْ يحميه "

" وتريد مني أنْ أعترف به وريثاً شرعياً لك؟ "

" نعم، أيها الأوغسطوس. إنَّ القانون طبعاً... "

"... واضحٌ وصريح. لا يمكن فعل ذلك. لكنني أستطيع أنْ ألتفَّ حوله بإصدارِ مرسومٍ خاص. قدِّمْ شهادة مكتوبة، وأنا سأقدِّمها بنفسي للمجمع المقدَّس ". وأفاضَ في شكري. لم أكن قد رأيتُ ليبانيوس مُتأثراً إنسانياً؛ كان مشهداً مؤثّراً جداً. عادةً، يكون فيلسوفاً صِرفاً، هادئاً وصريحاً، وشغفه الوحيد هو بالأفكار. أما الآن فهو أب، وتأثَّرت.

ثم تحدَّثنا عن الحملة القادمة. طلبتُ منه أنْ يُرافقني، لكنه رفضَ متعللاً بالضعف واضطررتُ إلى الاتفاق معه على أنَّ رجلاً ضعيف البصر ويُعاني من حالة نقرس حادّة سوفَ يجد الحياة في ساحة القتال مُعذِّبة.

" لكنني أتمنى، يا صديقي العزيز " (الآن بما أنَّ ليبانيوس لم يعُد فرداً من الرعية يسأل فضلاً من الحاكم، تحوَّلَ إلى أستاذ مع تلميذه) " أنْ تُعيد النظر في هذه المغامرة العسكرية "

" أعيد النظر؟ لا خيارَ أمامي. نحن في حالة حرب "

" إننا في حالة حرب مع بلاد فارس منذ سنواتٍ عديدة. ولكنَّ الحربَ لا تعني بالضرورة الغزو في هذا العام "

" لكنَّ النُذُر... "

" النُذُر ليست جيدة. لقد سمعتُ عن الكتب السيبيليّة "

ليس هناك أسرار. أخذتُ أسبُّ بصمتٍ بيني وبين نفسي، متسائلاً مَنْ الذي خانني. لقد حرَّمتُ بصراحة على كهنة روما أنْ يُخبروا أحداً عن الكتب الموصى بها. قلتُ دون مواربة " لقد أعدتُ تأويل النبوءة. ثم إنَّ دلفي وديلوس مفضلان "

هنا أصبحَ رزيناً. " أيها الأوغسطوس، أنا واثقٌ من أنَّكَ ستهزم بلاد فارس. لديَّ إيمان راسخٌ بمصيرك. أنا أتمنى فقط أنْ تستبعد فكرة الرحيل حتى العام التالي. لقد باشرتَ مائة عملية إصلاح. والآن يجب أن تسهر على أنْ تدفعها. وإلا، دمَّرَ الجليليون كل شيء حالما تغيب عن الأنظار. لا يمكنَ أن تسيطر عليهم من ساحة القتال أو حتى من أطلال ستيسيفون "

طبعاً ليبانيوس كان على حق وأنا قلقٌ دائماً، خاصةً الآن، مما يحدث أثناء غيابي. لكنني أخبرتُه بما أعتقد أنه الصحيح : أنَّني كغازٍ لبلاد فارس سوفَ أكون أكثر من أي وقتِ مُرعباً للجليليين، الذين سيرون في انتصاري إشارةً واضحةً إلى فضل السماء عليَّ. وهذه النهاية المفيدة تستحق شيوع فوضى خلال بضعة أشهر في أرض الوطن.

لم يقتنع ليبانيوس، لكنه لم يُضِف أيَّ شيء وانتقلنا للحديث عن شؤونٍ أخرى. وجدتُهُ مُلهِماً، مع أنه كان أيضاً نوعاً ما طويل النَفَس، ما عدا أنَّني في الحديث لا أستطيع أبداً أنْ أستمر في نقاش أي موضوع لفترة طويلة جداً. إنني أنتقل بسرعة من نقطة إلى نقطة، متوقِّعاً مِمَّن يُصغون أنْ يملؤوا الفجوات. وغالباً لا يفعلون. ولكن في الحديث مع ليبانيوس لا وجود لفجوات أو جُملٍ ناقصة. والإصغاء إليه يشبه الإصغاء إلى شخصٍ يقرأ لكَ في كتابٍ طويل جداً، ولكن ما أروعه من كتاب!

بما أني أدوِّنُ هذه الملاحظات بوصفها تاريخاً وأيضاً كتسليةٍ لي، فربما سوف أضعُ أيضاً الأسباب التي سبَّبَتْ نشوب الحرب الحاضرة مع بلاد فارس. إنَّ أحد أخطاء أغلب المؤرخين هي أنهم يقبلون كثيراً من الأشياء على علاّتها. إنهم يفترضون أنَّ القارئ يجب أن يعرف الأمور العامة التي يعرفونها؛ لذلك، هم يُخبرون فقط الأشياء غير العادية، والتفاصيل تؤخذ من الأرشيف ومن الأحاديث الخاصة. ومن المُحبِط قراءة أغلب التاريخ، لأنَّ المرء يمكن أنْ يرى المؤرخ مرات عديدة وهو يقترب من شفا تفسير

حقيقةٍ هامة ومن ثم يُحجم عن ذلك خوفاً من إثارة الضجر؛ الجميع يعلمون هذا، والمؤلف يقول لنفسه، ولِمَ أبعثُ الضجرَ في نفس القارئ (وفي نفسي) بأنْ أحكي له ما يعرفه أصلاً..؟

أما إذا كان المرء يكتب لكي يُقرأ بعد مائة عام أو إذا حالفه الحظ (وبقيَ مُهتماً بالعصر الذي يعيشه)، حتى بعد ألف عام، مثل هومر العظيم، فكل تلك الأشياء التي نغالي في قبولها على علاّتها اليوم سوف تصبح مجهولة تماماً لِمَنْ سيأتي من بعدنا. لذا علينا أنْ نشرح الأشياء التي يعرفها كل تلميذ مدرسة يعيش الآن. فمثلاً، الكل يعلمُ أنَّ قسطنتيوس لم يكن يأكل الفاكهة، ولكن من المُحتمَل أنَّ أي شخص سوف يعلم هذا - أو يهتم به - في القرن القادم؟ لكنها نقطة تُقال عنه، وتستحق الاستكشاف على أسس دينية.

أعترفُ بأني أنطوي على بعض الأمل بأنْ أُقرأ في المستقبل، ليس بسبب أسلوبي الأدبي الفني غير الجدير بالاهتمام ولا بسبب إنجازاتي (مع أني آمل أنْ تكون عظيمة)، وإنما لأنني إمبراطور وأنوي أن أكون نزيهاً. إنَّ مثل هذه السيَرِ الذاتية لا تساعد بل تُثيرُ الاهتمام. وماركوس أورليوس مثالٌ ساطع على ذلك. لكنَّ المذكّرات الأخرى التي وصلتنا أيضاً مُثيرة للاهتمام، خاصةً وقائِع يوليوس قيصر ومذكَّرات أوكتافيان أوغسطوس الفاتنة، إذا اعتبرناها مذكرات. حتى سيرة حياة تيبريوس غير المُتقنة هي مُثيرة للاهتمام، خاصةً هجومه على سيجانوس...

ها أنا ذا! أضلُّ عن الموضوع. إنني أطلب عذر سكيرتيري المسكين، الذي يكاد لا يستطيع أن يُبقي عينيه مفتوحتين أثناء كلامي، أسرع فأسرع، ذلك أنني حين ينالني التعب غالباً أمرٌّ بأشد لحظات التنوير غرابة. وفي مثل تلك اللحظات تكون الآلهة قريبة؛ ويحوّم الحبيب هومر إلى جانبي. ولكن في غمرة اهتمامي بالشكل، سوفَ أقومُ طبعاً بمراجعة كل ما قمتُ بإملائه، حاذفاً الأجزاء التي أمليتُها بشكلٍ مُشوَّش.

إنَّ جيل المستقبل سوف يرغب في معرفة سبب غزوي لبلاد فارس. أنا واثقٌ تماماً من أنَّ هناك كثيرين في هذه اللحظة ممن لا يفهمون ما أحاولُ أنْ أفعله. فمن المُسلَّم به أنَّ علينا أن نحمي حدودنا وأنْ نُضم بين حينٍ وآخر مقاطعات جديدة. وعلى الرغم من أنَّ سالوتيوس والأدباء الذين يُرافقونني يعرفون كيف بدأتْ هذه الحرب، فأنا واثق من

أنه لا نيفيتا ولا أرينثيوس لديه أي فكرة عن سبب حربي على سابور. ولا هما يأبهان. إنهما يعتقدان أنني أسعى إلى النهب ونيل المجد العسكري، لأنَّ هذا ما يريدانه. حسنٌ، إنني لا أخلو من حبٍ حقيقي للمجد الدنيوي - مع أني أستنكره في نفسي - ولكن هذا ليس ما يوجِب شني هذه الحرب. إنَّ بلاد فارس (أو بارثيا كما نُطلِقُ عليها رسمياً تقليداً لأجدادنا) طالما كانت العدو التقليدي لروما. لقد مرَّت علينا أجيال متفرّقة من السلام، ولكن في الغالب كنا في صراعٍ منذ أنْ جَلَبَتْ الحروب ضد ميثراداتس[١١٨] روما إلى حدود بارثيا قبل أربعة قرون.

الحرب الحالية بدأتْ بطريقة تكاد تكون طائشة. وقبل نحو ثلاثين عاماً قام مغامرٌ اسمه ميترادوروس برحلة استكشافية إلى الهند. وقد استقبلَهُ ملك الهند بحفاوة، وحمَّله كثيراً من الهدايا إلى الإمبراطور قسطنتيوس. وبينما أنا أجمع أطراف القصة أتذكَّر أنَّ هذا الميترادوروس كان كذّاباً وماكراً لا مثيل له. وعندما عاد إلى الوطن سلَّمَ قسطنتيوس الهدايا الهندية لكنّه ادَّعى أنها منه إلى الإمبراطور. ثم، خشية أنْ يتساءل قسطنتيوس لماذا لم تصله هدايا من الملك، أعلنَ ميترادوروس أنه كان هناك كثيراً من الهدايا الثمينة، لكنَّ الفرس صادروها على الطريق، باسم سابور.

كتبَ قسطنتيوس، بدافع جشعه من جهة ومن جهةٍ أخرى بدافعٍ سياسيٍّ، إلى سابور طالباً إعادة الهدايا. ولم يتنازل سابور بالرد عليه. فأرسلَ قسطنتيوس رسالة غاضبة أخرى (توجد نُسخٌ منها في المحفوظات المقدَّسة). وأخيراً، أجابَه سابور: طالبه بإعادة بلاد ما بين النهرين وأرمينيا بوصفهما مناطق من حق التاج الفارسي؛ ولم يأتِ على ذِكر أي هدايا. فأعلنَ قسطنتيوس الحربَ على سابور، لكنه مات قبل أن ينزل لقتاله.

خلال معظم فترة حُكم قسطنتيوس، كان سابور خاملاً نسبياً. كان يعاني من مشاكل سياسية في داخل بلده. ولكن في عام ٣٥٨ أرسلَ إلى قسطنتيوس وفداً شديد الغطرسة، وطالبه من جديد بإعادة بلاد ما بين النهرين وأرمينيا. فأُصيبَ قسطنتيوس بالذعر وأرسلَ وفداً إلى ستيسيفون، على رأسه الكونت لوسيلانوس وابن عمي بروكوبيوس. وكان أعضاء وفدنا شديدي الرعب من سابور، ونصحوا قسطنتيوس بإبقاء الوضع على ما هو عليه. ولكن حتى هذا لم يكن ممكناً حين ضربَ سابور حِصاراً حولَ

مدينة أميدا الحدودية، وقادَ جيشه بنفسه؛ وهي، بالمناسبة، طريقة جديدة، لأنه في الأيام السالفة لم يكن الملك العظيم يظهر في ساحة المعركة، لأنَّ حياته كانت تُعتَبَر أشد قداسة من أنْ تُعرَّض للخطر في الميدان.

وسقطَتْ أميدا. كانت هزيمة فادحة للرومان. والمُدهِش في الأمر أنَّ سابور كان رحيماً بالسكان. ومع ذلك، خسرنا مدينةً هامة، وأضحت دفاعات حدودنا ضعيفة بشكل خطِر. وحين خلَفتُ قسطنتيوس. راجعتُ كل أوراقه العسكرية وتحدَّثتُ مع قادته، ولكنني لم أعثُر على أي خطة أعدَّها لدحر سابور. واضطررتُ إلى البدء من البداية. والآن أنا مستعد.

تقوم خطتي على قهر بلاد فارس في غضون ثلاثة أشهر. لا خَيارَ لدي. فإذا فشلتُ فلن يتم أي من الإصلاحات التي عزمتُ على تنفيذها، ولا تستطيع دولتنا أنْ تبقى طويلاً بين تحرّشات الغوط المستمرة على حدودنا في الشمال والفرس في الشرق. أيضاً، وأعترف بصدق، أردتُ أنْ يتبعَ اسمي لقب " بارتيكوس " وأن يُقامَ قوس تذكاري لي في الساحة العامة في روما. لم يكن قد حدثَ منذ أيام الإسكندر أنْ قهرَ يونانيٌ أو رومانيٌ بلاد فارس، على الرغم من أنَّ بعضاً، مثل بومبى، ادَّعى ذلك، بعد إحرازه انتصارات صغيرة. وحلمتُ بمُجاراة الإسكندر. كلا، يجب أنْ أكونَ صادقاً : لقد حلِمتُ في بزِّه! ثم ألسنا واحداً، في كل الأحوال؟ أنا أريدُ الهند. وأريدُ الصين الأبعد منها. وعلى شاطئ ذلك البحر الأحمر القاني في أقصى الشرق، سوفَ أنشرُ راية التنين ليس فقط رمزاً للمجد (مع أنَّ الفكرةَ بحدِّ ذاتها تُسبِّبُ لي الدوار... آه، أين الفلسفةَ الآن؟)، بل لإيصال حقيقة الآلهة إلى كل تلك الأراضي المنحنية نحو الشمس، الإله الذي تتدفَّق الحياة كلها منه. أيضاً، بلاد فارس بالنسبة إليّ أرضٌ مقدَّسة، وهي المنزل الأول لميثراس ولزاردشت. سيكون الأمر بمثابة العودة إلى الوطن، بالنسبة إليّ.

إنني دائماً أحتفظ بسيرة حياة الإسكندر إلى جانبي. ومن العجيب أنَّ عديداً منا استخدموا إنجازات ذلك الشاب الخارق كمعيار قياس لنا. لقد بكى يوليوس قيصر على قبر الإسكندر لأنه، وكان أكبر سناً من الفتى وقت وفاته، لم يكن قد بدأ بغزو العالم. فتحَ أوكتافيان أوغسطوس القبر ونظرَ مُطوَّلاً إلى الوجه المُحنَّط. كان الجسد محفوظ جيداً، كما يُخبرنا في سيرته الذاتية، ويقولُ إنه كان يمكن أن يتعرَّف على

الإسكندر من صوره. كان الوجه، الذابل والبُني اللون بتأثير الموت، يحمل تعبير غضب عارم على الرغم من كل القرون التي تفصل السياسي الحي عن الإله الميت، تعرَّفَ منه أوكتافيان الهادئ للمرة الأولى معنى الخوف، وأمرَ بختم التابوت الحجري. وبعد مرور سنين عديدة، أُعيدَ فتحه بأمرٍ من الوحش كاليغولا، الذي سرقَ الترس وغطاء الصدر من القبر وقلّدَ الإسكندر في ملبسه، لكنَّ الشبه توقَّفَ عند ذلك الحد. إنَّ كلاً من خلفائي تاقَ إلى التساوي مع هذا الفتى الميت. ولا أحد فعل. الآن أنا سأفعل!

بريسكوس : ها هي. مذكّرات جوليان. كنتَ حاضراً طبعاً حين غادرَ المدينة في الخامس من شهر آذار. ولا يزال يتردَّد في ذاكرتي صدى أصوات مواطنيك الظرفاء وهم يهتفون " فيليكس جوليان أوغسطوس " ويقصدون بذلك أنه بعد الكونت فيليكس وعمّه جوليان، جاء دور الأوغسطوس في الموت.

سار الجيش شرقاً عبر نهر الفرات إلى كاريه Carrae. هنا قَسَمه جوليان إلى قسمَين. أُرسِلَ ثلاثون ألف رجل تحت إمرة ابن عمه بروكوبيوس والدوق سيباستيان إلى أرمينيا. وهناك كان لديهم موعد مع الملك أرساسس. ومع القوات الأرمنية كجزءٍ مساعد، سوف يحتلون ميديا، ويتوجّهون إلى ستيسيفون وهناك سيلتقون بنا. ومع ما تبقّى من خمسة وثلاثين ألف جندي، انطلقَ جوليان جنوباً على طول نهر دجلة. لكنه كان ماكراً. ففي مناورةٍ مُفاجئة، انقلب عائداً إلى كالينيكوم على نهر الفرات ومن ثم تحرَّكَ مباشرةً إلى ستيسيفون، العاصمة الفارسية، على مسافة أربعمئة ميل جنوباً. تشوَّش سابور بتلك الخدعة. ولكن هذا كله أصبح في ذمة التاريخ. ومن المُتَّفَق عليه عموماً أنَّ جوليان حرَّكَ الجيوش أسرع من أي قائد منذ أيام يوليوس قيصر.

على الرغم من أنَّ جوليان لم تسنح له فرصة صياغة المذكرات، إلا أنني أعتقد أنه كان سيتركها كما هي. كان يكره إعادة الكتابة. وكان يتجنَّب ملء أي فجوة إذا ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وكان في استطاعتي أن أملأ بضع فجوات بخصوص تلك الأيام في إنطاكية، ولكنني أحجمتُ عن ذلك بما أنكَ كنتَ موجوداً هناك أيضاً، وأستطيع أنْ أعتمد على ذاكرتكَ الممتازة. لم يكن حتماً قد انتهى من تاريخ حياته، بقدر ما لم ينتهِ من العيش نفسه. ونوى أن يُدوِّن وقائع الحملة الفارسية والملاحظات التي وضعها خلال تلك الأشهر الأخيرة فاتنة.

آمل ألاّ تكون تعليقاتي المتفرّقة ثقيلة الوطأة. أعتقد أنَّ من المفيد دائماً الحصول على أكبر كمٍ من وجهات النظر ممكن عن الحادثة نفسها، بما أنه لا وجود لحقيقة إنسانية مُطلَقة. يجب أن تكونَ سعيداً بإشارة جوليان الأخيرة إليك. كان شديد الإعجاب بك. لا أفهم ماذا كان يعني حين لقَّبَكَ بـ " طويل النَفَس ". أنتَ فقط مُجتهد. ولكن أعود فأقول: إنَّ جوليان كان في الغالب أشبه بطفلٍ باعُهُ في الانتباه نَزَوِيّ. إنني شديد التوق إلى معرفة ماستفعل بهذه المذكّرات.

بالمناسبة، ماذا حدث لابنك تشيمون؟ هل جعله جوليان ابناً شرعياً لك؟ طبعاً، كلنا سمعنا عن مآثر تشيمون كمحامٍ، لكنني لم أكن أعلم أنه ابنك. إنك مملوء بالمفاجآت "

من ليبانيوس إلى بريسكوس إنطاكية، تموز، ٣٨٠

منذ بضعة أسابيع وأنا أعمل على وضع مقدمة لمذكّرات جوليان، التي آمل أن تضع هذا العمل ضمن إطاره التاريخي المناسب. هل لي أنْ أقول إنَّ ملاحظاتك بالنسبة إليّ كانت ذات قيمة عُظمى - وربما حاسمة؟ في صباح هذا اليوم بالذات بينما كنتُ أراجع الصفحات الأخيرة من العمل، الذي انتهى بتوقُّفٍ تراجيدي، لاحظتُ عبارةً لكَ أفلتت من انتباهي. تقولُ فيها إنَّ جوليان كان يُخطِّطُ لتدوين وقائع حملته الفارسية. ثم تُضيف " إنَّ الملاحظات التي وَضَعَها خلال تلك الأشهر الأخيرة فاتنة ". هل هناك مزيد ؟ لقد اعتقدتُ أنَّ المذكرات هي كل ما تبقّى. أعلِمني، لأنّي لا أطيقُ صبراً على البدء بوضع " الصياغة " النهائية للعمل.

بالأمس عرَّجتُ على صديقي القديم الأسقف ميليتيوس. أنا واثق من أنك تتذكّره، حين زرتني هنا. هو عجوز أكثر منه هشّ، لكنه لا يزال يحتفظ بكل حواسه. وألمحتُ إلى أنني قد أباشر عملاً جديداً عن جوليان، باستخدام المواد التي لم تُنشَر من قبل. وهو يعتقد أنَّ ذلك قد يكون خطأً. قال " إنَّ ثيودوسيوس إسبانيّ "، أعتقد أنه قَصَدَ بهذا أنَّ الإمبراطور يتّصفُ بكل العنف العنيد الذي تحمله تلك السلالة كلها. " وأنْ ترسل إليه مقالة كُتِبَتْ بلباقة " عن جوليان المُنتقم " قيمتها أدبية أكثر منها سياسية هو أَمر " (حسبتُ أنَّ عملي سياسيّ بدرجةٍ عالية) " وأمرٌ آخر تماماً أنْ تتحدّى

الكنيسة، خاصةً الآن بعد أنْ أنقذ المسيح الإمبراطور ". لم أعلم أبداً إن كان ميليتيوس جاداً أم لا. لقد ازداد ميله إلى السخرية مع تقدُّمه في السن حتى إنه يبدو أنه لا يعني أبداً ما يقول.

وأخبرني ميليتيوس أيضاً أنَّ الإمبراطور يتوقَّع أنْ يصلَ إلى القسطنطينية في هذا الخريف. لذا سأنتظر حتى ذلك الحين لأراه. وعلمتُ أيضاً أنَّ غريغوري الخبيث، الذي أصبح أسقفاً الآن، يحثُّ على عقد مجلس مسكوني جديد، ربما في العاصمة. وهناك أيضاً حديثٌ يدور حول أنه يحتال لكي يُنصَّب أسقفاً على القسطنطينية. لقد كانت مسيرته المِهنيّة ناجحة، بلا ريب. على أي حال أمثاله دائماً ينجحون. إنني أقدِّمُ أفضل تمنياتي لزوجتكَ هيبيا، وطبعاً لكَ أنت.

إضافة : توفيَ جوليان قبل أنْ يتمكّن من جعل ابني شرعياً. وبسبب التعصُّب الديني والمثابرة الدائمة للأعداء الأكاديميين، رفضَ أيٌ من خلفاء جوليان أنْ يؤدي هذه الخدمة الإنسانية . وأنا الآن أعقد آمالي - دون كثير من الأمل - على ثيودوسيوس.

من بريسكوس إلى ليبانيوس   أثينا، أيلول، عام ٣٨٠

يجب أن تغفر لي لأني لم أُجِب عن رسالتكَ قبل الآن، ولكنني كنتُ مريضاً. لقد شدَّتْ سكتة دماغية معتدلة جانبَ وجهي نحو الأسفل بشكلٍ سيئ جداً. أنا الآن أبدو أقرب شَبَهاً بأحد آلهة الجحيم، والقرويون يرسمون الشارة لكي يدفعوا عنهم العين الشريرة حين يشاهدونني وأنا أمشي في الطريق متوجّهاً إلى الأكاديمية. ولحُسن الحظ، أنَّ دماغي لم يتأثَّر. وإذا كان قد تأثَّر، فأنا - أيضاً لحُسن الحظ - لا أشعر به. إذن كلّ شيء على ما يرام.

أصبحَ الآن من المؤكَّد أنَّ ثيودوسيوس سيقضي فصلَ الشتاء في القسطنطينية وعليكَ أنْ تذهب لتراه. إنها مجرد رحلة تستغرقُ عشرة أيام. إنه عاقل، كما قيل لي، لكنَّ شفاءه العجائبي من مرضه تركَ أثراً بالغاً عليه. أما إذا كان سيُصدِّق على مشروعك فهذه مسألةٌ أخرى، ولكن لن تخسرَ شيئاً إذا حاولت. لن يأكلك. وكونكَ صديقاً للإمبراطورة في الغرب لن يُضيرك. إنها كتلة من النشاط سياسياً، ويقولُ بعضٌ إنَّ لها يداً في رفع زوجها ثيودوسيوس إلى مرتبة الرداء الأرجواني. استخدمِ

اسمها دون خوف. ولكن لستُ بحاجة إلى نصح قسطور إنطاكية الشهير كيف يعرض قضيته!

نعم، لقد تركَ جوليان كماً هائلاً من اليوميات تصفُ الحملةَ يوماً بيوم. كنتُ أدبّجها بالحواشي وأفكّرُ ربما في نشرها، ولكنني سأحتاج إلى بعضٍ من شجاعتك لأفعل ذلك، لأنَّ هذا العمل أشد خطراً من المذكّرات. لقد كان جوليان يعلمُ كل شيء عن المؤامرة المُحاكة للقضاء عليه؛ كما كنتُ أعلم. وأعلمُ أيضاً ما لم يعلمه، هوية القاتل.

أكادُ أنتهي من وضع الحواشي. وقد أبطأتُ مؤخراً في العمل بسبب إصابتي بالسكتة الدماغية، ولكن آمل أنْ أعاوده قريباً. إذا قرَّرتُ ألاّ أنشرها، فسوف يسرّني أنْ أبيعَكَ العملَ بالسعر نفسه الذي دفعتَه مقابل المذكّرات. إنَّ تكلفة النسخ لا تزال على حالها في أثينا. فإذا كان لابد من وجود أي فرق، فقد ارتفعَت.

آمل ألا يكون بصرك قد ساء؛ ففي سنِّنا لا شيء يتحسَّن. تلميذي غلوكون أبدى ابتهاجه بلقائك في الربيع الفائت حين سلّمني المخطوط، لكنه حزن حين علِمَ بأمر ضعف بصرك. وكان لدى أوريباسيوس طريقة للشفاء من إعتام العين من دون جراحة، لكنني نسيتها. انظُر في موسوعته. لابد أنها موجودة في الطبعة الأخيرة، ولكن إذا لم تكن بحوزتك، فتش عنها في غالن. ربما هو حصل عليها من هناك.

هيبيا ترسل إليك أخلص تمنياتها، كالمعتاد. إنها خالدة. سوف تدفننا جميعاً. وتصبو حتماً إلى أنْ تدفنني. إننا نُبدد كثيراً من الوقت يراقب أحدنا الآخر، كلٌ منا يفكِّرُ مَنْ الذي سيموت قبل الآخر. وقبل أن أُصاب بهذه السكتة الدماغية، كنتُ أعتقد أني على أفضل ما يرام. الآن لم أعد متأكّداً. وقد فرِحتْ كثيراً حين مرضتُ، وابتهجت كطفلة بضعة أيام وهي " تهتم بأمري ".

ليبانيوس : إنَّ بريسكوس، قبل أي شيء آخر، لص. كان اتفاقنا واضحاً. وينصُّ على أنْ أحصل على كل ما تركه جوليان مقابل السعر الأصلي. ثم احتفظَ بالعمل الأهم ولم يعُد أمامي حيال عملية السرقة هذه إلاّ أنْ أدفع الثمن! وأعترفُ بأني أتمنى أنْ تصبح هيبيا أرملة قريباً. إنَّ بريسكوس رجل فظيع!

ها هي اليوميات، كما وعدتكَ. لقد وضعتُ ملاحظاتٍ إضافية، ولكَ مُطلَق الحرية في استخدامها بالطريقة التي تشاء. لقد أصبحتُ أكثر ضعفاً بصورة عامة نتيجة لإصابتي بالسكتة الدماغية، ولكن حتى الآن يبدو أنْ لا ذاكرتي ولا مقدرتي على وصل الجُمَل معاً قد تأثّرا. وبعض من هذه الملاحظات تم إملاؤه، كما ستلاحظ حين سترى خط يد هيبيا الصبياني. إنني أدفعُ لها نقوداً لكي تقبل أنْ تكون سكرتيرتي. إنها مستعدة أنْ تفعل أي شيء مقابل النقود. وحتى يومنا هذا تشجبني لأنني لم أسعَ إلى جمع ثروة، بوصفي صديقاً لجوليان، حين كان ذلك سهلاً كما تعلم جيداً. مع أنَّ ثروتَكَ أنتَ طبعاً جمَعتَها قبل أنْ يُصبحَ جوليان إمبراطوراً. وقد ثار إعجابي في أول زيارة لي لقصرك في إنطاكية وعندئذٍ أخبرتني، بشكلٍ عَرَضيٍ محض، أنك قد أرسلتَ للتو حمولة سفينة من البضائع إلى جزيرة كريت. ما أشد حظ تشيمون لأنَّ لديه أباً ثرياً مثلك! أنا واثق من أنَّ ثيودوسيوس سوفَ يجعله ابناً شرعياً لك.

لقد تحدَّثتُ - بتكتُّمٍ شديدٍ - إلى كثير من المُقرَّبين من البلاط وقد اتفقوا على أنَّ الإمبراطور ربما يوقف نشر أي عمل يُظهِرُ جوليان بصورة مُحبَّبة أكثر مما ينبغي. ولا داعي للقول إنني لم أُعلن عن وجود مذكرات ويوميات معاً. ولكن كان جلياً تماماً أنه إذا علِمَ ثيودوسيوس وأساقفته بأمر هذين العملَين فسيفعلان كل ما يسعهم لتدميرهما، تماماً كما أنهم يجتهدون لتكريس تشويه تاريخ فترة حكم جوليان. إنَّ ميزة القوة أنها تُلفِّق ماضيها الخاص. ويجب محو جوليان أو على الأقلّ إظهاره وحشاً قبل أنْ تولَد الإمبراطوية المسيحية كما ينبغي. إنني لا أنوي أن أبث الإحباط في النفوس، ولكن هذه هي الحقيقة.

يجب أنْ أعترف أنني شعرتُ بالارتياح لإخراج أوراق جوليان من منزلي ووضعها بين يديك البارعتين. إنني أخبركَ بهذا ببساطة لكي أجعلكَ تأخذ حذْرَكَ، لأنَّ أحد الذين تحدَّثتُ معهم بقدرٍ من الإطالة كان الشهير أوسونيوس، ذا الحظوة في البلاط. مدحتُهُ بلا رحمة حين زارنا في الشهر الفائت.

أوسونيوس رجل ضئيل الحجم وجليل يُعطي انطباعاً بالفخامة العظيمة والقوة إلى أنْ يبدأ بالكلام. عندئذٍ تعرف أنه ببساطة واحدٌ منا، أحد الكَتَبَة العصبيين، يتوقُ

بدرجةٍ مُحرجة إلى إثارة الإعجاب. وهو أيضاً يتلعثم. وقد أخبرنا في خطابه لدى استقبال البروقنصل، أنه مسرور لوجوده ضمن مجموعة متميّزة من المفكرين والقُضاة، خاصةً لأنه يحب أنْ يعتبر نفسه " جسراً بين الاثنين ". هززنا ذيولنا بعنف لسماعنا هذا لكي نُظهرَ أننا أحببناه وأردنا وصله. وبعد انتهائه، أمسكَ بذراعي برقّة وأخبرني كم هو مُعجبٌ بي. ماذا كان في وسعي أنْ أفعل غير أنْ أقتطف شيئاً من شعره له؟

" لطالما أُعجبتُ بكَ، يا بببريسكوس، وأنا سسسعيد لأني وجدتُ أنكَ لا تزال على قيد الحياة وبصحة جيدة "

" وأنا كذلك، أيها القنصل ". أشرقتُ في وجه القامة التافهة بردائها القنصلي. ثم مدحتُ كتبه العديدة، وهو مدحَ فترات صمتي. وراقبني الأكاديميون المتوزعون حولي بحسدٍ مُشبِع. ثم، بمهارة، جلبتُ سيرة جوليان إلى الحديث.

عَبَسَ أوسونيوس. " لسنا راضين عنه طبعاً. أبداً. كلا. أبداً "

تمتمتُ بالقول القديم المأثور الذي يدور حول نُدرة السعادة الإنسانية. إنَّ كل مُقتَطَف من سوفوكليس تقريباً له تأثيرٌ مُهدِّئ.

" إنَّ ثيودوسيوس شديد الكره للجسد. شديد الكره. لكنَّها أصرَّتْ "

ذُهِلتُ. " أي جسَد؟ من التي أصرَّتْ؟ "

" جسده. جسد جوليان. لقد نُنُنقِلَ. من طرسوس إلى القسطنطينية. الإمبراطور غراتيان أمرَ بذلك ، أو بعبارة أدددقّ، زززوجته ". كانت حروف الدال والزين والنون هي العوائق الأساسية في اللفظ عند أوسونيوس. وبعد أنْ أخبرتُك بهذا، لن أحاول بعد الآن أنْ أمثِّل طريقته في الكلام.

بعد كثير من البقبقة، عرفتُ أنَّ صديقتكَ الإمبراطورة بوستوما، آخر الفلافيين، أدركَتْ فجأةً أنَّها تشترك في قرابة الدم مع جوليان وأنَّ شرعية المملكة الجديدة تقوم على أساس تلك الحقيقة الهشّة. وهكذا دفَعَتْ بوستوما زوجها غراتيان إلى نقل رُفات جوليان من طرسوس إلى كنيسة الرُسُل المقدسين في القسطنطينية. في هذه اللحظة بالذات يستلقي جثمان جوليان إلى جوار أمّ قسطنطين هيلينا. كم كان كلٌ منهم سيكره تلك المُجاورَة. وعلى الرغم من أنَّ أوسونيوس لم يذكُر ذلك، إلاّ أني أعتقد أنَّ بوستوما وغراتيان معاً يعيان للمرةِ الأولى كم كان جوليان رجلاً عظيماً. لقد أقاما في بلاد

الغال وجوليان بالنسبة إلى أهل الغال هو الإمبراطور الوحيد منذ أيام الأوغسطوس. وقد سمعتُ من كل مَنْ جاء من هناك أنهم لا يزالون يتحدثون عنه بخشية وحب، وأنَّ عامة الناس تعتقد أنه لم يمُتْ حقاً وإنما هو نائم تحت أحد الجبال، يحرسه تنين وطنه، فإذا ما تعرَّضَ الغرب إلى الخطر، فسوف يستيقظ جوليان ويهبّ للدفاع عن الراين. إنَّ القضاء على أسطورته في أوروبا يتطلّب بعض الجهد.

وتحدَّثنا عنك. إنَّ أوسونيوس مُعجَبٌ بك. ومَنْ ليس كذلك؟ لقد أخبرني أنَّ ثيودوسيوس مُعجَبٌ بمقالتك " اللبقة " (!) " عن الانتقام لجوليان "، لكنه يعتبرها كتمرينٍ على الخطابة. أنا واثق من أنَّكَ لم تقصد أن تكون هكذا، ولكن أقترحُ أنْ تسمح بأن يكون النعت الفخم من نصيبك.

" ماذا سيكون الشعور السائد في البلاط إذا ما عمدتُ إلى نشر كتابٍ يتكلّم عن جوليان، ويغطي، فلنقُل، الحملة الفارسية؟ "

انتقى أوسونيوس كلمةً تبدأ بأحد الحروف المُعيقة له فكادَ يختنقُ حتى الموت. وأخيراً أخبرني، بسلسلة من التفجّرات، " مستحيل! إنَّ ثيودوسيوس وغراتيان يعتبرانه شيطاناً. وثيودوسيوس لم يقبل المقالة إلاّ من باب مجاملة ليبانيوس، واحتراماً لسنّه. ولكن لا أكثر. أبداً! طبعاً نحن لا نقصد أن نضطهد الوثنيين "(والـ " نحن " ذكّرَتني بماكسيموس؛ هل كل الأصدقاء الأمراء المنهمكين في العمل يستخدمون كلمة " نحن " بتلك الطريقة الشنيعة؟) " لكننا سوف نزعجهم قدر إمكاننا في ممارستهم للعبادة القديمة. ألم تقرأ المرسومَين الصادرَين؟ سوف يصدر غيرهما. ولن أقول أكثر من هذا طبعاً. ما زال الوقتُ مبكّراً "

" لكنَّ ليبانيوس كان قادراً فعلاً على كتابة دفاع عن جوليان "

" ذات مرة. فقط. وسمعنا أيضاً أنه يُخطِّطُ لتأليف كتاب عن جوليان " (كلا، لم أخبره) " ثَبِّطْ همَّته، كصديق. أيضاً، هناك مسألةٌ خاصة سوف يحب أنْ يعرفها. لستُ مُخوَّلاً بالكشفِ عنها، ولكنه طلبَ منا لتوِّه شيئاً. حسنٌ، إنَّ إحدى اليدين تغسلُ الأخرى، كما يقولون. أخبره بهذا ". أعتقدُ أنَّ هذا يُشيرُ إلى قضية ابنك غير الشرعي تشيمون. على أي حال، هذا جوهر حديثي مع أوسونيوس. ربما تستطيع أنتَ أنْ تخرج بنتيجةٍ أفضل عندما تقفُ وجهاً لوجه مع الإمبراطور.

بدرجةٍ مُحرجة إلى إثارة الإعجاب. وهو أيضاً يتلعثم. وقد أخبرنا في خطابه لدى استقبال البروقنصل، أنه مسرور لوجوده ضمن مجموعة متميّزة من المفكرين والقُضاة، خاصةً لأنه يحب أنْ يعتبر نفسه " جسراً بين الاثنين ". هززنا ذيولنا بعنف لسماعنا هذا لكي نُظهرَ أننا أحببناه وأردنا وصله. وبعد انتهائه، أمسكَ بذراعي برقّة وأخبرني كم هو مُعجبٌ بي. ماذا كان في وسعي أنْ أفعل غير أنْ أقتطف شيئاً من شعره له؟

" لطالما أعجبتُ بكَ، يا بببريسكوس، وأنا سسسعيد لأني وجدتُ أنكَ لا تزال على قيد الحياة وبصحة جيدة "

" وأنا كذلك، أيها القنصل ". أشرقتُ في وجه القامة التافهة بردائها القنصلي. ثم مدحتُ كتبه العديدة، وهو مدحَ فترات صمتي. وراقبني الأكاديميون المتوزعون حولي بحسدٍ مُشبعٍ. ثم، بمهارة، جلبتُ سيرة جوليان إلى الحديث.

عَبَسَ أوسونيوس. " لسنا راضين عنه طبعاً. أبداً. كلا. أبداً "

تمتمتُ بالقول القديم المأثور الذي يدور حول نُدرة السعادة الإنسانية. إنَّ كل مُقتَطَف من سوفوكليس تقريباً له تأثيرٌ مُهدِّئ.

" إنَّ ثيودوسيوس شديد الكره للجسد. شديد الكره. لكنَّها أصرَّتْ "

ذُهلتُ. " أي جسَد؟ من التي أصرَّتْ؟ "

" جسده. جسد جوليان. لقد نُنُنقلَ. من طرسوس إلى القسطنطينية. الإمبراطور غراتيان أمرَ بذلك ، أو بعبارة أدددقّ، زززوجته ". كانت حروف الدال والزين والنون هي العوائق الأساسية في اللفظ عند أوسونيوس. وبعد أنْ أخبرتُك بهذا، لن أحاول بعد الآن أنْ أمثِّل طريقته في الكلام.

بعد كثير من البقبقة، عرفتُ أنَّ صديقتكَ الإمبراطورة بوستوما، آخر الفلافيين، أدركَتْ فجأةً أنَّها تشترك في قرابة الدم مع جوليان وأنَّ شرعية المملكة الجديدة تقوم على أساس تلك الحقيقة الهشّة. وهكذا دفَعَتْ بوستوما زوجها غراتيان إلى نقل رُفات جوليان من طرسوس إلى كنيسة الرُسُل المقدسين في القسطنطينية. في هذه اللحظة بالذات يستلقي جثمان جوليان إلى جوار أمّ قسطنطين هيلينا. كم كان كلٌ منهم سيكره تلك المُجاورَة. وعلى الرغم من أنَّ أوسونيوس لم يذكُر ذلك، إلاّ أني أعتقد أنَّ بوستوما وغراتيان معاً يعيان للمرةِ الأولى كم كان جوليان رجلاً عظيماً. لقد أقاما في بلاد

الغال وجوليان بالنسبة إلى أهل الغال هو الإمبراطور الوحيد منذ أيام الأوغسطوس. وقد سمعتُ من كل مَنْ جاء من هناك أنهم لا يزالون يتحدثون عنه بخشية وحب، وأنَّ عامة الناس تعتقد أنه لم يمُتْ حقاً وإنما هو نائم تحت أحد الجبال، يحرسه تنين وطنه، فإذا ما تعرَّضَ الغرب إلى الخطر، فسوف يستيقظ جوليان ويهبّ للدفاع عن الراين. إنَّ القضاء على أسطورته في أوروبا يتطلَّب بعض الجهد.

وتحدَّثنا عنك. إنَّ أوسونيوس مُعجَبٌ بك. ومَنْ ليس كذلك؟ لقد أخبرني أنَّ ثيودوسيوس مُعجَبٌ بمقالتك " اللبقة " (!) " عن الانتقام لجوليان "، لكنه يعتبرها كتمرينٍ على الخطابة. أنا واثق من أنَّكَ لم تقصد أن تكون هكذا، ولكن أقترحُ أنْ تسمح بأن يكون النعت الفخم من نصيبك.

" ماذا سيكون الشعور السائد في البلاط إذا ما عمدتُ إلى نشر كتابٍ يتكلَّم عن جوليان، ويغطي، فلنقُل، الحملة الفارسية؟ "

انتقى أوسونيوس كلمةً تبدأ بأحد الحروف المُعيقة له فكادَ يختنقُ حتى الموت. وأخيراً أخبرني، بسلسلة من التفجّرات، " مستحيل! إنَّ ثيودوسيوس وغراتيان يعتبرانه شيطاناً. وثيودوسيوس لم يقبل المقالة إلاّ من باب مجاملة ليبانيوس، واحتراماً لسنّه. ولكن لا أكثر. أبداً! طبعاً نحن لا نقصد أن نضطهد الوثنيين "(والـ " نحن " ذكَّرَتني بماكسيموس؛ هل كل الأصدقاء الأمراء المنهمكين في العمل يستخدمون كلمة " نحن " بتلك الطريقة الشنيعة؟) " لكننا سوف نزعجهم قدر إمكاننا في ممارستهم للعبادة القديمة. ألم تقرأ المرسومَين الصادرَين؟ سوف يصدر غيرهما. ولن أقول أكثر من هذا طبعاً. ما زال الوقتُ مبكِّراً "

" لكنَّ ليبانيوس كان قادراً فعلاً على كتابة دفاع عن جوليان "

" ذات مرة. فقط. وسمعنا أيضاً أنه يُخطِّطُ لتأليف كتاب عن جوليان " (كلا، لم أخبره) " ثبِّطْ همَّته، كصديق. أيضاً، هناك مسألةٌ خاصة سوف يحب أنْ يعرفها. لستُ مُخوَّلاً بالكشفِ عنها، ولكنه طلبَ منا لتوِّه شيئاً. حسنٌ، إنَّ إحدى اليدين تغسلُ الأخرى، كما يقولون. أخبره بهذا ". أعتقدُ أنَّ هذا يُشيرُ إلى قضية ابنك غير الشرعي تشيمون. على أي حال، هذا جوهر حديثي مع أوسونيوس. ربما تستطيع أنتَ أنْ تخرج بنتيجةٍ أفضل عندما تقفُ وجهاً لوجه مع الإمبراطور.

إذن هذه هي اليوميات. بعضها مُلغَّز. وهناك كثير من الثغرات. وقد حاولتُ أنْ أملأها بأكبر قدرٍ ممكن من القطع المفقودة . ومنذ أسابيع وأنا أستعيد ذكرى ذلك الوقت العصيب ومذهولٌ أمام مقدرتي على تذكُّر متى سخَّرتُ ما تبقَّى من ذاكرتي لأداء المهمَّة.

إنَّ فمي ما يزال ملوياً بشكل مشؤوم لكنَّ بصري وقدرتي على الكلام سَليمان، مما يُدهِشُ الطبيب. كدتُ أقول " يُخيِّب ظن ". إنَّ الأطباء يُحبّون أنْ يحدث انحدار صحة المرء بانتظام وبلا رجعة. كيف حال نقرسك؟ وبصرك؟ إنَّ هيبيبا ، التي كنتَ تقرأ أسلوبها الممتاز في الكتابة، تبعثُ إليكَ بتحياتها (ها هي تبتسم لي ابتسامةً عذبة!)، وأنا أيضاً.

-٢٠-

يوميات جوليان أوغسطوس

كالينيكوم على نهر الفرات، ٢٧ آذار ٣٦٣

أنتظرُ الأسطول. كان يجب أنْ يكون هنا حين وصلنا. كالينيكوم مدينةٌ ثرية، قوية التحصين. معنوياتها عالية. إنني أُملي هذا وأنا اركبُ عربةً إلى النهر. واليوم هو يوم الاحتفال بأمّ الآلهة. هناك احتفالٌ عظيم في روما. أقمتُ واحداً صغيراً هنا. الشمس شديدة الحرارة. الناس يحتشدون حول العربة. أنا أُملي على السكرتير. ألوِّحُ للحشد. أرتدي ملابس الاحتفال. ماكسيموس وبريسكوس يرافقانني. الكهنة المحليون ينتظرون على ضفة النهر. الناس المحتشدون حولي ذوو بشرة داكنة وأذرع طويلة ونحيلة تمتد نحوي كمجسّات كرمة ملتوية. يثرثرون، ويزعقون كما يفعل المصريون.

بريسكوس : هذا هو البند الأول. مُعظم اليوميات مكتوبة بخط يد جوليان. كان في المعتاد يكتب في وقت متأخِّر من الليل، بعد أن يكون قد انتهى من إملاء مذكراته. أذكر هذا اليوم بالذات في كالينيكوم كأحد " الأيام الجيدة ". لقد كانت من القِلّة بحيث أنَّ ذِكرى كلٍ منها لا تزال حيّة نسبياً في ذهني.

لدى وصولنا لإقامة الاحتفال كان هناك بضعة آلاف من الناس يصطفّون على طول الفرات. قليلٌ منهم كان ينطوي على ورع، والغالبية كانت فقط فضوليّة. ونهر الفرات نهرٌ عريض وموحل يجري في بلد متماوج الأرض، ويكون في مثل هذا الفصل أخضرَ نضراً.

تعاملَ جوليان مع المراسم بكفاءته المعتادة. وهذا الأمر التافه يتضمَّن غمر العربة بالماء وغسلها الطقوسي وفي داخلها صورة الإلاهة. وقد نُقِعَ جوليان بالماء تماماً لكنه كان سعيداً بذلك وهو يؤدي واجباته كبونتيفاكس ماكسيموس. ولاحقاً أقامَ لنا حفل

عشاء (إذا كان يمكن اعتبار حبوب البقول المسحوقة، والخبز المحلّي ولحم الطرائد القاسي والطري عشاءً) في منزل الحاكم. وكنا جميعاً مبتهجين.

كما كنتُ قد كتبتُ لك في إحدى رسائلي (على الأقلّ أعتقد أنني كتبتُها : غالباً لا أذكُر في هذه الأيام إذا ما كان شيءٌ ما عنيتُ أنْ أقوله قد قلتُه فعلاً أم لم أقُله)، كان القادة نادراً ما يُشكّلون جزءاً من دائرة جوليان الخاصة. لسببٍ واحد، هو أنهم لا يسهرون حتى وقتٍ متأخِّر؛ في حين أنَّ أرسطو، كما كان الجميل أرينثيوس يقول غالباً، يجعل الجيش يُصابَ بالصداع. ومع ذلك، أولئك الضباط كانوا رجالاً متفوقين؛ وطبعاً ثلاثةٌ منهم أصبحوا أباطرة.

القادة كانوا فئتين. الآسيويون المسيحيون والأوروبيون الهلّينيون. المجموعة الأولى كانت موالية لقسطنتيوس؛ والثانية لجوليان.

أعطيك انطباعي عن القادة الرئيسيين للتسجيل.

الآسيويون

الكونت فيكتور : في المظهر، سارماتي نموذجي، قصير القامة، متقوّس الساقين، كبير الرأس، وذو عينين شاحبتَي اللون ومائلتين كعيون قبائل الهن. يتكلّم اليونانية واللاتينية بلكنةٍ بربرية. مسيحيٌ مخلِص، وكان يمقت بشدّة أصدقاء جوليان من الفلاسفة. لطالما كنتُ أرتابُ فيه.

أرنيثيوس : وقد وصَفَه جوليان. بعد أنْ تلاحظ جماله، لا يبقى هناك كثير لتقوله عنه. هو وفيكتور كانا يقودان المجموعة المسيحية.

جوفيان : رجل ذو قامةٍ طويلة بشكل غير عادي، بل حتى أطول مني ـ أو هكذا كان يمكن أنْ يكون لو أنه وقفَ مرةً باستقامة. كان يُغالي في الأكل والشرب، مع أنَّ وزنه لم يكن يزيد أبداً. كان معروفاً بغبائه، ولا أرى أي سبب لتغيير هذا الحُكم الشائع. جوفيان كان يُقيمُ صلاتٍ جيدة وهذا يُفسِّرُ إلى حدٍ بعيد لحظات مجده الأخيرة. كان والده القائد الشهير فارونيان، وزوجته كانت ابنة الكونت لوسيليانوس الفظيع. وقد سمعتُ مَنْ يقول إنَّ جوفيان عاشَ طفولةً رهيبة، في ظل " ظروف الحرب " إلى أن بلغَ السابعة عشرة. وكان العجوز فارونيان ضابطاً صارماً لا يُحتَمَل. وقد رأسَ جوفيان القوات المحلية.

نيفيتا : كان رجلاً ضخماً، أحمر الوجه، أزرق العينين، ربما في الأربعين من العمر في ذلك الوقت. كان فلاحاً فظّاً أميّاً لكنه جندي جيد ووفيٌّ تماماً لجوليان. ومع ذلك، كنا جميعنا نكرهه. ولصالحه انه هو لم يكن يكره أحداً. لقد كنا غير جديرين باحتقاره.

داغاليف : كان من النوع الودود. قصير وقوي وممتلئ الجسم وأشقر (هل كل الجنود الجيدين شُقر؟ هل نعرض هذه النقطة لكي تُطرح للنقاش لتلامذتنا؟). كان داغاليف يتكلّم اليونانية واللاتينية بشكل ممتاز. وكان فارساً رائعاً ومُعظم ما يتَّصِفُ به جوليان من سرعة خارقة يعود الفضل فيه إلى مقدرة داغاليف على مناورة الرجال والجياد. كان يطلب مني أنْ أزوِّده بلوائح من الكتب ليقرأها. فقد كان توّاقاً إلى أنْ يُصبحَ متحضِّراً. وبعد مرور ثلاث سنوات، حين جُعِلَ قنصلاً، كتبَ لي مقطوعة من المديح، مع عدد قليلٍ بصورة مفاجئة من الأخطاء.

سالوتيوس سيكوندوس : رجل كبير في السن، معتدل. كانت علاقتنا معه ممتازة، على الرغم من أنه لم يكن يتكلّم. فوسط ذلك البحر من الشبان يتقارب أصحاب الشعر الشائب والعضلات العجوز من بعضهم، كوقوع الطيور على أشكالها. وبوصفه حاكماً إمبراطورياً كان يوفِّر كثيراً من التفاصيل المملّة على جوليان. وكان إدارياً ممتازاً ويصلُح أن يكون إمبراطوراً مُثيراً للإعجاب.

من بين حاشية البلاط الآخرين، يجب أنْ أذكُر كبير القيِّمين على المراسم، أناطوليوس، وهو رجل ضئيل الحجم وبدين ولطيف نجحَ في إحداث كثير من الفوضى في موقع يُفتَرَضُ فيه أن يخلق النظام. أيضاً، هناك الكاتب فوسفوريوس، الذي أجبرتْهُ عائلته على الانخراط في مجال الخدمة العامة. وبالموهبة والكدّ وحدهما ارتقى إلى احتلال موقع في المجمع المقدَّس؛ لقد كانت مسيرته المهنية فريدةً من نوعها. وأنا لم أعرف شبيهاً له. أما عن أصدقاء جوليان من الفلاسفة، أنتَ قابلتُهم جميعاً في إنطاكية. الجديد الوحيد عليهم كان الكاهن الأعلى الأتروري ماستارا. كان بالضبط كما يوحي إليك.

أثناء المسير، كنا عادةً نضربُ الخيام عند الغروب. وحالما تُنصَب خيمة جوليان، كنا نتناول طعام العشاء معه، ماكسيموس وأنا، وأحياناً مع أحد الآمرين. في أول

الأمر كان جوليان في حالة نفسية رائعة. كان لديه كل الأسباب التي تجعله كذلك. كان سابور قد أصابه الارتباك من سرعة هجومنا . وكان الطقسُ جيداً؛ والريف غنياً بحقول القمح التي ستُحصَد قريباً. كل شيء كان يبشِّرُ بالخير، ما عدا النُذُر.

كانت خيمة جوليان من النوع البسيط، كبيرةً بالضرورة لكنَّ أثاثها بسيط، لا تحتوي نصف وسائل الراحةِ التي تجدها في خيمةِ أيٍ من قادته. وكما أذكُر، كان هناك طاولتان كبيرتان من النوعِ القابل للطيّ، وعدد من الكراسي القابلة للطي، ومقاعد بلا ظهر، وعدد من الصناديق الكبيرة تحتوي أوراقاً رسمية ومكتبة صغيرة كان جوليان يحرص دائماً على أخذها معه في أسفاره. وكان هناك عِدة مصابيح تقومُ على مناصب ثلاثيّة، مع أنه كان من النادر أنْ يُضاء أكثر من واحد في وقتٍ واحد. وقد تساءلَ جوليان إنْ كان بخيلاً : نعم، كان حقّاً بخيلاً، ولكن بمقارنته بالتبذير الفاحش لأسلافه كان هذا خطأً فاضلاً. وفي إحدى الزوايا، كان سريره المصنوع من جلد الأسد الأسود محجوباً بستارةٍ من السجاد الفارسي المنسوج.

كنا دائماً نجدُ جوليان يُملي حين ندخلُ عليه. فيبتسم ويُشيرُ لنا كي نجلس دون أن يُقاطع سيل أفكاره ولو مرة واحدة. كان يؤدي كماً مذهلاً من العمل، كله تقريباً ضروريٌ. كان يُديرُ كثيراً من الأعمال التي عادةً يُتركُ أمرها للكَتَبَة أو للخصيان. وحين يُرهِق طاقماً من المساعدين، كان يُرسِلُ في طلب طاقم آخر. والكل يشتكون من سرعة إملائه. وهذا صحيح، وكأنه يشكُ في توفُّر ما يكفي من الوقت لتدوين كل الأفكار التي يحملها في عقله. ونحن نعرف حواشيه المشهورة. وما إنْ يضع ختمه على رسالة حتى يعود فيفتحها لكي يُضيف بعض الأفكار المتبقّية بين يديه، مُعتذراً بعبارته المعتادة، " إنني أسرعُ في الكتابة، دون أنْ التقطْ أنفاسي ". وكنا دائماً نرى أصابعه مُلطَّخة بالسواد من الحبر حين نصل لتناول العشاء.

قبل تناول الطعام كان ماكسيموس أو أنا نقرأ على مسمعه هومر ويغسل يديه بإبريق من الفخار العادي، ويُصغي طوال الوقت. والوجبة دائماً بسيطة. ولكن أنتَ تعرف نزواته فيما يخص الأكل. وفي المعتاد أتناولُ عشاءً آخر في وقتٍ متأخِّر من تلك الليلة. وأنا واثق من أنَّ ماكسيموس كان قد أكل. أحياناً كان ينضمُ إلينا سالوتيوس، الذكي بالنسبة إلى قائد مثله، أو أرينثيوس، الذي طالما وجدته مملاً. وبالمصادفة، كان

أرينثيوس موجوداً في أثينا قبل عدّة سنوات. وقد صُعقتُ لدى رؤيته؛ لقد أصبحَ ضخماً وأصلع، وعلى الرغم من أنه لم يكن أحد المُفضّلين لدي، فقد كدتُ أبكي لِما فعله الزمنُ فيه. لكنَّ حديثه، الذي لم يطرأ عليه أي تغيير، منع دموعي. وعندما رآني في حفل استقبال البروقنصل، أطلقَ ضحكةً عالية جوفاء وهتفَ عبر المكان بصوتٍ خشن بتأثير القتال والخمر، " إنَّ صاحبكَ أرسطو لا يزالُ يُسبِّب ليَ الصداع! ". وأخشى أنَّ هذا كل ما تبادلناه من كلام بعد مرور كل تلك السنوات وكل تلك الأحداث.

كما قلتُ، إنَّ الفلاسفة والمحاربين نادراً ما يتآلفون معاً. وتلك الليلة في كالينيكوم كانت إحدى المناسبات القليلة التي يتواجه فيها عالمًا جوليان.

جلستُ في الركن وراقبتُ جوليان وهو يؤدي أدواره المتنوعة. وعند نقطةٍ ما، نتلبَّس جميعنا أقنعة مختلفة مع أناسٍ مختلفين. أمّا جوليان فكان يتغيَّر تماماً مع كل شخص. فمع الجنود الغاليين، أصبحَ غاليّاً خشن الصوت، وعالي الضحك. ومع الآسيويين، كان رقيقاً ولكن شارد، نسخةً أخرى من قسطنتيوس. ولا يعود إلى طبيعته إلاّ بعد أن يجتمع بصديقٍ فيلسوف. طبيعته؟ إننا لن نعرف أبداً أيّهما كان جوليان الحقيقي، العبقرية العسكرية الجافّة أم الطالب الفاتن الذي صَنَعَته الفلسفة. من الواضح أنه كلاهما. ومع ذلك كان من المُزعج مراقبته وهو يُصبح شخصاً غريباً أمام عينيك، وبالتالي بغيضاً.

انضمَّ فيكتور إليّ في الركن. سألني إنْ كان في وسعه أن يجلس. أشرقتُ ببلاهة. لماذا نحنُ جميعاً ننفر جسدياً من الجنود؟ " طبعاً، أيها الكونت ". ارتعشتُ. جلسَ بتثاقُل؛ فاحتْ منه رائحة الخمر لكنه لم يكن ثملاً.

قال " أنتَ بعيد جداً عن الأكاديمية في أثينا "

وافقته. " لكنَّ بلاد الغال كانت أيضاً بعيدةً جداً، ومعركة ستراسبور ". لعنتُ نفسي بصمت لأنني تفاخرتُ بمسيرتي العسكرية. إنَّ الفيلسوف المثالي يُديرُ المحادثة حسب شروطه الخاصة بشكلٍ كامل؛ وهو لا يتنافس أبداً في حقلٍ أجنبي. ولكنني لستُ فيلسوفاً مثالياً. هذا ما يقوله الجميع.

قلتُ " نعم... الغال "، وكأنَّ هذا كاف. لم أستطع أنْ أتكهّن بمزاجه أو بموقفه. صمتنا نحن الاثنين، ونحن نراقبُ ماكسيموس وهو يمارس سحره على عددٍ من الضباط

الشبان بكلامه عن أمرٍ تافه. كانت لحيته المسترسلة مُمشَّطة بعناية وكان يرتدي ثوباً من الحرير الأصفر الزعفراني، هدية من ساحر من الصين، أو هكذا قال. لعله عثر عليه في السوق في إنطاكية.

سألَ فيكتور فجأةً، "هل تستطيع أنْ تجعل آلهتك تظهر للعيان؟ كما يفعل هو؟"، لأنَّ فيكتور لا يرغب في تبجيل ماكسيموس بنُطق اسمه، فتعاطفتُ معه، قليلاً.

قال " كلا، إنَّ الآلهة في الغالب تدعني وشأني. لكنني لا أبذل أي مجهود لمخاطبتها "

" هل تؤمن؟ ". تكلَّمَ بإلحاحٍ مندفع حتى إني التفتُّ لأنظرَ إليه. لم ارَ أبداً مثل تينكَ العينين الباردتين اللتين تُحدِّقان إليّ من تحتِ حاجبَين كثَّين شاحبَين. وكأنني أقفُ وجهاً إلى وجه مع أسد.

" أؤمنُ بماذا ؟ "

" بالمسيح "

من جديد قلتُ لنفسي " أنا أؤمن بأنه موجود. ولكنني لا أنظرُ إليه كإله "

عاد فيكتور من جديد يتكلَّم بلسان الآمر الروماني. قال، وكأنه يتكلَّم عن حالة الطقس، " سوفَ تكون حملةً طويلة . لكننا سننتصر فيها "

جوليان أوغسطوس ٣ نيسان

نحنُ في سيرسسيوم، على مسافة ثمانية وتسعين ميلاً جنوب كالينيكوم. نحن هنا منذ يومين. كل شيء على ما يرام.

في الثامن والعشرين من آذار بينما كنتُ في كالينيكوم، ظهرتْ أربعٌ من القبائل العربية عند بوابة المدينة. أبدى أمراؤهم الرغبة في التحدُّث إليّ. والقبائل العربية من أشرس السلالات في العالم ولا يمكنُ الاعتماد عليها. فهم يعيشون في خيام في الصحراء؛ ولا يبنون أبداً حتى أكواخاً ولا يحرثون الأرض. يتنقَّلون، بلا كلل، في أرجاء صحارى آشور، ومصر، ومراكش. يعيشون على لحم الطرائد، والطيور الكاسرة، وعلى كل ما ينبُت من تلقاء ذاته. قليلٌ منهم يعرفُ مذاق القمح أو الخمر. يُحبّون خوض الحرب، ولكن وِفق شروطهم. وهم جيدون في سرعة الكرّ والفرّ (جيادهم

الصغيرة وجِمالهم تُربَّى خصيصاً لسرعتها)، ولكن بما أنهم يُقاتلون فقط لجمع الغنائم، فلا فائدة تُرجى منهم في التعهدات الرسمية. إنهم الأفضل في مناوشة العدو واستطلاع أنبائه.

لم يُرِد لي سالوتيوس أنْ أقابلهم. " سوف يقدّمون يد المساعدة لك. ثم سيقدِّمون العرضَ نفسه لسابور - هذا إذا لم يكونوا قد فعلوا ذلك حقّاً - ويخونون الطرفَين "

إذن سنأخذ جانب الحَذَر ". لم أكن منزعجاً أبداً.

استقبلتُ الأمراء العرب. إنهم ضئيلو الأجسام، مفتولو العضل، سُمرٌ من تأثير الشمس. يرتدون عباءات كاملة تصل حتى رُكبهم. وتحت عباءاتهم يرتدون فقط سراويل تحتيَّةً من الجلد. ومن بين الأمراء كلهم لم يكن هناك إلاّ واحد يتكلّم اليونانية.

" لقد جئنا، يا مولاي، لنقدِّمَ واجب الاحترام لحاكم العالم ". ثم أشارَ العربي لأحد مرافقيه فأعطاه غَرَضاً ملفوفاً بالحرير. أزال الأمير قطعة الحرير ليكشفَ عن تاجٍ ثقيلٍ من الذهب. ويعلمُ هرمس من أي ملكٍ سلبوه. أخذتُ التاجَ وألقيتُ عليهم خطاباً مُقتضَباً، ردَّ عليه الأمير قائلاً، " يا مولاي، نتمنى أنْ نُحاربَ إلى جانبكَ في حربكَ ضد سابور. إنَّ شجاعتنا مشهودٌ لها في أرجاء الصحراء كلها. وولاؤنا لحاكمنا يفوقُ أكثر بكثير ولاء البشر الذي يُساويه بالإله... ". تنحنحَ سالوتيوس لكنني لم أجرؤ على النظر إليه. " لذلك، يا مولاي، لستَ بحاجةٍ إلى الخوف ونحن إلى جانبك في الصحراء... "

في تلك اللحظة قطعَ نيفيتا علينا اجتماعنا، فأصيبَ أناطوليوس بالرعب. " أيها القيصر، الأسطول وصل! ". وأخشى أننا جميعاً تصرَّفنا كأطفالٍ فرحين. سلَّمتُ أمرَ العرب إلى سالوتيوس، وشققتُ طريقي، يتبعني أعضاء المجمع المقدَّس كلهم، إلى متن السفينة ومن هناك، وعلى امتداد النظر، شاهدتُ النهرَ مملوءاً بالسُفُن. ٥٠ س. ح، ٦٤ ق. ت، ١٤٠٣ س. ت وعلى رأسها د. ل.

بريسكوس : هذا البند يتوقف عند هذه النقطة. والمُختصرات تعني أنّه كانت هناك خمسون سفينة حربية، وأربع وستون قارب تجسير تُستَخدَم لصنع الجسور، وألف وأربعمئة وثلاث سفن تحميل للبضائع تحتوي طعاماً، وأسلحةً، ومسابك للمعادن، وآلات لضرب الحِصار؛ وكان الكونت لوسيليانوس مسؤولاً عن الأسطول. وكما تذكُر

كان آمراً في سيرميوم وقد ألقى داغاليف عليه القبض في منتصف الليل. وعلى الرغم من أنه كان مخلوقاً سخيفاً، إلاّ أنَّ جوليان استخدمه لأنه كان عنصراً هاماً في تلك الشبكة من الرجال والعائلات التي تحكُمُ العالم. وعلى الرغم من ترامي أطراف الإمبراطورية، فإنَّ عدد الحُكَّام الحقيقيين قليلٌ، عائلةٌ متراصّة. كل قائد يعرفُ أو يسمع عن كل قائد آخر، ولا يتحدثون إلاّ عن، " كيف حال العجوز مارتشيلوس؟ ألا يزال مع الزوجة نفسها؟ ألم يحصل على منصبٍ آخر؟ "

لوسيليانوس كان ينتظر على ضفة النهر حين وصل جوليان وأعضاء المجمع المقدَّس. حيّا جوليان بأداءٍ رسميّ لا غبار عليه وسلَّمه بصورةٍ رسمية الأسطول. وفجأةً قال داغاليف، " لوسيليانوس، أين قميص نومك؟ ". ضحكَ الجميع ما عدا جوليان، الذي تمتمَ، " اخرس، داغاليف ". لاحظتُ أنَّ زوجَ ابنة لوسيليانوس جوفيان قد عبَسَ. لم يتسلَّ بما سمع.

جوليان أوغسطوس ٤ نيسان

كنتُ أعملُ مدة ثلاث ساعات على مذكّراتي. الفجر يكاد ينبلج. صوتي أصبحَ مبحوحاً. المساعدون غادروا للتو. دوَّنتُ على عَجَل هذه الملاحظات المتفرقة. لا نزال في سيرسسيوم. إنها مدينة كبيرة، أحسَنَ ديوكليتيان تحصينها. المدينة تشغل مساحة نتوءٍ صخري يقعُ بين نهر الفرات ومصَبّ نهر أبورا في نهر الفرات. والأبورا يُشكِّل الحدود التقليدية بين روما وبلاد فارس. وسيرسسيوم هي آخر قاعدة أمامية . ومن الآن فصاعداً سوف نلجُ أرض العدو.

بقيَتْ القوات تعبر النهر طوال الليل. المهندسون يتذمَّرون لأنَّ النهر يفيضُ بمياه الأمطار. لكنَّ المهندسين دائماً يتذمَّرون. حتى الآن جسرهم العائم لا يزالُ صامداً. والكشّافة لا يبلّغون عن وجود أي أثر لجيش الفرس. يُخبرني العرب أنَّ سابور مندهش لفُجاءة هجومنا. من الواضح أنه لا يتوقَّع وصولنا قبل شهر أيار. مما يعني أنه لم يجمع جيشه بعد. وهذا كله رائع بالنسبة إلينا. لكنني لستُ في أحسن حالات الحيوية والتفاؤل كما يجدرُ بي أنْ أكون. فأولاً، تلقَّيتُ للتو رسالةً طويلة من سالوست في باريس. إنه غير متأثّر بالدلائل المُبشِّرة. ويُناشدني ألاّ أعبر إلى بلاد الفرس. وعلى

غِرار ليبانيوس يتمنى أنْ أبقى في القسطنطينية وأنفِّذ الإصلاحات التي اقترحتُها. وكالمعتاد عرَضَ مسألته بشكل ممتاز، وأنا مُبتئسٌ إلى أقصى مدى.

هذه الليلة صرفتُ الجميع ما عدا ماكسيموس. عرضتُ عليه ما كتبه سالوست، ونوّهْتُ بما أنَّ سالوست نادراً ما يُخطئ عندما يتعلَّق الأمر بالسياسة، فعلينا على الأقلّ أنْ نأخذ هذه النصيحة بعين الاعتبار. وافق ماكسيموس. وأخذ يمدحُ سالوست مُطوَّلاً وتساءلتُ كيف خطرَ لي أنهما ليسا من الأصدقاء. وعلى امتداد ساعة تقريباً ناقشتُ مع ماكسيموس الحملة الفارسية، ما لها وما عليها. واتّفقنا على أنه يجب أن تستمرّ؛ مع أنَّ ماكسيموس أشارَ إلى أنَّه كان هناك عددٌ هائلٌ من الحوادث السابقة لتشكيل جيش ومن ثم عدم استخدامه. قسطنتيوس كان يفعل هذا في كل عام، مؤكِّداً أنَّ تشكيل جيش بحد ذاته أمرٌ رادع؛ ولعله كذلك.

أخيراً قلت " لكنَّ سالوست لا يعرف ما نعرفه "، مُشيراً إلى رؤيا ماكسيموس عن سيبيل.

" وهناك شيء آخر لا يعرفه ". ثبَّتَني ماكسيموس بعينيه المُضيئتين اللتين شهدتا عديداً من الأسرار والأشياء المحرَّمة. " شيءٌ لم أخبركَ حتى أنتَ به "

رانَ صمتٌ طويل. كنتُ أعرفُ ماكسيموس معرفةً كافية فلا أستعجله. انتظرتُ، ودماء القلب تضرب بقوة في أذنَيّ.

نهضَ ماكسيموس واقفاً على قَدَميه. انهارَ الرداء الحريري الأصفر اللون حوله بتضاعيف كهنوتية. وعندما ذبذبَ ضوء المصباح رمى ظِلَّيْن ضخمين على الجدار. شعرتُ باقترابِ قوةٍ ما خارقة، بتلك البرودة المُحذِّرة التي تُشيرُ إلى اقتراب إله. ولكي يطرد الشياطين، رسمَ ماكسيموس دائرة حولنا بعصاه. ثم تكلَّمَ.

" في الليلة الفائتة، في أحلك ساعات الظلام، استدعيتُ من أعماق الجحيم، برسيفون نفسها، ملكة الموتى كلهم الحاليين والقادمين "

خَفَقَ نور المصابيح؛ ورقصَ على الجدار؛ مع أنَّ الليل كان دافئاً، ارتعشتُ بتأثير البرد "

" سألتها السؤال الوحيد الذي يجب ألاّ يُطرَح، ولكن بما أنَّ السؤال لا يخصّني بل يخصّك، ليس أنت بل روما، ليس روما بل عبادة الآلهة، اعتقدتُ أنَّ في استطاعتي أنْ

أطرح هذا السؤال الفظيع دون أنْ أستجلب على نفسي غضب الأرواح المنتقمة، أو أشربكُ خيوط القَدَر "

عرفت السؤال. انتظرتُ. كدتُ لا أستطيع أنْ أتنفَّس. رسمَ ماكسيموم رموزاً وقائية على الأرض، وهو يُغمغمُ بتعاويذ.

" سألتُ : " يا ملكة الجحيم المَهيبة، أخبريني عن المكان الذي سيُلاقي فيه ابنكِ المُخلص جوليان حتفه "

فجأةً سكتَ ماكسيموس. وذهبَتْ يده إلى نحره. اختنقَ؛ تعثَّرَ؛ ولم ينقذه من السقوط إلاّ تشبُّثه بعصاه. كان هناك شيءٌ خفيٌّ يتصارعُ معه. لم آت بحركة لمساعدته مَخافةَ أنْ أكسر قوة الدائرة التي رسمها. أخيراً تحرَّرَ. همسَ،" شياطين. ولكننا نملك القوة الأعظم. هيليوس هو حامينا... قالت برسيفون " بينما يكونُ الرجال كلهم حزينين وكل الآلهة مبتهجة للبطل الجديد القادم إلى الأولمبوس، سيموت ابننا الحبيب في فريجيا "

تلاشى صوت ماكسيموس وكأنما من فرط الإرهاق. جلستُ بسكونٍ تام، باردٌ كموتى الفريجيّ. ثم صفَّقَ ماكسيموس بيديه وقال بصوتٍ عاديّ " نحنُ بعيدون جداً عن فريجيا، يا صديقي العزيز "

ضحكتُ بوهَنْ، من الارتياح. " وإذا قمتُ بالأمور على طريقتي، فلن أضعَ قدمي على تلك المقاطعة مرةً أخرى ". ثم أخبرتُ ماكسيموس أنني سمعتُ الشيء نفسه من سوسيباترا. وقد دُهِشَ أيَّما دهشة. لم يكن يعلم ذلك.

" على أي حال، ها أنتَ ترى الآن لماذا لستُ مُهتمّاً برسالة سالوست. لقد كلَّمتنا برسيفون. وأنت تعرف ما تعرفه قِلة من الرجال، مكان موتك "

" وساعته؟ "

"... مستحيل، لأنَّ ذلك سيكون إهانة للقدر نفسه. لكننا نعرفُ أنكَ ستنجو من الحملة الفارسية. فإذا نجوتَ منها، فهذا يعني أنكَ ستنتصر "

" مثل الإسكندر! ". وباندفاع استعدتُ ثقتي في نفسي. ألستُ الإسكندر الذي عاد من جديد لكي يُنهي العمل العظيم وهو الذي جلبُ حقيقة هيلاس إلى الشرق البربري؟ لا يمكننا أنْ نفشل الآن "

بريسكوس : ذاك هو ماكسيموس في أحسن حالاته، وهذا دليلٌ آخر على أنَّ

سوسيباترا وماكسيموس كانا فريقاً واحداً. كان ينبغي على ماكسيموس أن يُصبحَ ممثلاً. غير أنه كان ممثلاً حقّاً، وكان جوليان هو جمهوره المُخلص.

لا أذكُرُ كثيراً عن سيرسسيوم ما عدا أنَّ مدير التموين أُعدِمَ لأنَّ سفن القمح التي وَعَدَ بوصولها في الرابع من نيسان لم تصل. وبعد تنفيذ حُكم الإعدام بذلك البائس بساعة، شوهدتْ سفن القمح على البُعد. كانت حادثةً مؤلمة وقد حزِنَ سالوتيوس كثيراً الذي أصدرَ حُكم الإعدام كثيراً لما فعله.

عند فجر اليوم التالي، بما أنَّ النوم جافاني، مشيتُ إلى ضفة النهر حيث جلسَ سالوتيوس على كرسي الحاكم الإمبراطوري، بينما كان الجيش يعبر الجسر العائم بإجهاد إلى آشور، كما يُسمَّى جزءٌ من أرض فارس. إنني أذكُر ذلك الفجر البارد وكأنه حدثَ اليوم. الضوء الوردي الباهت في الشرق، نهر أبورا موحلٌ وفائض، والفرسان على الجسر، والخيول تُجفِل، والرجال يسبّون، والأسلحة تقرقع. كان الرجال ينتظرون على امتداد النظر، ودروعهم تلمعُ كنجومٍ مع أول خيوط النور، وأصواتهم مكبوتة بصورة غير طبيعية، وتنطوي على خوف، لأنه كانت قد مرَّت سنون كثيرة منذ أنْ لاحقَ جيش روماني الملك العظيم إلى داخل أرضه.

جلستُ على مقعدٍ بلا ظهر إلى جانب سالوتيوس بينما كان المعاونون يتوافدون عليه على فترات منتظمة: هل يستطيع الفيلق الترتياتشي أنْ يعبُر قبل الفيكتوري الذي لم يكن مستعداً؟ بأي نظام سيتمُّ نقل آليات الحِصار؟ هل سيعبر العرب الآن مع الفرسان أم لاحقاً مع جنود المُشاة؟ كان سالوتيوس يعمل، بصبر، على تنظيم الأمور.

بين فترات توافد المراسلين، كنا نتسامر. سألته بفتور عن رأيه في الحملة. قال بأناقة، " من الناحية العسكرية، ليس لدينا مُبرِّر للخوف من الفرس "، وأشار إلى الفيالق المنتشرة حولنا. " هؤلاء هم أفضل الجنود في العالم، والإمبراطور هو أفضل قائد. سوف نهزمهم في المعارك كلها "

" لكنَّهم يتفادون المعارك. وهذا بَلَدَهم. إنهم يعرفون كيف يتحرَّشون بالعدو "

" ومع ذلك، نحن متفوّقون في القوة. ما عدا... "

" ما عدا؟ ". تفحَّصَ سالوتيوس لائحة الفيالق المستقرَّة في حِجره. كرَّرتُ " ما عدا؟ "

ولكن في تلك اللحظة اقترب قائد المئة، وهو يلعن العرب الذين يُصرّون على العبور في وقتٍ واحد مع الفرسان. " بخيولهم البرية اللعينة تلك! ". هدّأ سالوتيوس من ثورة الرجل، وقدَّمَ حلاً وسَطاً، وفي ذلك الوقت كان أحد الكَتَبَة قد جاء ليُبلغني بأنَّ الإمبراطور يُريدُ مني أنْ أوافيه. لدى مغادرتي، قال سالوتيوس، " خُذْ حِذْرَكَ، بريسكوس. لسنا آمنين ". اتَّضحَ أنه تصريحٌ لم يُعطَ حقَّه.

جوليان أوغسطوس ٦ نيسان

عبرتُ نهر أبورا بعد ظهر الأمس. وبما أني الكاهن الأعلى، قدَّمتُ أضحية لزيوس. كل النُذُر كانت مُبشِّرة ما عدا واحداً: كاد حصاني يطأ جثة الرئيس البحري الذي كان قد أُعدِمَ بأمرٍ من الحاكم الإمبراطوري. لحُسن الحظ، جرَّ أحد مُعاونيَّ الحصان جانباً، حتى كاد يخلعني عن صهوته أثناء ذلك.

بعد ذلك مشينا مسافة خمسة عشر ميلاً تقريباً إلى قرية تُدعى زيثا، وتعني "شجرة الزيتون " بالفارسية. كان النهار بارداً، ومعنوياتنا عالية. وحتى قبل بلوغنا زيثا بأميال استطعنا أنْ نرى نُصُبها التذكاري الرئيسي، الضريح الضخم والفخم والمستدير الذي بُنيَ للإمبراطور غورديان. ففي عام ٢٤٢ قادَ غورديان حملةً ناجحةً ضد الفرس. وبعدها بسنتين قُتلَ على أيدي رجاله الذين أغواهم بالتمرُّد عربيٌ اسمه فيليب أصبح إمبراطوراً – لفترةٍ وجيزة. قصةٌ حزينة، ونموذجية. كم من إمبراطور أحرزَ انتصارات عظيمة وأنقذ الأمة ومن ثم قضى عليه مُنافسٌ غير مُتوقَّع؟ وقد أنزلَ غورديان بالملك الفارسي في ريزينا هزيمةً مُنكرة، ومن ثم قتله فيليب. ونتيجةً لذلك، سرعان ما استُبعِدَ إحرازُ انتصارٍ دائم على الفرس بسبب ذلك العربي الجبان الذي كان كل ما يُريده هو سلب إمبراطوريةٍ كسبها بارتكاب جريمة قتل.

توقَّفنا مدةَ ساعة عند الضريح الذي كان في حالة جيدة لأنَّ الفرس يحترمون النُصُب التذكارية للموتى، بينما كان العرب المُتنقّلون يخشون الأبنية كلها. قدَّمتُ أضحيةً لروح غورديان وصلَّيتُ لكي لا ألاقي مثل مصيره. يجب أنْ أحصل على سيرة حياته. أكاد لا أعرفُ أيَّ شيءٍ عن حياته، ما عدا طبعاً أنه كان صديقاً لأفلوطين. ويقول ماكسيموس إنَّ غورديان لا يزالُ يسكُن هذا الجزء من العالم، يطلُبُ الانتقام له. يا للروح التعيسة!

بينما كنا لا نزال عند الضريح، تنحّى نيفيتا بي جانباً. كان مضطرباً لأنَّ " الرجالَ يعتقدون أنَّ هذه هي المرة الأولى التي يغزو فيها الرومان بلاد فارس. يعتقدون أنَّ..."، وأومأ ليشمل الجنوب كله... " هذا البلد عليه سحر ".

كنا واقفَين في ظل الضريح. مددتُ يدي ولمستُ الحَجَر المساميّ المنحوت بخشونة. "ها هو البرهان على أننا قدمنا إلى بلاد فارس من قبل "

" بالضبط، أيها الإمبراطور. إنهم يقولون إنَّ هذا الإمبراطور العجوز قُتِلَ على أيدي شياطين فُرس لأنه تجرَّأ على عبور نهر أبورا. ويقولون إنَّ البرق ضرَبَه فمات. ويقولون إنَّ بلاد فارس مُحرَّمةٌ علينا "

دُهشتُ. ونيفيتا، الذي لا يخافُ أحداً من الرجال، كان يخافُ الشياطين. كلّمتُه كما يُكلِّمُ معلِّمٌ طفلاً. " نيفيتا، لقد هزمَ غورديان الملكَ العظيمَ في إحدى المعارك قبل مئةٍ وعشرين عاماً. ثم قَتَلَه رجاله. ولا دخلَ للفرس بموته. إنهم ليسوا من الشياطين. إنهم بشر. والبشر يُمكن أنْ يُهزَموا، خاصةً الفُرس. وقد هَزَمْنا الفُرس مراتٍ عديدة من قبل "

كادَ نيفيتا يسأل " متى؟ " لكنه غيَّرَ رأيه. فقبل أي شيء، بوصفِه قنصلاً رومانياً يُتوقَّع منه أنْ يعرف شيئاً من التاريخ الروماني. ولكن حسب عِلمي، هو لم يقرأ في حياته أي كتاب من أي نوع، على الرغم من أنه أثناء الإعداد لهذه الحملة قال لي، بجدّيةٍ تامة: إنه كان يدرس شخصية الإسكندر. وعندما سألته أي سيرة كان يقرأ، قال، كتاب " الإسكندر والساحر الشرير "، وهي رواية شعبية!

طمأنتُ نيفيتا. حدّثتُهُ بانتصارات لوكولوس، وبومبي وفنتيديوس، وتراجان، وفيروس وسيفيروس. ومن الواضح أنَّ هذه الأسماء كان لها بصورةٍ ما جَرْسٌ مألوفٌ وبدا عليه الارتياح. وطبعاً لم آتِ على ذِكرِ هزائمنا. " إذن أخبِرْ جنودنا أنَّ خوفهم من الفُرس هو نتيجة خوف قسطنتيوس من الحرب "

" أخبرهم أنت، أيها الإمبراطور ". نيفيتا هو الرجل الوحيد الذي يُخاطبُني بذلك اللقب العسكري. " إنهم لا يعرفون هذه الأشياء. وهناك كثير من الكلام حول مدى السوء الذي ستصل إليه الأمور "

" الجليليون؟ "

هزَّ نيفيتا كتفيه استخفافاً. " لا أعلم مَنْ الذي نشرَ هذا. ولكنْ هناك كلامٌ يدور. يُستحسن أنْ تُلقي على مسامعهم إحدى محاضراتك في التاريخ ". هذه أقرب نقطة يقترب فيها نيفيتا من الفكاهة في حياته كلها. ضحكتُ لأبيِّنَ له أنني أُقدِّرُ محاولته.

" سوف أتحدثُ إليهم حين نصل إلى دورا ". حيّاني نيفيتا وهمَّ بالمغادرة. استوقفتُهُ.

باشرتُ بالقول " قد يكون ذلك مفيداً... ". ولكن بعد ذلك - لا أدري لماذا - اخترتُ ألاّ أُنهيها. " غداً، نيفيتا "

تركني وحدي في ظل الضريح. كنتُ أنوي أنْ أطلب منه أنْ يعرف مَنْ الذي ينشر الشائعات، لكنني أحجمتُ. لا شيءَ يُدمِّرُ روح أي جيش أسرع من استخدام عملاء سريين واستجوابات منتصف الليل. ومع ذلك، لقد تلقَّيتُ تحذيراً. يجب أن آخذ حِذْري.

انطلقنا إلى دورا. قبل بلوغنا زيثا ببضعة أميال ظهرَ أمامنا فارسان قادمان من الشرق، يحملان شيئاً يتدلّى بينهما. في أول الأمر حسبتُ أنه رجل، ولكن حين اقتربا وجدتُ أنه أسدٌ ميّت من الحجم الضخم. همسَ ماكسيموس بفرح في أذني، " ثمة ملكٌ سيموت في بلاد فارس! ". ولكني كان لديّ تفسيرٌ خاص بي للنذير. أنا أيضاً أحجمتُ عن إعطاء الردّ الواضح : " أي ملك؟ ". ولكن لمّا كان هذا الأسد قد قُتِلَ برِماحٍ رومانيّة فيبدو من المُرجَّح أنَّ الملك الفارسي سابور سيُقتَلُ بأسلحةٍ رومانيّة .

هذا الأسد، بالمصادفة، كان أول أسَدٍ أشاهده عن قُرب في حياتي؛ حتى وهو ميت، كان مُرعباً، وذا أسنان طويلة بطول إبهام يدي وعينين صفراوَين ما تزالان تبرقان بغضب الحياة المتأجِّج. أمرتُ بسلخ جلد الأسد. سوفَ أستخدمه بعد دبغه كغطاءٍ لسريري.

مع تقدُّمنا نحو دورا، تلاشت الشمس، واكفهرَّت السماء، وومض البرق. وقصفَ رعدٌ هائل. نُقِعنا جميعاً بالمطر وأصابنا البردُ، لكننا تابعنا مسيرنا.

قبل حلول المساء، اقترب فيكتور بحصانه مني. " أيها الأوغسطوس، هناك جندي قَتَلَه البرق ". على الرغم من أنَّ فيكتور جليليٌّ فقد كان يهتم كغيره من رجال الجيش عادةً بالنُذُر. " كان الجندي يسقي حصانَين عند النهر حين اندلعَ البرق وقصفَ الرعد. وهمَّ بإعادتهما إلى كتيبته فضربه البرق. ومات من فوره "

" ماذا كان اسمه؟ "

" جوفيان، أيها الأوغسطوس ". تظاهرتُ بأني اعتبرتُ ذلك مجرَّد تفصيلٍ إضافي، قلتُ " ادفنه "، وتابعتُ طريقي. كان ماكسيموس أول مَنْ تكلَّم. " الإشارة مُبهمة. وكون اسمه على اسم ملك الآلهة، الحب العاصف نفسه، لا يعني بالضرورة أنَّ الملك متورِّطٌ ". ولكن لم أصغِ إليه. تركْتُ هذه المسألة للأترورييّن.

نصبنا الخيام في ضواحي دورا، وهي بلدة هُجرَتْ منذ زمن، بيوتها الآجرية تعود ببطءٍ إلى حالة التراب الذي تشكَّلَتْ منه بأيدٍ ميِّتة. كانت الشوارع خالية إلاَّ من قطعان الغزلان. سمحتُ للرجال بذبحِ أكبر عددٍ منها لتؤكل. كان مشهداً مُسلّياً أنْ أرى أفضل رُماة الأقواس والفرسان يركضون في شوارع موحِلة ليلحقوا بغزال كان يفرّ منهم بسرعة إلى النهر، ويسبح إلى الضفة الأخرى. وفي مجرى المياه قتلَ بحّارة السفن عديداً منها بمجاذيفهم.

في تلك الليلة تناولت طعام العشاء من بريسكوس وماكسيموس المؤلَّف من لحم الطرائد الطازج في خيمتي. وبعد ذلك انضمَّ إلينا الكهنة الأتروريون. ورئيسهم رجل عجوز اسمه ماستارا. وفي روما يحترمونه احتراماً فائقاً، حيث كان مُستشاراً لمجلس الشيوخ. وهنا أسجِّلُ سراً أنَّ ماستارا عارضَ هذه الحملة منذ البداية. بل إنه فسَّرَ مقتل الأسد بأنه ليس لصالحي.

في العموم، الديانة الأترورية معروفة جيداً؛ خاصةً بغموضها. ومنذ بداية الزمن، كانت لعبقرية الديانة الأترورية تناغمها الخاص مع قوى الخليقة الطبيعية. وأول وحي معروف للجميع. فقد ظهرَ تاغس، الطفل المقدَّس، في حقل فلاح اسمه تاركون، وأملى عليه كتاباً مُقدَّساً هو أساس ديانتهم. ولاحقاً ظهرَت فيغويا، الإلاهة الشابة، أثناء مراسم تُقام لإله البرق وأعطت الكهنةَ كتاباً ثانياً يحتوي تعليمات حول كيفية تأويل الإشارات السماوية، خاصةً البرق. ووفقاً لهذا الكتاب، السماء مُقسَّمة إلى ستة عشر جزءاً، وكلٌ منها مُقدَّس بالنسبة إلى إله معيَّن (مع أنَّ الإله نفسه قد يؤثِّر أحياناً على جزءٍ لا يخصّه). ويمكن للمرء أنْ يكتشف أيّ إله كشفَ عن نفسه من الجِهة التي ظهر منها البرق، وزاوية قصف الرعد، وطبعاً من المكان الذي قصفَ فيه.

لم يُضيِّعْ ماستارا أي وقت. كان قد باشرَ لتوِّه في تحليل موت الجندي جوفيان.

"أيها الكاهن الأعلى، لقد صدرَ البرق من البرج الفلكي التاسع ". كنتُ أعلمُ معنى هذا حتى قبل أن يُفسّره. " برج آريس. برج الحرب. عند الساعة الحادية عشرة صَرَعَ آريس الجندي جوفيان بجوار النهر إلى الغرب منا. وهذا يعني أنَّ جندياً من الغرب، ملكاً، سوف يُقتَلُ في وقتٍ لاحق من الحرب. إننا الآن نقوم بإسقاطات هندسية لنعرف بدقَّة يوم وساعة موت هذا الملك. وبحلول الغد سنكون قد عرفنا متى سيصبح هذا... التحذير واقعاً "

ها هي. لفَّنا السكون التام بضع لحظات. جلسَ ماكسيموس قبالتي، يده مُشتبكة بلحيته، وعيناه مُغمضتان وكأنه يُصغي إلى صوتٍ داخله. غيَّرَ بريسكوس وضعَ قامته الطويلة على المقعد القاسي. لم يُصدِر الأتروريون أي حركة، وهم مُطرِقون.

أخيراً قلتُ، " الملك يمكن أنْ يكونَ سابور "

" أيها الكاهن الأكبر، إنَّ سابور لا يأتي من جهة الغرب "

" ولا أنا، لنكُن دقيقين ". كنتُ مستعداً للمراوغة كما يفعل الناس دائماً حين تصبح النبوءة ضدَّهم. " أنا أتيتُ من الشمال. الملوك الوحيدون في المنطقة القادمون من الغرب هم الأمراء العرب. وتأويلي الوحيد هو أنَّ أحدهم سيموت في المعركة "

" إذن هل نتابع إسقاطنا، أيها الكاهن الأكبر؟ ". لم يُبدِ ماستارا حِراكاً. لقد كان كاهناً يتكلَّم إلى مَنْ هو أعلى منه مقاماً، صحيحاً، رزيناً، ومطيعاً.

قلتُ بحزم " كلا، لا أرى حاجةً لذلك. ولكن يجب أنْ أطلب منكَ أنْ تسمح للتأويل الثاني - والصحيح - أنْ ينتشر بالقدر نفسه الذي يمكن للجيش أنْ يسمع عن تأويلك الأول "

انحنى ماستارا احتراماً. ورحل هو والكهنة. أطلقَ بريسكوس تلك الضحكة المكبوتة الجافة. " إنني أفهم الآن لماذا كان الأباطرة المُبكرون دائماً يُصرّون على أن يكون كلٌّ منهم الكاهن الأعلى، أيضاً "

" لا أعتقد أني أسأتُ تأويل الإشارة ". ولكن حين أدركتُ أنَّ هذا بدا ضعيف التأثير، تحوَّلتُ طلَباً للمساعدة. فتحَ عينيه. ثم قفزَ واقفاً على قدميه واستدار أولاً نحو الغرب ثم نحو الشمال ثم نحو الجنوب. وقال على عَجَل، " ولا حتى عربي! في أفريقيا. موريتانيا .هناك يوجد الملك الهالك "

تساءلتُ في أول الأمر إنْ لم يكن ماكسيموس يحاول عن عمد أن يرفع من معنوياتي، ولكنه لمّا بقيَ في مزاجٍ مملوء بالحيوية والنشاط طوال ما تبقّى من الأمسية أجدني الآن أصدِّقه. كنتُ قد كتبتُ للتو رسالةً إلى سالوست، أطلبُ منه فيها أنْ يبعثَ إليّ أخبار ملوك موريتانيا.

انبلجَ الفجر. لم أنمْ منذ أربعٍ وعشرينَ ساعة، ولن أنام قبل اثنتي عشرة ساعة أخرى. يجب أنْ نتقدم في غضون ساعة. أسمعُ خادمي كاليستوس خارج الخيمة، يُعطي الحراس كلمة المرور. والآن يجب أنْ أدوِّن بعض الملاحظات من أجل الخطاب الذي سألقيه أمام الجنود اليوم. رأسي فارغ. عينايَ تحرقانني. كيفَ أبدأ؟

بريسكوس : لقد كان الخطابُ ناجحاً. ولو أنَّ جوليان كان مُتعباً، فإنه لم يُظهِره. وبالمصادفة، في وصفِهِ لجلسة استحضار الأرواح تلك مع الأتروريين حَذَفَ ملاحظتي حوله. " ما فائدة الإصغاء إلى المتكهّنين إذا كنتَ لا تؤمن بما يُخبرونكَ به؟ ". لكنَّ جوليان كان يشبه كثيراً المسيحيين القادرين على جعل كتابهم المقدَّس يُصادقُ على كل ما يريدون التصديق عليه.

كان لخطاب جوليان تأثيرٌ طيب. فبأشدّ الأساليب إيجازاً وإقناعاً، شرحَ للرجال كيف أحرزَت الجيوش الرومانية كثيراً من الانتصارات في هذا البلد وحذَّرهم من الإصغاء إلى الانهزاميين، خاصة أولئك الذين بشَّهم الفُرس بيننا، وشدَّدَ على مكرهم وخيانتهم.. وحين انتهى، ضجَّ المكان بهدير الاستحسان. كان الغاليون صخّابين، أما الفيالق الشرقية فلم تكن متحمّسة، خاصةً خيالة فيكتور. وقد ذكرتُ هذا لجوليان لاحقاً. نعم، هو أيضاً لاحظه. " لكنهم لا يعلمون. أما الغاليون فيعلمون. وحين سيحرزون النصر في بضع معارك وينهبون بضعَ مدُنٍ سيحبّون قائدهم ". هذا جوليان الجندي العملي، وليس الإنسانيّ الهلّيني!

جوليان أوغسطوس ١٤ نيسان

ل. أرين، أورم، فر؛ ر. نف. ترت. بت، ك. مش. ج... داغ. فيك. فان. ١٥٠٠ كش؛ باير؛ لوس. أسطول؛ جزيرة أناثا : لوس. ١٠٠٠؟ انتظار. سيب. ميث. هر.

بريسكوس : أعتقدُ أنَّ في استطاعتي أنْ أفسِّر هذا البند. إنَّ جوليان يُذكِّرُ نفسه

بالأوامر العسكرية التي ستصدر إلينا خلال المسير باتجاه الجنوب. إلى اليمين، يقود نيفيتا الفيالق الترتياشي والبتيولانتي والكلتي بالتجول حول ضفة النهر. وفي الوسط يقود جوليان الجزء الأساسي من جنود المُشاة - والحوائج والفلاسفة كانوا أيضاً في المركز. وإلى اليسار - أو الشرق - يقود أرينثيوس وأورميسدا الفرسان. وعلى الرغم من أنَّ أورميسدا كان قائداً لجيش المُشاة، ففي الميدان يقع كثيرٌ من الانتقال السريع جيئةً وذهاباً للضباط ذوي الرُتب العالية. وداغاليف وفيكتور يتوليان المؤخرة، بينما ١٥٠٠ من الكشّافة الراكبين يصطفون في الريف أمامنا. ولوسيليانوس يقود الأسطول الذي يُرافقنا على طول النهر.

" جزيرة أناثا : لوس. ١٠٠٠؟ " تشير إلى أول معقل فارسي وصلنا إليه، وهي جزيرة قوية التحصين تقع في منتصف النهر، بعد مسير أربعة أيام من دورا. أرسلَ جوليان لوسيليانوس مع ألفٍ من الجنود الخفيفي التسلُّح ليتيحوا حدوث رسوٍ ليليٍّ تحت أسوار الحصن. ولما كان هناك أيضاً في تلك الليلة ضبابٌ كثيف أملَ جوليان في مفاجأة الجزيرة. ولكن عند الفجر انقشع الضباب فجأةً وأُرسِلَ جنديٌ فارسي لجلب الماء، وحين شاهدَ رجال لوسيليانوس، أطلقَ صرخة تحذير وكانت تلك هي نهاية هجوم جوليان المُفاجئ.

بعد ذلك ببضع ساعات، عبرَ جوليان إلى الجزيرة. وبعد أنْ ألقى نظرة على الأسوار الهائلة قرَّرَ أنْ يُلغي فكرة الحصار. كان عليه أنْ يستولي على الحصن بوسائل أخرى. وبالمصادفة، كانت تلك هي سياسته خلال الحملة كلها. بين الحدود الرومانية وستيسيفون - مسافةٌ تتجاوز الثلاثمئة ميل - كان هناك عددٌ من المعاقل والمُدُن المُحصَّنة. وكان جوليان يملك القوة التي تخوّله الاستيلاء على أيٍ منها؛ ولكن التكلفة ستكون تأخيراً مقداره أسابيع أو حتى أشهر. ولم يكن يستطيع أن يتحمَّل تلك التكلفة. لذا اختارَ أنْ يعزل الحصون، عالماً أنه حالما يقع الملك العظيم سوف تصبح المُدن كلها له.

بعثَ جوليان بكلمة إلى حاكم أناثا يقول له فيها إنه سيُبقي على حياة أفراد الحامية إذا استسلموا. فطلب الحاكم التفاوض مع أورميسدا. ويصف جوليان هذا في البند التالي.

" انتظر ". هذه الملاحظات دوِّنَتْ في وقتٍ متأخِّر من ليل اليوم الرابع عشر حين كان لوسيليانوس ما يزال مُختبئاً في الجزيرة.

" سيب. ميث. هر "، يعني صلاة : سيبيل، ميثرا، وهرمس "

جوليان أوغسطوس. ١٥ نيسان

استسلمَتْ أناثا! الانتصار الأول لنا على التراب الفارسي. عند الظهيرة، طلبَ حاكم الجزيرة، بوسيوس، إرسال أورميسدا إليه لمناقشة تفاصيل الاستسلام. أعترفُ بأني كنتُ خائفاً وأنا أنتظر نتيجة اللقاء. إذ يمكن لبوسيوس بسهولة أن يقتل أورميسدا. ولكن بعد مرور أقل من ساعة على ولوج أورميسدا الحصن، فُتِحَتْ البوابة على مصراعيها وخرج منها ثور مزيَّن بإكليل من الزهور يقوده كاهن فارسي كدلالة على السلام. وصدر هتافٌ فرح عظيم من فيالقنا. ثم ظهر أورميسدا والحاكم. وبوسيوس رجلٌ ضخمٌ أسمر، مشهور بأنه جندي شجاع، (وأي شيءٍ آخر كان يمكن أنْ يودِعِ داخل ذلك الحصن الهام؟). حيّاني كما كان يمكن أنْ يُحيّى الملك العظيم، مُنبطحاً على بطنه. ثم سألني، ووجهه كله مُعفَّرٌ بالتراب، ماذا أنوي أنْ أفعل بسكان البلدة.

أومأتُ إلى أناطوليوس وكَتَبَته كي ينضموا إلينا. ثم قلتُ " أيها الحاكم، بما أنكَ أبديتَ ودَّكَ لنا وكنتَ شريفاً في معاملاتك، سوف ننقلُ، على نفقتنا، شعبكَ إلى سوريا، إلى مدينة كالسيس، وهناك سيتمكنون من العيش كما كانوا يعيشون هنا "

شكرني بحرارة، وهو يمرِّغ رأسه في القذارة إلى أنْ طلبتُ منه أنْ ينهض. ثم طلبَ بوسيوس مني أنْ أضمّه إلى الجيش الروماني. التفتُّ إلى أورميسدا. " هل أفعل؟ "

إنَّ وجه أورميسدا هو بحرٌ من الإجابات المُرهِفة؛ وبارتعاشةٍ خفيفة من حاجبه أو انتفاخ منخره يستطيع أنْ يتواصل من دون كلام. قال الوجه : حذارِ! وقال الصوت "نعم، ولكن ربما ليس هنا، ربما في حامية في إسبانيا أو مصر ". وهكذا جعلتُ بوسيوس تريبيون وعيَّنته في مصر.

هذا كله حدثَ في الساحة العامة لأناثا، وهي بلدة مبنية من الخشب والقش وقرميد الطمي، بالضبط كأي بلدة أخرى، فارسية أو رومانية، في هذا الجزء من العالم. وبينما نحن نتحدَّث، كان الناسُ يمرّون بنا. النسوة يوازنَّ على رؤوسهنَّ بطانيات ملفوفة وملابس، والرجال يحملون أسلحةً وأواني للمطبخ. وفجأةً اقتربَ منا رجلٌ عجوز وهشّ، تدعمه امرأتان. حيّانا بتحيةٍ رومانيّة وقال بلاتينيّة الجنود : "ماكسيمانوس، جندي مُشاة مع فيلق الزيانيس، يُثبت وجوده ". وقف مُتقلقلاً في حالة انتباه. نظرتُ إليه مُتعجِّباً. " من أينَ أنت؟ مَنْ أنت؟ "

" أنا جندي روماني، قائد. في جيش غاليريوس أوغسطوس "

قال سالوتيوس بفتور، " هذا مستحيل. لقد مرَّ على وفاة غاليريوس مائة عام "

قال العجوز (كان لا يزال يستطيع أنْ يُميِّز حاكماً إمبراطورياً حين يراه)، " كلا، أيها الحاكم، لقد كان غاليريوس موجوداً هنا قبل ستةٍ وستين عاماً. وأنا كنتُ معه. كنتُ في الثامنة عشرة من العمر عندئذٍ. تطوَّعتُ في فيليبوبوليس في ثريس. وقد أحرزنا انتصارات رائعة هنا "

" ولكن لماذا ما تزال موجوداً هنا ؟ ". كان بسهولة أشد ما يمكن طرحه من أسئلة حماقة على رجل في ثمانينات عمره. لكنني كنتُ مغموراً بذلك الأثر الباقي من عصرٍ آخر.

" لقد مرضتُ بالحمى. وحسِبَ التريبيون، ديسيوس - الذي لم أكن على وِفاقٍ معه - أنني سأموت. فتركني هنا مع عائلةٍ قالت إنها ستدفنني بشكلٍ لائق عندما يحين الوقت. ثم غادرَ الجيش ". ضحك، كقوقأة ديكٍ عجوز. " وهكذا، لم يدفنوني حتى الآن. أعتقد أنكَ ترى هذا بوضوح! وهم الذين رحلوا : غاليريوس، وداسيوس، وماريوس... كان صديقاً صدوقاً، ولكنه أُصيبَ بالجُدري... ومات. وهكذا أخذتني العائلة التي أبدتْ رغبتها في دفني وسمّيتُ اثنتين من بناتها. وكلٌ منهما فتاة طيبة. وقد ماتتا الآن. وهاتان هما آخر زوجاتي "، وأشارَ إلى المرأتين اللتين وقفتا، مستعدتان لدعمه إذا ما تعثَّرَ في خطوته. " أيها القائد، سأطلبُ منكَ معروفاً "

قلتُ " لكَ كل ما أستطيع أنْ أعطيه "

" لقد أقسمتُ على أنْ أموت على ترابٍ رومانيّ وأُدفَنَ في أرضٍ رومانية. أعِدني إلى ثريس "

" فليكُنْ، أيها الجندي "، وأشرتُ إلى أناطوليوس كي يرتِّب المسألة. ثم قبَّلَ العجوز يدي فنظرتُ مُتعجِّباً إلى خلفية عنقه المُتغضِّن، المُخطَّط كمخطوط رقّي قديم والمسفوع باشعة شموسٍ لاذعة لما يُقارب قرناً من الزمن. كيف يكون شعور المرء بعد أنْ يعيش كل ذلك الردح الطويل؟ أنهضتْهُ زوجتاه بشيءٍ من الصعوبة على قدميه. كان يتنفَّسُ بمشقَّة من فرط الإجهاد. نظرَ إليّ باستغراب.

" أنتَ حقاً إمبراطور روما، أليس كذلك؟ "

أومأتُ إيجاباً. " أتشكُّ في هذا ؟ "

" كلا، كلا، يا مولاي. لقد أخبروني بأنَّ القائد الروماني هو أيضاً الإمبراطور وذلك حين نصحتُ مجلس البلدة بالاستسلام. فقلتُ " لا فُرصةَ لك بالنجاة، بوجودِ إمبراطورٍ حرّ طليق والملك العظيم هناك، مختبئ في الصحراء، خائفٌ حتى الجنون ". وقلت " الأفضل أن أستسلِم ". ألم أقُلْ، يا بوسيوس؟ "

" نعم، أيها الأوغسطوس، قال هذا "

" هذا المُسمّى بوسيوس متزوِّج من إحدى حفيداتي، مما يجعل منه رومانياً جزئياً. إنَّ الفُرسَ قومٌ طيبون، في الواقع. وأكره أنْ أراهم يتعرَّضون للأذى "

" سوفَ نكون رحيمين قدر ما نستطيع "

" كانت لدي زوجة هنا "، وتلفَّتَ حوله بوقار. ثم وقعَتْ عيناه على راية الزيانيس. " ها هو فيلقي ! يجب أنْ أتكلَّم عن أولئك الشبان. كنتُ أعرفُ آباءهم، أو أجدادهم، في الحقيقة. نعم... ". وانطلقَ في الكلام ولكن، حين تذكَّرَ وجودي، سكتَ. " شكراً لكَ، أيها القائد "

" شكراً لك، أيها الجندي، لبقائكَ مُخلصاً لروما طوال تلك السنوات "

" في الواقع، أيها القائد.... يا مولاي، إنني لا أُتابعُ كثيراً ما يجري في العالم خارج المقاطعة هنا لأنَّ الأخبار نادرة والمتوفِّر منها لا معنى له لأنَّ الفُرسَ كذّابون كِبار. ولا حيلةَ لهم في ذلك، كما تعلم، ولا يقصدون أنْ يُسبِّبوا أيَّ أذى بذلك. هذا هو أسلوبهم. لكنني سمعتُ كلاماً عن إمبراطورٍ عظيم يُسمّونه قسطنطين. هو ليس أنت، أليس كذلك؟ "

" كلا، ولكن كان هناك إمبراطور بهذا الاسم وكان عمي "

" نعم، نعم ". لم يكن العجوز يُصغي. عبسَ، مُحاولاً أنْ يتذكَّر شيئاً. " وكان هناك أيضاً ضابطٌ شابٌ كان معنا في عام ٢٩٧ ... ذو نفوذ، وهذا أيضاً اسمه قسطنطين. كثيراً ما تساءلتُ إنْ كانا شخصاً واحداً. هل تعلم إنْ كانا كذلك؟ "

كان قسطنطين قد خدَمَ فعلاً مدةَ عامٍ واحد مع غاليريوس في بلاد فارس. أومأتُ بالإيجاب. قلتُ " لعلّهما شخص واحد "

" بدا شبيهاً بكَ قليلاً، إلاّ أنه كان حليق الذقن. كان شاباً لطيفاً، لكنَّ أحداً منا لم

يعتقد أبداً أنه سيصبح جندياً، وكان مولعاً بالفتيات وبالحياة الناعمة، ولكن مَنْ منا ليس كذلك؟ "، وتنهدَ برضى. " وهكذا لقد شاهدتُ ثلاثةً من الأباطرة، وسوفَ أموتُ على ترابٍ رومانيّ. وأين هو التريبيون ديسيوس، أسألكَ؟ وهو الذي كان يُعذبني ومن ثم تركني هنا لأموت؟ أين هو؟ مَنْ يتذكَّره، بعد كل تلك السنين؟ لكنني حيّ وكنتُ أتحدَّث مع الإمبراطور، مع جوليان نفسه! وهذا أمرٌ جلل، أليس كذلك؟ والآن بعد إذنك، أيها القائد، أريدُ أنْ أتسامر مع أولئك الشبان الثراسيين؛ لعلَّ أحدهم حفيد لماريوس، مع أنهم يقولون إنه حين يُصاب أحد بالجدري فإنَّ أولاده يولدون ميتين أو ما هو أسوأ من ذلك. لقد كان ماريوس صديقاً لذيذاً "

حيّاني العجوز وقطعَ أرض الساحة ببطء، بمساعدة الزوجتين العجوزين، إلى موقع إقامة راية الزيانيس. وقد تأثَّرتُ كثيراً بذلك اللقاء، مع أنه خاطبني بجوليان!

بعد أنْ غادرَ السكان جميعاً أناتا، أضرمنا النار في البلدة. ثم عدتُ إلى مخيّمنا على ضفة النهر فاستقبلني العرب الذين كانوا قد أسروا لتوّهم عدداً من مقاتلي حرب العصابات الفُرس وهم متلبسون بالإغارة على مؤوننا. نفحتُ العرب نقوداً لأعبِّر لهم عن فرحي، وأخبرتهم أنْ يبقوا يقظين. وسألتهم إنْ كان الأمراء العرب سالمين. فأجابوا: نعم.

نحن في وقت متأخر من الليل. أشعر بنُعاسٍ ممتع. لقاؤنا الأول مع العدو كان كل ما تمنَّيتُ أنْ يحصل. ولولا المطر الهاطل الذي كان يُحوِّل أرض خيمتي إلى طين، لكنتُ راضياً كلّ الرضا.

بريسكوس : المطر في تلك الليلة كان مصحوباً بالرياح. وفي اليوم التالي، في السادسَ عشر من نيسان، عند نحو الساعة الثالثة، ضَرَبَنَا إعصار قادم من الشمال. تمزَّقَتْ الخيام بفعل الرياح، وفاض النهر الذي كان قبلُ ممتلئاً بمياه أمطار الربيع، ودُمِّرَ عددٌ من سفن تحمل القمح. والسدود التي تتحكَّمُ بتدفُّق مياه النهر لتصبحَ أقنيةً للري انهارت، ويشُكُّ بعضهم أنَّ الفُرس هم الذين أغلقوا عن عمد بوابات التحكُّم لكي يُغرقوا مخيَّمنا. ولن نعرف أبداً إذا كانوا هم الذين فعلوا ذلك أم لا. على أي حال، وبعد يومَين رطبين بصورة بائسة، تحرَّكنا.

كان جوليان في مزاجٍ رائق. جميعنا كنا كذلك. الحصن الفارسي الأول أصبحَ لنا وجيش الملك العظيم اختفى. كان الوضع جيداً بدرجةٍ لا تُصدَّق.

انتشرَ جيشنا على امتداد عشرة أميال، وهي الخدعة نفسها التي لجأ إليها جوليان بعد عودته من بلاد الغال، لكي يُعطي الانطباع بأنه مضيف جبّار. كان جوليان إما يمشي على رأس الجيش أو في مؤخرته، وهما الموقعَان اللذان يُرجَّح أنْ يتعرَّضا لهجوم رجال العصابات. لكننا لم نصطدم بالفُرس على مدى أيام. ظلّوا ملتزمين بالضفة المقابلة من النهر، يُراقبوننا. وكلما تظاهرنا بأننا سنعبر إليهم، يختفون في عمق أدغال الأفسنتين. ومع ذلك كانوا يقظين تمام اليقظة. وحين عبر أحد الغاليين - لأسبابٍ تخصّه - النهر، ذُبِحَ ووُضِعَ رأسه فوق عمود طويل على مرأى كامل من جيشنا.

بالمصادفة فقدتُ خيمتي في العاصفة واضطررتُ على مدى ثلاث ليالٍ إلى أنْ أشارك ماكسيموس مسكنه. لم نكن سعيدين ونحن معاً. فمن بين عاداته السيئة، أنه كان يتكلَّم أثناء نومه. ومن الليلة الأولى وجدتُ غمغمته غير مُحتَمَلة وأيقظتُه.

" أنا ؟ أتكلَّم في منامي؟ ". رماني بنظرةٍ مُتعَبة، ولحيته الفضيّة متشابكة كجزّة من الصوف قبل تسريحه ، ووجهه أبله التعبير من نقص النوم. ثم تذكَّرَ نفسه. " ولكن طبعاً كنتُ أتكلَّم. فأثناء النوم أتحدَّث مع الآلهة "

" وعندئذٍ ربما تستطيع أن تتبادل الهمس معها ؟ أنت تُبقيني يقظاً "

" سوف أبذل قُصارى جهدي ". لاحقاً اشتكى لجوليان من أنَّ سُعالي حرمَه النوم! لكنني أكاد لا أسعل أبداً إذا أخذت بعين الاعتبار أنني أُصِبتُ ببردٍ شديد نتيجةً لبللي أثناء العاصفة. وقد تسلّى جوليان كثيراً بفكرة اشتراكنا في مسكن واحد.

جوليان أوغسطوس ٢٢ نيسان ١٧

السابع عشر من نيسان، ثيلوثا، أكياكالكا. الثامن عشر من نيسان، حصن مهجور يُحرَق. العشرون من نيسان، باراكسمالكا عبر النهر على مسافة سبعة أميال من دياكيرا. معبد. قمح. ملح. ينابيع القار. مهجورة. محروقة. إلى أوزوغادانا. مهجورة. نُصِّب لطروادة. يومان في المُخيَّم. الثاني والعشرون من نيسان، محاولة لنصب كمين لأورميسدا. تحذير. الجيش الفارسي يحشد قِواه هذه الليلة.

بريسكوس : ما بين السابع عشر والعشرين من نيسان مررنا بثلاثة حصون-جُزُر.

الأول كان ثيلوثا، وهو قمةٌ جبلية ناتئة نحو الماء بُنيَ فوقها حصن. أرسلَ جوليان رسولاً يأمرُ بالاستسلام. فأعاده الآمر مع جوابٍ شديد الكياسة. قال إنه لن يستسلم، لكنه أقسمَ على التقيُّد بنتيجة حرب الإمبراطور مع الملك العظيم. ولمّا لم يكن في إمكاننا أنْ نُضيّعَ الوقت في ضرب حِصار، قبلنا بجواب الآمر. وفي المقابل، أدَّتْ الحامية التحيّةَ لأسطولنا أثناء مروره من تحت أسوار الجزيرة. الأمر نفسه حدثَ في أكياكالكا، ثاني جزيرة-حصن.

في العشرين من نيسان وصلنا إلى قرية مهجورة اسمها باراكسمالكا. ونزولاً عند اقتراح اورميسدا عبرنا النهر ومشينا سبعة أميال داخل اليابسة إلى دياكيرا، وهي مركز سوق غني. وحين وصلنا المدينة كانت مهجورة. ولحُسن الحظ، كانت المخازن عامرة بالقمح، والأهم من ذلك، بالملح. خارج أسوار المدينة عثر جنود نيفيتا على عددٍ من النساء فقتلوهنَّ. لم يُعجبني هذا. لا أدري إنْ كان جوليان على عِلمٍ بجرائم القتل تلك أم لا. إذ كان لا يعرف الرحمة حين يتعلّق الأمر بإنزال العِقاب بمخالفة الأوامر والخيانة، ولكنه لم يكن قاسياً، خِلافاً لنيفيتا والغاليين، الذين كانوا يُحبون سفك الدم بحدّ ذاته.

أُحرِقَتْ دياكيرا، كما حدثَ للبلدة المجاورة أوزوغاردانا حيث، بالمصادفة، عثرنا على بقايا منبر تراجان. وقد جعلَ جوليان من هذا الأثر مركز المُخيَّم الذي نصبناه.. مكثنا هناك مدة يومَين أثناء تحميل القمح والملح من دياكيرا إلى السفن. وخلال تلك الفترة، كان جوليان مُنشغلاً مع قادته ولم أره أبداً.

رضيتُ بصُحبة أناطوليوس (الذي كان مُسلّياً جداً، خاصةً حين كان يحكي عن محاولاته الفاشلة في أنْ يُصبحَ قيِّمَ التشريفات في البلاط)، وفوسفوريوس المحبوب، وأميانوس مارشيلينوس، الذي كنت قد قابلتُهُ قبل ذلك في منزلكَ في إنطاكية. وقد أُعجِبتُ به كثيراً. قال لي: تقابلنا للمرة الأولى في رايمس حيث كان يؤدي مهمّة مع أحد فيالق أورسيسينوس، مع أني أخشى أنني لا أذكُرُ ذلك اللقاء. وكما تعلم، أميانوس يُدوِّنُ تاريخ روما الذي يُخطِّطُ لكتابته بأسلوبٍ مُعاصر. رجل شجاع! وقبل بضع سنوات أرسل إليَّ نسخة موقَّعة من أول عشرة أجزاء من تأريخه، باللاتينية! لا أدري لماذا اختارَ أنْ يكتبَ بتلك اللغة. على أي حال، هو قادم من إنطاكية، أليس كذلك؟ ويبدو أنَّ لديَّ انطباعاً بأنه ينحدر من عائلة إغريقية كريمة. ولكن حين أعودُ بذاكرتي،

أرى أنه كان أقرب إلى كونه مولعاً بالتاريخ الروماني. كان يقضي مُعظم وقته مع الضباط الأوروبيين، وكان ينفر من الآسيويين. وكمؤرِّخ، عمدَ إلى وضعِ نفسهِ في صفٍ واحدٍ مع ليفي وتاسيتوس وليس مع هيرودوتوس وثوسيديدس، لكي يُبيِّن أنه لا دخلَ للذوق في الأمر. ومؤخّراً كتبَ لي يقول إنه يعيشُ في روما حيث ينوي، مع أنه يجد العالم الأدبي مُجدِباً ومُدَّعياً بشكلٍ لا يُصدَّق، أن يدوِّنَ ذلك. فتمنَّيتُ له التوفيق. وأنا لم أقرأ كثيراً من تاريخه لكنه يبدو أنه يكتب باللاتينية بيُسر، أو لعلّه قام بالاختيار الصحيح. ولكن كم يبدو شيئاً عتيق الطراز أن يصبحَ مؤرِّخاً رومانياً! ويُخبرني إنه يُراسلكَ بانتظام. لذا أجرؤ على القول إنكما أنتما الاثنين سوف تضمان قواكما معاً عندما يحين الوقتُ لنشر المذكّرات.

ليلة يوم الثاني والعشرين من شهر نيسان أوشكَ أورميسدا أنْ يخرج للاستطلاع حين كاد يقعُ في كمين نصبَته له كتيبة من الجيش الفارسي. لا أحد يعلم كيف عرفَ الفارسيون بدقّة الساعة التي كان ينوي أنْ يُغادرَ فيها المُخيَّم، لكنّهم عرفوا. وقد أنقذَ حياة أورميسدا العمق غير المتوقَّع للنهر في تلك البقعة. ولم يتمكَّن العدو من خوضهِ بسبب هطل الأمطار.

" تحذير ". لا أدري ما الذي يعنيه جوليان بهذا. لعلَّ جاسوساً لنا حذَّرَ أورميسدا في اللحظة الأخيرة. أو لعلَّ أحدهم حذَّر من المؤامرة المُحاكَة للقضاء عليه.

" الجيش الفارسي يحشد قواه هذه الليلة ". في صباح اليوم التالي (الثالث والعشرين من نيسان) شاهدنا أخيراً الجيش الفارسي. كان عدَّة آلاف من الراكبين ورُماة السهام قد احتشدوا على بُعد ميلٍ من مكان مُخيّمنا. وعلى ضوء الصباح جعل بريق الدروع المُسلسلة عيوننا تدمع. كانوا تحت قيادة الوزير الأكبر، الذي يأتي مباشرة بعد الملك الأكبر نفسه في المرتبة، وهي تتراوح في القيمة ما بين القيصر والحاكم الإمبراطوري. وكان بصُحبة جيش الوزير مجموعة كبيرة من العرب الـ Assanatic، وهم قبيلة معروفة بقسوتها.

في الساعة الثانية، اشتبكَ جوليان مع العدو. وبعد كثيرٍ من المناورة، وضع مُشاته على بُعد بضع ياردات من رُماة السِهام الفرس. ثم قبل أن يتمكّنوا من الرمي، أعطى الأمر للمُشاة للانطلاق بأقصى سرعة. هذه المناورة أذهَلَتْ الفرس مدةً كافية لرجالنا

لشلّ حركة رُماة سهامهم. اندفعَتْ تروس المُشاة نحو رُماة السهام بطريقةٍ أعجزَت الفارسيين عن التسديد للرمي. وتفرَّقوا وفرّوا. وأصبحَ الميدان لنا.

ابتهجَ جوليان. " والآن أصبحَ جنودنا يعلمون أنَّ الفرس رجالٌ مثلنا تماماً! ". بدا صورةً مثاليّة لإله الحرب : الوجه المتورِّد ، والرداء الأرجواني المُلطَّخ بدماء الآخرين، والعينان تبرقان من شدَّة الإثارة. " هيا بنا "، هتفَ لماكسيموس وللفلاسفة الذين كانوا يقتربون حيثما كان الخط الأمامي. " فلنرَ أسوار ماسيبراكتا! "

لم يعرف أيٌ منا ما عناه جوليان إلى أنْ قادنا إلى قرية مهجورة قريبة من ساحة القتال. هنا شاهدنا بقايا سور أثري. استشار جوليان كتاباً. قال " هذه جزء من السور الآشوري الأصلي. لقد شاهده زينوفون[١١٩] حين كان هنا قبل ٧٦٤ عاماً ". لحُسن الحظ، ارتقى قائدنا المُنتصر كومة الحجارة، وقرأ بأعلى صوته من مؤلّف زينوفون " المسير إلى داخل البلاد ". نظرنا جميعاً بخشوع إلى ما كان أطلالاً حتى في ذلك الوقت، قبل زمنٍ بعيد، ولكنْ أخشى أنه بعد حافز (ورعب) المعركة، لا أحد كان في مزاجٍ يسمح بزيارة آثار قديمة. وأخيراً، قادنا عائداً إلى النهر.

في ضواحي المُخيَّم، تجمَّعَ فيلقٌ من القوات الخاصة حول صخرة وقفَ فوقها قائدهم التريبيون، وأخذ يُلقي عليهم خطاباً طنّاناً. كان طويل القامة، ضخم العضلات، وأشقر الشعر. "... أنتم تخافون الفُرس! تقولون إنَّهم ليسوا رجالاً مثلنا بل شياطين! لا تنكروا! لقد سمعتكم تهمسون ليلاً كأطفالٍ يخافون الظلام "

كان صوت التريبيون قوياً. كان وجهه متورِّداً وعيناه كانتا - أي شيء آخر؟ زرقاوَين. لقد خسرنا نحن أصحاب العيون السود العالمَ لذوي عيونٍ بلون ثلج الشتاء. تكلَّم بلكنة جرمانية خفيفة. " ولكن الآن شاهدتُم تلك الشياطين بالقرب منكم. هزمتموهم في ساحة القتال. هل كانوا شديدي الشراسة؟ والضخامة؟ وإثارة الرعب؟ "

سَرَتْ همهمةٌ بين الرجال المُحيطين به : كلا، الفرس لم يكونوا رجالاً متفوّقين. كان التريبيون خطيباً شعبياً ممتازاً. نظرتُ إلى جوليان وكان قد شدَّ عباءته حول وجهه كنوعٍ من التقنُّع الخاطف. كان يُراقب الرجل باهتمامٍ يقِظ جدير بممثّل أو بخطيبٍ يدرس أداءَ منافسٍ له.

" كلا. إنهم رجالٌ مثلنا. لكنهم رجالٌ أدنى. انظروا! ". أومأ إلى أحد ضباطه لكي

يتقدَّم. كان الرجل يحملُ ما بدا للوهلة الأولى حزمة من الخِرَق. لكنه كان فارسياً ميّتاً. قذفَ الضابط الجثة إلى التريبون. فقبض عليها بسهولة. شهقَ الرجال، وقد تأثّروا من قوة الرجلين اللذين تعاملا مع الجثة وكأنها دمية.

رفعَ التريبيون الجثة بيدٍ واحدةٍ من عنقها. كان الفارسي الميت نحيلاً، وذا شاربٍ رفيع أسود وأسنانه البادية تنمُّ عن الشراسة. كان درعه قد خُلِعَ والباقي لا يستره إلاَّ رداء مُلطَّخ بالدماء. " ها هو! الشيطان الفارسي! أهذا ما تخشونه؟ "، وبيده الحُرَّة، مزَّقَ التريبيون الرداء، كاشفاً عن جسدٍ نحيل يكاد يكون طفولياً، عليه شكل هلال أسود تحت عظم الصدر حيث غُرِزَ رمح.

هزَّ التريبيون الجثة، كما يهزُّ كلبُ صيد أرنباً برّياً. " أتخافون هذا؟ ". هدرَ جواب " كلا! " ثم دوّى ضحكٌ هائل لمرأى الجسد الأملس والأجرَد، الذي لا يشبهنا في شيء. رمى التريبيون بالبقايا باحتقار إلى الأرض. " لا أريد انْ أسمعَ بعد الآن أياً منكم يهمسُ في الليل بأنَّ الفارسيين هم شياطين! نحن الذين سنحكم هذه الأرض! " وهبطَ التريبيون عن الصخرة، وسط التهليل العالي، وسار مباشرة نحو جوليان. حيّاه بأناقة دون أنْ يُباغَتْ. " خطابٌ ضروري، أيها الأوغسطوس "

" بل خطابٌ ممتاز، يا فالانتنيان ". إذ كما لابد أنكَ خمَّنتَ، كان التريبيون هو إمبراطورنا المُستقبلي. " أريد من القادة كلهم أن يُلقوا على جنودهم مثل هذه... المظاهرة. من النوع الممتاز "

سرعان ما اختفى الجنود، كما يفعلون عادةً لحظةَ يُدركون أنَّ الإمبراطورَ موجود بينهم.

تبادلَ جوليان وخليفته بضع كلماتٍ عسكرية. ثم حين هممنا بالتحرُّك أومأ فالانتنيان إلى ضابط شاب في سلاح الفرسان كان واقفاً في مكانٍ قريب، وقد فتحَ عينيه واسعاً أمام مرأى الإمبراطور، " أيها الأوغسطوس، هل لي أنْ أقدِّم إليك أخي فالنس؟ "

إنني غالباً ما أتساءلُ بماذا كان جوليان سيفكِّر لو أنه عَلِمَ أنه خلال أقلّ من سنتين سيُصبح هذان الأخوَان، ولَدا بائع حبال نمساوي تحوَّلَ إلى قائد، إمبراطورَين يشتركان في حُكم الشرق والغرب. أعتقدُ أنه كان سيوافق على فالانتنيان، أما فالانس فكان نكبة. وكانت فكرة أنهما من المسيحيين ستزعجه. هي حتماً لم تعجبنا، أليس كذلك؟ لقد كدتُ أفقد حياتي بسبب فالنس. وماكسيموس مات فعلاً.

ثم تركَ جوليان خليفتيه، ولا أحد منهم كان يعرف ما يُخبّئه له المستقبل. ولو أنَّ

الآلهة موجودة، فهي لطيفة. وعلى الرغم من التنبؤات وومضات البرق ، فهي لا تُخبرنا بأي شيء. فإذا فعلَتْ فإننا لا نتحمَّل نُبوءتها.

في اليوم التالي وصلنا إلى مكانٍ سُحِبَتْ فيه مياه الفرات على شكل شبكة من أقنية الري. وبعض تلك الأقنية عمرها ألف عام، ومن دونها ما كانت بلاد فارس أصبحتْ في الثراء الذي هي عليه الآن. وكان هناك فريقٌ أرادَ أنْ يُحوِّل المياه لكي تجف الحقول لكنَّ جوليان لم يسمح بذلك، مُشيراً إلى أنَّنا قريباً سوف نعيشُ حصراً على نِتاج تلك الحقول نفسها. في بداية أكبر الأقنية كان هناك برجٌ طويل، يُحدِّدُ منبع نهر مالكا (بالفارسية تعني " نهر الملك ")، الذي يصبُ في نهر دجلة تحت مدينة ستيسيفون. هذا النهر أو القنال كان عادةً سريعاً بسبب هطول الأمطار. وتمَّ إقامة قوارب تجسير بصعوبة. وعبر المشاة عليه بسلام، ولكنَّ عدداً من الدواب غرقَ في التيار. وحسب ما أذكُر، تعرَّضَ جنود الفرسان إلى تحرُّش الكشّافة الفارسيين بهم، ولكن سرعان ما أغرقهم بعضُ مُرافقينا الراكبين من العرب.

في الثامن والعشرين من نيسان، وبعد مسيرٍ ممل، وصلنا إلى بيريسابورا، وهي مدينة كبيرة ذات أسوار عالية ضخمة وأبراج سَفَعَتها أشعة الشمس حتى أضحى لونها أصفرَ برتقالياً بلون جلد الأسد. والنهر يكتنف المدينة طبيعياً من الجهات الثلاث. وعلى الجهة الرابعة، حفرَ السكان قنالاً بحيث يُصبحون، فعلاً جزيرة ويصعُب على الأعداء الاقتراب. وفي مركز المدينة هضبة عالية يقومُ عليها حصنٌ داخلي عظيم. يجب أنْ اعترف بأنَّ قلبي غاصَ حين شاهدته. إنَّ حصار مثل ذلك المكان الهائل يستغرقُ أشهراً.

أرسلَ جوليان رسالته المعتادة إلى المدينة : إذا استسلموا، فسيُبقي على حياة السكان. لكنَّ بيريسابورا كانت إحدى مدن بلاد فارس الهامة، وكان جواب آمرها، مامرسيدس، مُتعجرفاً حقاً. إنَّ المدينة لن تستسلِم. لكنَّ مامرسيديس قَبلَ أنْ يتحدَّث مع أورميسدا (من الواضح أنهما كانا يتبادلان مراسلات سرِّية).

كنتُ حاضراً عندما ركبَ أورميسدا، طويل القامة ويتلألأ وشديد الشبه بملكٍ فارسي، إلى الخندق الذي يفصل المدينة عن البر الرئيسي. وعند حافة المياه كبحَ جِماح حصانه. وعندما تعرَّفَ الفُرس المتمركزون على السور عليه، بدؤوا يُطلقون صيحات الاستنكار والسخرية. نعتوه بـ " الخائن " وبما هو أسوأ. وكنتُ قريباً بقدرٍ كافٍ من أورميسدا فرأيتُ وجهه الشاحب يحمل تلك القسمات القاسية، ولكنه لم يأتِ بحركة ولا بيَّنَ بأي وسيلةٍ

أخرى أنه سمع ما قيل. تحمَّل تلك الإهانات على امتداد نصف ساعة كاملة. ثم، حين رأى أنه لن يكون هناك تعامُل مع أولئك الناس، أومأ إلى حاملي الرايات كي ينضموا إليه. وقد سبَّبَ هذا ضجيجاً أعلى من السابق. كانت راية أورميسدا تحمل شعار ملك الفرس العظيم. انسحبَ أورميسدا بجلال، وأمرَ جوليان بضرب الحصار.

لسوء الحظ، لم يصِف جوليان الحصار ولا أذكُر كثيراً عنه. لعلَّ صاحبنا أميانوس سيُسجِّله. إنَّ التاريخ العَسكري ليس حقاً موطن قوتي. إنَّ ذكرياتي الرئيسية عن ذلك الحصار هي سلسلة من المشاجرات مع ماكسيموس. سوفَ أوفِّر عنك حديث المشاجرات، بما أني نسيتُ تماماً موضوعَها.

سقطَتْ مدينة بيريسابورا في اليوم التالي، بعد كثيرٍ من القتال. لكنَّ المسألةَ لم تكن قد انتهت بعد، ذلك أنَّ الجيشَ والحاكم أسرعوا باللجوء إلى قمة جبلهم وهناك، خلف أسوارٍ من القار والآجُر، القوية كالحديد، تحصَّنوا. وقادَ جوليان بنفسه الهجوم الأول على الحصن، فتمَّ صدّه.

في اليوم الثالث، أمرَ جوليان ببناء helepolis. وهو برج خشبي طويل يُستخدَم لتسلُّق حتى أعلى الأسوار. لا شيء يقف في وجهه، ولا حتى النار، لأنه مكسو بجلد مدبوغ رطِب. ولم يحتجِ الأمر إلى هليليبوليس. فقبل أنْ يكتمل بناؤه طلب مامرسيديس إعلان الهُدنة. فأُنزِلَ من الحصن بحبلٍ انقطعَ قبل أنْ يصل الأرض ببضع ياردات؛ فأصيبَ بتمزّقاتٍ في ساقيه. وكان جوليان رحيماً. فإذا تمَّ استسلام الحصن فسيُبقي على حياة السكان جميعاً.

عند الغروب، خرج ٢٥٠٠ من الفارسيين، رجال ونساء، وهم ينشدون ترتيلة الشكر للملك العظيم الذي أبقى على حياتهم وسوفَ يحكمهم الآن برحمة. ثم أُحرِقَتْ بيريسابورا حتى سُوِّيَتْ بالأرض. في ذلك الوقت، لم أعُدْ أتكلّم مع ماكسيموس.

جوليان أوغسطوس ٣ أيار

٣ سرا. فر. تر. قُتِلَ. وز. آمر. ضاعت الراية! ٢ تر. طرد. عشر. راي. استُعيد. خطاب. ١٠٠ ق. فض.

بريسكوس : أتذكَّر " ٣ سرا. فر. تر. قُتِل. إلخ " بحيوية. ففي اليوم الذي تلا إحراق المدينة تناولنا كلنا الطعام مع جوليان عند الظهيرة. كانت وجبة لذيذة وكان هو يُعيد

رواية محاربة الحصار، كما يحب الجنود أنْ يفعلوا، على غرار " ماذا كان يمكن أنْ يحدث"، وعندما ولجَ أناطوليوس الخيمة حاملاً نبأً مفاده أنَّ الوزير الأكبر عملَ شخصياً على إكراه ثلاثٍ من سرايا الفرسان على الفرار، وقتلَ تريبيوناً وأسرَ راية الفوج.

حسبتُ أنَّ جوليان سيُصابُ بسكتةٍ دماغيّةٍ. ثم أطاحَ بصحنِه إلى الأرض واندفعَ إلى خارج الخيمة، وهو يهتفُ داعياً إلى تجمُّع الجيش. وفي غضون ساعة، تمَّ تحديد مكان جيش الوزير، واستعدنا رايتنا. وفي غضون ثلاث ساعات، طُرِدَ التريبيونين الباقيون وأُعدمَ عشرة من بَين الذين أجبرهم العدو على الفرار، تطبيقاً للقانون العشري. لم أكن قد رأيتُ جوليان غاضباً هكذا ولا قائداً كلاسيكياً كما تصرَّفَ. أمرَ كامل الجيش بمشاهدة عملية الإعدام. وبعد أنْ تمَّ الأمر، ألقى خِطاباً، حذَّرَ فيه من العصيان والجُبن، ومُذكِّراً الجيش أنه إذا ما استسلمَ أحدٌ إلى العدو، فسوفَ يجعله الفارسيون عاجزاً ويتركونه ليموتَ في الصحراء. ثم مدحَ القوات لانتصارها في بيريسبورا، ومنحَ كل رجل مائة قطعة من الفضة.

مسكينٌ جوليان! بسبب قلّة اهتمامه بالمال، لم يتمكَّن أبداً من أنْ يحصل على المبالغ اللازمة. لم يعرف أبداً الثمن الصحيح لأي شيء، بما في ذلك ثمن ولاء الجندي العادي. لدى ذكر ذلك المبلغ الصغير، زأرَ الجيش مُعبِّراً عن استيائه وخشيتُ أنْ يتمرَّدوا في التو واللحظة. لكنَّ جوليان لم يكن خائفاً. قال لهم بنبرةٍ حادّة إنه هو نفسه كان رجلاً فقيراً وإنَّ الأمة الرومانية تمرُّ بأزمة مالية حادّة لأنَّ عديداً من خلفائه استخدموا الذهب لشراء سلامٍ زائف بدل الحديد لشن حروبٍ ضرورية. لكنَّه وعَدَهم بأنهم قريباً سيصلون ستيسيفون وستكون ثروة بلاد فارس كلها ملكَهُم. أشاعَ هذا فيهم البهجة، وهللوا له وقرقعوا بتروسهم.

جوليان أوغسطوس ٤ أيار

١٤ ميلاً. فيضانات. توقّف. جسور.

بريسكوس : كسر الفارسيون سدود النهر الواقعة إلى الجنوب منا وأضعنا يوماً في استخدام القوارب والطوافات لعبور عديدٍ من البِرَك التي شكَّلَتها مياه النهر. وكان الريف قد تحوَّلَ إلى مستنقعٍ ضخم. وأكثر ما أذكره هو عَلَقات ضخمة تمصّ الدماء تعلَّقَتْ بساقَيَّ وأنا أخوضُ في المياه الموحلة.

جوليان أوغسطوس ٧ أيار

ميوزامالكا. مُخيَّم. الاستعداد للحصار. كمين. خيانة؟

بريسكوس : بعد ثلاثة أيام وصلنا إلى ميوزامالكا، وهي مدينة هامة أخرى ذات أسوار ضخمة. هنا نصبَ جوليان مُخيَّماً.

كلمة " كمين " تُشيرُ إلى ما حدثَ في تلك الليلة. قامَ جوليان وعددٌ من الكشافة بعملية معاينة الأسوار الخارجية، بحثاً عن نقاط ضعف. وبينما هم يمرون من تحت الأسوار، تسلَّلَ عشرةٌ من الفُرس من المدينة من بوابة للحمَّالين زاحفين على أيديهم وركبِهِم، وباغتوا جوليان وكشافته. انقضَّ اثنان منهم على جوليان، فقتَلَ أحدهما، واحتمى من الآخر بترسه. وخلال دقائق قُتِلَ الفُرس وعادَ جوليان إلى المُخيَّم، سعيداً كصبي صغير مع أسلحة الفُرس الموتى كتذكار للانتصار.

" خيانة؟ ". كيف عرفَ الفُرس بأمر فريق الكشافة ذاك؟ كان جوليان يعي أنَّ جيشه مملوء بالجواسيس، هذا فضلاً عن أولئك الذين يتمنون له الأذى. واشتبه بوجود خيانة، وكان مُحقّاً.

رفضَ سكانُ ميوزامالكا الاستسلام. فقرَّر جوليان ضرب حِصار. أصبحَ الآن يخاف الجيش الفارسي الذي من المفترَض أنه يتجمَّع إلى الجنوب من ستيسيفون. ولمزيدٍ من الحماية، أقام سياجاً خشبياً سميكاً حول مُخيَّمنا.

جوليان أوغسطوس ٨ أيار

هاجمَ فرسان الوزير الأكبر الدواب في بستانٍ من شجر النخيل. لم تسقط ضحايا من جانبنا. وسقط ضحايا كُثُر من جانبهم. وطُرِدَ الفُرس. الريف كثيف الأشجار وفيه كثير من الغدران والبرك. لطالما اعتقدتُ أنَّ بلاد فارس هي صحراء. كم تمنّيتُ أن يتوفَّر لديَّ وقت فراغٍ لأتحوَّلَ إلى هيرودوتوس وأصفَ هذا الجانب من العالم! إنه غاية في الجمال. الأرض غنية بنخيل البلح والأشجار المُثمِرة. والحقول مُلوَّنة بالأصفر والأخضر من موسم القمح الجديد. محصول هذا العام سيكونُ وافراً، وسيكون لنا!

أشد ما يُثيرُ اهتمامي بِرَك النفط ، وهو مادة زيتية قابلة للاشتعال تُبقبقُ مُنبثقةً من الأرض. وفي صباح هذا اليوم أمرتُ بإشعال إحدى تلك البِرَك. فاندفعَ عمودٌ من نار

نحو السماء. والطريقة الوحيدة الممكنة لإخمادها هي بخنق البركة بالرمال؛ وإلاّ، قد تستمر مُشتغلة على مدى سنوات طويلة. فتركتُ البركةَ مُشتعلة كتقدمةٍ لهيليوس.

أُحضِرَ عددٌ من سجناء غارة هذا الصباح إليّ. إنهم مخلوقات غريبة الأشكال وقمتُ بتفحّصهم بعناية، مُتذكِّراً أحد التريبيونات الذي عَرَضَ مؤخَّراً جثة فارسيٍّ على قواته، قائلاً : " أترون ما تخشون؟ هذا هو الشيطان الفارسي، بطولِه ذي الأقدام السبعة وذراعيه البرونزيتين وينفثُ ناراً! ". ثم عَرَضَ عليهم بقايا مخلوقٍ هش أقرب شَبَهاً إلى صبي منه إلى رجل.

بريسكوس : تقليدياً ليس ضرورياً أن يكونَ نقل الخُطَب في الكتب التاريخية عن الآخرين حرفيّاً. لكنَّ نسختي من تعليقلت فالانتنيان كانت دقيقة لأنني احتفظتُ ببضع ملاحظات في الوقت نفسه، وأنا أستعينُ بها الآن في تأليف هذا التعليق. ومع ذلك، ها هنا جوليان بعد ذلك بأقلّ من أسبوع يُجري تغييراً على النص. إنَّ التاريخَ ما هو إلاّ ثرثرة وقت فراغ عن حادثٍ ضاعتْ حقيقته لحظةَ وقوعه. إنني اقدِّمُ إليكَ هذا الشيء المُبتَذَل كما هو : الحقيقة!

جوليان أوغسطوس ٨ أيار

الفُرس الذين تفحّصتُهم كانوا من الفرسان؛ ضئيلي الأجسام، نحيليها، وذوي بشرة رصاصيّة. وقامَ أورميسدا بدور المُترجم. وعلى الرغم من أنهم توقَّعوا الموت الفوري، إلاّ أنهم لم يبدوا خائفين. تكلَّمَ واحدٌ نيابةً عنهم، سيلاً من الكلمات. وعندما انقطعَتْ أنفاسه أخيراً، سألتُ أورميسدا عمّا قاله.

هزَّ أورميسدا كتفيه استخفافاً. " كلاماً فارسياً نموذجياً ". كان أورميسدا في مزاجٍ للتكلُّم باليونانية. " إنه يأمل أنْ نختنق بكبريائنا وأنْ يسقطَ القمرُ على جيشنا ويسحقه وأنْ تثور علينا قبائل الصحارى حتى في الصين والهند وتذبحنا. إنَّ الأسلوب الفارسي في الخطاب دائماً يتّسِمُ بقدرٍ من المبالغة. خاصةً في المجاز "

ضحكتُ. إنني دائماً أتسلّى بالخطاب الفارسي. فمن مميزات الشعوب الشرقية أنهم دائماً يتحدثون بتطرُّفٍ مجنون. حتى رسائلهم الدبلوماسية غالباً ما تكون مُبهمة بسبب مبالغات على طريقة بندار.

أجاب أورميسدا بلطف. وأصغى الفرس باحتقار. إنهم رجالٌ وسيمون ذوو لحى ناعمة ومُدبَّبة وحواجب تنمو وتلتصق معاً. عيونهم تتمتَّع بجاذبيةٍ خاصة، سوداء وعميقة. وهم نحيلون جداً بسبب الحمية المتقشّفة التي يتّبعونها؛ فهم لا يأكلون إلاّ عندما يجوعون، وحينئذٍ يأكلون قليلاً. ونادراً ما يشربون الخمر. إفراطهم الوحيد (إذا استثنينا حديثهم!) هو في النساء. إنَّ كل رجل لديه من المحظيات قدر ما يستطيع تحمُّل نفَقاتهنَّ. وهم لا يحبّون الصبية. وهم غايةً في الاحتشام تجاه أنفسهم ومن العيب بالنسبة إلى الرجل أنْ يراه رجلٌ آخر وهو يتبوَّل بالطريقة الطبيعية. إنني أتمنى من جيشنا أنْ يُقلدهم في احتشامهم الجسدي. ومع ذلك، وعلى الرغم من مزاياهم كلها، فهم غير محبوبين. إنهم متعجرفون ومتفاخرون ويجدون متعةً بالغة في ممارسة القسوة. فالنبلاء منهم يُمارسون الإرهاب على الطبقات الدنيا وعلى العبيد، فيعذِّبونهم ويقتلونهم كما يشاؤون، وليس هناك من قانون لحماية الضعفاء، وليست لديهم أي فكرة عن الإحسان. قوانينهم همجيّة. فمثلاً، إذا كان رجلٌ ما مذنباً بارتكاب جريمة خطيرة، لا يقتصر الأمر على إعدامه بل ويُعدَم أفراد عائلته كلهم أيضاً.

قال أورميسدا بضجر بعد إبعاد الأسرى، " لا أملَ يُرجى منهم؛ إنهم أشد سلالات الأرض حماقة "

قلتُ لأزعجه " ولكن أنتَ ملكَهم العظيم، ولذلك فأنتَ أشدّهم حماقة "

قال بحزن " لقد عشتُ بينكم أطول مما ينبغي "

" ولكنك كحاكم عليك أن تكون أفضل من ذلك؛ تستطيع أن تغيِّرهم "

هزَّ رأسه نفياً. " لا مجال للتغيير. هذه هي النقطة الهامة بالنسبة إلى بلاد فارس. فكما كنا، نحن الآن، وسنبقى دائماً. فحين سأصبح الملك العظيم (بمشيئة الشمس وجوليان)، لن أعودَ يونانياً. سأنسى أفلاطون. سأصبحُ أشبه بداريوس وسايروس، أشبه بزيريكسس و... نعم، أشبه بأخي سابور "

" وحليفاً لا يُعتدُّ به لروما؟ " سألته بنبرة مازحة، لكنني كنتُ جاداً.

" وماذا غير هذا؟ أنا وريث الملوك الساسانيين. نحن قُساة ومتهوّرون ". ثم ابتسمَ، ابتسامة فاتنة. " أفضل نصيحة لك، ايها الأوغسطوس، هي أن تقتل الفُرس كلهم، بمَن فيهم انا "

قلت " كلام غير عملي "، وغيَّرتُ الموضوع. لكنَّ ما قاله أورميسدا أثَّرَ بي،

وأقلقني. فهل أُضعُ جيشاً رومانياً في ستيسيفون وأحكم عبر بروقنصل؟ أم نفشل في هذا كما فشل أجدادنا مع اليهود؟ ليتَ سالوست كان هنا.

أمضينا باقي النهار مع أركان الحرب، نضع الاستعدادات لضرب حِصار حول ميوزامالكا. والبلدة تقعُ فوق مرتفع من الأرض ولها سور سميك. ومحمية جيداً. أمرتُ بحفر نفقٍ من تحته. وهذا تدريب جيد لم نجرّبه بعد. ونيفيتا وداغاليف في هذه اللحظة يحفران أنفاقاً تحت الأسوار. وعند الفجر، سوف يقوم فيكتور مع عددٍ من الكشّافة الفرسان بالاستطلاع حتى مدينة ستيسيفون. وهناك شائعة بأنَّ جيش الملك العظيم في طريقه إلينا من جهة الشرق، لكنها مجرد إشاعة.

كل شيء يسير بيُسر فائق. ومع ذلك لماذا أُفاجأ؟ إنَّ الآلهة إلى جانبي وروح الإسكندر تهمس: تقدَّموا، إلى أقصى أقاصي العالم!

بريسكوس: وكالمعتاد كانت روح الإسكندر مُغالية في الطموح. لقد واجهنا ما يكفي من المتاعب في احتلال ميوزامالكا، أقلّ مما واجهنا في الهند والصين. ولكن في ذلك الوقت لم يكن جوليان مجنوناً، على الرغم من الجهود التي بذلها ماكسيموس. لم تكن هناك خطّة حاضرة لغزو آسيا القُصوى. وتوقَّعَ جوليان شن حملة قصيرة في بلاد فارس، وقضاء الشتاء في طرسوس، ومن ثم سيشُنُّ حملة إلى الهند.

إنَّ جوليان لا يصفُ حصار ميوزمالكا وسقوطها ولا أنا سأفعل. وحسبما أذكُر، كانت المدينة تقومُ فوقَ مرتفع من الأرض يُشرِفُ على النهر. وللوصول إليها يضطرُّ المرءُ إلى ارتقاء جروفٍ سحيقة الانحدار، صالحةٍ بشكل بارز خطأً للدفاع. في اليوم الأول شُنَّ هجومٌ مُباشر. وفشلَ. وفي تلك الأثناء، كانت الأنفاق تُحفَر من تحت الأسوار.

في اليوم الثاني نُصِبَتْ أدوات الحصار. كان الجو مملوءاً بهدير الصخور المُجنَّقَة[١٢٠] إلى الأسوار. كانت أشعةَ الشمس تحرَقُ بعُنف. وسرعان ما نال الإرهاق من المُدافعين والمُهاجمين. لكنَّ جوليان دَفَعَ الرجال إلى بذل أقصى ما في طاقتهم، إذ لم يكن لديه وقتٌ يُبدِّده في حِصارٍ شديد القُرب من ستيسيفون ومن جيشِ الملك العظيم. وأخيراً، جاءت الكلمة من حُفَّار الأنفاق بأنهم مستعدّون لاقتحام المدينة. وفي تلك الليلة، هاجمَ جوليان الأسوار بجيشه في وقتٍ دخَلَتْ فيه قواته من تحت الأرض إلى المدينة وخرجت من أرضية الغرفة الخلفيّة لخانٍ خالٍ. واستسلمَتْ المدينة.

-٢١-

جوليان أوغسطوس ١١ أيار

كان حظّنا ممتازاً؛ سقطَتْ ميوزامالكا بعددٍ قليل من الضحايا من جانبنا. وقد استقبلتُ للتو نابديتس، الآمر الفارسي. حيّاني بوصفي سيد العالم فأبقيتُ على حياته. وهذا سيتركُ انطباعاً جيداً. فإذا كان السادة الفارسيون يؤمنون بأني رحيم، فعلى الأرجح أنهم سيستسلمون إذا قُهروا. آملُ هذا، بما أنَّه لا شيء يُضعِفُ معنويات جيشٍ ما مثل مقاومة حصارٍ طويل لُمدُنٍ غير هامة.

إنَّ ناديتس يُقسِمُ إنَّه لا يعرف مكان الملك العظيم وأنا أصدِّقه؛ ويعتقدُ أنَّ سابور غير موجود في العاصمة بل في مكان ما في الجنوب. على أي حال، سوف نتقابل قريباً، الملك العظيم وأنا.

إنني أكتبُ هذا وأنا في خيمتي بجوار النهر. فوقَ هذا التل العالي تحترقُ مدينة ميوزامالكا كمِشعل في الليل الحالك. وبصعوبة منعتُ حدوثَ مجزرة في المدينة؛ فالغاليون يعتبرون مقاومة الفُرس إهانة؛ دائماً يفعلون. وبالمناسبة، لقد اكتشفوا عدَّة مئات من النساء مُختبئات في الحصن. وعلى الفور أجروا عملية قُرعة عليهنّ. وفي مثل تلك المناسبات، يختفي الضبّاط ويتولّى الرجال زمام الأمور. وبمحض المصادفة، حدثَ أنْ كنتُ قريباً من الساحة العامة أثناء سحب القُرعة.

كانت النسوة متكتّلات معاً، ومعهن كنز المدينة : قطعٌ ذهبية، وحُلي، وأقمشة من حرير، وكل ما عُثِرَ عليه بين الأطلال جُمِعَ وجُلِبَ لكي يتقاسموه بالعدل. حين رآني أحد أفراد فيلق البيتولانتيين، هتفَ، " اعطوا شيئاً لجوليان! ". فانضممتُ إلى الرجال سيراً على قَدَمَيّ، كأي فرد من الفيالق.

أشارَ قائد المئة المسؤول عن عملية سحب القُرعة إلى إحدى أكوام الذهب. قال،

مُستخدماً العبارة التقليدية " هذا هو نصيبك، ايها الجندي ". شكرتُهُ وأخذتُ قطعة واحدة من الذهب. فأخذَ الرجال يصرخون بأنَّ عليَّ أنْ آخذ إحدى النساء. وهم يعرفون طبعاً أني عزب، ووجدوا هذه الحقيقة هزلية إلى أقصى مدى. فرفضتُ بودّ. لكنّهم ظلوا يُلحّون عليّ. فألقيتُ نظرةً على حشد النساء البائسات، مُفكّراً في أنْ آخذ طفلةً ومن ثم أطلقَ سراحها. لكني لم أجد أي طفلة؛ لم أجد غير صبي شديد الوسامة في نحو العاشرة. فأشرتُ إليه. ابتهجَ الرجال. الأفضل أنْ يجلس على العرش عاشقٌ للصبية من أن يبقى عزباً!

اتَّضَحَ أنَّ الصبي أصمٌّ-أخرس على درجة عالية من الذكاء؛ والإشارات التي يؤديها بيديه سريعة وأنيقة، وقد وجدتُ أنَّ في إمكاني أنْ أفهمها بسهولة. وقد جعلتُ منه خادمي الخاص ويبدو سعيداً.

إنني منقبض الصدر هذه الليلة. عادةً، ينعشُ الانتصار روحي. لا أدري ما الخطب. لعلّها المذكّرات. كنتُ أُملي مذكرات عن طفولتي وأنا في ماسيلوم، وتذكُّر تلك السنوات يُعكّر مزاجي دائماً.

ملاحظة هامة : أحد رجال الفيلق الهركولاني يُبلغني بأنه في عز معمعة المعركة اليوم شاهدَ رجلاً ضخماً مُدرَّعاً بطريقة غريبة يرتقي إحدى سلالم الحِصار. ولاحقاً شاهد ذلك المُحارب نفسه في ذروة القتال، لكنه لم يتمكّن من التعرُّف عليه ولم يتعرَّف عليه أيٌّ من الذين شاهدوه. يجب أنْ أطلب من ماكسيموس أنْ يستقصي الأمر.

١٢ أيار

الوقت بعد الظهيرة. أنا جالس في غرفة عرش أحد قصور الملك العظيم، وهو بناء رائع مُبني على الطراز الروماني، أقرب شَبَهاً بدارة ريفيّة منه إلى قصرٍ رسميّ. إلى جواره هناك منطقة ألعاب مُسيَّجة. هنا تُحفظ كافة أنواع الحيوانات الضارية في منطقة مُشجّرة... أسود، خنازير بريّة، وذلك الوحش الرهيب فعلاً، الدبّ الفارسي. كان الرجال قد كسروا الأسيجة. كنتُ أفضِّلُ ألاّ يتورّطوا في تلك المذبحة لكنَّ مزاجهم كان يجب أنْ يبقى رائقاً، لأننا كنا نقترب من مدينة ستيسيفون ومن المعركة الحاسمة.

كان جوفيان قد جاء لتوِّه وذهب. جلبَ لي جلد أسدٍ قَتَلَه، من الحجم الضخم.

"يُشبه ذاك الموجود على سريرك". شكرتُ جوفيان بحرارة. إنه أكثر مَنْ أثِقُ بهم من بين الضباط الجليليين، ربما لأنه أشدّهم غباءً. منحتُهُ بعض الخمر الذي عثرنا عليه في قبو القصر. فشربه بشراهة شديدة حتى إنني أعطيته قنينتين أُخرَيين منه ليأخذهما معه حين غادر. كان راضياً جداً وثملاً قليلاً.

قمتُ مع بريسكوس باستكشاف القصر. إنه جميل ومريح معاً، وهو مزيجٌ، الأباطرةُ الرومان ليسوا متعوّدين عليه. من الواضح أنَّ الخدم فرّوا قُبيل وصولنا، تاركين وراءهم وجبة عشاء لا تزالُ دافئة في المطبخ. كدتُ أتذوّق محتوى أحد القدور حين ضربَ الأصم- الأخرس المغرفة وأسقطها من يدي. ثم قام هو بتذوُّق الطعام، مُشيراً إلى أنَّ عليَّ أنْ أحذر السُمّ. إنني لا أفكّر أبداً في مثل هذه الأشياء. كلا، هذا غير صحيح؛ إنني أتساءلُ أحياناً إذا كان وعاء وجبة عشائي من العصيدة تحتوي على موتي، لكنني لم أتردَّد مرةً في أكلها. وإذا كانت هذه هي نهايتي، فلا يسعني أنْ أفعل أشيَّ شيءٍ حيال ذلك. ولحُسن الحظ، لم تكن الوجبة التي تركها الفُرس وراءهم مسمومة.

أمرتُ المساعدين بالعمل في غرفة العرش، وهي غرفةٌ مُعتِمة وباردة فيها نوافذ بشعريات وكرسي عرش أحمر اللون مطلي باللّك أجلسُ الآن عليه وأكتب. إنَّ الملك العظيم يعيشُ حياةً مُرفَّهةً أكثر من حياتي. وقد اكتشفنا في إحدى الغُرَف مئات من الأردية الحريرية... إنَّ بريسكوس يُصرُّ على أنْ أعطيها لماكسيموس.

هذه الليلة فكَّرتُ في إعداد وجبة عشاء لهيئة الأركان. ووضعتُ بدايات خطّة من أجل هذه المرحلة الأخيرة. وخلافاً لما قد يعتقده المؤرخون، الحروب هي في الغالب ارتجال. في المعتاد يكون للمرء هدفٌ مُطلَقٌ، ولكن لا يمكن التحديد مُسبقاً كيف سيتم بلوغه. ولهذا فإنَّ الإلاهة المُفضّلة عند القادة - وعند روما أيضاً - هي إلاهة الحظ والمصادفة.

١٦ أيار

نحن نُخيِّمُ منذ ثلاثة أيام في كوش. وهي قرية قريبة من موقع مدينة سيلوسيا البائدة، التي بناها قائد الإسكندر. وأبعد منها هناك أطلال مدينة أخرى، دُمِّرَتْ في القرن الأخير على يد الإمبراطور كاروس. ووجدتُ أنَّ من قبيل السياسة الحكيمة أنْ

أُبيِّنَ هذا للرجال، مُستعرضاً مرةً أخرى المدى الذي بلغَه انتصار الجيش الروماني في بلاد فارس.

لا أزالُ مصعوقاً بجمال الريف. الأزهار متفتّحة؛ والثمار ناضجة؛ وهناك كثير من الغابات؛ وغزيرٌ من المياه. هذا جزءٌ رعوي من العالم وأنا حزين لأنَّ عديداً من مُدُنه يجب إضرام النار فيه. ولكن ما يبنيه الرجال يمكن أن يُعيدوا بناءه. إنني أتّفقُ مع الرواقيين، الذين يعتبرون الحياة كلها سلسلة لا نهاية لها من النماء والانحدار، وكل نهاية مؤقَّتة مُعلَّمة بتجرُّد النار التام.

بالقُرب من المدينة التي دمَّرها كاروس، تقع بحيرة صغيرة تصبُّ في نهر دجلة. هنا رأينا مشهداً مرعباً. كان أفراد عائلة مامرسيدس كلهم مخوزقين، مع الضابط الذي سلَّمَ بيريسبورا إلينا. بهذه القسوة يُعاقبُ الملك العظيم الذين يعصون أوامره. كان مرعباً أن ترى لا نساءً فقط بل وأطفالاً يُعدَمون بهذه الطريقة المؤلمة.

بينما كنا في البحيرة، ظهرَ أورميسدا وحاشيته الفارسية (لديه الآن أكثر من مئة فارسي يسهرون على راحته)، مع نابديتس، حاكم ميوزامالكا. حيّاني أورميسدا بطريقة رسمية. ثم قال، " أيها الأوغسطوس، قد أصدر حكماً بالإعدام على نابديتس" سألتُه لماذا.

كان أورميسدا متجهّماً. " قبل الحصار، كان بيننا تفاهُمٌ خاص. كان عليه أنْ يُسلِّم المدينة لنا. كان كل شيء مُعداً . ثم نقضَ عهده معي، وهو أعلى قَسَم يتعهَّد به الفارسي. لذلك، وبوصفي الملكَ العظيمَ، يجب أن أعدمه ، بالنار ". أثارَ أورميسدا إعجابي بسلوكه. وكلما اقتربنا أكثر من ستيسيفون، اقتربَ أكثر من كونه إمبراطوراً وفارسياً. لذا أعطيتُه موافقتي، وجُرَّ الرجل البائس بساقيه المكسورتين إلى الخازوق. غادرتُ قبل أنْ يبدأ الإحراق. إنني أكره عمليات الإعدام كلها ما عدا تلك التي تُنفَّذ بالسيف.

إنني أكتب هذه الأسطُر وأنا أجلس على مقعدٍ فيما يبدو أشبه بحديقة رجل نبيل. إنه يومٌ جميل؛ الشمسُ دافئة لكنها ليست حارّة؛ والريف يترامى على امتداد النظر نضِراً ومُزهِراً . أنا واثقٌ الآن من النجاح. وصلَ للتو رسول من أرينثيوس ورحل؛ ثمة حصن يقع على مسافة عشرين ميلاً نحو الشرق يرفض أن يستسلِم.

سوفَ يتـوجَّب عليَّ أنْ أذهب إلى هناك لأقرِّر إنْ كان ينبغي ضربُ حِصـار أم لا. والآن يقترب رسول آخر. أشعرُ بالكسل والارتياح. أودُّ لو أبقى جالساً في الحديقة إلى الأبد. وفجأةً تهبُّ رياح جنوبية دافئة تُعيدُ إليَّ عطر الزهور : أهي ورود ؟

بريسكوس : لعلَّ الرسول الثـاني جلبَ إليـه النبـأ السـيّئ بأنَّ ثلاثـةً من كـتـائب داغـاليف تعرضتْ للهجـوم من قِبَل الفُـرس في بلدةٍ اسمهـا ساباثا. وبينما الكتـائب منهـمكة في القـتـال، تسلَّلَ رجـال العـصـابات مـن خلف الجـيش وذبحـوا مُعظم الدواب والقـائمين عليـهـا. كـانت تلك ضربة موجِعة، واستـشاط جوليـان غـضبـاً من داغـاليف، الذي تركَ الحيوانات من دون حِراسة.

أما بالـنسـبة إلى " الحصن الواقع على مسـافـة عـشرين مـيـلاً إلى الـشرق " الذي يرفض أن يستسلم، فاقترب جوليان كثيراً من أسواره وكادَ يُقتَل؛ وجُرِحَ حامِل درعه.

في تلك الليلة أمرَ جوليـان بنصب آلات الحِصار في أماكنها. ولسوء الحظ، كـاد القمرُ يكتمِل وكـان الليل أشبـه بالنهار. وبينما واقيات القـذائف والبُريجات تُركَّب على الأسوار، فـتحَ الفُرس فـجأةً بـواباتهم وانهـالوا على قـوات حصـارنـا بالسـيـوف والرِماح، وقتلوا الجزء الأكبر منْ كتائبنا، بالإضافة إلى التريبيون الآمر.

لماذا أتذكَّر هذه الحـادثة بهذا الوضـوح الـشديد؟ لأنني تلقَّيتُ للتو بالبريد نسخةً أوَّلية من رواية أميانوس مارشيلينوس لحَمْلَةِ جوليان الفارسية. وكنتُ قد كتبتُ له قبل بضعة أشـهر أسأله إنْ كان قد كتبَ شيـئاً عن تلك الأيام. وفي رسالةٍ مُفسِّرة يقول إنه يحـتـفظ " بملاحظات غـيـر مُـرتَّبة في بلاد فـارس، كـالمعـتـاد ". وأنا اعـتـبـر أنَّ روايتـه موثوقة. إنه يتمتَّع ببراعة خاصة في وصف العمليات العسكرية. يجب أنْ يكون كذلك. فقد امتدَّت خدمته، كجنديٍ متمرِّس، من بريطانيا إلى بلاد فارس. وسوف أرسل إليكَ تاريخه، ولكن بما أنه مكتوب باللاتينيـة فلن تسـتطيع أنْ تقرأه وأنـا واثق من أنكَ لن تتكبَّد مشقَّة ترجمتـه. وبالمناسبة، يقـول إنه ينوي أنْ يكتب تـاريخ فـترة حكم جوليـان "كما كانت ". وأعـتقد أنه يعني " وجهها الجامد "، وكأنَّ فـترة حكم جوليان جرت قبل ألف عامٍ مضى ولا تنطوي على أي أهمية في الوقت الحاضر. وتمنّيتُ له التوفيق.

ماذا كنتُ أقول؟ كنتُ أتحدَّث عن سحق إحدى كتائبنا على أيدي الفُرس. وبعد أنْ قـام الفُرس بعـملهم الدموي، هربوا عـائدين إلى داخل حصنهم. وفي اليـوم التـالي رمى

جوليان بكامل ثقل جيشه على الحصن. وبعد قتالٍ شرس، سقطَ. وقد أصاب جوليان إرهاقٌ شديد جراء ذلك القتال. سمعتُ أنه قادَ الحصار بنفسه، وقاتلَ مدة ثلاث عشرة ساعة دون انقطاع. وأنا لا أعلمُ هذا لأنَّ مُخيَّمنا كان منصوباً على بُعد عشرة أميال. وكنا نحن رجال البلاط نستقرُ بارتياح بينما الجنود يُقاتلون.

ما الذي أتذكَّره من تلك الفترة؟ ليس كثيراً. كنتُ ألعبُ الداما مع أناطوليوس؛ نجلسُ أمام خيمته ونلعب على طاولة قابلة للحمل أعلاها مُطعَّم بمربّعات وكأنه رقعة لعبةٍ ما. وفي داخل الخيمة، كان الكَتَبَة يكدّون بلا هوادة. إنَّ مراسلات الإمبراطور لا تنقطع أبداً كما لو أنه موجود في قصر القسطنطينية. ومهما كان الوضع العسكري يائساً، كان لابد أنْ يُجيب على بريده.

ذات مرة حين كنتُ وأناطوليوس منهمكَين في لعب الداما، اندفع فيكتور إلى المُخيَّم على رأس مجموعة من الفرسان. وكاد الغبار يعمينا. فاستشاطَ أناطوليوس غضباً. " إنه يفعل ذلك عمداً! إنه يعلم أننا جالسون هنا! " ومسحَ الغبار عن عينيه بطرف عباءته.

" إنه يتصرَّف كما يفعل الغاليون ". قلتُ هذا من باب التحدّي. وكان أناطوليوس عادةً مُتكتِّماً بشأن النزاعات المختلفة التي تجري في البلاط.

" إنه أسوأ بكثير من أي غاليّ. وأكثر طموحاً، أيضاً "

" لنيل الرداء الأرجواني؟ "

" ليس لي أنْ أتكلَّم ". وزمَّ أناطوليوس فمه الصغير.

" ما الذي تعرفه؟ "

" أوغسطوس يعرف ما أعرف "، ولمْ يزِدْ. ثم ربحتُ منه أربع قطع فضيّة، لم يدفعها لي أبداً. هذا هو النوع الذي أنتمي إليه بين المؤرّخين.

جوليان أوغسطوس ١٩ أيار

ها نحن أولاء من جديد نقضي الليل في أحد قصور الملك العظيم. وهذا أجمل وأكثر تَرَفَاً من مسكن الصيادين. إنه مُحاط بحديقة كبيرة من أشجار السرو في ريفٍ غنيّ بكروم العنب والبساتين. نحنُ الآن في عزّ الصيف. ما أروعه من فصلٍ تدور فيه حرب!

قال فيكتور إنَّ في إمكانه أنْ يرتقي أسوار ستيسيفون دون أن يوقفه أحد. كانت البوابات موصدة. ولم يتحرَّك حرّاس الأسوار لإصابة رجاله. وتقول الإشاعة، إنَّ جيش الملك العظيم ما يزال على بُعد أميال كثيرة إلى الجنوب. وعلينا الآن أنْ نستعدّ لنتحرَّك بسرعة. فحالما تسقط العاصمة، تنتهي الحرب. وسوف يلتمس سابور السِلْم. وفي أسوأ الأحوال، سوف يُجازفُ بكل شيء في معركةٍ عنيفة، والفُرس ليسوا معروفين بقدرتهم على خوض حربٍ تقليدية. إنهم، كالعرب، يميلون بفطرتهم إلى السلب والنهب.

دعوتُ ماكسيموس، وبريسكوس، وأناطوليوس وأرميسدا إلى مائدة العشاء. وغرفة الطعام تتَّصِفُ بروعةٍ خاصة بلوحاتها الجدارية التي تُبيِّنُ سابور يصيدُ الأسودَ والخنازير البرية، وكلها بأسلوبٍ واقعيّ جداً، من نوع الرسم الذي أحبّه على الرغم من أني لا أميلُ كثيراً إلى تلك الأشياء. ومع ذلك، وبعد شهرين من التحديق إلى جدار الخيمة، بدأ المرء يستمتعُ بالجمال.

دُهِشتُ حين اكتشفتُ أنَّ ماكسيموس خبيرٌ في الفن. وفي صباح هذا اليوم قامَ بجولة متأنّية في القصر، موصياً أناطوليوس بما ينبغي إعداده لإرساله إلى القسطنطينية. " ولكن هل لاحظتَ، أيها الأوغسطوس، أنَّ اللوحات كلها تتحدث عن موضوعٍ واحد فقط؟ عن القتل. الحيوانات في الصيد. والرجال في الحرب. حيوان ضد حيوان ". لم ألاحظ ذلك، ولكنه كان صحيحاً تماماً.

قال أورميسدا " هذا لأنَّنا نعتبر القتلَ جزءاً ضرورياً ومُقدَّساً من الحياة "

قال بريسكوس " ونحن أيضاً. عدا أننا نتظاهرُ بأننا نمقته بشدّة "

قرَّرتُ ألاّ أُصحِّح كلامه. كنتُ - أنا الآن - في مزاجٍ جيد جداً. كنتُ قد تحمَّمتُ في حمّام الملك العظيم الرخامي، وارتديتُ أحد أثوابه الكتانية الناعمة. من الواضح أننا بطولٍ واحد. وعثرتُ أيضاً على خزانة لحِفظ النفائس تحتوي عدداً من حُلي سابور الخاصة، من بينها خوذة على هيئة رأس كبش من ذهب عليها الشارة الإمبراطورية. أعطيتها لأورميسدا.

قلتُ " قد تتعوَّد أيضاً على اعتمار هذه أيضاً ". فأخذها مني. ثم خرَّ على رُكبَتيه وقبَّلَ يدي. " إنَّ دار الفُرس ممتنة إليك إلى الأبد "

قلت بجفاف " يكفي جيل من السلام "، مُتسائلاً كم سيمر من وقت قبل أنْ يتَّضِح

أنَّ الملك العظيم أورميسدا غير مُخلِص لروما. إنَّ الرجال مجرَّدون من الامتنان، خاصةً الملوك. أورميسدا لا يعرف هذا، ولكنني قرَّرتُ أنْ أحتفظ بجيش في ستيسيفون لمدة غير محدودة.

بينما الفلاسفة يتسلّون بالجدال، اجتمعنا أنا وأورميسدا بالقادة في غرفةٍ مُجاورة. على الطاولة كان هناك خريطة لستيسيفون عثرَ أورميسدا عليها في مكتبة الملك العظيم. إنه يعتقدُ أنها موثوقة. وكان فيكتور، ونيفيتا، وداغاليف وأرينثيوس حاضرين؛ وأيضاً كبير المُهندسين.

دخلتُ في الموضوع مباشرةً. " لا سبيلَ أمامنا للاقتراب من ستيسيفون عن طريق المياه ". وأشرتُ إلى الخريطة. " نحن ضمن مثلَّث. فوقنا نهر الملك؛ خلفنا نهر الفرات؛ وأمامنا نهر دجلة. نهرا الفرات ودجلة يلتقيان هنا، جنوب ستيسيفون مباشرةً. لكننا لا نستطيع أنْ نُبحِر من نهر الفرات إلى دجلة لأنَّ ستيسيفون تهيمن على نهر دجلة عند نقطة الالتقاء الطبيعية. أيضاً، نأمل أنْ نستخدم نهر الملك، الذي ينضم إلى نهر دجلة فوق ستيسيفون، لكنَّ هذا المقطع من القنال جافّ. لم يبقَ لدينا إلاّ خَيَار واحد، هو أنْ نفتح قنال تراجان ". أشرتُ إلى خط مُنقَّط على الخريطة. " فحين كان تراجان هنا، حفرَ قنالاً عميقاً امتدَّ من الفرات إلى دجلة، مُتتبِّعاً حوض قنال آشوري قديم. وكبير المهندسين يدرس هذه القنال منذ يومين، ويعتقد أنه يمكن إعادة فتحه "

أدرجَ كبير المهندسين بسعادة الصعوبات العديدة التي تنجم عن افتتاح القنال، وأكبرها وجود سد حَجَري بناه الفُرس على القنال لمنع الغُزاة من استخدامه كما فعل تراجان. ولكن ما إن يتصدَّع السد، حتى يُصبح الإبحار في القنال ممكناً، كما أكَّدَ كبير المهندسين. وبعد نقاشٍ وجيز، أعطيتُ الأوامر بهدم السد.

القادة مبتهجون. وداغاليف وفيكتور خاصةً تواقان إلى خوضِ معركة حاسمة. أورميسدا قَلِقٌ : لقد أصبح شديد القُرب من تحقيق أحلامه كلها. بعد ذلك صرفت الجميع ما عدا نيفيتا، الذي طلبَ أنْ يبقى. أمرٌ مُقلِق. م.

بريسكوس : عمَّ تحدَّثا يا تُرى؟ لابد أنَّ نيفيتا حذَّره من أنَّ هناك مؤامرة تُحاك ضدّه. وعبارة " أمر مُقلِق " توحي بهذا. وحرف " م " تعني مسيحيين. ضعْ الاثنين معاً فيتَّضِح المعنى.

في الرابع والعشرين من أيار افتُتِحَ القنال وعَبَرَ الأسطول الأميال الثلاثة من نهر الفرات إلى نهر دجلة، ورسا على مسافة نصف ميل إلى الشمال من مدينة ستيسيفون، التي ترتفع من وادي نهر دجلة كجبلٍ من الآجُر بدا ثقله الضخم كافياً تماماً ليجعلَ الأرضَ نفسها تنحني. ومن جانبنا من النهر لم نكن نستطيع أنْ نرى أيَّ شيءٍ من المدينة ما عدا الأسوار، التي لا تعلو إلا بمقدار نصف علوّ أسوار القسطنطينية. وكانت أبراجٌ شبه دائرية تدعمُ، على مسافات منتظمة، المبنى. وبين دجلة والمدينة كان هناك سهلٌ منفتح حيث تجمَّعَ جيش الملك العظيم في ليلة الخامس والعشرين من أيار.

استيقظَ أناطوليوس عند شروق الشمس وغادرنا معاً المُخيَّم وانحدرنا إلى ضفة النهر، حيث كان نصفُ جيشنا قد تجمَّعَ مسبقاً لمراقبة العدو. كان مشهداً خلاَّباً. الجيش الفارسي الذي يعُدُّ تقريباً مئة ألف رجل. أو هذا ما ندَّعيه اليوم. لا أحد أبداً يعلم مقدار ضخامة جيش العدو، ولكننا دائماً نردِّد أنه يبلغ ثلاثة أضعاف جيشنا. أعتقد أنَّه ربما كان كذلك. وخلف سياجٍ من الأوتاد الخشبية على منحدَر ضفة النهر، اصطفَّ جُند العدو على أهبة الاستعداد للقتال. وبدا العبور أمراً جنونياً.

كان يكتنفنا من كل جانب جنودٌ يتحدثون فيما بينهم بقلق. ولم يكن الأمر يتطلَّبُ جندياً مُحنَّكاً ليُدرِك مدى صعوبة عبور ذلك النهر تحت وابل النار، والأسوأ من ذلك ارتقاءُ ضفة النهر الزلاّقة والهجوم على المتراس.

التفتُّ إلى أناطوليوس، الذي بدا قلِقاً كما شعرتُ. " لا نستطيع أنْ نعبُر من هنا "

" ربما الإمبراطور ينوي أنْ نتحرك إلى أعلى المجرى. أنْ نقطع مسافة الأميال القليلة إلى الشمال ومن ثم، ندور - كما تعلم، على طريقة مناورة قسطنطين الكلاسيكية... ". ولكن على الرغم من شَغَفه غير المُحترف بالاستراتيجية، لزم أناطوليوس الصمت. وعلى مدى ساعة تقريباً رحنا نُحدِّقُ بحزن إلى الفُرس الذين بادلونا التحديق. ثم ظهر أحد الناطقين باسم جوليان، منادياً على الرجال ليتجمَّعوا. سوفَ يُعطي الإمبراطور بنفسه أوامر هذا اليوم.

قلتُ " لن يُرضيني إلاّ الانسحاب التام "، بينما تساءلَ أناطوليوس عمّا سيحدث إذا ما تجاهلنا ببساطة ستيسيفون واتَّجهنا إلى الجنوب نحو الخليج الفارسي " من حيث يأتي اللؤلؤ. إنه بلد غنيّ، من النواحي كلها "

ظهرَ جوليان أمام القوات المجتمعة. كان يضجُّ بالحيوية : عيناه تشعّان؛ وعباءته نظيفة للمرة الأولى؛ وأنفه يتقشَّر قليلاً بسبب حرق الشمس.

" أيها الرجال، لقد رأيتم جيش الفُرس. والأهمّ من ذلك، أنهم رأونا! ". سكتَ ليُفسحَ مجالاً للتهليل. ولكن لم يصدر شيءٌ منه. فاختصر فترة الصمت. إنَّ القادة الذين يسمحون لفترة توقُّف بائسة أنْ تطول أكثر من اللازم من المُرجَّح أنْ يجدوا الصمتَ يمتلئ بتلك العبارة الفظّة الواحدة التي تُحدِث تمرُّداً.

لكنَّ جوليان فاجأنا جميعاً. " كلنا مُتعبون اليوم. لقد مررنا بأسبوعٍ صعب، نظّفنا القنال، ونقلنا الأسطول، ونصبنا المُخيَّم. لذلك سوف نلعب اليوم. أقترحُ لعبة سباق الخيل. والفائزون ينالون جوائز من ذهب. والمراهنة سيُترَك أمرها لكم بما أنَّ هناك، كما أفهم، بضعة من البتولانتيين الذين يعرفون خفايا السباق. وأنا واثق من أنهم سيساعدوننا. أتمنى لكم وقتاً ممتعاً ". صرفَ الرجال بتلويحٍ من يده، كمُعلِّم مدرسة يمنح تلامذته عطلةً غير متوقَّعة.

ذُهِلَ الجميع. لو أنَّ قائداً آخر فعل ذلك، لاعتقدَ الرجال أنه مجنون. لكنَّ هذا جوليان الذي لم يخسر معركةً في حياته. وبعد شهقة الدهشة الأولى، هلَّلَ الجنود بابتهاج لقائدهم الشاب الذي استطاع، بكل ثقة في النفس، أنْ يأمر بممارسة الألعاب بينما كامل جيش ملك فارس العظيم مُحتشِدٌ على بُعد ميلٍ واحدٍ فقط. لقد أرجعوا حظ جوليان ومهارته إلى كونه رجلاً. فإذا كان بمثل هذه الثقة بالنفس، فكيف يمكن لهم أن يقلقوا؟ لذا نفَّذَ الجيش ما أُمِرَ بفعلِهِ، وأمضى أفراده النهار في إجراء المسابقات وممارسة الألعاب.

في تلك الليلة أمرَ جوليان بعبورٍ مُفاجئ لنهر دجلة. كان الجيشُ مُجزَّءاً إلى ثلاثة أقسام. فحالما يُثبِّتْ الأول قَدَمَه على الجانب القصيّ، ينطلق الثاني، ثم الثالث. عارضَ القادة هذه الخطة. أشارَ فيكتور إلى آلاف نيران المخيمات الفارسية التي تملأ الأفق. "إنَّ لديهم كل المزايا العسكرية "

قال جوليان بغموض " ليس كلّها. وسوفَ ترى أنني على صواب. قُل لرجالك أن يصعدوا إلى متن السفن. أريدُ أنْ يكون الجميع قد عَبَروا بحلول الصباح "

صعد أربعة آلاف رجل إلى خمسة سفن تحميل فارغة، بقيادة فيكتور الكاره

للأمر. لم أرَ في حياتي جنوداً يفوقونهم خوفاً. وقبل أن يغادروا، تشاجرَ فيكتور مع جوليان على ضفة النهر. لم يسمع أيٌّ منا ما قيل لكنَّ فيكتور غادر وهو حانق وكان جوليان هادئاً كعادته.

اختفتْ السفن في الظلام. ثم صمت. ومرَّتْ ساعة. أخذَ جوليان يمشي جيئةً وذهاباً، متظاهراً بأنه غير مُهتم إلاّ بما تبقَّى من السفن التي ستقلُّ باقي الجيش عبر النهر حالما يُصبح الجانب الفارسي آمناً. وانتظرَ الجيش.

فجأةً خرقَتْ سِهامٌ ملتهبةٌ ظُلمة الليل. كان رجال فيكتور يرسون. والفُرس يُهاجمونهم. أضرمت سِهام الفُرس النارَ في سفينةٍ واحدة، ثم اثنتين، ثم السفُنُ الخمسُ كلها تلظَّت بالنيران. وعن بُعد، سمعنا رجال فيكتور يهتفُ بعضهم لبعض وهم يرتقون ضفة النهر الزلاّقة على ضوء لهب السفن. وعلى جانبنا من النهر، كان الرعب قد بدأ ينتشر.

أنقذَ جوليان الموقف بواحدة من أكاذيبه المُلهَمة. ففي الوقت الذي كنا فيه جميعاً متأكّدين من أنَّ عملية الرسوّ قد أخفَقَتْ وأنَّ الرجال قد ضاعوا، أشارَ جوليان إلى السفن الخمسة المُحترقة وصرخَ " هذه هي! احتراقُ السفن. هذه هي الإشارة. إشارة فيكتور. لقد نجحتْ عملية الرسوّ! إلى السفن! إلى السفن! "

لا أعلمُ كيف فعلَ ذلك وجعلَ الرجال يُصدّقونه. وأخذ يجري على طول الضفة وعرضها، يصرخ في الرجال، يدفعهم، يتملّقهم لكي يرتقوا مراكب الرسو. ثم قفز هو نفسه إلى السفينة الأولى حالما باشرت بمغادرة الشاطئ. الآن أصبح الرجال ممتلئين بالحماس مثله، واحتشدوا فيما تبقَّى من سفن. بل إنَّ بعضهم عاموا في النهر على تروسهم. راقبتُ الجيش الروماني وهو يختفي داخل النهر المُظلِم، وأنا متيقِّن من حلول كارثة تامة.

مع انبلاج الفجر، وأمام ذهولي، استولينا على ضفة النهر.

في اليوم التالي جلسنا، ماكسيموس وأنا، بالإضافة إلى الكهنة وأناسٍ آخرين مذعورين، بارتياح على حافة النهر وراقبنا معركة ستيسيفون وكأننا أمام خشبة مسرح. وحين اشتكينا من الحرارة، أُحضِرَتْ إلينا مظلات، وخمر. لم يحدث قبل ذلك أنْ راقبَ فلاسفةٌ بكل ذلك الارتياح إمبراطوريتين تلتحمان بذلك الشكل المميت.

جلستُ بين ماكسيموس والماستارا الأتروري. لم يكن أناطوليوس معنا، لأنه كان قد اختارَ بكل شجاعة أنْ يُحارب إلى جانب جوليان في ذلك اليوم، مع أنه ليس من المتوقَّع من القيِّمين على شؤون البلاط أن يكونوا مُحاربين. وضايقناه كثيراً وهو يستعد للاشتراك في المعركة، وفمه الصغير يرسمُ حَلَقَة عسكرية صارمة في وجهه الناعم بعجز.

قال عَرَضياً " لقد أمضيتُ سنوات كثيرة في سلاح الفرسان ". اهتزَّ بطنه المدوَّر من تحت درعه غير المناسب له وهو يشيرُ بغطرسة إلى السائس كي يُحضر إليه حصانه. ارتقى أناطوليوس، بتباهٍ، ظهر الحصان ومن ثم سقطَ من الجانب الآخر. أخشى أننا نحن الكَتَبَة ضحكنا من أخينا المتعجرف . لكنَّ أناطوليوس فعلَ ما أراد؛ تبعَ إمبراطوره إلى المعركة.

في أول الأمر رأينا كل شيء بوضوح. كان الفرس ينتشرون على هيئة قوس بين أسوار ستيسيفون والنهر. أولاً سلاح الفرسان؛ ثم المُشاة؛ ثم مئة من الفيلَة صُفَّتْ، كسلسلةٍ من تلال الوحل، على طولِ السور، وكلٌ منها مزوَّد ببرجٍ من الحديد على ظهره، تضمُ رُماة أَقواس.

الفرسان الفارسيون يرتدون شكلاً عجيباً من الدروع يتألَّف من مئاتٍ من الصِحاف الحديدية الصغيرة خيطَتْ معاً بطريقةٍ لا تغطّي الجندي بأكمله بالدرعِ فحسب بل يستطيع أنْ يتحرَّك بسهولة، والحديد مُنطبق على حدود جسمه كالثوب. وخيولهم تحميهم ملاءات جلدية. إنَّ الفرسان الفارسيين هم أسلحة ممتازة في أيدي قادة ذوي كفاءة. ولحُسن حظنا، لم يكن هناك في ذلك الوقت أي قادة فارسيين من أي رتبة. أيضاً، الجيش الفارسي ليس مؤسسة دائمة كمؤسستنا بل مجموعة تصادفيّة من المُجنّدين، والمُرتزقة، والنبلاء والعبيد. وفي زمن الأزمات القومية يُجبَر كل رجل قادر جسدياً على الخدمة، وهذا حتماً ليس أفضل الأنظمة بأي حال.

من خلف الفرسان، تقدَّم مُشاة الفُرس متراصّين، تحميهم تروس أماليد مجدولة عريضة الشكل مُغطاة بجلدٍ غير مدبوغ. وبين الفيلة في المؤخرة كان الوزير الأكبر، بينما راقب الملك العظيم من فوق أسوار ستيسيفون مع حاشيته المعركة بالطريقة نفسها التي نراقبُها بها نحن الفلاسفة من مجلسنا على الكراسي القابلة للطي على ضفة النهر. كنا أبعد بكثير من أنْ نميِّز صورة سابور، مع أنَّ ماكسيموس، كالمعتاد، ادَّعى أنه شاهده بوضوحٍ تام.

" أنا أرى عن بُعد بشكلٍ خارق، كما تعلم. سابور إلى يسار ذلك البرج بجوار البوابة. أترى الظلّة الزرقاء؟ حسنٌ، إنه تحتها مباشرةً، يرتدي الزي الأرجواني. لابد أنَّ الذين معه هم أبناؤه. يبدون صغاراً جداً... "، واستمر يُثرثر هكذا. في الواقع، إنَّ كل ما يستطيع أيٌّ منا أن يراه هو لونٌ باهت خفيف على الشُرُفات المفرَّجة.

لكن جوليان كان الأكثر وضوحاً، يتمشّى على حصانه بقلق على طول الخط الأمامي مع تقدُّم جيشنا. من الواضح تمييزه ليس فقط من حصانه الأبيض وعباءته القرمزية بل من شعار التنين الذي يُصاحبه دائماً.

نُفِخَ في الأبواق إيذاناً بالتقدُّم. ثم بدأ المُشاة سيرهم الغريب بأسلوبه الخاص، الذي يعتمد على أسلوب جيش اسبارطة القديم: خطوتان قصيرتان، وتوقُّف، خطوتان قصيرتان، وتوقُّف، وذلك كله بتناسُق تام مع قرع الطبل الموقَّع. إنَّ من الشؤم أنْ نرى ونسمع معاً. حتى ماكسيموس لزِمَ الصمت أثناء تقدُّم الجيش الروماني. ثم، رمى مُناوشونا في الصف الأول رماحهم وهم يصرخون نحو الفرسان الفُرس. وتلاشى الجيشان. ولبرهة مِن الزمن كدتُ أؤمن بسحر ماكسيموس. وحيث كنا نرى بكل وضوح مئة وثلاثين ألف رجل تحت أشعة الشمس الساطعة، أصبحَ هناك الآن لا شيء غير غمامة كثيفة من الغبار. ولم نعد نرى أيَّ شيء. ولكن من قلب الغمامة سمعنا نفخ أبواق، وقرع طبول، ونداءات حرب، ومعادن تتقارع مع معادن، وهسيس سهام.

بدأتْ المعركة مع شروق الشمس واستمرَّتْ حتى غروبها. وبعد ساعةٍ أو اثنتين من مراقبة الغبار ملَّ الأترووريون، وانسحبوا " ليصلّوا من أجل إحراز النصر ". وبدل أنْ يفعلوا، استقرّوا في بستانٍ قريب من أشجار نخيل البلح ليُقيموا حفلَ شراب. كانوا شاربين خارقين للخمر. وإحدى ذكرياتي السعيدة عن الحملة الفارسية ما حدثَ ذات ليلة حين كان الأترووريون الخمسة جميعاً غاية في السُكر أثناء إقامة مراسم دينية هامة. كانت النتيجة كارثة هائلة. فقد أخذوا يُسقطون الأواني والكُتُب المقدَّسة، بينما كان ماستارا يؤكِّد لجوليان الحانق بكل رصانة أنَّ " الإله يسكننا ".

ماكسيموس وأنا راقبنا جدار الغبار طوال النهار. الإشارة الوحيدة التي حصلنا عليها عن طبيعة سير المعركة كانت موقع غمامة الغبار وهي تنتقلُ، مع مرور الساعات، أقربَ فأقرب من أسوار ستيسيفون. كان الفرس يتراجعون.

قال ماكسيموس فجأةً " في الخامس عشر من حزيران سوفَ نعود إلى طرسوس "؛ كان يرسمُ إشارات بالغبار عند أقدامنا بعصاه السحرية.

" في غضون ثلاثة أسابيع؟ "

" ثلاثة أسابيع؟ أهي ثلاثة أسابيع؟ "، ورماني بنظرةٍ فارغة. " إنها حقاً كذلك! ما أروع التفكير في أننا سنهزم بلاد فارس في فترة زمنية قصيرة كهذه. إنَّ الإسكندر نفسه لم يُحقق ذلك. لعلّي ارتكبتُ خطأً ما ". وأخذ يدرسُ الغبار عند قدميه. ووددتُ لو أكسر عصاه على رأسه الأحمق.

" كلا. الحساب صحيح. الخامس عشر من حزيران. واضح وضوح النهار. يجب أن نُخبر جوليان. سوف يُسَرّ ". نظر بغموض نحو ساحة المعركة.

" ما أدراكَ أنَّ الإمبراطور... ". شدَّدتُ على اللقب. لا أحد غير ماكسيموس أشار مرةً إلى جوليان بالاسم. "... لا يزال على قيد الحياة "

" يجب أنْ يكون كذلك. إنه الخامس عشر من حزيران. لقد أريتُكَ. انظُر، في برج الشمس الرابع... "

" وما أدراكَ أننا سننتصر في هذه المعركة؟ "

" أنتَ أحياناً تُذهلني، يا بريسكوس. الأمرُ واضحٌ وضوحَ الشمس. سابور يوشك أن يسقط، ونحن سنعود إلى ديارنا منتصرين. هذا قَدَرُنا. وبصراحة إنني أتطلّع إلى العودة إلى الحياة الخاصة. إنني موجودٌ هنا لأنَّ جوليان أصرَّ... "

بينما كان ماكسيموس يُبربر، حدَّقتُ إلى اسوار ستيسيفون، في انتظار انتهاء المعركة. وقُبيل غروب الشمس، بدَّدَ نسيمٌ خفيف سحابة الغبار فتمكّنا من جديد من رؤية الجيشين، اللذين أصبحا الآن متشابكيْنِ بشكل يائس عند بوابة المدينة. كانت الفيلة تندفعُ كالمجنونة، بجذوعٍ مُجعّدة، وأنيابٍ وامضة. وقد سمعتُ أنَّ الفُرس يسخدمونها لإخافة رجالهم بالإضافة إلى رجال العدو. وكانت تلك الحيوانات الشنيعة تدوس الفُرس والرومان على قدم المساواة.

بينما الشمس الحمراء تغرب، فُتِحَتْ بوابات المدينة لتستقبل الجيش الفارسي. لاحقهم جيشنا. وبعد ثوانٍ، لم يعُد الجيش الفارسي جيشاً وأصبحَ غوغاءَ من الرجال المذعورين، والكلّ يُحاول الولوج من البوابات. ثم هبطَ الظلام.

جوليان أوغسطوس ٢٧ أيار

لا أستطيع النوم. داخل خيمتي، أقطعُ المكانَ جيئةً وذهاباً. إنني مُرهقٌ بعد اثنتي عشرة ساعة من القتال - لكنني من شدَّة الإثارة أعجز عن النوم، أو عن عمل أي شيء. إنني أكاد لاأستطيع أنْ أخطَّ هذه الأسطُر. يدي ترتعشُ من فرط التوتُّر.

لقد هزمتُ جيشَ الملك العظيم! مات ألفُ ومائتا جندي فارسي، وفقط خمسٌ وسبعون من الرومان! كان يمكن أن نستولي على ستيسيفون. كان يمكن لُمشاتنا أن يدخلوها حين فعلَ الفرس ذلك لكنَّ فيكتور أوقفهم. أنا واثقٌ من أنه كان على حق. ولو أني كنت موجوداً عند البوابة، لأمرتُ الرجال بالدخول. كان يجب أنْ ننتهز الفرصة. لكنَّ فيكتور حَذِر. وقد جُرِحَ أيضاً - اخترقَ سهمٌ كتفه الأيمن، لاشيء خطير. والآن سوف نضطرُ إلى ضرب حِصارٍ حول المدينة. مسألة طويلة.

اليوم رأيتُ الملك العظيم، وهو رآني. كان سابور جالساً على السور، تحت ظِلّة. لم أكن أبعُد عنه أكثر من بضع ياردات. وعلى الرغم من اقترابه من سن السبعين، كان يبدو أصغر سناً بكثير. إنه نحيل وأسود شعر اللحية. (يقول أورميسدا إنَّ شعره مصبوغ : سابور شخص تافه فيما يخصّ المظهر، وأيضاً فحولته... لا أحد يعلم كم ولداً لديه). كان يضعُ تاجاً من ذهب عليه ريشة قرمزية. وكإيماءة ازدراء، كان يرتدي ثوب البلاط! بدا أشبه بطاووس، يُحدِّقُ بغضبٍ إليّ.

لوَّحتُ بذراع سيفي. هتفتُ " انزل! "، لكنني أشكُ في أنه سمعني وسط ذلك الضجيج. لكنه رآني وعَرَفَ مَنْ أكون. لقد شاهد الملك العظيم إمبرطور روما عند بوابة المدينة! بدا أفراد الحاشية من حوله مذعورين. لم يأت أيٌ منهم بحركة. ثم تشتَّتَ انتباهي بسبب المعركة الدائرة من حولي. وحين نظرت مرةً أخرى إلى السور، كان سابور قد اختفى.

قبل أنْ نعود إلى المُخيَّم، دفنَّا موتانا وجرَّدنا الجثث الفارسية من الملابس. لقد قُتِلَ كثير من النبلاء ودروعهم لها قيمة كبرى عندنا. ولسوء الحظ، لا احد من الغاليين والجرمان يستطيع أنْ يرتدي الدروع الفارسية؛ إنها أصغر حجماً من أنْ تلائمهم. لذا أفضل الدروع في العالم تذهب إلى أسوأ جنودنا، الآسيويين!

أقمنا عشاء انتصار في خيمتي. وسكِرَ القادة. لكنني لم آكل ولم أشرب أيَّ

شيء. إنني شديد التوتُّر. يقولُ ماكسيموس إنَّ الحرب ستنتهي في غضون ثلاثة أسابيع. ظلَّ الجنود يغنّون لأجلي طوال الليل. عديدٌ منهم كانوا سكارى لكنني لا أعنّفهم. أخرجُ إليهم وأعانقهم وأخاطبهم بأسمائهم، وأخبرهم عن مدى روعتهم، ويقولون الشيء نفسه لي. غداً سأمنح تيجان الحرب للذين أبدوا شجاعةً فائقة. سأقدِّم أيضاً أضحية لإله الحرب آريس.

لماذا لم يلِجْ فيكتور المدينة؟

بريسكوس : في اليوم التالي لم يُعكِّره إلا تقديم الأضحية. فبعد أنْ نالَ الرجالُ أوسمتهم، حاولَ جوليان أنْ يُضحي لآريس بثور على مذبحٍ مبني حديثاً. ولكن لسببٍ أو لآخر، وُجِدَ الأترورِيون أنَّ تسعة من الثيران ضعيفة. الثور العاشر حظيَ بالقبول، وهرب في اللحظة الأخيرة. وحين قُبِضَ عليه أخيراً وتمَّتْ التضحية به، كان الكبد يوحي بالكارثة. وأمام ذهول الجميع، رمى جوليان بسكين التضحية وصرخَ في وجه السماء "لن أضحّي بعد الآن لك!". بدا ماكسيموس شديد الذعر وحتى أنا بوغتُّ. واختفى جوليان داخل خيمته، وهو مُحتقن الوجه يتصبَّب عَرَقاً بتأثير الشمس الحارة. أرجعتُ سبب تصرّفه الغريب إلى حرمانه من النوم خلال اليومين السابقَين.

في اليوم نفسه رافقني أناطوليوس في جولة على ساحة المعركة. كان شديد البسالة. " هنا قام الفيلق الهرقلاني بحركة هجوم جانبي ليفسح المجال للكتائب البيتولانتية الخفيفة التسليح للقيام بحركة اختراق... "، وما إلى ذلك. كان أناطوليوس مسروراً جداً بخبرته العسكرية، ولم يُطاوعني قلبي أنْ أضحك منه وهو يقودني على الأرض المُغبرَّة التي لا تزال جثث الفارسيين مُبعثرة عليها. ولاحظتُ ظاهرة مُثيرةً. إنَّ الفارسيين لايتعفَّنون تحت أشعة الشمس الحارة مثل الأوروبيين. فبعد مرور يومين من هذا الطقس، تصبح الجثث الأوروبية في حالة تحلُّل متقدّمة. ولكن ليس الفارسية. إنها فقط تجف وتصبح قاسية كالجلد. وذات مرة سألت أوريباسيوس عن هذه النقطة فقال إنَّ مرجعها هو إلى الحِمية. فحسب قوله نحن نُفرِطُ في شرب الخمر وفي أكل القمح بينما الفرس يأكلون باقتصاد، ويُفضّلون التمر والعدس على طعامنا الغني. لكنني لاحظتُ جثث الغاليين النحيلة - نعم، هناك بعضٌ منها - وعلى الرغم من أنَّ أصحابها عاشوا حياةً مُتقشّفة، إلاّ أنهم تحلّلوا بسرعة تعفُّن إخوتهم البدينين. أمرٌ مُحيِّر جداً.

جُرِّدَ الفُرس من دروعهم وأشيائهم الثمينة، ماعدا واحداً كان لا يزال يضعُ خاتماً من ذهب. قرَّرتُ أنْ آخذه كتذكار. وحتى الآن لا أزال أذكُر ملمس تلك اليد اليابسة، الباردة، وبجهدٍ كبير عدَّلتُ الأصابع التي كانت على شكل قبضة بُنيّة. حدَّقتُ إلى وجه الرجل الميِّت. كان شاباً؛ وليس له لحية. نظرتُ إليه. وهو نظرَ إليّ، بعينين مصقولتين وكأنما بفعل الحُمَّى. وأزَّ الذباب حول رأسه.

قال أناطوليوس بارتياح " غنائم الحرب "

قلتُ للفارسي الميت " غنائم الحرب "، وتركته يسقط عائداً إلى الأرض بصوتٍ مكتوم. بدا غير مُقتنع. استقرَّ الذباب على وجهه. وضعتُ الخاتم في إصبعي إلى ما قبل بضعة أشهر مضَتْ حين أضعتُه في الحمّامات. كنتُ مؤخراً قد نحلتُ وسقطَ الخاتم في غرفة التسخين. وطبعاً، المُرافقون لا يُعيدون ما يعثرون عليه.

بعد يومين، في التاسع والعشرين من أيار، نقلَ جوليان الجيش إلى أبوزاده، وهو حصنٌ فارسي يقعُ على نهر دجلة على مسافة ثلاثة أميال من ستيسيفون. هنا نصبنا مُخيَّماً. وعلى مدى عِدَّة أيام لم يقابل جوليان أحداً من أصدقائه. اختلى أثناءها مع أركان حربه. كان هناك خلاف بين القادة. فبعضٌ منهم أرادَ ضربَ حصارٍ حول ستيسيفون. وبعضٌ آخر فضَّلَ عزل المدينة ومواصلة غزو بلاد الفرس. وعددٌ قليلٌ منهم نصحَ بالعودة إلى المناطق الرومانية. ولا أحد منا كان يعرفُ أيَّ شيء عن خطة جوليان أو إذا ما كانت لديه خطّة أصلاً. ولا علِمَ أحدٌ منا أنه بينما نحن في المُخيَّم، استقبلَ هو وفداً سرّياً من سابور. وأعترفُ بأنه حتى لو كان يعلم، لما اهتممتُ كثيراً للأمر. وكنصف أفراد المُخيَّم، كنتُ مصاباً بمرض الزحار.

جوليان أوغسطوس ٣٠ أيار

كان الوفد الفارسي قد غادرَ للتو. أورميسدا من ضمنه. أجلسُ وحدي في خيمتي. وفي الخارج، كاليستوس يُغنّي أغنية حزينة. الجو شديد الحرارة. إنني أنتظر ماكسيموس. إذا انسحبتُ من بلاد فارس، فإنَّ الملك العظيم يعدُ بأنْ يتخلّى لي عن بلاد ما بين النهرين كلها التي تقع إلى الشمال من أناثا؛ أيضاً، سوف يُعيدُ بناء مدينتنا أميدا، على نفَقَته الخاصة، ويدفع ذهباً أو بالشكل الذي نرغبه نفقات هذه الحرب. لقد هُزِمَت بلاد فارس.

جاءني السفراء سراً. هكذا أرادوا أن يكون اللقاء. وكذلك أنا. أُحضروا إليّ وكأنَّهم ضباطٌ أسرى في غارةٍ عربية. لا أحد غير أورميسدا وأنا نعلم أنَّ هذا وفد رسمي. رئيس الوفد هو أخو الوزير الأكبر. إنه يحتفظ بفخامته التامة أثناء عرضه المعاهدة التي، إذا قبلتُها، ستعني أني سأكسب مزيداً من أراضي الشرق لصالح روما أكثر مما فعل أي قائد منذ بومبي. ولإدراكه هذا، شعر السفير بأنه مُلزَم بالاستغراق في خُطبةٍ فارسية. " لا تنسَ، أيها الأوغسطوس، أنَّ جيشنا يتفوّقُ في العدد على رمال الصحراء. تكفي كلمة واحدة من الملك العظيم وتضيعُ أنتَ ورجالك كلهم. لكنَّ سابور رحيم "

قال أورميسدا، حين لاحظَ غضبي، " إنَّ سابور خائف ". فضَّلتُ أنْ أبدو لا مبالياً أثناء كلام الموفدين، لكي لا أعطيهم أي إيحاء بما أنوي أنْ أفعل. لكنَّ أورميسدا كان متوتِّراً بصورةٍ غير عادية خلال الأيام القليلة الأخيرة. وعلى الرغم من سنِّه المتقدِّم، حاربَ كالشبان في ستيسيفون. والآن يرى أنَّ تاجَ فارس يكاد يصبح في متناول يده، ويخشى أنْ يفلت من قبضته. إنني متعاطفٌ معه. ومع ذلك ليس من الضروري أنْ تتوافقَ سياستي مع سياسته.

وبَّخَ أورميسدا أعضاء الوفد بسخرية. " أنا أعرف ماذا يحدثُ في قصر ستيسيفون. أعرفُ الهمسَ الدائر في أروقته الطويلة، خلف الأبواب العاجيّة. لا شيء مما يحدثُ بينكم يخفى عليّ "

لم يكن هذا كله خِداعاً. إنَّ جواسيس أورميسدا متمركزون بشكل جيد حقاً في البلاط الفارسي وهو على عِلمٍ بأمورٍ مدهشة. كذلك، بينما كنا نستولي على مزيدٍ فمزيدٍ من الأراضي الفارسية، كان هناك ميلٌ بين الحاشية المتوتّرة إلى التحوُّل من الملك القديم إلى الجديد المُحتَمَل. لكنَّ السفير لم يكن من الذين يستطيع أورميسدا أن يكسب ولاءهم.

" هناك خَوَنةٌ في كل قصر، أيها الحاكم "، استخدمً لقبَ أورميسدا الروماني. ثم التفتَ إليّ. " وفي كل جيش، أيها الأوغسطوس ". لم أعترف بهذه الحقيقة الخطيرة. "ولكن الملك العظيم رحيم. إنه يحبُّ السلام... "

ضحكَ أورميسدا بطريقةٍ مسرحية. " إنَّ سابور يلبس خِرقاً، أخذها من شحّاذ.

ولحيته وشعره مملوءان بالرماد. يأكل مما انتشرَ على الأرض كالحيوان. ويبكي، لأنه يعرف أنَّ نهايته قد دَنَتْ ". لم يكن أورميسدا يُغالي. وخلال الساعات القليلة الأخيرة وصلنا عدة تقارير مُعذِّبة عن حزن سابور لانتصاري. إنَّ لديه كل الأسباب ليكونَ حزيناً؛ إذ قليلةٌ هي الممالك التي تعرَّضَتْ للمذلَّة الكاملة هكذا.

قرأ السفير على مسمعي مسودة المعاهدة. شكرتُهُ. ثم أمرتُ أورميسدا أنْ يأخذ الوفد إلى خيمة أناطوليوس، التي هي التالية لخيمتي. سوف ينتظرون هناك إلى أنْ أحضِّرَ رداً جوابياً. أرادَ أورميسدا أن يبقى ليتحدثَ معي لكنني صرفتُهُ. لم يُصبح ملكاً عظيماً بعد.

الآن أنا جالس على السرير. المعاهدة أمامي : رقعتان ملفوفتان : واحدة باليونانية، وواحدة بالفارسية. وضعتهما جنباً إلى جنب على جلد الأسد. ما العمل؟ إذا قبِلتُ شروط سابور، فسأحقِّقُ انتصاراً. وإذا مكثتُ، فلستُ واثقاً تماماً مما إذا كان حصار ستيسيفون سينجح. سوف يستغرقُ وقتاً طويلاً دون شك؛ ربما عاماً، ولا أستطيع أنْ أغيبَ عن القسطنطينية كل تلك المدَّة. اليوم لا يشكِّلُ الجيش الفارسي أي تهديد، ولكن مَنْ يدري أيُ نوعٍ من الجيوش قد يُنزل سابور إلى الساحة في الأسبوع القادم، أو الشهر القادم؟

إنَّ كلَّ شيءٍ يعتمد، في نهاية المطاف، على بروكوبيوس. إنه موجود في الشمال، في بيزابده في كوردونه. أو هكذا سمعت. لم يصلني أي خبر مباشر منه.

لقد كان ماكسيموس لامعاً الآن. وكعادته دائماً، دخلَ مباشرةً إلى صُلب الموضوع.

" هذه المعاهدة هي انتصار : المقاطعة تمَّ كسبها، والسلام بات مؤكَّداً لمدة على الأقلّ... "

"... عقدٍ من الزمان "

" وربما أكثر. وأُعيدَ بناءُ أميدا. مع ثروة من الذهب. قليلٌ من الأباطرة حققوا مثل هذا الإنجاز. ولكن... ". نظرَ إليّ مُتفكِّراً. " أمِنْ أجل هذا فقط وصلنا إلى هذا الحد، ألكي نكسب مقدار نصف مقاطعة؟ أم لنغزو نصفَ العالم؟ "

سكتَ. انتظرتُ. وكفيلسوفٍ حقيقيّ أخذَ الآن يُقلِّبُ المسألة، أولاً على أحد الجانبَين، ومن ثم على الجانب الآخر. " لا يمكن إنكارُ أنَّ هذه معاهدة ممتازة، بل أفضل

مما قد يحلم به أي إنسان... إلاّ نحن، الذين نعرف ما لا يعرفه أي إنسانٍ آخر. إنَّ سيبيل نفسها وعدتكَ بالنصر. أنت الإسكندر، وُلِدَ من جديد، بُعِثَ إلى الأرض ليغزو آسيا. لا خيار لك "

إنَّ ماكسيموس على حق. إنَّ الآلهة لم تدفعني إلى قطع كل هذه المسافة لكي تجعلني ببساطة أستديرَ عائداً وكأنني زعيم قبيلة عربية يُغيرُ على الحدود. سوفَ أرفضُ معاهدة سابور وأباشرُ ضرب حصار حول ستيسيفون. وحالما أصلُ ستيسيفون، سوف أكونُ حراً في أنْ آمرَ بالسير مباشرةً نحو شمس الصباح. نعم، إلى منزل هيليوس نفسه، الأب الذي وُلِدتُ منه ومرجعي إليه، مُمَجَّداً.

بريسكوس : هل سبقَ لكَ أنْ قراتَ مثل هذا الهراء؟ ليتني فقط كنتُ أعلم! ولكن لا أحد منا كان على علمٍ بما يضمره ماكسيموس، ومع ذلك لطالما لَمَّحَ إلى " خِططنا ". ولكن بما أنه لم يُكشَفْ النقاب أبداً عن تلك الخِطط، كنا جميعاً ودون استثناء في الظلام. وحين اجتاحت المُخيَّم إشاعةٌ تقول إنَّ سابور يلتمسُ السلام، أنكرَ جوليان بصرامة حضورَ أيِّ وفد، وصدَّقناه. وأنا واثقٌ من أنه لو علِمَ القادة بأمر بنود المعاهدة، لأجبروا جوليان على قبولها. لكنَّ جوليان وماكسيموس كذبا، وأورميسدا أيضاً، وهو الذي لم يكن يوشك أنْ يفقد أمله الأخير في حكم بلاد فارس. الثلاثة معاً أرادوا استمرار الحرب.

منذ لحظة اتِّخاذ هذا القرار، اقتفيتُ أثرَ انحدار جوليان. لم يعُد أيُّ شيءٍ يسيرُ على ما يرام بعد ذلك. وحين أستعيد ذكرى هذا أرى أنه كان رجلاً مجنوناً. ولكن بما أنه بدا طبيعياً تماماً في ذلك الوقت، فلم يحاول أيٌ منا أن يناقشَ أوامره أو يرى أنه يمكن أنْ يفعل أي شيءٍ غير عادي. اكتفينا بافتراض أنَّ لديه معلومات لا نعرفها. أيضاً، اتَّضحَ أنَّ كل ما جرَّبه، حتى آخر يوم في شهر أيار، نجح. ومع ذلك، أصبحَ القادة كثيري الانتقاد. ولاحت الخيانة في الأفق.

-٢٢-

جوليان أوغسطوس ٣١ أيار

منتصف الليل. الأصمّ-الأخرس يجلس متصالب الساقين عند قَدَمَيّ، ويعزف على آلة موسيقية فارسيّة شديدة الشَبَه بالعود. اللحن غير مألوف لكنه ممتع. وكاليستوس يُرتِّب من شأن درعي على المشجب القائم بجوار سريري. وأورميسدا غادر للتو. إنه مسرور بقراري، لكنني قلقٌ قليلاً. فللمرة الأولى أجد نفسي في حالة خلافٍ تام مع ضباطي. والأسوأ من هذا أني لا أستطيع أنْ أخبرهم لماذا أنا متأكِّد من أنَّ المسار الذي اتَّخذته هو الصحيح. وفي اجتماع هيئة الأركان هذا المساء، تحدّاني فيكتور صراحةً.

" أيها الأوغسطوس، ليست لدينا القوة اللازمة للخوض في ضرب حصارٍ طويل الأمَد. ولا لدينا المؤن. ثم إنَّ بيننا كثيراً من الجرحى "، ولمسَ كتفه المُضمَّد.

" ولا أمل في وصول إمدادات عسكرية "، قال أرينثيوس مُتتبِّعاً تلقائياً مسار كلام فيكتور.

قال أورميسدا " هناك جيش بروكوبيوس وسيباستيان ". جلسَ إلى يميني على طاولة المؤتمر، الموضوعة عليها الخريطة الوحيدة لهذا الجزء من بلاد فارس. وحتى الآن، اتَّضحَ أنَّ الخريطة لا يمكن بأي حال الاتّكال عليها.

" بروكوبيوس! " نطقَ نيفيتا الاسم باحتقار، مركِّزاً على تلك الكلمة الوحيدة احتقار حياة بأكملها لكل ما هو إغريقي. " لن نراه أبداً هنا، أبداً! "

بدأتُ بالقول " لقد أرسلتُ أوامر إلى بروكوبيوس... "

" ولكن لماذا لم يُطِعكَ؟ " قال فيكتور على مسار الهجوم نفسه. " لماذا لا يزال يمكث في كوردوين؟ "

" نعم، لماذا؟ ". إنَّ المرء لا يستطيع أنْ يتأكَّد إنْ كان داغاليف ساذجاً أم ماكراً.

قال نيفيتا " لأنه خائن "، ولكنته الفرنجية تزداد خشونة وحَلَقيّة، وكان من الصعب فهم كلماته. " لأنَّه وذلك الملك المسيحي لأرمينيا، صديقك " والتفَتَ بحقد إلى أورميسدا - " يريدان موتنا جميعاً، لكي يتمكَّن بروكوبيوس من أنْ يُصبح الإمبراطور المسيحي التالي "

رانَ صمت الصعقة على لديَّ سماع هذا. فكسرتُه، باعتدال. " لسنا واثقين من أنَّ هذا هو السبب "

" أنت لستَ واثقاً، أيها الإمبراطور، ولكن أنا كذلك. أنا أعرف أولئك الآسيويين؛ ولم أثق في أيٍ منهم في حياتي ". نظرَ مباشرةً إلى فيكتور الذي بادله تحديقاً لا يقل قسوة.

ضحكتُ. " آمل أنْ تثقَ فيَّ، يا نيفيتا. فأنا آسيويٌ "

" أنت ثراسي[١٢١]، أيها الإمبراطور، ولا تقلّ جودة عن أي فرنجي أو غالي. ثم أنتَ لست مسيحياً، أو هذا ما سمعته "

ضحكَ الجميع؛ وتراخى التوتُّر. ثم عبَّرَ فيكتور عن أمله في أنْ نحصل على معاهدة جيدة قدر الإمكان من سابور. تبادلتُ مع أورميسدا نظرةً سريعة. أنا متأكِّد من أنَّ فيكتور لا يعلم أيَّ شيء. وأنا أيضاً سعيد لأنني أبقيتُ أمرَ الوفد الرسمي سراً، خاصةً الآن بعد أنْ عرفتُ أنَّ نيفيتا وداغاليف توّاقان للعودة إلى الوطن. وعدايَ أنا، لا أحد يؤمن بأنَّ بروكوبيوس سوفَ ينضمُ إلينا. وأنا واثق من أنه سيفعل. فإذا لم يفعل...

اقترحَ سالوتيوس تسويةً. " سوفَ نفترض جميعنا أنَّ بروكوبيوس ينوي أنْ يطيع أوامر الإمبراطور. ولما كان قد أعدَمَ رجلاً اتَّهمتُهُ ظُلماً بأنه لم يؤدّ واجبه، أفضِّلُ أنْ أمنح بروكوبيوس كل فرصة ممكنة لإثبات ولائه. فقبل كل شيء، لا نعلمُ الصعوبات التي يمكن أنْ تواجهه. قد يكون مريضاً، أو ميتاً. لذا أقترحُ أنْ ينتظرَ الأوغسطوس على الأقلّ مدة أسبوع قبل البدء بضرب الحصار، أو وضع أي خطة أخرى "

لاقتْ هذه التسوية قبولاً. وككل التسويات لم تكن تحلُّ أي مشكلة وأطالتْ - ربما بشكل خطير - أمد التردُّد. لكنني لم أقُل شيئاً زيادة على الموافقة على تأجيل الحصار. أردتُ أنْ أبدو عاقلاً لأنني كنتُ أوشكُ أنْ أعرض ما أعلمُ أنه عملٌ لن يلقَى أيَّ قبول.

" إنَّ أسطولنا يحتاج إلى عشرينَ ألف رجل لتحصينه ولحمايته. وما دمنا نبقى قريبين من النهر، فيمكن للرجال أن يفعلوا الأمرين. ولكن إذا دخلنا عميقاً - إما أنْ نذهب إلى الوطن أو نلاحق جيش الملك العظيم - أولئك الرجال يجب أن يُرافقونا. فإذا ذهبوا معنا، سيستولي الفُرس على سفننا. ولمنع حدوث ذلك، يجب أنْ نحرق الأسطول"

ذُهلوا. كان نيفيتا أول المتكلّمين أرادَ أنْ يعرف كيف توقّعتُ أنْ أعود إلى بلدي من دون سفن. شرحتُ قائلاً إنه سواء أعُدنا عن طريق نهر الفرات أو نهر دجلة، فإننا سوف نضطرّ إلى الاتّجاه بعكس التيار، وهذا عمل مُتعب وبطيء. سوف يشكّلُ الأسطول عائقاً. هذه النقطة أُسندَتْ إليّ؛ ومع ذلك، واجهتُ مُعارضةً من كامل الهيئة ما عدا أورميسدا، الذي أدركَ انه فقط عن طريق إحراق الأسطول سوف أتمكّن من دفع الفيالق إلى اللحاق بي إلى المناطق الداخلية.

نعم، أنا مُصمِّم الآن على ضمان مقاطعات بلاد فارس كلها وحتى الحدود الهندية، على مسافة ألف ميل نحو الشرق. لقد فعل الإسكندر الشيء نفسه. أنا واثق من قدرتي على فعل ذلك. إنَّ جيش سابور لا يستطيع أن يُنافس جيشنا. فباستيلائنا على المحاصيل، لن نقلق بشان المؤن. شيءٌ واحدٌ منعني : بروكوبيوس. لو أنه كان هنا، لاستطعتُ أنْ أنطلق وأنا واثق من أنَّ ستيسيفون سوف تسقط بمساعدة أورميسدا ولن يكون هناك عدو خلفي. ولكنني لا أستطيع أنْ أغادرَ إلى أنْ أعرف أين هو بروكوبيوس. حتى ذلك الحين، يجب أنْ أحرق الأسطول.

أجبتُ عن مناقشات القادة بصبرٍ. واقتنعتُ بألاّ أقبل إلاّ بإذعان الجميع. وأثناء مغادرتهم خيمتي، تنحّى بي سالوتيوس جانباً. شعرتُ بشكلٍ مزعج بحرارة أنفاسه تلفحُ جلدي وهو يهمسُ بالقُرب من أذني بكلمة واحدة " تمرُّد ".

" مَنْ؟ "

على الرغم من أنَّ آخر القادة كان قد غادرَ الخيمة، إلاّ أنَّ سالوتيوس ظل يهمس "المسيحيون "

" التابعون لفيكتور؟ "

" لا أعلمُ. ربما. تقاريري مُبهمة. الرجال يغنون أغنية تقول إنهم سيعودون قريباً إلى الوطن لكنكَ لن تعودَ معهم "

" هذه خيانة "

" حسب كلام الأغنية، يبدو الأمر بريئاً جداً. والذي كَتَبَها إنسان ماهر "

" ومَنْ الذي يُغنيها ؟ الجليليون؟ "

أومأ سالوتيوس بالإيجاب. " الزيانيون والهرقلانيون. حتى الآن عدد المتورطين قليل. ولكن إذا أحرقتَ الأسطول... "

" سالوتيوس، ضعْ ثقتَكَ فيَّ ". تناولتُ يده. " أنا أعرف أشياء لا يعرفها غيري "

" أمركَ مُطاع، يا مولاي "، وانحنى سالوتيوس وغادر.

أمضيتُ الليلَ وحدي بالإضافة إلى الأصمّ-الأخرس وكاليستوس. أصلّي. أدرسُ حملة الإسكندر في بلاد فارس. تفحَّصتُ الخرائط وقرأت تواريخ. بمشيئة هيليوس، سوفَ أُمضي فصل الشتاء على حدود الهند. لم يسبق لإمبراطورٍ رومانيّ أنْ ضمَّ منطقة بهذه الضخامة إلى عالمنا.

جوليان أوغسطوس ١ حزيران

أُحرِقَ الأسطول. أبقينا على اثنتي عشرة سفينة، صالحة لصناعة جسور. سوف ننقلها على عَرَبات. لقد أرسلتُ للتو أرينثيوس مع مجموعة من المشاة الخفيفي التسليح لمسح عدد ما تبقّى من الجيش الفارسي المُختبئ في الجوار. وأمرتُهُ أيضاً بإضرام النار في الحقول المحيطة وبذبح المواشي. وبعد أن نرحل سوف يستغرق من سكان ستيسيفون شهوراً عديدة ليحصلوا على كميات كافية من الطعام. سوفَ يوفِّرَ ذلك لنا الوقت. ولم تصلنا بعد أي كلمة من بروكوبيوس.

بريسكوس : في صباحٍ حار وشديد الرياح، أضرِمَتِ النار في الأسطول. انتقلتْ ألسنة اللهب بسرعةٍ من سفينةٍ إلى أخرى حتى بدا كأنَّ دجلة البُني اللون نفسه يتلظّى بالنار. ومع ازدياد حرارة الشمس، تشوهَّ منظر كل شيء بفعل أمواج الحرارة. وبدت الخليقة كأنها تنتهي بالضبط كما يُتنبأ الرواقيون، بنارٍ هائلة، مُطهِّرةً، نهائية.

راقبتُ الحريق مع أناطوليوس. للمرة الأولى كدتُ أؤمنُ بإلاهة الانتقام. الرجال أيضاً شعروا أنَّ إمبراطورهم تمادى هذه المرة أكثر مما ينبغي، أغرقَ نفسه وأغرقهم في معمعان شراسة النار. في الحالة العادية، حين يُصدرُ جوليان أمراً يُطاعُ على الفور،

وكلما كان الأمرُ مُحيّراً ازدادَ يقين الرجال ببراعته. ولكن في ذلك اليوم اضطرَّ إلى إضرام النار في السفينة الأولى بنفسه. لم يقبل أيٌ منهم بالإنابة عنه. شاهدتُ الخوفَ في وجوه الرجال بينما جوليان يُسلِّمُ الأسطول إلى الإله هيليوس.

قال أناطوليوس بتردُّد " طبعاً نحن لسنا قادة "، مُدرِكاً ما يدور في خَلَدي. " إنَّ الإمبراطور هو سيد الحرب "

" ومع ذلك يرتكب أخطاء ". لم يتمكَّن أيٌ منا من إزاحة عينيه عن النار. ما المُثير جداً في إحراق أشياء من صنع الإنسان؟ إنه أشبه بصورة هومر للنهرين في هيدس: واحدة للخليقة، والأخرى للدمار، وهما في حالة توازن قلِق. والرجال دائماً يستمتعون بالتدمير بقدر ما يستمتعون بالبناء، وهذا يُفسِّر شعبية الحرب.

كنا ما نزال نفغر أفواهنا لمرأى النهر المُلتهب حين مرَّ بنا مجموعة من الضباط الراكبين. أحدهم كان فالانتنيان، وجهه قرمزيّ اللون من فرط الحَرّ والغضب، زمجرَ : "أحمق! أحمق! أحمق! ". تبادلتُ وأناطوليوس نظرات عصبيّة. هل كان سيحدث تمرُّد بين الضباط؟ ولكن كلا... لا شيء يحدث، على الرغم من دمدمة التذمر الصادرة عن التريبيونات. وبالمصادفة، أنا لم أنسَ أبداً تلك النظرة الخاطفة التي ألقيتُها على فالانتنيان، بوجهه المنتفخ بالحنق نفسه الذي قَتَلَه بعد ذلك بسنوات حين مات من سكتة دماغية بينما كان يجأرُ في وجه سفير جرماني.

مع هبوط الليل، كان الأسطول قد تلاشى. وعلى البُعد كان في الإمكان رؤية الفُرس يتجمَّعون على أسوار ستيسيفون ليراقبوا هذا المشهد الخارق. لا أحد سيعرف ما الذي استنتجوه منه. لابد أنَّ إمبراطوراً رومانياً يحرقُ الأسطول الروماني كان سيبدو لهم أمراً مُبهماً تماماً. أنا نفسي كدتُ لا أصدّقه.

جوليان أوغسطوس ٣ حزيران

أزلنا المُخيَّم وباشرنا الاتجاه جنوباً، نحو الداخل. إنَّ الريف غني؛ هناك فيض من المياه. الرجال أقلّ توجّساً مما كانوا. الآن أصبحوا يفهمون اننا لا نحتاج إلى النهر لكي نبقى على قيد الحياة.

جوليان أوغسطوس ٤ حزيران

كل شيء يسير سيراً حَسَناً. نيفيتا : حذر. فيكتور. م. قريب؟ كيف؟ الحرّ يزداد باطراد. قد نباشر المسير الليلي.

بريسكوس : مرةً أخرى حذَّرَ نسريتا جوليان من وجود مؤامرة مسيحية. هذه المرة كان فيكتور متورّطاً مباشرة. أعلم. ركبتُ إلى جوار جوليان بعد ظهر ذلك اليوم نفسه. تحدَّثنا بصراحة عمّا أخبره به نيفيتا.

" ولكن إذا قتلوني، مَنْ الذي سيحلّ محلّي؟ لا أحد غير سالوتيوس وهو ليس صديقهم "

" هناك فيكتور "

ابتسمَ جوليان ببرودة. " سوف يذبحه الغاليون ". ثم تجهَّمَ. " يقول نيفيتا إنهم وضعوا شخصاً قريباً مني لكي... لكي يؤدي عملهم. أهو أنت؟ ". التفتَ إليّ وأدركتُ أنه على الرغم من أنَّ صوته كان خفيفاً وعابثاً إلاّ أنَّ وجهه لم يكن كذلك. حدَّقَ إليّ بعينين مُنبهرتين بأشعة الشمس. ومُثلنا جميعاً، كان وجهه محروقاً وداكناً وعيناه حمراوين من تأثير الرمال والشمس، والجفنان يتقيحان. لقد فقَدَ من وزنه وكان يمكِنُ رؤية عمل عضلات الساعدَين الشبيهة بالحِبال وهو يقبض على اللجام. كان قد تجاوز عهد الفتوة، بل والشباب.

" كلا، ليس أنا ". حاولتُ الخروج بنكتة لكنني لم أعثر على واحدة.

" جديرٌ بك أنْ تكون إمبراطوراً بائساً جداً ". عاد من جديد إلى سجيته. وتابعنا السير. أمامنا وخلفنا، اخترقَ الجيش بخطٍ ملتوٍ الريف المُشرق، الغني بالحصاد القادم.

انضمَّ سالوتيوس إلينا، مُعتمراً غطاءً قماشياً للرأس.

" انظر إلى هذا! قنصل روماني كلاسيكي! " هكذا ضايقه جوليان. لكنَّ سالوتيوس على الرغم من ذكائه كله لم يكن يتمتَّع بروح الفكاهة. وشرحَ لنا بكل رصانة ومطوّلاً سبب عدم اعتماره خوذة في الشمس لأنَّ الحرارة تجعل جبينه يُصاب بطفح جلدي. ثم سلَّمَ جوليان رسالة. " من مجلس الشيوخ في القسطنطينية. تهنئةً لك على انتصارك "

تنهَّدَ جوليان. قال، وهو يُعيد إليه الرسالة، " ما يزال الوقت مُبكّراً جداً ".

وتذكَّرتُ كيف سَطَعَتْ الشمس على ظاهِر يده والشعر الأشقر المُتلألئ أمام الجلد الملفوح بأشعة الشمس. لاحظتُ أيضاً الطول المُبالِغ فيه لأظافره (الآن وقد كفَّ عن قضمها). غريبٌ الصفاء الذي يتذكَّر به المرء شكل يدٍ لَمحَها قبل سنين مضتْ، بينما يضيع كثيراً من الأشياء الهامة.

جوليان أوغسطوس ٥ حزيران

منتصف الليل : نار. خنادق.

بريسكوس : في تلك الليلة أضرمَ الفُرس النار في المحصول. وعلى امتداد أميال حول الحقول، كروم عنب، وبساتين، وقُرى... نالتْ النار من كل شيء ، وكان الليل أشبه بالنهار. وعلى الرغم من أنَّ جوليان أمر بحفر خنادق حامية حول المُخيَّم، إلاّ أنَّ عدداً من خيامنا احترق، وعديداً من العربات أيضاً.

استمرَّتْ النار مُستعرة ثلاثة أيام وثلاث ليال. وكلما فكرْتُ في تلك الأسابيع في بلاد فارس، تترا ءى النار لي، وأشمُّ رائحة الدخان، وأشعر بالحرارة الرهيبة للشمس الملتهبة أثناء سَعْر النار. ولحُسن الحظ، كانت هناك ينابيع في المُخيَّم تمدّنا بما يكفي من الماء. وكان لدينا أيضاً طعام يكفي مدة أسبوع تقريباً. ولكن بعد ذلك، المجاعة. وعلى امتداد النظر، لم يكن هناك غير الصحراء السوداء. لا شيء أخضر ينمو.

الآن أقتسم خيمةً مع أناطوليوس. وهذا يعني أنني كنتُ متورّطاً أكثر من المعتاد في أمور البلاط. في الحالة العادية، أنأى بنفسي عن مثل تلك الأشياء، لأنه طالما أضجرتني السياسة، لكنني الآن شديد الاهتمام بما كان يجري. كلنا كنا كذلك. كانت حياتنا على المِحكّ. بدا أنَّ كل شخص لديه خطة لإنقاذنا، ما عدا الإمبراطور.

كان الجيش عندئذٍ مُقسَّماً بالتعادل تقريباً بين جوليان وفيكتور، بين الأوروبيين والآسيويين، بين الهيلّينيين والمسيحيين. وكان جوليان طبعاً هو الأقوى لأنَّ أنصاره كانوا، ببساطة تامة، أفضل الجنود. ولكن مع مرور كل يوم في تلك البرية المحروقة، كان فريق فيكتور يُصبح أعلى صوتاً وأكثر مطالِبَ، ويُصرّ على أنَّ الإمبراطور يُمثِّل. لكنَّ جوليان لم يُعطِ أي إشارة إلى ما ينوي أن يفعله. في الواقع، من دون هذه اليوميات ما كنا عرفنا ما يجري في ذهنه.

جوليان أوغسطوس ٦ حزيران

قُبيل الفجر أغار الفرسان الفُرس على مستودع مؤوننا. قُتِلَ عدد منهم. لا ضحايا من جانبنا. يجب أنْ نتوقَّع مزيداً منهم.

عند الظهيرة صلَّيتُ لهيليوس. ضحَّيتُ بثورٍ أبيض. النبوءة لم تكن حاسمة. ما العمل؟

لقاءٌ حادٌ مع فيكتور بعد ظهر هذا اليوم أثناء اجتماع هيئة الأركان. مَسْكَني خانق. لا أحد منا يرتدي الدرع. القادة مُنتظمون حولي على المقاعد. وعند قَدَمَيّ جلس الأصم-الأخرس؛ يُراقبُ كل حركة تصدر عني بانتباه، بعينين تشبهان عينَيّ كلبٍ أليف. كان يكفيني أنْ أفكِّر في أني أشعر بالعطش حتى يقرأ ذلك على وجهي ويُحضِر الماء إليّ.

ما إنْ حيَّيتُ القادة حتى بادرَ فيكتور إلى قول " أيها الأوغسطوس، يجب أنْ نعودَ كما جئنا، عبر آشوريا ". سارعَ أرينثيوس إلى موافقته. الآخرون انتظروا ليروا ماذا سأقول.

" هناك دائماً إمكانية. طبعاً، دائماً ". اتَّخذتُ هيئة ماردونيوس : العاقل إلى درجةٍ تثير الجنون لكنه مُلتبِس تماماً. " ولكن لعلَّكَ، ايها الكونت، ستخبرنا، أولاً، لماذا تعتقد أنَّ علينا أنْ نعود الآن وأيضاً، ثانياً، لماذا تفضِّل ذلك الدرب "

بدا فيكتور أكثر من أي وقتٍ مضى أشبه بمُتنمِّر قروي يحاولُ أنْ يُسيطر على نفسه في حضور مدير المدرسة. " أولاً، وكما يعلم الأوغسطوس، قريباً سوف نعاني من نقص الطعام. ومُستكشفونا يُخبرونني بأنه على امتداد عشرين ميلاً إلى الشرق لا يوجد إلاّ الرماد. وإلى الشمال لا يوجد إلاّ الصحراء. وهذا يترك لنا جهة الغرب، من حيث أتينا "

" أنسيتَ أننا نحن أنفسنا أحرقنا الحقول المُحيطة بستيسيفون؟ "

" نعم ، لقد ارتكبنا تلك الغلطة، ولكن... "

أصدرَ نيفيتا ضجيجاً مُهدِّداً، من عمق الحنجرة، كثورٍ يستعدُ للهجوم. قد لا يوجّه المرء إصبع الاتّهام إلى الإمبراطور بارتكابه أخطاءً. ولكنني أومأتُ لنيفيتا لكي يلزم الصمت. حاولتُ أنْ أبدو لطيفاً. " ولكن بما أنَّ هذه " الغلطة " قد ارتُكِبَتْ، فما فائدة الانتقال من منطقةٍ مُدَمَّرة إلى أخرى؟ "

" لأنه، أيها الأوغسطوس، لا يزال هناك بعض المناطق التي لم نحرقها بعد. نستطيع أنْ نعيشَ بعيداً عن الريف. نستطيعُ أيضاً أنْ نستخدمَ تلك الحصون التي استولينا عليها... "

"... وأحرقناها؟ كلا، أيها الكونت، تلك الحصون لا فائدة فيها، وأنتَ تعلمُ ذلك. لذا أسألكَ من جديد: لماذا تريد منا أنْ نعود من الطريق التي جئنا منها؟ "

" لأنكَ تعرف ذلك الريف. نستطيع أنْ نعيش بعيداً عنه، بصورةٍ ما. سوف يطمئن الرجال "

" هل لي أنْ أتكلَّم، يا مولاي؟ ". كان أورميسدا قد كفَّ عن التصرُّف كملك عظيم وأصبحَ من جديد أقرب إلى أحد أفراد البلاط الإغريقي، وهي دلالة سيئة. " لا يستطيع الجيش أن يعودَ على طول نهر الفرات لأنه لم يعُد هناك أسطول. ولا لدينا وسيلة لصنع جسور "

قال فيكتور " يمكننا أن نستخدم السفن التي احتفظنا بها "

هذه المرة سالوتيوس هو الذي أجابه. " إنَّ اثنتي عشرة سفينة ليست كافية لعبور نهر دجلة. وشئنا أم أبينا، نحن الآن محجوزون في هذا الجانب من النهر. إذا انطلقنا نبغي أرض الوطن فيجب أن نسلك طريق كوردونيه "

فجأةً سألَ داغاليف " ألا نستطيع أن نحصل على السفن من الفُرس؟ لابد أنَّ مئاتٍ منها في الموانئ النهرية "

قالَ أورميسدا " سوف يُفضلون أن يحرقوها "

باشر سالوستيوس بالقول " كنتُ أقوم ببعض الاستطلاعات "، بدا كأنه جالس بارتياح على كرسي الحاكم الإمبراطوري في القسطنطينية، مُحاطاً بالكَتَبَة، بدل التعرُّق في خيمةٍ لا يدخلها الهواء وعمامة من قماش تلفُ رأسه المحروق بأشعة الشمس. "ويبدو أنَّ ما لدى الفرس من سفن بعيد المنال. وأملنا الوحيد هو في بناء سفنٍ جديدة، لكننا طبعاً نفتقد المواد الأولية "

أنهى أورميسدا القضية. " حتى لو استطعنا عبور دجلة، فسوف نواجه الصعوبات نفسها لدى اتجاهنا شمالاً كالتي واجهناها هنا. إنْ سابور ينوي أن يُميتنا جوعاً. سوف يحرق بلاد فارس كلها إذا اضطُرَّ إلى ذلك. لقد بدأ الآن كذلك موسم الأمطار في بلاد

ما بين النهرين. وجليد الشتاء الذي جلّلَ الجبال قد ذاب. والدرب التي قادتنا إلى ستيسيفون أصبح مستنقعاً للحُمّى يعجُّ بالحشرات. ولكن طبعاً سنذهب إلى حيثُ يأمرنا الأوغسطوس "

قال فيكتور " كلنا سنفعل، ولكن ما هي خطته؟. نظرتُ في عيني عدوّي البرّاقتين فرأيتُ أنه ينوي أن يقتلني. كنتُ أعلمُ ذلكِ منذ البداية.

أجبتُ بهدوء " إنَّ الأوغسطوس يضعُ في حسبانه كل إمكانية قبل أن يتوصَّل إلى قرار. وهو أيضاً يُذكِّرُ القنصل أننا لم نعرف بعد أخبار بروكوبيوس. وثمة شائعات تفيدُ بأنه الآن في طريقه إلينا هنا. فإذا وصلَ، فسوف نضرب حصاراً حول ستيسيفون "

قال فيكتور يتحداني " وبماذا سنقتات؟ "

" سوفَ يُحضِرُ بروكوبيوس معه مؤناً. أيضاً، لكي يصل إلى هنا، سوف يُضطر إلى فتح خط اتّصالات من مقاطعة كورديونه. وهي لا تبعد عنا أكثر من ثلاثمئة ميل. فلا داعي إلى القلق حول المؤن إذا وصلَ بروكوبيوس "

" وإذا لم يصل؟ ". مالَ فيكتور إلى الأمام، ككلب صيد شمَّ رائحة الطريدة.

" عندئذٍ نبقى حيث نحنُ الآن. يبدو أننا متّفقون على العودة من الطريق التي أتينا منها "

" لأنَّ الأسطول أُحرِق "

وطفحَ الكيل. التفتُّ إلى فيكتور. " أيها الكونت، أمنعكَ من الكلام إلا إذا أخذتَ إذناً مني ". طرَفَ فيكتور بعينيه وعاد إلى مجلسه، وكأنه تلقّى ضربة.

تابعتُ " يمكننا دائماً أن ننتهز فرصنا في الصحراء الشمالية. لكنَّ المسير إلى كوردونيه سيكونُ شاقاً ". لاحظتُ أنَّ أورميسدا يرغب في الكلام. أومأتُ موافقاً.

" على الأوغسطوس أنْ يعلمَ أنه لا وجود لخرائط لتلك المنطقة . سوف نضطرُّ إلى الاعتماد على الدلائل. وقد لا يكونون موثوقين "

" ألا نستطيع أنْ نتبع مسار نهر دجلة؟ ". أخذ داغاليف يُهوّي نفسه بسعفة نخيل البلح.

قال أورميسدا " ليس بسهولة. هناك عديدٌ من الحصون القوية "

" وسوفَ نكونُ جيشاً مُنسحباً، وليس مُنتصراً. لن نتمكن من ضرب حصار حول

المدن ". تركتُ هذه العبارة تمر. لم يكن أحد قد تجرّأ حتى تلك اللحظة على ذِكر إمكانية هزيمتنا. قبل أي شيء، لقد شتَّتنا جيش الملك العظيم؛ ونصفُ بلاد فارس أصبحَ لنا. لذا علينا الآن أنْ نتحدَّث عن الانسحاب لأنَّ المتعصبين الفُرس أجبرونا على ذلك. إنها مأساة. كان يجب أن أتوقَّع هذا. لكني لم أفعل. والخطأ خطأي. من الصعب تصديق أنه من دون فقدان معركة واحدة يمكن بسهولة كبيرة أنْ يكف المرء عن أنْ يكون منتصراً؛ ويُصبح رئيس مجموعةٍ من الرجال الخائفين؛ جُلّ ما يريدون أنْ يعودوا إلى أرض الوطن بأسرع ما يمكن. أهذا هو انتقام آريس لِما قُلتُه له أثناء تقديم الأضحية في ستيسيفون؟

ردَّ أرينثيوس على تحدّيَّ " لا، لن ننسحب، أيها الأوغسطوس. كيف يمكننا فعل ذلك؟ إنَّ سابور سيوقِّع معك معاهدة في الغد، وسيُعطيك كل ما تريد مقابل أنْ نعود إلى وطننا ". وخبر زيارة الوفد الفارسي كان شائعاً طوال أسبوع، لا شيء يخفى طويلاً في أي جيش. وأشكُ في أنَّ الفُرس أنفسهم هم الذين نشروا الإشاعة، لكي يوجِدوا الشِقاق : لماذا يدفعكم إمبراطوركم بقوة إلى التحرُّك في وقتٍ نُبدي فيه رغبتنا في إعطائكم الذهب والأرض وممراً آمناً إلى الوطن؟ إنَّ الفرس خبيرون في مثل هذه الأشياء.

قلتُ " يبدو أنَّ فيكتور يشعر بأننا قد هُزِمنا. أنا لا أشعر بهذا. أعتقدُ أنَّ علينا أنْ ننتظر بروكوبيوس بضعة أيام أُخَر. فإذا لم يصل، فسوفَ نفكِّر إذا ما كنا سنتجه شمالاً إلى كوردونيه أو إلى الجنوب باتجاه الخليج الفارسي ". قلتُ هذا بنبرة عَرَضيّة. كانت تلك المرة الأولى التي أقترحُ فيها مثل ذلك الشيء على القادة. وذُهِلوا.

" الخليج الفارسي! ". نسيَ فيكتور لبرهة فَرْضِي الصمتَ عليه، فأسرع بالغمغمة وبالاعتذار.

تحدَّثَ سالوتيوس بالنيابة عمّا أخشى أنه الغالبية، " إنه بعيد جداً، أيها الأوغسطوس. نحن على مسافة لا تزيد على ثلاثمئة ميل عن المناطق الرومانية. فإذا تقدَّمنا أكثر في أرض الفرس، فسوف يبتلعوننا "

أسرعَ نيفيتا إلى القول " إنَّ الرجال يرفضون الذهاب. إنهم خائفون منذ الان. أصدِر أمرك إليهم بالاتّجاه جنوباً وسوفَ تواجه تمرُّداً من الطراز الأول "

" لكنَّ مُدُن الخليج غنية وغير محميّة... "

" لن يذهبوا، أيها القائد. ليس الآن. ولكن حتى إذا قبلوا، ما الذي سيمنع الفُرس من حرق كل شيء يقع في طريقنا؟ إنَّ بهم من فرط الجنون ما يجعلهم يفعلون. سوفَ يفضّلون الموت جوعاً على أنْ يدعوننا نرى الخليج "

وهكذا تخلّيتُ عن هذا الحلم. مؤقتاً. وفضضتُ المجلس.

أجلسُ على سريري الخفيف، أكتب هذا على رُكبَتيَّ. كاليستوس يُعدُ رداء تقديم الأضحية. الأصمّ-الأخرس يعزف على العود. بعد بضع دقائق سينضمُ ماكسيموس إليّ. وفي غضون ساعة من الزمان سأصلّي أولاً لزيوس، ثم للأم العظمى. أين أخفقتُ؟ أهذا هو انتقام آريس؟

جوليان أوغسطوس ٧ حزيران

النُذُر مشؤومة. التنبؤآت غير حاسمة. إنها تنصح بعدم العودة إلى الوطن عن طريق آشوريا، وتنصح أيضاً بعدم الاتّجاه شمالاً إلى كوردونيه. وإحداها أشارتْ إلى أنَّ عليَّ أنْ أتَّجه جنوباً إلى الخليج؛ لكنَّ القوات لن تطيع الأمر. إنهم قريبون منذ الآن من التمرُّد. يجب أنْ أدفع فيكتور إلى قمع التمرُّد أو مواجهته.

جوليان أوغسطوس ٨ حزيران

لم أنَمْ منذ أيام. الحرارة أثناء الليل لا تقلّ سوءاً عن حرارة النهار؛ كالإصابة بالحُمَّى. كلنا نشبه الجيَف الجافة. إنني أفقد أعصابي مع كل شخص. ضربتُ كاليستوس حين ارتبكَ أثناء تثبيت ثوبي. وتشاجرتُ مع سالوتيوس من أجل مسألة تافهة، وكان على حق. هذه الليلة كان ماكسيموس بصُحبتي. كنا وحدنا لأنَّ بريسكوس مريض بالزُحار وأناطوليوس يرعى شؤونه. وبينما كنتُ أتناول طعام عشائه، حاولَ ماكسيموس أنْ يُدخِلَ البهجةَ إلى قلبي، ففعلَ العكس.

" لكنَّ الأمرَ غاية في البساطة؛ اعطِ الأمرَ بالتحرُّك جنوباً. يجب أن يطيعوك. فقبل كل شيء، أنت الإمبراطور "

" بل سأصبحُ إمبراطوراً سابقاً؛ لأنهم سيقتلونني قبل أن يطيعوا "

" لكنَّ سيبيل بنفسها أخبرتنا بأنَّ علينا أنْ نُكمِلَ عملك. فقبل كل شيء، أنتَ الإسكندر "

انفجرتُ قائلاً لدى سماعي هذا. " كلا، أنا لستُ الإسكندر، الإسكندر مات. أنا جوليان، وأوشكُ أنْ أموت في هذا المكان القفْرِ... "

" كلا، كلا! الآلهة... "

"... أضلّتنا! الآلهة ضحكت علينا! رفعتنا عالياً مازحةً، ثم رمتنا أرضاً من جديد. لقد فرغت السماء من الشعور بالامتنان كما فرغَتْ الأرض "

" جوليان.. "

" تقولُ إنني ولدتُ لكي أنجِزَ الأشياء العظيمة. حسنٌ، ها قد أنجزتُها. قهرتُ بلاد الفرس. قهرتُ الجرمان. أنقذتُ الغال. لماذا؟ لكي أؤخِّر نهاية العالم مدة عام أو عامَين؟ لا أكثر حتماً.

" أنتَ وُلِدتَ لكي تُعيد عبادة الآلهة الحقيقية "

" فلماذا تدَعني أفشل؟ "

" أنت لا تزال الإمبراطور! "

أخذتُ ملءْ قبضة من تراب أرضية الخيمة المحروق. " هذا كل ما تبقَّى لي. رماد "

" سوف تعيش... "

" قريباً سوفَ أكون ميتاً بقدر ما الإسكندر كذلك، ولكن حين سأرحل سآخذ روما معي. إذ بعد ذلك لن يأتي أي خير. سوفَ يرث الغوط والغاليون الدولة، والصقور والعلقات سوف يُنظِّفون عظام ما هو ميِّت، فلا يتبقَّى حتى شبح إله واحد على الأرض كلها "

أخفى ماكسيموس وجهه بين يديه بينما أنا أصبُ جام غضبي. ولكن بعد فترة سكتُّ، وقد شعرتُ بالخجل لأنني جعلتُ من نفسي أحمق. أخيراً قلتُ " لا فائدة، إنني في قبضة هيليوس، ونحن الاثنان موجودان عند نهاية النهار. فاسعد مساءً، يا ماكسيموس، وصلِّ لأجلي كي تكون ليلةً سعيدة حقاً "

ولكن لا أستطيع أنْ أصدِّق أنَّ الأمر قد انتهى فعلاً؛ وأنَّ جيشنا سليم؛ وجيش الفرس تشتَّت. لا يزال في استطاعتي أن أتوجّه شمالاً إلى كوردونيه. إذا تخلَّى هيليوس عني الان، فلن يبقى مَنْ يُرْجِعُ عبادته.

لكنَّ هذا جنون! لماذا أصبحتُ يائساً هكذا فجأةً؟ لماذا ينبغي أنْ أموتَ الآن، وأنا في ذروة ازدهار حُكمي، وأنا في عـمـر الـ... اضطررتُ إلى الكفّ عن العدّ! أنا في الثانية والثلاثين.

جوليان أوغسطوس ١٠ حزيران

الوقت بعد الظهر. لا نزال نُخيِّم. الطعام يشحّ. لا أخبار من بركوبيوس. بالأمس وفي صباح هذا اليوم أيضاً، تعرَّضنا لهجوم الفرسان الفرس. إنهم يضربون حواف المُخيَّم. ثم عندما هتفنا ندعو إلى القتال، تلاشوا. هذا أشد أنواع شن الحرب إرباكاً.

يجب أنْ أسرع باتّخاذ قرار حول ما يجب فعله. وحتى ذلك الحين، أقدم أضاحي في كل يوم. النُذُر ليست جيدة. والتكهنات مشوَّشة. أريد أنْ ألقي القبض على فيكتور. سالوتيوس يعتقد أنَّ علينا أنْ ننتظر.

جوليان أوغسطوس ١٤ حزيران

أثناء انعقاد اجتماع الهيئة هذا الصباح، حدثت فجأةً جَلَبَة خارج خيمتي. سمعتُ التريبيون آمر حرسي الخاص يصرخ " ابتعدوا! ابتعدوا! "

خرجتُ، فوجدتُ ألفاً من الرجال، أكثرُهُمْ من الآسيويين، يُحيطون بالخيمة. ناشدوني أنْ أقودهم إلى أرض الوطن عبر آشوريا. كانوا مُدرَّبين بصورةٍ جيدة. صرخوا وانتحبوا، بكوا وهدَّدوا. واستغرقَ مني إسكاتهم بضع دقائق. ثم قلتُ " لن ننطلق إلى أرض الوطن إلاّ بعد أنْ نُتِمَّ عملنا "

سخر مني بعضهم لقولي هذا. فتظاهرتُ بأني لم أسمع.

" حين سنعود إلى الوطن، لن يكون ذلك من الطريق التي أتينا منها. قائدكم فيكتور سيخبركم بالسبب ". كانت تلك حركة ساخرة بشكلٍ سارّ. وقد أحسَنَ أداءها، شارحاً السبب في عدم توفُّر طريق الفرات هذه المرة. كان معقولاً، وأصغى إليه الرجال باحترام. وحين انتهى، طمأنتُهُم بأنني لا أقلُّ عنهم توقاً إلى العودة بسلام. سوف نرحل في الوقت المناسب؛ وحتى ذلك الحين، طلبتُ منهم ألاّ يُصغوا بجدّية إلى الإشاعات التي روَّج لها الفرس وأعلم أنها تدور في أرجاء المُخيَّم. وانفضَّ عقدهم. وتحوَّلتُ إلى فيكتور.

قلتُ بعناية " ليست هذه هي الطريقة المناسبة لإجبارنا "

" ولكن، أيها الأوغسطوس... "

صرفتُهُ. لقد تلقّى التحذير.

لاحقاً، تحدَّثتُ إفرادياً مع كل قائد على حِدة. إنَّ مُعظمهم موال. فمثلاً، جلسَ جوفيان على كرسي بلا ظهر في خيمتي، ورداؤه مبلّلٌ من فرط التعرُّق، ووجهه متورِّدٌ من شرب الخمر بالإضافة إلى شدة الحرارة. قال " إنَّ ما يأمرُ به الأوغسطوس مُطاع ". كان صوته عميقاً وأجشَّ نوعاً ما، لأنه يشرب تلك المشروبات الجرمانية القوية التي تحرق الحنجرة.

" حتى لو قلتُ اتَّجهوا جنوباً إلى الخليج الفارسي؟ "

تلوَّى جوفيان بانزعاج. " ذلك مكانٌ بعيد. ولكن إذا أمرنا الأوغسطوس... "

" كلا، لن آمركُم. ليس الآن "

ارتاح. " إذن هذا يعني أننا سنعود قريباً، أليس كذلك؟ "

لم أنطِقْ.

" لأنه كلما طالَ مكوثنا هنا، ازدادات صعوبة الأمر. هناك الحرارة الشديدة، والفُرس... "

" الفُرس هُزِموا "

" لكنَّ الملك العظيم لا يزال يحتفظ بعددٍ كبير من الجنود وهذا بلده، وليس بلدنا "

" نصفُه أصبحَ لنا، بحق الغزو "

" نعم، يا مولاي. ولكن هل نستطيع أن نحتفظ به؟ أنا مع الخروج منه. يقولون إنَّ الشياطين تركب مع الفُرس، خاصة أثناء الليل "

كدتُ أضحكُ في وجهه الأبله. لكنني بدلَ ذلك عرضتُ ما يلي : " صلِّ لإلهك-الإنسان كي يطردهم "

قال بورع " إنَّ الشياطين تتلبّسنا، بمشيئة المسيح "

ابتسمتُ. " أنا أفضِّلُ إلهاً يحمي الذين يعبدونه "

" لا أعرفُ شيئاً عن هذه الأشياء، أيها الأوغسطوس، ولكنني أقول فلنتفاهم مع الفرس ولنتركْ هذا المكان. وهذا لا يعني أنَّ القرارَ عائدٌ إليّ "

" كلا، القرار ليس لكَ. ولكنني سأضعُ في حسباني نصيحتكَ " وصرفتُ جوفيان، وأنا أشدُ بؤساً من ذي قبل.

بعد قليل سأقدِّم أضحية.

جوليان أوغسطوس ١٥ حزيران

ماستارا يرى خطراً هائلاً في كل ما أقومُ به. بالأمس قدَّمتُ الأضاحي وأيضاً في هذا الصباح. ولكن لا إشارة. الآلهة صامتة. صلَّيتُ أكثر من ساعة لهليوس. نظرتُ مباشرةً إليه إلى أنْ عميتُ. لا شيء. إنها إهانة موجّهة إليّ. ولكن كيف؟ لا أصدِّق أنَّ غضبي من إله الحرب سوف تقلب السماء كلها ضدي. مَنْ غيرها سيقوم بعملها؟

نيفيتا يحمل إليّ خبراً يقول إنَّ القوات الآسيوية تتكلَّم منذ الآن عن خليفتي "الذي سينقذهم ". ولكن من الواضح أنه ليس هناك من اختيار شعبي. إنهم يتبعون فيكتور ولكنهم لا يحبونه. أيكون أرينثيوس؟ إمبراطوراً؟ كلا. ولا حتى أتباعه سيقبلون ذلك. أم سالوتيوس؟ إنه موالٍ لي ومع ذلك... ثار شكّي. إنني أشبه قسطنتيوس الآن. إنني أتوقَّع الخيانة من كل جانب. للمرة الأولى أخافُ الخنجر في الظلام. أجعلُ كاليستوس ينام على الأرض بجوار سريري بينما يبقى الأصمّ-الأخرس يقظاً مُعظم الليل، يُراقبُ ظهورَ شبح القاتل على باب خيمتي. لم يخطُر في بالي أبداً أنني سأصبح هكذا. لم أخَف أبداً من الموت في المعركة، ولم أفكِّر أبداً في أنني أخاف قتلي. لكنني أفعلُ الآن. أجدُ النومَ أمراً صعباً. وعندما أنام، تدور أحلامي حول الموت، المُفاجئ، المشؤوم، العنيف. ما الخطأ الذي وقع؟

إلى جوار سريري كان هناك كتاب من تأليف أسخيلوس. تناولتُه الآن وأقرأ ما يلي لا على التعيين: " تشجَّع. حين يبلغ الألم ذروته لا يستغرق وقتاً طويلاً ". حسنٌ، لقد اقتربتُ من ذروتي. هل سيكون الأمر سريعاً؟ أم بطيئاً؟

أمضى بريسكوس وماكسيموس معظم فترة المساء معي. تحدَّثنا في الفلسفة. لا أحد أتى على ذكر وضعنا وتمكَّنتُ لبعض الوقت من نسيان أنَّ الآلهة قد تخلَّتْ عني. ولكن لماذا أفكِّر هكذا؟ ألأنَّ الفُرس أحرقوا الريف فقط؟ أم بسبب خيانة بروكوبيوس، تلك التي لم تكن مُفاجئة؟ على الرغم من أنَّ الأمور ليست بالسوء الذي أشعره حيالها، فكوني أحمل هذا الإحساس بهاجس الشر بحدّ ذاته هو رسالة من الآلهة.

أبدى ماكسيموس رغبته في البقاء بعد رحيل بريسكوس، لكنني لم أسمح له، مُتعللاً بالإحساس بالتعب. إنني أشكُ حتى فيه. لِمَ لا يكون متّفقاً مع فيكتور؟ الجميع يعلمون أنَّ له تأثيراً عليَّ، وحتماً يمكن لأي شخص أن يشتريه إذا عرفَ سعره. هذا جنون. طبعاً ماكسيموس مخلصٌ لي. يجب أن يكون كذلك. لولا حمايتي له لأطاح الجليليون برأسه. يجب أنْ أوقِف حتى التفكير المتشائم وإلاّ لما كنتُ أقلّ جنوناً من أولئك الأباطرة الذين كانوا يخشون ظلام الموت الطويل أكثر من حبّهم ليومٍ قصيرٍ من الحياة. أنا لا أزالُ حياً؛ لا أزال الأوغسطوس؛ لا أزالُ غازي بلاد الفرس.

غداً سننطلق إلى أرض الوطن. أعطيتُ الأمر بذلك عند الغروب. الرجال هللوا لي. إنهم لا يعلمون أي رحلةٍ طويلة ستكونُ من هنا إلى كورديونه. كل ما يعرفونه أننا مغادرون بلاد فارس. وكل ما أعرفه هو أنَّ الآلهة سيبيل كَشَفَتْ لي أنني الإسكندر الذي وُلِدَ من جديد، وقد خذلتُهما معاً هي والإسكندر، الذي هو من جديد روح، بينما أنا لا شيء.

كان ينبغي أنْ أوافق على معاهدة سابور. الآن وقد باشرنا الانسحاب، سوف تسوء علاقتنا.

بريسكوس : بقدر ما أعرفُ جوليان، لم أشك أبداً في أنه كان يائساً إلى ذلك الحد. إنَّ الرجل المُرهَق الذي خطَّ اليوميات، والقائد الفخور بنفسه والضاحك الذي كنت وماكسيموس نتناول الطعام معه هما مخلوقان مختلفان. طبعاً، كنا نعلم أنه قلق. لكنّه لم يكشف لنا عن أمر الخوف المَرَضي من الاغتيال الذي يكتب عنه. كان يمزح أحياناً حول الخلافة، قائلاً إنَّه إذا كان لابد من أن يقوم على روما إمبراطورٌ مسيحي فيأمل في أنْ يكون فيكتور لأنه في غضون عام من الزمن سوف يكون هناك مليون مُهتد إلى الهلّينية. ولكن لا أكثر من هذا. كان يتكلّم كما يفعل دائماً؛ بسرعة، وبحماس، وحتى وقتٍ متأخر من الليل، يقرأ علينا بصوتٍ عالٍ من المؤلفات الكلاسيكية، ويتشاجر معي حول معاني أفلاطون، ويُضايقُ ماكسيموس لجهله بالأدب. ولما كان الساحر العظيم دائماً في حالة تواصل حميم مع الآلهة، نادراً ما كان يتنازل ويقرأ تقارير الذين لا يستطيعون غير أن يتكهّنوا حول الأسرار التي يعرفها جيداً.

في الخامس عشر من شهر حزيران أعطى جوليان الأوامر بالتوجُّه شمالاً على طول

نهر دجلة إلى كوردونيه وأرمينيا. انتهى الأمر. حتى أورميسدا بات يُدرك الآن أنه لن يحكم في بلاد فارس أبداً.

عند فجر يوم السادس عشر من حزيران قوّضنا الخيام استعداداً للرحيل. وطلبَ جوليان مني أنْ أركب معه. ولم أدرك إلاّ حين قرأتُ اليوميات كم كان ممثلاً بارعاً. وفي ذلك اليوم كان البطلَ الأسطوريَّ، المملوء بالنشاط والحيوية، ذا الشعر واللحية المتوهجّين باللون الذهبي الباهت بفعل الشمس، والذراعين والساقين القاتمة، والوجه النظيف الذي لا يُعكِّر صفوه أيّ شيء كوجه طفل؛ حتى التقشُّر المستمر للأنف توقَّفَ أخيراً وبدا رأسه وكأنما قُدَّ من خشبٍ أفريقيٍّ. كان السواد يُجلّلنا كلنا ما عدا الغاليين الشاحبين، الذين أضحت بشرتهم حمراء بشكلٍ مؤلم بفعل الشمس وبقيت هكذا. كانت بينهم حالات ضربة شمس كثيرة.

أثناء سيرهم خلال التلال التي أحرقتها النيران، بدا جوليان مرحاً بصورة غير عادية. " لم يكن إنجازنا سيئاً. لقد نجحَتْ الحملة، وإنْ لم ترقَ إلى مستوى آمالي "

" ألأنَّ أورميسدا ليس الملك العظيم؟ "

" نعم ". لم يستفِض.

قاطعنا التريبيون فالنس. كانت تلك المرة الثانية حسب ما أذكر أراه فيها في بلاد فارس. لم يكن قبيح المنظر، وإنْ كان قذراً جسدياً، حتى بالنسبة إلى جندي. كان عصبياً إلى أقصى مدى في حضور جوليان. " أيها الأوغسطوس، يقول المُستطلعون إنّ هناك جيشاً يقترب. من الشمال "

طعن جوليان بعقبَيّ حذائه أضلاع حصانه وخبَّ هابطاً الدرب إلى رأس الجيش، على مسافة ميلَين. وفي غضون نصف ساعة، كانت السماء قاتمة من الغبار المُدوِّم. وسَرَت الشائعة بسرعة : لقد جاء بروكوبيوس! لكنَّ جوليان لم ينتهز أي فرصة. نصبنا المُخيم حيث كنا، وأحطنا أنفسنا بصفٍ مُضاعَف ثلاث مرات من التروس. وانتظرنا لنرى جيشُ مَنْ هو، جيش بروكوبيوس أم سابور.

كنا في حالة استنفار للمعركة طوال اليوم. راهنتُ أناطوليوس بخمس قطعٍ فضيّة على أنَّه جيش سابور بنسبة ثلاثة إلى واحد. ولم يفُز أيٌ منا. اتَّضحَ أنَّ " الجيش " هو قطيع من الحمير البرية.

ولكن في تلك الليلة ظهرَ فجأةً جيش الملك العظيم.

جوليان أوغسطوس ١٧ حزيران

جيش سابور ما يزالُ موجوداً. إنهم يضربون خيامهم على بُعد ميلٍ منا. لا يمكن معرفة عددهم ولكن ليسوا بقدر المتجمّعين في مدينة ستيسيفون. قواتنا توّاقة إلى القتال. بقيتُ طوال فترة الصباح أكبحهم. وعند الظهيرة هاجم الخيالة الفرس إحدى كتائبنا . وقُتِلَ القائد ميكاميوس. وعلى الرغم من أنَّ أخاه ماركوس جُرِحَ إلاّ أنه شقَّ طريقه بصعوبة إلى حيث رقدَتْ الجثة وحملها وعادَ إلى المخيَّم.

الحرارة تفوقُ كل ما سبق أنْ تحمّلتُه. وعلى الرغم من أننا جميعاً مُصابون بالدوار من شِدَّة وطأة أشعة الشمس، أصدرتُ الأمر بمتابعة المسير. في أول الأمر تقهقرَ الفرس؛ ثم احتشدوا وحاولوا أو يوقفونا. فذبحناهم. وبحلول بعد الظهر كانوا كلهم قد رحلوا ما عدا عصبة من العرب الذين ظلوا يتبعوننا ولا يزالون، في انتظار اللحظة المناسبة للإغارة على قافلة الحوائج.

إنني أكتب هذا وأنا جالس على مقعد بلا ظهر تحت شجرة نخيل بلح. كيفما نظرتُ أرى دوائر نضرة أمام عينيّ. هليوس يُبهِرني. الهواء شديد الحرارة يسفع الرئتين. عَرَقي يمتزج مع الحبر على الصفحة. الأحرف تصبح ضبابيّة. الضحايا قليلة.

جوليان أوغسطوس ٢٠ حزيران

خيَّمنا يومين كاملَين في هوكومبرا، وهي عزبة تخصُّ نبيلاً فارسيّاً لم يعمد، لحُسن حظّنا، إلى حرق محاصيله وبساتينه. الطعام والمياه متوفّرة بكثرة. والرجال يكادون يكونون سعداء. أمرتُهُم بأخذ كل ما في إمكانهم الحصول عليه من طعام؛ ذلك أنَّ علينا أنْ نحرق هذا المكان حالما نغادره. لن نعثر على مثل هذا القَدر من الطعام مرةً أخرى إلى أنْ نصل إلى مناطقنا، بعد مسير عشرين يوماً من هنا.

جوليان أوغسطوس ٢١ حزيران

واصلنا المسير. مناطق الريف هضابيّة وجرداء. نحن على مسافة عشرين ميلاً إلى الغرب من نهر دجلة، ونتحرّك شمالاً. في وقتٍ مُبكّر من هذا اليوم هاجمَ الخيالة الفُرس حرس مؤخرة مُشاتنا. ولحُسن الحظ، كانت الخيالة البيتولانتية قريبة وطردَتهم. وقد قُتِلَ

أحد مُستشاري الملك العظيم، ويُدعى أداسس، وأحضر الجندي الذي صَرَعَه درعَه إليّ. وبينما كنتُ أمنحه الجائزة المعتادة، قال سالوتيوس فجأةً، " لقد كنا صديقَين حميمَين، أداسس وأنا ". ثم ذكّرَني بأنّ الفارسي كان أحد مبعوثي سابور إلى قسطنتيوس.

هذا المساء حدث أمر بشع. فبدل أنْ يُهاجم خيالة ترتياتشي مع البيتولاتس في وقتٍ واحد الفرسَ تراجعوا. والنتيجةُ، ما كان يمكن أن يكون هزيمة نكراء للفرس أصبحَ مجرَّدً مناوشة. فصلتُ أربعة تريبيونات ولكن لم أتَّخذ أيَّ إجراءٍ آخر. قريباً سوف نحتاجُ إلى كل رجلٍ لدينا، جباناً كان أم شجاعاً.

لم نعُد متأكّدين من مكان وجودنا. إننا نتحرّكُ مباشرةً نحو الشمال، ولكن ليس في حوزتنا خرائط تبيِّنُ لنا مواقع المياه والقُرى. ولكن قبل يومين، في هوكومبرا، تبرَّعَ فارسيٌ عجوز يعرفُ المقاطعة جيداً بقيادتنا إلى منطقةٍ خصبة. تحدَّثَ أورميسدا معه مطوّلاً ورأى أنه ليس من الجواسيس. يقول الرجل العجوز إنه سنمر مدة ثلاثة أيام في منطقةٍ قاحلة ومن ثم سوف نصل إلى وادي مارانغا الخصب.

جوليان أوغسطوس ٢٢ حزيران

معركة. إعدام. فيترانيو. انتصار. أين؟

بريسكوس : العجوز الفارسي كان طبعاً جاسوساً قادنا مباشرةً إلى كمينٍ في مارانغا، إذ لم يكن " وادياً خصباً " بل مكاناً صخرياً كنا مُعرَّضين فيه ومن كل الجهات للجيش الفارسي. وما كاد جوليان يتمكّن من تشكيل الجيش على هيئة هلال حتى بدؤوا الهجوم. الوابل الأول من السِهام الفارسية لم تسبِّب اذى. ولم يكن هناك وابل ثان. وتمكّنَ جوليان من اللجوء إلى تمرينه التكتيكي المُفضّل، دافعاً بمشاتِه في وجه رُماة السهام الأعداء قبل أنْ يتمكّنوا من تحديد المدى الصحيح.

تواصلَ القتال طوال النهار في جوٍ أشبه بالفرن. بقيتُ مع الحوائج ولم أرَ ما حدث. ذكرياتي الأساسية هي عن الحرارة، والدماء التي تلطّخ الصخور، ونفيرُ الفيلَة الشنيع يتردَّدُ صداه في أرجاء الوادي الضيِّق.

كلمة " إعدام " تعني صَلبَ الفارسي العجوز حين اكتُشِفَ أنه قادنا عن عمد إلى هذا الفخ.

" فيترانيو ". كان الضابط الآمر للفيلق الزياني؛ وقد قُتِل.
" النصر ". اختفى الجيش الفارسي عند هبوط الليل. ضحاياهم كانت بنسبة ثلاثة إلى واحد. ولكن الرجال كانوا خائفين. قضية الجاسوس الفارسي سبَّبَت لهم رعباً خاصاً . إلى أي مدى أضلّنا ؟ أما كان من الأفضل - وإنْ كان أشد خطراً - أنْ نتبع مسار نهر دجلة المتعرِّج شمالاً؟ هذه الأسئلة كلها طُرِحَتْ على جوليان كلما ظهر بين القوات. لكنه كان دائماً يبدو واثقاً من نفسه.
" أين؟ ". حقاً أين!

جوليان أوغسطوس ٢٣ حزيران

نحن الآن على مسافة ثمانية أميال من نهر دجلة. لقد قرَّرتُ أنْ أتبع مسار النهر شمالاً، مع أنه أطول الطُرُق وأشدّها خطراً، بما أننا سنضطرُ إلى المرور بعديدٍ من الحصون. ومع ذلك، هذه البريّة ترعبني. لم تكن لدينا أي فكرة عن مكان وجودنا. وذلك كله لفائدة العدو. والطعام شحيح لدينا. أمرتُ بإعطاء مؤونتي للرجال. أورميسدا يُخبرني أنَّ الملك العظيم يستعدُ من جديد للسلم حسب الشروط التي لاتزال مُفضّلة لدينا. أورميسدا ينصحني بقبول المعاهدة. وهذا أشدّ ما أفزعني. لو أنَّ أورميسدا تخلّى عن حلمه باعتلاء العرش الفارسي، لخسرنا الحرب.

جوليان أوغسطوس ٢٥ حزيران

يبدو أنَّ هناك هدنة ضمنيّة بين الفُرس وبيننا. لقد اختفوا تماماً. ونحن باقون في المُخيَّم، نعتني بالجرحى، نُصلح الدروع، نستعدّ للرحلة الطويلة إلى الشمال. أشعر كأني زينوفون[١٢٢]، الذي مشى أيضاً في هذا الدرب.

مؤخّراً استغرقتُ في النوم وأنا أقرأ في " السير إلى داخل البلد ". استغرقتُ في النوم فلم أدرك أني أحلم (عادة أفعل). حسبتُ أني يقظٌ تماماً. بل إني أعي مصباح الزيت وهو يُقرقع لدى مرور الحشرات من خلال لَهَبِه واحتراقها. وفجأةً شعرتُ أنَّ أحدهم يُراقبني. رفعتُ بصري فرأيتُ هناك عند باب الخيمة قامةً ممشوقة لرجلٍ يُغطي رأسه؛ ويحمل في إحدى يديه قرن الوفرة. للوهلة الأولى، حاولتُ أنْ أتكلّم لكني لم أستطع -

حاولتُ أنْ أنهض ولم أستطع. نظرَ الشبحُ إليّ برهةً طويلة بحزن. ثم ودون أنْ ينطقَ بكلمة استدار الشكل وغادرَ خيمتي، واستيقظتُ، وأنا بارد برودة الموتى. قفزتُ واقفاً على قَدَمَيّ وعبرتُ المكان إلى فتحة الخيمة. أطللتُ إلى الخارج. لم أرَ أحداً في الأفق ما عدا الحارس النائم. كانت بعض النيران الصغيرة تلتهب في الظلام. رفعتُ بصري لحظة سقوط نجم في الغرب؛ كان آتياً من الأعالي، وتوهَّجَ برهة، ثم تلاشى.

أيقظتُ كاليستوس. " استدعِ لي ماكسيموس. وماستارا. بسرعة "

حين وصلوا، أخبرتُهم بأمر النجم. أريتهم بالضبط أين سقط في السماء.

فسَّرَ ماستارا. " وفقاً لكتاب Tages، حين يُشاهَد نيزك يسقط في زمن الحرب، فينبغي عدم خوض أي معركة على مدى أربعٍ وعشرين ساعة، ولا أي تحرُّك من هذا النوع "

التفتُّ إلى ماكسيموس. " على الأقل لم يكن نجمي الخاص "

طمأنني ماكسيموس، أما ماستارا فكان صارماً. " هناك أمرٌ واحدٌ مؤكَّد. يجب أن تبقى هنا في المخيَّم يوماً آخر "

" لكنني أعطيتُ أوامر. غداً سنعبُر نهر دجلة "

" لقد سألتني، أيها الكاهن الأكبر، عن دلالة كلمة Tages وقد أعطيتك إياها "

سمحتُ لماستارا بالمغادرة. ثم أخبرتُ ماكسيموس عن الحلم. فاضطربَ. " أأنتَ متأكِّد تماماً من أن الشكل هو شكل روح روما ؟ "

" نعم. كنتُ قد شاهدتُه منُ قبل، في باريس، حين أمرني بلبس الرداء الأرجواني "

تجهَّمَ وجه ماكسيموس. " يمكن طبعاً أنْ يكون شيطاناً. إنها موجودة في كل مكان على هذه الأرض الملعونة. بل حين كنتُ أتمشَّى هنا هذه الليلة، شعرتُ بها تكتنفني من كل جانب، تشدُ لحيتي، وعصاي، وتختبر قوَّتي "

" هذا لم يكن شيطاناً؛ كان روح روما. وقد تخلَّت عني "

" لا تقُل هذا! فقبل كل شيء، في غضون ثلاثة أسابيع سوف نكون في أرض الوطن. ويمكنك أن تُنشئ جيشاً جديداً. وحينئذٍ يمكنكَ أنْ تُكملَ عمل الإسكندر... "

" ربما ". فجأةً وجدتُ أني سئمتُ ماكسيموس. إنه صادق في تقديم يد المساعدة لكنه ليس دائماً على حق. هو ليس إله، ولا أنا. وصرفتُهُ على مضضٍ شديد منه. وقبل

أنْ يغـادر، ناشدني ألاّ أقـوِّض المُخيَّم غـداً. لكنني أخبـرته بأنَّ علينا أن نتـقدَّم مهـما أخبرتنا النُذُر.

كاليستوس يُلمِّع درعي. يقول إنَّ أحزِمة القطعة الصدرية مقطوعة، لكنه سيجعل صانع الدروع يُصلحها قبل أنْ نغادر في الغد. الأصمّ-الأخرس يجلس عند قَدَمَيّ. يعزِف أغنية ليديّة[123]، شديدة القِدَم وشديدة الغرابة؛ ومع ذلك يستطيع المرء أن يُميِّز صوت ديونيزيوس[124] في اللحن. وحين نفكر في الأمر، نجد أنَّ الإله لا يزال يغني لنا، مع أنَّ العصر الذهبي قد انصرم والبساتين المقدَّسة هُجِرَتْ.

تنقَّلتُ بين الخيام مدة ساعة، في غفلةٍ من الرجال. إنني أستمدُّ القوة من الجيش. إنه حياتي، العنصر الذي أضع فيه كياني. هذه هي المفارقة الختاميّة. أنا الذي أردتُ أنْ أعيشَ في أثينا كطالبِ علِم كنتُ قائد جيش طوال ثماني سنوات. هذا هو القَدَر.

توقَّفتُ عند خيمة أناطوليوس. استطعتُ من خلال الشق أنْ أرى أناطوليوس وبريسكوس يلعبان الداما. كدتُ أتحدثُ إليهما. لكنني أدركتُ أنني لن أكون أفضل رفيق لهما هذه الليلة. وبدل ذلك جلستُ أمام خيمتي، أراقبُ السماء. نجمي الخاص يتوهَّج أكثر من أي وقت. ولولا الحلم المزعج الذي رأيته، لكنتُ راضياً. لقد فعلنا، من دون تعزيزات، كل ما استطعنا فعله في هذا المكان. ولكن ما العمل مع فيكتور والجليليين؟ يقول لي نيفيتا إنني لستُ آمناً. ولكن ماذا في استطاعتهم أن يفعلوا لي؟ فإذا ما قُتلتُ أمام الملأ، فسوف يذبح الغاليون والفرنجة الآسيويين. وإذا قُتلتُ سراً... ولكن حين يموتُ الإمبراطور فجأةً في شبابه فهذا ليس سراً. كلا، إنهم لا يجرؤون على مهاجمتي بعد. غريبٌ أنني، وأنا مستلقٍ هنا على سرير جلد الأسد، أفكِّرُ في شيءٍ كان ماردونيوس قد أخبرنا به، غالوس وأنا.

بريسكوس : هذا هو البند الأخير، قَطَعَه النوم، ثم الموت.

- ٢٣ -

بريسكوس : في صباح اليوم التالي أعطى جوليان الأوامر بالسير غرباً نحو نهر دجلة. كنا في منطقة جافة ومُقفِرة من الرمال والحجارة. أثار سيرنا البطيء سُحُباً من الغبار الأبيض الخانق ونحن نتقدَّم من سلسلةٍ من التلال المنخفضة حيث الفُرس المنتظرون يُراقبوننا، كحشدٍ من العقارب بين الصخور.

كنتُ مع جوليان في طليعة الجيش. لم يكن يرتدي درعاً. ولم يكن الخادم قد أصلحَ بعد الأحزمة الجلدية. قال " هكذا أفضل ". ومثلنا جميعاً، كان منقوعاً بالعَرَق، حتى عند الفجر. وتشبَّثَ الذباب بشفاهنا وعيوننا. وعانت غالبيتنا من الزحار. ولكن على الرغم من الحرارة وانعدام الراحة، كان جوليان في حالة معنوية ممتازة. فمن ناحية، توصَّلَ أخيراً إلى تأويل الحلم على هواه. " لقد تخلَّت عني روح روما الحارسة. لا ريب في ذلك. لكنّها غادرت من باب الخيمة، الذي هو باتجاه الغرب. وهذا يعني أنَّ هذه الحملة قد انتهت، وينبغي علينا أنْ نعودَ إلى وطننا في الغرب "

" لكنَّكَ قلتَ إنّ الوجه كان ينمُّ عن الحزن "

" كذلك وجهي عندما أفكِّرُ فيما كان يمكن أنْ نفعله هنا . ومع ذلك... ". وبينما كنا نتحدَّث، كان المراسلون يتوافدون إليه على فتراتٍ منتظمة. لقد شوهدَ الفُرسُ في الوادي أمامنا. يناوشوننا من الجناح الأيسر. والكونت فيكتور يخشى أنْ يُهاجمونا.

قال جوليان " لن يهاجموا. لن يواجهوننا بعد الآن في ساحة القتال. سوف يزعجوننا، لا أكثر ". وأعطى أوامر سريعة. يجب تعزيز الجناح الأيسر. يجب أن يوضع العرب في المؤخرة. ويجب استرضاء فيكتور. وفجأةً وصل رسولٌ من أرينثيوس. الخيالة الفرس يهاجمون حرس المؤخرة. وبسرعة أدار جوليان حصانه باتجاه المؤخرة، ولحقَ كاليستوس به.

بعد أنْ غادَرَنا جوليان، هاجمَ رُماة السهام الفُرس المُختبئة في الجروف إلى أيمن القافلة طليعةَ الجيش. ونادى نيفيتا للاستعداد للمعركة. فأسرعتُ بالانضمام إلى رفاقي من اللا مُقاتلين في المركز.

وجدتُ ماكسيموس قابعاً بأمان بين الحوائج يُمشِّط بهدوء لحيته، غير مدركٍ أننا تعرَّضنا للهجوم. وحين أخبرته بما حدث، لم يُصَب بأي قدر من الرعب. قال، مُردِّداً ما قاله جوليان، " لم تعد هناك معارك ضارية؛ فقط هجمات رجال عصابات. لا شيء يستدعي الخوف "

لكن هذه المعلومات استنهضَتْ أناطوليوس. " يجب أن أنضمَّ إلى الفيلق الترتياتشي. إنهم يعتمدون عليَّ ". ثم انطلق هذا المخلوق التافه، وقد حافظَ الجسم الضئيل والبدين على توازنه على متن حصانه بمجرَّد ثقل الدرع. ويجب ملاحظة أنه إذا كان المرء موجوداً في مركز جيشٍ طليعتُهُ تقع على مسافةِ عشرة أميالٍ من حرس مؤخرته، فيمكن لمعركةٍ هائلة ان تدور ولا يعرف بأمرها أحد. وكان يمكن لي ولماكسيموس، ونحن مكوَّمان بين العربات، أنْ نكونَ مسافرَين من أثينا إلى سيرميوم وسط معمعة حربٍ فارسية.

والآن إليك ما حدثَ لجوليان. في منتصف الطريق إلى المؤخِّرة، استوقفه رسولٌ آخر، أخبره انَّ طليعة الجيش تعرَّضت أيضاً للهجوم. فقفلَ جوليان عائداً. كان قد قطعَ ربما مسافة ميل حين هاجم الفُرس مركز جيشنا. انقضَّت الفيلة، والخيالة، ورُماة السهام من التلال بفُجاءةٍ كبيرة بحيث أنَّ الجناح الأيسر انهار فوراً. اندفعَ جوليان نحو تلك المعمعة، وسلاحه الوحيد درعه. جمعَ القوات، وضربَ بهم الفُرس. أخذوا يُقطِّعون بالسيوف والفؤوس جذوع الفيلَة وسيقانها.

تراجعَ الفُرس. فتبعهم جوليان، وهو يُلوِّح للقوات الخاصة كي تتبعه. فجأةً علقَ مع كاليستوس وسط ضجيج تراجع الفُرس المضطرب. ولبضع دقائق غاب الرجال عن الأنظار. وأخيراً فرَّ آخر الفُرس هارباً ولاح جوليان من جديد للعيان. وانضمَّ من جديد إلى القوات الخاصة، التي هلَّلت له، بعد أنْ اطمأنَّتْ إلى سلامته. ولم يلاحظوا أنَّ رمحاً قد اخترقَ جنبه إلا حين اقتربَوا كثيراً منه.

قال جوليان " الأمر ليس خطيراً ". ولكن عندما حاولَ أنْ يسحب الرمح أطلقَ

صرخةً، لانَّ رأسه كان حاداً كالشفرة وجرحَ أصابعه. وقد سمعتُ أنه جلسَ برهةً طويلة يُحدِّقُ أمامه مباشرةً. وفجأةً رشقَ دمه في وجه الشمس مباشرةً، وقال من جديد، " إنه ليس كثيراً " وسقط من فوره على الأرض.

حُملَ على محفَّة إلى خيمته. وبإلحاحٍ منه، غُطّيَ كله بعباءة أحد الخيّالة لكي لا يعلمَ أحدٌ أنَّ الإمبراطور قد سقط.

حين رأيتُ المحفَّة تقتربُ من الخيمة، قلتُ بحماقة لنفسي : لقد قتلَ أحدهم غزالاً وهم يجلبونه لنتعشّى به. وحين علمتُ أنَّ جوليان هو المحمول على المحفّة، شعرتُ كأنَّني تلقَّيتُ ضربةً قوية على صدري. نظرتُ إلى ماكسيموس. هو أيضاً كان مذهولاً. تبعنا المحفّة معاً إلى داخل الخيمة. عندئذٍ كان جوليان واعياً.

غمغمَ " هناك درسٌ في هذا "، مالَ ماكسيموس فوقه، كأنما ليسمع كلمات نبوءة.

همسَ ماكسيموس كمَنْ يُصلّي " نعم، يا جوليان "

" دائماً، في وقت الحرب - مهما كانت - ارتدِ درعاً ". ابتسمَ جوليان لنا بوَهَن. ثم التفتَ إلى كاليستوس الخائف. "ألم تُصلحِ الأحزمةَ بعد؟ "

" نعم، يا مولاي. نعم "، وبدأ كاليستوس يجهشُ بالبكاء.

في تلك الأثناء كان الجرّاحون قد مزَّقوا رداء جوليان عنه. كان نصل الرمح الرصاصي قد اخترقَ أسفل القفص الصدري مباشرةً، مُمزِّقاً الفصّ السفلي من الكبد. لم يكن هناك أي دم تقريباً على الجلد الأبيض. ألقى جوليان نظرة سريعة على جرحه بسيماء من النفور، كنحّاتٍ يستقصي خطأً في الشكل الذي يصنعه. قال " فقط يدي تؤلمني ". ثم التفتَ إلى سالوتيوس الذي انضمَّ إلينا " ما هو وَضْعُ المعركة؟ "

" إننا نطردهم "

" عظيم. ولكن مع ذلك، الأفضل أن أُظهِرَ نفسي. يجب أنْ يرى الرجال أنني ما أزالُ حياً ". وعلى الرغم من محاولات الجرّاحين لمنعه، نهضَ واقفاً. " لا بأس. لا أشعر بأي ألم. الجرح ليس عميقاً. كاليستوس، هاتِ درعي ". والتفتَ نحو الجرّاحين. " إذا كنتم لا تستطيعون إخراج الرمح، فاقطعوه على الأقل لكي أستطيع أنْ أخفيه تحت عباءتي ". دلّى ساقيه عبر السرير؛ فانبجسَ الدمُ من الجرح؛ وغاب عن الوعي. كدتُ بدوري أفعل. وبسرعة عملَ الجرّاحون على إيقاف دفقْ الدم.

سألَ سالوتيوس الجراحين " هل سيموت؟ "

" نعم، أيها الحاكم، سيموت، قريباً جداً ". تبادلنا النظرات كالبلهاء، مذهولين، وغير مُصدّقين.

ظهرَ نيفيتا عند فتحة الخيمة. صرخَ في وجه القامة الشاحبة والغائبة عن الوعي المُمدَّدة على سرير جلد الأسد، " أيها الإمبراطور! "

هزَّ سالوتيوس رأسه ناهياً ووضعَ أصابعه على شفتيه. فرَّ نيفيتا من الخيمة، وهو يعوي كحيوانٍ يتألَّم. تبعَه سالوتيوس. في ذلك اليوم ذبحَ الغاليون والفرنجة، والكلتيون والجرمان نصف الجيش الفارسي انتقاماً لإمبراطورهم.

لم ينتهِ القتال حتى هبوط الليل. لكنني لم أشاهد أي شيء منه. جلستُ مع ماكسيموس في تلك الخيمة الخانقة نراقبُ جوليان يُحتضر.

كان واعياً في أغلب الوقت. لم يهذِ. ولم يتشتَّت ذهنه. وكاد لا يشعر بأي ألم. وطوال فترةٍ طويلة تظاهرَ بأنَّ كل ما عانى منه هو جرحٌ في اللحم.

سألتُ " ولكن كيف؟ ". بدا الرمح المغروز في جنبه تافهاً، كدبوسٍ طويل مغروز في دمية طفل.

" أنا لا أعرف. كيف؟ ". التفتَ جوليان إلى كاليستوس، الذي جلسَ على الأرض ككلبٍ مذعور، قريباً من مشجب الدرع. " هل رأيتَ كيفَ وقعَ الأمر؟ "

" كلا، يا مولاي. أنا كنت خلفك. والفُرس كانوا يكتنفوننا من كل جانب. ولم أعد أراك. لم أرَ ما حدث إلاّ بعد أنْ تحرَّرنا منهم "

" عندئذٍ لم أكد أشعر به؛ فقط بضربة خفيفة، وكأنَّما من قبضة يد ". أشار جوليان إلى الفتى الأصمّ-الأخرس لكي يُعطيه ماءً. ولكن بطلبٍ من الجرّاحين، لم يبتلعه "

كانت أخبار المعركة تُنقَل لنا بانتظام. وحين علِمَ جوليان أنَّ القائدَين الفارسيين، ميرينا وناهوداريس، قد ماتا، ابتهجَ. " كانا أفضل ما لدى سابور من ضباط. هذه هي آخر المعارك. أنا متأكد من ذلك! "

أعترفُ بأني شعرت للمرة الوحيدة بالامتنان لثرثرة ماكسيموس. لم تكن هناك أي فترة صمت طوال النهار لأنه روى لنا حكايات لا تنتهي عن الآلهة المتنوعة التي تكلَّمَ معها. من الواضح أنَّ جبل أولمبوس[١٢٥] كله استمتعَ بصُحبتِهِ.

عند مغيب الشمس، بدأ النزيف من جديد. وحين توقَّفَ في نهاية الأمر، كان وجه جوليان رمادياً شاحباً من تحت البشرة التي سفعتها أشعة الشمس. سألَ الجرّاحين، " هل ستتمكّنون من إخراج الرمح؟ "

" كلا، يا مولاي ". كان تلك تلك جملة الحكم بالموت، كما أدركَ جوليان. أومأ برأسه إيجاباً وأغمَضَ عينيه. بدا كالنائم. أخذتُ أتصبَّبُ عرقاً من فرط التوتُّر؛ ورسمَ ماكسيموس أشكالاً على الأرض الرملية. وعلى البُعد، خفَّ ضجيج المعركة. وبينما كان كاليستوس يُشعِل المصابيح، ولجَ سالوتيوس ونيفيتا الخيمة. فتحَ جوليان عينيه. " كيف الحال؟ ". كان صوته خفيضاً ولكن حازم.

وضعَ سالوتيوس خوذةً برونزيةً مزخرفة على حافة سرير جوليان النقّال. " هذه كانت تخصُّ القائد ميرينا. لقد هُزِمَ الجيش الفارسي. عدَدْنا حتى الآن خمسين من أكبر سادتهم بين الموتى "

قال نيفيتا " لن نرى ذلك الجيش قريباً أبداً "

" لقد أحسنتَ القِتال " ولمسَ جوليان خوذة القائد الفارسي بيده السليمة. " هذه الحرب انتهت "

" لكننا كدنا نفقد سالوتيوس " حاولَ نيفيتا أن يكون ودوداً. " لقد حاصروه من كل جانب. وبسبب ارتدائه العباءة الأرجوانية، حسبوا أنه أنتَ. لذا كان عليه أن يُقاتل كما هو جدير بأي فرنجي لكي يفلت منهم. ما كنتُ أحسب أنَّ هذا الرجل العجوز ينطوي على كل تلك الطاقة "

رسمَ جوليان ابتسامةً واهنة. " لن يتمكَّن العجوز من المشي غداً، بسبب التيبُّس "

" إنه لايكادُ يستطيع التحرُّك منذ الآن ". حافظَ سالوتيوس على روح المُزاح.

فجأةً أطلقَ جوليان شهقةً سريعة، وأمسك بجنبيه وكأنَّ الصدرَ يوشكُ أنْ ينفجر. وتلألأ العرق على جسده. وتقلَّصَتْ عضلات بطنه من شدة الألم.

غمغمَ " هليوس ". ثم أضاف " أين نحن؟ ماذا يُدعى هذا المكان؟ "

أجاب ماكسيموس " فريجيا[١٢٦] ". قال جوليان بذبول " إذن فقد تمَّ الأمر "

بالمناسبة، لطالما رغبتُ في معرفة إنْ كانت تلك البقعة الصحراوية اسمها فعلاً فريجيا. وبما أني أعرفُ ماكسيموس، أشكُ في أنه كان يكذب؛ فقبل كل شيء، كانت

سمعته كمتنبئٍ معرَّضة للخطر. ولكن سواء أكان ذلك صحيحاً أم لا، فقد أصبحَ الآن معروفاً في التاريخ أنَّ الإمبراطور جوليان قد صُرِعَ في فريجيا، كما كان قد تنبّأ كلٌّ من ماكسيموس وسوسيباترا.

التفتَ جوليان إلى الجرّاحين. " هل سأموت قريباً؟ "

" لا نستطيع أنْ نتكهَّن، يا مولاي. إنَّ الكبد ممزَّق. بضع ساعات... ". بدأ كاليستوس من جديد يبكي. وأخذ نيفيتا يشدُ ويرخي قبضتَيّ يديه الضخمتين يستعدُ لتكسير هيكل الموت العظمي نفسه. وجلسَ سالوتيوس ببساطة على كرسي بلا ظهر، واهناً بعد يومٍ طويلٍ من المعارك.

" إذن لقد شاهدتُ الشمس - وأنا حي - للمرة الأخيرة ". قال جوليان هذا بصوت ذي نبرةٍ عاديّة. " كان ينبغي أنْ أقدِّم أضحية. الآن أصبحتُ أنا طبعاً الأضحية "

قال سالوتيوس بإلحاح " أيها الأوغسطوس، يجب أنْ تعيِّن الخليفة. مَنْ الذي سيكون إمبراطوراً بعد أن تستعيدك الآلهة؟ "

رانَ الصمتُ على جوليان. بدا للوهلة الأولى وكأنه لم يسمع. ثم قال " يجب أنْ أضيفَ أشياء معيَّنة إلى وصيتي، مواريث شخصية. أرسلوا إلي أناطوليوس "

قال سالوتيوس " إنه في جنة النعيم، يا مولاي ". وهو التعبير الكلاسيكي الذي يعني أنَّ الرجلَ قد مات بشرف أثناء المعركة. أنا بشكلٍ خاص صُدِمتُ بشدَّة لهذا النبأ.

ذُهِلَ جوليان. " أناطوليوس مات؟ ". ترقرقت الدموع في عينيه. ثم ضحكَ. " ها أنا ذا رجلٌ يُحتضر يُعزّى في ميت! إنَّ هذا، يا بريسكوس، جديرٌ بأنْ يجدَ هوى عند إحساسك بالتضارُب ". وأصبحَ يتَّسِمُ بالعملية. " هناك وصيّة في القسطنطينية. أنتَ تعلم أين هي، يا سالوتيوس. اسهر على أنْ تُنفَّذ باحترام. نيفيتا، استدعِ القادة. ماكسيموس، يا صديقي. أنا مستعد للوداع ". رسم تكشيرةً وبدا فجأةً من جديد أشبه بتلميذ مدرسة. " كما تعلم، أغلب أباطرتنا ماتوا بسرعة كبيرة بحيث لم يتمكَّنوا من إعدادِ خطابٍ ختاميّ. كما أنَّ الذين أُتيحَ لهم وقتٌ كافٍ أثبتوا أنهم مُخيِّبون للآمال. فسباسيان[١٢٧] مثلاً أطلقَ نكتة رديئة. قال " يا إلهي، يبدو أني أتحوَّل إلى إله". وأوغسطوس[١٢٨] قال كلاماً غير مفهوم. وهادريان[١٢٩] ناقشَ في علم الفَلَك. ولا أحد استفاد من المناسبة. حسنٌ، أنوي أنْ أكونَ أنا استثناءً "

أومأ جوليان لكاليستوس، الذي أحضرَ له صندوقاً صغيراً أخرجَ منها رقعة ملفوفة. " كعادتها دائماً، كانت الآلهة رفيقةً بي. سوفَ أموتُ وأنا فريدٌ من نوعي : أول إمبراطور يكتب مقطوعة وداعية حَسَنة السبك (أنا قلتُ هذا) ". ابتسمَ لي. "نعم، لقد دوَّنتُ آخر كلماتي في إنطاكية، تحسُّباً. لذا مهما يحدث لسمعتي، فسيبقى ذكري بسبب هذا الرحيل ". تكلَّمَ بسخرية من الذات شديدة الرهافة بحيث حتى سالوتيوس ابتسم وقال " لقد بززتَ ماركوس أورليوس "

قال جوليان " شكراً لك ". ثم أغمضَ عينيه وانتظر. وفي غضون بضع دقائق ازدحمَتْ الخيمة بالأصدقاء، والكهنة، والقادة. وكأنما بتصميم مقصود، وقفَ القادة الآسيويون على أحد جانبَيّ السرير، واصطفَّ الأوروبيون على الجانب الآخر.

حين حضرَ الجميع، أومأ جوليان للطبيب الجرّاح لكي يرفعه قليلاً، وهو جهدٌ سبَّبَ له بعض الألم. أمرَ كاليستوس، وهو يتنفَّسُ بصعوبة، بإشعال مزيدٍ من المصابيح، وقال، أيضاً لي، " في النهاية، يا بريسكوس، يمكننا أنْ نكون مُغالين " وطبعاً لم يخطر في بالي شيء أقوله.

فتح جوليان اللفافة. بدأ بالقول، " يا أصدقائي ". تلفَّتَ حوله. لم يأتِ فيكتور بأي حركة عندما استقرَّ بصر جوليان عليه. كرَّر " يا أصدقائي ". ثم أسرعَ في القراءة، وكأنه يخشى ألاّ يعيش حتى يصل إلى النهاية. " من حُسن الحظ أنني أغادر هذه الحياة التي يسرني أنْ أعيدها إلى الخليقة، بطلبٍ منها، كأي رجل شريف يُسدِّد ديونه عندما يحين موعد سدادها. وأنا لست - كما قد يُظَنُ... "، وتوقَّفَ مرةً أخرى ونظر حوله إلى وجوه قادته، وهي تتحرك بسرعة وفضولية وتبدو غريبة الشكل على ضياء المصابيح غير المتساوي... " حزيناً " - وشدَّ على الكلمة بصورة غريبة - " لرحيلي ".

عادَ إلى النص. " لأنني تعلَّمتُ من الفلسفة أنَّ الروح هي أشد سعادة من الجسَد؛ لذلك، حين يُفصل وضعٌ أفضل عن آخر أسوأ، فعلى المرء أن يفرح، لا أن يحزن. ويجب ألاّ ننسى أنَّ الآلهة تعطي الموت عن عمد إلى أعظم الرجال كمكافأةٍ ختاميّة. وأنا واثق من أنَّ هذه الهدية قد أُعطيَتْ إليَّ لكي لا أستسلم أمام صعوبات معينة، ولا أعاني من ذُل الهزيمة. فقبل كل شيء، الحزن يطغى على الضعف؛ يفرُّ هارباً أمام القوة. إنني لا أندم على أي شيء فعلتُه؛ ولا تعذبني ذكرى أي ذنب عظيم اقترفتُه. فقبل أنْ ارتقي

سُدَّة الإمارة وبعده، حافظتُ على روحي التي وهبها لي الإله ونأيتُ بها عن ارتكاب الخطأ الفادح، أو هذا اعتقادي. لقد أدرتُ دفة شؤون الحكم باعتدال. لم أخض الحرب - أو السلم - إلاّ بعد طويل تدبُّرٍ، مُدركاً أنَّ النجاح والتخطيط الدقيق لا يتلازمان بالضرورة، بما أنَّ الآلهة، في نهاية المطاف، هي التي تُقرِّر النتيجة. ومع ذلك، بما أني كنتُ مؤمناً بأنَّ هدف الحكم العادل هو تحقيق رخاء الشعب وأمانه. وكما تعلم، لطالما كنتُ ميالاً إلى الإجراءات السلمية، وأتجنَّب ذلك الانحراف الذي ينطوي على فساد الأعمال والإحسان " . سكت. أخذَ عِدَّة أنفاس عميقة وطويلة، وكأنه يعجز عن الحصول على ما يكفي من الهواء في رئتيه.

تلفَّتُ حولي. العيون كلها كانت متمركزة على جوليان. بكى نيفيتا وجوفيان صراحةً؛ واحدُ من الانفعال العاطفي، والآخر من فرط الشرب. وقفَ فيكتور عند حافة السرير على أطراف أصابع قَدَمَيه، كطائر جارح يستعد للانقضاض. من بين هذا الجمع، وحده ماكسيموس كان على سجيته، يتمتمُ بالتعاويذ ويسحق أعشاباً جافةً في أقرب مصباح إليه، يرسل دون شك رسائل إلى العالم السُفلي.

تابعَ جوليان، وقد أضحى صوته أشد وَهَناً، " يُسعدني أنَّ الدولة كالوالد المُستبدّ غالباً ما عرَّضتني للخطر. واضطررتُ إلى أنْ أكونَ قوياً، أنْ أحافظ على رباطة جأشي، أنْ أقاوم عاتياتِ القَدَر، على الرغم من معرفتي ماذا ستكون نهايتي، لأنني تعلمتُ قبل زمنٍ بعيد من أحد الكهنة أنني سأموت من ضربة سيف. ومن أجل هذه الميتة الجيدة أشكر هيليوس، لأنَّ الخوفَ مِمَّنْ هم في موقعي هو الذي يجعلنا نموت بخِسَّةٍ بمؤامرات سرّية أو، وهذا اسوأ، بمرضٍ طويل الأمَد. أنا سعيد لأنني أموت وأنا في قلب مسيرتي المهنية، مُنتصراً، ويُشرّفني أنَّ الآلهة وجدَتني جديراً برحيلٍ شديد النُبل عن هذا العالم. فالرجل يكونُ ضعيفاً وجباناً إذا لم يرغب في أنْ يموت في أجَلِه المكتوب، أو إذا عمل على أنْ يتجنَّب الساعة عندما تحين... ". هذه الكلمات الأخيرة نطَقَها تقريباً همساً. سَقَطَتْ الرقعة من يده. بدا أنه يُعاني من صعوبةٍ في تركيز أفكاره.

أخيراً قال " هناك مزيد. لكنني لا أستطيع... أنا... لن أَلغَط ". فشلَتْ محاولةٌ للابتسام. وبدلَ ذلك أخذتْ عَضَلَةٌ في وجهه تنتفض بحركةٍ تشنّجيّة. لكنَّ الكلمات التالية خرجَتْ بوضوح. " أما بالنسبة إلى اختيار الإمبراطور ". اقتربَ القادةُ غريزياً

من السرير، إذ أنَّ رائحة السلطة تُثيرهم مثلما تجذب رائحة الدم الذئابَ إلى غزالٍ جريح.

حتى وهو يتألم فهِمَ جوليان بدقّة طبيعة الحيوانات المحيطة به من كل جانب؛ فتكلّمَ ببطءٍ وبعناية. " إذا انتقيتُ شخصاً وريثاً وكرهتموه، كما قد يحدث، سأكون قد وضعتُ شخصاً جديراً في موقعٍ قاتل. وخليفتي لن يدعني أعيش. أيضاً قد أتغاضى، عبر الجهل " – هذه المرة نجحَ في رسمِ ابتسامةٍ واهنة – " عن أجدر الرجال، ولا أرغبُ في ترك تلك الوصمة تلطّخُ ذكراي، لأنني طفلُ روما المُطيع وأريدُ حاكماً جيداً يخلفني. لهذا سوف أترك الخيار لكم. لن أقترحَ أحداً "

سَرَتْ تنهيدة طويلة في الغرفة. تململَ القادة بعدم ارتياح. بعضهم أُصيبَ بخيبة الأمل؛ وآخرون سرّوا : لعلَّ فُرصتهم قد حانت الآن.

نظرَ جوليان إليّ. " هل أحسنتُ قراءةَ هذا ؟ "

" نعم، يا مولاي "

" إذن فقد أنجزتُ الرحيل الذي أردته لنفسي ". التفَتَ إلى القادة. " والآن فلنتبادل عبارات الوداع ". وأخذ القادةُ واحداً إثر آخر يُقبّلون يده للمرة الأخيرة. كثيرون بكوا. لكنه أمرهم بألاّ يفعلوا. " جديرٌ بي أنا أن أبكي عليكم. لقد انتهيتُ من الألم، أما أنتم، أيها المساكين، فلا تزالون في قلب معمعته "

بعد رحيل آخر قائد، أشارَ جوليان لماكسيموس ولي أن نجلس إلى جوار سريره. قال " الان سنتحدَّث "، مُستخدِماً العبارة التي طالما استخدمها عندما كان ينفرد بأصدقائه.

ثم انخرطَ جوليان معنا في مناقشة كتاب " فيدو ". ما هي بالضبط طبيعة الروح؟ ما الشكل الذي تتّخذه؟ بأي طريقة تعود إلى سيرابيس؟ أنا تحدَّثتُ في الفلسفة؛ وتحدَّثَ ماكسيموس في الأسرار. وفي النهاية كان جوليان يُفضِّلُ ماكسيموس عليّ ولم أكن ألومه، ذلك أنني كئيب وماكسيموس مُفعم بالأمل. وأخذا معاً يُردِّدان كلمات المرور الميثرائية ويقومون بإشارات سرية إلى آلام ديميتر. كان جوليان يستمدُّ كثيراً من الراحة من ماكسيموس. وكالمعتاد، لم أتمكّن من التعبير بالضبط عن حبي له؛ وبدل ذلك، وكأستاذ مدرسة في الريف، اقتطفتُ من أفلاطون. ولم أكن مرةً أقلّ كفاءةً مني حينئذ.

قُبيلَ منتصف الليل، طلبَ جوليان ماءاً بارداً. فجلبَه كاليستوس له. وما إن همَّ بالشرب، إذا بدمٍ أسود، متخثّر، ينبجسُ فجأةً من جنبه. أطلقَ صرخةً حادّة وتشبَّثَ بالجُرح وكأنه بمجرّدَ يديه يستطيع أنْ يمنع الحياة من مغادرته. ثم فقَدَ الوعي. حاول الجرّاحون أن يضموا الجرح، ولكن هذه المرة فشلَ الأمر : حين توقَّفَ النزف أخيراً فعلَ ذلك من تلقاء ذاته.

بقيَ جوليان مستلقياً بضع دقائق وهو مُغمَض العينين، ويتنفَّسُ بصعوبة. ولا أزال أذكُر حتى هذا اليوم كيف تلوَّثَ الشعر على صدره بالدم الجاف، كمرأى جلد حيوان قُتِلَ حديثاً. أذكُر التناقُض الحادّ بين لون العنق القاتم بفعل أشعة الشمس وبياض جذعه الرخامي. اذكُرُ قطعة المعدن الفضيّة البلهاء المغروزة في جنبه، وأذكُر أنني قلتُ في نفسي : ما أصغره من شيء يُنهي حياة رجل ويُغيِّر مجرى تاريخ العالم.

أخيراً فتحَ جوليان عينيه. همس " ماء ". رفعَ له كاليستوس رأسه ليشرب. هذه المرة سمحَ الجرّاحون له بالابتلاع. بعد أنْ أفرغَ الكأس، التفتَ إلى ماكسيموس وإليَّ، وكأنما خطر في باله للتو شيء يُثير اهتماماً خاصاً لدينا.

مالَ ماكسيموس إلى الأمام بلهفة. " نعم، جوليان؟ نعم؟ "

لكنَّ جوليان بدا أنه قد بدَّلَ رأيه. هزَّ رأسه نفياً. وأغمضَ عينيه. وتنحنحَ بشكل طبيعي. ومات. حين شعر كاليستوس بالجسد الذي يضمه بين ذراعيه يُصبح مترهّلاً، قفز إلى الخلف بعيداً عن السرير مع صرخة. سقطَتْ الجثة بتثاقُل إلى الخلف. تدلَّتْ ذراعٌ سمراء مترهّلة عبر حافة السرير. وأصبحَ غطاء جلد الأسد منقوعاً بالدماء. لم يعُد صالحاً للاستخدام أبداً، هذا ما قلتُه لنفسي حين كان الطبيب الجرّاح يقول " لقد مات الأوغسطوس "

بكى كاليستوس. أنَّ الأصمّ-الأبكم كحيوان بالقرب من السرير. أغمضَ ماكسيموس عينيه وكأنه يتألّم. لم يكن بحاجة إلى ممارسة موهبته في رؤية المستقبل كي يعرِفَ أنَّ أيام عَظَمَتَه قد ولَّتْ.

أرسلتُ كاليستوس لإحضار سالوتيوس. وأثناء انتظارنا، أخرج الجرّاحون الرمح من جثة جوليان. طلبتُ أنْ أراه. تفحَّصتُه بعد أنْ وصل سالوتيوس. ألقى نظرة مقتضبة إلى الجثة؛ ثم التفتَ إلى كاليستوس. " قُل للهيئة العامة أن تجتمع على وجه السرعة "

فجأةً، أطلقَ ماكسيموس صرخةً عالية ولكن متناغمة واندفعَ إلى خارج الخيمة. ولاحقاً أخبرني أنه شاهد روحَيّ الإسكندر وجوليان يتعانقان في الهواء فوق الأرضية الترابية في الخيمة. وقد فَتَنَه ذلك المشهد.

بعد تغطية الجثة بعباءة، غادرَ الجرّاحون، وكذلك الأصمّ- الأبكم، الذي لم يُرَ بعد ذلك. وبقينا أنا وسالوتيوس وحدنا في الخيمة.

أريتُه الرمح الذي كنتُ ما أزال أحمله. قلت " هذا ما قَتَلَه "

" نعم، أعلمُ "

قلتُ " إنه رمحٌ رومانيّ "

" أعلمُ هذا، أيضاً ". وتبادلنا النظر.

سألتُه " مَنْ الذي قَتَلَه؟ ". لكنَّ سالوتيوس لم يُجِب. رفعَ شُقَّة الخيمة. في الخارج كان القادة العسكريون مجتمعين تحت أضواء مجموعة من المشاعل تقطر في وجه الرياح الحارة. وَخَزَ عينَيَّ دخانٌ راتنجي. وبينما كان سالوتيوس يوشك أن ينضمَّ إليهم، قلتُ " هل عرفَ جوليان أنه رمحٌ رومانيّ؟ "

هزَّ سالوتيوس كتفيه جهلاً. " كيف كان له ألاّ يعلم؟ ". وتركَ الشُقَّة تسقط من ورائه.

نظرتُ إلى الشكل المُمدَّد على السرير. الجسد كان مُكفَّناً بالقماش الأرجواني، ما عدا قدماً واحدة سمراء. عدَّلتُ من شأن العباءة فلمستُ اللحم في غفلةٍ مني : كان ما يزال دافئاً. نفرتُ كحصان رأى شبحاً في الطريق. ثم فتحت الصندوق الذي أخرج منه جوليان خطاب فراش احتضاره. وكما خمَّنت، كانت المذكرات واليوميات موجودة هناك. فسرقتُها.

ماذا أيضاً؟ كان اللقاء في تلك الليلة عاصفاً. أراد فيكتور وأرينثيوس إمبراطوراً من الشرق. نيفيتا وداغاليف أراداه من الغرب. واتفقَ الجميع على سالوتيوس. ولكنه رفض. إنه الرجل الوحيد الذي سمعت عنه أنه كان جاداً حين أعلنَ أنَّ إمارة هذا العالم ليست له.

حين أصرَّ أميانوس على أنْ يوافق سالوتيوس على الأقلّ على قيادة الجيش إلى خارج بلاد فارس، رفض سالوتيوس بالإصرار نفسه. رفض أنْ يتولى القيادة في أي

حالٍ من الأحوال. وحين وصل الفريقان إلى طريقٍ مسدود اتَّفقَ الفريقان على الاجتماع في اليوم التالي.

أثناء الليل، قام فيكتور بالخطوة العملية. فلعلمه أنه هو نفسه ليست لديه فرصة لأنْ يُصبح إمبراطوراً، قرَّرَ أنْ يوجِدَ إمبراطوراً، يمكن إدارته بسهولة. ووقعَ اختياره على جوفيان. وفي الساعات الأولى من صباح يوم السابع والعشرين من شهر حزيران، دفعَ فيكتور القوات الخاصة إلى السُكر. ثم أغواهم إلى إعلان آمرهم جوفيان أوغسطوساً. وعند الفجر، اقتيد جوفيان المذعور أمام مجموعة من مائة ضابط شاب شاهري السيوف. وتمَّ الأمر. وبدل إراقة الدماء والدخول في حربٍ أهلية، أقسمنا بالولاء لجوفيان. ثم تقدَّمَ الإمبراطور الجديد مع حرسه ومشى برصانة بين صفوف الجيش. وحين سمع الرجال صيحة " جوفيان أوغسطوس! " حسبوا للوهلة الأولى أنهم سمعوا " جوليان أوغسطوس " ، فبدؤوا يُهللون لشفائه المُعجِز. ولكن حين رأوا الشكل المضحك لمولاهم الجديد، الأحمر العينين، المتوتِّر، المنحني من تحت الرداء الأرجواني الذي لا يناسبه كطائرٍ أفريقي غريب، تحوَّلَ التهليل إلى صمت.

في ذلك اليوم نفسه، قمتُ بنفسي بدفن أناطوليوس المسكين. وقد وجدتُهُ مُلقى في قعر وهدٍ سحيق. وحتى الآن لم يُطاوعني قلبي على إخبار أحد بأنه لم يُقتَل بأيدي الفُرس، وأنه وقعَ عن حِصانه وكُسرَ عنقه. لقد كان فارساً رديئاً جداً لكنه رفيق مُبهِج. احتفظت برقعته للعبة الداما، ثم أضعتُها - طبعاً - أثناء الرحلة من إنطاكية إلى أثينا. لم يتبقَّ لي أي شيء. حسن...

الباقي تاريخٌ معروف. عقد جوفيان معاهدة سلام لمدة ثلاثين عاماً مع سابور. كان شديد التوق إلى الخروج من بلاد فارس والبدء بسلسلة من الاحتفالات في القسطنطينية حتى إنه وافقَ على مطالب سابور كلها. وتخلى للفُرس عن خمس مقاطعات، بما فيها مدينتا سينغارا ونيسبيس! كانت معاهدة كارثيّة.

ثم تقدَّمنا إلى إنطاكية. وفي الطريق، انضمَّ إلينا بروكوبيوس وسيباستيان. وحتى يومنا هذا لا أحد يعلم لماذا لم ينضم بروكوبيوس إلى جوليان في بلاد فارس. لابد أنه قدَّم عذراً ما لجوفيان، لكنه لم يتسرَّب إلينا. ولحُسن الحظ، هو نفسه أُعدِمَ، بعد ذلك ببضع سنوات، حين حاولَ أن يُسيطر على الشرق. لذا هناك عدالة فظّة في شؤوننا، على الأقلّ في هذه الحالة.

بعد ذلك بسبعة أشهر مات الإمبراطور جوفيان. والتقرير الرسمي أفادَ بأنه مات أثناء نومه جراء استنشاقه أدخنة من مدفأة تعمل بالفحم. وحتى هذا اليوم، هناك كثيرون يعتقدون أنه قد سُمِّمَ على يد فيكتور، لكنني سمعت من مصادر موثوقة أنه مات ميتةً طبيعية. فأثناء نومه وهو ثمل، تقيَّأ واختنقَ حتى الموت، وهي نهايةٌ مثالية لجَشعٍ. والمُدهش، أنَّ فالانتنيان أُعلِنَ إمبراطوراً، وكانت تلك نهاية فيكتور كقوة سياسية. أتذكُر كم سُررنا جميعاً حين عيَّنَ فالانتنيان أخاه فالنس أوغسطساً على الشرق؟ قُلنا لأنفسنا، كم هو شاب رائق. حسنٌ، لقد أوشك فالنس أن يُطيحَ برأسي. وقد أطاحَ برأس ماكسيموس فعلاً، حتى أنتَ مررتَ بأوقاتٍ عصيبة في عهده. لكنَّ الأخوين أيضاً ماتا الآن، ونحن نعيش في ظل حكم ابن فالانتنيان غراتيان ونظيره المُعيَّن ثيودوسيوس، الذي سيموت، وسيخلفه... أشعرُ أحياناً أنَّ تاريخ الإمارة الرومانية هو موكبٌ متشابه لا ينتهي. إنّ أولئك الرجال النشطين متشابهون إلى أقصى حد؛ وحده جوليان كان مختلفاً.

مع اقتراب انتهائكَ من إلقاء خُطبتك التأبينية التي استجلبَتْ الإعجاب عن جدارة في إنطاكية، ألمحتَ إلى أنَّ جوليان قد قُتِلَ بيدِ أحد رجاله، وكأنما فقط لأنَّ أيَّ فارسيّ لم يتقدَّم ليتسلَّم الجائزة التي قدَّمها الملك العظيم لقاتلِ جوليان. وقد كنتُ أحدَ قلَّةٍ تعلمُ عِلمَ اليقين أنَّ جوليان قُتِلَ بيدِ رومانيّ، لكنني لم أفُه بكلمة. لم تكن لدي نيّة في التورُّط في السياسة. فواقع الحال أنني كنتُ قد نلتُ كفايتي من المشاكل في ذلك العام حين تمَّ إلقاءُ القبض عليَّ وعلى ماكسيموس بتهمة ممارسة السحر. أنا ساحر!

لحُسن الحظ، أُعلِنَتْ براءتي. أما ماكسيموس فلا. ومع ذلك، نجحَ المشعوذ العجوز في أنْ تكون له الكلمة الأخيرة. فأثناء محاكمته، أقسَمَ على أنه لم يستخدم قُدُراته استخداماً خبيثاً. وتنبَّأ أيضاً بأنَّ مَنْ سيقومُ بإعدامه بغير حق سوف يموتُ هو نفسه ميتةً رهيبة بحيث يختفي كل أثرٍ له ويتلاشى عن ظهر الأرض. ثم أُعدمَ ماكسيموس على يد الإمبراطور فالنس، الذي سرعان ما قُتِلَ هو نفسه في معركة أدريانبول مع الغوط الذين قطَّعوا الجثة الإمبراطورية إرباً إرباً إلى قطعٍ صغيرة عديدة فتعذَّرَ التعرُّف على أي جزءٍ منه. وهكذا ظلَّ ماكسيموس حتى النهاية محظوظاً في توقّعاته.

حين أُفرِجَ عني أخيراً من السجن (أتمنى لك حظاً سعيداً في حملتَكَ ضد إنزال

عقوبة الإعدام)، توجَّهتُ مباشرةً إلى وطني أثينا. أغلقتُ على أوراق جوليان في أحد خزائن نفائس هيبيا ونسيتُ أمرها إلى أنْ باشرنا هذه المراسلات.

مؤخراً أصبحتُ أفكِّرُ كثيراً في موت جوليان. لقد كنتَ مُحقّاً حين ألمحتَ إلى أنه قُتِلَ بيدِ أحد رجاله. ولكن مَنْ هو؟ وكيف؟ لقد قمتُ بدراسة البنود الأخيرة في المذكرات بعناية استثنائية. منذ البداية، كان جوليان يعلم أنَّ ثمةَ مؤامرة تُحاكُ ضد حياته، وجليٌّ جداً أنه شكَّ في مؤامرةٍ يُحيكها فيكتور. ولكن هل كانَ جوليان على حق؟ وإذا كان مُحِقاً، فكيف تمَّ تنفيذ جريمة القتل؟

قبل حوالي عشر سنوات كتبَ كاليستوس، خادم جوليان، قصيدة غنائية بُكائيّة عن موت الإمبراطور. وأرسلَ نُسخاً منها إلينا كلنا. وأخشى أنني لم أكتب لأشكر المؤلف لهديته اللطيفة هذه. في الحقيقة، كان كاليستوس قد سقط تماماً من ذاكرتي إلى أنْ أعدتُ قراءة المذكرات وأدركتُ أنه إذا كان هناك مَنْ يعرف كيف مات جوليان، فهو الخادم الذي كان معه حين جُرِحَ.

طبعاً كاليستوس أقسمَ على أنه لم يرَ الذي سدَّدَ الضربة. ولكن في حينه كان لديه سببٌ وجيه ليكذب: كان جديراً بالمسيحيين أن يهرعوا إلى قتله لو أنه ورَّطَ أياً منهم. وككثيرين منا، اختارَ كاليستوس السكوت. ولكن أليس جديراً به أنْ يكون صريحاً الآن، بعد أن مات الفاعلون الرئيسيون كلهم؟

استغرقَ مني بضعة أسابيع بحث لأكتشف أنَّ كاليستوس يعيشُ في فيليبوبوليس. وكتبتُ له. وأجابني. وفي الشهر الفائت ذهبتُ لملاقاته. والآن سأقدِّم إليكَ تقريراً كاملاً عمّا قاله. وقبل أن تطّلع على هذا، أقترحُ أنْ تكتب أنتَ نفسك إلى كاليستوس للحصول على إذنه. إنَّ قصته قصة مرعبة، ومجرَّد الاطّلاع عليها ينطوي على بعض الخطر، والخطر أقل بكثير في حالة الكتابة عنها. يجب أنْ أصرّ أيضاً على أنَّه ينبغي ألاّ تضمّنني في روايتك بأي حالٍ من الأحوال.

بعد القيام برحلة مملّة إلى فيليبوبوليس بصحبة جُباة ضرائب وشماس كنائس، توجَّهتُ مباشرةً إلى منزل طالب قديم تفضَّلَ باستضافتي، مما وفَّرَ عليَّ كثيراً بما أنَّ أصحاب الحانات المحليين هم لصوصٌ شائنون. إنَّ الميزة الوحيدة لممارسة التعليم خلال ما يبدو الآن الجزء الأكبر من ألف عام هو أنه أينما أذهب أجد طلاباً سابقين يدعونني إلى الإقامة معهم. هذا كان يُسهِّل الترحال.

سألتُ مضيفي عن كاليستوس (أنا نفسي لا أتذكَّر أي شيء عنه ما عدا صوت نشيجه على فراش احتضار جوليان). " لا أحد يرى صاحبك كاليستوس ". تلميذي القديم هو من النفّاجين. " يُقال إنه ثري جداً وبعضٌ زاروه في بيته. أنا لستُ واحداً منهم "

" من أين أتته تلك الأموال؟ "

" من الامتيازات التجارية. والهبات الإمبراطورية. ومن المفتَرَض أنّه شديد الحذق. لقد وُلِدَ هنا، كما تعلم. ابن عبد كان يعمل في منزل أحد أقربائي. لم يعُد إلاّ قبل بضع سنوات، بُعَيد وفاة الإمبراطور فالانتنيان. ويُقال إنه كان لديه أصدقاء ذوو مكانة في البلاط. لكنني غير متأكد "

إنَّ كاليستوس ثريٌّ حقاً، منزله أكبر بكثير وأشد ترفاً من منزل تلميذي السابق. قادني قهرمان سوريّ يتَّصِفُ بأناقة تبهر الأنفاس خلال فناءيْن كبيرين إلى ردهةٍ صغيرة ظليلة كان كاليستوس ينتظرني فيها. هنا رحَّب بي شخصٌ غريبٌ تماماً عليّ بكل دماثة. إنني لا أذكُرُ كيف كان شكل كاليستوس، أما اليوم فهو رجل وسيم في منتصف العمر يبدو أصغر من سنه بكثير. ومن الواضح أنه أنفقَ كثيراً من الوقت على مظهره : الشعر كثيف ومصبوغ بمهارة، والجسم نحيل؛ والسلوك راقٍ أكثر قليلاً مما ينبغي، إذا فهمتَ ما أعني.

" ما أجمل أنْ أراك من جديد، يا عزيزي بريسكوس! ". تكلَّمَ وكأننا كنا من أعزّ الأصدقاء، بل ومن مستوى واحد! وقد رددتُ له تحيته بذلك الحياء الحذر الذي يضمره الفقر للثراء. وتقبَّلَ ثنائي بصورة طبيعية. طلبَ مني أنْ أجلس بينما كان يصب الخمر بنفسه، مرتدّاً بذلك على الأقل إلى إحدى وظائفه.

تحدَّثنا لبعض الوقت عمَّن توفيَ وعمَّنْ لا يزالُ حياً. فبالنسبة إلى مَنْ هم في مثل عمرنا الفئة الأولى هي الأكبر. نيفيتا، وسالوتيوس، وسالوست، وجوفيان، وفالانتنيان، وفالنس ماتوا. أما فيكتور فلا يزال حياً ويعمل في بلاد الغال وداغاليف يخدم في النمسا؛ وأرينثيوس، الذي تقاعدَ مؤخراً إلى ضاحية في القسطنطينية، أصبحَ مدمناً على الخمر. ثم تحدثنا عن بلاد فارس وعن أيام شبابنا (أو في حالتي أيام منتصف العمر السعيدة!). وتفجّعنا على الموتى. ثم نقلتُ الحديث إلى موت جوليان. وأخبرتُ

كاليستوس عن خططكَ. كان غامضاً. أخبرتُه أنَّ المذكرات في حوزتك. فقال إنه علِمَ في ذلك الوقت أنَّ الإمبراطور يكتب مثل هذا العمل وكثيراً ما تساءلَ ما الذي حلَّ به. فأخبرته. ابتسمَ. ثم قلتُ " وطبعاً كان هناك اليوميات الخاصة "

" يوميات؟ ". بدا الإجفال على كاليستوس.

" نعم. مفكرة سرية احتفظَ بها الإمبراطور في صندوقٍ واحد مع المذكرات.

" لا أعلم "

" إنه عمل يكشف النقاب عن أمور كثيرة "

تجهَّمَ كاليستوس. " أنا واثق من ذلك "

" لقد عرفَ الإمبراطور بأمر المؤامرة المُحاكة ضد حياته. بل إنه عرفَ المتآمرين ". لاحظتُ شيئاً في سلوك كاليستوس حثَّني على أنْ أضيف هذه الكذبة.

" لم يكن هناك متآمرون ". كان كاليستوس رقيقاً. " الأوغسطوس قُتِلَ بيد أحد الخيالة الفُرس "

" الذي لم يتسلَّم جائزته أبداً؟ "

هزَّ كاليستوس كتفيه. " لعلّه هو نفسه قُتِل "

" ولكن لماذا يتسلَّح ذلك الفارس الفارسي برمحٍ روماني؟ "

" هذا يحدثُ أحياناً. في غمرة المعركة يتناول المرء أيَّ سلاح تصل إليه يده. على أي حال، أنا أعرف. أنا كنتُ مع الأوغسطوس وشاهدتُ الفارسي الذي طعنه "

كان هذا غير متوقَّع. فسألته، مع شيءٍ من الدهشة، " ولكن لماذا، حين سألك إذا كنتَ قد رأيتَ المُهاجِم، قلتَ إنكَ لم ترَ أي شيء "

لم يهتزّ كاليستوس البتَّة. " لكنني شاهدتُ الفارسيّ فعلاً ". بدا من صوته أنه صائبٌ تماماً. " وقلتُ للأوغسطوس إنني شاهدتُه "

" وأمام ماكسيموس وأمامي قلتَ إنكَ لم ترَ مَنْ سدَّدَ الطعنة "

هزَّ كاليستوس رأسه بتسامُح. " لقد مرَّ زمن طويل على ذلك، يا بريسكوس. وذاكرتنا لم تعُد كما كانت "

" أتُلمِّح إلى أنَّ في ذاكرتي خللاً؟ "

أومأ برقَّة. " لا أحدَ منا شاب بمعنى الكلمة "

جرَّبتُ مسلكاً آخر : " لا شك في أنكَ سمعتَ الشائعة التي تقول إنَّ الذي قتلَ الإمبراطور هو جندي مسيحي؟ "

" طبعاً، ولكنني كنتُ... "

"... هناك. نعم. وتعرف مَنْ الذي قتلَه "

كان وجه كاليستوس خالياً تماماً من أي تعبير. كان من المستحيل معرفة ما يجول في خاطره. لهذا نجحَ في عمله. ثم قال : " ما مدى معرفة الإمبراطور بما جرى؟ ". كان الصوت فاتراً وسريعاً، ويختلفُ كثيراً عن النبرة البطيئة التي كان يتلبَّسها.

" كان على عِلم بما يضمره فيكتور "

أومأ كاليستوس برأسه. " كنتُ متيقّناً تقريباً من أنه يعلم. وكذلك فيكتور "

" إذن فأنتَ تعلم بأمر المؤامرة؟ "

" آه، نعم "

" أكنتَ متورطاً فيها؟ "

" حتى أذنيّ. في الواقع، يا بريسكوس " ونفحني بابتسامةٍ فاتنة، " أنا الذي قتلتُ الإمبراطور جوليان "

وهكذا، انتهى اللغز. أخبرني كاليستوس بكل شيء. إنه يعتبر نفسه أحد أبطال العالم الفريدين من نوعهم، مُنقذ المسيحيّة المغمور. وبينما هو يتكلّم كان يقطع المكان جيئةً وذهاباً. لم يستطع أنْ يُخبرني بما يكفي. فقبل كل شيء، كان عليه أن يلزم الصمت طوال ما يقرُب من عشرين عاماً. وكنتُ أول المستمعين إليه.

كانت قد شُكِّلَت جماعة سرّية في إنطاكية، برئاسة فيكتور. كان متورطاً فيها أرينثيوس، وجوفيان، وفالانتنيان وربما عشرون آخرون من الضباط المسيحيين. وقد أقسموا على أنه يجب ألاّ يسمحوا بعودة جوليان من بلاد فارس حيّاً. ولكن بسبب شعبيته بين صفوف القوات الأوروبية، كان يجب أنْ يبدو أنَّ موته هو نتيجة أسباب طبيعية.

عملَ فيكتور على تعيين كاليستوس عند جوليان كحارس خاص وخادم. وفي أول الأمر تلقّى تعليمات بوجوب تسميم الإمبراطور. ولكن لم يكن من السهل تنفيذ هذا، ذلك أنَّ جوليان كان يتمتَّع بصحة ممتازة؛ كان معروفاً عنه أنه متقشِّف في الأكل؛

وإصابته بالمرض فجأةً سيكون أمراً مريباً. وأخيراً، تمَّ الاتفاق مع الفُرس على نصب كمين. وقد وصَفَ جوليان فشل تلك الخطة. ثم تقرَّرَ أنَّ على جوليان أن يموت أثناء القتال. لكنّه كان جندياً ممتازاً، وواضحاً جداً للعيان، ودائماً مُحاطاً بالحراس. ونالَ اليأس من المتآمرين إلى أنْ خرجَ كاليستوس بخطّة بارعة.

" بعد معركة مارانغا، عمدتُ إلى قطع أحزمة الصفيحة الصدرية ". كانت عينا كاليستوس تبرقان بالذكرى الممتعة. " ولحُسن حظنا، شنَّ الفُرسُ هجوماً في اليوم التالي واضطرَّ الإمبراطور إلى الخروج إلى القتال من دون درع. وانهمكنا هو وأنا في انسحاب الفُرس. وباشر بالعودة فهتفتُ به، " من هنا، يا مولاي! " وقدتُه إلى أسوأ قتال. حسبتُ للوهلة الأولى أنَّ الفُرسَ سيقتلونه. لكنَّهم كانوا مذعورين. وعندما تعرَّفوا عليه، فرّوا هاربين ,عندئذٍ عرفتُ أنَّ الله قد اختارني لأكونَ أداة انتقامه ". انخفضَ الصوت؛ واستقرَّ الفك. " وحوصِرنا. كان الإمبراطور يستخدمُ ترسه في محاولة ليشُقَّ له طريقاً خلال اشتباك الخيول وراكبيها. وفجأةً التوى نحو اليسار ووقفَ على رِكابه، في محاولةٍ ليرى من فوق رؤوس الفُرس. وكانت تلك هي فرصتي السانحة. وصلّيتُ للمسيح كي يمنحني القوة. ثم غرزتُ رمحي في جنبه ". سكتَ كاليستوس، متوقعاً كما بدا جلياً صدور بعض الاحتجاج على هذا. لكنني اكتفيتُ برميه بنظرة الاهتمام اليقِظ التي أكافئ بها التلاميذ الاستثنائيين الذين نجحوا في شد انتباهي.

قلت بأدب " تابع "

هزَّ كاليستروس، وقد خفَّ حماسه قليلاً " ,أنت تعرف الباقي ,الأوغسطوس لم يُدرك أنه جُرِحَ إلاّ بعد أنْ فرَّ الفُرس هاربين ". ابتسم. " بل إنَّ الأوغسطوس شكرني لأنني بقيتُ شديدَ القُرب منه "

" من حُسن حظِّك أنه لم يشتبه في أي شيء ". ولكن حتى وأنا أقول هذا تساءلتُ إنْ كان جوليان قد عرفَ الحقيقة. وبقيَ هذا هو اللغز الأخير.

" ولكن ما الموت؟ ". سألَ كاليستوس، وقد فقدَ بسرعةٍ كلَّ احترامٍ كنتُ أكنّه له بوصفِه نذلاً. إنه حمار. تكلَّمَ مدة ساعةٍ أخرى. أخبرني أنَّ فيكتور أرادَ أن يصبحَ إمبراطوراً، ولكن حين وجدَ أنَّ هذا أمرٌ مستحيل، نصَّبَ جوفيان على العرش

الأرجواني. ثم حلَّ فالانتنيان الشهير بقوة إرادته محل جوفيان وكانت تلك هي نهاية فيكتور. في تلك الأثناء، كان كاليستوس يتلقّى مبالغ كبيرة من الجميع. وقد وظّفَ أمواله بحِكمةٍ وهو اليوم رجل ثريّ. لكنه لن يبلغ السعادة إلا بعد أنْ يعرف العالم سرّه. إنه يعاني مما يشعر أنه ظلم إغفال ذكره.

" أخبِر ليبانيوس بالحقيقة مهما كلّفَ الأمر. إنَّ الإنسان يفعل ما خُلِقَ ليفعله ".

بدا عليه الورَع. " إنني فخور بالدور الذي لعبته في تاريخ روما ". واستدار نحوي جزئياً، مُحاكاةً لتمثالٍ نصفيّ شهير لبروتوس الثاني. ثم تخلى عن هذا. " ولكن يجب أن تحصل على إذن من القصر قبل أنْ يتمكن ليبانيوس من النشر، وليست لدي أي فكرة عن طبيعة السياسة الحالية. لقد أقسمتُ على السرّية، تحت حكم فالانتنيان "

" هل علِمَ فالانتنيان بأمرك "

" أوه، نعم. بل إنه منحني امتياز الملح لمنطقة ثريس. لكنه أمرني بملازمة الصمت. وفعلت. حتى هذا اليوم. وطبعاً، آمل أن نتمكّن من إعلان الأمر كله، لصالح التاريخ "

دعاني كاليستوس على وجبة العشاء لكنني قررْتُ ألاّ آخذ أيَّ شيءٍ آخر منه. فقلتُ إنني يجب أنْ أرحل. فصحبني حتى المدخل المسقوف. كان غايةً في اللطف والكياسة، حتى حين وبّخني لأنني لم أشكره على " أغنية لجوليان " أرسلها إليّ.

اعتذرتُ على إهمالي. لكنني قلتُ " كيف أمكنكَ أنْ تكتب عملاً ينطوي على مثل هذا الحب عن الرجل الذي قَتَلته؟ "

كان كاليستوس مثالياً في دهشته. " ولكنني كنتُ مُعجَباً به إلى أقصى حد! لطالما كان لطيفاً معي. وكل كلمة كتبتُها عنه صدرتْ من القلب. فقبل كل شيء، أنا مسيحيٌّ صالح، أو أحاولُ أن أكونَ كذلك. وأصلي لراحة روحه في كل يوم! "

إنني أشكُ في أن يسمح ثيودوسيوس لكَ بنشرِ أيٍ من هذا. ولكن، مَنْ يدري. على أي حال، من ناحيتي أنا نفضتُ يدي من الأمر كله وأطلبُ منك، من فضلك، أبعدني عنه.

-٣٤-

من ليبانيوس، قسطور إنطاكية، إلى مولاه

ثيودوسيوس، أوغسطوس الشرق   إنطاكية، أيار عام ٣٨١

بعد إذن أبديَّتكَ، أنوي أن أكتب سيرة حياة سَلَفكَ الشهير الأوغسطوس جوليان، مُستخدماً بعضاً من أوراقه الخاصة التي وصلتْ إلى حوزتي مؤخراً.

بما أنَّ أبديَّتك أبديتَ سرورك بقصيدتي الغنائية " في الانتقام للإمبراطور جوليان " فلستُ بحاجة إلى ذِكر نيَّتي في أنْ أواصل سعيي إلى التبرئة بالضبط بالأسلوب المُتكتِّم نفسه للقصيدة الغنائية التي عبَّرتَ أنتَ نفسك بكل كرم عن إعجابكَ بها. وبما أني أدركُ المضامين الدينية والسياسية لهذا العمل، فأنا مضطرٌ ليس فقط إلى أنْ أُذكِّر الأوغسطوس بولائي الكامل (والجليّ!) لشخصه المقدَّس ولسياساته الحكيمة بل أنْ أؤكِّد له نيتي في أنْ أقصّ هذه الحكاية الرائعة برهافة واعية يوحي بها الموضوع وتتطلّبها المرحلة الزمنية.

مولاي، إنَّ الذين من بيننا يُقدِّرون الأساليب القديمة (لكنّهم مُصممون على إطاعة مراسيمَكَ العليا العادلة والضرورية بدقّة) سيبقون إلى الأبد مدينين لك بالفضل لسماحك لهم أنْ يكتبوا بحبٍ وصدقٍ عن بطلٍ توهَّجَتْ إنجازاته ذات يوم وأضاءت أرضاً مندهشة ومحظوظة كالشمس ذاتها، وكانت شهرته في حينها (وإنْ كانت لا تضاهي شهرة أبديَّتك) درع روما الحامي في وجه البرابرة. وأمنيتي المتواضعة هي أنْ أعكس ذلك المجد الباقي على صفحات نثري الباهت ولكن المُخلص.

لقد أخبرني صديقي الحميم، الأسقف ميليتيوس، الموجود حالياً في القسطنطينية، أنه سيطرح قضيَّتي بين يديّ أبديَّتكَ بالفصاحة نفسها التي أضاءَ بها طِوال عقود

عديدة أبرشيات الشرق. فاقْبَلْ، إذن، يا مولاي، ولاءَ إنسانٍ عجوزٍ وقريبٍ من الموت، ولا يريدُ أيَّ شيءٍ لنفسهِ غير الحقيقة، والجهر بها.

من يوتروبيوس، كبير الموظفين،
إلى ليبانيوس، قسطور إنطاكية. القسطنطينيّة، حزيران، ٣٨١

لقد قرأ الأوغسطوس رسالتكَ بالاهتمام الذي يستحقّه كل ما تكتبه؛ وأصدرَ أمره إليّ بإخبارِكَ أنه من المستحيل في الوقت الحاضر نشر سيرة حياة المرحوم الأوغسطوس جوليان.

إنكَ تُشيرُ إلى الأسقف ميليتيوس. لقد توفيَ؛ وقعَ ذلك في الأسبوع الفائت أثناء انعقاد جلسة المجمع المسكوني. وقد أُرسِلَتْ رُفاته إلى إنطاكية لدفنها. ولكنني مُخوَّلٌ أنْ أخبرك بأنَّ الأسقف، قبل وفاته، طلبَ من الأوغسطوس أن يعترف بشرعية ابنك تشيمون غير الشرعي. وقد أبدى الأوغسطوس سروره بتنفيذ طلب الرجل الورِع. والآن يُعِدُّ مكتبي الوثائق وسوفَ تُقَدَّم في الوقت المناسب إلى كونت الشرق، الذي سيقدّمها بدوره إلى حاكم سوريا، وحينئذٍ سوفَ تُبلَّغ رسمياً بذلك.

ولن تكونَ مُخطئاً، أيها القسطور، إذا ما أرسلتَ إلى الأوغسطوس نسخة من المجموعة الكاملة لأعمالك. سوف يُقدِّرُ ذلك منكَ كثيراً.

من ليبانيوس إلى نفسه

عدتُ للتو من جنازة الأسقف ميليتيوس، التي أقيمَتْ في المنزل الذهبي على الجزيرة. أعتقد أنني ما كنت استطعتُ أنْ أتحمَّل الرعاع المتجمّعين في الساحة لو لم أكن بصُحبة تشيمون. يبدو أنَّ إنطاكية كلها خرجَتْ لوداع أسقفها.

تعرَّفَت الجماهير عليّ، كعهدِها دائماً، وأفسحَتْ الطريق لمحفَّتي. وكان هناك قدرٌ من التعليقات الفكهة حول " الوثنيين " (وهي كلمة جديدة تعبِّر عن احتقارنا نحن الهلّينيين) الذين يحضرون المراسم الدينية المسيحية، لكنني تظاهرت بعدم السماع. وحالما ولجنا الرواق المُقنطَر رفعني تشيمون إلى خارج المِحفّة؛ ومؤخراً كنتُ أعاني من النقرس ليس فقط في قَدَمي اليُمنى، المعتادة، ولكن أيضاً في اليسرى. وعلى الرغم

من أنني أستخدم معاً العُكّاز والعصا، فإني أكاد لا أستطيع أنْ أعرج من دون مساعدة. ولحُسن الحظ، أوصلني تشيمون، وهو الابن الصالح، بسلام إلى داخل الكنيسة. واستطاعَ أيضاً أنْ يوفّرَ لي أحد الكراسي المُخصَّصة لجماعة الحاكم (المسيحيون يقفون خلال أداء الصلاة وفقط كِبار الزوار يجلسون)

طبعاً أنا لم أرَ شيئاً. أستطيع أنْ أميِّز الضوء والظلام، ولكن لا أكثر. أستطيع أن أرى قليلاً من زاوية عيني اليُسرى، وإذا ثبَّتُ رأسي في زاوية بارزة معيَّنة فأستطيع أنْ أرى جيداً بما يكفي لأقرأ فترةً قصيرة، لكنَّ الجهد الذي أبذله كبير جداً فأفضِّلُ أنْ أُمضي أيامي في عالم العميان المُعتِم التحت- مائي. وانطباعي عن داخل الكنيسة هو عن دوائر باهتة (أوجه) وأعمِدة قاتمة (عباءات الحِداد). كان الهواءُ يعبقُ بالبخور وبرائحة الناس الثقيلة التي لا مفرَّ منها وهم مُحتشدون في يوم صيفيٍّ.

تُليَتْ الصلوات وقُدِّمَت التآبين، لكنني أخشى أنني كنت أثناء الصلاة مُستسلماً للأحلام. وفجأة وعيتُ على صوت الكاهن يؤدي عمله. وكغالبية العميان أو شبه العميان، أنا شديد الحساسية تّجاه الأصوات. بعضها يُبهجني؛ وبعضها الآخر (حتى أصوات الأصدقاء) يُبئسني. وقد لاحظتُ مع بعض الاستمتاع أنَّ هذا الصوت بالذات كان عميقاً ورنّاناً، مع إلحاحيّةٍ غريبة طالما وجدتُها فاتنة. كان المتكلّم يؤبِّن ميليتيوس. أصغيتُ بانتباه. كانت الكلمات مُنتقاة بجمال؛ والفواصل بارعة؛ والمحتوى تقليديّاً. وبعد انْ انتهى الكاهن، التفتُّ إلى تشيمون وهمستُ له، " مَنْ هذا؟ "

" إنه يوحنا كريسوستوم[١٣٠]، الشمّاس الجديد، في الشهر الفائت عيَّنه ميليتيوس، أنتَ تعرفه "

" أنا أعرفه؟ "

لكنَّ الصلاة تواصلَتْ ولزمنا الصمت بينما كان الأسقف الجديد يُبارك مجموع المُصلين. مَنْ كان هذا اليوحنا " فم الذهب "؟ مِنْ أين أعرفه؟ أكان تلميذاً؟ وإذا كان كذلك، هل سأتذكّره؟ إنَّ ذاكرتي ليست كسابق عهدها؛ أيضاً، لقد علّمتُ دون مبالغة آلاف الرجال ولا أحد يستطيع أن يتذكّرهم جميعاً. وأخيراً، حين انتهت المراسم، أنهضني تشيمون على قَدَمَيّ في اللحظة التي مرَّ بها بنا حاكم سوريا. تعرَّفتُ عليه من لون ردائه. فتوقَّفَ الحاكم حين رآني.

" آه، القسطور، يُسعدني أنْ أراكَ وأنتَ في مثل هذه الصحة المزدهرة "

الحاكم حمار، طيِّب النية. قلتُ " الشجرة العجوز تُعمِّرُ طويلاً، لكنّها لا تُزهِر "

إلاّ أنه التفَتَ إلى ابني. " آمل ألاّ يكون قد فات الأوان لتهنئتكَ على الفضل الذي أسبغه الإمبراطور عليك "

ابتهَجَ تشيمون؛ إنه يتوقُ إلى تلقّي التشريف، كما أنَّ بعضَ الرجال يتوقون إلى الحقيقة "

" كلا، أيها الحاكم، لم يفُتْ الأوان بعد. شكراً جزيلاً. إنَّ أبي وأنا مُبتهجان بلطف الإمبراطور "

" يجب أن تمنحني بعض النصائح يا تشيمون ". وأمسك ابني من ذراعه وقاده بعيداً، وتركني وحدي في الكنيسة، أعمى مثل هومر وأعرج مثل هيفيستوس[١٣١]. أعترفُ بأني غضبتُ للوهلة الأولى. كان ينبغي على تشيمون أن يبقى معي. كان يمكن أنْ يُحدِّدَ موعداً لمقابلة الحاكم في وقتٍ آخر. لكنَّ تشيمون محام، ويجب أن يكونَ المرءُ مُتسامحاً. ومع ذلك، وجدتُ من الصعب عليَّ أنْ أسامحه حين أدركتُ أنني أصبحتُ وحدي في المنزل الذهبي، عاجزاً عن الرؤية وأكاد لا أستطيع المشي. فزحفتُ، مُعتمداً بتثاقُل على عصاي، كمخلوقٍ ليليّ بَهَرَه ضوء النهار، نحو ما تمنيتُ أنْ يكونَ الباب. ولم أكن قد صعدتُ أكثر من دَرَجة واحدة حين أمسكتْ بي يدٌ ضبابيّةٌ من ذراعي.

" شكراً لك "، قلتها للشكل الغامض الواقف إلى جواري، " يبدو أني بقيتُ وحدي، وأنا بحاجة فعلاً إلى مساعدة. إنني عاجز عن الرؤية "

" إنَّ أي مساعدة أقدّمها إليك هي لا شيء إذا ما قورنَتْ بالمساعدة التي قدَّمتَها أنتَ إليّ " . تعرَّفتُ إلى صوت الشمّاس يوحنا كريسوستوم.

تظاهرتُ بأني تعرَّفتُ إليه. " أوه، نعم، يوحنا... "

" يُسمونني كريسوستوم. ولكنكَ تتذكرني كابن أنثوزا و... "

وتذكَّرتُه. عرفتُ بالضبط مَنْ هو. هتفتُ " تلميذي النجيب! الذي سرَقَه المسيحيون مني "

ضحكَ. " لم يسرقوني. بل وجدوني "

" إذن تلميذي يوحنا هو الشهير كريسوستوم الذي يُصغي الناس إليه "

" إنهم يُصغون؛ ولكن هل يفهمون؟ إنني، قبل أيِّ شيء، شخصٌ غريب بالنسبة إليهم. طوال عشرة أعوام سكنتُ الصحراء، وحدي... "

" والآن عُدتَ إلى العالم لتصبحَ أسقفاً؟ "

" لقد رجعتُ إلى العالم لكي أعِظ، لأقولَ الحقيقة، كما يفعل أستاذي القديم "

" إننا نحمل وِجهتيّ نظر مُختلفتَين حول تعريف الحقيقة ". قلتُ هذا بحِدَّة أشدّ مما كان في نيتي.

" لعلّهما ليستا مختلفتين كثيراً ". كنا قد توقّفنا عند الباب. وتمكنتُ بعد بذل مجهود، من تبيُّن الوجه النحيل للتلميذ القديم. كان الصلعُ قد بدأ يزحف على رأس يوحنا، وكانت له لحية صغيرة. لكنني أعترفُ بأنه حتى لو كان بصري أفضل حالاً لَما تعرَّفتُ عليه؛ كان قد مرَّ ما يُقاربُ عشرين عاماً على الفترة التي درس خلالها معي.

" قبلَ أنْ يُغادرَ الأسقف ميليتيوس إنطاكية أخبرني عن خطَّتكَ للكتابة عن الإمبراطور جوليان ". وتساءلتُ إنْ كان في استطاعة يوحنا أنْ يرى ما يجول في ذهني. فلماذا إذن يأتي على ذِكر الشيء الوحيد الأشد أهمية بالنسبة إليّ وتكاد لا تكون له أي أهمية لديه؟

" لسوء الحظ، لم يعُد للخطة وجود. لقد حرَّمَ عليَّ الإمبراطور نشرها "

" أنا آسف. أعلمُ كم كان جوليان يعني بالنسبة إليك. لقد رأيته مرةً واحدة. كنتُ في نحو الخامسة عشرة. حدثَ ذلك قبل أنْ آتي إليك، من أجل الدراسة. رأيته في اليوم الذي غادر فيه المدينة متوجهاً إلى بلاد فارس. كنتُ بين الحشود، في الساحة العامة، واقفاً على حافة النيفيوم حين مرَّ راكباً من أمامي. أتذكَّرُ أنَّ الناس كانوا يصرخون بعبارات فظّة... "

غمغمتُ " فيليكس جوليان أوغسطوس "، مُتذكراً هتاف ذلك الحشد الخسيس.

" نعم. كنتُ شديد القُرب منه حتى كدتُ ألمسُ حصانه. وعلى الرغم من أنَّ أمي كانت قد قالت لي إنَّ عليَّ أنْ أكرهه، فقد رأيتُ أنه أروع رجل وقعَتْ عليه عيناي، وحين نظرَ في اتجاهي، تلاقَت فجأةً عيوننا، وابتسمَ لي كأننا أصدقاء، وقلتُ في نفسي: هذا الرجل قديس، لماذا يكرهونه؟ وطبعاً علِمتُ لاحقاً سبب كراهيتهم له، لكنني لم أفهم أبداً سبب كراهيته هو لنا "

انفجرتُ في نوبةٍ من البكاء. لم أشعر مرةً من قبل بمثل تلك المهانة، أو التفاهة. ها هو أشهر فلاسفة عصره، إذا صحَّ لي أنْ أقولَ هذا، يبكي كطفلٍ يقفُ أمامَ تلميذ سابقٍ له. لكنَّ يوحنا كان لبقاً. لم يفُه بأي كلمة إلى أنْ عَبَرَت العاصفة، ثم لم يأتِ بأي إشارة إلى نوبتي الخَرِفة. أمسكَ بي من ذراعي وقادني إلى الباب. ثم استدارَ وأشارَ إلى مكانٍ عالٍ على الجدار المُقابل. قال " عملٌ جديد. أعتقد أنه غاية في الجمال ". أدرتُ رأسي لكي أستطيع أنْ أرى - أو أكاد - ما بدا أنه تمثال عملاق لرجلٍ فاتحٍ ذراعيه واسعاً.

" أتراه بوضوح؟ "

كذبتُ " أوه، نعم ". توهَّجَت الفسيفساء الذهبية كالشمس نفسها في ضياء بعد الظهر.

" إنه المسيح الـ Pantocrator[١٣٢]، جاء ليخلّصنا. الوجه يتَّصِفُ بجمالٍ خاص "

قلتُ بفتور " نعم، أرى الوجه ". وقد رأيته : وجه جلاَّد قاسٍ وقاتم.

" ولكن ألا يُعجبكَ ما ترى؟ "

" كيف يعجبني، وما أراه هو الموت "

" لكنَّ الموت ليس النهاية "

" إنه نهاية الحياة "

" هذه الحياة... "

التفتُ إليه بضراوة. " الحياة! لقد اخترتُم الموت، كلّكم... "

" كلا، ليس الموت. لقد اخترنا الحياة السرمدية، بعثَ الـ... "

" هذه قصة تُحكى للأطفال. الحقيقة هي أننا طوال آلاف السنين كنا نهتم بالأحياء. والآن ها أنتم تهتمون بالأموات، تعبدون رجلاً ميتاً ويخبر أحدكم الآخر أنَّ هذا العالم ليس لنا، وأنَّ العالم القادم هو المهم. غير أنه لا وجود لعالم آخر "

" نحنُ نؤمن... "

" هذا كل ما لدينا، يا يوحنا كريسوستوم. ولا وجود لغيره. أدرْ ظهركَ لهذا العالم، وسوف تواجه جهنَّم! "

ران صمت. ثم قال يوحنا " ألا ترى في انتصارنا أيَّ مغزى؟ ذلك أننا انتصرنا. يجب أنْ تعترف بهذا "

هززتُ كتفيّ بلا مبالاة. " إنَّ العصر الذهبي قد انتهى. وكذا سينتهي العصر الحديدي، وكذلك الأشياءُ كلها، بما فيها الإنسان. ولكن مع إلهك الجديد، انتهى الأمل في تحقيق السعادة الإنسانية "

قال ساخراً مني برقّة، " إلى الأبد؟ "

"لا شيء مما اخترعه الإنسان يدومُ إلى الأبد، بما فيه المسيح، أشد اختراعاته خُبثاً"

لم يُجِب يوحنا. كنا عندئذٍ قد أصبحنا خارج الكنيسة. كان النهار دافئاً بشكلٍ ممتع. حيّاني أناس لم أتمكّن من رؤيتهم. ثم هرعَ ابني إليّ وودَّعتُ يوحنا واستقللتُ محفّتي. كان تشيمون طوال الطريق إلى دافنى يبربرُ عن الحوار الذي دار بينه وبين الحاكم. إنه يأمل في إجراء " إصلاحٍ حكومي "

أنا وحدي في غرفة مكتبي. وقد نحّيتُ لتوّي جانباً أوراق جوليان. لقد تمَّ العمل. والعالم الذي أرادَ جوليان أنْ يُحافظ عليه ويستعيده انتهى... ولكن لن أكتب " إلى الأبد "، إذ مَنْ يعرف ما يُخبئه المستقبل؟ في هذه الأثناء، البرابرة على الأبواب. ولكن حين يخرقون السور، لن يجدوا ما يستحق الاستيلاء عليه، فقط بقايا خاوية. إنَّ روح ما كنا عليه هَرَبَتْ. فليكُنْ.

كنتُ أقرأ أفلوطين طوال الأمسية. إنه يتمتَّع بالقدرة على تهدئة توتّري؛ وأنا أجدُ حزنه مُريحاً بشكلٍ غريب. حتى حين يكتب قائلاً : " إنَّ الحياة هنا مع الأشياء الأرضية هي غرقٌ، هزيمة، فشل الجناح ". لقد فشل الجناح حقاً. وحين يغرق المرء، تُصبح الهزيمة مُؤكَّدة. حتى وأنا أكتب هذه الأسطر، فتيل المصباح يبقبقُ استعداداً للنهاية، وبركة الضوء التي أجلسُ فيها تتقلّص. قريباً ستغرق الغرفة في الظلام. دائماً يخشى المرء أنْ يكون الموت على هذه الصورة. ولكن ماذا يوجد غير هذا؟ مع رحيل جوليان، انطفأ النور، ولم يبقَ أمامنا الآن غير أنْ ندع الظلام يحلّ، ونأمل في شروقِ شمسٍ جديدةٍ ومجيء يومٍ آخر، مولود من لغز الزمن وحب الإنسان للنور.

من نيسان عام ١٩٥٩ - إلى ٦ كانون ثاني ١٩٦٤، روما.

- انتهى -

الهوامش

١ - تيتوس أوتس (١٦٤٩ - ١٧٠٥) : متآمِر إنكليزي ، خَطَّطَ لِما عُرِفَ بالمؤامرة الكاثوليكية (عام ١٦٧٨) من أجل اغتيال تشارلز الثاني ، وحَرق مدينة لندن ، وذبح البروتستانت . نتجَ عن قَسَمِهِ الكاذب إعدامُ عديدٍ من الكاثوليك الأبرياء .

٢ - المقصود القرن التاسع عشر .

٣ - شاؤول بيلو (ولد عام ١٩١٥) : روائي أميركي . حاز على جائزة نوبل للآداب .

٤ - من " ماغنا غريسيا " (اليونان العُظمى) : في العالم القديم كانت مجموعةٌ من المستعمرات أقامتها مدنُ اليونان في جنوب إيطاليا . - المترجم .

٥ - تاتشيرية : نسبةً إلى مارغريت تاتشر ، رئيسة الوزراء البريطانية السابقة .

٦ - روبرت غريفز (١٨٩٥ - ١٩٨٥) : شاعر وكاتب سير وروائي إنكليزي . له سيرة ذاتية شهيرة بعنوان " وداعاً لهذا كله " . - المترجم

٧ - الجزء الأول عنوانه " كلاوديوس الإله " .- المترجم

٨ - سويتينيوس (٧٥ - ١٦٠ م) : مؤرخ روماني .

٩ - مارتشيلينوس (٣٣٠ - ٣٩٣ م) : آخر المؤرخين الرومانيين الكبار ، ولد في إنطاكية من عائلة يونانية نبيلة ، ومات في روما .

١٠ - سوف يجده القارئ في أول ترجمتنا هذه . - المترجم

١١ - ثيودوريت (٣٩٣ - ٤٥٨ م) : لاهوتي سوري .

١٢ - سابور ، أو شابور أو شهبور : في التاريخ هناك أكثر من ملك يُدعى سابور . في الغالب ، المعني هنا هو سابور (٣١٠ - ٣٧٩) : ابن هرمز الثاني . اضطهَدَ المسيحيين وحارب البيزنطيين . لُقِّبَ " ذا الأكتاف " . وإنْ كانت الأوصاف الواردة هنا لا تنطبق عليه تماماً .

١٣ - كراتيس : أو كراتيس الطيبي (عاش في القرن الرابع ق .م) : فيلسوف كلبي . تلميذ الفيلسوف ديوجين .

١٤ - الكلبيّة : مدرسةٌ في الفلسفة تأسَّست في القرن الرابع الميلادي على يد أنتيسينس . تقوم على التشاؤم والسخرية .

١٥ - الميلوتية : نسبة إلى الكاتب أرستيدس ميليتوس (القرن الثاني ق .م) الذي جمعَ أو ألّفَ مجموعة من القصص تتسمُ بالمغامرة الرومانسية وبالإثارة الجنسية ، وأصبحتْ مدرسة تحملُ اسمه . - المترجم

١٦ - ديسيموس ماغنوي أوسونيوس (٣١٠ ؟ - ٣٩٥ ؟) : شاعر لاتيني . ولِدَ في بلاد الغال .

١٧ - موزيل : منطقة في فرنسا .

١٨ - بركليس : رجل دولة يوناني عظيم . ولِدَ حوالي عام ٤٩٢ ق .م

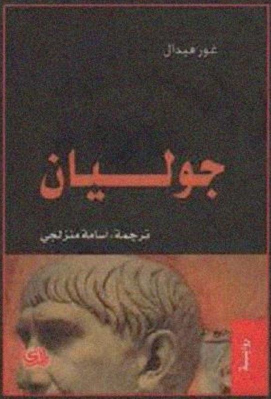
١٩ - الإليريين : نسبة إلى أرض إليريا ، وهي منطقة غير معروفة الحدود تقعُ على الشاطئ الشرقي للبحر الأدرياتيكي ، وتشمل أجزاءً من يوغوسلافيا السابقة وألبانيا . - المترجم

٢٠ - ثيوفراستوس (٣٧١ - ٢٨٧ ق .م) : فيلسوف يوناني .
٢١ - نيكوميديا : حالياً هي منطقة إزمت في تركيا . - المترجم
٢٢ - التريبيون : أحد أعضاء مجلس الشعب ، والمدافع عن حقوقهم .
٢٣ - الباروسي : نسبةً إلى جزيرة باروس اليونانية الشهيرة برخامها .
٢٤ - أثاناسيان : نسبةً إلى أثاناسيوس القديس (٢٩٦ ؟ - ٣٧٣ م) ، وهو بطريرك الإسكندرية . عارضَ مذهب آريوس
٢٥ كابادوسيا : منطقة تجارية كانت تقع في وسط السهل الشرقي من الهضبة التركية .
٢٦ - أفلوطين (٢٠٥ - ٢٧٠) : فيلسوف وزاهد وصوفي مصري ، تأثَّرَ بأفلاطون . مؤسس الأفلاطونية الجديدة . حاولَ التوفيق بين الفلسفة اليونانية والمعتقدات الدينية الشرقية . له " التاسوعات "
٢٧ - بورفايري (٢٣٣ - ٣٠٥) : فيلسوف يوناني .
٢٨ - السارماتيون : نسبة إلى سامارتيا ، وهي المنطقة التي تشمل بولونيا والأرض الواقعة بين نهريَ الفولغا وفيستولا في روسيا الحالية . - المترجم .
٢٩ - القسطور : موظف روماني قديم معنيٌ بالإدارة المالية .
٣٠ - برغامون : مدينة قديمة ، ازدهرت في القرن الرابع قبل الميلاد . حالياً هي بلدة برغاما في منطقة إزمير في تركيا .
٣١ - أديسيوس (ت ٣٥٥) : فيلسوف يوناني . فلسفته تؤمن بالسحر وبإمكانية تحقيق المعجزات بتدخُّل من أرواحٍ مقدَّسة وخيِّرة .
٣٢ - سارماتيا : حاليا هي منطقة تقع بين بولونيا وروسيا .
٣٣ - أسكليبيوس : إله الطب والصحة والحقيقة عند اليونانيين والرومان القدامى . - المترجم
٣٤ - الكلبي : واحد من مجموعة فلاسفةٍ يونان آمنوا بأنَّ الفضيلةَ هي الخير الأوحد وبأنَّ جوهرها ضبط النفس .
٣٥ - هليوس : إله الشمس في الميثولوجيا اليونانية .
٣٦ - ديميتر : في الأسطورة اليونانية ، هي إلاهة الزراعة والخصب وحامية الزواج والمرأة . وتقول الأسطورة أنَّ ديميتر أثناء رحلة بحثها عن ابنتها ، برسيفون ، توقفت في إليوسيس وكشفت لأهلها عن أسرار طقوسها . - المترجم
٣٧ - فريجيا : الاسم القديم لمنطقة غرب وسط آسيا الصغرى . - المترجم
٣٨ - سبتيموس سيفيروس (١٤٦- ٢١١) : جندي وإمبراطور روماني من ١٩٣ - ٢١١ . شنَّ حرباً ناجحة على البارثيين ، وأمضي الردح الأخير من حياته في بريطانيا .
٣٩ - سيبيل : في الميثولوجيا الإغريقية ، هي إلاهة الطبيعة ، الفريجيّة ، وأمّ الكائنات الحيّة كلها
٤٠ - هيكيت : ربة السحر والسحرة عند اليونان .
٤١ - غادرارا : مدينة في فلسطين القديمة . حالياً تقع في جنوب شرق بحيرة طبريّا تحت اسم أم القيس .
٤٢ - بورفيري : سبقت ترجمته .
٤٣ - ماركوس أورليوس (١٢١ - ١٨٠ م) : إمبراطور روماني (١٦١ - ١٨٠) ، وفيلسوف . له "تأملات" .
٤٤ - الأتيكية : لهجة أهل أثينا القديمة .
٤٥ - الأرغة : اللغة السوقية العامية التي يتكلّمها اللصوص والمشردون .
٤٦ - هادريان (٧٦ - ١٣٨ م) : إمبراطور روما (١١ - ١٣٨) ، خَلَفَ تراجان . قوّى حدود الإمبراطورية وشجَّعَ العلم والعمارة .
٤٧ تيميوس (عاش بين القرنَين الخامس والرابع قبل الميلاد) : فيلسوف يوناني .

٤٨ - آريوسي : نسبة إلى آريوس ، الكاهن الاسكندري (توفي ٣٣٦ م) ، وقال بأنَّ الابنَ (المسيح) غير مساوٍ للآب (الله) في الجوهر .
٤٩ - بولس الطرسوسي : القديس بولس ، الإنجيلي (١٠ق م ؟ - ٦٧ م ؟)
٥٠ هيدس : مستقر الأموات في الميثولوجيا اليونانية .
٥١ - هليوس : إله الشمس في الميثولوجيا اليونانية .
٥٢ - ميثرا : إله النور وحامي الحقيقة وعدو قوى الظلام عند الفرس .
٥٣ - أسكليبيوس : إله الطب عند اليونان .
٥٤ - هوراس (٦٥ - ٨ ق م) : شاعر لاتيني . له " قصائد غنائية " .
٥٥ - فرجيل (٧٠ - ١٩ ق م) : شاعر روماني . له " الإنيادة "
٥٦ - ثيوكريتوس (ولد قبل عام ٣٠٠ - توفي بعد عام ٢٧٠ ق م) : شاعر يوناني .
٥٧ - فلافيّ : أرستقراطي . نسبة إلى السلالة الفلافيّة الأرستقراطية التي أنشأها الإمبراطور فيسباسيان (١١- ٧٩ م) وولداه .
٥٨ - غاليّة : من بلاد الغال ؛ فرنسا . - المترجم .
٥٩ - الطيبيّة : نسبةً إلى مدينة طيبة الإغريقية القديمة . دمَّرها الإسكندر الكبير . - المترجم
٦٠ - إليريا : منطقة قديمة غير معروفة الحدود كانت تقع على الشاطئ الشرقي من البحر الأدرياتيكي ، وتضم أجزاءً من يوغوسلافيا السابقة وألبانيا . - المترجم
٦١ - بليني الابن (٦١ ؟ - ١١٣ م) : خطيب ورجل دولة روماني . له مراسلات شهيرة مع الإمبراطور تراجان (٥٤ - ١١٧) ومراسلات أخرى مع الأصدقاء والأقارب أعطت صورة ممتعة لعصره .
٦٢ - البازيليكا : قاعة رومانية الطِراز مستطيلة الشكل في أحد طرفيها جزءٌ ناتئ نصف دائري .
٦٣ - الأتيكي : الأثيني ؛ الإغريقي .
٦٤ - بركليس (ولد حوالي ٤٩٢ ق م) : رجل دولة إغريقي .
٦٥ - ألسيبياديس (٤٥١ ؟ - ٤٠٤ ق م) : قائد إغريقي .
٦٦ - بان : إله الغابات والمراعي عند الإغريق .
٦٧ - الساطير : إله إغريقي ، يرمز إلى الشَبَق وفرط الشهوة .
٦٨ - المأبون : الغلام الذي يُتَّخَذ لأغراض جنسية شاذة .
٦٩ - ماركوس فيبسانيوس أغريبا (٦٣ - ١٢ ق م) : قائد روماني .
٧٠ - هيفيستوس : إله النار والصناعات اليدوية والبراكين . كان قبيحَ الوجه .
٧١ - البوليوتريون : مقر مجلس المدينة .
٧٢ - الهلّينية : الحضارة الإغريقية القديمة ، بكل قيَمها وأسسها وعاداتها وأسلوب حكمها ومعتقداتها .
٧٣ - الكلبي : أحد أنصار الفلسفة الكلبية ، أو الساخرة .
٧٤ - سولون (٦٤٠ ؟ - ٥٥٨ ؟ ق م) : رجل دولة إغريقي .
٧٥ - البروقنصل : قنصل روماني مُدِّدَتْ ولايته بعد انقضائها .
٧٦ - الديماغوجي : هو الشخص الذي يُهيّج المشاعر الشعبية لتحقيق مكاسب سياسية .
٧٧ - الرواقي : هو الذي يؤمن بالتحرُّر من الانفعال وعدم التأثُّر بالفرح أو بالحزن ويخضع لحُكم الضرورة .
٧٨ - فاليريا ميسالينا (توفيت عام ٤٨ م) : زوجة الإمبراطور كلوديوس . كانت مشهورة بفسقها وقسوتها .

٧٩ - السَّبج : زجاج بركاني أسود اللون عادةً . - المترجم
٨٠ - الهيرفانت : رتبة كهنوتيّة في اليونان القديمة .
٨١ - بندار (٥١٨ - ٤٣٨ ق م) : شاعر غنائي إغريقي .
٨٢ - ألسيبيادس (٤٥١ ؟ - ٤٠٤ ؟) : قائد يوناني .
٨٣ - دهماوي : مُهيِّج أو خطيب شعبي .
٨٤ - برامق ، مفردها برمَق : الأشعة التي تربط مركز الدولاب بمحيطه . - المترجم
٨٥ - غالن ، كلوديوس غالينوس (١٣٠ ؟ - ٢٠٠ ؟ م) : طبيب وعالم في التشريح وفيزيائي يوناني . استمر تأثيره حتى عصر النهضة .
٨٦ - ثول : في الأصل ، في الحضارة الرومانية القديمة ، كانت أبعد مدينة مأهولة في شمال أوربا ، وبالتالي كانت تمثّل أبعد نقطة يمكن تصوّرها . - المترجم .
٨٧ - ماغنينتيوس : حاول أنْ يغتصب السيطرة على بلاد الغال ، وحين فشل انتحر في عام ٣٥٣ . - المترجم
٨٨ - هيرودوتوس (٤٨٥ ؟ - ٤٢٥ ؟) : يُلقَّب بأبي التاريخ ؛ مؤرِّخ يوناني . له " تواريخ "
٨٩ - الاسبرطي : كل ما هو اسبرطي يتَّصِف بالبساطة والاقتصاد والبُعد عن الترف ، وبضبط النفس والجَلَد . - المترجم
٩٠ - ابيكتيتوس (٥٥ ؟ - ١٢٠ ؟) : فيلسوف إغريقي .
٩١ - بسكويت البحر : في الأصل كان يأكله البحارة كوجبة أساسية فقيرة على متن السفن . ثم اصبحَتْ تُعطى للجنود .
٩٢ - سابور : ملك الفرس .
٩٣ - القسطور : موظف روماني قديم معنيّ بالإدارة المالية . - المترجم
٩٤ - فالنس : (٣٢٨ ؟ - ٣٧٨) : إمبراطور بيزنطي " ٣٦٤ - ٣٧٨ " . قُتلَ في إحدى المعارك . - المترجم
٩٥ - الكرتيد : تمثال لامرأة يوضع مكان العمود في البناء الروماني القديم .
٩٦ - الديماغوجي : الأسلوب المُهيِّج للجماهير العريضة . - المترجم .
٩٧ - ماركوس أورليوس (١٢١ - ١٨٠) : امبراطور روما (١٦١ - ١٨٠) ، وفيلسوف . له " تأملات "
٩٨ - سبتيموس سيفيروس (١٤٦ - ٢١١) : جندي وإمبراطور روما (١٩٣ - ٢١١) .
٩٩ - ميناندر (٣٤٢ ؟ - ٢٩٢ ؟ ق . م) : كاتب مسرحي يوناني هزلي .
١٠٠ - نوميدي ؛ نسبةً إلى نوميديا : بلدٌ قديم كان يقع في شمال أفريقيا . حالياً يُعادلُ بصورةٍ ما الجزائر . - المترجم
١٠١ - تيبريوس (٤٢ ق م - ٣٧ م) : إمبراطور روماني . كان شهوانياً فاسقاً .
١٠٢ - بورفايري (٢٣٢ - ٣٠٤) : فيلسوف يوناني .
١٠٣ - فرّيسيّة : أي مُرائية ؛ تنحو إلى التظاهُر والادّعاء . - المترجم
١٠٤ - السنودس : المجمَع الكَنَسي .
١٠٥ - قَبَلانيّة : له صِلة بفلسفة دينية سرّية .
١٠٦ - القديس سيبريان (٢٠٠ ؟ - ٢٥٨ م) : أسقف قرطاجة وشهيد . يوم الاحتفال به هو ١٦ أيلول .
١٠٧ - بيسينوس : حالياً في تركيا وتدعى باليهيسار ، أو باليهيشار .
١٠٨ - كارونيّ ، نسبةً إلى كارون : في الأساطير اليونانية هو قائد القارب الذي يحمل الموتى عبر نهر ستيكس إلى الجحيم .
١٠٩ - الآخيّة : نسبة إلى آخيا ، مقاطعة في أرض اليونان .
١١٠ - الأنبسط : أحد البحور (الأوزان) الشعرية .

١١١ – الصفائيون : أصحاب المذهب الصفائيّ ، الذي يدعو إلى البساطة والوضوح في كل شيء .
١١٢ – الأنزال ، جمع نُزُل : مثوى المسافرين ، أو فندق على الطريق .
١١٣ – السلالة السيلقية : سلالة مالكة حكمت سوريا خاصة وشرق المتوسط عامةً ما بين ٣١١ وحتى ٩٥ ق . م .
١١٤ – باريس : في الأساطير اليونانية ، هو ابن بريام آخر ملوك طروادة من زوجته هيكوب . والإلاهات الثلاث هن هيرا وأثينا وأفروديت .
١١٥ _أسكليبيوس : إله الشفاء عند الإغريق والرومان ، وابن أبولو .
١١٦ – مهقاء ، مذكر أمهق : ذو البشرة اللبنيةّ والشعر الأبيض والعينين الملونتين .
١١٧ – أسيبياد س (٤٥٠ – ٤٠٤ ق م) : رجل دولة وقائد أثيني في حرب البيلوبونيز . اتَّصَفَ بالذكاء وبالشجاعة .
١١٨ – ميثراداتس السادس الكبير (١٣٢ ؟ – ٦٣ ق م) : ملك بونتوس (بلد كان يقع في شمال شرق تركيا الحالية على البحر الأسود) . شن ثلاث حروب على الرومان . هَزَمَه بومبى أخيرا في القرن الأول قبل الميلاد . انتحر . – المترجم
١١٩ – زينوفون (٤٣٠ – ٣٥٥ ق م) : كاتب إغريقي . من مؤلفاته " أناباز " .
١٢٠ – المُجنَّقة : التي يقذفها المنجنيق .
١٢١ – ثراسي : ينتمي إلى منطقة تقع على الحدود التركية الأوروبية حالياً .
١٢٢ – زينوفون (٤٣١ – ٣٥٥ ق . م ؟) : مؤرخ وقائد عسكري يوناني . قاتل مع الفرس في كردستان وأرمينيا .
١٢٣ – ليديّة : نسبة إلى منطقة ليديا القديمة ، وكانت تقع على الشاطئ الغربي لآسيا الصغرى .
١٢٤ – ديونيزيوس : إله الخمر والخصب والنشوة الجَسَديّة عند اليونان ، ويقابله باخوس عند الرومان .
١٢٥ – جبل أولمبوس : في الأساطير الإغريقية ، حيث تُقيم الآلهة كلها .
١٢٦ – فريجيا : بلد كان يقع قديماً في وسط غرب تركيا الحالية .
١٢٧ – فسبلسيان (١١ – ٧٩ م) : إمبراطور روماني بين (٦٩ – ٧٩) .
١٢٨ – أوغسكين (٦٣ ق م – ١٤ م) : أول الأباطرة الرومانيين حكم بين (٢٧ ق م – ١٤ م)
١٢٩ – هادريان (٧٦ – ١٣٨) : إمبراطور روماني . حكم بين (١١٧ – ١٣٨)
١٣٠ – جون كريسوستوم ، أو القديس يوحنا فم الذهب (٣٤٥ ؟ – ٤٠٧ م) : بطريرك القسطنطينية خلال (٣٩٨ – ٤٠٤ م) . لُقِّبَ بفم الذهب لبلاغته . إليه تُنسب مراسم خاصة في الخدمة الدينية .
١٣١ – هيفيستوس : في الأساطير اليونانية ، هو إله النار الأعرج . يقابِلُهُ عند الرومان فولكانوس .
١٣٢ – هذه العبارة تصِفُ رسماً يسوع المسيح في الفن البيزنطي كخالق ومُخلِّص ، وتُمثّله وهو يرفع إحدى يديه وبالأخرى يحمل نسخة من الأناجيل . – المترجم



هذه سيرة شخصية للصبي المغمور الذي وصل الى قمة السلطة في الامبراطورية الرومانية ، ولكنها تكشف عن الوجوه المختلفة للصراعات الدامية في داخل الامبراطورية التي توسعت شرقاً،وكان على الامبراطور جوليان أن يقود المعارك العسكرية ويدير الصراعات السياسية التي تطحن الصغار والكبار ، كتبها غورفيدال بتشويق ومزاوجة بارعة بين الفن والتاريخ.

ISBN:2-84305-862-X
9 782843 058622